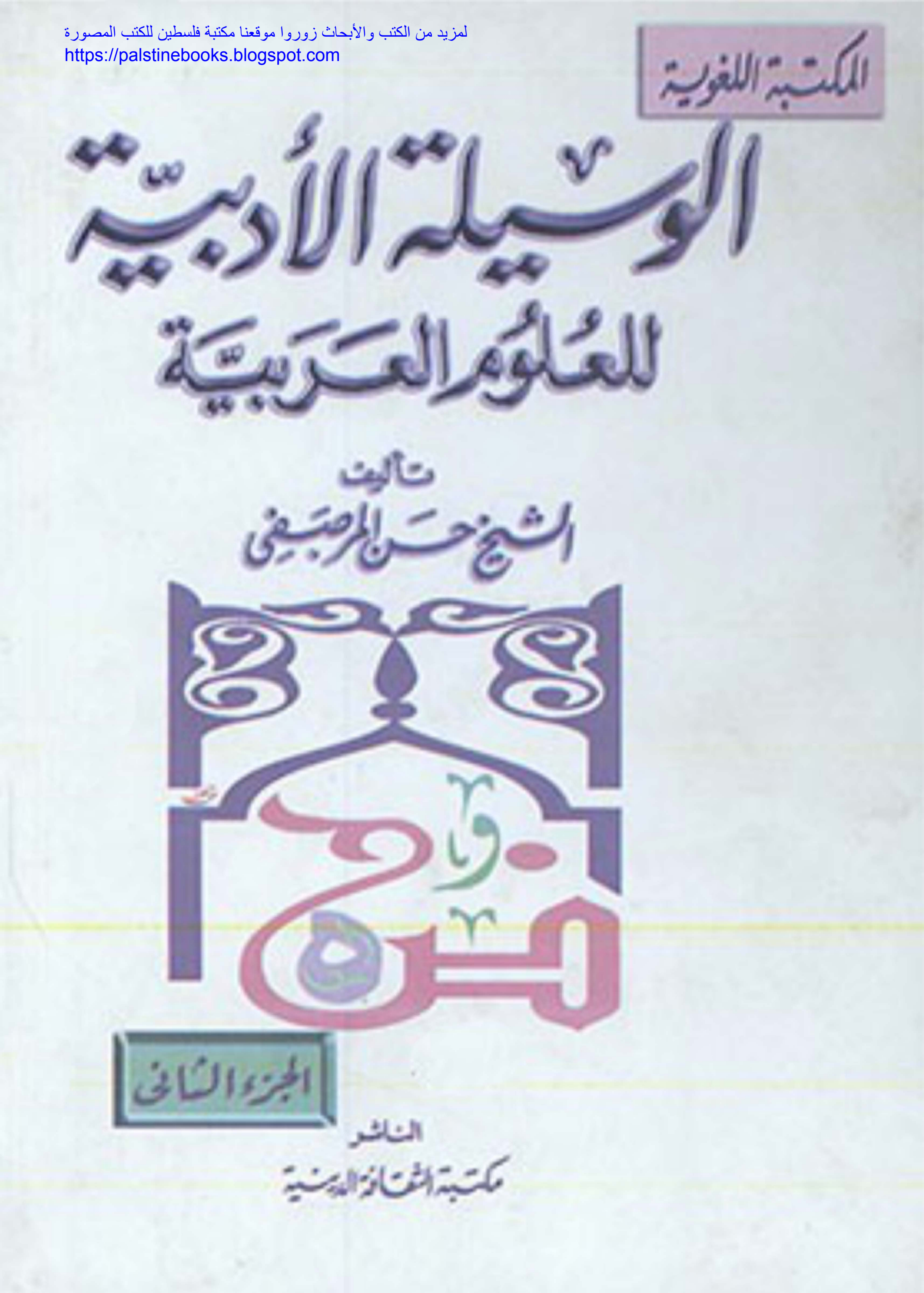

المكتبة اللغوية
الوسيلة الأدبية
للعلوم العربية
تأليف
الشيخ حسن المرصفي
الجزء الثاني
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

المكتبة اللغوية

الوسيلة الأدبية

للعلوم العربية

تأليف
الشيخ حسن المرصفي

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1433هـ-2012

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المرصفي ،حسين بن احمد حسين المرصفي ،000-1889
الوسيلة الادبية الى العلوم العربية / تاليف حسين المرصفي ،حققة وقدم له
محمد بن يوسف القاضي
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2012
مج2 ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-561-5
ا- اللغة العربية
2- الادب العربي
أ/ القاضي، محمدبن يوسف (محقق، مقدم)
- العنوان

ديوى:410

رقم الايداع: 2012/2959

المقصد الرابع في الكتابة وقرض الشعر والإنشاء

الكتابة: ويقال علم الخط القياسي في مقابلة خطين لا يقاس عليهما؛ وهما خط المصحف العثماني الذي تحرم مخالفته أو تكره على خلاف المذاهب في ذلك، وخط العروضيين عند بيان أوزان الشعر وهي فن معرفة الكتابة على الصورة المصطلح عليها؛ وبيان ذلك يحسن أن يكون في أربعة أبواب اتباعًا لمن اختص بفضيلة ضبط هذا الفن عن انتشار ومن كتابه المسمى بالمطلع النصرية تلخيص ما سنخلص رحمه الله تعالى الشيخ أبو الوفاء نصر الهوريني إمام عصره وحافظ وقته.

الباب الأول

في الهمزة والألف ونون التوكيد والتنوين ونون إذا وهاء التأنيث.

الكلام على الهمزة

الهمزة وتسميتها ألفًا يابسة نظر لتصويرها في بعض الأحوال إذا كانت أول كلمة رسمت مطلقًا ألفًا، ولا تكون حينئذ ساكنة لما ثبت في اللغة من عدم الابتداء بالساكن؛ بل إذا كانت ساكنة أول أصول كلمة وأريد الابتداء بكلمتها اجتلب لذلك الهمزة التي تسمى همزة الوصل مثل: أؤمر أنت، ولهذه الهمزة في الرسم أحوال فترسم ألفًا بعد الفاء والواو ونحو: فأمر وأت وبعد غيرهما فإن كانت همزة الوصل مضمومة مثل: أو مر رسمت همزة الكلمة واوًا، وإن كانت همزة الوصل مكسورة نطق بها أو لم ينطبق رسمت ياء مثل: ثم ائتوا، وإذا وقعت حشوًا فإن كانت ساكنة

رسمت حرفًا من جنس الحركة السابقة عليها فترسم ألفًا نحو رأس وياء في نحو: بئر، وواوًا في نحو: نؤى وسؤل، وإن كانت مكسورة رسمت ياء وفي الواقعة بعد ضمة خلاف بين سيبويه وتلميذه الأخفش؛ فالأخفش يقول برسمها واوًا حينئذ، واستحسن بعضهم الجرى على مذهبه إذا وقع بعدها ياء وإن كانت مضمومة رسمت واوًا مثل رؤف، وإن كانت مفتوحة رسمت بعد فتحة ألفًا مثل: رأس القوم صار لهم رئيسًا وبعد كسرة ياء مثل: فئة ومئة، وبعد ضمة واوًا مثل سؤال وفؤاد، وبعد سكون ترسم ألفًا إن كان الساكن صحيحًا وإلا حذفت إن لم يحصل لبس فترسم ألفا للتمييز.

تنبيه: الهمزة الواقعة بعد همزة الاستفهام في نحو: أنبئ أأنزل أأسجد أئفكا أئذا، والواقعة بعد اللام الموطئة نحو: لئن جئت، وبعد حين وأمثاله في: حينئذ ويؤمئذ وهمزة لئلا دون لأن جاء مثلًا وهمزة هؤلاء على خلاف في بعض ذلك تنزل منزلة المتوسطة فتجرى عليها أحكامها فترسم المضمومة واوًا وترسم المفتوحة ألفًا بعد فتحة وياء بعد كسرة، وترسم المكسورة ياءً، وإذا وقعت آخر الكلمة فإن تلت فتحة رسمت ألفًا: كقرأ ويقرأ، وإن تلت كسرة رسمت ياء كبرئ ولم يجيء وإن تلت ضمة رسمت واوًا كوضوء لؤلؤ، وإن تلت سكونًا لم تصور؛ لكن قال صاحب أدب الكاتب: إن همزة نحو رأى ونأى من المنقوص ترسم ياء، وهذا إذا لم يتصل بالكلمة علامات الإعراب الحرفية ولا إحدى الياءآت الثلاث: ياء المتكلم وياء المخاطبة وياء النسب، ولا الضمائر المتصلة فإن اتصل بها شيء من ذلك عدت حشوًا وحينئذ إذا اتصل بالتي ترسم ألفًا ضمير فالمتقدمون كانوا يرسمونها حرفًا من جنس حركتها نفسها، والمتأخرون يرسمونها ألفًا ولا يعتبرونها متوسطة كيقرؤه ويملؤه، ومن بنائه ومن

خطائه قيل: والراجح مذهب المتقدمين وإذا اتصل بنحو: قرأ ويقرأ ألف الاثنين رسمت الهمزة ألفًا لدفع اللبس بفعل الواحد في نحو: الزيدان قرأ ليخالف الزيدان قرأ أخوهما وبفعل الإناث، وإذا ثنى نحو نبأ لم ترسم ألفه وإذا اتصل بها واوًا لضمير أو واوًا لجمع حذفت كقرؤوا ويقرؤن وقارؤن، وإذا اتصلت بياء المخاطبة كتبت ياء نحو: لم تقرئي وإذا اتصلت بياء المتكلم أو بياء النسب نحو: ملجئ وسبئ نسبة إلى سبأ فحقها إن ترسم ياء والجاري كتبها ألفًا، وإذا اتصلت بياء الجمع كقارئين وناشئين رسمت ياء، وإذا اتصل بالتي تكتب ياء ضمير تتغير معه حركاتها الإعرابية لم يتغير رسمها كقارئنا ومنشئكم، وكذا إذا اتصل بها ألف الاثنين أو ألف التثنية، وكذا إذا اتصل بها واو الضمير أو واو الجمع حذفت، وإذا اتصل بها ياء المتكلم أو ياء المخاطبة عند رفع الفعل حذفت أيضًا، وعند نصبه وجزمه قيل: ترسم وقيل: تحذف، وإذا اتصل بالتي تكتب واوًا ضمير نحو أخذت من لؤلؤك ولتكافؤهم رسمت واوًا على المختار، وإذا اتصل بنحو: ردء وبطء وألف الاثنين أو ثنى نحو: لؤلؤ أو اتصل بنحو: وضوء واو الجماعة رسمت الهمزة واوًا أيضًا، وكذا إذا اتصل بنحو لؤلؤ ياء المتكلم أو ياء النسب، وإذا اتصل بالتي تحذف ضمير صورت بحرف من جنس حركتها فترسم واوًا في مثل حرم وطؤها وياء في مثل خذه بملئه وألفًا في مثل: رأيت الجيش ورداه وإذا ثنيت نحو جزء صورت الهمزة ألفًا مع الياء فقط، وإذا اتصل بنحو جزء ياء المتكلم أو ياء النسب رسمت الهمزة ياء، وإذا اتصل بنحو جاء ضمير المفعول لا ترسم الهمزة ألفًا، وكذا تحذف الهمزة من نحو جاء وشاء حيث يسند لواو الجماعة، وإذا أضيف نحو كساء ورواء إلى ضمير أو اتصل به ياء النسب صورت الهمزة

بحرف من جنس حركتها الإحالة انصب فتحذف فترسم واوًا في نحو: هذا كساؤك، وياء في نحو كسائي وكسائه والكسائي.

وإذا اتصل بنحو يجيء ويفيء من أفاء ضمير المفعول لم ترسم الهمزة، وكذا إذا ثنى نحو مجيء وكـا في أمر المخاطبة بنحو جيئ وفيئ، وإذا أضيف مثل وضوء وقروء لضمير كوضوئي وقروئهن رسمت الهمزة ياء حال جره، ولم ترسم حال رفعه ونصبه، وإذا أضيف نحو شيء وفيء لم تصور همزته أصلًا.

والهمزة الواقعة قبل هاء التأنيث قيل: إنها متطرفة تقديرًا لأنهم يقولون: إن هاء التأنيث في تقدير الانفصال وكأنها كلمة مستقلة وترسم ألفًا إن كان قبلها حرف صحيح وإلا حذفت.

الكلام على الألف

الألف إن كانت حشوًا ولو تقديرًا بأن كان بعدها هاء التأنيث أو كانت طرفًا في الحروف أو في الأسماء المبنية رسمت ألفًا إلا في بلى وعلى وإلى وحتى من الحروف، فترسم ياء لقولك عليك وإليك وإمالة بلى، وحمل حتى على إلى وإلا في لدى ومتى وأنى التي بمعنى كيف أو من أين وإلى الموصولة وأولى الإشارية من الأسماء المبنية فترسم ياء أيضًا، ومهما على القول بأنها بسيطة وضعًا والجاري رسمها ألفًا وإن كانت طرفًا في الأسماء المعربة أو الأفعال رسمت ياء لأحد مقتضيين؛ الأول أن تزيد على ثلاثة أحرف ولو بالتضعيف نحو جلى مضعف جلا، الثاني أن تكون منقلبة عن ياء ويعرف ذلك بالنقل، ويسهل معرفته النظر لتثنية الكلمة وجمعها جمع تأنيث وإلى المضارع في الأفعال والمصدر ويمنع من

كتابتها ياء أمران؛ الأول أن تسبقها ياء كيحيا فترسم ألفًا إلا إذا جعل علمًا فترسم ياء على القاعدة، والثاني أن يتصل بها ما يجعلها حشوًا كالضمير في إعطاء إحداهن، وبمقتضى ما فعلت وحتام وإلام استفهامًا وحتاك وحتاه هذا.

وإذا وقع ما يرسم ياء في شعر وسجع على الألف فالأحسن كتبه ألفًا للمشاكلة والكلمات التي وردت مقصورة وممدودة يجوز كتب مقصورها بالياء أو الألف وفي المقصور إذا نون خلاف، ومذهب سيبويه رسمه بالألف نصبًا، وبعض النحاة يرى رسم الألف ألفًا مطلقًا تبعًا للفظ، وليته جرى العمل على ذلك، فقد أوقع هذا الرسم الاصطلاحي في غلط كثير فتسمع الناس مثلًا يقولون: من لدي الحضرة، ورسمت ألفًا لأحد مقتضيين أيضًا الأول: أن تكون منقلبة عن واو كتلا ودعا من الأفعال وعصا ومها من الأسماء، والثاني أن تكون في كلمة أعجمية أو في كلمة عربية مجهولة الأصل كالدد اللعب وخسا وزكا للفرد والزوج؛ ولكن جوزوا كتب مثل هذا ياء أيضًا، وإذا سبق هذه الألف همزة نحو: شأى وبأى بمعنى افتخر رسمت ياء.

الكلام على نون التوكيد ونون إذا والتنوين

ترسم نون التوكيد الخفيفة ألفًا إلا عند خوف اللبس نحو: لا تضربن زيدا أو أضربن عمرًا إذا أمرت واحدًا من اثنين، وترسم نون إذا بالألف على اختيار بعض، وبالنون على اختيار بعض آخر، وبالألف عند عملها وبالنون عند إلغائها أو بالعكس على اختلاف النقل في اختيار بعض آخر، وإذا هذه هي الجوابية الواقعة في قولك إذا تصيب جوابًا لمن يقول: أريد

أن أفعل كذا، وأما التنوين فلا يصور في الكتابة الإ حالة النصب فيصور ألفًا إن لم يكن بعد تاء تأنيث أو همزة ترسم ألفًا، أو همزة تحذف لوجود ألف قبلها كعطاء وجزاء.

الكلام على هاء التأنيث

هي تاء التأنيث التي تمنع الصرف في الأعلام، ويوقف عليها بالهاء كتاء فاطمة وطلحة وراوية وعلامة وخليفة وعدة، فترسم بالهاء بخلاف تاء التأنيث من أخت وبنت.

الباب الثاني في زيادة حروف

تزاد الألف أولا وهي همزة الوصل التي سبق بيان مواضعها وحشوًا في لفظ مائة على خلاف في ذلك، وهذا الرسم أوجب غلط الناس في النطق بالكلمة ماية كغاية وطرفًا بعد واو الضمير المتطرفة من نحو: كتبوا واكتبوا ولم يكتبوا وتزاد الواو حشوًا في أولى الإشارية وأولو وأولات اللذين بمعنى أصحاب وصاحبات وطرفًا في لفظ عمر وعلمًا غير منصوب ولا مضاف لضمير ولا قافية بيت، ولا مزيد فيه أل وتزاد هاء السكت في مواضعها.

الباب الثالث في حذف بعض الحروف

تحذف الهمزة من نحو تثاءب ماضيًا وجاءه وكساء منصوبًا، ومن نحو سموءل وتوءم بفتح الهمزة وسكون الواو، ومن نحو ضوءه ووضوءه في غير حالة الكسر، ومن نحو جيئل بفتح الهمزة وسكون الياء وبئس بكسر

الهمزة، ومن نجو شيئك وفيئك، ومن نحو قرؤا ويقرؤن ورؤس جمع رأس، ومن نحو دعاء وفجاءة ومن نحو وضوء وضوء وسوءة وشنوءة بفتح الشين وسكون الواو وضم النون، ومن نحو هنئ وشيء وخطيئة وهيئة، ومن نحو تراآه ويسوؤن ولا تسيئ يا هند، ومن نحو إسرائيل من نحو باءوا وجاءوا ومن نحو السوءى، ومن نحو لم يبوآ ومن نحو لم يجيئا ولم يفيئا ومن نحو الموءودة ومن نحو فيء قالوا القياس حذفها في تراآه وما بعده، والعمل الآن على عدم حذفها في مثل فيء من هذا فيئ، وتحذف همزة الوصل من أل إذا دخل عليها همزة الاستفهام، ولم يكن لبس وإذا دخل عليها اللام الحرفية خافضة أو غيرها كما تحذف من بلعنبر وبلحارث اللذين أصلهما بنو العنبر وبنو الحارث، وفي لغة من يقول: ملماء وعلماء في من الماء وعلى الماء وتحذف همزة الوصل أيضًا من نحو اصطفى واستخرج فعلين واصطفاء واستخراج مصدرين إذا دخلت عليه همزة الاستفهام، وتحذف من لفظ اسم إذا دخلت عليه همزة الاستفهام، ومن بسم الله الرحمن الرحيم إذا لم يذكر متعلق مقدمًا أو مؤخرًا ومن لفظ ابن إذا دخلت عليه همزة الاستفهام أو يا الندائية، ومنه ومن ابنة إذا وقع كل منهما صفة لعلم شخصي أو جنسي وأضيف لعلم كذلك ولو تنزيلًا ولم يكن لفظ ابن أو ابنة أول سطر كأنس بن مالك ومالك بن أنس ومحمد بن مالك وفلان أو فلانة بن أو ابنة فلان أو فلانة، وضل بن ضل وهي بن بي لمن لا يعرف أبوه، ومحمد بن الخطيب وأبو بكر بن أم جعفر، وتحذف الألف من نحو آدم وآثر ومآل، ومن نحو السموات، ومن لفظ الله والإله وإله العالم، ومن لفظ الرحمن معرفًا كسابقه دون النكرة منهما، ومن لفظ الحارث والسلام معرفين أيضًا ومن كل علم على وزن فاعل كملك وصلح بخلاف الأوصاف كرجل صالح

مالـك، ومـن بعـض الأعـلام المـشتهرة كـإبراهيم وإسـماعيل وإسـحاق ومعوية، ولا تحذف لخوف اللبس من نحو عباس ولا من نحو إسرائيل؛ لوجـود حـذف فيـه فـلا يجمـع فيه حـذفان، وتحـذف مـن لفـظ ثـلاث في ثلثمائة وثلث نسوة وثلث رجـال وثلث وثلاثين، ومن لفظ الثلاثا اسم اليوم، وتحذف جوازًا من نحو ثماني ليال إن لم تحذف الياء وإلا وجب إثباتها كقوله:

لهـــا ثنايـــا أربـــع حـــسان وأربـــع فثغرهـــا ثمـــان

وتحذف من لفظ لكن مخففة أو مشددة، وتحذف من ما الاستفهامية التي لم تركب مع ذا مخفوضة بحرف أو مضاف مثل على مه وبمقتضى مه، ومما الموصولة في نحو بما شئت فقط، ومن لفظ أما إذا وقع بعدها القسم مثل: أما وأبيك، وتحذف من ذا الإشارية وياء الندائية وأنا ضمير المتكلم وها التنبيهية مع اسم إشارة ليس أوله تاء ولا هاء ولا بعدها كاف مثل هذا وهذان وأي هذا بخلاف هاتا وهاهنا وها ذاك ومن لفظ هالله وآلله في القسم، ومن ها أنا وها أنت لا من هاهو وهاهي، ولا تحذف ألف ذا إلا مثنى أو مع لام التبعيد، ولا تحذف ألف أنا الضمير إلا في هاء نداء، وتحـذف ألـف يـا الندائيـة فـي يائيهـا ويأهـل ونحويـا إبـراهيم ويـا إسـحاق بخلاف نحويًا آدم ويا آزر مما حذف ثانيه وتحذف ياء المنقوص كقاض ومفـت منكـرًا غيـر منـصوب ولا مـضاف، وتحـذف الـواو مـن لفـظ داود وطاوس وناوس ونحو رؤس، ولا تحذف من مثل قؤول وصؤول على فعول للمبالغة لدفع اللبس بقول صول مصدرين، وتحذف لام من الثلاث في نحو لم يخلق الإنسان للعب ولا للهو وقوله صلى الله عليه وسلم لله: «أرحم بالمؤمن» بفتح اللام وهي لام الابتداء كما تحذف من الموصلات تكتب بلامين إذا دخل عليها لام الخفض أو لام الابتداء، وتحذف التاء

من آخر الفعل إذا أسند لتاء الفاعل نحو لعنتم، وتحذف النون من آخر الفعل إذا اتصل بكلمة نا الفاعل أو نون النسوة أو نون الوقاية في نحو: آمنا والنسوة بن وأعني ولم يمكني، وتحذف النون أيضًا من كلمتي من وعن الجارتين إذا اتصل بهما ما أو من، وتحذف نون إن الشرطية إذا اتصل بها ما الزائدة أو لا النافية، وتحذف نون إن المصدرية حيث تكون ناصبة إذا اتصل بها ما أو لا، وتحذف من نعما في نحو: {إن تبدو الصدقات فنعما هي}.

الباب الرابع في وصل بعض الكلم ببعض على خلاف الأصل الذي هو الفصل ليناسب الخط اللفظ

إذا كانت الكلمة من حرف واحد كباء الجر ولامه ولام الابتداء وصلت بما بعدها؛ وذلك لأنه لا يصح الوقف عليها وابتناء الكتابة على الوقف والابتداء، ولذلك وجب وصل الكلمات التي لا يصح الابتداء بها بما قبلها كالضمائر البارزة المتصلة وعلامات التأنيث والتثنية، فكل ما لا يوقف عليه وما لا يبدأ به يوصل به بعده وبما قبله، ولو صارت الكلمة بالتصرف على حرف واحد كالأمر من وقى ومن وعى فإنه يوصل بما بعده إن كان ضميرًا لعدم صحة الوقف عليه وعدم صحة الابتداء بالضمير؛ فيكون الوصل في مثله لمقتضيين فلو وليه اسم ظاهر وجب أن تلحقه هاء السكت ويلفظ بها وقفًا لا وصلًا إلا إذا أجريت وصل مجرى الوقف فلك الوجهان في النطق بقول الشاعر:

فــه بــالعقود وبالإيمــان لاســيما   عهـد وفـاء بـه مـن أعظـم القـرب

ويجب وصل المركبات المزجية كبعلبك ومعد يكرب وقالي قلى وليس منها الإعداد المركبة كخمسة عشر فلا توصل نعم وصلوا ثلاث مئة إلى تسعمائة وألحق بالمركبات المزجية باب يؤمئذ إذا لم تضف كلمة؛ إذ كما سبق التنبيه على رسمه وينبغي أن يتنبه للضمير الواقع بعد الكلمة هل هو منفصل أو متصل لاختلاف الحال في الكتابة فليس حال يومهم على النار يفتنون مثل حال يومهم الذي يوعدون وتوصل ما الاستفهامية بحرف جر وبمضاف نحو: مم وعم وفيم وبمقتضى ما فعلت كذا وتوصل ما الموصولة وما النكرة بمن وفي وعن فقط وتوصل ما الزائدة كافة وغير كافة مهيئة وغير مهيئة بما قبلها إلا في إيان ما ومتى ما كقلما وطالما وإنما وكأنما وربما وبما وأيما وتوصل ما المصدرية في كلما جئتني أكرمتك وأينما صنعت ومثلهما لا في مثل أن ما صنعت معجب، وضابط الوصل أن يكون معنى شرط أو استفهام وتوصل ما المصدرية بكلمة سي بمعنى مثل في قولهم لاسيما وبكلمة مثل من نحو أسلمنا مثلما أسلمتم وبكلمة ريث كما في قول الشنفرى:

ولكن نفسًا حرة لا تقيم بي ... على الضيم إلا ريثما أتحول

مصدر راث أي بطأ ما فهو من المصادر الواقعة ظروفًا بالنيابة عن المضاف المحذوف؛ أي وقت ريث التحول وتوصل كلمة من شرطية أو غيرها بحرفي من وعن فقط مثل ممن أنت ورضيت عمن رضيت عنه فلا ترسم النون بين الميمين وتوصل كلمة لا بهمزتي أن الشرطية وأن الناصبة للفعل سواء صورتا ألفًا أو ياء على ما سبق هذا، ولما كانت الحروف الهجائية إنما تدل على مادة اللفظ مست الحاجة لوضع علامات لبيان الحركات تسمى شكلًا كما أنهم لما اصطلحوا على تصوير بعض الحروف بغير صورها الأصلية أو عدم تصويرها احتاجوا أيضًا لعلامات

تدل على المادة مثلًا العلامة التي تسمى قطعة توضع فوق الهمزة القطعية والأحرف المصورة بها الهمزة وموضع الهمزة التي ليس لها صورة كما أن الأحرف لما اشترك بعضها في الصورة لزم النقط لتمييز بعضها من بعض؛ ولم يكن ذلك إلا بتنبيه التحريف والتصحيف، ومع الداعي إلى هذا الاحتراسات فربما لم يحافظوا عليها بل هو الأكثر ولذلك فسدت اللغة العربية، وكانت هذه الاصطلاحات غير مفيدة إفادة الضبط الذي كان يلزم لحفظ صورة اللغة ومعرفة المنقوط من غيره من التعاليم الأولية؛ غير أن الاصطلاح الرسمي يوجب التنبيه على أن هاء التأنيث لا يجوز نقطها إذا وقعت طرفًا في سجع أو قافية وفي غير ذلك يجب نقطها بنقطتي التاء عند خوف اللبس والإجاز الأمران وأن الياء إذا وقعت طرفًا أو وسطًا بدلًا عن همزة لا تنقط كالفاء والقاف والنون إذا وقعت طرفًا، أو إذا كانت الياء وسطًا محققة كمعايش وجب نقطها، وإذا كانت بدل همزة بعد كسرة ساكنة أو مفتوحة: كبئر ومئة جاز فيها الأمران.

كتابة الإنشاء ويقال صناعة الترسل

وهي المسماة في زماننا كتابة التحريرات؛ أي الإتيان بالحر من الكلام في مقابلة كتابة الأموال المسماة إلا آن كتابة الحسابات وهي تأليف كلام بأي لسان متميز عن المعتاد في غرض من أغراض الشركة الإنسانية وهي صناعة تقوى بقوة الدولة وتتسع باتساع أحوالها وعموم نشوة الفرح بين الناس؛ لأن أهل الصناعة إذ ذاك يشتغلون بابتداء المكاتبات عن أمرائهم والإجابة عنهم وتدور بينهم المخاطبات في التهاني والتشكرات والتسليات والشفاعات والاستعطاف والعتاب والاعتذار إلى غير ذلك من المعاني، وقد بلغت الكتابة العربية حيث كانت الدولة عربية والأيام في

إقبالها مبلغًا جازته الكتابة التركية حيث قامت دولتها كما نطق بذلك عقلاء العارفين باللسانين وينبهك على شرف كتابة الإنشاء ما ناله أهلها من الرفعة ونباهة الذكر؛ فقد كان اسم الوزير في الدولة العباسية وما قارنها من الدولة الإسلامية مختصًا برئيس ديوان الرسائل وهو الديوان المعين لكتابة الإنشاء المسمى في زماننا بالمعية السنية، فمن اشتهر بهذه الصناعة وكان وزير دولته ومدبر أمرها الربيع والفضل ابنه وبنو برمك يحيى وابناه الفضل وجعفر، وبنو الفرات وغيرهم في الدولة العباسية، والأستاذ ابن العميد والصاحب ابن عباد إسماعيل وغيرهما في سلطة بني بويه، وعبد الرحيم المشهور بالقاضي الفاضل، والعماد الأصبهاني في سلطة بني أيوب، وابن زيدون ولسان الدين ابن الخطيب بالمغرب، كل أولئك سادوا بصنعة الكتابة وعلت أقدارهم حتى ألفت الكتب في ذكر مناقبهم وأخبار أيامهم، ونقل اسم الكتابة إلى الفن المتعلق بها المعدود في فنون الأدب وعلوم العربية، وهذا الفن عبارة عن تنبيهات ترشد من يريد أن يتعلم تلك الصناعة وليس كغيره من الفنون ذا قواعد مضبوطة بمعرفتها تكون نهاية العلم بها، فإن لمن يريد أن يتعلم الإنشاء في كيفية التعلم، كما قاله ابن الأثير (طريقتين): إحداهما أن يحفظ القرآن ويفهم معناه وجملة من الأحاديث والآثار والأشعار، مع تحصيل ما يلزم تحصيله من الفنون السابقة، ثم يجتهد في الإنشاء على نحو أساليب الكلام الذي حفظه؛ فتارة يصيب وتارة يخطئ حتى يحكم لنفسه طريقة قال: وهي أصعب الطريقتين. (الطريقة الثانية): أن يزيد على ما تقدم الاطلاع على منشآت من تقدمه وحفظ الكثير منها واستعمال الفكر في انتقاد تراتيبها واختيار ما اختير في ابتداآتها وانتهاآتها، ثم يأتي بما قدر عليه من اتباع أو

اختراع، إذا وعيت ذلك فاختصار ما أطال به المؤلفون في هذا الفن على تفاوتهم في ذلك يحسن أن يكون في ثلاث جهات:

الجهة الأولى: في ذكر ما يلزم تحصيله لمن يريد أن يكون منشأ.

الجهة الثانية: في أمور كلية.

الجهة الثالثة: في ذكر طرف من طرائف منشآت أذكياء أهل الصناعة.

الجهة الأولى

فيما يجب تحصيله على من يريد أن يكون كاتبًا حسب ما كانت تقتضيه أحوال الأزمنة السالفة يجب عليه أن يتوسع في حفظ منتقيات اللغة فاصلًا بين مشتركها ومختصها ومتباينها ومترادفها ومتكافئها ومطلقها ومقيدها، ملاحظًا مجازاتها وكناياتها حتى إذا دفع لصفة خيل وسلاح وجيش أو صورة حرب، وكيف بدأت وحمي فيها الوطيس وانتهت، والنصر والهزيمة أو صفة غلمان وجوار أو حيوانات وحشية أو غير وحشية إلى غير ذلك من المعاني التي يعرض للكاتب أن يصفها ويتسع في الكلام عليها -لم يعجز أن يأتي بالعبارات الدالة على حقيقة الغرض الذي أخذ في تفهيمه، وأن يجيد معرفة النحو حتى يأمن بملاحظته حين يقرأ وحين يكتب من اللحن، وقد كانوا يستقبحون اللحن جدًّا حتى أن بعض الملوك كالمأمون أبعد بلحنة عن الخدمة وقيل:

النحو يبسط من لسان الألكن ... والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها ... فأجلها عندي مقيم الألسن

وإن يكن قد تغير الحال في ذلك حتى أنه يحكى أن كاتبًا كتب في صدر كتاب يخبر فيه عن تمام برج أمر السلطان ببنائه قد نجز ما أمر به أبو فلان، فلما سمعه الأمير المأمور بذلك العمل غضب على الكاتب وقال له: تقول عن السلطان أبو وهي كلمة مبتذلة بألسنة العامة، قل: أبي فإنها المناسبة للتعظيم، فقال له الكاتب: أبو فاعل حقه الرفع فقال الأمير: وهذا أعجب متى رأيت السلطان يحمل طينًا أو حجرًا حتى تقول: إنه فاعل؛ فإن ذلك لا يمنع من تحصيل الفضيلة التي بها الشرف بين أهل الفضل، وأن يعرف التصريف حتى يأمن من الخطأ في مثل أبنية المصادر والمصدر الميمي واسم المكان واسم الزمان والتأنيث والتذكير والتثنية وصيغ الجموع والتصغير والنسب، وأن يحصل علوم البلاغة ليستعمل كل حال من أحوال التراكيب في موضعها ويعرف متى تحسن الاستعارة والكناية والمجاز، وكيف يستعمل المحسنات البديعية. قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه حسن التوسل إلى صناعة الترسل: وهذه العلوم الثلاثة وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب والطبع السليم والقريحة المطاوعة والفكرة المنقحة والبديهة المجيبة والروية المتصرفة، لكن العالم بها يتمكن من أزمة المعاني وصناعة الكلام يقول عن علم ويتصرف عن معرفة وينتقد بحجة ويتخير بدليل ويتسحسن ببرهان ويصوغ الكلام بترتيب، فقد أبان رحمه الله تعالى عموم الحاجة إلى معرفة هذه العلوم ولم يقف عند استغناء الأذكياء عنها كما فعل ابن السبكي رحمه الله في خطبة كتابه عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح حيث قال: أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم والأذهان التي هي أرق من النسيم وألطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم أكسبهم النبل تلك الحلاوة، وأشار إليهم

بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء؛ فضلًا عن الأغمار الأعمار، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار:

والسيف ما لم يلف فيه صيقل ... من طبعه لم ينتفع بصقال

فيا لها غنيمة لو يوجف عليها من خيل ولا ركاب ولم يزحف إليها بعدو عيذية ولا بلحاق لاحق وانسكاب سكاب وأراد أكرم الله مثواه وأبلغه وافر حظه من رضاه أذكياء أهل مصر وجاراه في ذلك أبو العباس أحمد القلقشندي حيث نقل ذلك في كتابه صبح الأعشى وأورد استشهادًا على ذلك بعض كلام من كلام عوامهم كقول بعضهم في الزجل:

قف نقولك يا فهيم ... ما صنع وجد لغزال

أرخ ليل شعر لبهيم ... وتلثم بالهلال

وكشف ذاك للثام ... ورفع ليل لشعر

اهتتك فيه بالغرام ... كل ما كان استتر

ويراعى في النطق بالزجل اللحن المعتاد لحفظ الوزن، ووزن هذا الزجل فاعلاتن فاعلات، وأن يحفظ القرآن الشريف متأملًا مقاصد فصوله ومواقع آياته بعضها من بعض وحسن الارتباط بينها حتى يكون له نورًا يهتدي به في طريقه التي يريد أن يسلكها، وبعد ذلك فإنه يستشهد بآياته بعد المقارنة بينها وبين الأغراض التي يحاول إنشاء الكلام لأجلها على ما شاء من المعاني ويحلى كتبه بالاقتباس منه في مواضع الاقتباس على ما سبق التنبيه له في علم البديع، ويعتبر حسن الاقتباس بمثل قوله صلى الله عليه وسلم على ما حكاه في تاريخه القاضي أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب لأكثم بن صيفي، وقد كتب له عليه الصلاة

والسلام يستعمله عن أمره حين شاع ذكر مبعثه، وهذا نص الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفي، أحمد الله إليك ،إن الله أمرني أن أقول لا إله إلا الله أقولها وآمر الناس بها والخلق خلق الله والأمر أمر الله، خلقهم وأماتهم وهو يبشرهم ولتعلمن نبأه بعد حين» وقول أبي بكر رضي الله عنه في عهده بالخلافة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر، أني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برَّ وعدل فذاك علمي به، وإن جار وبدل فلا علم بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأن يحفظ كثيرًا من صحاح الأحاديث للأغراض التي لأجلها يحفظ القرآن، وأن يقرأ التواريخ التي يغلب عليها التحقيق كتاريخ الخطيب البغدادي وتاريخ الحافظ الذهبي وتاريخ ابن الأثير ليحكم في الوقائع بحكم نظائرها ويعرف الأحوال الحاضرة بمعرفة أمثالها الغابرة، وأن يحفظ كثيرًا من الأمثال العربية وغيرها والأقوال الصادرة عن الحكماء؛ فإنها خزائن الحكم ومستودعات المعاني ومنها تعرف حسن الإيجاز وبراعة العبارات، وحيث كنت آخذًا في التعلم وجب أن نورد لك هنا زيادة على ما سبق في البديع شيئًا من الأمثال والحكم لتكون لك داعية لطلب مثلها من مواضعها؛ فمن الأمثال العربية: «إن من البيان لسحرًا» قاله النبي صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه عمرو بن الأهتم والزبرقان ابن بدر وقيس بن عاصم، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهتم عن الزبرقان فقال عمرو: مطاع في أدنيه شديد العارضة؛ أي البيان واللسن، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: يا رسول

الله، إنه ليعلم مني أكثر من هذا؛ ولكنه حسدني. فقال عمرو: أما والله إنه لزمر المروءة -أي قليل ضيق العطن- أحمق الوالد لئيم الخال. فرأى الغضب في وجه النبي صلى الله عليه وسلم لمكان التناقض في كلامه، فقال: والله يا رسول الله، ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى؛ ولكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن من البيان لسحرًا**» يعني أن بعض البيان يعمل عمل السحر، ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحق والبيان اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسن؛ وإنما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له يضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة.

«**إنَّ المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى**».

المنبت المنقطع عن أصحابه في السفر، والظهر الدابة، قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتهد في العبادة حتى هجمت عيناه -أي غارتا- فلما رآه قال له إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، إن المنبت أي الذي يجد في سيره حتى ينبت أخيرًا سماه بما تئول إليه عاقبته كقوله تعالى: {إنك ميت وإنهم ميتون} يضرب لمن يبالغ في طلب الشيء ويفرط حتى ربما يفوته على نفسه.

(إن الموصين بنو سهوان).

يضرب عند التعجب من نسيان من وصى بعمل شيء بكثرة وقوعه، والسهوان السهو أو الساهي، وبنو السهو يكون كأبي الفضل وأخي الكرم وعلى كونه الساهي فالمراد به أبو البشر.

(إن المعافى غير مخدوع).

يضرب لمن يخدع فلا ينخدع، والمعنى أن من عوفي مما خدع به لم يضره ما كان خودع به، وأصل المثل أن رجلًا من بني سليم يسمى قادحًا كان في زمن أمير يكنى أبا مظعون، وكان في ذلك الزمن رجل آخر من بني سليم أيضًا يقال له سليط، وكان علق امرأة قادح فلم يزل بها حتى أجابته وواعدته فأتى سليط قادحًا وقال: إني علقت جارية لأبي مظعون وقد واعدتني فإذا دخلت عليه فاقعد معه في المجلس، فإذا أراد القيام فاسبقه فإذا انتهيت إلى موضع كذا فاصفر حتى أعلم بمجيئكما فآخذ حذري ولك كل يوم دينار فخدعه بهذا، وكان أبو مظعون آخر الناس قيامًا من النادي ففعل قادح ذلك وكان سليط يختلف إلى امرأته فجرى ذكر النساء يومًا فذكر أبو مظعون جواريه وعفا فهنَّ فقال قادح وهو يعرض بأبي مظعون ربما غر الواثق وخدع الوامق وكذب الناطق وملت العاتق؛ أي ربما سئمت الأنثى من فحلها فعهرت ثم قال:

لا تنطقنَّ بأمر لأتيقنه   يا عمرو إن المعافى غير مخدوع

وعمرو اسم أبي مظعون، فعلم عمرو أنه يعرض به فلما تفرق القوم وثب على قادح فخنقه وقال: اصدقني، فحدثه قادح بالحديث فعرف أبو مظعون أن سليطًا قد خدعه فأخذ عمرو بيد قادح ثم مر به على جواريه، فإذا هن مقبلات على ما وكلن به لم يفقد منهنَّ واحدة، ثم انطلق آخذًا بيد قادح إلى منزله فوجد سليطًا قد افترس امرأته فقال له أبو مظعون: إن المعافى غير مخدوع تهكمًا بقادح فأخذ قادح السيف وشد على سليط فهرب فلم يدركه ومال إلى امرأته فقتلها.

(إن الحديد بالحديد يفلح).

الفلح الشق ومنه الفلاح للحراث؛ لأنه يشق الأرض؛ أي يستعان في الأمر الشديد بما يشاكله ويقاويه.

(إن الدواهي في الآفات تهترس).

ويروي ترتهس وهو قلب تهترس من الهرس وهو الدق؛ يعني أن الآفات يموج بعضها في بعض ويدق بعضها بعضًا كثرة يضرب عند اشتداد الزمان واضطراب الفتن، وأصله أن رجلًا مر بآخر وهو يقول: يا رب إما مهرة أو مهرًا، فأنكر عليه ذلك وقال: لا يكون الجنين إلا مهرة أو مهرًا، فلما ظهر الجنين كان مشياء الخلق مختلفة أي فيه شيء غير شيء، فقال الرجل عند ذلك:

قد طرقت بجنين نصفه فرس إن الدواهي في الآفات تهترس

(إن العصا من العصية).

قال أبو عبيد: هكذا قال الأصمعي وأنا أحسبه العصية من العصا إلا أن يراد أن الشيء الجليل يكون في بدء أمره صغيرًا كما قالوا: إن القرم من إلا فيل فيجوز حينئذ على هذا المعنى أن يقال العصا من العصية. قال المفضل: أول من قال ذلك الأفعى الجرهمي وذلك أن نزارًا لما حضرته الوفاة جمع بنيه مضر وأيادًا وربيعة وأنمارًا فقال: يا بني هذه القبة الحمراء وكانت من أدم لمضر، وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة، وهذه الخادم وكانت شمطاء لإياد وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فائتوا الأفعى الجرهمي ومنزله بنجران، فتشاجروا في ميراثه فتوجهوا إلى الأفعى الجرهمي فبينما هم في مسيرهم إليه إذ رأى مضر أثر كلأ قد رعي فقال: إن البعير الذي رعى هذا الأعور

قال ربيعة: إنه لا زور قال إياد: إنه لأبتر قال إنمار: إنه لشرود فساروا قليلًا فإذا هم برجل ينشد جملة فسألهم عن البعير فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم قال ربيعة: أهو أزور؟ قال: نعم قال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم قال إنمار: أهو شرود؟ قال: نعم، وهذه والله صفة بعيري فدلوني عليه قالوا: والله ما رأيناه، قال: هذا والله الكذب، وتعلق بهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته؟ فساروا حتى قدموا نجران، فلما نزلوا نادى صاحب البعير هؤلاء أخذوا جملي ووصفوا لي صفته ثم قالوا: لم نره فاختصموا إلى الأفعى وهو حكم العرب فقال الأفعى: كيف وصفتموه ولم تروه؟ قال مضر: رأيته رعى جانبًا وترك جانبًا فعلمت أنه أعور وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته فعلمت أنه أزور؛ لأنه أفسده لشدة وطئه لازوراره وقال إياد: عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذيالًا لمصع به وقال: إنما عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث نبتًا، فعلمت أنه شرود فقال للرجل: ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم من أنتم؟ فأخبروه فرحب بهم ثم أخبروه بما جاء بهم فقال: أتحتاجون إلي وأنتم كما أرى؟ ثم أنزلهم فذبح لهم شاة وأتاهم بخمر وجلس لهم الأفعى حيث لا يرى وهو يسمع كلامهم فقال ربيعة: لم أر كاليوم لحمًا أطيب منه لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة فقال مضر: لم أركاليوم خمرًا أطيب منه لولا أن حبلتها نبتت على قبر فقال إياد: لم أر كاليوم رجلًا أسرى منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له فقال إنمار: لم أر كاليوم كلامًا أنفع في حاجتنا من كلامنا، وكان كلامهم بإذنه فقال: ما هؤلاء إلا شياطين، ثم دعا القهرمان فقال: ما هذه الخمر وما أمرها قال: هي من حبلة غرستها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها، وقال للراعي: ما أمر

هذه الشاة؟ قال: هي عناق أرضعتهْ بلبن كلبة وذلك أن أمها كانت قد ماتت ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها، ثم أتى أمه فسألها عن أبيه فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال وكان لا يولد له، قالت: فخفت أن يموت ولا ولد له فيذهب الملك، فأمكنت من نفسي ابن عم له كان نازلًا عليه؛ فخرج الأفعى إليهم فقص القوم عليه قصتهم وأخبروه بما أوصى به أبوهم فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر فذهب بالدنانير والإبل الحمر فسمي مضر الحمراء لذلك، وقال: وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود؛ فصارت لربيعة الخيل الدهم فقيل: ربيعة الفرس وما أشبه الخادم الشمطاء فهو ولإياد؛ فصار له الماشية البلق من الحبلق والنقد فسمي إياد الشمطاء، وقضى لأنمار بالدراهم وبما فضل فسمي أنمار الفضل فصدروا من عنده على ذلك، فقال الأفعى: إن العصا من العصية وإن خشينا من أخشن ومساعدة الخاطل تعد من الباطل، فأرسلهن مثلًا وخشين وأخشن جبلان أحدهما أصغر من الآخر، والخاطل الجاهل، والخطل في الكلام اضطرابه والعصية تصغير تكبير مثل: أنا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك، والمراد أنهم يشبهون أباهم في جودة الرأي وقيل: إن العصا اسم فرس، والعصية اسم أمه يراد أنه يحكى الأم في كرم العرق وشرف العتق.

(إن البلاء موكل بالمنطق).

قال المفضل: يقال إن أول من قال ذلك أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فيما ذكره ابن عباس قال: حدثني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم

أبو بكر وكان نسابة فسلم فردوا عليه السلام فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة فقال: أمن هامتها أم من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمى. قال: فأي هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذهل الأكبر قال: أفمنكم عوف الذي يقال له لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا قال: أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا قال: أفمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا قال: أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا قال: أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا قال: فلستم ذهلًا الأكبر أنتم ذهب الأصغر. فقام إليه غلام قد بقل وجهه يقال له دغفل فقال:

إن على سائلنا أن نسأله ... والعبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا، إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئا، فمن الرجل أنت؟ قال: رجل من قريش، قال: بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من تيم بن مرة، قال: أمكنت والله الرامي من صفا الثغرة أفمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعًا؟ قال: لا قال: أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف؟ قال: لا قال: أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذي كأن في وجهه قمرًا يضيء ليل الظلام الداجي؟ قال: لا قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا قال: أفمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا قال: واجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دغفل صادف درأ السيل درأ يصدعه، أما والله لو ثبت لأخبرتك أنك من زمعات قريش أو ما أنا بدغفل. قال: فتبسم رسول الله

صلى الله عليه وسلم. قال علي: قلت لأبي بكر: لقد وقعت من الأعرابي على باقعة قال: أجل إن لكل طامة طامة وإن البلاء موكل بالمنطق.

وفي قصة المثل أمثاله قوله: (لا حر بوادي عوف) يتمثل به في هضم من يتعاظم بنواحي من يقدر على قهره وقوله: (إن على سائلنا أن نسأله) ومحل التمثل به ظاهر، وقوله: (والعبء لا تعرفه أو تحمله) يتمثل به في طلب الاختبار وترك الاكتفاء بما يبدو، فإن الشيء الذي تريد حمله فيكون عبأ ربما يكون كبيرًا في النظر خفيفًا في الوزن، وربما كان ثقيل الوزن وهو صغير الحجم.

(أم فرشت فأنامت).

يضرب في بر الرجل بصاحبه قال قراد:

وكنت له عمًّا لطيفًا ووالدًا ... رؤفًا وأمًّا مهدت فأنامت

(إذا ترضيت أخالك فلا أخالك).

الترضي الإرضاء بجهد ومشقة يقول: إذا ألجأك أخوك إلى أن تترضاه وتداريه فليس هو بأخ لك.

(إن ترد الماء بماء أكيس).

يتمثل به عند الأمر بالاقتصاد في المعيشة والمحافظة على قليله، وإن كان واثقًا بحصول كثير له في المستقبل وأصله في المسافر عرف قربه من المنهل فأسرف في استعمال ما حمل من الماء.

(إحدى حظيات لقمان).

الحظية تصغير الحظوة بفتح حائه، وهي المرماة، قال أبو عبيد: هي التي لا تصل لها، ولقمان هذا هو لقمان بن عاد وحديثه أنه كان بينه وبين رجلين من عاد يقال لهما: عمرو وكعب ابنا تقن بن معاوية، وكانا ربي إبل وكان لقمان رب غنم، فأعجبت لقمان الإبل فراودهما عنها فأبيا أن يبيعها فعمدا لي ألبان غنمه من ضأن ومعزى وأنافح من أنافح السخل، فلما رأيا ذلك لم يلتفتا إليه ولم يرغبا في ألبان الغنم، فلما رأى ذلك لقمان قال: اشترياها ابني تقن أقبلت ميسًا وأدبرت هيسًا وملأت البيت أقطا وحسيسًا اشترياها ابني تقن أنها الضأن تجز جفالًا وتنتج رخالًا وتحلب كثبًا ثقالًا فقالا: لا نشتريها يا لقم، إنها الإبل حملن فاتسقن وجرين فأعنقن وبغير ذلك أفلتن يغزرن إذا قطن فلم يبيعاه الإبل ولم يشربا الغنم، فجعل لقمان يداورهما وكانا يهابانه وكان يلتمس أن يغفلا فيشد على الإبل ويطردها، فلما كان ذات يوم أصابا أرنبًا وهو يرصدهما رجاء أن يصيبهما فيذهب بالإبل، فأخذا صفيحة من الصفا فجعلها أحدهما في يده ثم جعل عليها كومة من تراب قد أحمياه، فملأ الأرنب في ذلك التراب، فلما أنضجاها نفضا عنها التراب فأكلاها، فقال لقمان: يا وليتا أنيئة أكلاها أم الريح أقبلاها أم بالشيح اشتوياها؟ ولما رآهما لقمان لا يغفلان عن إبلهما ولم يجد فيهما مطمعًا لقيهما ومع كل واحد منهما جفير مملوء نبلًا وليس معه غير نبلين فخدعهما فقال: ما تصنعان بهذه النبل الكثيرة التي معكما؛ إنما هي حطب، فوالله ما أحمل معي غير نبلين فإن لم أصب بهما فلست بمصيب، فعمدا إلى نبلهما فنثراها غير سهمين، فعمد إلى النبل فحواها ولم يصب لقمان منهما بعد ذلك غرة، وكان فيما يذكرون لعمرو بن تقن امرأة فطلقها فتزوجها لقمان، وكانت المرأة وهي عند لقمان تكثر أن تقول: لا فتى إلا عمرو، وكان ذلك يغيظ لقمان ويسوءه كثرة ذكرها، فقال

لقمان: لقد أكثرت في عمرو، فوالله لأقتلن عمرًا، فقالت: لا تفعل وكانت لابني تقن سمرة يستظلان بها حتى ترد إبلهما فيسقيانها فصعدها لقمان واتخذ فيها عشًّا رجاء أن يصيب من ابني تقن غرة، فلما وردت الإبل تجرد عمرو وأكب على البئر يستقي، فرماه لقمان من فوقه بسهم في ظهره، فقال: حس إحدى حظيات لقمان فذهب مثلًا ثم أهوي إلى السهم فأنتزعه فوقع بصره على الشجرة، فإذا هو بلقمان فقال: انزل فنزل فقال: استق بهذه الدلو، فزعموا أن لقمان لما أراد أن يرفع الدلو حين امتلأت نهض نهضة فضرط فقال له عمرو: اضرطا آخر اليوم وقد زال الظهر فأرسلها مثلًا ثم أن عمرًا أراد أن يقتل لقمان فتبسم لقمان فقال عمرو: أضاحك أنت؟ قال لقمان: ما أضحك إلا من نفسي إما أني نهيت عما ترى فقال: ومن نهاك؟ قال: فلانة قال: عمرو أفلي عليك إن وهبتك لها أن تعلمها ذلك؟ قال: نعم، فخلى سبيله فأتاها لقمان فقال: لا فتى إلا عمرو فقالت: أقد لقيته؟ قال: نعم لقيته فكان كذا وكذا، ثم أسرني فأراد قتلي ثم وهبني لك، قالت: لا فتى إلا عمرو، يضرب لمن عرف بالشر، فإذا جاءت هنة من جنس أفعاله قيل: إحدى حظيات لقمان؛ أي أنه فعلة من فعلاته، الميس والهيس كالحيس بفتح فسكون يصف مشي الغنم عند إقبالها من المراعي للبيوت وهي بطان ممتلئة الضروع وعند إدبارها عن البيوت للمراعي وهي خماص والجفال كغراب الصوف الكثير، والكنية بضم فسكون ملء القدح، والرخال بكسر الراء جمع رخلة أو رخل كذلك وهي الأنثى ومن ولد الضأن.

(إنك خير من تفاريق العصا).

قالوا: هذا من قول غنية الأعرابية لابنها وكان عارمًا كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أسر ودقة عظم فواثب يومًا فتى فقطع الفتى أنفه فأخذت غنية دية أنفه، فحسنت حالها بعد فقر مدقع ثم واثب آخر فقطع أذنه فأخذت ديتها فزادتْ حسن حال، ثم واثب آخر فقطع شفته فأخذت الدية، فلما رأت ما صار عندها من الإبل والغنم والمتاع وذلك من كسب جوارح ابنها حسن رأيها فيه وذكرته في أرجوزتها فقالت:

أحلف بالمروة حقًّا والصفا   أنك خير من تفاريق العصا

قيل لأعرابي: ما تفاريق العصا؟ قال: العصا تقطع ساجورا والسواجير تكون للكلاب وللأسرى من الناس، ثم تقطع عصا الساجور فتصير أوتادًا ويفرق الوتد فتصير كل قطعة شظاظًا (ككتاب) خشبة تعقف لتجعل في عروتي جو القين فإن جعل لرأس الشظاظ كالفلكة صار للبختي مهارًا بكسر الميم وهو العود الذي يدخل في أنف البختي، وإذا فرق المهار جاءت منه تواد وهي الخشبة التي تشد على خلف الناقة إذا صرت هذا إذا كانت عصا فإذا كانت قناة فكل شق منها قوس بندق، فإن فرقت الشقة صارت سهامًا فإن فرقت السهام صارت حظاء فإن فرقت الحظاء صارت مغازل، فإن فرقت المغازل شعب به الشعاب أقداحه المصدوعة وقصاعه المشقوقة على أنه لا يجد لها أصلح منها وأليق بها يضرب فيمن نفعه أعم من نفع غيره.

(إنما يعاتب الأديم ذو البشرة).

المعاتبة المعاودة وبشرة الأديم ظاهره الذي عليه الشعر أي أن ما يعاد إلى الدباغ من الأديم ما سلمت بشرته يضرب لمن فيه مراجعة ومستعتب قال الأصمعي: كل ما كان في الأديم محتمل ما سلمت البشرة فإذا نغلت

البشرة بطل الأديم، ومن هنا أخذ العتاب بين الإخوان لذكر الهفوات ثم الاعتذار أو الاعتراف والمسامحة والعود إلى المصفاة فيكون ذلك بمنزلة دبغ الجلد لإزالة فضلاته.

(إن العصا قرعت لذي الحلم).

قيل: إن أول من قرعت له العصا عمرو بن مالك بن ضبيعة أخو سعد بن مالك الكناني؛ وذلك أن سعدًا أتى النعمان بن المنذر ومعه خيل له قادها وأخرى عراها فقيل له: لم عريت هذه وقدت هذه؟ قال: لم أقد هذه لأمنعها ولم أعر هذه لأهبها ثم دخل على النعمان فسأله عن أرضه فقال: أما مطرها فغزير وأما نبتها فكثير فقال له النعمان: إنك لقوال وإن شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه قال: نعم فأمر وصيفًا له أن يلطمه فلطمه لطمة فاقل: ما جواب هذه؟ قال: سفيه مأمور قال: الطمه أخرى فلطمه قال: ما جواب هذه؟ قال: لو أخذ بالأولى ولم يعد للأخرى وإنما أراد النعمان أن يتعدى سعد في المنطق فيقتله قال: الطمه ثالثة فلطمه قال: ما جواب هذه؟ قال: رب يؤدب عبده قال: الطمه أخرى فلطمه قال: ما جواب هذه؟ قال: ملكت فأسجح فأرسلها مثلًا قال النعمان: أصبت فأمكث عندي وأعجبه ما رأى منه فمكث عنده ما مكث ثم أنه بدا للنعمان أن يبعث رائدًا فبعث عمرًا أخا سعد فأبطأ عليه فأغضبه ذلك فأقسم لئن جاء ذامًا للكلأ أو حامدًا له ليقتله، فقدم عمرو وكان سعد عند الملك فقال سعد: أتأذن أن أكلمه قال: إذن يقطع لسانك قال: فأشير إليه قال: إذن تقطع يدك قال: فأقرع له العصا قال: فأقرعها فتناول سعد عصا جليسه وقرع بعصاه قرعة واحدة، فعرف أنه يقول له مكانك ثم قرع بالعصا ثلاث قرعات ثم رفعها إلى السماء ومسح عصاه بالأرض، فعرف أنه يقول له: لم أجد جدبًا ثم

قرع العصا مرارًا ثم رفعها شيئًا وأومأ إلى الأرض فعرف أنه يقول: ولا نباتًا، ثم قرع العصا قرعة وأقبل نحو الملك فعرف أنه يقول كلمه فأقبل عمرو حتى قام بين يدي الملك فقال له: أخبرني هل حمدت خصبًا أو ذممت جدبًا؟ فقال عمرو: لم أذمم هزلًا ولم أحمد بقلًا الأرض مشكلة لأخصبها يعرف ولأجدبها يوصف رائدها واقف ومنكرها عارف وآمنها زائف قال الملك: أولى لك، فقال سعد بن مالك يذكر قرع العصا:

قرعت العصا حتى تبين صاحبي ولم تك لولا ذاك في القوم تقرع

فقال رأيت الأرض ليست بممحل ولا سارح فيها على الرعى يشبع

سواء فلا جدب فيعرف جدبها ولا صابها غيث غزيز فتمرع

فتحيا بها حوياء نفس كريمة وقد كاد لولا ذاك فيهم تقطع

هذا قول بعضهم وقال آخرون في قولهم: إن العصا قرعت لذي الحلم أن ذا الحلم هذا هو عامر بن الظرب العدواني، وكان من حكماء العرب لا تعدل بفهمه فهمًا ولا بحكمه حكمًا، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئًا فقال لبنيه: إنه قد كبرت سنى وعرض لي سهو، فإذا رأيتموني خرجت من كلامي وأخذت في غيره فاقرعوا لي المجن بالعصا وقيل: كانت له جارية يقال لها خصيلة فقال لها: إذا أنا خولطت فاقرعي لي العصا وأتى عامر بخنثى ليحكم فيه فلم يدر ما الحكم فجعل ينحر لهم ويطعمهم ويدافعهم بالقضاء فقالت خصيلة: ما شأنك قد أتلفت ما لك فخبرها أنه لا يدري ما حكم الخنثى فقالت: أتبعه مباله قال الشعبي: فحدثني ابن عباس بها قال: فلما جاء الله بالإسلام صارت سنة فيه وعامر هو الذي يقول:

أرى شعرات على حاجبيَّ بيضًا نبتن جميعًا تواما

ظللت أهاهي بهنَّ الكلاب أحسبهن صوارًا قياما

وأحسب أنفي إذا ما مشيت شخصًا أمامي رآني فقاما.

يقال: إنه عاش ثلثمائة سنة وهو الذي يقول:

تقول ابنتي لما رأتني كأنني سليم أفاع ليله غير مودع
وما الموت أفناني ولكن تتابعت على سنون من مصيف ومربع
ثلاث مئين قد مررن كواملًا وها أنا هذا أرتجي مر أربع
فأصبحت مثل النسر طارت فراخه إذا رام تطيارا يقال له قع
أخبر أخبار القرون التي مضت ولا بد يومًا أن يطار بمصرعي

قال ابن الأعرابي: أول من فرعت له العصا عامر بن الظرب العدواني وربيعة تقول: بل هو قيس بن خالد بن ذي الجدين وتميم تقول: بل هو ربيعة بن مخاشن أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم واليمن تقول: بل هو عمرو بن حممة الدوسي قال: وكانت حكام تميم في الجاهلية أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن وضمرة بن ضمرة؛ غير أن ضمرة حكم فأخذ رشوة فغدر وحكم قيس عامر بن الظرب وغيلان بن سلمة الثقفي، وكانت له ثلاثة أيام يوم يحكم فيه بين الناس ويوم ينشد فيه شعره ويوم ينظر فيه إلى جماله وجاء الإسلام وعنده عشر نسوة، فخيره النبي صلى الله عليه وسلم فاختار أربعًا فصارت سنة وحكام قريش عبد المطلب وأبو طالب والعاصي بن وائل وحكيمات العرب: صخر بنت لقمان وهند بنت الخس وجمعة بنت حابس وابنة عامر بن الظرب الذي يقال له: ذو الحلم، قال المتلمس يريده:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع وما علم الإنسان إلا ليعلما

والمثل يضرب لمن إذا نبه انتبه.

(أنا النذير العريان).

قال ابن الكلبي: كان من حديث النذير العريان أن أبا دؤاد الشاعر كان جارا للمنذر بن ماء السماء وأن أبا دؤاد نازع رجلًا بالحيرة من بهراء يقال له: رقبة بن عامر فقال له رقبة: صالحني وحالفني قال أبو دؤاد: فمن أين تعيش أبا دؤاد فوالله لولا ما تصيب من بهراء لهلكت ثم افترقا على تلك الحالة، وأن أبا دؤاد أخرج بنين له ثلاثة في تجارة إلى الشام، فبلغ ذلك رقبة فبعث إلى قومه أخبرهم بما قال له أبو دؤاد عند المنذر وأخبرهم أن القوم ولد أبي دؤاد فخرجوا إلى الشام فقتلوهم وبعثوا برءوسهم إلى رقبة، فلما أتته الرءوس صنع طعامًا كثيرًا ثم أتى المنذر فقال له: قد اصطنعت لك طعامًا فأنا أحب أن تتغدى عندي فأتاه المندر وأبو دؤاد معه فبينا الجفان ترفع وتوضع إذ جاءت جفنة عليها أحد رءوس بني أبي دؤاد، فقال أبو دؤاد: أبيت اللعن أني جارك وقد ترى ما صنع بي وكان رقبة جارًا للمنذر قال: فوقع المنذر منهما في سوأة وأمر برقبة فحبس وقال لأبي دؤاد: ما يرضيك؟ قال: أن تبعث بكتيبتيك الشهباء والدوسر إليهم فقال له المنذر: قد فعلت فوجه إليهم الكتيبتين قال: فلما رأى ذلك رقبة من صنع المنذر قال لامرأته: الحقي بقومك فأنذريهم، فعمدت إلى بعض إبل البهراني فركبته ثم خرجت حتى أتت قومها فعرفت ثم قالت: أنا النذير العريان، فأرسلتها مثلًا وعرف القوم ما تريد فصعدوا إلى علياء الشام وأقبلت الكتيبتان فلم تصيبا منهم أحدًا فقال المنذر لأبي دؤاد: قد رأيت ما كان منهم أفيسكتك عني أن أعطيك بكل رأس مائتي بعير؟ قال: نعم، فأعطاه ذلك وفيه يقول قيس بن زهير العبسي:

سأفعل ما بدا لي ثم آوى   إلى جار كجار أبي دؤاد

وقال غيره: إنما قالوا النذير العريان لأن الرجل إذا رأى الغارة قد فجأتهم وأراد إنذار قومه تجرد من ثيابه، وأشار بها ليعلم أنه قد فجأهم أمر ثم صار مثلًا لكل أمر تخاف مفاجأته ولكل أمر لا شبهة فيه.

(إياك أعني واسمعي يا جارة).

أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري؛ وذلك أنه خرج يريد النعمان فمر ببعض أحياء طيء فسأل عن سيد الحي فقيل له: حارثة بن لأم فأم رحله فلم يصبه شاهدًا فقالت له أخته: انزل في الرحب والسعة، فنزل فأكرمته ولاطفته ثم خرجت من خبائها؛ فرأى أجمل أهل دهرها وأكملهم وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها، فوقع في نفسه منها شيء فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولا ما يوافقها من ذلك، فجلس بفناء الخباء يومًا وهي تسمع كلامه فجعل ينشد ويقول:

يا أخت خير البدو والحضارة   كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره   إياك أعني واسمعي يا جاره

فلما سمعت قوله عرفت أنه إياها يعني فقالت: ماذا يقول ذي عقل أريب ولا رأي مصيب ولا أنف نجيب، فأقم ما أقمت مكرمًا، ثم ارتحل متى شئت مسلمًا ويقال: أجابته نظامًا فقالت:

إني أقول يا فتى فزارة   لا أبتغي الزوج ولا الدعارة

ولا فراق أهل هذي الجارة   فارحل إلى أهلك باستخارة

فاستحيا الفتى وقال: ما أردت منكرًا واسوأتاه قالت: صدقت فكأنها استحيت من تسرعها إلى تهمته فارتحل فأتى النعمان فحياه وأكرمه، فلما رجع نزل على أخياها فبينا هو مقيم عندهم تطلعت إليه نفسها وكان جميلًا فأرسلت إليه: أن اخطبني إن كان لك إلي حاجة يومًا من الدهر، فإني سريعة إلى ما تريد، فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئًا غيره.

(إن غدًا لناظره قريب).

أي: لمنتظره يقال: نظرته أي انتظرته، وأول من قال ذلك قراد بن أجدع؛ وذلك أن النعمان بن المنذر خرج يتصيد على فرسه اليحموم فأجراه على أثر عير فذهب به الفرس في الأرض ولم يقدر عليه وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء، فطلب ملجأ يلجأ إليه فدفع إلى بناء فإذا فيه رجل من طيء يقال له حنظلة ومعه امرأة له فقال لهما: هل من مأوى؟ فقال حنظلة: نعم، فخرج إليه فأنزله ولم يكن للطائي غير شاة وهو لا يعرف النعمان فقال لامرأته: أرى رجلًا ذا هيئة وما أخلقه أن يكون شريفًا خطيرًا فما الحيلة؟ قالت: عندي شيء من طحين كنت ادخرته فاذبح الشاة لأتخذ من الطحين ملة قال: فأخرجت المرأة الدقيق فخبزت منه ملة وقام الطائي إلى شاته فاحتلبها ثم ذبحها فاتخذ من لحمها مرقة مضيرة وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شرابًا فسقاه وجعل يحدثه بقية ليلته، فلما أصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال: يا أخا طيء اطلب ثوابك أنا الملك النعمان قال: أفعل إن شاء الله، ثم لحق الخيل فمضى نحو الحيرة ومكث الطائي بعد ذلك زمانًا حتى أصابته نكبة وجهد وساءت حاله فقالت له امرأته: لو أتيت الملك لأحسن إليك فأقبل حتى

انتهى إلى الحيرة، فوافق يوم بؤس النعمان فإذا هو واقف في خيله في السلاح، فلما نظر إليه النعمان عرفه وساءه مكانه فوقف الطائي المنزول به بين يدي النعمان فقال له: أنت الطائي المنزول به؟ قال: نعم قال: أفلا جئت في غير هذا اليوم؟ قال: أبيت اللعن وما كان علمي بهذا اليوم قال: والله لو سنح لي في هذا اليوم قابوس ابني لم أجد بدًّا من قتله فاطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدا لك، فإنك مقتول، قال: أبيت اللعن وما أصنع بالدنيا بعد نفسي قال النعمان: إنه لا سبيل إليها قال: فإن كان لا بد فأجلني حتى ألم بأهلي فأوصى إليهم وأهيئ حالهم ثم أنصرف إليك قال النعمان: فأقم لي كفيلًا بموافاتك، فالتفت الطائي إلى شريك بن عمرو بن قيس من بني شيبان -وكان يكنى أبا الحوفزان، وكان صاحب الردافة وهو واقف بجنب النعمان- فقال له:

يا شريكًا يا بن عمرو ... هل من الموت محاله

يا أخا كل مضاف ... يا أخا من لا أخاله

يا أخا النعمان فك الـ ... ـيوم ضيفًا قد أتى له

طال ما عالج كرب الـ ... ـموت لا ينعم باله

فأبي شريك أن يتكفل به، فوثب إليه رجل من كلب يقال له قراد بن أجدع فقال للنعمان: أبيت اللعن هو علي قال النعمان: أفعلت؟ قال: نعم فضمنه أباه ثم أمر للطائي بخمسمائة ناقة فمضى الطائي إلى أهله وجعله الأجل حولًا من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل، فلما حال عليه الحول وبقي من الأجل يوم قال النعمان لقراد: ما أراك إلا هالكًا غدًا؟ فقال قراد:

فإن يك صدر هذا اليوم ولي ... فإن غدًا لناظره قريب

فلما أصبح النعمان ركب في خيله ورجله متسلحًا كما كان يفعل حتى أتى الغربين فوقف بينهما وأخرج معه قرادًا وأمر بقتله فقال له وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه فتركه، وكان النعمان يشتهي أن يقتل قراد ليفلت الطائي من القتل، فلما كادت الشمس تجب وقراد قائم مجرد في إزار على النطع والسياف إلى جنبه أقبلت امرأته وهي تقول:

أيا عين بكى لي قراد بن أجدعا ... رهينًا لقتل لا رهينًا مودعا
أتته المنايا بغتة دون قومه ... فأمسى أسيرًا حاضر البيت أضرعا

فبينما هم كذلك إذا رفع لهم شخص من بعيد وقد أمر النعمان بقتل قراد فقيل له: ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو فكف حتى انتهى إليهم الرجل، فإذا هو الطائي، فلما نظر إليه النعمان شق عليه مجيئه فقال له: ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل؟ قال: الوفاء قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: ديني قال النعمان: وما دينك؟ قال: النصرانية قال النعمان: فاعرضها عليَّ؛ فعرضها عليه فتنصر النعمان وأهل الحيرة أجمعون وكان قبل ذلك على دين العرب، فترك القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السنة وأمر بهدم الغربيين وعفا عن قراد والطائي وقال: والله ما أدري أيهما أوفى وأكرم، أهذا الذي نجا من القتل فعاد أم الذي ضمنه؟ والله لا أكون ألأم الثلاثة، فأنشأ الطائي يقول:

ما كنت أخلفت ظنه بعد الذي ... أسدى إلي من الفعال الخالي
ولقد دعتني للخلاف ضلالتي ... فأبيت غير تمجدي وفعالي
إني امرؤ مني الوفاء سجية ... وجزاء كل مكارم بذال

وقال أيضًا يمدح قرادًا:

ألا إنما يسمو إلى المجد والعلي ... مخاريق أمثال القراد بن أجدعا

مخـــاريق أمثـــال القـــراد وأهلـــه   فـــإنهم الأخيـــار مـــن رهـــط تبعـــا

(إن أخاك من آساك).

يقال: آسيت فلانًا بمالي أو غيره، إذا جعلته أسوة لك وواسيت لغة فيه، ومعنى المثل أن أخاك حقيقة من قدمك وآثر على نفسه يضرب في الحث على مراعاة الإخوان، وأول من قال ذلك خزيم بن نوفل الهمداني؛ وذلك أن النعمان بن ثواب العبدي ثم الشنى كان له بنون ثلاثة سعد وسعيد وساعدة، وكان أبوهم ذا شرف وحكمة وكان يوصى بنيه ويحملهم على أدبه، أما ابنه سعد فكان شجاعًا بطلًا من شياطين العرب لا يقام لسبيله ولم تفته طلبته قط، ولم يفر عن قرن، وأما سعيد فكان يشبه أباه في شرفه وسودده، وأما ساعدة فكان صاحب شراب وندامى وإخوان، فلما رأى الشيخ حال بنيه دعا سعدًا وكان صاحب حرب فقال: يا بني، إن الصارم ينبو والجواد يكبو والأثر يعفو، فإذا شهدت حربًا فرأيت نارها تستعر وبطلها يخطر وبحرها يزخر وضعيفها ينصر وجبانها يجسر، فأقلل المكث والانتظار، فإن الفرار غير عار إذا لم تكن طالب ثار، فإنما ينصرون هم وإياك أن تكون صيد رماحها ونطيح نطاحها، وقال لابنه سعيد -وكان جوادًا-: أيا بني، لا يبخل الجواد فابذل الطارف والتلاد وأقلل التلاح؛ تذكر عند السماح وأبل إخوانك فإن وافيهم قليل، واصنع المعروف عند محتمله. وقال لابنه ساعدة -وكان صاحب شراب-: يا بني، إن كثرة الشراب تفسد القلب وتقلل الكسب وتجد اللعب، فأبصر نديمك، واحم حريمك، وأعن غريمك، واعلم أن الظمأ القامح خير من الري الفاضح، وعليك بالقصد فإن فيه بلاغًا ثم إن أباهم النعمان بن ثواب توفي فقال ابنه سعيد -وكان جوادًا سيدًا-: لأخذن بوصية أبي ولا يلون

إخواني وثقاتي في نفسي فعمد إلى كبش فذبحه ثم وضعه في ناحية خبائه وغشاوة ثوبًا ثم دعا بعض ثقاته فقال: يا فلان، إن أخاك من وفى لك بعهده وحاطك برفده ونصرك بوده قال: صدقت، فهل حدث أمر؟ قال: نعم، إني قتلت فلانًا وهو الذي تراه في ناحية الخباء ولا بد من التعاون عليه حتى يوارى فما عندك؟ قال: يا لها سوأة وقعت فيها قال: فإني أريد أن تعينني عليه حتى أغيبه قال: لست لك في هذا بصاحب، فتركه وخرج فبعث إلى آخر من ثقاته، فأخبره بذلك وسأل معونته، فرد عليه مثل ذلك حتى بعث إلى عدد منهم كلهم يرد عليه مثل جواب الأول، ثم بعث إلى رجل من إخوانه يقال له: خزيم بن نوفل قال له: يا خزيم ما لي عندك؟ قال: ما يسرك وما ذاك؟ قال: إني قتلت فلانًا وهو الذي تراه مسجى قال: أيسر خطب فتريد ماذا؟ قال: أريد أن تعينني حتى أغيبه قال: هان ما فزعت فيه إلى أخيك وغلام سعيد قائم معهما فقال له خزيم: هل اطلع على هذا الأمر أحد غير غلامك هذا؟ قال: لا قال: انظر ما تقول؟ قال: ما قلت إلا حقًّا، فأهوى خزيم إلى غلامه فضربه بالسيف فقتله وقال: ليس عبد باخ لك فأرسلها مثلًا، وارتاع سعيد وفزع لقتل غلامه فقال: ويحك ما صنعت؟ وجعل يلومه فقال خزيم: إن أخاك من آساك. فأرسلها مثلًا قال سعيد: فإني أردت تجربتك ثم كشف عن الكبش وخبره بما لقي من إخوانه وثقاته وما ردوا عليه فقال خزيم: سبق السيف العذل، فذهبت مثلًا.

(ألا من يشتري سهرًا بنوم).

قالوا: إن أول من قال ذلك ذو رعين الحميري؛ وذلك أن حميرة فرقت على ملكها حسان وخالفت أمره لسوء سيرته فيهم ومالوا إلى أخيه

عمرو وحملوه على قتل أخيه حسان وأشاروا عليه بذلك ورغبوه في الملك ووعدوه حسن الطاعة والموازرة فنهاه ذو رعين من بين حمير عن قتل أخيه وعلم أنه أن قتل أخاه ندم ونفر عنه النوم وانتقض عليه أموره، وأنه سيعاقب الذي أشار عليه بذلك ويعرف غشهم له، فلما رأى ذو رعين أنه لا يقبل ذلك منه وخشى العواقب قال: هذين البيتين وكتبهما في صحيفة وختم عليها بخاتم عمرو وقال: هذه وديعة لي عندك إلى أن أطلبها منك، فأخذها عمرو فدفعها إلى خازنه وأمره برفعها إلى الخزانة والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها، فلما قتل أخاه وجلس مكانه في الملك منع منه النوم وسلط عليه السهر، فلما اشتد ذلك عليه لم يدع باليمن طبيبًا ولا كاهنًا ولا منجمًا ولا عرافًا ولا عائفًا إلا جمعهم ثم أخبرهم بقصته وشكا إليهم ما به فقالوا له: ما قتل رجل أخاه أو ذا رحم منه على نحو ما قتلت أخاك إلا أصابه السهر ومنع منه النوم، فلما قالوا له ذلك أقبل على من كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليه من إقبال حمير فقتلهم حتى أفناهم، فلما وصل إلى ذي رعين قال له: أيها الملك، إن لي عندك براءة مما تريد أن تصنع بي قال: وما براءتك وأمانك؟ قال: مر خازنك أن يخرج الصحيفة التي استودعتكها يوم كذا وكذا، فأمر خازنه فأخرجها فنظر إلى خاتمه عليها ثم فضها فإذا فيها:

ألا من يشتري سهرًا بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين

فأما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعين

ثم قال: أيها الملك، قد نهيتك عن قتل أخيك وعلمت أن فعلت ذلك أصابك الذي قد أصابك فكتبت هذين البيتين براءة لي عندك مما علمت أنك تصنع بمن أشار عليك بقتل أخيك، فقبل ذلك منه وعفا عنه وأحسن جائزته بضرب لمن غمط النعمة وكره العافية.

(إن كنت كذوبًا فكنْ ذكورًا).

يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيحدث بخلاف ذلك.

(إذا اشتريت فاذكرْ السوق).

يعني إذا اشتريت فاذكر البيع لتجتنب العيوب.

(بلغ السيل الزبى).

هي جمع زبية؛ وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفًا مجحفًا يضرب لمن جاوز الحد قال المؤرج: حدثني سعيد ابن سماك بن حرب عن ابيه عن ابن المعتر قال: أتى معاذ بن جبل بثلاثة نفر قتلهم أسد في زبية فلم يدر كيف يفتيهم، فسأل عليًا رضي الله عنه وهو محتب بفناء الكعبة فقال: قصوا عليَّ خبركم قالوا: صدنا أسدًا في زبية فاجتمعنا عليه فتدافع الناس عليه فرموا برجل فيها فتعلق الرجل بآخر وتعلق الآخر بآخر، فهووا فيها ثلاثتهم فقضى فيها علي رضي الله عنه أن للأول ربع الدية وللثاني النصف وللثالث الدية كلها، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقضائه فقال: لقد أرشدك الله للحق.

(بخ بخ ساق بخلخال).

بخ كلمة يقولها المتعجب من حسن الشيء وكماله الواقع موقع الرضاء كأنه قال: ما أحسن ما أراه وهو ساق محلاة بخلخال، ويجوز أن يريد بالباء معنى مع، فيكون التعجب من حسنها يضرب في التهكم والهزء من شيء لا موضع للتهكم فيه، وأول من قال ذلك الورثة بنت ثعلبة امرأة

ذهل بن شيبان بن ثعلبة؛ وذلك أن رقاش بنت عمرو بن عثمان من بني ثعلبة طلقها زوجها كعب بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكاية فتزوجها ذهل بن شيبان زوج الورثة ودخل بها، وكانت الورثة لا تترك له امرأة إلا ضربتها وأجلتها، فخرجت رقاش يومًا وعليها خلخالان فقالت الورثة: بخ بخ ساق بخلخال، فذهبت مثلًا، فقالت رقاش: أجل ساق بخلخال لا كخالك المختال، فوثبت عليها الورثة لتضربها فضبطتها رقاش وضربتها وغلبتها حتى حجزت عنها فقالت الورثة:

يا ويح نفسي اليوم أدركني الكبر	أأبكي على نفسي العشية أم أذر
فوالله لو أدركت في بقية	للاقيت ما لاقى صواحبك الأخر

فولدت رقاش لذهل بن شيبان مرة وأبا ربيعة ومحلما والحارث بن ذهل.

(أبلغ من قس).

هو قس بن ساعدة بن حذافة بن زهير بن إياد بن نزار الإيادي، وكان من حكماء العرب وأعقل من سمع به منهم، وهو أول من كتب من فلان إلى فلان، وأول من أقر بالبعث من غير علم، وأول من قال: أمَّا بعد، وأول من قال: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، وقد عمّر مائة وثمانين سنة، قال الأعشى:

وأبلغ من قس وأجرى من الذي	بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

وأخبر عامر بن شراحيل الشعبي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن وفد بكر بن وائل قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من حوائجهم قال: «هل فيكم أحد يعرف قس بن ساعدة

الأيادي؟» قالوا: كلنا نعرفه قال: «فما فعل؟». قالوا: هلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كأني به على جمل أحمر بعكاظ قائمًا يقول: أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا؛ مهاد موضوع وسقف مرفوع، وبحار تموج وتجارة تروج، وليل داج وسماء ذات أبراج، أقسم قس حقًّا لئن كان في الأرض رضًا ليكونن بعده سخط، وإن لله عزت قدرته دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا؟». ثم أنشد أبو بكر رضي الله عنه شعرًا حفظه له وهو قوله:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها ... يسعى الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابر

أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر

(أبخل من مادر).

هو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وبلغ من بخله أنه سقى إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل، فسلخ فيه ومدر الحوض به فسمى مادرًا لذلك، واسمه مخارق قال أبو الندى: وذكروا أن بني فزارة وبني هلال بن عامر تنافروا إلى أنس بن مدرك الخثعمي وتراضوا به فقالت بنو عامر: يا بني فزارة، كلتم أير حمار فقالت بنو فزارة: قد أكلنا ولم نعرفه وحديث ذلك أن ثلاثة نفر اصطحبوا فزارى وثعلبي وكلابي، فصادوا حمارًا ومضى الفزاري في بعض حاجته فطبخا وأكلا وخبئا للفزارى

جردان الحمار، فلما رجع الفزارى قالا: قد خبأنا لك فكل، فأقبل يأكله ولا يكاد يسيغه فقال: أكل شواء العير جوفان يعني به الذكر وجعلا يضحكان ففطن وأخذ السيف وقال: لتأكلانه أو لأقتلنكما ثم قال لأحدهما وكان اسمه مرقة: كل منه، فأبى فضربه فأبان رأسه فقال الآخر: طاح مرقة فقال الفزارى: وأنت إن لم تلقمه. قال محمد بن حبيب: أراد إن لم تلقمها، فلما ترك الألف ألقى الفتحة على الميم قبل الهاء كما قالوا: ويلم الحيرة وأي رجال به أي بها قلت: إنما قدر الهاء في تلقمها إرادة المضغة أو البضعة وإلا فليس في الكلام الذي مضي تأنيث ترجع الهاء إليه، فقالت بنو فزراة: ولكن منكم يا بني هلال من قرى في حوضه فسقي إبله، فلما رويت سلح فيه ومدره بخلابه أن يشرب فضله، فقضى أنس بن مدرك على الهلاليين، فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير وكانوا تراهنوا عليها وفي بني فزارة يقول الكميت بن ثعلبة، والكيمت من الشعراء ثلاثة أقدمهم هذا، ثم كميت بن معروف، ثم كميت بن زيد، وكلهم من بني أسد:

نشدتك يا فزار وأنت شيخ ... إذا خيرت تخطئ في الخيار

أصيحانية أدمت بسمن ... أحب إليك أم أير الحمار

بلى أير الحمار وخصيتاه ... أحب إلى فزارة من فزار

فحذف الهاء من فزارة كما تحذف في الترخيم، وإن كان هذا لفي غير النداء، ويجوز أن يكون أراد من فزارى فخفف ياء النسبة، وفي بني هلال يقول الشاعر:

قد جللت خزيا هلال بن عامر ... بني عامر طرًّا بسلحة مادر

فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها ... بني عامر أنتم شرار المعاشر

وفي بني فزارة يقول ابن دارة:

لا تأمنن فزاريًا خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيار
لا تأمننه ولا تأمن بوائقه ... بعد الذي امثل أير العير في النار
أطعمتم الضيف جوفانًا مخاتلة ... فلا سقاكم إلهي الخالق الباري

قال حمزة: وحدثني أبو بكر بن دريد قال: حدثني أبو حاتم عن أبي عبيدة أنه قرأ عليه حديث مادر فضحك قال: فقلت له: ما الذي أضحكك؟ فقال: تعجبي من تسيير العرب لأمثال لها لو سيروا ما هو أهم منها لكان أبلغ لها قلت: مثل ماذا؟ قال: مثل مادر هذا جعلوه علمًا في البخل بفعله تحتمل التأويل وتركوا مثل ابن الزبير مع ما يؤثر على لفظه وفعله من دقائق البخل فتركوه كالغفل من ذلك أنه نظر إلى رجل من أصحابه وهو يومئذ خليفة يقاتل الحجاج بن يوسف على دولته، وقد دق الرجل في صدور أهل الشام أرماحًا فقال له: يا هذا اعتزل عن حربنا، فإن بيت المال لا يقوى على هذا وقال في تلك الحرب لجماعة من جنده أكلتم تمري وعصيتم أمري، وسمع أن مالك بن أشعر الرزامي من بني مازن أكل من بعير وحده وحمل ما بقى على ظهره فقال: دلوني على قبره أنبشه وقال لرجل أتاه مجتديا وقد أبدع به فشكا إليه خفا ناقته قال: اخصفها بهلب وارقعها بسبت وأنجد بها ببرد خفها فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، جئتك مستوصلًا ولم أتك مستوصفًا فلا بقيت ناقة حملتني إليك، فقال: إن وصاحبها ولهذا الرجل فيه شعر قد نسى قلت: وفي بعض النسخ من كتاب أفعل كان هذا الرجل عبد الله بن فضالة الأسدي، ولما انصرف من عنده قال:

أرى الحاجات عند أبي خبيب ... نكدن ولا أمية بالبلاد

وما لي حين أقطع ذات عرق إلى ابن الكاهلية من معاد

في أبيات وابن الكاهلية هو عبد الله بن الزبير؛ لأن جده من جداته كانت من بني كاهل، فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال: لو علم لي اما ألام من عمته لسبني بها قال أبو عبيدة: فلو تكلف الحارث بن كلدة طبيب العرب أو مالك بن زيد مناة وحنيف الحناتم إبلا العرب من وصف علاج ناقة الأعرابي ما تكلفه هذا الخليفة لما كانوا بعشرونه، وكان مع هذا يأكل في كل أسبوع أكلة ويقول في خطبته: إنما بطني شبر في شبر، وعندي ما عسى يكفيني فقال فيه الشاعر:

لو كان بطنك شبرًا قد شبعت وقد أفضلت فضلًا كثيرًا للمساكين

فإن تصبك من الأيام جائحة لا تبك منك على دنيا ولا دين

(تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها).

أي: لا تكون ظئرًا وإن أذاها الجوعُ، ويروى: ولا تأكل ثدييها، وأول من قال ذلك الحارث ابن سليل الأسدي وكان حليفًا لعلقمة بن خصفة الطائي فزاره فنظر إلى ابنته الزباء -وكانت من أجمل أهل دهرها* فأعجب بها فقال له: أتيتك خاطبًا وقد ينكح الخاطب ويدرك الطالب ويمنح الراغب، فقال له علقمة: أنت كفؤ كريم يقبل منك الصفو ويؤخذ منك العفو، فأقم ننظر في أمرك، ثم انكفأ إلى أمها فقال: إن الحارث بن سليل سيد قومه حسبًا ومنصبًا وبيتًا وقد خطب إلينا الزباء فلا ينصرفن إلا بحاجته فقالت امرأته لابنتها: أي الرجال أحب إليك الكهل الجحجاح الواصل المناح أم الفتى الوضاح؟ قالت: لا بل الفتى الوضاح قالت: إن الفتى يغيرك وإن الشيخ يميرك، وليس الكهل الفاضل الكثير النائل

كالحديث السن الكثير المن قالت: يا أمتاه، إن الفتاة تحب الفتى كحب الرعاء أنيق الكلأ قالت: أي بنية، إن الفتى شديد الحجاب كثير العتاب قالت: إن الشيخ يبلي شبابي ويدنس ثيابي ويشمت بي أترابي، فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على أيها؛ فتزوجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم، فابتنى بها ثم رحل بها إلى قومه فبينا هو ذات يوم جالس بفناء قومه وهي إلى جانبه إذ أقبل إليه شباب من بني أسد يعتلجون فتنفست صعداء ثم أرخت عينيها بالبكاء فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: ما لي وللشيوخ الناهضين كالفروخ فقال لها: ثكلتك أمك تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها. قال أبو عبيد: فإن كان الأصل على هذا الحديث فهو على المثل السائر: لا تأكل ثدييها، وكان بعض العلماء يقول: هذا لا يجوز وإنما هو: لا تأكل بثدييها، قلت كلاهما في المعنى سواء؛ لأن معنى لا تأكل ثدييها لا تأكل أجرة ثدييها، ومعنى بثدييها أي لا تعيش بسبب ثدييها وبما يغلان عليها ثم قال الحارث لها: أما وأبيك لرب غارة شهدتها وسبية أردفتها وخمرة شربتها فالحقي بأهلك فلا حاجة لي فيك وقال:

تهزأت أن رأتني لابسًا كبرًا ... وغاية الناس بين الموت والكبر

فإن بقيت لقيت الشيب راغمة ... وفي التعرف ما يمضي من العبر

وإن يكن قد علا رأسي وغيره ... صرف الزمان وتغيير من الشعر

فقد أروح للذات الفتى جذلًا ... وقد أصيب بها عينًا من البقر

عني إليك فإني لا توافقني ... عور الكلام ولا شرب على الكدر

يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس مكاسب الأموال.

(تطلب أثرًا بعد عين).

العين المعاينة، يضرب لمن ترك شيئًا يراه ثم تبع أثره بعد فوت عينه. قال الباهلي: أول من قال ذلك مالك بن عمرو العاملي، وفي كتاب أبي عبيد مالك بن عمرو الباهلي قال: وذلك أن بعض ملوك غسان كان يطلب في عاملة ذحلافًا فأخذ منهم رجلين يقال لهما مالك وسماك ابنا عمرو، فاحتبسهما عنده زمانًا ثم دعاهما فقال لهما: إني قاتل أحدكما فأيكما أقتل فجعل كل واحد منهما يقول: اقتلني مكان أخي، فلما رأى ذلك قتل سماكًا وخلى سبيل مالك، فقال سماك حين ظن أنه مقتول:

ألا من شجت ليلة عامدة كما أبد ليلة واحده

فأبلغ قضاعة أن جئتهم وخص سراة بني ساعده

وأبلغ نزارًا على نايها بأن الرماح هي العائده

وأقسم لو قتلوا مالكًا لكنت لهم حية راصده

برأس سبيل على مرقب ويومًا على طرق وارده

قام سماك فلا تجزعي فللموت ما تلد لوالده

وانصرف مالك إلى قومه فلبث فيها زمانًا، ثم أن ركبًا مروا وأحدهم يتغنى بهذا البيت:

وأقسم لو قتلوا مالكًا لكنت لهم حية راصده

فسمعت بذلك أم سماك فقالت: يا مالك، قبح الله الحياة بعد سماك اخرج في الطلب بأخيك. فخرج في الطلب فلقى قاتل أخيه يسير في ناس من قومه فقال: من أحس لي الجمل الأحمر؟ فقالوا له وعرفوه: يا مالك لك مئة من الإبل فكف فقال: لا أطلب أثرًا بعد عين، فذهبت مثلًا ثم حمل على قاتل أخيه فقتله وقال في ذلك:

يــــا راكبًـــا بلغـــا ولا تـــدعا بنـــي قميــر وإن همـــو جزعـــوا
فليجـدوا مثـل مـا وجـدت فقـد كنـت حزينًـا قـد مـسني وجـع
لا أسـمع اللهـو فـي الحـديث ولا ينفعنـــي فـــي الفـــراش مـــضطجع
لا وجـد ثكلـى كمـا وجـدت ولا وجـــد عجـــول أضـــلها ربـــع
ولا كبيـــــر أضـــــل ناقتــــــه يـــوم تـــوافى الحجـيج واجتمعـــوا
ينظـر فـي أوجـه الركـاب فـلا يعـــرف شـــيئًا والوجـــه ملتمـــع
جللتــه صـــارم الحديـــدة كالمـــ لـــح وفيـــه سفاســـق لمـــع
بـين ضـمير وبـاب جلـق فـي أثوابـــه مـــن دمائـــه دفـــع
أضـــر بـــه باديًـــا نواجـــذه يـــدعو صـــداه والـــرأس منـــصدع
بنـــي قبـــسر قتلـــت ســـيدكم فـــاليوم لا رنـــة ولا جـــزع
فـــاليوم قمنـــا علـــى الـــسواء فـــإن تجـــووا فـــدهري ودهـــركم جـــرع

السفاسق جمع سفسقة -بفتحتين أو كسرتين بينهما سكون- فرند السيف وهي نقط تلمع في صفائه.

(تسمع بالمعيدي خير من أن تراه).

ويروى لأن تسمع بالمعيدي خير وأن تسمع ويروى تسمع بالمعيدي لا أن تراه والمختار أن تسمع يضرب لمن خبره خير من مرآه ودخل الباء على تقدير تحدث به خير قال المفضل: أول من قال ذلك المنذر بن ماء السماء، وكان من حديثه أن كبيش بن جابر أخا ضمرة ابن جابر من بني نهشل كان عرض لأمة لزرارة بن عدس يقال لها: رشية كانت سبية أصابها زرارة من الرفيدات وهم حي من العرب، فولدت له عمرًا وذؤيبًا وبرغوثًا فمات كبيش وترعرع الغلمة فقال لقيط بن زرارة: يا رشية من أبو بنيك؟

قالت: كبيش بن جابر قال: فاذهبي بهؤلاء الغلمة فعيسي بهم وجه ضمرة وخبريه من هم، وكان لقيط عدوا لضمرة، فانطلقت بهم إلى ضمرة فقال: ما هؤلاء؟ قالت: بنو أخيك، فانتزع منها الغلة وقال: الحقي بأهلك فرجعت فأخبرت أهلها بالخبر فركب زرارة وكان رجلًا حليمًا حتى أتى بني نهشل فقال: ردوا على غلمتني فسبه بنو نهشل وأهجروا له، فلما رأى ذلك انصرف فقال له قومه: ما صنعت؟ قال: خيرًا ما أحسن ما لقيني به قومي، فمكث حولًا ثم أنا هم فأعادوا عليه أسوأ ما كانوا قالوا له فانصرف فقال له قومه: ما صنعت؟ قال: خيرًا قد أحسن بنو عمي وأجملوا، فمكث بذلك سبع سنين يأتيهم في كل سنة فيردونه بأسوا الرد، فبينما بنو نهشل يسيرون صحي إذ لحق بهم لاحق فأخبرهم أن زرارة قد مات فقال ضمرة: يا بني نهشل أنه قد مات حليم إخوتكم اليوم فاتقوهم بحقهم، ثم قال ضمرة لنسائه: قفن أقسم بينكن الثكل وكانت عنده هند بنت كرب بن صفوان وامرأة يقال لها خليدة من بني عجل وسبية من عبد القيس وسبية من الأزد من بني طمثان وكان لهنَّ أولاد غير خليدة فقالت لهند: وكانت لها مصافية ولي الثكل بنت غيرك، ويروي ولي الشكل بنت غيرك على سبيل الدعاء فأرسلتها مثلًا فأخذ ضمرة شقة بن ضمرة وأمه هند وشهاب بن ضمرة وأمه العبدية وعنوة بن ضمرة وأمه الطمثانية فأرسل بهم إلى لقيط بن زرارة وقال: هؤلاء رهن لك بغلمتك حتى أرضيك منهم، فلما وقع بنو ضمرة في يدي لقيط أساء ولايتهم وجفاهم وأهانهم فقال في ذلك ضمرة بن جابر:

صرمت إخاء شقة يوم غول	وإخوته فلا حلت حلالي
كأني إذ رهنت بني قومي	دفعتهم إلى الصهب السبال
ولم أرهنهم بدم ولكن	رهنتهم بصلح أو بمال

صرمت إخاء شقة يوم غول ... وحق إخاء شقة بالوصال

فأجابه لقيط:

أبا قطن إني أراك حرينًا ... وإن العجول لا يبال حنينا

أفي إن صبرتم نصف عام لحقنا ... ونحن صبرنا قبل سبع سنينا

فقال ضمرة:

لعمرك إنني وطلاب حبي ... وترك بني في الشطر الأعادي

لمن نوكي الشيوخ وكان مثلي ... إذا ما ضل لم ينعش بهاد

ثم إن بني نهشل طلبوا إلى المنذر بن ماء السماء أن يطلبهم من لقيط فقال لهم المنذر: نحوا عني وجوهكم، ثم أمر بخمر وطعام ودعا لقيطًا فأكلا وشربا حتى إذا أخذت الخمر منهما قال المنذر للقيط: يا خير الفتيان ما تقول في رجل اختارك الليلة على ندامى مضر؟ قال: وما أقول فيه أقول أنه لا يسألني شيئًا إلا أعطيته إياه غير الغلمة قال المنذر: أما ذا استثنيت فلست قابلًا منك شيئًا حتى تعطيني كل شيء سألتك قال: فذلك لك قال: فإني أسألك الغلمة أن تهبهم لي قال: سلني غيرهم قال: ما أسألك غيرهم، فأرسل لقيط إليهم فدفعهم إلى المنذر، فلما أصبح لقيط لامه قومه فندم فقال في المنذر:

إنك لو غطيت أرجاء هوة ... مغمسة لا يستثار ترابها

بثوبك في الظلماء ثم دعوتني ... لجئت إليها سادر إلا أهابها

فأصبحت موجودًا علي ملومًا ... كان نضيت عن حائض لي ثيابها

قال: فأرسل المنذر إلى الغلمة وقد مات ضمرة وكان صديقًا للمنذر، فلما دخل عليه الغلمة وكان يسمع بشقة ويعجبه ما يبلغه عنه، فلما رآه قال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فأرسلها مثلًا قال شقة: أبيت اللعن وأسعد إلهك إن القوم ليسوا بجزر يعني الشاء، إنما يعيش الرجل بأصغريه؛ لسانه وقلبه، فأعجب المنذر كلامه وسره كل ما رأى منه قال: فسماه ضمرة باسم أبيه، فهو ضمرة بن ضمرة وذهب قوله يعيش الرجل بأصغريه مثلًا، وينشد على هذا:

ظننت به خيرًا فقصر دونه فيا رب مظنون به الخير يخلف

قلت: وقريب من هذا ما يحكى أن الحجاج أرسل إلى عبد الملك بن مروان بكتاب مع رجل، فجعل عبد الملك يقرأ الكتاب ثم يسأل الرجل فيشفيه بجواب ما يسأله، فيرفع عبد الملك رأسه إليه فيراه أسود، فلما أعجبه ظرفه وبيانه قال متمثلًا:

فإن عرارًا إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، هل تدري من عرار؟ أنا والله عرار بن عمرو بن شاس الأسدي الشاعر.

(ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل).

الدخل العيب الباطن يضرب لذي المنظر لا خير عنده قال المفضل: أول من قال ذلك عثمة بنت مطرود البجيلية، وكانت ذات عقل ورأى مستمع في قومها، وكانت لها أخت يقال لها: خود، وكانت ذات جمال وميسم وعقل وإن سبعة إخوة غلة من بطن الأزد خطبوا خودًا إلى أبيها فأتوه وعليهم الحلل اليمانية وتحتهم النجائب الفره فقالوا: نحن بنو مالك

بن غفيلة ذي النحيين فقال لهم: انزلوا على الماء فنزلوا ليلتهم ثم أصبحوا غادين في الحلل والهيئة ومعهم ربيبة لهم يقال لهم: الشعثاء كاهنة فمروا بوصيدها يتعرضون لها وكلهم وسيم جميل وخرج أبوها فجلسوا إليه فرحب بهم فقالوا: بلغنا أن لك بنتًا، ونحن كما ترى شباب وكلنا يمنع الجانب ويمنح الراغب فقال أبوها: كلكم خيار فأقيموا نرى رأينا، ثم دخل على بنته فقال: ما ترين؟ فقد أتاك هؤلاء القوم؟ فقالت: انكحني على قدري ولا تشطط في مهري؛ فإن تخطئني أحلامهم لا تخطئني أجسامهم لعلي أصيب ولدًا وأكثر عددًا، فخرج أبوها فقال: أخبروني عن أفضلكم؟ قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة: اسمع أخبرك عنهم هم أخوة وكلهم أسوة؛ أما الكبير فماك جرئ فاتك يتعب السنابك ويستصغر المهالك، وأما الذي يليه فالغمر بحر غمر يقصر دونه الفخر نهد صقر، وأما الذي ليه فعلقمة صليب المعجمة منيع المشتمة قليل الجمجمة، وأما الذي يليه فعاصم سيد ناعم جلد صارم أبي حازم جيشه غانم وجاره سالم، وأما الذي يليه فثواب سريع الجواب عتيد الصواب كريم النصاب كليث الغاب، وأما الذي يليه فمدرك بذول لما يملك عزوب عما يترك يفنى يوهلك، وأما الذي يليه فجندل لقرنه مجدل مقل لما يحمل يعطي ويبذل وعن عدوه لا ينكل فشاورت أختها فيهم فقالت أختها عثمة: ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل، اسمعي مني كلمة: إن شر الغريبة يعلن وخيرها يدفن، انكحي في قومك ولا تغررك الأجسام فلم تقبل منها وبعثت إلى أبيها: أنكحني مدركًا؛ فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعاتها وحملها مدرك، فلم تلبث عنده إلا قليلًا حتى صبحهم فوارس من بني مالك بن كنانة فاقتتلوا ساعة ثم إن زوجها وإخوته وبني عامر انكشفوا فسبوها فيمن سبوا، فبينا هي تسير بكت فقالوا: ما يبكيك على فراق زوجك؟ قالت: قبحه الله قالوا:

لقد كان جميلًا قالت: قبح الله جمالًا لا نفع معه؛ إنما أبكي على عصياني أختي وقولها: ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل، وأخبرتهم كيف خطبوها فقال لها رجل منهم يكنى أبا نواس شاب أسود أفوه مضطرب الخلق: أترضين بي على أن أمنعك من ذئاب العرب؟ فقالت لأصحابه: أكذلك هو؟ قالوا: نعم إنه مع ما ترين ليمنع الحليلة وتتقيه القبيلة قالت: هذا أجمل جمال وأكمل كمال، قد رضيت به، فزوجوها منه.

(تعست العجلة).

أول من قال هذا أفند مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، وكان أحد المغنيين المجيدين، وكان يجمع بين الرجال والنساء وله يقول ابن قيس الرقيات:

قل لفند يشبع الأظعانا ... طالما سر عيشنا وكفانا

وكانت عائشة أرسلته يأتيها بنار فوجد قومًا يخرجون إلى مصر فخرج معهم فأقام بها سنة، ثم قدم فأخذ نارًا وجاء يعدو فعثر وتبدد الجمر فقال: تعست العجلة، وفيه يقول الشاعر:

ما رأينا الغراب مثلًا ... إذ بعثناه يجيء بالمشملة

غير فند أرسلوه قابسًا ... فثوى حولًا وسب العجلة

المشملة كساء تجمع فيه المقدحة بآلاتها، وقال بعضهم: الرواية المشملة -بفتح الميم- وهي مهب الشمال؛ يعني الجانب الذي بعث نوح عليه السلام الغراب إليه ليأتيه بخبر الأرض أجفت أم لا؟

(تجمعين خلابة وصدودا).

يضرب لمن يجمع بين خصلتي شر قالوا: هو من قول جرير بن عطية وذلك أن الحجاج بن يوسف أراد قتله فمشت إليه مضر فقالوا: أصلح الله الأمير لسان مضر وشاعرها هبة لنا فوهبه لهم، وكانت هند بنت أسماء بن خارجة ممن طلب فيه فقالت للحجاج: ائذن لي فأسمع من قوله قال: نعم، فأمر بمجلس له وجلس فيه هو وهند ثم بعث إلى جرير فدخل وهو لا يعلم بمكان الحجاج فقالت: يابن الخطفي، أنشدني قولك في التشبيب قال: والله ما شببت بامرأة قط وما خلق الله شيئًا أبغض إليَّ من النساء؛ ولكني أقول في المديح ما بلغك، فإن شئت أسمعتك قالت: يا عدو نفسه فأين قولك:

يجرى السواك على أغر كأنه ... برد تحذر من متون غمام
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام
لو كنت صادقة الذي حدثتنا ... لوصلت ذاك فكان غير رمام

قال جرير: لا والله ما قلت هذا؛ ولكني أقول:

لقد جرد الحجاج بالحق سيفه ... ألا فاستقيموا لا يميلن مائل
ولا يستوي داعي الضلالة والهدى ... ولا حجة الخصمين حق وباطل

فقالت هند: دع ذا عنك فأين قولك:

خليلي لا تستشعرا النوم إنني ... أعيذكما بالله أن تجدا وجدي
ظمئت إلى برد الشراب وغرني ... جدًّا مزنة يرجعى جداها وما تجدى

قال جرير: بل أنا الذي أقول:

من يأمن الحجاج أما عقابه ... فمر وأما عقده فوثيق
لخفتك حتى أنزلتني مخافتي ... وقد كان من دوني عماية نيق

يسر لك البغضاء كل منافق كما كل ذي دين عليك شفيق

قالت: دع ذا عنك ولكن هات قولك:

يا عاذلي دعا الملامة وأقصرا طال الهوى وأطلتما التفنيدا
إني وجدتك لو أردت زيادة في الحب مني ما وجدت مزيدا
أخليتنا وصددت أم محمد أفتجميعن خلابة وصدودا
لا يستطيع أخو الصبابة أن يرى حجرًا أصم وأن يكون حديدا

(آتيه من فقيد ثقيف).

قالوا: كان بالطائف في أول الإسلام أخوان فتزوج أحدهما امرأة من بني كنة ثم رام سفرًا فأوصى الأخ بها فكان يتعهدها كل بنفسه وكانت من أحسن الناس وجهًا، فذهبت بقلبه فضنى وأخذت قوته حتى عجز عن المشي ثم عجز عن القعود، وقدم أخوه فلما رآه بتلك الحالة قال: ما لك يا أخي ما تجد؟ قال: ما أجد شيئًا غير لضعف فبعث أخوه إلى الحارث بن كلدة طبيب العرب، فلما حضر لم يجد به علة من مرض ووقع له أن ما به من عشق، فدعا بخمر وفت فيها خبزًا فأطعمه إياه ثم أتبعه بشربة منها؛ فتحرك ساعة ثم نغض رأسه ورفع عقيرته بهذه الأبيات:

ألما بي على الأبيا ت بالخيف نزرهنه
غزال ثم يحتل بها دور بلى كنه
غزال أحور العينين في منطقه غنه

فعرف أنه عاشق، فأعاد عليه الخمر فأنشأ يقول:

أيها الجيرة أسلموا وقفوا كي تكلموا

خرجـــت مزنـــة عـــن البـــ ـــحر ريَّـــا تحمحـــم
هـــي مـــا كنتـــي وتـــز عـــم أنـــي لهـــا حـــم

فعرف أخوه ما به فقال: يا أخي هي طالق ثلاثا فتزوجها فقال: هي طالق يوم أتزوجها، ثم ثاب إليه ثائب من العقل والقوة ففارق الطائف حضرًا وهام في البر فما رؤى بعد ذلك، فمكث أخوه أيامًا ثم مات كمدًا على أخيه، فضرب به المثل وسمى فقيد ثقيف، وأما قولهم:

(أتيه من أحمق ثقيف).

فهذا من التيه الذي هو الصلف وأحمق ثقيف هو يوسف بن عمرو وكان أمير العراقين من قبل هشام بن عبد الملك، وكان أتيه وأحمق عربي أمر ونهى في دولة الإسلام، ومن حمقه أن حجامًا كان يحجمه، فلما أراد أن يشرطه ارتعدت يده فأحس بذلك يوسف وكان حاجبه قائمًا على رأسه فقال له: قل لهذا البائس لا تخف وكان يوسف قصيرًا جدًّا قميئًا فكان الخياط عند قطع ثيابه إذا قال له: يحتاج إلى زيادة أكرمه وحباه، وإذا قال: يفضل شيء أهانه وأقصاه.

(ثكل أرأمها ولدا).

قاله بيهس الملق بنعامة لأمه حين رجع إليها بعد إخوته الذين قتلوا قال المفضل: كان من حديث بيهس أنه كان رجلًا من بني فزارة بن ذبيان بن بغيض، وكان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس من أشجع بينهم وبينهم حرب وهم في إبلهم فقتلوا منهم ستة وبقي بيهس وكان يحمق وكان أصغرهم، فأرادوا قتله ثم قالوا: وما تريدون من قتل هذا يحسب عليكم برجل ولا خير فيه؟ فتركوه فقال: دعوني أتوصل معكم إلى الحي

فإنكم إن تركتموني وحدي أكلتني السباع وقتلني العطش ففعلوا فأقبل معهم، فلما كان من الغد نزلوا فنحروا جزورًا في يوم شديد الحر، فقالوا: ظللوا لحمكم لا يفسد فقال بيهس: لكن يالا ثلاث لحم لا يظلل فذهبت مثلًا، فلما قال ذلك قالوا: إنه لمنكر وهموا أن يقتلوه ثم تركوه وظلوا يشوون من لحم الجزور ويأكلون فقال أحدهم: ما أطيب يومنا وأخصبه! فقال بيهس: لكن علي بلدح قوم عجفي فذهبت مثلًا، ثم انشعب طريقهم فأتى أمه فأخبرها الخبر قالت: فما جاءني بك من بين إخوتك؟ فقال بيهس: لو خيرت لاخترت، فذهبت مثلًا ثم إن أمه عطفت عليه ورقت له فقال الناس: لقد أحبت أم بيهس بيهسًا فقال بيهس: ثكل أرأمها ولدًا؛ أي عطفها على ولد فأرسلها مثلًا، ثم إن أمه جعلت تعطيه بعد ذلك ثياب إخوته فيلبسها ويقول: يا حبذا التراث لولا الذلة فأرسلها مثلًا ثم إنه أتى على ذلك ما شاء الله، فمر بنسوة من قومه يصلحن امرأة منهن يردن أن يهدينها لبعض القوم الذي قتلوا إخوته، فكشف ثوبه عن اسمه وغطى به رأسه فقلن له: ويحك ما تصنع يا بيهس؟ فقال:

ألبس لكل حالة لبوسها ... إما نعيمها وإما بؤسها

فأرسلها مثلًا ثم أمر النساء من كنانة وغيرها فصنعن له طعامًا فجعل يأكل ويقول: حبذا كثرة الأيدي في غير طعام، فأرسلها مثلًا فقالت له أمه: لا يطلب هذا بثأر أبدًا فقالت الكنانية: لا تأمني الأحمق وفي يده سكين، فأرسلتها مثلًا ثم إنه أخبر أن ناسًا من أشجع في غار يشربون فيه، فانطلق بخال له يقال له: أبو حنش فقال له: هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها ويروى؟ هل لك في غنيمة باردة؟ فأرسلها مثلًا ثم انطلق بيهس بخاله حتى أقامه على فم الغار ثم دفع أبا حنش في الغار فقال: ضربا أبا حنش

فقال بعضهم: إن أبا حنش لبطل فقال أبو حنش: مكره أخوك لا بطل فأرسلها مثلًا، قال المتلمس ذلك:

ومن طلب الأوتار ما خر أنفه قصير وخاض الموت بالسيف
نعامة لما صرع القوم رهطه تبين في أثوابه كيف يلبس

(جرى المذكيات غلاب).

المذكية من الخيل التي قد أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان، والغلاب المغالبة أي أن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوته ويجوز أن يراد أن ثاني جريه أبدًا أكثر من بادية وثالثة أكثر من ثانية فكأنه يغالب بالثاني الأول وبالثالث الثاني، فجريه أبدًا غلاب وهذا معنى قول أبي عبيد حيث قال فهي تحتمل أن تغالب الجري غلابًا ويروى: جرى المذكيات غلاء جمع غلوة؛ يعني أن جريها يكون غلوات ويكون شأوها بطينًا لا كالجذع يضرب لمن يوصف بالتبريز على أقرانه في حلبة الفضل.

(جاو رينا وأخبرينا).

قال يونس: كان رجلان يتعشقان امرأة وكان أحدهما جميلًا وسيمًا وكان الآخر دميمًا تقتحمه العين، فكان الجميل منهما يقول: عاشرينا وانظري إلينا، وكان الدميم يقول: جاورينا وأخبرينا، فكانت تدني الجميل فقالت: لأختبرنهما فقالت لكل واحد منهما أن ينحر جزورًا فأتتهما متنكرة فبدأت بالجميل فوجدته عند القدر يلحس الدسم ويأكل الشحم ويقول: احتفظوا كل بيضاء ليه يعني الشحم فاستطعمته فأمر لها يثيل الجزور فوضع في قصعتها، ثم أتت الدميم فإذا هو يقسم لحم الجزور ويعطى كل من سأله فسألته فأمر لها بأطايب الجزور فوضع في قصعتها

فرفعت الذي أعطاها كل واحد منهما على حدة، فلما أصبحا غدوًا إليها فوضعت بين يدي كل واحد منهما ما أعطاها وأقصت الجميل وقربت الدميم، ويقال: إنها تزوجته يضرب في القبيح المنظر الجميل المخبر.

(جدع الحلال أنف الغيرة).

قاله صلى الله عليه وسلم ليلة زفت فاطمة إلى عليٍّ رضي الله تعالى عنهما، وهذا حديث يروى عن الحجاج بن منهال يرفعه.

(جوعْ كلبك يتبعك).

ويروى: أجع كلبك، وكلاهما يضرب في معاشرة اللئام وما ينبغي أن يعاملوا به قال المفضل: أول من قال ذلك ملك من ملوك حمير كان عنيفًا على أهل مملكته يغصبهم أموالهم ويسلبهم ما في أيديهم، وكانت الكهنة تخبره أنه سيقتلونه فلا يحفل بذلك وأن امرأته سمعت أصوات السأل فقالت: إني لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ونحن في العيش الرغد وإني لأخاف عليك أن يصيروا سباعًا وقد كانوا لنا أتباعًا فردَّ عليها: جوِّع كلبك يتبعك، وأرسلها مثلًا فلبث بذلك زمانًا ثم أغزاهم فغنموا ولم يقسم فيهم شيئًا، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه وهو أميرهم: قد ترى ما نحن فيه من الجهد ونحن نكره خروج الملك منكم أهل البيت إلى غيركم فساعدنا على قتل أخيك واجلس مكانه وكان قد عرف بغيه واعتداءه عليهم فأجابهم إلى ذلك فوثبوا عليه فقتلوا مقربه عامر بن جذيمة وهو مقتول وقد سمع بقوله: جوِع كلبك يتبعك فقال: ربما أكل الكلب مؤدبه إذا لم ينل شبعة، فأرسلها مثلًا.

(أجناؤها أبناؤها).

قال أبو عبيد: الأجناء هم أجناة والأبناء البناة، والواحد جان وبان وهذا جمع عزيز في الكلام أن يجمع فاعل على أفعال قال: وأصل المثل أن ملكًا من ملوك اليمن غزا وخلف بنتًا وأن ابنته أحدثت بعده بنيانًا قد كان أبوها يكرهه؛ وإنما فعلت ذلك برأي قوم من أهل مملكته أشاروا عليها وزينوه عندها، فلما قدم الملك وأخبر بمشورة أولئك ورأيهم أمرهم بأعيانهم أن يهدموه.وقال عند ذلك: أجناؤها أبناؤها، فذهبت مثلًا يضرب في سوء المشورة والرأي، وللرجل يعمل الشيء بغير روية ثم يحتاج إلى نقض ما عمل وإفساده، ومعنى المثل أن الذين جنوا على هذه الدار بالهدم هم الذين عمروها بالبناء.

(الجرع أروى والرشيف أنقع).

الرشف والرشيف المص للماء والجرع بلعه والنقع تسكين الماء للعطش؛ أي أن الشراب الذي يترشف قليلًا قليلًا أقطع للعطش وأنجع وإن كان فيه بطء وقوله: أروى أي أسرع ريًّا وقوله: أنقع أي أثبت وأدوم ريًّا من قولهم سم ناقع أي ثابت يضرب لمن يقع في غنيمة فيؤمر بالمبادرة والاقتطاع لما قدر عليه قبل أن يأتيه من ينازعه وقيل: معناه أن الاقتصاد في المعيشة أبلغ وأدوم من الإسراف فيها.

(الجار ثم الدار).

هذا كقولهم: الرفيق قبل الطريق، وكلاهما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو عبيد: كان بعض فقهاء أهل الشام يحدث بهذا الحديث ويقول: معناه إذا أردت شراء دار فسل عن جوارها قبل شرائها.

(جف حجرك وطلب نشرك أكلت دهشًا وحطبت قشًّا).

قال يونس بن حبيب: كان من حديث هذين المثلين أن امرأة زارتها بنت أخيها وبنت أختها فأحسنت تزويرهما فلما كان عند رجوعهما قالت لابنة أخيها: جف حجرك وطاب نشرك، فسرت الجارية بما قالت لها عمتها وقالت لابنة أختها: أكلت دهشًا وحطبت قشًّا فوجدت بذلك الصبية وشق عليها ما قالت لها خالتها فانطلقت بنت الأخ إلى أمها مسرورة فقالت لها أمها: ما قالت لك عمتك؟ فقالت: قالت لي خيرًا ودعت لي قالت: وكيف قالت لك؟ قالت: قالت: جف حجرك وطاب نشرك، قالت: أي بنية، ما دعت لك بخير ولكن دعت بأن لا تشمي ولدًا أبدًا فيبل حجرك ويغير نشرك، وانطلقت الأخرى إلى أمها فقالت لها أمها: ما قالت لك خالتك؟ قالت: وما عسى أن تقول لي؟ دعت الله عليَّ قالت: وكيف قالت لك؟ قالت: قالت: أكلت دهشًا وحطبت قشًّا قالت: بل دعت الله لك يا بنية أن يكثر ولدك فينازعوك في المال ويقمشوك حطبًا.

(حرك لها حوارها تحن).

الحوار ولد الناقة والجمع القليل أحورة والكثير حوران وحيران، ولا يزال حوارًا حتى يفصل فإذا فصل عن أمه فهو فصيل، ومعنى المثل ذكره بعض أشجانه يهيج له، وهذا المثل قاله عمرو بن العاص لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهل الشام.

(حسبك من شر سماعه).

أي اكتف من الشر بسماعه ولا تعاينه، ويجوز أن يريد يكفيك سماع الشر وإن لم تقدم عليه ولم تنسب إليه قال أبو عبيد: أخبرني هشام بن الكلبي أن المثل لأم الربيع ابن زياد العبسي وذلك أن ابنها الربيع كان

أخذ من قيس بن زهير بن جذيمة درعًا فعرض قيس لأم الربيع وهي على راحلتها في مسير لها، فأراد أن يذهب بها ليرتهنها بالدرع فقالت له: أين عزب عنك عقلك يا قيس؟ أترى ني زياد مصالحيك وقد ذهبت بأمهم يمينًا وشمالًا وقال الناس: ما قالوا أو شاءوا وأن حسبك من شر سماعه فذهبت كلمتها مثلًا تقول: كفى بالمقالة عارًا وإن كان باطلًا يضرب عند العار والمقالة السيئة وما يخاف منها، وقال بعض النساء الشواعر:

سائل بنا في قومنا ... وليكف من شر سماعه

وكان المفضل فيما حكي عنه يذكر هذا الحديث ويسمى أم الربيع ويقول: هي فاطمة بنت الخرشب من بني أنمار بن بغيض.

(حلمي أصم وأذني غير صماء).

أي: أعرض عن الخنا بحلمي وإن سمعته بأذني.

(حسبك من غني شبع وري).

أي: أقنع من الغنى بما يشبعك ويرويك وجسد بما فضل، وهذا المثل لامرئ القيس يذكر معزى كانت له فيقول:

إذا ما لم تكن إبل فمعزى ... كأن قرون جلتها العصي

فتملأ بيتنا أقطًا وسمنًا ... وحسبك من غنى شبع وري

قال أبو عبيد: وهذا يحتمل معنيين أحدهما يقول: أعط كل ما كان لك وراء الشبع والري، والآخر القناعة باليسير يقول: اكتف به ولا تطلب ما سوى ذلك، والأول الوجه لقوله في شعر له آخر وهو:

ولو إنما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنمـا أسـعى لمجـد مؤثـل وقـد يـدرك المجـد المؤثـل أمثـالي
ومـا المـرء مـا دامـت حشاشة نفسه بمـدرك أطـراف الخطـوب ولا آل

فقد أخبر ببعد همته وقدره في نفسه.

(الحديث ذو شجون).

أي ذو طرق، الواحد شجن بسكون الجيم، والشواجن أودية كثيرة الشجر الواحدة شاجنة، وأصل هذه الكلمة الاتصال والالتفاف ومنه الشجنة والشجنة الشجرة الملتفة الأغصان، يضرب هذا المثل في الحديث يتذكر به غيره، وقد نظم الشيخ أبو بكر علي بن الحسين القهستاني هذا المثل ومثلًا آخر في بيت واحد وأحسن ما شاء وهو:

تـذكر نجـدًا والحـديث شـجون فجـنَّ اشـتياقًا والجنـون فنـون

وأول من قال هذا المثل ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وكان له ابنان يقال لأحدهما أسعد وللآخر سعيد، فنفرت إبل لضبة تحت الليل فوجه ابنيه في طلبها فتفرقا فوجدها سعد فردها ومضى سعيد في طلبها فلقيه الحارث بن كعب وكان على الغلام بردان فسأله الحارث إياهما فأبى عليه فقتله وأخذ برديه، فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادًا قال: أسعد أم سعيد؟ فذهب قوله مثلًا يضرب في النجاح والخيبة فمكث ضبة بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أنه حج فوافى عكاظ فلقي بها الحارث بن كعب ورأى عليه بردى ابنه سعيد فعرفهما فقال له: هل أنت مخبري ما هذان البردان اللذان عليك؟ قال: بل لقيت غلامًا وهما عليه فسألته إياهما، فأبى عليّ فقتلته وأخذت برديه هذين فقال ضبة: بسيفك هذا؟ قال: نعم فقال: فأعطنيه أنظر إليه فإني أظنه صار ما فأعطاه الحارث

سيفه فلما أخذه من يده هزه وقال: الحديث ذو شجون، ثم ضربه به حتى قتله فقيل له: يا ضبة أفي الشهر الحرام؟ فقال: سبق السيف العذل، فهو أول من سارعته هذه الأمثال الثلاثة، قال الفرزدق:

لا تأمنن الحرب إن استعارها كضبة إذ قال الحديث شجون

(الحزم حفظ ما كلفت وترك ما كفيت).

هذا من كلام أكثم بن صيفي، وقريب من هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

(خذ الأمر بقوابله).

أي بمقدماته؛ يعني دبره قبل أن يفوتك تدبيره، والباء بمعنى في؛ أي فيما يستقبلك منه يقال قبل الشيء وأقبل يضرب في الأمر باستقبال الأمور.

(خطب يسير في خطب كبير).

قاله قصير بن سعد اللخمى لجذيمة بن مالك بن نصر الذي يقال له: جذيمة الأبرش وجذيمة الوضاح، والعرب تقول للذي به البرص به وضح تفاديًا من ذكر البرص، وكان جذيمة ملك ما على شاطئ الفرات، وكانت الزباء ملكة الجزيرة وكانت من أهل باجرمى وتتكلم بالعربية، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها فلما استجمع أمرها وانتظم شمل ملكها أحبت أن تغزو جذيمة ثم رأت أن تكتب إليه أنها لم تجده لك النساء إلا قبحًا في السماع وضعفًا في السلطان وأنها لم تجد لملكها موضعًا ولا لنفسها كفؤاد غيرك، فأقبل إلي لأجمع ملكي إلى ملكك وأصل بلادي ببلادك،

وتقلد أمري مع أمرك؛ تريد بذلك الغدر، فلما أتى كتابها جذيمة وقدم عليه رسلها استخفه ما دعته إليه ورغب فيما أطمعته فيه، فجمع أهل الحِجا والرأي من ثقاته وهو يومئذ ببقة من شاطئ الفرات فعرض عليهم ما دعته إليه وعرضت عليه فاجتمع رأيهم على أن يسير إليها فيستولى على ملكها، وكان فيهم قصير وكان أريبًا حازمًا أثيرًا عند جذيمة فخالفهم فيما أشاروا به وقال: رأي فاتر وغدر حاضر فذهبت كلمته مثلًا ثم قال لجذيمة: الرأي أن تكتب إليها، فإن كانت صادقة في قولها فلتقبل إليك وإلا لم تمكنها من نفسك ولم تقع في حبالتها وقد وترتها وقتلت أباها فلم يوافق جذيمة ما أشار به فقال: قصير.

إني امرؤ لا يميل العجز ترويني إذا أتت دون شيء مرة الوذم

فقال جذيمة: لا ولكنك امرؤ رأيك في الكن لا في الضح فذهبت كلمته مثلًا، ودعا جذيمة عمرو بن عدي ابن أخته فاستشاره فشجعه على المسير وقال: إن قومي مع الزباء، ولو قد رأوك صاروا معك فأحب جذيمة ما قاله وعصى قصيرًا فقال: قصير لا يطاع لقصير أمر فذهبت مثلًا، واستخلف جذيمة عمرو بن عدي على ملكه وسلطانه وجعل عمرو بن عبد الجن معه على جنوده وخيوله وسار جذيمة في وجوه أصحابه فأخذ على شاطئ الفرات من الجانب الغربي، فلما نزل دعا قصيرًا فقال: ما الرأي يا قصير؟ قال قصير: ببقة خلفت الرأي فذهبت مثلًا قال: وما ظنك بالزباء؟ قال: القول رداف والحزم عثراته تخاف فذهبت مثلًا، واستقبله رسل الزباء بالهدايا والألطاف فقال: يا قصير كيف ترى؟ قال: خطب يسير في خطب كبير، فذهبت مثلًا وستلقاك الخيول فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة وإن أخذت جنبتيك وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك فاركب العصا، فإنه لا يشق غبارها، فذهبت مثلًا وكانت العصا فرسًا

لجذيمة لا تجاري وإني راكبها ومسايرك عليها فلقيته الخيول والكتائب فحالت بينه وبين العصا فركبها قصير ونظر إليه جذيمة على متن العصا موليًا فقال: ويل أمه حزمًا على متن العصا، فذهبت مثلًا وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت وقد قطعت أرضًا بعيدة فبنى عليها برحا يقال له: برج العصا وقالت العرب: خير ما جاءت به العصا، فذهبت مثلًا وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيل حتى دخل على الزباء، فلما رأته تكشفت فإذا هي مضفورة الأسب فقالت: يا جذيمة أدأب عروس ترى فذهبت مثلًا، فقال جذيمة: بلغ المدى وجف الثرى وأمر غدر أرى فذهبت مثلًا ودعت بالسيف والنطع ثم قالت: إن دماء الملوك شفاء من الكلب فأمرت بطست من ذهب قد أعدته له فسقته الخمر حتى سكر وأخذت الخمر منه مأخذها فأمرت براهشيه فقطعا وقدمت إليه الطست وقد قيل لها: إن قطر من دمه شيء في غير الطست طلب بدمه، وكانت الملوك لا تقتل بضرب الأعناق إلا في القتال تكرمة للملك، فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه في غير الطست فقالت: لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة: دعوا دما ضيعه أهله فذهبت مثلًا، فهلك جذيمة وجعلت الزباء دمه في ربعة لها وخرج قصير من الحي الذي هلكت العصا بين أظهرهم حتى قدم على عمرو بن عدى وهو بالحيرة فقال له قصير: أثائر أنت؟ قال: بل ثائر سائر فذهبت مثلًا، ووافق قصير الناس وقد اختلفوا فصارت طائفة مع عمرو بن عدي اللخمي وجماعة منهم مع عمرو بن عبد الجن الجرمي فاختلف بينهما قصير حتى اصطلحا وانقاد عمرو بن عبد الجن لعمرو بن عدي فقال قصير لعمرو بن عدى: تهيأ واستعد ولا تطل دم خالك قال: وكيف لي بها وهي أمنع من عقاب الجو؟ فذهبت مثلًا وكانت الزباء سألت كاهنة لها عن هلاكها فقالت: أرى هلاكك بسبب غلام مهين غير أمين وهو

عمرو بن عدي ولن تموتي بيده ولكن حتفك بيدك ومن قبله ما يكون ذلك فحذرت عمرًا واتخذت لها نفقًا من مجلسها الذي كانت تجلس فيه إلى حصن لها في داخل مدينتها وقالت: إن فجأني أمر دخلت النفق إلى حصني ودعت رجلًا مصورًا من أجود أهل بلادهم تصويرًا وأحسنهم عملًا فجهزته وأحسنت إليه وقالت: سر حتى تقدم على عمرو بن عدي متنكرًا فتخلوا بحشمه وتنضم إليه وتخالطهم وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور، ثم أثبت لي عمرو بن عدي معرفة فصوره جالسًا وقائمًا وراكبًا ومتفضلًا ومتسلحًا بهيأته ولبسته ولونه، فإذا أحكمت ذلك فأقبل إلي، فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدي وصنع ما أمرته به الزباء وبلغ من ذلك ما أوصته به ثم رجع إلى الزباء بعمل ما وجهته له من الصورة على ما وصفت وأرادت أن تعرف عمرو بن عدي فلا تراه على حال إلا عرفته وخذرته وعملت عمله فقال قصير لعمر بن عدي: اجدع أنفي واضرب ظهري ودعني وإياها فقال عمرو: ما أنا بفاعل وما أنت لذلك مستحقًّا عندي فقال قصير: خل عني إذًا وخلاك ذم، فذهبت مثلًا فقال له عمرو: فأنت أبصر فجدع قصير أنفه وآثر آثارًا بظهره فقالت العرب: لمكر ما جدع قصير أنفه، وفي ذلك يقول المتلمس:

وفي طلب الأوتار ماخر أنفه قصير ورام الموت بالسيف بيهس

ثم خرج قصير كأنه هارب وأظهر أن عمرًا فعل ذلك به وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره من الزباء فسار قصير حتى قدم على الزباء فقيل لها: إن قصيرًا بالباب فأمرت به فأدخل عليها فإذا أنفه قد جدع وظهره قد ضرب فقالت: ما الذي أرى بك يا قصير؟ قال: زعم عمرو أني قد غررت خاله زينت له المصير إليك وغششته ومالأتك ففعل بي ما ترين فأقبلت إليك وعرفت أني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك فأكرمته وأصابت

عنده من الحزم والرأي ما أرادت، فلما عرف أنها استرسلت إليه ووثقت به قال: إن لي بالعراق أموالًا كثيرة وطرائف وثيابًا وعطرًا فابعثيني إلى العراق لأحمل مالي وأحمل إليك من بزوزها وطرائفها وثيابها وطيبها وتصيبين في ذلك أرباحًا عظامًا وبعض ما لا غنى بالملوك عنه وكان أكثر ما يطرفها من التمر الصرفان، وكان يعجبها فلم يزل يزين ذلك حتى أذنت له ودفعت له أموالًا وجهزت معه عبيدًا فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق وأتى الحيرة متنكرًا فدخل على عمرو فأخبره الخبر وقال: جهزني بصنوف البز والأمتعة لعل الله يمكن من الزباء فتصيب ثأرك وتقتل عدوك، فأعطاه حاجته فرجع بذلك إلى الزباء فأعجبها ما رأت وسرها وازدادت به ثقة وجهزته ثانية فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ثم عاد الثالثة وقال لعمرو: اجمع لي ثقات أصحابك وهيئ الغرائر والمسوح واحمل كل رجلين على بعير في غرارتين، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة، فمن قاتلهم قتلوه وإن أقبلت الزباء تريد النفق جللتها بالسيف، ففعل عمرو ذلك وحمل الرجال في الغرائر بالسلاح وسار يكمن النهار ويسير الليل، فلما صار قريبًا من مدينتها تقدم قصير فبشرها وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف وقال لها آخر البز على القلوص، فأرسلها مثلًا وسألها أن تخرج فتنظر إلى ما جاء به وقال لها: جئت بما صاء وصمت، فذهبت مثلًا ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ في الأرض من ثقل أحمالها فقالت يا قصير:

ما للجمال مشيها وئيدًا ... أجندلًا يحملن أم حديدا؟

أمر صرفانا تارزًا شديدًا

فقال قصير في نفسه ... بل الرجال قبضًا قعودا

فدخلت الإبل المدينة حتى كان آخرها بعيرًا مر على بواب المدينة وكان بيده منخسة فنخس بها الغراة فأصابت خاصرة الرجل الذي فيها فضرط فقال البواب بالرومية: بشذب ساقًا يقول: شر في الجوالق، فأرسلها مثلًا فلما توسطت الإبل المدينة أنيخت ودل قصير عمرًا على باب النفق الذي كانت الزباء تدخله وأرته إياه قبل ذلك وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح، وقام عمرو على باب النفق وأقبلت الزباء تريد النفق فأبصرت عمرًا فعرفته بالصورة التي صورت لها فمضت خاتمها وكان فيه السم وقالت: بيدي لا بيد ابن عدي، فذهبت كلمتها مثلًا وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها وانكفأ راجعًا إلى العراق، وفي بعض الروايات مكان قولها أداب عروس ترى أشوار عروس ترى فقال جذيمة: أرى دأب فاجرة غدو بظراء تفلة قالت: لا من عدم مواس ولا من قلة أواس؛ ولكن شيمة من أناس، فذهبت مثلًا.

(الدين النصيحة).

الأصل في النصيحة التلفيق بين الناس من النصح وهو الخياطة وذلك أن تلفق بين التفاريق، وهذا من حديث يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمامه قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم». قالت: العلماء النصيحة لله أن يخلص العبد العمل لله، والنصيحة لرسوله أن يصفو قلبه في قبول دعوى النبوة ولا يضمر خلافها، والنصيحة للمسلمين أن لا يتميزوا عنه في حال من الأحوال، وقيل: النصيحة لأئمة المسلمين أن لا يشق عصاهم ولا يعق فتواهم.

(رب أخ لك لم تلده أمك).

يروى هذا المثل للقمان بن عاد وذلك أنه أقبل ذات يوم فبينا هو يسير إذ أصابه عطش فهجم على مظلة في فنائها امرأة تداعب رجلًا فاستسقى لقمان فقالت المرأة: للبن تبغي أم الماء؟ قال لقمان: أيهما كان ولا عداء فذهبت كلمته مثلًا قالت المرأة: أما اللبن فخلفك وأما الماء فأمامك قال لقمان: المنع كان أوجز فذهبت مثلًا قال: فبينا هو كذلك إذ نظر إلى صبي في البيت يبكي فلا يكترث له ويستسقى فلا يسقى فقال: إن لم يكن لكم في هذا الصبى خاجة دفعتموه إليَّ فكفلته فقالت المرأة: ذاك إلى هانئ وهانئ زوجها فقال لقمان: وهانئ من العدد فذهبت مثلًا ثم قال لها: من هذا الشاب إلى جنبك فقد علمته ليس ببعلك قالت: هذا أخي قال لقمان: رب أخ لك لم تلده أمك، فذهبت مثلًا ثم نظر إلى أثر زوجها في فتل الشعر فعرف في فتله شعر البناء أنه أعسر فقال: ثكلت الأعيسر أمه لو يعلم العلم لطال غمه، فذهبت مثلًا فذعرت المرأة من قوله ذعرًا شديدًا فعرضت عليه الطعام والشراب فأبى وقال: المبيت على الطوى حتى تنال به كريم المثوى خير من إتيان ما لا تهوى، فذهبت مثلًا ثم مضى حتى إذا كان مع العشاء إذا هو برجل يسوق إبله وهو يرتجز ويقول:

روحي إلى الحي فإن نفسي ... رهينة فيهم بخير عرس
حسانة المقلة ذات أنس ... لا يشتري اليوم لها بأمس

فعرف لقمان صورته ولم يره فهتف به: يا هانئ فقال: ما بالك؟ فقال:

يا ذا البجاد الحلكه ... والزوجة المشتركه
عش رويدًا إبلكه ... لست لمن ليست لكه

فذهبت مثلًا قال هانئ: نور نور الله أبوك قال لقمان: على التنوير وعليك التغيير إن كان عندك نكير كل امرئ في بينه أمير فذهبت مثلًا ثم

قال: إني مررت وبي أوام فدفعت إلى بيت فإذا أنا بامرأتك تغزل رجلًا فسألتها عنه فزعمته أخاها ولو كان أخاها لحكى عن نفسه وكفاها الكلام فقال هانئ: وكيف علمت أن المنزل منزلي والمرأة امرأتي؟ قال: عرفت عقائق هذه النوق في البناء وبوهدة الخلية في الفناء وسقب هذه الناب وأثر يدك في الإطناب قال: صدقتني فداك أبي وأمي وكذبتني نفسي فما الرأي؟ قال: هل لك علم؟ قال: نعم بشأني قال لقمان: كل امرئ بشأنه عليم، فذهبت مثلًا قال له هانئ: هل بقيت بعد هذه؟ قال لقمان: نعم قال: وما هو؟ قال: تحمي نفسك وتحفظ عرسك قال هانئ: أفعل قال لقمان: من يفعل الخير يجد الخير، فذهبت مثلًا ثم قال: الرأي أن تقلب الظهر بطنًا والبطن ظهرًا حتى يتبين لك الأمر أمرًا قال: أفلا أعالجها بكية توردها المنية فقال لقمان: آخر الدواء إليكي، فأرسلها مثلًا ثم انطلق الرجل حتى أتى امرأته فقص عليها القصة وسل سيفه فلم يزل يضربها به حتى بردت.

(رب عجلة تهب ريثًا).

ويروى: تهب ريثًا، قال أبو زيد: وريثًا نصب على الحال في هذه الرواية؛ أي تهب رائثة فأقيم المصدر مقام الحال وفي الرواية الأولى نصب على المفعول به وأول من قال ذلك فيما يحكى المفضل مالك بن عوف بن أبي عمرو بن عوف بن محلم الشيباني، وكان سنان بن مالك بن أبي عمرو بن عوف بن محلم شام غيمًا فأراد أن يرحل بامرأته خماعة بنت عوف بن أبي عمرو فقال له مالك: أين تظعن يا أخي؟ قال: أطلب موقع هذه السحابة قال: لا تفعل فإنه ربما خيلت وليس فيها قطر وأنا أخاف عليك بعض مقانب العرب قال: لكني لست أخاف ذلك فمضى وعرض له مروان القرظ بن زنباع بن حذيفة العبسي، فأعجله عنها وانطلق

بها وجعلها بين بناته وأخواته ولم يكشف لها سترًا فقال مالك بن عوف لسنان: ما فعلت أختى؟ قال: نفتني عنها الرماح فقال مالك: رب عجلة تهب ريثًا ورب فرقة يدعى ليثًا ورب غيث لم يكن غيثًا، فأرسلها مثلًا يضرب للرجل يشتد حرصه على حاجة ويخرق فيها حتى تذهب كلها.

(رب ساع لقاعد).

ويروى معه: وآكل غير حامد يقال: إن أول من قاله النابغة الذبياني وكان وفد إلى النعمان بن المنذر وفود من العرب فيهم رجل من عبس يقال له: شقيق فمات عنده، فلما حبا النعمان الوفود بعث إلى أهل شقيق بمثل حباء الوفد فقال النابغة حين بلغه ذلك: رب ساع لقاعد، وقال للنعمان:

أبقيت للعبسي فضلًا ونعمة	ومحمدة من باقيات المحامد
حباء شقيق فوق أعظم قبره	وما كان يحبي قبله قبر وافد
أتى أهله منه حباء ونعمة	ورب امرئ يسعى لآخر قاعد

ويروى: أسلمي أم خالد رب ساع لقاعد قالوا: إن أول من قال ذلك معاوية بن أبي سفيان وذلك أنه لما أخذ من الناس البيعة ليزيد ابنه قال له: يا بني قد ضيرتك ولي عهدي بعدي وأعطيتك ما تمنيت فهل بقيت لك حاجة أو في نفسك أمر تحب أن أفعله قال يزيد: يا أمير المؤمنين ما بقيت لي حاجة ولا في نفسي غصة ولا أمر أحب أن أناله إلا أمر واحد قال: وما ذاك يا بني؟ قال: كنت أحب أن أتزوج أم خالد امرأة عبد الله بن عامر بن كريز فهي غايتي ومنيتي من الدنيا، فكتب معاوية إلى عبد الله بن عامر فاستقدمه فلما قدم عليه أكرمه وأنزله أيامًا ثم خلا به فأخبره بحال يزيد

ومكانه منه وإيثاره هواه وسأله طلاق أم خالد على أن يطعمه فارس خمس سنين، فأجابه إلى ذلك وكتب عهده وخلى عبد الله سبيل أم خالد فكتب معاوية إلى الوليد بن عتبة وهو عامل المدينة أن يعلم أم خالد أن عبد الله قد طلقها التعتد، فلما انقضت عدتها دعا معاوية أبا هريرة فدفع إليه ستين ألفًا وقال له: ارحل إلى المدينة حتى تأتي أم خالد فتخطبها على يزيد وتعلمها أنه ولي عهد المسلمين وأنه سخي كريم وأن مهرها عشرون ألف دينار وكرامتها عشرون ألف دينار وهديتها عشرون ألف دينار، فقدم أبو هريرة المدينة ليلًا فلما أصبح أتى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيه الحسن بن علي فسلم عليه وسأله: متى قدمت؟ قال: قدمت البارحة قال: وما أقدمك؟ فقص عليه القصة فقال له الحسن: فاذكرني لها قال: نعم، ثم مضى فلقيه الحسين بن علي وعبيد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهم فسألاه عن مقدمه، فقص عليهما القصة فقالا له: اذكرنا لها قال: نعم ثم مضى فلقيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن مطيع بن الأسود فسألوه عن مقدمه فقص عليهم القصة فقالوا: اذكرنا لها قال: نعم، ثم أقبل حتى دخل عليها فكلمها بما أمر به معاوية ثم قال لها: إن الحسن والحسين ابني علي وعبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس وابن الزبير وابن مطيع سألوني أن أذكرهم لك قالت: أما همي فالخروج إلى بيت الله والمجاورة له حتى أموت أو تشير عليَّ بغير ذلك، قال أبو هريرة: أما أنا فلا أختار لك هذا قالت: فاختر لي قال: اختاري لنفسك قالت: لا، بل اختر أنت لي قال لها: أما أنا فقد اخترت لك سيدي شباب أهل الجنة فقالت: قد رضيت بالحسن بن علي فخرج إليه أبو هريرة فأخبر الحسن بذلك وزوجها منه وانصرف إلى معاوية بالمال وقد كان بلغ معاوية قصته، فلما دخل عليه قال له: إنما بعثتك خاطبًا ولم

أبعثك محتسبًا قال أبو هريرة: غنها استشارتني والمستشار مؤتمن، فقال معاوية عند ذلك: أسلمي أم خالد رب ساع لقاعد وآكل غير حامد، فذهبت مثلًا.

(رب زارع لنفسه حاصد سواه).

قال ابن الكلبي: أول من قال ذلك عامر بن الظرب وذلك أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال: يا صعصعة إنك جئت تشتري مني كبدي وأرحم ولدي عندي منعتك أو بعتك النكاح خير من الأيمة والحسيب كفؤا لحسيب والزوج الصالح بعد أبًا وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك ثم أقبل على قومه فقال: يا معشر عدو أن أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم؛ ولكن من خط له شيء جاءه رب زارع لنفسه حاصد سواه ولولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيء يعيش به ولكن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى ثم قسمه أكلًا لكل فم بقلة ومن الماء جرعة أنكم ترون ولا تعلمون لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذي قلب واع ولكل شيء راع ولكل رزق ساع، إما أكيس وإما أحمق، وما رأيت شيئا قط إلا سمعت حسه ووجدت مسه وما رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا وما رأيت جائيًا إلا داعيًا ولا غانمًا إلا خائبًا ولا نعمة إلا ومعها بؤس ولو كان يميت الناس الداء لأحباهم الدواء فهل لكم في العلم العليم؟ قيل: ما هو؟ قد قلت فأصبت وأخبرت فصدقت فقال: أمورًا شتى وشيئًا شيا حتى يرجع الميت حيا ويعود لا شيء شيئًا، ولذلك خلقت الأرض والسماء فتولوا عنه راجعين فقال: ويلها نصيحة وكان من يقبلها.

(زينب سترة).

قالوا: هي زينب بنت عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن المخزومي، وكانت عجوزًا كبيرة ولها جوار مغنيات وكان ابن زهيمة المدني الشاعر واسمه محمد مولى خالد بن أسيد يتعشق بعض جواريها ويشبب بها ويغنيه يونس الكاتب ويلقيه على جواريها فيسر بذلك ويصلها ويكسوها فمن قوله فيها:

أقصدت زينب قلبي بعدما ذهب الباطل مني والغزل

وله فيها أشعار ثم إن زينب حجبتها الشيء بلغها فقال ابن زهيمة:

وجد الفؤاد بزينبا وجدًا شديدًا متعبا
أمسيت من كلف بها ادعى الشقي المسهبا
ولقد كنيت عن اسمها عمدًا لكيلا تغضبا
وجعلت زينب سترة وكنيت أمرًا معجبا

يضرب عند الكناية عن الشيء.

(زرْ غبًّا تزدد حبًّا).

قال المفضل: أول من قال ذلك معاذ بن صرم الخزاعي وكانت أمه من عك وكان فارس خزاعة، وكان يكثر زيارة أخواله قال: فاستعار منهم فرسًا وأتى قومه فقال له رجل يقال له جحيش بن سودة وكان له عدوًّا: تسابقني على أن من سبق صاحبه أخذ فرسه فسابقه فسبق معاذ وأخذ فرس جحيش وأراد أن يغيظه فطعن أيطل الفرس بالسيف فسقط فقال: لا أم لك قتلت فرسًا خيرًا منك ومن والديك فرفع معاذ السيف فضرب مفرقه فقتله ثم لحق بأخواله وبلغ الحي ما صنع فركب أخ لجحيش وابن

عم له فلحقاه فشد على أحدهما فطعنه فقتله، وشد على الآخر فضربه به بالسيف فقتله وقال في ذلك:

ضربت جحيشًا ضربة لا لئيمة ولكن بصاف ذي طرائق مستك
قتلت جحيشًا بعد قتل جواده وكنت قديمًا في الحوادث ذا فتك
قصدت لعمرو بعد بدر بضربة فخرَّ صريعًا مثل عاثرة النسك
لكي يعلم الأقوام أني صارم خزاعة أجدادي وأني إلى عك
فقد ذقت يا جحش بن سودة وجربتني إن كنت من قبل في شك
تركت جحيشًا ثاويًا ذا نوائح خضيب دم جاراته حوله تبكي
ترن عليه أمه بانتحابها وتقشر جلدي محجريها من الحك
ليرفع أقوامًا حلولي فيهم ويزرى بقوم إن تركتهم تركي
وحصنى سراء الطرف والسيف وعطري غبار الحرب لا عبق
تتوق غداة الروغ نفسي إلى الوغى كتوق القطا تسمو إلى الوشل الرك
ولست برعد يد إذا راع معضل ولا في نوادي القوم بالضيق المسك
وكم ملك جدلته بمهند وسابغة بيضاء محكمة السك

قال: فأقام في أخواله زمانًا ثم إنه خرج مع بني أخواله في جماعة من فتيانهم يتصيدون، فحمل معاذ على عسير فلحقه ابن خال له يقال له: الغضبان فقال: خل عن العير فقال: لا ولا نعمت عين فقال له الغضبان: أما والله لو كان فيك خير لما تركت قومك فقال معاذ: زر غبًا تزدد حبًا، فأرسلها مثلًا ثم أتى قومه فأراد أهل المقتول قتله فقال لهم قومه: لا تقتلوا فارسكم وإن ظلم، فقبلوا منه الدية، ومن هذا المثل قال الشاعر:

إذا شئت أن تقلى فزر متواترًا وإن شئت أن تزداد حبًا فزرْ غبًا

وقال آخر:

عليك بإغباب الزيارة أنها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن القطر يسأم دائمًا ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

(زوج من عود خير من قعود).

هذا المثل بعض نساء الأعراب قال المبرد: حدثني علي بن عبد الله عن ابن عائشة قال: كان ذو الأصبع العدواني رجلًا غيورًا له بنات أربع وكان لا يزوجهن غيرة فاستمع عليهن يومًا وقد خلون يتحدثن فقالت قائلة منهم: لتقل كل واحدة منا ما في نفسها ولنصدق جميعًا فقالت كبراهن:

ألا ليت زوجي من ناس ذوي غنى حديث شباب طيب النشر والذكر
لصوق بأكباد النساء كأنه خليفة حان لا يقيم على هجر

وقالت الثانية:

ألا ليته يعطي الجمال بديهة له جفنة تشقى بها النيب والجزر
له حكمات الدهر من غير كبرة تشين فلا وإن لا ضرع غمر

فقلن لها: أنت تريدين سيدًا. وقالت الثالثة:

ألا هل تراها مرة وحليلها أشم كنصل السيف عين المهند
عليم بأدواء النساء ورهطه إذا ما انتمي من أهل بيتي ومحتدي

فقلن لها: أنت تريدين ابن عم لك قد عرفنه وقلن للصغرى: ما تقولين؟ قالت: لا أقول شيئًا فقلن: لا ندعك وذاك أنك قد اطلعت على أسرارنا وتكتمين سرك فقالت: زوج من عو خير من قعود، فخطبن

فزوجن أجمع ثم أمهلهن حولًا، ثم زار الكبرى فقال لها: كيف رأيت زوجك؟ فقالت: خير زوج يكرم أهله وينسى فضله قال: فما مالكم؟ قالت: الإبل قال: وما هي؟ قالت: نأكل لحماتها مزعًا ونشرب ألبانها جرعًا وتحملنا وضعفتنا معًا فقال: زوج كريم ومال عميم. ثم زار الثانية فقال: كيف رأيت زوجك؟ قالت: يكرم الحليلة ويقرب الوسيلة قال: فما مالكم؟ قالت: البقر قال: وما هي؟ قالت: تألف الفناء وتملأ الإناء وتورك السقاء ونساء مع نساء فقال: رضيت فحظيت، ثم زار الثالثة فقال: كيف رأيت زوجك؟ فقالت: لا سمح بذر ولا بخيل حكر قال: فما مالكم؟ قالت: المعزى قال: وما هي؟ قالت: لو كنا نولدها فطمًا ونسلخها أدمًا لم ينبغ بها نعمًا فقال: جذو مغنية، ثم زار الرابعة فقال: كيف رأيت زوجك؟ قالت: شر زوج يكرم نفسه ويهين عرسه قال: فما مالكم؟ قالت: شر مال الضأن قال: وما هي؟ قالت: جوف لا يشبعن وهيم لا ينقعن وصم لا يسمعن وأمر مغويتهن يتبعن فقال: أشبه امرؤ بعض بزة قال علي بن عبدالله: قلت لابن عائشة: ما قولها وأمر مغويتهن يتبعن؟ قال: أما تراهن يمررن فتسقط الواحدة منهن في ماء أو وحل أو غير ذلك فيتبعنها عليه، وقوله: جذو مغنية جمع جذوة؛ وهي القطعة.

(سقط العشاء به على سرحان).

قال أبو عبيد: أصله أن رجلًا خرج يلتمس العشاء فوقع على ذئب فأكله وقال الأصمعي: أصله أن دابة خرجت تطلب العشاء فلقيها ذئب فأكلها وقال ابن الأعرابي: أصل هذا أن رجلًا من غنى يقال له سرحان بن هزلة كان بطلًا فاتكًا يتقيه الناس فقال رجل يومًا: والله لأرعين إبلي هذا

الوادي ولا أخاف سرحان بن هزلة فورد بإبله ذلك الوادي فوجد به سرحان وهجم عليه فقتله وأخذ إبله وقال:

أبلغ نصيحة أن راعي أهلها سقط العشاء به على سرحان
سقط العشاء به على متغشمر طلق اليدين معاود لطعان

يضرب في طلب الحاجة يؤدي صاحبها إلى التلف.

(أساء سمعًا فأساء جابة).

ويروى: ساء سمعنا فأساء إجابة وساء في هذا الموضع تعمل عمل بئس نحو قوله تعالى: {ساء مثلًا} ونصب سمعًا على التميز وأساء سمعًا نصب على المفعول به تقول: أسأت القول وأسأت العمل وقوله: فأساء جابة؛ هي بمعنى إجابة يقال: أجاب إجابة وجابة وجوابًا وجيبة، ومثل الجابة في موضع الإجابة الطاعة والطاقة والغارة والعارة قال المفضل: هذه خمسة أحرف جاءت هكذا قلت: وكلها أسماء وضعت في موضع المصادر قال المفضل: إن أول من قال ذلك سهيل بن عمر أخو بني عامر بن لؤي وكان تزوج صفية بنت أبي جهل بن هشام فولدت له أنس بن سهيل فخرج معه ذات يوم وقد خرج وجهه يريد التنحي فوقفا بحزورة مكة فأقبل الأخنس بن شريق الثقفي فقال: من هذا؟ قال سهيل: ابني قال الأخنس: حياك الله يا فتى قال: لا والله ما أمي في البيت انطلقت إلى أم حنظلة تطحن دقيقًا فقال: أساء سمعًا فأساء جابة، فأرسلها مثلًا فلما رجعا قال أبوه: فضحني ابنك اليوم عند الأخنس قال كذا وكذا فقالت الأم: إنما ابني صبي قال سهيل: أشبه امرؤ بعض بزة، فأرسلها مثلًا.

(سمِّنْ كلبك يأكلك).

ويروى: أسمن قالوا: أول من قال ذلك حازم بن المنذر الحماني وذلك أنه مر بمحلة همدان فإذا هو بغلام ملفوف في المعاوز فرحمه وحمله على مقدم سرجه حتى أتى به منزله وأمر أمة له أن ترضعه فأرضعته حتى فطم وأدرك وراهق الحلم فجعله راعيًا لغنمه وسماه جحيشًا فكان يرعى الشاة والإبل وكان زاجرًا عائفًا فخرج ذات يوم فعرضت له عقاب فعافها، ثم مر به غداف فزجره وقال:

تخبرني شواجح الغدفان والخطب يشهدن مع العقبان

أني جحيش معشري همدان ولست عبدًا لبني حمان

فلا يزال يتغنى بهذه الأبيات وإن ابنة لحازم يقال لها: رعوم هويت الغلام وهويها وكان الغلام ذا منظر وجمال فاتبعته رعوم ذات يوم حتى انتهى إلى موضع الكلأ فسرح الشاة فيه واستظل بشجرة واتكأ على يمينه وأنشأ يقول:

أمالك أم فتدعى لها ولا أنت ذو والد يعرف

أرى الطير تخبرني أنني جحيش وإن أبي حرشف

يقول غراب غدًا سانحًا وشاهده جاهدًا يحلف

بأني لهمدان في غرها وما أنا جاف ولا أهيف

ولكنني من كرام الرجال إذا ذكر السيد الأشرف

وقد كمنت له رعوم تنظر ما يصنع، فرفع صوته أيضًا يتغنى ويقول:

يا حبذا ربيبتي رعوم وحبذا منطقها الرخيم

وريح ما يأتي به النسيم إني بها مكلف أهيم

لو تعلمين العلم يا رعوم إني من همدانها صميم

فلما سمعت رعوم شعره ازدادت فيه رغبة وبه إعجابًا فدنت منه وهي تقول:

طار إليكم عرضًا فؤادي ... وقل من ذكراكمو رقادي
وقد جفا جنبي عن الوساد ... أبيت قدحًا لفتى سهادي

فقام إليها جحيش فعانقها وعانقته وقعدا تحت الشجرة يتغازلان فكانا يفعلان ذلك أيام ثم إن أباها افتقدها يومًا وفطن لها فرصدها حتى إذا خرجت تبعها فانتهى إليهما وهما على سوأة، فلما رآهما قال: سمن كلبك يأكلك، فأرسلها مثلًا وشد على جحيش بالسيف فأفلت ولحق بقومه همدان وانصرف حازم إلى ابنته وهو يقول: موت الحرة خير من العرة، فأرسلها مثلًا فلما وصل إليها وجدها قد اختنقت فماتت فقال حازم: هان على الثكل لسوء الفعل، فأرسلها مثلًا وأنشأ يقول:

قد هان هذا الثكل لولا أنني ... أحببت قتلك بالحسام الصارم
ولقد هممت بذاك لولا أنني ... شمرت في قتل اللعين الظالم
فعليك مقت الله من غدارة ... وعليك لعنته ولعنة حازم

وقال قوم: إن رجلًا من طسم ارتبط كلبًا فكان يسمنه ويطعمه رجاء أن يصيد به فاحتبس عليه بطعمه يومًا، فدخل عليه صاحبه فوثب عليه فافترسه قال عوف بن الأحوص:

أراني وعوف كالمسمن كلبه ... فخدشه أنيابه وأظافره

وقال طرفة:

ككلب طسم وقد تربيه ... يعله بالحليب في الغلس
ظل عليه يومًا بقرقرة ... أن لا يلغ في الدماء ينتهس

(السليم لا ينام ولا ينيم).

قال المفضل: أول من قال ذلك إلياس بن مضر وكان من حديث ذلك فيما ذكر الكلبي عن الشرقي بن القطامي أن إبل إلياس ندت ليلا فنادى ولده وقال: إني طالب الإبل في هذا الوجه وأمر عمرًا ابنه أن يطلب في وجه آخر وترك عامر ابنه لعلاج الطعام قال: فتوجه إلياس وعمرو وانقطع ابنه في البيت مع النساء فقالت ليلى بنت حلوان امرأته لإحدى خادميها: اخرجي في طلب أهلك وخرجت ليلى فلقيها عامر محتقبًا صيدًا قد عالجه فسألها عن أبيه وأخيه فقالت: لا علم لي فأتى عامر المنزل وقال للجارية: قصي أثر مولاك فلما ولت قال لها: تقرصعي أي اتئدي وانقبضي فلم يلبثوا أن أتاهم الشيخ وعمرو ابنه قد أدرك الإبل فوضع لهم الطعام فقال إلياس: السليم لا ينام ولا ينيم، فأرسلها مثلًا وقالت ليلى امرأته: والله إن زلت أخندف في طلبكما والهة قال الشيخ: فأنت خندف قال عامر: وأنا والله كنت أدأب في صيد وطبخ قال: فأنت طابخة قال عمرو: فما فعلت أنا أفضل أدركت الإبل قال: فأنت مدركة وسمي عميرًا قعة لانقماعه في البيت فغلبت هذه الألقاب على أسمائهم، يضرب مثلًا لمن لا يستريح ولا يريح غيره.

(اسع بجدك لا يكدك).

قالوا: إن أول من قال ذلك حاتم عميرة الهمداني وكان بعث ابنيه الحسل وعاجنة إلى تجارة فلقي الحسل قومًا من بني أسد فأخذوا ماله وأسروه وسار عاجنة أيامًا ثم وقع على مال في طريقه من قبل أن يبلغ موضع متجره فأخذه ورجع وقال في ذلك:

كفاني الله بعد السير أني رأيت الخير في السفر القريب

رأيت البعد فيه شقي ونأى ... ووحشة كل منفرد غريب
فأسرعت الإياب بخير حال ... إلى حوراء خرعبة لعوب
وإني ليس يثنيني إذا ما ... رحلت سنوح شحاج نعوب

فلما رجع تباشر به أهله وانتظروا الحسل فلما جاء إبانه الذي كان يجيء فيه ولم يرجع رابهم أمره وبعث أبوه أخًا له لم يكن من أمه يقال له شاكر في طلبه والبحث عنه، فلما دنا شاكر من الأرض التي بها الحسل وكان الحسل عائفًا يزجر الطير فقال:

تخبرني بالنجاة القطاة ... وقول الغراب بها شاهد
تقول ألا قد دنا نازح ... فداء له الطرف والتالد
أخ لم تكن أمنا أمه ... ولكن أبونا أب واحد
تداركني رأفة حاتم ... فنعم المريب والوالد

ثم إن شاكرًا سأل عنه فأخبر بمكانه فاشتراه ممن أسره بأربعين بعيرًا، فلما رجع به قال له أبوه: اسع بجدك لا بكدك، فذهبت مثلًا.

(سر عنك).

قالوا: إن أول من قال ذلك خداش بن حابس التميمي وكان قد تزوج جارية من بني سدوس يقال لها: الرباب وغاب عنها بعدما ملكها أعوامًا فعلقها آخر من قومها يقال له سلم ففضحها وأن سلمًا شردت له إبل فركب في طلبها فوافاه خداش في الطريق فلما علم به خداش كتمه أمر نفسه ليعلم علم امرأته وسارا فسأل سلم خداشًا: ممن الرجل؟ فخبره بغير نسبه فقال سلم:

أغبت عن الرباب وهام سلم بها ولها بعرسك يا خداش
فيا لك بعل جارية هواها صبور حين تضطرب الكباش
ويا لك بعل جارية كعوب تزيد لذاذة دون الرياش
وكنت بها أخا عطش شديد وقد يروى على الظمأ العطاش
فإن أرجع ويأتيها خداش سيخبره بما لاقى الفراش

فعرف خداش الأمر عند ذلك ثم دنا منه فقال: حدثنا يا أخا بني سدوس فقال سلم: علقت امرأة غاب عنها زوجها فأنا أنعم أهل الدنيا بها وهي لذة عيشي فقال خداش: سر عنك فسار ساعة ثم قال: حدثنا يا أخا بني سدوس عن خليلتك قال: تسديت خباءها ليلًا فبت باقر ليلة أعلو وأعلى وأعانق وأفعل ما أهوى فقال خداش: سر عنك وعرف الفضيحة فتأخر واخترط سيفه وغطاه بثوبه ثم لحقه وقال: ما آية ما بينكما إذا جئتها؟ قال: أذهب ليلًا إلى مكان كذا من خبائها وهي تخرج فتقول:

يا ليل هل من ساهر فيك طالب هوى خلة لا ينزحن ملتقاهما
فأجاوبها نعم ساهر قد كابد الليل بهائمه ما هو مت مقلتاهما

فتعرف أني أنا هو ثم قال خداش: سر عنك ودنا حتى قرن ناقته بناقته وضربه بسيفه فأطار قحفه وبقي سائره فوق رحله يضطرب ثم انصرف فأتى المكان الذي وصفه سلم فقعد فيه ليلًا وخرجت الرباب وهي تتكلم بذلك البيت فجاوبها بالآخر فدنت منه وهي ترى أنه سلم فقنعها بالسيف ففلق ما بين المفرق إلى الزور ثم ركب وانطلق يضرب في التغابي والتغاضي عن الشيء قلت: بقي معنى قوله: سر عنك قيل: معناه دعني واذهب عني وقيل: معناه لا تربع على نفسك وإذا لم يربع على نفسه فقد

سارعنها وقيل: العرب تزيد في الكلام عن فتقول: دع عنك الشك أي دع الشك وقيل: أردوا بعنك لا أبا لك وأنشد:

فصار واليوم له بلابل من حب جمل عنك ما يزئل

أي: لا أبا لك، فعلى هذا معناه: سر لا أبالك على عادتهم في الدعاء على الإنسان من غير إرادة الوقوع.

(صدقني سن بكره).

البكر الفتى من الإبل ويقال: صدقته الحديث وفي الحديث يضرب مثلًا في الصدق وأصله أن رجلًا ساوم رجلًا في بكر فقال: ما سنه؟ فقال صاحبه: بازل ثم نفر البكر فقال له صاحبه: هدع هدع وهذه لفظة يسكن بها الصغار من الإبل، فلما سمع المشتري هذه الكلمة قال: صدقني سن بكره ونصب سن على معنى عرفني سن ويجوز أن يقال: أراد صدقني خبر سن ثم حذف المضاف ويروى صدقني سن بالرفع جعل الصدق للسن توسعًا قال أبو عبيد: وهذا المثل يروى عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه أنه أتى فقيل له: إن بني فلان وبني فلان اقتتلوا فغلب بنو فلان فأنكر ذلك ثم أتاه آت فقال: بل غلب بنو فلان للقبيلة الأخرى فقال علي: صدقني سن بكره وقال أبو عمرو: دخل الأحنف على معاوية بعد ما مضى علي رضي الله تعالى عنه فعاتبه معاوية وقال له: أما إني لم أنس ولم أجهل اعتزالك يوم الجمل ببني سعد ونزولك بهم سفوان وقريش تذبح بناحية البصرة ذبح الحيران، ولم أنس طلبك إلى ابن أبي طالب أن يدخلك في الحكومة أن تزيل عني أمرًا جعله الله لي وقضاه ولم أنس تحضيضك بني تميم يوم صفين على نصرة على كل يبكته قال: فخرج الأحنف من عنده فقيل له:

ما صنع بك وما قال لك؟ قال: صدقني سن بكره؛ أي خبرني بما في نفسه وما انطوت عليه ضلوعه.

(صارت الفتيان حممًا).

هذا من قول الحمراء بنت ضمرة بن جابر؛ وذلك أن بني تميم قتلوا سعد ابن هند أخا عمر وابن هند الملك فنذر عمرو ليقتلن بأخيه مائة من بني تميم فجمع أهل مملكته فسار إليهم فبلغهم الخبر فتفرقوا في نواحي بلادهم فأتى دارهم فلم يجد إلا عجوزًا كبيرة وهي الحمراء بنت ضمرة، فلما نظر إليها وإلى حمرتها قال لها: إني لأحسبك أعجمية فقالت: لا والذي أسأله أن يخفض جناحك ويهد عمادك ويضع وسادك ويسلبك بلادك ما أنا بأعجمية قال: فمن أنت؟ قالت: أنا بنت ضمرة بن جابر ساد معد أكابرًا عن كابر وأنا أخت ضمرة بن ضمرة قال: فمن زوجك؟ قالت: هوذة بن جرول قال: وأين هو الآن؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت: هذه كلمة أحمق لو كنت أعلم مكانه حال بينك وبيني قال: وأي رجل هو؟ قالت: هذه أحمق من الأولى أعن هوذة يسأل؟ هو والله طيب العرق سمين العرق لا ينام ليلة يخاف، ولا يشبع ليلة يضاف يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد، فقال عمرو: أما والله لولا أني أخاف أن تلدي مثل أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك فقالت: وأنت والله لا تقتل إلا نساء أعاليها ثدى وأسافلها دمى، والله ما أدركت ثأرًا ولا محوت عارًا وما من فعلت هذه به بغافل عنك ومع اليوم غد، فأمر بإحراقها فلما نظرت إلى النار قالت: ألا فتى مكان عجوز، فذهبت مثلًا ثم مكثت ساعة فلم يفدها أحد فقالت: هيهات صارت الفتيان حممًا، فذهبت مثلًا ثم ألقيت في النا ولبث عمرو عامة يومه لا يقدر على أحد حتى إذا كان في آخر النهار أقبل راكب يسمى

عمارًا توضع به راحلته حتى أناخ إليه فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا رجل من البراجم قال: فما جاء بك إلينا؟ قال: سطع الدخان وكنت قد طويت منذ أيام فظننته طعامًا فقال عمرو: إن الشقي وافد البراجم، فذهبت مثلًا وأمر به فألقي في النار فقال بعضهم: ما بلغنا أنه أصاب من بني تميم غيره وإنما أحرق النساء والصبيان، وفي ذلك يقول جرير:

وأخزاكم عمرو كما قد خزيتم ... وأدرك عمار أشقى البراجم

ولذلك عيرت بنو تميم بحب الطعام لما لقى هذا الرجل قال الشاعر:

إذا ما مات ميت من تميم ... فسرك أن يعيش فجئ بزاد

بخبز أو بلحم أو بتمر ... أو الشيء الملفف في البجاد

تراه ينقب الآفاق حولًا ... ليأكل رأس لقمان بن عاد

(صغراهن شراهن).

ويروى: صغراها شراها، ويروى: مراها، وأول من قال ذلك امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد وكان لها زوج يقال له: الشجي وخليل يقال له الخلي فنزل لقمان بهم فرأى هذه المرأة ذات يوم انتبذت من بيوت الحي فارتاب لقمان بأمرها فتبعها فرأى رجلًا عرض لها ومضيا جميعا وقضيا حاجتهما ثم إن المرأة قالت للرجل: إني أتماوت فإذا أسندوني في رجمي فائتني ليلًا فأخرجني ثم اذهب إلى مكان لا يعرفنا أهله، فلما سمع لقمان ذلك قال: ويل للشجي من الخلي، فذهبت مثلًا ثم رجعت المرأة إلى مكانها وفعلت ما قالت فأخرجها الرجل وانطلق بها أيامًا إلى مكان آخر ثم تحولت إلى الحي بعد برهة فبينا هي ذات يوم قاعدة مرت بها بناتها فنظرت إليها الكبرى فقالت: أمي والله فقالت: الوسطى صدقت والله

قالت المرأة: كذبتا ما أنا لكما بأم ولا للأبيكما بامرأة فقالت لهما الصغرى: أما تعرفان محياها وتعلقت بها وصرخت فقالت الأم حين رأت ذلك: صغراهن شراهن، فذهبت مثلًا ثم إن الناس اجتمعوا فعرفوها فرفعوا القصة إلى لقمان بن عاد وقالوا له: اقض بيننا، فلما نظر لقمان إلى المرأة عرفها فقال: عند جهينة الخبر اليقين؛ يعني نفسه وما عاين منها، فأخبر لقمانُ الزوج بما عرف وأقبل على المرأة فقصَّ عليها قصتها كيف صنعت وكيف قالت لصديقها، فلما أتاها بما لا تنكر قالت: ما كان هذا في حسابي، فأرسلتها مثلًا فقيل للقمان: أحكم فيها؟ فقال: ارجموها كما رجمت نفسها في حياتها فرجمت فقال الشجي: احكم بيني وبين الخلي فقد فرق بيني وبين أهلي فقال: يفرق بين ذكره وأنثييه كما فرق بينك وبين أنثاك فأخذ الخلي فجب ذكره.

(صحيفة المتلمس).

قال المفضل: كان من حديثه أن عمرو بن المنذر بن امرئ القيس كان يرشح أخاه قابوس، وهما لهند بنت الحارث بن عمرو الكندي آكل المرار ليملك بعده فقدم عليه المتلمس وطرفة فجعلهما في صحابة قابوس وأمرهما بلزومه وكان قابوس شابًا يعجبه اللهو وكان يركب يومًا في الصيد فيركض ويتصيدوهما معه يركضان حتى رجعا عشية وقد لغيا فيكون قابوس من الغد في الشراب فيقفان بباب سرادقه إلى العشي وكان قابوس يومًا على الشراب فوقفا ببابه إليها ركله ولم يصلا إليه فضجر طرفة وقال:

فليت لنا مكان الملك عمرو   رغوثًا حول قبتنا تخور

من الزمرات أسبل قادماها   وضرتها مركنة درور

يشاركنا لنا رخلان فيها ... وتعلوها الكباش فما تنور
لعمرك أن قابوس ابن هند ... ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمن رخي ... كذاك الحكم بقصد أو يجور
لنا يوم وللكر وأن يوم ... تطير البائسات ولا نطير
فأما يومهن فيوم سوء ... يطاردهن بالحدب الصقور
وأما يومنا فنظل ركبًا ... وقوفًا ما نحل ولا نسير

وكان طرفة عدوًّا لابن عمه عبد عمرو وكان كريمًا على عمرو ابن هند وكان سمينًا بادنًا فدخل مع عمرو والحمام فلما تجرد قال عمرو ابن هند: لقد كان ابن عمك طرفة رآك حين قال ما قال وكان طرفة هجا عبد عمرو فقال:

ولا خير فيه غير أن له غنى ... وأن له كشحًا إذا قام أهضما
تظل نساء الحي يعكفن حوله ... يقلن عسيب من سرارة ملهما
له شربتان بالعشي وشربة ... من الليل حتى آض جبسًا مورما
ويشرب حتى يغمر المحض قلبه ... فإن أعطه أترك لقلبي مجثما

فلما قال له ذلك قال عبد عمرو: إنه قال ما قال وأنشده: فليت لنا مكان الملك عمرو، فقال عمرو: ما أصدقك عليه وقد صدقه ولكن خاف أن ينذره وتدرك الرحمة فمكث غير كثير ثم دعا المتلمس وطرفة فقال: لعلكما قد اشتقتما إلى أهلكما وسركما أن تنصرفا قالا: نعم فكتب لهما إلى أبي كرب عامله على هجر أن يقتلهما وأخبرهما أنه قد كتب لهما بحباء ومعروف وأعطى كل واحد منهما شيئًا فخرجا وكان المتلمس قد أسن فمرا بنهر الحيرة على غلمان يلعبون فقال المتلمس: هل لك في

كتابينا فإن كان فيهما خير مضينا له وإن كان شر اتقيناه فأبى طرفة عليه فأعطى المتلمس كتابه بعض الغلمان فقرأه عليه فإذا فيه السوأة فألقى كتابه في الماء وقال لطرفة: أطعني وألق كتابك، فأبى طرفة ومضى بكتابه قال: ومضى المتلمس حتى لحق بملوك بني جفنة بالشام وقال المتلمس في ذلك:

من مبلغ الشعراء عن أخويهم ... نبأ فتصدقهم بذاك الأنفس
أودى الذي علق الصحيفة منهما ... ونجا حذار حبائه المتلمس
ألقى صحيفته ونجت كوره ... وجناء مجمرة المناسم عرمس
عيرانة طبخ الهواجر لحمها ... فكان نقيتها أديم أملس
ألق الصحيفة لا أبا لك إنه ... يخشى عليك من الحباء النقرس

ومضى طرفة بكتابه إلى العامل فقتله (وروى) عبيد راوية الأعشى قال: حدثني الأعشى قال: حدثني المتمس واسمه عبد المسيح بن جرير قال: قدمت أنا وطرفة بن العبد على عمرو ابن هند وكان طرفة غلامًا معجبًا تائهًا فجعل يتخلج في عشيه بين يديه فنظر إليه نظرة كادت تقتلعه من مجلسه وكان عمرو لا يتبسم ولا يضحك وكانت العرب تسميه مضرط الحجارة لشدة ملكه وملك ثلاثًا وخمسين سنة، وكانت العرب تهابه هيبة شديدة وهو الذي يقول له الذهاب العجلي واسمه مالك بن جندل بن سلمة من بني عجل ولقب بالذهاب لقوله:

وما سيرهن إذ علون قراقرًا ... بذي أمم ولا الذهاب ذهاب
أبي القلب أن يأتي السدير وأهله ... وإن قيل عيش بالسدير غرير
به البق والحمى وأسد خفية ... وعمرو ابن هند يعتدي ويجور

قال المتلمس: فقلت لطرفة حين قمنا: يا طرفة، إني أخاف عليك من نظرته إليك مع ما قلت لأخيه قال: كلا قال: فكتب إلى المكعبر وكان عامله على البحرين وعمان لي كتابًا ولطرفة كتابًا فخرجنا حتى إذا هبطنا بذي الركاب من النجف إذا أنا بشيخ عن يساري يتبرز ومعه كسرة يأكلها ويقصع القمل فقلت: تالله إن رأيت شيخًا أحمق وأضعف وأقل عقلًا منك قال: ما تنكر؟ قلت: تتبرز وتأكل وتقصع القمل قال: أخرج خبيثًا وأدخل طيبًا وأقتل عدوًا وأحمق مني والأم حامل حتفه بيمينه لا يدري ما فيه فنبهني وكأنما كنت نائمًا، فإذا أنا بغلام من أهل الحيرة يسقى غنيمة له من نهر الحيرة فقلت: يا غلام أتقرأ؟ قال: نعم قلت: اقرأ فإذا فيه باسمك اللهم من عمرو ابن هند إلى المكعبر إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًا، فألقيت الصحية في النهر وذلك حين أقول:

ألقيتها بالثنى من جنب كافر ... كذلك أقنو كل قط مضلل
رضيت لها لما رأيت مدادها ... يجول به التيار في كل جدول

وقلت: يا طرفة معك والله مثلها؟ قال: كلا ما كان ليكتب بمثل ذلك في عقر دار قومي فأتى المكعبر فقطع يديه ورجليه ودفنه حيًا يضرب لمن يسعى بنفسه في حينها ويغررها.

(طال الأبد على لبد).

يعنون آخر نسور لقمان بن عاد وكان قد عمر عمر سبعة أنسر وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في جوبة في الجبل الذي هو في أصله فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه حتى هلكت كلها إلا السابع أخذه فوضعه في ذلك الموضع وسماه لبد، وكان

أطولها عمرًا فضربت العرب به المثل فقالوا: طال الأبد على لبد، قال الأعشى:

وأنت الذي ألهيت قيلا بكاسه ولقمان إذ خيرت لقمان في العمر
لنفسك أن تختار سبعة أنسر إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
فعمر حتى خال أن نسوره خلود وهل تبقى النفوس على الدهر

فعاش لقمان زعموا ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، قال النابغة: أخنى عليها الذي أخنى على لبد. وقال لبيد:

ولقد جرى لبد فأدرك جريه ريب المنون وكان غير مثقل
لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل
من تحته لقمان يرجو نهضه ولقد يرى لقمان أن لا يأتلي

قال أبو عبيدة: هو لقمان بن عاد بن لجين بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح كأنه جعل عاديًا، وعاد اسمي رجل والعرب تزعم أن لقمان خير بين بقاء سبع بعرات سمر من أظب عفر في جبل وعر لا يمسها القطر، وبين بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاستحقر الأبعار واختار النسور فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ له: يا عم، ما بقى من عمرك إلا عمر هذا فقال لقمان: هذا البد ولبد بلسانهم الدهر فلما انقضى عمر لبد رآه لقمان واقعًا فناداه أنهض لبد فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات ومات لقمان معه فضرب به المثل، فقيل: طال الأبد على لبد وأتى أبد على أبد.

(أظن ماءكم هذا ماء عناق).

قالوا: كان من حديثه أن رجلًا بينا هو يستقي وبيته تلقاء وجهه فنظر فإذا هو برجل معانق امرأته يقبلها فأخذ العصا وأقبل مسرعًا لا يشك فيما رأى فلما رأته امرأته جعلت الرجل في خالفة البيت بين الخالفة والمتاع فنظر يمينًا وشمالًا فلم ير شيئًا وخرج فنظر في الأرض فلم ير شيئًا فكذب بصره فقالت المرأة: كأنها تريه أنها قد استنكرت من أمره شيئًا ما دهاك يا أبا فلان أرعبك شيء فكتمها الذي رأى ومضى لحاجته، فلما كان في الورد الثاني قالت: يا أبا فلان، هل لك أن أكفيك السقى وتودع اليوم، فإني قد أشفقت عليك؟ قال: نعم إن شئت، فأقام في المنزل فانطلقت تسقى وتحينت منه غفلة فأخذت العصا ثم أقبلت حتى تفلق بها رأسه فشجته فقال: ويلك ما لك وما دهاك؟ قالت: وما دهاني يا فاسق أين المرأة التي كانت معك تعانقها؟ فقال: لا والله ما كانت عندي امرأة وما عانقت اليوم امرأة قالت: بلى أنا نظرت إليها بعيني وأنا على الماء فتحالفها، فلما أكثرت قال: إن تكوني صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق، يضرب مثلًا في الدواهي، قاله أبو عمرو وروى غيره عناق بفتح العين وقال: العناق والعناقة الخيبة، وأنشد:

سرى لك بالعناقة من سعاد   خيال فاجتنى ثمر الفؤاد

وهما مستعاران للخيبة والأمر المظلم من عناق الأرض، ومنه قولهم: لقيت منه أذني عناق؛ لأنهما مسودان ولا يفارقهما السواد.

(عند الصباح يحمد القوم السرى).

قال المفضل: إن أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضي الله تعالى عنهما وهو باليمامة: أن سر إلى العراق فأراد سلوك المفازة فقال له رافع الطائي: قد سلكتها في الجاهلية هي خمس للإبل

الواردة ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء فاشترى مائة شارف فعطشها ثم سقاها الماء حتى رويت ثم كتبها وكعم أفواهها ثم سلك المفازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل، وخشي أن يذهب ما في بطون الإبل نحر الإبل واستخرج ما في بطونها من الماء فسقى الناس والخيل ومضى، فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع: انظروا هل ترون سدرًا عظيمًا؟ فإن رأيتموه وإلا فهو الهلاك فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه؛ فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء فقال خالد:

لله در رافع أني اهتدى ... فوز من قراقر إلى سوى
خمسًا إذا سار به الجيش بكى ... ما سارها من قبله أنس يرى
عند الصباح يحمد القوم السرى ... وتنجلي عنهم غيابات الكرى

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة.

(عند جهينة الخبر اليقين).

قال هشام بن الكلبي: كان من حديثه أن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خرج ومعه رجل من جهينة يقال له: الأخنس بن كعب وكان الأخنس قد أحدث في قومه حدثًا فخرج هاربًا فلقيه الحصين فقال له: من أنت ثكلتك أمك؟ فقال له الأخنس: بل من أنت ثكلتك أمك؟ فردد هذا القول حتى قال الأخنس: أنا الأخنس بن كعب فأخبرني من أنت؟ وإلا أنفذت قلبك بهذا السنان فقال له الحصين: أنا الحصين بن عمرو الكلابي ويقال: بل هو الحصين بن سبيع الغطفاني فقال له الأخنس: فما الذي تريد؟ قال: خرجت لما يخرج له الفتيان قال الأخنس: وأنا خرجت لمثل ذلك فقال له الحصين: هل لك أن نتعاقد أن لا نلتقي أحدًا من عشيرتك

أو عشيرتي إلا سلبناه؟ قال: نعم، فتعاقدا على ذلك وكلاهما فاتك يحذر صاحبه فلقيا رجلًا فسلباه فقال لهما: هل لكما أن تردا عليَّ بعض ما أخذتما مني وأدلكما على مغنم؟ قالا: نعم فقال: هذا رجل من لخم قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير وهو خلفي في موضع كذا وكذا فردا عليه بعض ماله وطلبا اللخمي فوجداه نازلًا في ظل شجرة وقدامه طعام وشراب فحيياه وحياهما وعرض عليهما الطعام فكره كل واحد أن ينزل قبل صاحبه فيفتك به فنزلا جميعًا فأكلا وشربا مع اللخمي ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه فرجع واللخمي يتشحط في دمه فقال الجهني وهو الأخنس وسل سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولًا ويحك ويحك فتكت برجل قد تحرمنا بطعامه وشرابه فقال: اقعد يا أخا جهينة، فلهذا وشبهه خرجنا فشربا ساعة وتحدثا ثم إن الحصين قال: يا أخا جهينة أتدري ما صنعا وما صنعا؟ قال الجهني: هذا يوم شرب وأكل، فسكت الحصين حتى إذا ظن أن الجهني قد نسي ما يراد به قال: يا أخا جهينة هل أنت للطير زاجر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ما تقول هذه العقاب الكاسر؟ قال الجهني: وأين تراها؟ قال: هي هذه وتطاول ورفع رأسه إلى السماء فوضع الجهني بادرة السيف في نحره فقال: أنا الزاجر والناحر واحتوى على متاعه ومتاع اللخمي وانصرف راجعًا إلى قومه فمر ببطنين من قيس يقال لها مراح وأنمار فإذا هو بامرأة تنشد الحصين بن سبيع فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا صخرة امرأة الحصين قال: أنا قتلته فقالت: كذبت ما مثلك يقتل مثله أما لو لم يكن الحي خلوًّا ما تكلمت بهذا، فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم ثم جاءهم فوقف حيث يسمعهم وقال:

وكم من ضيغم ورد هموس ... أبي شبلين مسكنه العرين
علوت بياض مفرقه بعضب ... فأضحى في الفلاة له سكون

وأضحت عرسه ولها عليه بعيد هدء ليلتها دنين
وكم من فارس لا تزدريه إذا شخصت لموقعه العيون
كصخرة إذ تسائل في مراح وأنمار وعلمهما ظنون
تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين
فمن يك سائلًا عنه فعندي لصاحبه البيان المستبين
جهينة معشري وهم ملوك إذا طلبوا المعالي لم يهونوا

قال الأصمعي وابن الأعرابي: هو جفينة بالفاء، وكان عنده خبر رجل مقتول وفيه يقول الشاعر:

تسائل عن أبيها كل ركب وعند جفينة الخبر اليقين

قال: فسألوا جفينة فأخبرهم خبر القتيل وقال بعضهم: هو حفينة بالحاء المهملة يضرب في معرفة الشيء حقيقة.

(العاشية تهيج الآبية).

يقال: عشوت في معنى تعشيت وغدوت في معنى تغديت ورجل عشيان أي متعش وقال ابن السكيت: عشى الرجل وعشيت الإبل تعشى عشى إذا تعشت قال أبو النجم: يعشى إذا أظلم عن عشائه يقول يتعشى وقت الظلمة قال المفضل: خرج السليك بن السلكة واسمه الحارث بن عمرو بن زيد مناة بن تميم وكان أنكر العرب وأشعرهم وكانت أمه أمة سوداء وكان يدعي سليك المقانب وكان أدل الناس بالأرض وأعداهم على رجله لا تعلق به الخيل، وكان يقول: اللهم إنك تهيئ ما شئت لما شئت إذا شئت أني لو كنت ضعيفًا لكنت عبدًا ولو كنت امرأة لكنت أمة، اللهم إني أعوذ بك من الخشية، فأما الهيبة فلا هيبة؛ أي لا أهاب أحدًا

زعموا أنه خرج يريد أن يغير في ناس من أصحابه فمر على بني شيبان في ربيع والناس مخصبون في عشية فيها ضباب ومطر، فإذا هو ببيت قد انفرد من البيوت عظيم وقد أمسى فقال لأصحابه: كونوا بمكان كذا وكذا حتى آتي هذا البيت فلعلي أصيب خيرًا أو آتيكم بطعام فقالوا له: افعل، فانطلق إليه وجن عليه الليل فإذا البيت بيت يزيد بن رويم الشيباني وإذا الشيخ وامرأته بفناء البيت فاحتال سليك حتى دخل البيت من مؤخره فلم يلبث أن أراح ابن الشيخ بإبله في الليل فلما رآه الشيخ غضب وقال: هلا كنت عشيتها ساعة من الليل؟ فقال ابنه: إنها أبت العشاء فقال يزيد: إن العاشية يهيج الآبية فأرسلها مثلًا ثم نفض الشيخ ثوبه في وجهها فرجعت إلى مراتعها وتبعها الشيخ حتى مالت لأدنى روضة فرتعت فيها وقعد الشيخ عندها يتعشى وقد خنس وجهه في ثوبه من البرد وتبعه السليك حتى رآه انطلق، فلما رآه مغترًا ضربه من ورائه بالسيف فأطار رأسه وأطرد إبله وقد بقي أصحاب السليك وقد ساء ظنهم وخافوا عليه فإذا به يطرد الإبل فأطردوها معه فقال سليك في ذلك:

وعاشية روح بطان ذعرتها ... بصوت قتيل وسطها يتسيف

أي: يضرب بالسيف.

كان عليه لون برد محبر ... إذا ما أتاه صارخ متلهف

يريد بقوله: لون برد محبر طرائق الدم على القتيل وبالصارخ الباكي المتحزن له.

فبات لها أهل خلاء فناؤهم ... ومرت بهم طير فلم يتعيفوا

أي: لم يزجروا الطير فيعلموا من جملتها أيقتل هذا أو يسلم.

وباتوا يظنون الظنون وصحبتي إذا ما علوا نشزا أهلوا وأوجفوا

أي: حملوها على الوجيف وهو ضرب من السير.

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف

أي: أصبر.

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني إذا قمت يغشاني ظلال فاسدف

خص الصيف دون الشتاء لأن بالصيف لا يكاد يجوع أحد لكثرة اللبن، فإذا جاع هو دل على أنه كان لا يملك شيئًا وقوله أسدف يريد أدور فأدخل في السدفة وهي الظلمة -يعني يظلم بصري من شدة الجوع- يقال: إنه كان افتقر حتى لم يبق عنده شيء فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه فيذهب بإبله حتى إذا أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة اشتمل الصماء؛ وهو أن يرد فضل ثوبه على عضده اليمنى ثم ينام عليها فبينا هو نائم إذ جثم عليه رجل فقال له: استأسر فرفع سليك رأسه وقال: الليل طويل وأنت مقمر فذهب قوله مثلًا ثم جعل الرجل يلهزه ويقول: يا خبيث استأسر فلما أذاه أخرج سليك يده فضم الرجل ضمة ضرط منها فقال: أضرطا وأنت الأعلى فذهبت مثلًا وقد ذكرته في باب الضاد ثم قال له سليك: من أنت؟ فقال: أنا رجل افتقرت فقلت: لأخرجن فلا أرجع حتى أستغني قال: فانطلق معي فانطلق حتى وجدا رجلًا قصته مثل قصتهما فاصطحبوا جميعًا حتى أتوا الجوف جوف مراد الذي باليمن إذا نعم قد ملأ كل شيء من كثرته فهابوا أن يغيروا فيطردوا بعضها فيلحقهم الحي فقال لهما سليك: كونا قريبًا حتى آتي الرعاء فأعلم لكما علم الحي أقريب هم أم بعيد، فإن كانوا قريبًا

رجعت إليكما وإن كانوا بعيدًا قلت لكما قولًا أجيء به لكما فأغيرا فانطلق حتى أتى الرعاء فلم يزل يتسقطهم حتى أخبروه بمكان الحي فإذا هم بعيد أن طلبوا لم يدركوا فقال السليك: ألا أغنيكم؟ قالوا: بلى فتغنى بأعلى صوته:

يا صاحبي ألا لا حي بالوادي إلا عبيد وآم بين أذواد
أتنظراني قليلًا ريث غفلتهم أم تغدوان فإن الريح للغازي

الوآم الوفاق والمباهاة، فلما سمعا ذلك أتياه فأطردوا الإبل فذهبوا بها ولم يبلغ الصريخ الحي حتى مضوا بما معهم.

(في بيته يؤتى الحكم).

هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم قالوا: إن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها وانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب: يا أخا الحسل فقال: سميعًا دعوت قالت: أتيناك لنختصم إليك قال: عادلًا حكمتما قالت: فاخرج إلينا قال: في بيته يؤتى الحكم قالت: إني وجدت تمرة قال: حلوة فكليها قالت: فاختلسها الثعلب قال: لنفسه بغى الخير قالت: فلطمته قال: بحقك أخذت قالت: فلطمني قال: حر انتصر قالت: فاقض بيننا قال: قد قضيت فذهبت أقواله كلها أمثالًا. (قلت) ومما يشبه هذا ما حكى أن خالد بن الوليد لما توجه من الحجاز إلى أطراف العراق دخل عليه عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة فقال له خالد: أين أقصى أثرك؟ قال: ظهر أبي قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي قال: علام أنت؟ قال: على الأرض قال: فيم أنت؟ قال: في ثيابي قال: فمن أين أقبلت؟ قال: من خلفي؟ قال: أين تريد؟ قال: أمامي قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد قال: أتعقل أنت؟ قال: نعم وأقيد قال: أحرب

أنت أم سلم؟ قال: سلم قال: فما بال هذه الحصون: قال بنيناها لسفيه حتى يجيء حليم فينهاه، ومثل هذا أن عدي بن أرطأة أتى إياس بن معاوية قاضي البصرة في مجلس حكمه وعدي أمير البصرة وكان أعرابي الطبع فقال: لا بأس يا هناه أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط قال: فاسمع مني قال: للاستماع جلست قال: إني تزوجت امرأة قال: بالرفاء والبنين قال: وشرطت لأهلها أن لا أخرجها من بينهم قال: أوف لهم بالشرط قال: فأنا أريد الخروج قال: في حفظ الله قال: فاقض بيننا قال: قد فعلت قال: فعلى من حكمت؟ قال: على ابن أخي عمك قال: بشهادة من قال بشهادة ابن أخت خالتك.

(في سبيل الله سرجي وبغلي).

أول من قال ذلك المقدام بن عاطف العجلي وكان قد وفد على كسرى فأكرمه فلما أراد الانصراف حمله على بغل مسرج من مراكبه، فلما وصل إلى قومه قالوا: ما هذا الذي أتيتنا به؟ فأنشأ يقول:

أتيتكم ببغل ذي مراح ... أقب حمولة الملك الهمام

يجول إذا حملت عليه سرجا ... كما جال المفدح ذو اللجام

وما يزداد إلا فضل جرى ... إذا ما مسه عرق الحزام

وليست أمه منه وما أن ... أبوه من المسومة الكرام

له أم مفدحة صفون ... وكان أبوه ذا دبر دوامي

وكان يروضه رياضة الخيل فرمحه رمحة كسر بها شرًا سيفه فمرض من ذلك برهة وأمر بالبغل فحمل عليه الكور وأمتعة الحي ولم يعلق فنفق البلغ وبرئ المقدام من مرضه فركب إلى الصيد وحمل السرج على ناقة

له علوق فلما ركبها ومسها وقع الركابين هوت به قيد رمحين وطارت به في الأرض، فلم يقدر عليها وتقطع السرج فقال المقدام: نفق البغل وأودى سرجنا في سبيل الله سرجي وبغلي يضرب في التسلي عما يهلك ويودي به الزمان.

(قد حيل بين العير والنزوان).

أول من قال ذلك صخر بن عمرو أخو الخنساء قال ثعلب: غزا صخر بن عمرو بني أسد بن خزيمة فاكتسح إبلهم فجاءهم الصريخ فركبوا فالتقوا بذات الإبل فطعن أبو ثور الأسدي صخرًا طعنة في جنبه وأفلت الخيل فلم يقعص مكانه وجوى منها فمرض حولًا حتى مله أهله فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى: كيف بعلك؟ فقالت: لا حي فيرجى ولا ميت فينعى لقد لقينا منه الأمرين فقال صخر: أرى أم صخر لا تمل عيادتي. وفي رواية أخرى: فمرض زمانًا حتى ملته امرأته وكان يكرمها فمر بها رجل وهي قائمة وكانت ذات خلق وإدراك فقال لها: يباع الكفل فقالت: نعم عما قليل وكان ذلك يسمعه صخر فقال: أما والله لئن قدرت لأقدمنك قبلي ثم قال لها: ناوليني السيف أنظر إليه هل تقله يدي؟ فناولته فإذا هو لا يقله فقال:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ... وملت سلمى مضجعي ومكاني

فأي امرئ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا في شقا وهوان

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ومن يغتر بالحدثان

فللموت خير من حياة كأنها ... معرس يعسوب برأس سنان

لعمري لقد نبهت من كان نائمًا ... وأسمعت من كانت له أذنان

قال أبو عبيدة: فلما طال به البلاء وقد نتأت قطعة من جنبه مثل اللبد في موضع الطعنة قيل له: لو قطعتها لرجونا أن تبرأ فقال: شأنكم وأشفق عليه قوم فنهوه فأبى فأخذوا شفرة فقطعوا ذلك الموضع فيئس من نفسه وقال:

أجارتنا أن الحتوف تنوب ... على الناس كل المخطئين تصيب

أجارتنا أن تسأليني فإنني ... مقيم لعمري ما أقام عسيب

كأني وقد أدنو لحز شفارهم ... من الصبر دامي الصفحتين نكيب

ثم مات فدفن إلى جنب عسيب؛ وهو جبل يقرب من المدينة وقبره معلم هناك.

(قد أنصف القارة من راماها).

القارة قبيلة وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة وإنما سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد الشداخ أن يفرقهم في بني كنانة فقال شاعرهم:

دعونا قارة لا تنفرونا ... فنجفل مثل أجفال الظليم

وهي رماة الحدق في الجاهلية وهم اليوم في اليمن ويزعمون أن رجلين التقيا أحدهما قاري فقال القاري: إن شئت صارعتك وإن شئت سابقتك وإن شئت راميتك فقال الآخر: قد اخترت المراماة فقال القاري: قد أنصفتني وأنشأ يقول:

قد أنصف القالرة من راماها ... أنا إذا ما فئة نلقاها

ترد أولاها على أخراها

ثم انتزع له بسهم فشك به فؤاد قال أبو عبيد: أصل القارة الأكمة وجمعها قورة قال ابن وافد: وإنما قيل أنصف القارة من راماها في حرب كانت بين قريش وبين بكر بن عبد مناف بن كنانة قال: وكانت القارة مع قريش وهم قوم رماة، فلما التقى الفريقان راماهم الآخرون فقيل قد أنصفهم هؤلاء إذ ساووهم في العمل الذي هو شأنهم وصناعتهم وفي بعض الآثار: ألا أخبركم بأعدل الناس قيل بلى قال: من أنصف من نفسه وفي بعضها أيضًا أشد الأعمال ثلاثة أنصاف الناس من نفسك والمواساة بالمال وذكر الله تعالى على كل حال.

(قد قيل ذلك أن حقاوان كذبا).

قالوا: إن أول من قال ذلك النعمان بن المنذر اللخمي للربيع بن زياد العبسي وكان له صديقًا ونديمًا وأن عامرًا ملاعب الأسنة وعوف بن الأحوص وسهيل بن مالك ولبيد بن ربيعة وشماسًا الفزاري وقلابة الأسدي قدموا على النعمان وخلفوا لبيد يراعي إبلهم وكان أحدثهم سنًّا وجعلوا يغدون إلى النعمان ويروحون فأكرمهم وأحسن نزلهم غير أن الربيع كان أعظم عنده قدرًا، فبينما هم ذات يوم عند النعمان إذ رجز بهم الربيع وعابهم وذكرهم بأقبح ما قدر عليه فلما سمع القوم ذلك انصرفوا إلى رحالهم وكل إنسان منهم مقبل على بته وروح لبيد السؤال فلما رأى أصحابه وما بهم من الكآبة سألهم مالكم؟ فكتموه فقال لهم: والله لا أحفظ لكم متاعًا ولا أسرح لكم إبلًا أو تخبروني بالذي كنتم فيه؛ وإنما كتموا عنه لأن أم لبيد امرأة من بني عبس وكانت يتيمة في حجر الربيع فقالوا: خالك قد غلبنا على الملك وصد بوجهه عنا فقال لبيد: هل فيكم من يكفيني الإبل وتدخلونني على النعمان معكم فواللات والعزى لأدعنه

لا ينظر إليه أبدًا فخلفوا في إبلهم قلابة الأسدي وقالوا للبيد: أو عندك خير؟ قال: سترون قالوا: إنا نبلوك في هذه البقلة لبقلة بين أيديهم دقيقة الأغصان قليلة الأوراق لاصقة بالأرض تدعى التربة صفها لنا واشتمها فقال: هذه التربة التي لا تذكى نارًا ولا تؤهل دارًا ولا تسر جارًا عودها ضئيل وفرعها كليل وخيرها قليل شر البقول مرعى وأقصرها فرعًا، فتعسًا لها وجدعًا القوابي أخا عبس أرده عنكم بتعس وأدعه من أمره في لبس قالوا: نصبح فنرى رأينا فقال لهم عامر: انظروا هذا الغلام فإن رأيتموه نائمًا فليس أمره بشيء إنما يتكلم بما جاء على لسانه ويهذي بما يهجس في خاطره وإن رأيتموه ساهرًا فهو صاحبكم، فرمقوه فرأوه قد ركب رحلًا حتى أصبح فخرج القوم وهو معهم حتى دخلوا على النعمان وهو يتغدى والربيع يأكل معه فقال لبيد: أبيت اللعن أتأذن لي في الكلام؟ فأذن له فأنشأ يقول:

يا رب هيجاهي خير من دعه ... أكل يوم هامتي مقرعه

نحن بنو أم البنين الأربعة ... ونحن خير عامر بن صعصعه

المطعمون الجفنة المدعدعة ... والضاربون الهام تحت الخيضعه

يا واهب الخير الكثير من سعه ... إليك جاوزنا بلادًا مسبعه

تخبر عن هذا خبيرًا فاسمعه ... مهلًا أبيت اللعن لا تأكل معه

إن استه من برص معلمه ... وأنه يدخل فيها أصبعه

يدخلها حتى يوارى أشجعه ... كأنه يطلب شيئًا أطمعه

ويروى ضيعه، فلما سمع النعمان الشعر أفف ورفع يده من الطعام وقال للربيع: أكذاك أنت؟ قال: لا واللات لقد كذب ابن الفاعلة قال النعمان: لقد خبث عليَّ طعامي، فغضب الربيع وقام وهو يقول:

لـئن رحلـت ركـابي أن لـي سـعة ... مـا مثلـه سـعة عرضًـا ولا طـولا
ولـو جمعـت بنـي لخـم بأسـرهم ... ما وازنـوا ريشة مـن ريش سمويلا
فـابرق بأرضـك يـا نعمـان متكئًـا ... مـع النطاسـى طـورًا وابـن تـوفيلا

وقال: لا أبرح أرضك حتى تبعث إلي من يفتشني فتعلم أن الغلام كاذب، فأجابه النعمان:

شرد برحلك عني حيث شئت ولا ... تكثـر علـي ودع عنـك الأبـاطيلا
فقـد رميـت بـداء لـست غاسـله ... مـا جـاور النيـل يومًـا أهـل إبليلا
قـد قيـل ذلـك إن حقًّـا وإن كـذبا ... فمـا اعتـذارك عـن شـيء إذا قـيلا

قوله: بنو أم البنين الأربعة هم خمسة: مالك بن جعفر ملاعب الأسنة وطفيل بن مالك أبو عامر بن الطفيل وربيعة بن مالك وعبيدة بن مالك ومعاوية بن مالك، وهم أشراف بني عامر فجعلهم أربعة لأجل القافية وسمويل أحد أجداد الربيع وهو في الأصل اسم طائر وأراد بالنطاسي روميًا يقال له: سرحون وابن توفيل رومي آخر كانا ينادمان النعمان.

(كل فتاة بأبيها معجبة).

يضرب في عجب الرجل برهطه وعشيرته وأول من قال ذلك العجفاء بنت علقمة السعدي؛ وذلك أنها وثلاث نسوة من قومها خرجن فاتعدن بروضة يتحدثن فيها فوافين بها ليلًا في قمر زاهر وليلة طلقة ساكنة ورضة معشبة خصبة، فلما جلسن قلن: ما رأينا كالليلة ليلة ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحًا ولا أنضر ثم أفضن في الحديث فقلن: أي النساء أفضل؟ قالت إحداهن: الخرود الودود الولود قالت الأخرى: خيرهن ذات الغناء وطيب الثناء وشدة الحباء قالت الثالثة: خيرهن السموع الجموع

النفوع غير المنوع قالت الرابعة: خيرهن الجامعة لأهلها الوادعة الرافعة لا الواضعة قلن: فأي الرجال أفضل؟ قالت إحداهن: خيرهم الحظي الرضي غير الحظال ولا النبال قالت الثانية: خيرهم السيد الكريم ذو الحسب العميم والمجد القديمْ قالت الثالثة: خيرهم السخي الوفي الرضي الذي لا يغير الحرة ولا يتخذ الضرة قالت الرابعة: وأبيكن إن في أبي لنعتكن كرم الأخلاق والصدق عند التلاق والفلج عند اسباق ويحمده أهل الرفاق قالت الفجعاء عند ذلك: كل فتاة بأبيها معجبة، وفي بعض الروايات أن إحداهن قالت: إن أبي يكرم الجار ويعظم النار وينحر العشار بعد الحوار ويحمل الأمور الكبار فقالت الثانية: إن أبي عظيم الخطر منيع الوزر عزيز النفر يحمد منه الورد والصدر فقالت الثالثة: إن أبي صدوق اللسان كثير الأعوان يروي السنان عند الطعان قالت الرابعة: إن أبي كريم النزال منيف المقال كثير النوال قليل السؤال كريم الفعال. ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحي فقلن لها: اسمعي ما قلنا واحكمي بيننا واعدلي، ثم أعدن عليها قولهن فقالت لهن: كل واحدة منكن ماردة على الإحسان جاهدة لصواحباتها حامدة؛ ولكن اسمعن قولي: خير النساء المبقية على بعلها الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة فهي تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها، فتلك الكريمة الكملة، وخير الرجال الجواد البطل القليل الفشل إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل كثير النفل. ثم قالت: كل واحدة منكن بأبيها معجبة.

(كل شاة برجلها معلقة).

قال ابن الكلبي: أول من قال ذلك وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد وكان ولي أمر البيت بعد جرهم فبنى صرحًا بأسفل مكة عند سوق

الخياطين اليوم وجعل فيه أمة يقال لها خرورة وبها سميت خرورة مكة، وجعل في الصرح سلمًا فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله تعالى وكان ينطق بكثير من الخبر، وكان علماء العرب يزعمون أنه صديق من الصديقين وكان من قوله: مرضعة أو فاطمة ووادعة وقاصمة والقطيعة والفجيعة وصلة الرحم وحسن الكلم ومن كلامه زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابًا وبالشر عقابًا أن من في الأرض عبيد لمن في السماء، هلكت جرهم وربلت وكذلك الصلاح والفساد فلما حضرته الوفاة جمع إيادًا فقال لهم: اسمعوا وصيتي الكلام كلمتان والأمر بعد البيان من رشد فاتبعوه ومن غوى فارفضوه وكل شاة برجلها معلقة، فأرسلها مثلًا قال: ومات وكيع فنعى على الجبال وفيه يقول بشير بن الحجير الأيادي:

ونحن إياد عباد الإله ورهط مناجيه في سلم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمان النخاع على جرهم

يقال: إن الله سلط على جرهم داء يقال له النخاع فهلك منهم ثمانون كهلًا في ليلة واحدة سوى الشبان، وفيهم قال بعض العرب:

هلكت جرهم الكرام فعالًا وولاة البنية الحجاب
نخعوا ليلة ثمانون كهلًا وشبابًا كفى بهم من شباب

(كيف أعاودك وهذا أثر فأسك).

أصل هذا المثل على ما حكته العرب على لسان الحية أن أخوين كانا في إبل لهما فأجدبت بلادهما وكان بالقرب منهما واد خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المكلئ فرعيت فيه إبلي وأصلحتها فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية

ألا ترى أن أحدًا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته قال: فوالله لأفعلن فهبط الوادي ورعى به إبله زمانًا ثم إن الحية نهشته فقتلته فقال أخوه: والله ما في الحياة بعد أخي خير فلأطلبن الحية ولأقتلنها أولأتبعن أخي فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها فقالت الحية له: ألست ترى أني قتلت أخاك فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارًا ما بقيت؟ قال: أو فاعلة أنت؟ قالت: نعم قال: إني أفعل، فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرها وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالًا ثم إنه ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعمد إلى فأس فأخذها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجحر ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار فخاف الرجل شرها وندم فقال لها: هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟ يضرب لمن لا يفي بالعهد، وهذا من مشاهير أمثال العرب. قال نابغة بني ذبيان:

وإني لألقى من ذوي الغي منهم ... وما أصبحت تشكو من الشجو
كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وكانت تريه المال غبًّا وظاهره
فلما رأى أن ثمر الله ماله ... وأثل موجود أوسد مفاقره
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة من المعاول باتره
فقام لها من فوق جحر مشيد ... ليقتلها أو تخطئ الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللشرعين لا تغمض ناظره
فقال تعالى نجعل الله بيننا ... على مـ لنا أو تنجزي لي آخره
فقالت يمين الله أفعل إنني ... رأيتك مشؤمًا يمينك فاجره

أبـي لـي أثـر لا يـزال مقـابلي وضـربة فـأس فـوق رأسـي فـاقره

(كلاهما وتمرا).

ويروى: كليهما، أول من قال ذلك عمرو بن حمران الجعدي وكان حمران رجلًا لسنًا ماردًا وأنه خطب صدوف وهي امرأة كانت تؤبد الكلام وتسجع في المنطق، وكانت ذات مال كثير وقد أتاها قوم كثير يخطبوها فردتهم وكانت تتعنت خطابها في المسألة وتقول: لا أتزوج إلا من يعلم ما أسأله عنه ويجيبني بكلام على حده لا يعدوه، فلما انتهى إليها حمران قام قائمًا لا يجلس وكان لا يأتيها خاطب إلا جلس قبل أذنها فقالت: ما يمنعك من الجلوس؟ قال: حتى يؤذن لي قالت: وهل عليك أمير؟ قال: رب المنزل أحق بفنائه ورب الماء أحق بسقائه وكل له ما في وعائه فقالت: اجلس فجلس قالت له: ما أردت؟ قال: حاجة ولم آتك لحاجة قالت: تسرها أم تعلنها؟ قال: تسر وتعلن قالت: فما حاجتك؟ قال: قضاؤها هين وأمرها بين وأنت بها أخبر وبنحجها أبصر قالت: فأخبرني بها قال: قد عرضت وإن شئت بينت قالت: من أنت؟ قال: أنا بشر ولدت صغيرًا ونشأت كبيرًا ورأيت كثيرًا قالت: فما اسمك؟ قال: من شاء أحدث اسمًا وقال ظلمًا ولم يكن الاسم عليه حتمًا قالت: فمن أبوك؟ قال: والدي الذي ولدني وولده جدي فلم يعش بعدي قالت: فما مالك؟ قال: بعضه ورثته وأكثره اكتسبته قالت: فممن أنت؟ قال: من بشر كثير عدده معروف ولده قليل صعده بفنيه أبده قالت: ما ورثك أبوك عن أوّليه؟ قال: حسن الهمم قالت: فأين تنزل؟ قال: على بساط واسع في بلد شاسع قريبه بعيد وبعيده قريب قالت: فمن قومك؟ قال: الذين أنتمي إليهم وأجني عليهم وولدت لديهم قالت: فهل لك امرأة؟ قال: لو كانت لي لم أطلب غيرها

ولم أضيع خيرها قالت: كأنك ليست لك حاجة قال: لو لم تكن لي حاجة لم أنخ ببابك ولم أتعرض لجوابك وأتعلق بأسبابك قالت: إنك لحمران بن الأقرع الجعدي؟ قال: إن ذلك ليقال فأنكحته نفسها وفوضت إليه أمرها ثم إنها ولدت له غلامًا فسماه عمرًا فنشأ ماردًا مفوهًا، فلما أدرك جعله أبوه راعيًا يرعى له الإبل فبينا هو يوم إذ رفع إليه رجل قد أضرّ به العطش والسغوب وعمرو قاعد وبين يديه زبد وتمر وتامك، فدنا منه الرجل فقال: أطعمني من هذا الزبد والتامك فقال عمرو: نعم كلاهما وتمرا، فأطعم الرجل حتى انتهى وسقاه لبنًا حتى روى وأقام عنده أيامًا فذهبت كلمته مثلًا ورفع كلاهما أي: لك كلاهما، ونصب تمرًا على معنى وأزيدك تمرًا ومن روى كليهما فإنما نصبه على معنى أطعمك كليهما وتمرا وقال قوم: من رفع حكى أن الرجل قال: أنلني مما بين يديك فقال عمرو: أيما أحب إليك زبد أم سنام؟ فقال الرجل: كلاهما وتمرًا؛ أي مطلوبي كلاهما وأزيد معهما تمرًا أو وزدني تمرًا.

(لن يهلك امرؤ عرف قدره).

قال المفضل: إن أول من قال ذلك أكثم بن صيفي في وصية كتب بها إلى طيئ كتب إليهم: أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم وإياكم ونكاح الحمقا، فإن نكاحها غرر وولدها ضياع وعليكم بالخيل فأكرموها فإنها حصون العرب ولا تضعوا رقاب الإبل في غير حقها، فإن فيها ثمن الكريمة ورقوء الدم وبألبانها يتحف الكبير ويغذى الصغير ولو أن الإبل كلفت الطحن لطحنت ولن يهلك امرؤ عرف قدره والعدم عدم العقل لا عدم المال ولرجل خير من ألف رجل، ومن عتب على الدهر طالت معتبته، ومن رضي بالقسم طابت معيشته، وآفة الرأي الهوى والعادة أملك

والحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغنى والدنيا دول، فما كان لك أتاك على ضعفك وما كان عليك لم تدفعه بقوتك والحسد داء ليس له دواء والشماتة تعقب ومن ير يومًا يره قبل الرماء تملأ الكنائن الندامة مع السفاهة دعامة العقل الحلم خير الأمور مغبة الصبر بقاء المودة عدل التعاهد، من يزرغبًا يزدد حبًا، التغرير مفتاح البؤس من التواني والعجز نتجت الهلكة لكل شيء ضراوة فضر لسانك بالخير، عي الصمت أحسن من عي المنطق، الحزم حفظ ما كلفت وترك ما كفيت كثير التنصح يهجم على كثير لظنه من ألحف في المسألة ثقل من سأل فوق قدره استحق الحرمان الرفق يمن والخرق شؤم خير السخاء ما وافق الحاجة، خير العفو ما كان بعد القدرة، فهذه خمسة وثلاثون مثلًا في نظام واحد.

(لا ماءك أبقيت ولا حرك أنقيت).

ويروى: ولا درنك، أصله أن رجلًا كان في سفر ومعه امرأته وكانت عاركًا فطهرت وكان معهما ماء يسير فاغتسلت فلم يكفها لغسلها وأنفدت الماء فبقيا عطشانين فعندها قال لها هذا القول. وقال المفضل: أول من قال ذلك الضب بن أروى الكلاعي؛ وذلك أنه خرج تاجرًا من اليمن إلى الشام فسار أيامًا ثم حاد عن أصحابه فبقى مفردًا في تيه من الأرض حتى سقط إلى قوم لا يدري من هم فسأل عنهم فأخبر أنهم همدان فنزل بهم وكان طرير ظريفًا وأن امرأة منهم يقال لها: عمرة بنت سبيع هويته وهويها فخطبها الضب إلى أهل بيتها وكانوا لا يزوجون إلا شاعرًا أو عائفًا أو عالمًا بعيون الماء فسألوه عن ذلك فلم يعرف منها شيئًا، فأبوا تزويجه فلم يزل بهم حتى أجابوه فتزوجها ثم أن حيًا من أحياء العرب أرادوا الغارة عليهم فتطيروا بالضب فأخرجوه وامرأته وهي طامث فانطلقا ومع الضب

سقاء من ماء فسار يومًا وليلة وأمامهما عين يطنان أنهما يصبحانها فقالت له: ادفع إلي هذا السقاء حتى أغتسل فقد قارينا العين، فدفع إليها السقاء فاغتسلت بما فيه ولم يكفها ثم صبحا العين فوجداها ناضية وأدركهما العطش فقال لها الضب: لا ماءك أبقيت ولا حرك أنقيت، ثم استظلا بشجرة حيال العين فأنشأ الضب يقول:

تالله ماطلة أصاب بها بعلًا سواي قوارع العطب
وأي مهر يكون أثقل مما طلبوه إذن من الضب
أن يعرف الماء تحت صم الصفا ويخبر الناس منطق الخطب
أخرجني قومها بأن الرحا دارت بشؤم لهم على القطب

فلما سمعت امرأته ذلك فرحت وقالت: ارجع إلى القوم فإنك شاعر فانطلقا راجعين فلما وصلا خرج القوم إليهما وقصدوا ضربهما وردهما فقال لهم الضب: اسمعوا شعري ثم اقتلوني، فأنشدهم شعره فنجا وصار فيهم آثر من بعضهم. قال الفرزدق:

وكنت كذات الحيض لم تبق ماءها ولا هي من ماء العذابة طاهر

(لا يكن حبك كلفًا ولا بغضك تلفًا).

ويروى عن بعض الحكماء أنه قال: لا تكن في الإخاء مكثرًا ثم تكون فيه مدبرًا فيعرف سرفك في الإكثار بجفائك في الأدبار، ومنه الحديث: أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما. ومنه قول النمر بن تولب:

أحبب حبيبك حبًا رويدًا فليس يعولك أن تصرما
وأبغض بغيضك بغضًا رويدًا إذا أنت حاولت أن تحكما

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنما المرء بخليله؛ فلينظر امرؤ من يخالل**». وقريب منه بيت عدى بن زيد:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي

(لا ناقتي في هذا ولا جملي).

أصل المثل للحارث بن عباد حين قتل جساس بن مرة كليبًا وهاجت الحرب بين الفريقين، وكان الحارث اعتزلهما قال الراعي:

وما هجرتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا ولا جملي

يضرب عند التبري من الظلم والإساءة، وذكروا أن محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب شرور لما خرج الناس على الحجاج فقال: لا ناقتي في ذا ولا جملي، فلما دخل بعد ذلك على الحجاج قال: أنت القائل: لا ناقتي في ذا ولا جملي، لا جعل الله لك فيه ناقة ولا جملًا ولا رحلًا فشمت به حجار بن أبجر العجلي وهو عند الحجاج، فلما دعا بغدائه جاءوا بغرينة فقال: ضعوها بين يدي أبي عبد الله فإنه لبني يحب اللبن أراد أن يدفع عنه شماتة حجار وقال بعضهم: إن أول من قال ذلك الصدوف بنت حليس العذرية، وكان من شأنها أنها كانت عند زيد بن الأخنس العذري وكان لزيد بنت من غيرها يقال لها: الفارعة وأن زيدًا عزل ابنته عن امرأته في خباء لها وأخدمها خادمًا وخرج زيد إلى الشام، وإن رجلًا من عذرة يقال له: شبث هويها وهويته ولم يزل بها حتى طاوعته، فكانت تأمر راعي أبيها أن يعجل ترويح إبله وأن يحلب لها حلبة إبلها قيلا فتشرب اللبن نهارًا حتى إذا أمست وهدأ الحي رحل لها جمل كان لأبيها ذلول فقعدت عليه وانطلقا حتى كانا ينتهيان إلى متيهة من الأرض فيكونان بها ليلتهما، ثم يقبلان في وجه الصبح فكان ذلك دأبهما فلما

فصل أبوها من الشام مر بكاهنة على طريقه فسألها عن أهله فنظرت له وقالت: أرى جملك يرحل ليلًا وحلبة تحلب إبلك قيلا وأرى نعمًا وخيلًا فلا لبث فقد كان حدث بآل شبث فأقبل زيد لا يلوي على شيء حتى أتى أهله ليلًا فدخل على امرأته وخرج من عندها مسرعًا حتى دخل خباء ابنته، فإذا هي ليست فيه فقال لخادمها: أين الفارعة ثكلتك أمك؟ قالت: خرجت تمشي وهي حرود زائرة تعود لم تر بعدك شمسًا ولا شهدت عرسًا، فانفتل عنها إلى امرأته فلما رأته عرفت الشر في وجهه فقالت: يا زيد لا تعجل واقف الأثر، فلا ناقة لي في هذا ولا جمل، فهي أول من قال ذلك.

(لا تراهن على الصعبة ولا تنشد القريض حتى يحيل).

هذا المثل للحطيئة لما حضرته الوفاة اكتنفه أهله وبنو عمه فقيل له: يا حطئ أوص قال: وبم أوص مالي بين بني؟ قالوا: قد علمنا أن مالك بين بنيك فأوص فقال: ويل للشعر من رواية السوء، فأرسلها مثلًا فقالوا لك أوص فقال: أخبروا أهل ضابئ بن الحارث أنه كان شاعرًا حيث يقول:

لكل جديد لذة غير أنني وجدت جديد الموت غير لذيذ

ثم قال: لا تراهن على الصعبة ولا تنشد القريض حتى يحيل، فأرسلها مثلًا يضرب في التحذير وفي بعض الروايات أنه قيل له: يا أبا مليكة أوصه قال: ما لي للذكور دون الإناث قالوا: إن الله لم يأمر بذا قال: فإني آمر قال: أوصه قال: أخبروا آل الشماخ أن أخاهم أشعر العرب حيث يقول:

وظلت بأعراف صيامًا كأنها رماح نحاها وجهة الريح راكز

قالوا: أوصه، فإن هذا لا يغني عنك شيئا قال: أبلغوا كندة أن أخاهم أشعر العرب حيث يقول:

فيا لك من ليل كان نجومه   بأمراس كتان إلى صم جندل

يعني: امرأ القيس قالوا: أوصه فإن هذا لا يغني عنك شيئًا قال: أخبروا الأنصار أن أخاهم أمدح العرب حيث يقول:

يغشون حتى ما شهر كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل

قالوا: أوصه فإن هذا لايغني عنك شيئًا قال: أوصيكم بالشعر خيرًا. ثم أنشأ يقول:

الشعر صعب وطويل سلمه   إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه   والشعر لا يطيعه من يظلمه
يريد أن يعربه فيعجمه   ولم يزل من حيث يأتي يحرمه

من يسم الأعداء يبقى ميسمه

قالوا: أوصه فإن هذا لا يغني عنك شيئًا قال:

كنت أحيانًا شديد المعتمد   وكنت أحيانًا على خصمي ألد

قد وردت نفسي وما كادت ترد

قالوا: أوصه فإن هذا لا يغني عنك شيئًا قال: واجزعاه على المديح الجيد يمدح به من ليس من أهله قالوا: أوصه فإن هذا لا يغني عنك شيئًا، فبكى قالوا: وما يبكيك؟ قال: أبكي الشعر الجيد من راوية السوء قالوا: أوص للمساكين بشيء قال: أوصيهم بالمسألة وأوصي الناس أن لا يعطوهم قالوا: أعتق غلامك فإنه قد رعى عليك ثلاثين سنة قال: هو عبد

ما بقي على الأرض عبسي ثم قال: حملوني على حماري ودور وأبي حول هذا التل فإنه لم يمت على الحمار كريم، فعسى ربي أن يرحمني. فحمله ابناه وأخذا بضبعيه ثم جعلا يسوقان الحمار حول التل وهو يقول:

قد عجل الدهر والأحداث يتمكما فاستغنيا بوشيك أنني فان

ودلياني في غبراء مظلمة كما تدلى دلاة بين أشطان

قالوا: يا أبا مليكة من أشعر العرب؟ قال: هذا الحجير إذا طمع بخير وأشار بيده إلى فيه وكان آخر كلامه فمات وكان له عشرون ومائة سنة منها سبعون في الجاهلية وخمسون في الإسلام، ويروى أنه أراد سفرًا فلما قدم راحلته قالت له امرأته: متى ترجع؟ فقال:

عدي السنين لغيبتي وتصبري ودع الشهور فإنهن قصار

فقالت:

اذكر صبابتنا إليك وشوقنا وارحم بناتك إنهن صغار

قالوا: وما مدح قومًا إلا رفعهم وما هجا قومًا إلا وضعهم، وقال يهجو نفسه وقد نظر في المرآة وكان دميمًا:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلمًا بسوء فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجهًا شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

(لا غزو إلا التعقيب).

يقال: عقب الرجل وهو أن يغزو مرة ثم يثنى من سنته قال طفيل يصف الخيل:

طوال الهوادي والمتون صليبة مغاوير فيها للأريب معقب

وأول من قال ذلك حجر بن الحارث بن عمرو آكل المرار؛ وذلك أن الحارث بن مندلة ملك الشام وكان من ملوك سليح من ملوك الضجاعم، وهو الذي ذكره مالك بن جوبن الطائي في شعره فقال:

هنالـك لا أعطـي رئـيس مقـادة ولا ملكًـا حتـى يـؤب ابـن مندلـه

وكان قد أغار على أرض نجد وهي أرض حجر بن الحارث هذا وذلك على عهد بهرام جور وكان بها أهل حجر فوجد القوم خلوفًا ووجد حجرًا قد غزا أهل نجران فاستاق ابن مندلة مال حجر وأخذ امرأته هند الهنود ووقع بها فأعجبها وكان آكل المرار شيخًا كبيرًا وابن مندلة شابًّا جميلًا فقالت له: النجاء النجاء فإن وراءك طالبًا حثيثًا وجمعًا كثيرًا ورأيًا صليبًا وخرمًا وكيدًا، فخرج ابن مندلة مغذًا إلى الشام وجعل يقسم المرباع نهاره أجمع، فإذا كان الليل أسرجت له السرج يقسم عليها فلما رجع حجر وجد ماله قد استيق ووجد هندًا قد أخذت فقال: من أغار عليكم؟ قالوا: ابن مندلة قال: مذ كم؟ فقالوا: مذ ثمان ليال فقال حجر: ثمان في ثمان لا غزو إلا التعقيب، فأرسلها مثلًا يعني غزوه الأول والثاني.

(قلت): قوله ثمان في ثمان يعني ثمان ليال أدخلت في ثمان أخرى إذ كانت غزوة نجران كذا فقرنت بمثلها من هذا الغزو الآخر وأراد ثمان ليال في أثر ثمان ليال؛ يعني أنه سبقه بثمان ليال حين أغار على قومه وسيلحقه في ثمان ليال، ثم أقبل مجدًا في طلب ابن مندلة حتى دفع إلى واد دون منزل ابن مندلة فكمن فيه وبعث سدوس بن شيبان بن ذهل ابن ثعلبة وكان من مناكير العرب فقال له حجر: اذهب متنكر إلى القوم حتى تعلم لنا علمهم فانطلق سدوس حتى انتهى إلى ابن مندلة وقد نزل في سفح الجبل وأوقد نارًا وأقبل يقسم المرباع ونثر تمرًا وقال: من جاء بحزمة

حطب فذهب سدوس وأتى بحزمة حطب وألقاها على النار وأخذ قبضة من تمر فألقاها في كنانته وجلس مع القوم يستمع إلى ما يقولون وهند خلف ابن مندلة تحدثه فقال ابن مندلة: يا هند ما ظنك الآن بحجر؟ قالت: أراه ضاربًا بجوشنه على واسطة رحله وهو يقول: سيروا سيروا لا غزوا إلا التعقيب وذلك مثل ما قال زوجها سواء ثم قالت هند لابن مندلة: والله ما نام حجر قط إلا وعضو منه حي قال ابن مندلة: وما علمك بذلك؟ وانتهرها قالت: بلى كنت له فاركًا فبينما هو ذات يوم في منزل له قد أخرج إليه رابعًا فضربت له قبة من قبابه ثم أمر بجزر فنحرت وبشاء فذبحت فصنع ذلك ثم أرسل للناس فدعاهم فأطعمهم فلما طعموا وخرجوا نام كما هو مكانه وأنا جالسة عند باب القبة فأقبلت حية وهو نائم باسط رجله، فذهبت الحية لتنهشه فقبض رجله ثم تحولت من قبل يده لتنهشه فقبض يده إليه ثم تحولت من قبل رأسه، فلما دنت منه وهو يغط قعد جالسًا فنظر إلى الحية فقال: ما هذه يا هند؟ فقلت: ما فطنت لها حتى جلست قال: لا والله وذلك كله بمسمع سدوس؛ فلما سمع الحديث رجع إلى حجر فنثر التمر من الكنانة بين يديه وقال:

أتاك المرجفون بأمر غيب على دهش وجئتك باليقين

فلما حدثه بحديث امرأته مع ابن مندلة عرف أنه قد صدقه فضرب بيده على المرار وهي شجرة مرة إذا أكلت منها الإبل قلصت مشافرها فأكل منها من الغضب فلم يضره، فسمته العرب آكل المرار ثم خرج حتى أغار على ابن مندلة فنذر به ابن مندلة فوثب على فرسه ووقف فقال له: آكل المرار هل لك في المبارزة؟ فأينا قتل صاحبه انقاد له جند المقتول قال له ابن مندلة: أنصفت وذلك بعين هند فاختلفا بينهما بطعنتين فطعنه آكل المرار طعنة جندل له بها عن فرسه، فوثبت هند إلى ابن مندلة تفديه

وانتزعت الرمح من نحره وخرجت نفسه فظفر آكل المرار بجنده واستنقذ جميع ما كان ذهب به من ماله ومال أهل بلاده وأخذ هندًا فقتلها مكانه وأنشأ يقول:

لمــن النــار أوقــدت بحفيــر ... لــم يــنم غيــر مــصطل مقــرور
إن مــن يــأمن النــساء بــشيء ... بعــد هنــد لجاهــل مغــرور
كــل أنثــى وإن تبينــت منهــا ... آيــة الحــب حبهــا خيتعــور

(لا تجزعن من سنة أنت سرتها).

قالوا: إن أول من قال ذلك خالد ابن أخت أبي ذؤيب الهذلي وذلك أن أبا ذؤيب كان قد نزل في بني عامر بن صعصعة على رجل يقال له: عبد عمرو بن عامر فعشقته امرأة عبد عمرو وعشقها فخببها على زوجها وحملها وهرب بها إلى قومه، فلما قدم منزله تخوف أهله فأسرها منهم في موضوع لا يعلم وكان يختلف إليها إذا أمكنه، وكان الرسول بينها وبينه ابن أخت له يقال له: خالد، وكان غلامًا حدثًا له منظر وصباحة فمكث بذلك برهة من دهر وشبَّ خالد وأدرك فعشقته المرأة ودعته إلى نفسها فأجابها وهويها ثم إنه حملها من مكانها ذلك فأتى بها مكانًا غيره، وجعل يختلف إليها فيه ومنع أبا ذؤيب عنها؛ فأنشأ أبو ذؤيب يقول:

مــا حمــل البختــي عــام عيــاره ... عليــه الوســوق برهــا وشــعيرها
بــأعظم ممــا كنــت حملــت خالــدًا ... وبعــض أمانــات الرجــال غرورهــا
فلمــا ترامــاه الــشباب وغيــه ... وتبــع منــه فتنــة وفجورهــا
لــوى رأســه عنــا ومــال بــوده ... أغــانيج خــود كــان فيهــا يزورهــا

فلما بلغ ذلك ابن أخته خالدًا أنشأ يقول:

فهل أنت إما أم عمرو تبدلت ... سواك خليلًا دائمًا تستجيرها
فررت بها من عند عمرو بن عامر ... وهي همها في نفسها وسجيرها
فلا تجزعن من سنة أنت سرتها ... فأول راض سنة من يسيرها
ولأنك كالثور الذي دفنت له ... حديدة حدف دائبًا يستثيرها

(ما وراءك يا عصام).

قال المفضل: أول من قال ذلك الحارث بن عمرو ملك كندة وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها: عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف فمضت حتى انتهت إلى أمها وهي أمامة ابنة الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت: أي بنية هذه خالتك أتتك لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلف وناطقيها أن استنطقتك، فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم تر قط مثله فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع فأرسلتها مثلًا ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءك يا عصام؟ قال: صرح المخض عن الزبد رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزينها شعر حالك كأذناب الخيل إن أرسلته خلته السلاسل وإن مشطته قلت عنا قيد جلاها الوابل وحاجبين كأنما خطا بقلم أو سودا بحمم تقوسا على مثل عيني ظبية عبهرة بينهما أنف كحد السيف الصنيع حفت به وجنتان كالأرجوان في بياض كالجمان شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم فيه ثنايا غر ذات أشر تقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان بعقل وافر وجواب حاضر تلتقي فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقًا كالشهد إذا دلك في رقبة بيضاء كالفضة ركبت في صدر كصدر تمثال دمية وعضدان

مديحان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم بمس ولا عرق يحس ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما لين عصبهما تعقد إن شئت منهما الأنامل نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتير يخرقان عليها ثيابها تحت ذلك بطن طوي طي القباطي المدمجة كسر عكنا كالقراطيس المدرجة تحيط بتلك العكن سرة كالمدهن المجلو خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر لها كفل يقعدها إذا أنهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص الرمل لبده سقوط الطل يحمله فخذان لفا كأنما قلبا على نضد جمان، تحتها ساقان خدلتان كالبرديتين وشيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان حمل ما فوقهما، فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إياه وبعث بصداقها فجهزت، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها: أي بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه؛ ولكن النساء للرجال خلقن ولهنَّ خلق الرجال، أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أمةً يكن لك عبدًا وشيكا، يا بنية احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا: الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا طيب ريح، الكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه والهدء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مبغضة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير

والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ولا تفشى له سرًا ولا تعصى له أمرًا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره وإن عصيت أمره أوغرت صدره ثم اتقى مع ذلك الفرح إذ كان ترحًا والاكتئاب عنده إن كان فرحًا فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك. فحملت فسلمت إليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.

(وروى) أبو عبيد ما وراءك على التذكير وقال: يقال: إن المتكلم به النابغة الذبيان قاله لعصام بن شهبر حاجب النعمان وكان مريضًا وقد أرجف بموته فسأله النابغة عن حال النعمان فقال: ما وراءك يا عصام؟ ومعناه ما خلفت من أمر العليل أو ما أمامك من حاله ووراء من الأضداد قلت: يجوز أن يكون أصل المثل ما ذكرت ثم اتفق الاسمان فخوطب كل بما استحق من التذكير والتأنيث.

(مقتل الرجل بين فكيه).

المقتل القتل وموضع القتل أيضًا ويجوز أن يجعل اللسان قتلًا مبالغة في وصفه بالإفضاء إليه قال: إنما هي إقبال وإدبار، ويجوز أن يجعل موضع القتل أي بسببه يحصل القتل، ويجوز أن يكون بمعنى القاتل فالمصدر ينوب عن الفاعل كأنه قال: قاتل الرجل بين فكيه. قال المفضل: أول من قال ذلك أكثم بن صيفي في وصية بنيه وكان جمعهم فقال: تباروا فإن البر يبقى عليه العدد، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه،

إن قول الحق لم يدع له صدقًا، الصدق منجاة لا ينفع التوقي مما هو واقع في طلب المعالي يكون العناء الاقتصاد في السعي أبقى للجمام، من لم يأس على ما فاته ودع بدنه ومن قنع بما هو فيه قرت عينه التقدم قبل التندم أصبح عند رأس الأمر أحب إليّ من أن أصبح عند ذنبه لم يهلك من مالك ما وعظك، ويل لعالم أمر من جاهله يتشابه الأمر إذا أقبل وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق، البطر عند الرخاء حمق والعجز عن البلاء أمن، لا تغضبوا من اليسير فإنه يجني الكثير، لا تجيبوا فيما لا تسألوا عنه ولا تضحكوا مما لا يضحك منه، تناؤا في الديار ولا تباغضوا فإنه من يجتمع يقعقع عنده، ألزموا النساء المهانة نعم لهو الغرة المغزل حيلة من لا حيلة له، الصبر أن تعش تر ما لم تره، المكثار كحاطب ليل من أكثر أسقط، لا تجعلوا سرًا إلى أمة. فهذه تسعة وعشرون مثلًا منها قد مر ذكره فيما سبق من الكتاب ومنها ما يأتي إن شاء الله تعالى، وقد أحسن من قال: رحم الله امرأ أطلق ما بين كفيه وأمسك ما بين فكيه، ولله در أبي الفتح البستي حيث يقول في هذا المثل:

تكلم وسدد ما استطعت فإنما ... كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولًا سديدًا تقوله ... فصمتك عن غير السداد سداد

واحتذاه القاضي أبو أحمد منصور بن محمد الهروي فقال:

إذا كنت ذا علم وماراك جاهل ... فأعرض ففي ترك الجواب جواب
وإن لم تصب في القول فاسكت ... سكوتك عن غير الصواب صواب

وضمن الشيخ أبو سهل النيلي شرائط الكلام قوله:

أوصيك في نظم الكلام بخمسة ... إن كنت للموصي الشفيق مطيعا
لا تغفلن سبب الكلام ووقته ... والكيف والكم والمكان جميعا

(من صدق الله نجا).

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن ثلاثة نفر انطلقوا إلى الصحراء فمطرتهم السماء فلجئوا إلى كهف في جبل ينتظرون إقلاع المطر، فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرة من الجبل وجثمت على باب الغار، فيئسوا من الحياة والنجاة فقال أحدهم: لينظر كل واحد منكم إلى أفضل عمل عمله فليذكره، ثم ليدع الله تعالى عسى أن يرحمنا وينجينا، فقال أحدهم: اللهم إن كنت تعلم أني كنت بارًّا بوالدي وكنت آتيهما بغبوقهما فيغتبقانه، فأتيت ليلة بغبوقهما فوجدتهما قد ناما وكرهت أن أوقظهما وكرهت الرجوع، فلم يزل ذاك دأبي حتى طلع الفجر، فإن كنت عملت ذلك لوجهك فافرج عنا؛ فمالت الصخرة عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء. وقال الآخر: اللهم إنك تعلم أني هويت امرأة ولقيت في شأنها أهوالًا حتى ظفرت بها وقعدت منها مقعد الرجل من المرأة، قالت: إنه لا يحل لك أن تفض خاتمي إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أنه ما حملني على ذلك إلا مخافتك فافرج عنا؛ فانفرجت الصخرة حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لقدروا، وقال الثالث: اللهم إنك تعلم أني استأجرت أجراء فعملوا لي فوفيتهم أجورهم إلا رجلًا واحدًا ترك أجره عندي وخرج مغاضبًا فربيت أجره حتى نما وبلغ مبلغًا، ثم جاء الأجير فطلب أجرته فقلت: هاك ما ترى من المال فإن كنت عملت ذلك لك فافرج عنا؛ فمالت الصخرة وانطلقوا سالمين». فقال صلى الله عليه وسلم: «من صدق الله نجا» ومعنى صدق الله لقي الله بالصدق وهو أن يحقق قوله فعله.

(منك أنفك وإن كان أجدع).

يضرب لمن يلزمك خيره وشره وإن كان ليس بمستحكم القرب وأول من قال ذلك قنفذ ابن جعونة المازني للربيع بن كعب المازني؛ وذلك أن الربيع دفع فرسًا كان قد أبرَّ على الخيل كرمًا وجودة إلى أخيه كميش ليأتي به أهله وكان كميش أنوك مشهورًا بالحمق، وقد كان رجل من بني مالك يقال له: قراد بن جرم قدم على أصحاب الفرس ليصيب منهم غرة فيأخذها فكان داهية فمكث فيهم مقيمًا لا يعرفون نسبه ولا يظهره هو، فلما نظر إلى كميش راكبًا الفرس ركب ناقته ثم عارضه فقال: يا كميش هل لك في عانة لم أر مثلها سمنًا ولا عظمًا وعير معها من ذهب فأما الأتن فتروح بها إلى أهلك فتملأ قدورهم وتفرح صدورهم، وأما العير فلا افتقار بعده؟ قال له كميش: وكيف لنا به؟ قال: أنا لك به وليس يدرك إلا على فرسك هذا ولا يرى إلا بليل ولا يراه غيري قال كميش: فدونكه قال: نعم وامسك أنت راحلتي فركب قراد الفرس وقال: انتظرني في هذا المكان إلى هذه الساعة من غد قال: نعم ومضى قراد فلما توارى أنشأ يقول:

ضيعت في العير ضلالًا مهركا ... لتطعم الحمى جميعًا عيركا

فسوف تأتي بالهوان أهلكا ... وقبل هذا ما خدعت إلا نوكا

فلم يزل كميش ينتظره حتى أمسى من غده وجاع، فلما لم ير له أثر انصرف إلى أهله وقال في نفسه: إن سألني أخي عن الفرس قلت: تحول ناقة فلما رآه أخوه الربيع عرف أنه خدع عن الفرس فقال له: أين الفرس؟ قال: تحول ناقة قال: فما فعل السرج؟ قال: لم أذكر السرج فأطلب له علة، فصرعه الربيع ليقتله له قنفذ بن جعونة: أله عما فاتك فإن أنفك منك وإن كان أجدع فذهبت مثلًا، وقدم قراد بن جرام على أهله بالفرس وقال في ذلك:

رأيت كميشًا نوكه لي نافع ولم أر نوكًا قبل ذلك ينفع
يؤمل عيرًا من نضار وعسجد فهل كان لي في غير ذلك مطمع
وقلت له أمسك قلوصي ولا ترم خداعًا له إذ ذو المكايد يخدع
فأصبح يرمي الخافقين بطرفه وأصبح تحتي ذو أفانين جرشع
أبر على الجود العناجيج كلها فليس ولو أقحمته الوعر يكسع

(من ير يومًا ير به).

قال المفضل: أول من قال ذلك كلحب بن شؤبوب الأسدي وكان يغير على ملئ وحده فدعا حارثة بن لام الطائي رجلًا من قومه يقال له عترم وكان بطلًا شجاعًا فقال له: أما تستطيع أن تكفيني هذا الخبيث؟ فقال: بلى ثم أرسل معه عشرة من العيون حتى علموا مكانه وانطلق إليه الرجل في جماعة فوجدوه نائمًا في ظل إراكة وفرسه مشدودة عنده فنزل عنده الرجل ومعه آخر إليه فأخذ كل واحد منهما بإحدى يديه فانتبه فنزع يده اليمنى من ممسكها وقبض على حلق الآخر فقتله، وبادر الباقون إليه فأخذوه وشدوه وثاقًا فقال لهم ابن المقتول وهو حوذة بن عترم: دعوني أقتله كما قتل أبي قالوا: حتى نأتي به حارثة فأبى فقالوا له: والله لئن قتلته لنقتلنك وأتوابه حارثة بن لام فقال له حارثة: يا كلحب إن كنت أسير فطالما أسرت فقال كلحب: من ير يوما ير به فأرسلها مثلًا، وقال حوذة لحارثة: أعطنيه أقتله كما قتل أبي قال: دونكه وجعلوا يكلمونه وهو يعالج كتافه حتى انحل ثم وثب على رجليه يجاريهم وتواثبوا على الخيل واتبعوه فأعجزهم فقال حوذة في ذلك:

إلى الله أشكو أن أؤب وقد ثوى قتيلًا فأودى سيد القوم عترم
فمات ضياعًا هكذا بيد امرئ لئيم فلولا قيل ذو الوتر معلم

فأجابه كلحب:

أحـوذة أن تفخـر وتـزعم أننـي ... لئـيم فمنـي عتـرم اللـؤم الأم

فأقسم بالبيت المحـرم مـن منـى ... أليـة بـر صـادق حـين يقسـم

لـضب بقفـر مـن قفـار وضـبة ... خموع ويربوع الفلا منك أكرم

فهـل أنـت إلا خنفـساء لئيمـة ... وخالـك يربـوع وجـدك شـيهم

أتوعـدني بـالمنكرات وأننـي ... صبور على ما ناب جلد صلخدم

فإن أفن أو أعمر إلى وقت هذه ... فإني ابن شؤبوب جسور غشمشم

(من يشتري سيفي وهذا أثره).

قال المفضل: أول من قال ذلك الحارث بن ظالم المري وذلك أن خالد بن جعفر بن كلاب لما قتل زهير بن جذيمة العبسي ضاقت به الأرض وعلم أن غطفان غير تاركيه، فخرج حتى أتى النعمان فاستجار به فأجاره ومعه أخوه عتبة بن جعفر ونهض قيس بن زهير فاستعد لمحاربة بني عامر وهجم الشتاء فقال الحارث بن ظالم: يا قيس أنتم أعلم وحربكم وأنا رائح إلى خالد حتى أقتله قال قيس: قد أجاره النعمان قال الحارث: لأقتلنه ولو كان في حجره وكان النعمان قد ضرب على خالد وعلى أخيه قبة وأمرهما بحضور طعامه ومدامه؛ فأقبل الحارث ومعه تابع له من بني محارب فأتى باب النعمان فاستأذن فأذن له النعمان وفرح به، فدخل الحارث وكان من أحسن الناس وجهًا وحديثًا وأعلم الناس بأيام العرب، فأقبل النعمان عليه بوجهه وحديثه وبين أيديهم تمر يأكلونه فلما رأى خالد إقبال النعمان على الحارث غاظه فقال: يا أبا ليلى ألا تشكرني؟ قال: فيماذا؟ قال: قتلت زهيرًا فصرت بعده سيد غطفان وفي يد الحارث تمرات فاضطربت يده وجعل يرعد ويقول: أنت قتلته والتمر يسقط من

يده ونظر النعمان إلى ما به من الزمع فنخس خالدًا بقضيبه وقال: هذا يقتلك وافترق القوم وبقى الحارث عند النعمان وأشرج خالد قبته عليه وعلى أخيه وناما وانصرف الحارث إلى رحله، فلما هدأت العيون خرج الحارث بسيفه شاهره حتى أتى قبة خالد فهتك شرجها بسيفه ودخل فرأى خالدًا نائمًا وأخوه إلى جنبه فأيقظ خالدًا واستوى قائمًا فقال له الحارث: يا خالد أظننت أن دم زهير كن سائغًا لك؟! وعلاه بسيفه حتى قتله وانتبه عتبة فقال له الحارث: لئن نبست لألحقنك به وانصرف الحارث وركب فرسه ومضى على وجهه وخرج عتبة صارخًا حتى أتى باب النعمان فنادى: يا سوء جواراه فأجيب: لا روع عليك فقال: دخل الحارث على خالد فقتله وأخفر الملك فوجه النعمان فوارس في طلبه فلحقوه سحرا فعطف عليهم فقتل منهم جماعة وكثروا عليه فجعل لا يقصد جماعة إلا فرقها ولا لفارس إلا قتله وهو يرتجز ويقول:

أنا أبو ليلى وسيفي المعلوب ... من يشتري سيفي وهذا أثره

وارتدع القوم عنه وانصرفوا إلى النعمان يضرب في المحاذرة من شيء قد ابتلي بمثله مرة قال الأغلب العجلي:

قالت له في بعض ما تسطره ... من يشتري سيفي وهذا أثره

(انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا).

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا، فقيل: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «ترده عن الظلم». قال أبو عبيد: أما الحديث فهكذا وأما العرب فكان مذهبها في المثل نصرته على كل حال قال المفضل: أول من قال ذلك جندب العنبر بن تميم بن عمرو وكان رجلًا دميمًا فاحشًا وكان شجاعًا وأنه جلس هو

وسعد بن زيد مناة يشربان فلما أخذ الشراب فيهما قال جندب لسعد: وهو يمازحه يا سعد لشرب لبن اللقاح وطول النكاح وحسن المزاح أحب إليك من الكفاح ودعس الرماح وركض الوقاح قال سعد: كذبت والله إني لأعمل العامل وأنحر البازل وأسكت القائل قال جندب: إنك لتعلم أنك لو فزعت دعوتني عجلًا وما ابتغيت لي بدلًا ولرأيتني بطلًا أركب العزيمة وأمنع الكريمة وأحمي الحريمة؛ فغضب سعد وأنشأ يقول:

هل يسود الفتى إذا قبح الوجـ ـه وأمسى قراه غير عتيد
وإذا الناس في الندى رأوه ناطقًا قال قول غير سديد

فأجابه جندب:

ليس زين الفتى الجمال ولكن زينه الضرب بالحسام التليد
إن ينلك الغنى فزين وإلا ربما ضن باليسير العتيد

قال سعد: وكان عائفًا أما والذي أحلف به لتأسرنك ظعينة بين العرينة والدهينة ولقد أخبرني طيري أنه لا يفكك غيري فقال جندب: كلا إنك لجبان تكره الطعان وتحب القيان، فتفرقا على ذلك فغبرا حينًا ثم أن جندبًا خرج على فرس له يطلب القنص فأتى على أمة لبني تميم يقال: إن أصلها من جرهم فقال لها: لتمكنني مسرورة أو تقهرين مجبورة قالت: مهلًا فإن المرء من نوكه يشرب من سقاء لم يوكه فنزل إليها عن فرسه مدلًا، فلما دنا منها قبضت على يديه بيد واحدة فما زالت تعصرهما حتى صار لا يستطيع أن يحركهما ثم كتفته بعنان فرسه وراحت به مع غنمها وهي تحدو به وتقول:

لا تأمنن بعدها الولائدا فسوف تلقى باسلًا مواردا
وحية تضحى لحى راصدا

قال: فمر بسعد في إبله فقال: يا سعد أغثني قال سعد: إن الجبان لا يغيث فقال جندب:

يا أيها المرء الكريم المشكوم انصر أخاك ظالمًا أو مظلوم

فأقبل إليه سعد فأطلقه ثم قال: لولا أن يقال قتل امرأة لقتلتك قال: كلا لم يكن ليكذب طيرك ويصدق غيرك قال: صدقت. (قوله) انصر أخاك ظالمًا يجوز أن يكون ظالمًا أو مظلومًا حالين من قوله أخاك، ويجوز أن يكونا حالين من الضمير المستكن في الأمر يعني انصره ظالمًا إن كنت خصمه أو مظلومًا من جهة خصمه؛ أي لا تسلمه في أي حال كنت.

(ويل للشجي من الخلي).

ذكرت قصته في حرف الصاد عند قولهم صغراها شراها وهذه رواية أخرى قال المدائني ومحمد بن سلام الجمحي: أول من قال ذلك أكثم بن صيفي التميمي وكان من حديثه أنه لما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام بمكة ودعا الناس إلى الإسلام بعث أكثم بن صيفي ابنه حبيشًا فأتاه بخبره فجمع بن تميم وقال: يا بني تميم لا تحضروني سفيهًا فإنه من يسمع يخل أن السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه، لا خير فيمن لا عقل له كبرت سني ودخلتني ذلة، فإذا رأيتم مني حسنًا فاقبلوه وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقم، إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وآتاني بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ويدعو لي توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه وأن الرأي ترك ما ينهى عنه أن أحق الناس بمعونة محمد صلى الله عليه وسلم ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذي يدعو إليه حقًا فهو لكم دون الناس ؤإن يكن باطلًا كنتم أحق

الناس بالكف عنه وبالستر عليه وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته وكان سفيان ابن مجاشع يحدث به قبله وسمي ابنه محمدًا فكونوا في أمره أولًا ولا تكونوا آخرًا، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين، إن الذي يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم لو لم يكن دينًا كان في أخلاق الناس حسنًا أطيعوني واتبعوا أمري أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدًا وأصبحتم أعز حي في العرب وأكثرهم عددًا وأوسعهم دارًا، فإني أرى أمرًا لا يجتنبه عزيز الأذل ولا يلزمه ذليل الأعز أن الأول لم يدع للآخر شيئًا وهذا أمر له ما يعده من سبق إليه عمر المعالي واقتدى به التالي والعزيمة حزم والاختلاف عجز فقال مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم، فقال أكثم: ويل للشجي من الخلي والهفى على أمر لم أشهده ولم يسعني.

(هلم جرا).

قال المفضل: أي تعالوا على هينتكم كما يسهل عليكم وأصل ذلك من الجر في السوق وهو أن تترك الإبل والغنم ترعى في سيرها قال الراجز:

لطالما جررتكن جرًّا حتى نوى الأعجف واستمرا

فاليوم لا آلو الركاب شرا

وأول من قال ذلك المستطعم عمرو بن حمران الجعدي زبدًا وتامكًا حتى قال له عمرو: كلاهما وتمرا وقد مر ذكرهما في حرف الكاف واسم ذلك الرجل عائذ وكان له أخ يسمى جندلة وهما ابنا يزيد اليشكري ولما رجع عائذ قال له أخوه جندلة:

أعائذ ليت شعري أي أرض رمت بك بعدما قد غبت دهرا

فلــم يــك يرتجــي لكــم إيــاب ولــم نعــرف لــدارك مــستقرا
فقــد كــان الفــراق أذاب جــسمي وكــان العــيش بعــد الــصفو كــدرا
وكــم قاســيت عائــذ مــن فظيــع وكــم جــاوزت أملــس مقــشعرا
إذا جاوزتهــا اســتقبلت أخــرى وأقــود مــشمخر النيــق وعــرا

فأجابه عائذ فقال:

أجنــدل كــم قطعــت إليــك أرضًــا يمــوت بهــا أبــو الأشــبال ذعــرا
قطعــت ولامعــات الآل تجــري وقــد أوتــرت فــي المومــات كــدرا
وطامــسة المتــون ذعــرت فيهــا خواضــب ذات أرآل وغبــرا
وإن جــاوزت مقفــرة رمــت بــي إلــى أخــرى كتلــك هلــم جــرا
فلمــا لاح لــي ســعب ولــوح وقــد متــع النهــار لقيــت عمــرا
فقلــت فهــات زبــدًا أو ســنامًا فقــال كلاهمــا وتــزاد تمــرا
فقــدم للقــرى شــطبًا وزبــدًا وظلــت لديــه عــشرًا ثــم عــشرا

(يسار الكواعب).

كان من حديثه أنه كان عبدًا أسود يرعى لأهله إبلا وكان معه عبد يراعيه وكان لمولى يسار بنت فمرت يومًا بإبله وهي ترتع في روض معشب، فجاء يسار بعلبة لبن فسقاها وكان أفحج الرجلين فنظرت إلى فحجه فتبسمت ثم شربت وجزته خيرًا فانطلق فرحًا حتى أتى العبد المراعي وقص عليه القصة وذكر له فرحها وتبسمها فقال له صاحبه: يا يسار كل من لحم الحوار واشرب لبن العشار وإياك وبنات الأحرار فقال: دحكت إلى دحكة لا أخيبها يقول: ضحكت ضحكة ثم قام إلى علبة فملأها وأتى بها ابنة مولاه فنبهها فشربت ثم اضطجعت وجلس العبد

حذاءها فقالت: ما جاء بك؟ فقال: ما خفي عليك ما جاء بي فقالت: وأي شيء هو؟ وقال: دحككك الذي دحكت إليَّ فقالت: حياك الله وقامت إلى سقط لها فأخرجت منه بخورًا ودهنًا وتعمدت إلى موسى ودعمت بمجمرة وقالت له: إن ريحك ريح الإبل وهذا دهن طيب فوضعت البخور تحته وتطأطأت كأنها تصلح البخور وأخذت مذاكيره وقطعتها بالموسى ثم شممته الدهن فسلتت أنفه وأذنيه وتركته فصار مثلًا لكل جان على نفسه ومتعد طوره قال الفرزدق لجرير:

وإني لأخشى إن خطبت إليهم عليك الذي لاقى يسار الكواعب

ويقال أيضًا: يسار النساء وكان من العبيد الشعراء وله ابن شاعر يقال له إسماعيل بن يسار النساء وكان مفلقًا هذا، ومما يفيد عقلك نورًا ويزيد نفسك سرورًا ويكون لفكرك هاديًا ولمرآة ذهنك جاليًا وله بالأمثال شبه ما صدر عن أولي الألباب من صحابة الأنبياء وغيرهم من الحكماء وها أنا مثبت أنموذج ذلك من كلام أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه قال: وأكثر ما كان يقول ذلك إذا فرغ من صلاة الليل أشهد أن السماوات والأرض وما بينهما آيات تدل عليك وشواهد تشهد بما إليه دعوت كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية موسم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك علوت بها عن خلقك فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر وكفاها رجم الاحتجاج فهي مع معرفتك بك وولهها إليك شاهدة بأنك لا تأخذك الأوهام ولا تدركك العقول ولا الأبصار، أعوذ بك أن أشير بقلب أو لسان أو يد إلى غيرك لا إله إلا أنت واحدًا أحدًا فردًا صمدًا ونحن لك مسلمون. (وقال): إلهي كفاني فخرًا أن تكون لي ربًا وكفاني عزًا أن أكون لك عبدًا، أنت كما أريد فاجعلني كما تريد. (وقال): ما خاب امرؤ عدل في حكمه وأطعم من قوته وذخر من دنياه لآخرته

(وقال): أفضل علي من شئت تكن أميره واستغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وقال: لولا ضعف اليقين ما كان لنا أن نشكو محنة يسيرة نرجو في العاجل سرعة زوالها وفي الآجل عظيم ثوابها بين أضعاف، نعم لو اجتمع أهل السماوات والأرض على إحصائها ما وفوا به فضلًا عن القيام بشكرها وقال: من علامات المأمون على دين الله بعد الإقرار والعمل الحزم في أمره والصدق في قوله والعدل في حكمه والشفقة على رعيته لا تخرجه القدرة إلى خرق أي حمق ولا اللين إلى ضعف ولا تمنعه العزة من كرم عفو ولا يدعوه العفو إلى إضاعة حق ولا يدخله إلا عطاء في سرف ولا يتخطى به القصد إلى بخل، ولا تأخذه نعمة لله ببطر وقال: الفسق نجاسة في الهمة وكلب في الطبيعة وقال: قلوب الجهال تستفزها الأطماع وترتهن بالأماني وتتعلق بالخدائع، وكثرة الصمت زمام اللسان وحسم الفطنة وإماطة الخاطر وعذاب الحس (وقال): عداوة الضعفاء للأقوياء والسفهاء للحكماء والأشرار للأخيار طبع لا يستطاع تغييره (وقال): العقل في القلب والرحمة في الكبد والنفس في الرئة (وقال): إذا أراد الله بعبد خيرًا حال بينه وبين شهوته وحجز بينه وبين قلبه، وإذا أراد الله به شرًا وكله إلى نفسه (وقال): الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو (وقال): رحم الله عبدًا اتقى ربه وناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به (وقال): ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنى والعدل في الغضب والرضى (وقال): إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش وإياكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم هو الذي سفك دماء الرجال وهو الذي قطع أرحامها فاجتنبوه (وقال): إذا فعلت كل شيء فكن كمن لم يفعل شيئًا (وقال): وقد سأله رجل فقال: بماذا أسوء عدوي؟

فقال: أن تكون على غاية الفضائل لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فاره أو كلب صيود فهو لأن تذكر بالجميل وينسب إليك أشد مساءة (وقال): إذا قذفت بشيء فلا تتهاون به وإن كان كذبًا بل تحرز من طرق القذف جهدك فإن القول وإن لم يثبت يوجب ريبة وشكًّا (وقال): عدم الأدب سبب كل شر والجهل بالفضائل عدل الموت (وقال): ما أصعب من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلًا (وقال): من لم يقهر حسده كان جسده قبر النفسه (وقال): احمد من يغلظ عليك ويعضلك لا من يزكيك ويتملقك (وقال): اختر أن تكون مغلوبًا وأنت منصف ولا تختر أن تكون غالبًا وأنت ظالم (وقال): لا تهضمن محاسنك بالفخر والتكبر (وقال): لا تنفك المدينة من شر حتى تجتمع مع قوة السلطان قوة دينه وقوة حكمته (وقال): إذا أردت أن تحمد فلا يظهر منك حرص على الحُمد (وقال): من كثر همه سقم بدنه ومن ساء خلقه عذب نفسه ومن لاحى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، وأفضل إيمان العبد أن يرى الله معه حيث كان (وقال): في التجارب علم مستأنف والاعتبار يفيدك الرشاد وكفاك أدبًا لنفسك ما كرهته من غيرك وعليك لأخيك مثل الذي عليه لك (وقال): الغضب يثير كامن الحقد ومن عرف الأيام لم يغفل الاستعداد ومن أمسك عن الفضول عذلت رأيه العقول (وقال): اسكت واستر تسلم وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق (وقال): أكبر الفخر أن لا تفخر (وقال): ما أصعب اكتساب الفضائل وأيسر إتلافها (وقال): لا تنازع جاهلًا ولا تشايع وامقًا ولا تعان مسلطًا (وقال): ما كنت كاتمه عدوك من سر فلا يطلعن عليه صديقك واعرف قدرك يستعل أمرك وكفى ما مضى مخبرًا عما بقي:

احذر عدوك مرة ... واحذر صديقك ألف مرة

فلربمـــا انقلـــب الـــصديق فكـــان أعـــرف بالمـــضرة

(وقال): لا تعدن عدة تحقرها قلة الثقة بنفسك ولا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعرًا (وقال): اتق العواقب عالمًا بأن للأعمال جزاء وأجرًا واحذر تبعات الأمور بتقديم الحزم فيها (وقال): من استرشد غير العقل أخطأ منهاج الرأي ومن أخطأته وجوه المطالب خذلته الحيل، ومن أخل بالصبر أخل به حسن العاقبة فإن الصبر قوة من قوى العقل وبقدر مواد العقل وقوتها يقوي الصبر (وقال): الخطأ في إعطاء من لا ينبغي ومنه من ينبغي واحد (وقال): العشق مرض ليس فيه أجر ولا عوض (وقال): الخصومة تمحق الدين (وقال): الجهاد ثلاثة؛ جهاد باليد وجهاد باللسان وجهاد بالقلب، فأول ما يغلب عليه من الجهاد يدك ثم لسانك ثم يصير إلى القلب فإن كان لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا نكس فجعل أعلاه أسفله (وقال): ما أنعم الله على عبد نعمة فشكرها بقلبه إلا استوجب المزيد عليها قبل ظهورها على لسانه (وقال): الحاجة مسألة والدعاء زيادة والحمد شكر والندم توبة (وقال): لن واحلم تنبل ولا تكن معجبًا فتمقت وتمتهن (وقال): ما لي أرى الناس إذا قرب إليهم الطعام ليلًا تكلفوا إنارة المصابيح ليبصروا ما يدخلون في بطونهم ولا يهتمون بغذاء النفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقاداتهم وأعمالهم (وقال): الفقر هو أصل حسن سياسة الناس وذلك أنه إذا كان من حسن السياسة أن يكون بعض الناس يسوس وبعضهم يساس، وكان من يساس لا يستقيم أن يساس من غير أن يكون فقيرًا محتاجًا فقد تبين أن الفقر هو السبب الذي به يقوم حسن السياسة (وقال): لا تتكلم بين يدي أحد من الناس دون أن تسمع كلامه وتقيس ما في نفسك من العلم إلى ما في نفسه، فإن وجدت ما في نفسه أكثر فحينئذ

ينبغي لك أن تروم زيادة الشيء الذي به يفضل على ما عندك (وقال): إذا كان اللسان آلة لترجمة ما يخطر في النفس فليس ينبغي أن تستعمله فيما لم يخطر فيها (وقال): إذا كان الآباء هم السبب في الحياة فعلموا الحكمة الذين هم السبب في جودتها (وقال): وشكا إليه رجل تعذر الرزق فقال: لا تجاهد الرزق جهاد المغالب ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم؛ فإن ابتغاء الفضل من السنة والإجمال في الطلب من العفة وليست العفة دافعة رزقًا ولا الحرص جالبًا فضلًا؛ لأن الرزق مقسوم وفي شدة الحرص اكتساب المآثم وقال:

إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

(وقال): العمر أقصر من أن تعلم كل ما يحسن بك علمه فتعلم الأهم فالأهم (وقال): من رضى بما قسم الله له استراح قلبه وبدنه (وقال): أبعد ما يكون العبد من ربه إذا كان همه بطنه وفرجه (وقال): ليس في الحواس الظاهرة شيء أشرف من العين فلا تعطوها سؤلها فتشغلكم عن ذكر الله (وقال): ارحموا ضعفاءكم فالرحمة لهم سبب رحمة الله لكم (وقال): إزالة الجبال أسهل من إزالة دولة قد أقبلت فاستعينوا بالله واصبروا فإن الأرض لله يورثها من يشاء (وقال): ليس الموسر من كان يساره باقيًا عنده زمانًا يسيرًا ويمكن أن يغتصبه غيره منه ولا يبقى بعد موته له لكن اليسار على الحقيقة هو الباقي دائمًا عند مالكه، ولا يمكن أن يؤخذ منه ويبقى له بعد موته وذلك هو الحكمة (وقال): الشرف اعتقاد المنن في أعناق الرجال (وقال): يضر الناس أنفسهم في ثلاثة أشياء الإفراط في الأكل اتكالا على الصحة وتكلف حمل ما لا يطاق اتكالًا على القوة والتفريط في العمل اتكالًا على القدر (وقال): أحزم الناس من ملك جده هزله وقهر رأيه هواه وأعرب عن ضميره فعله لم يختدعه رضاه عن حظه ولا غضبه عن كيده

(وقال): من لم يصلح خلائقه لم ينفع الناس تأديبه (وقال): من اتبع هواء ضل ومن جاد ساد وخمود الذكر أجمل من ذميم الذكر (وقال): لهب الشوق أخف محملًا من مقاساة الملالة (وقال): بالرفق تنال الحاجة وبحسن التأني تسهل المطالب (وقال): بعزيمة الصبر تطفي نار الهوى وبنفي العجب يؤمن كيد الحساد (وقال): بحسب مجاهدة النفوس وردها عن شهواتها ومنعها عن مسافحة لذاتها ومنع ما أدت إليه العيون الطامحة من لحظاتها تكون المثوبات والعقوبات والحازم من ملك هواه، فكان بملكه له قاهرًا ولما قدحت الأفكار من سوء الظنون زاجرًا، فمتى لم ترد النفس عن ذلك هجم عليها الفكر بمطالبة ما شعفت به فعند ذلك تأنس بالآراء الفاسدة والأطماع الكاذبة والأماني المتلاشية وكما أن البصر إذا اعتل رأى أشباحًا أو خيالات لا حقيقة لها كذلك النفس إذا اعتلت بحب الشهوات وانطوت على قبيح لإرادات رأت الآراء الكاذبة، فإلى الله سبحانه نرغب في إصلاح ما فسد من قلوبنا وبه نستعين على إرشاد نفوسنا، فإن القلوب بيده يصرفها كيف يشاء (وقال): ما شيء أحق بطول سجن من لسان (وقال): لا نذر في معصية ولا يمين في قطيعة (وقال): لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح (وقال): إياكم والكسل فإنه من كسل لم يؤد لله حقًّا (وقال): احسبوا كلامكم من أعمالكم وأقلوه إلا في الخير (وقال): أحسنوا صحبة النعم فإنها تزول وتشهد على صاحبها بما عمل فيها (وقال): لا تؤاخين الفاجر فإنه يزين لك فعله ويود لو أنك مثله ويحسن لك أقبح خصاله ومدخله ومخرجه من عندك شين وعار ونقص ولا الأحمق فإنه يجهد لك نفسه ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فضرك سكوته خير لك من نطقه وبعده خير لك من قربه وموته خير لك من حياته ولا الكذاب فإنه لا ينفعك معه عيش ينقل حديثك

وينقل الحديث إليك حتى أنه ليحدث بالصدق فلا يصدق (وقال): ما استقصى كريم قط قال تعالى في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: {عرف بعضه وأعرض عن بعض} (وقال): رب كلمة يجترعها حليم مخافة ما هو شر منها وكفى بالحلم ناصرًا (وقال): من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلبًا ولا عن النار مهربًا من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها (وقال): من استحيا من الناس ولم ستحي من نفسه فليس لنفسه عنده قدر (وقال): غاية الأدب أن يستحي الإنسان من نفسه (وقال): البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ومن البصر بالحجة أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة وكانت الكناية أبلغ في الدرك وأحق بالظفر (وقال): إياك والشهوات وليكن مما تستعين به على كفها علمك بأنها ملهية لعقلك مهجنة لرأيك شائنة لعرضك شاغلة لك عن معاظم أمورك مشتدة بها التبعة عليك في آخرتك؛ إنما الشهوات لعب فإذا حضر اللعب غاب الجد ولن يقام الدين وتصلح الدنيا إلا بالجد، فإذا نازعتك نفسك إلى اللهو واللذات فاعلم أنها قد نزعت بك إلى شر منزع وأرادت بك أفضح الفضوح فغالبها مغالبة ذلك وامتنع منها امتنع ذلك، وليكن مرجعك منها إلى الحق فإنها مهما تترك من الحق لا تتركه إلا إلى الباطل ومهما تدع من الصواب لا تدعه إلا إلى الخطأ فلا تداهن هواك في اليسير فيطمع منك في الكثير وليس شيء مما أوتيت فاضلًا عما يصلحك وليس لعمرك وإن طال فضل عما ينوبك من الحق اللازم لك ولا بما لك وإن كثر فضل عما يجب عليك فيه ولا بقوتك وإن تمت فضل عن أداء حق الله عليك ولا برأيك وإن حزم فضل عما لا تعذر بالخطأ فيه فليمنعنك علمك بذلك من أن تبطل

لك عمرًا في غير نفع أو تضيع لك مالًا في غير حق أو أن تصرف لك قوة في غير عبادة أو تعدل لك رأيًا في غير رشد فالحفظ لحفظ لما أوتيت فإن بك إلى صغير ما أوتيت والتكبير منه أشد الحاجة وعليك بما أضعته منه أشد المرزأة، ولاسيما العمر الذي كل منفد سواه مستخلف وكل ذاهب بعده مرتجع فإن كنت شاغلًا نفسك بلذة فليكن لذتك في محادثة العلماء ودرس كتبهم فإنه ليس سرورك بالشهوات بالغًا منك مبلغًا إلا وإكبابك على ذلك ونظرك فيه بالغه منك غير أن ذلك يجمع إلى عاجل السرور تمام السعادة؛ وخلاف ذلك يجمع إلى عاجل الغي وخامة العاقبة وقديمًا قيل: أسعد الناس أدركهم لهواه إذا كان هواه في رشده فإذا كان هواه في غير رشده فقد شقي بما أدرك منه وقديمًا قيل: عود نفسك الجميل فباعتيادك إياه يعود لذيذًا (وقال): وكل ثلاث بثلاث الرزق بالحمق والحرمان بالعقل والبلاء بالمنطق (وقال): ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك عبدك وزوجتك وابنك (وقال): للمنافقين علامات يعرفون بها تحيتهم لعنة وطعامهم تهمة وغنيمتهم غلول لا يعرفون المساجد إلا هجرًا ولا يأتون الصلاة إلا دبرًا مستكبرين، لا يألفون ولا يؤلفون خشب بالليل صخب بالنهار (وقال): الحسد حزن لازم وعقل هائم ونفس دائم والنعمة على المحسود نعمة وهي على الحاسد نقمة (وقال): يا حملة العلم لم تحملونه فإنما العلم لمن علم ثم عمل بما علم ووافق عمله علمه وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم تخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف علمهم عملهم يقعدون حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره أو ليك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله سبحانه (وقال): تعلموا العلم صغارًا تسودوا به كباراً وتعلموا العلم ولو لغير الله فإنه سيصير الله العلم ذكر لا

يحبه إلا ذكر من الرجال (وقال): ليس شيء أحسن من عقل زانه علم ومن علم زانه حلم ومن حلم زانه صدق ومن صدق زانه رفق ومن رفق زانه تقوى، إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون العرض والجزاء بالقرض والأخذ بالفضل والفواء بالعهد والإنجاز للوعد ومن حاول أمرًا بالمعصية كان أقرب إلى ما يخاف وأبعد مما يرجو (وقال): إذا جرت المقادير بالمكاره سبقت الآفة إلى العقل فحيرته وانطلقت الألسن بما فيه تلف الأنفس (وقال): لا تصحبوا الأشرار فإنهم يمنون عليكم بالسلامة منهم (وقال): لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم (وقال): لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده؛ فإن الناس لا يسألون في كم فرغ من العمل إنما يسألون عن جودة صنعته (وقال): ليس كل ذي عين يبصر ولا كل ذي أذن يسمع فتصدقوا على ذوي العقول الزمنة والألباب الحائرة بالعلوم التي هي أفضل صدقاتكم، ثم تلا: {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون}. (وقال): المؤمن لا تختله كثرة المصائب وتواتر النوائب عن التسليم لربه والرضاء بقضائه كالحمامة التي تؤخذ فراخها من وكرها ثم تعود إليه (وقال): ما مات من أحيا علمًا ولا افتقر من ملك فهمًا (وقال): العلم صبغ النفس وليس يفوق صبغ الشيء حتى ينظف من كل دنس (وقال): اعلم أن الذي مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك وثوابه وجوابه قد سقطا عنك (وقال): إحسانك إلى الحر يحركه على المكافأة وإحسانك إلى النذل يبعثه على معاودة المسألة (وقال): الأشرار يتبعون مساوي الناس ويتركون محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح منه (وقال): موت الرؤساء أسهل من رياسة السفل (وقال): ينبغي لمن ولي أمر قوم أن

يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود (وقال): إذا قوي الوالي في عمله حركته ولايته على حسب ما هو مركوز في طبعه من الخير والشر (وقال): ينبغي للوالي أن يعمل بخصال ثلاث تأخير العقوبة في سلطان الغضب والأناة فما يرتئيه من رأي وتعجيل مكافأة المحسن بالإحسان، فإن في تأخير العقوبة إمكان العفو وفي تعجيل المكافأة بالإحسان طاعة الرعية وفي الأناة انفساخ الرأي وحمد العاقبة ووضوح الصواب (وقال): من حق العالم على المتعلم أن لا يكثر عليه السؤال ولا يعنته في الجواب ولا يلح عليه إذا كسل ولا يفشى له سرًا ولا يغتاب عنده أحدًا ولا يطلب عثرته، فإذا زل تأنيت أوبته وقبلت فعذرته وإن تعظمه وتوقر ما حفظ أمر الله وعظمه وأن لا تجلس أمامه وإن كانت له حاجة سبقت غيرك إلى خدمته فيها ولا تضجرن من صحبته فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متي يسقط عليك منها منفعة وخصه بالتحية واحفظ شاهده وغائبه، وليكن ذلك كله لله عزَّ وجلَّ فإن العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه وطالب العلم تشيعه الملائكة حتى يرجع (وقال): وصول معدم خير من جاف مكثر ومن أراد أن ينظر ماله عند الله فلينظر ما لله عنده (وقال): لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا أكثر الناس صلاة ولا صيامًا ولا حجًا ولا اعتمارًا ولكن عقلوا عن الله أمره فحسنت طاعتهم وصح ورعهم وكمل يقينهم ففاقوا غيرهم بالخطوة ورفيع المنزلة (وقال): إن الله سبحانه وتعالى أدب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال له: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} فلما علم أنه قد تأدب قال له: {وإنك لعلى خلق عظيم} فلما استحكم له من رسوله ما أحب قال: {ما أتاكم في الرسول

فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}. (وقال): كنت أنا والعباس وعمر نتذاكر المعروف فقلت: أنا خير المعروف ستره وقال العباس: خيره تصغيره وقال عمر: خيره تعجيله، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «فيم أنتم؟» فذكرنا له فقال: «**خيره أن يكون هذا كله فيه**». (وقال): العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح من الكريم (وقال): إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرت ونفقت الرذائل ونفعت وكان خوف الموسر أشد من خوف المعسر (وقال): انظر إلى المتنصح إليك فإن دخل من حيث يضار الناس فلا تقبل نصيحته وتحرز منه وإن دخل من حيث العدل والصلاح فاقبلها منه (وقال): أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه لأنهم يبدون إليه عيوبه فيتجنبها ويخاف شماتتهم به فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه (وقال): المرآة التي ينظر الإنسان فيها إلى خلاقه هي الناس لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساويه من أعدائه فيهم (وقال): انظر وجهك كل وقت في المرآة فإن كان حسنًا فاستقبح أن تضيف إليه فعلًا قبيحًا وتشينه به، وإن كان قبيحًا فاستقبح أن تجمع بين قبيحين (وقال): موقع الصواب من الجهال مثل موقع الخطأ من العلماء (وقال): ذكي قلبك بالأدب كما تذكي النار بالحطب (وقال): لا تصرم أخاك على ارتياب ولا تقطعه دون استعتاب (وقال): خير المقال ما صدقه الفعال (وقال): إذا لم ترزق غنى فلا تحرمن من تقوى (وقال): من عرف الدنيا لم يحزن للبلوى (وقال): دع الكذب تكرمًا إن لم تدعه تأثمًا (وقال): المعتذر من غير ذنب يوجب على نفسه الذنب (وقال): كثرة الجدال توجب الشك (وقال): خير القلوب أوعاها (وقال): الحياء لباس سابغ وحجاب مانع وستر من المساوئ واق وحليف للدين وموجب للمحبة وعين كالئة تذود عن الفساد وتنهى عن الفحشاء والعجلة في

الأمور مكسبة للمذلة وزمام للندامة وسلب للمروءة وشين للحجا ودليل على ضعف العقدة (وقال): إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره تنكرت للناس أخلاقه (وقال): لا تصبح الشرير فإن طبعك يسرق من طبعه شرًا وأنت لا تعلم (وقال): ينبغي للعاقل أن يتذكر عند حلاوة الغذاء مرارة الدواء (وقال): إن حسدك أخ من إخوانك على فضيلة ظهرت منك فسعى في مكروهك فلا تقابله بمثل ما كافحك به فيعذر نفسه في الإساءة وتشرح له طريقًا إلى ما يحبه فيك؛ لكن اجتهد في التزيد من تلك الفضيلة التي حسدك عليها فإنها تسوؤه من غير أن توجده حجة عليك (وقال): إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره فإنك تقف من مشورته على عدله وجوره وخيره وشره (وقال): يجب عليك أن تشفق على ولدك من إشفاقك عليه (وقال): إذا خدمت رئيسًا فلا تلبس مثل ملبوسه ولا تركب مثل مركوبه ولا تستخدم مثل خدمه فعساك تسلم منه (وقال): لا تحدث بالعلم السفهاء فيكذبوك ولا الجهال فيستثقلوك؛ ولكن حدث به من يتلقاه من أهله بقبول وفهم يفهم عنك ما تقول ويكتم عليك ما يسمع فإن لعلمك عليك حقًّا كما أن عليك في مالك حقًّا بذله لمستحقه ومنعه عن غير مستحقه (وقال): إياك وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره (وقال): العاقل من اتهم رأيه ولم يثق بما سولته له نفسه (وقال): أمر لا تدري متى يغشاك لا يمنعك أن تستعد له قبل أن يفجأك (وقال): ليس في البرق الخاطف مستمع لمن يخوض في الظلمة (وقال): إذا أعجبك ما يتواصفه الناس من محاسنك فانظر فيما بطن من مساويك ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك (وقال): خيار النس يترفعون عن ذكر معايب الناس ويتهمون المخبر بها ويأثرون الفضائل ويتعصبون لأهلها ويستعرضون مآثر الرؤساء وأفضالهم عليهم

ويطالبون أنفسهم بالمكافأة عليها وحسن الرعاية لها (وقال): من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه وحنينه إلى أوطانه وحفظه قديم إخوانه (وقال): مكارم الأخلاق عشر خصال السخاء والحياء والصدق وأداء الأمانة والتواضع والغيرة والشجاعة والحلم والصبر والشكر (وقال): من الخير أداء الأمانة المكافأة على الصنيعة لأنها كالوديعة عندك (وقال): النفس تكون الحركة عليه في الخير سهلة متيسرة والحركة في الأضرار عسرة بطيئة والشرير بالضد من ذلك (وقال): لا تقبلن في استعمال عمالك وأمرائك شفاعة إلا شفاعة الكفاية والأمانة (وقال): إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة لأنه باستشارتك قد خرج من عدواتك ودخل في مودتك (وقال): العدل صورة واحدة والظلم صورة كثيرة، ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحري العدل وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها، وإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض وتعهد والخطأ لا يحتاج إلى شيء من ذلك (وقال): لا يخطئ المخلص في الدعاء إحدى ثلاث ذنب يغفر أو خير يعجل أو شر يؤجل (وقال): لا ينتصف ثلاثة من ثلاثة بر من فاجر وعاقل من جاهل وكريم من لئيم (وقال): أشرف الملوك من لم يخالطه البطر ولم يحل عن الحق وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا وخير الأصدقاء من لم يكن على إخوانه مستصعبًا وخير الأخلاق أعوانها على التقى والورع (وقال): إياك ومواقف الاعتذار فرب عذر أثبت الحجة على صاحبه وإن كان بريئًا (وقال): قوت الأجسام الغذاء وقوت العقول الحكمة فمتى فقد واحد منهما قوته بار واضمحل (وقال): لا تفرح بسقطة غيرك فإنك لا تدري ما تتصرف الأيام بك (وقال): غضب العاقل في فعله وغضب الجاهل في قوله (وقال): مروا الأحداث بالمراء والجدال والكهول بالفكر والشيوخ بالصمت (وقال): بلوغ أعلى المنازل

من غير استحقاق من أكبر أسباب الهلكة (وقال): ليت شعري ما أدري من فاته العلم بل أي شيء فات من أدرك العلم (وقال): ذو الهمة وإن حط نفسه يأبى إلا علوًا كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعًا (وقال): العاقل إذا تكلم بكلمة أتبعها حكمة ومثلًا والأحمق إذا تكلم بكلمة أتبعها حلفًا (وقال): ابتداء الصنيعة نافلة وربها فريضة (وقال): رب صلف أدى إلى تلف (وقال): المروءة التامة مباينة العامة (وقال): السفل إذا تعلموا تكبروا وإذا تمولوا استطالوا والعلية إذا تعلموا تواضعوا وإذا افتقروا صالوا (وقال): أعجز الناس من قصر في طلب الصديق وأعجز منه من وجده فضيعه (وقال): إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث تكره (وقال): عاملوا الأحرار بالكرامة المحضة والأوساط بالرغبة والرهبة والسفلة بالهوان (وقال): لا تبلغ في سلامك على الإخوان حد النفاق ولا تقصر بهم عن درجة الاستحقاق (وقال): ارحم الفقراء لقلة صبرهم والأغنياء لقلة شكرهم وراحم الجميع لطول غفلتهم (وقال): من كذب ذهب بماء وجهه ومن ساء خلقه كثر غمه ونقل الصخور من مواضعها أهون من تفهيم من لا يفهم (وقال): لما عرف أهل النقص حالهم عند أهل الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرًا ويرفع حقيرًا وليس بفاعل (وقال): من كثر ممزاحه لم يسلم من استخفاف به أو حقد عليه (وقال): لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه ولا تتبعه بعد القطيعة وقيعة فيه فتسد طريقه عن لرجوع إليك ولعل التجارب أن ترده عليك وتصلحه لك (وقال): الجاهل صغير وإن كان شيخا والعالم كبير وإن كان حدثًا (وقال): الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود (وقال): عقل الكاتب في قلمه (وقال) الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما زاد ريًا ازداد مرارة (وقال) مما تكتسب به المحبة أن

تكون عالمًا كجاهل وواعظًا كموعظ (وقال) لأعجب للسلطان كيف يحسن وهو إذا أساء وجد من يزكيه ويمدحه (وقال) إذا صادقت إنسانًا وجب أن تكون صديق صديقه وليس يجب عليك أن تكون عدو عدوه لأن هذا إنما يجب على خادمه لأعلى مماثل له (وقال) ليس يكمل فضيلة الرجل حتى يكون صديقًا لمتعاديين (وقال) العقل الإصابة بالظن ومعرفة ما لم يكن بما كان (وقال) تعرف خساسة المرء بكثرة كلامه فيما لا يعنيه وإخباره عن ما لا يسأل عنه (وقال) خير ما عوشر به الملك قلة الخلاف وتخفيف المؤنة (وقال) أولى الأشياء أن يتعلمها الأحداث الأشياء التي إذا صاروا رجالًا احتاجوا إليها (وقال) لا تطلب الحياة لنأكل بل اطلب الأكل لتحيا (وقال) من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد بناه أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه (وقال) خير الشعر ما كان مثلًا وخير الأمثال ما لم يكن شعرًا (وقال) ولدك ريحانتك سبعًا وخادمك سبعًا ثم هو عدوك أو صديقك يعني بحسن التربية وسوء بها. (ومما يناسب ما أوردنا) ويكون حفظه كمالًا لطالب صناعة الإنشاء طرف الأراجيز التي ضمنها أصحابها أمثال تلك المعاني فعليه أن يطلبها مظانها ونورد منها الأرجوزة التي استخلصها تقي الدين أبو بكر ابن حجة الحموي من كتاب الصادح والباغم ورتب أبياتها كما استحسن غير ترتيبها في ذلك الكتاب وهي:

الحمد لله الذي هذبنا ... واختارنا للعلم إذ أدبنا

فإن للآداب فضلًا يذكر ... فلا تخاطب كل من لا يشعر

يا مدعي الحكمة في كلامه ... ومن يروم السحر في نظامه

خذ حكمًا وكلها أمثال ... ليس لها في عصرنا مثال

ألفها ابن حجة للنجبا ... لأن فيها رأس مال الأدبا

واختارها من مفردات الصادح ... لكان ذا من أكبر المصالح
من كل بيت أن تمثلت به ... سكنت من سامعه في قلبه
وقد تهجمت على الشريف ... لكنني خاطبت بالمعروف
وجئت من كلامه بنبذة ... تجلب للسامع كل لذة
وترفع الأديب أن تمثلا ... بها إذا خاطب أرباب العلا
من حكم تتبعها وصايا ... مقبولة من أحسن السجايا
من أول وأوسط وآخر ... جمعتها جمع أديب شاعر
حتى دنا البعيد للقريب ... وانتظم البديع بالغريب
وانسجمت في جمعها أرجوزة ... بديعة غريبة وجيزة
وكل من أنكر ما أحكمت في ... ترتيبها يكون غير منصف
فلينظر الأصل ليعرف السبب ... ويعترف إن كان من أهل الأدب
أول ما يرغب في استهلاله ... من نظمه المحكم في مقاله
العيش بالرزق وبالتقدير ... وليس بالرأي ولا التدبير
في الناس من تعده الأقدار ... وفعله جميعه إدبار
من عرف الله أزال التهمة ... وقال كل فعله للحكمة
من أنكر القضاء فهو مشرك ... إن القضاء بالعباد أملك
ونحن لا نشرك بالله ولا ... نقنط من رحمته إذ نبتلي
عار علينا وقبيح ذكر ... أن نجعل الكفر مكان الشكر
وليس في العالم ظلم جاري ... إذ كان ما يجري بأمر الباري
وأسعد العالم عند الله ... من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا ... أغاثه الله إذا أخيفا

إن العظيم يدفع العظيما كما الجسيم يحمل الجسيما
فإن من خلائق الكرام رحمة ذي البلاء والأسقام
وإن من شرائط العلو العطف في البؤس على العدو
قد قضت العقول أن الشفقة على الصديق والعدو صدقه
وقد علمت واللبيب يعلم بالطبع لا يرحم من لا يرحم
فالمرء لا يدري متى يمتحن فإنه في دهره مرتهن
وإن نجا اليوم فما ينجو غدًا لا يأمن الآفات إلا ذو الردى
لا تغتر بالخفض والسلامة فإنما الحياة كالمدامة
والعمر مثل الكأس والدهر القذر والصفو لا بدَّ له من الكدر
وكل إنسان فلا بد له من صاحب يحمل ما أثقله
جهد البلاء صحبة الأضداد فإنها كي على الفؤاد
أعظم ما يلقى الفتى من جهد أن يبتلى في جنسه بالضد
فإنما الرجال بالإخوان واليد بالساعد والبنان
لا يحقر الصحبة الأجاهل أو مارق عن الرشاد غافل
صحبة يوم نسب قريب وذمة يحفظها اللبيب
وموجب الصداقة المساعدة ومقتضى المودة المعاضدة
لا سيما في النوب الشدائد والمحن العظيمة الأوابد
فالمرء يحيي أبدًا أخاه وهو إذا ما عد من أعداه
وإن من عاشر قومًا يومًا ينصرهم ولا يخاف لومًا
وإن من حارب من لا يقوى لحربه جر إليه البلوى
فحارب الأكفاء والأقرانا فالمرء لا يحارب السلطانا

واقنع إذا حاربت بالسلامة ... وحذر فعالًا لا توجب الندامة

فالتاجر الكيس في التجارة ... من خاف في متجره الخسارة

يجهد في تحصيل رأس ماله ... ثم يروم الربح باحتياله

وإن رايت النصر قد لاح لكا ... فلا تقصر واحتزر أن تهلكا

واسبق إلى الأجود سبق الناقد ... فسبقك الخصم من المكايد

وانتهز الفرصة إن الفرصة ... تصير إن لم تنتهزها غصة

كم بطر الغالب يومًا فترك ... عه التوقي واستهان فهلك

ومن أضاع جنده في السلم ... لم يحفظوه في لقاء الخصم

وإن من لا يحفظ القلوبا ... يخذل حين يشهد الحروبا

والجند لا يرعون من أضاعهم ... كلا ولا يحمون من أجاعهم

وأضعف الملوك طرًّا عقدًا ... من غره السلم فأقصى الجندا

والحزم والتدبير روح العزم ... لا خير في عزم بغير حزم

والحزم كل الحزم في المطاولة ... والصبر لا في سرعة المزاولة

وفي الخطوب تظهر الجواهر ... ما غلب الأيام إلا الصابر

لا تيأسن من فرج ولطف ... وقوة تظهر بعد ضعف

فربما جاءك بعد اليأس ... روح بلا كد ولا التماس

في لمحة الطرف بكاء وضحك ... وناجز باد ودمع ينسفك

تنال بالرفق وبالتأني ... ما لم تنل بالحرص والتعني

ما أحسن الثبات والتجلدا ... وأقبح الحيرة والتبلدا

ليس الفتى إلا الذي أن طرقه ... خطب تلقاه بصبر وثقه

إذا الرزايا أقبلت ولم تقف ... فثم أحوال الرجال تختلف

وكم لقيت لذة في زمني ... فأصبر الآن لهذي المحن
فالموت لا يكون إلا مرة ... والموت أحلى من حياة مرة
إني من الموت على يقين ... فأجهد إلا آن لما يقيني
صبرًا على أهوالها ولا ضجر ... وربما فازا الفتى إذا صبر
لا يجزع الحر من المصائب ... كلا ولا يخضع للنوائب
فالحر للعبء الثقيل يحمل ... والصبر عند النائبات يجمل
لكل شيء مدة وتنقضي ... ما غلب الأيام إلا من رضي
قد صدق القائل في الكلام ... ليس النهي بعظم العظام
لا خير في جسامة الأجسام ... بل هو في العقول والأفهام
فالخيل للحرب وللجمال ... والإبل للحمل وللترحال
لا تحتقر شيئًا صغيرًا محتقر ... فربما أسالت الدم الإبر
لا تحرج الخصم ففي إحراجه ... جميع ما تكره من لجاجه
لا تطلب الفائت باللجاج ... وكن إذا كويت ذا أنضاج
فعاجز من ترك الموجودا ... طماعة وطلب المفقودا
وفتش الأمور عن أسرارها ... كم نكتة جاءتك مع إظهارها
لزمت للجهل قبيح الظاهر ... وما نظرت حسن السرائر
ليس يضر البدر في ثناه ... أن الضرير قط لا يراه
كم حكمة أضحت بها المحافل ... نافقة وأنت عنها غافل
ويغفلون عن خفي الحكمة ... ولو رأوها لأزالوا التهمة
كم حسن ظاهره قبيح ... وسمج عنوانه مليح
والحق قد تعلمه ثقيل ... يأباه إلا نفر قليل

فالعاقل الكامل في الرجال ... لا ينثني لزخرف المقال
إن العدو قوله مردود ... وقل ما يصدق الحسود
لا تقبل الدعوى بغير شاهد ... لا سيما إن كان من معاند
أيؤخذ البريء بالسقيم ... وارحل المحسن باللئيم
كذاك من يستنصح الأعادي ... يرزوه بالغش والفساد
إن أكل من ترى أذهانا ... من حسب الإساءة إلا حسانا
فادفع إساءة العدا بالحسنى ... ولا تخل يسراك مثل اليمنى
وللرجال فاعلما مكايد ... وخدع منكرة شدائد
فالندب لا يخضع للشدائد ... قط ولا يغتاظ بالمكايد
فرقع الخرق بلطف واجتهد ... وامكر إذا لم ينفع الصدق وكد
فهكذا الحازم إذ يكيد ... يبلغ في الأعداء ما يريد
وهو بريء منهم في الظاهر ... وغيره مختضب الأظافر
والشهم من يصلح أمر نفسه ... ولو بقتل ولده وعرسه
فإن من يقصد قلع ضرسه ... لم يعتمد إلا صلاح نفسه
وإن من خص اللئيم بالندى ... وحده كمن يربي أسدا
وليس في طبع اللئيم شكر ... وليس في أصل الدنيء نصر
وإن من ألزمه وكفله ... ضدّ الذي في طبعه ما أنصفه
كذاك من يصطنع الجهالا ... ويؤثر الأرذال والأنذالا
لو أنكم أفاضل أحرار ... ما ظهرت بينكم الأسرار
إن الأصول تجذب الفروعا ... والعرق دساس إذا أقيعا
ما طاب فرع أصله خبيث ... ولا زكا من مجده حديث

قد يدركون رتبًا في الدنيا ... ويبلغو وطرًا من بغيا
لكنهم لا يبلغون في الكرم ... مبلغ من كان له فيها قدم
وكل من تماثلت أطرافه ... في طيبها وكرمت أسلافه
كان خليقًا بالعلى وبالكرم ... وبرعت في أصله حسن الشيم
لولا بنو آدم بين العالم ... ما بان للعقول فضل العالم
فواحد يعطيك فضلًا وكرم ... فذاك من يكفره فقد ظلم
وواحد يعطيك للمصانعة ... أو حاجة له إليك واقعة
لا تشرها إلى حطام عاجل ... كم أكلة أودت بنفس الآكل
واحذر أخي يا فتى من الشره ... وقس بما رأيته ما لم تره
فليس من عقل الفتى أو كرمه ... إفساد شخص كامل لقرمه
فالبغي داء ما له دواء ... ليس لملك معه بقاء
والبغي فاحذره وخيم المرتع ... والعجب فاتركه شديد المصرع
والغدر بالعهد قبيح جدًّا ... شر الورى من ليس يرعى العهدا
عند تمام الأمر يبدو نقصه ... وربما ضر الحريص حرصه
وربما ضرك بعض مالكا ... وساءك المحسن من رجالكا
فالمرء يفدي نفسه بوفره ... عساه أن ينجو به من أسره
لا تعطين شيئًا بغير فائدة ... فإنها من السجايا الفاسدة
هذا الذي ألفته واخترته ... من رجز الشريف وانتخبته
وحرمة الآداب يا أهل الأدب ... إن الشريف قد أتانا بالعجب
قلنا جميعًا إذ سمعنا رجزه ... كم قد أتى محمد بمعجزه
من كل بيت شطره قصيد ... وكلنا لبيته عبيد

فرحمة الله له في الآخرة خاتمة مع الهباة الوافرة
ثم الصلاة والسلام دائمًا على الذي للرسل جاء خاتما

والشريف المذكور صاحب الصادح و لباغم هو المشهور بالرضي وكان رضي الله عنه من أكبر أمراء زمانه تولى نقابة الأشراف ببغداد وغيرها من الوظائف الجليلة، وقد أفاض الله عليه من بركات بيته النبوي العلوي فلم يكن أشعر منه على الإطلاق ولا يطمع أحد أن يجاريه في سابق شعره مدون في أربعة أجزاء وقد اقتفى أثره فأحسن تلميذه وصنيعته مهيار الديلمي وسنورد عليك إن شاء الله متى أفضنا في أمر الشعر من كلامهما مصداق ذلك، هذا وعلى من يريد المهارة في صناعة الإنشاء أن يكثر من حفظ جياد الأشعار متفهمًا معانيه متأملًا حسن سياقاتها؛ لما في ذلك له من جميل الفوائد التي منها معرفة المعاني المودعة فيها بعد كد أفكار ذوي العقول في تحصيلها، ومنها الا ستشهاد بشطر بيت أو أكثر على ما يكون أسلفه في نثره من الدعاوى ومن التضمين بأن يتمم المعنى الذي أبرزه النثر بشطر بيت أو أكثر أو يقرن معنى بما يناسبه ومنها استعماله في الحل الذي سبق التنبيه عليه في البديع نقل أن عبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل لما ورد الديار المصرية في آخر دولة العبيد بين على نية الإقامة بها والتعيش فيها بحرفة الكتاب لقي ابن الخلال رئيس الكتاب إذ ذاك وعرض عليه نيته ولعه استعد لذلك بحفظ القرآن الشريف وبعض الأخبار النبوية وديوان الحماسة، وهو كتاب جمع فيه أبو تمام أشعارًا انتخبها من أشعار العرب وأجد الانتخاب حتى أنه قيل: إنه في اختياره أشعر منه في شعره ورتبه على عشرة أبواب؛ كل باب في نوع من أنواع الشعر فأمره أن يبتدئ التعليم بحل أبيات ذلك الديوان وإخراجها من صورة النظم إلى صورة نثرية لا تنقص ملاحتها عما كانت

عليه وهي نظم، فلما أتم ذلك عرضه عليه فأظهر استحسانه وأثنى عليه وأمره أن يحلها مرة ثانية فعند ذلك تصرف قلمه في الصناعة ولم يزل يترقى حتى كان الواحد المشار إليه في الدولة الكردية الماحية للدولة العبيدية؛ وإذ كان ذلك كذلك فلا بد أن نورد لك من كل باب من أبواب الحماسة جملة صالحة تحفظها وتتأمل معانيها وتفتكر في استعمالها لتلك الأغراض حتى تجد الزمن الذي تتمكن فيه بتوفيق الله تعالى أن تطلع على جميع الكتاب وغيره مما يلزم لطالب الأدب أن يطلع عليه من الكتب، فمن باب الحماسة والحماسة الشدة وبها سميت الأشعار التي يذكر فيها الشدة على النفس في احتمال المكاره والصبر عليها لحفظ الشرف وحماية ما يجب على الإنسان حمايته قال رجل من قوم يقال لهم: بنو العنبر وسنة العرب في النطق بأمثال هذه العبارة أن يقولوا: بلعنبر وبلحارث أغارت على إبله جماعة يقال لهم: بنو اللقيطة فلم يعنه قومه على استنقاذها منهم وركن إلى بني مازن فأعانوه واستخلصوا إبله يشكرهم ويهجو قومه:

لو كنت من مازن لم تستنج إبلي	بنو اللقيطة من ذهب بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته	سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا	شنوا الإغارة فرسانًا وركبانا

اللوثة بفتح فكون الشدة والقوة ومنها اشتقاق الليث، وبضم فسكون مرسل الضعف والاسترخاء وكلتاهما يحتمل البيت وهو على الأولى أبلغ في وصف بني مازن بالشجاعة وفي الثانية تعريض بقومه. وقال ثابت بن جابر المشهور بتأبط شرًا يقال أنه يومًا من الأيام أخذ سيفًا تحت إبطه وخرج فسئلت عنه أمه فقالت: لا أدري تأبط شرًا ومضى؛ فغلب عليه ذلك اللقب بذكر بعض مجرياته وكان شجاعًا فاتكًا مغوارًا عرف بذلك من صغره وحاصل القصة التي فيها الأبيات أنه كان استكشف في أرض بعض أعدائه غارًا في رأس جبل قائم ليس له إلا طريق واحدة ضيقة اتخذته نحل بيتًا فكان يجيء يشتاره رأس كل سنة فاتفق أن فطن به قوم من أعدائه أهل الناحية فأخذوا عليه الطريق ودعوه إلى الخروج فعرفهم وقال: على شريطة ماذا أخرج؟ فقالوا: على غير شريطة فطاولهم الكلام وأخذ يريق العسل على الجانب الثاني من الجبل ثم وضع صدره على الصفا وأرخى نفسه فذهب يهوى حتى وصل أسفل الجبل سالمًا، وكان بين الموضع الذي استقر فيه والموضع الذي فيه أعداؤه مسيرة ثلاثة أيام يدورون مع الجبل وهذه الأبيات:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده	أضاع وقاسي أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلًا	به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حولا	إذا سد منه منخر جاش منخر
أقول للحيان وقد صفرت لهم	وطابي ويومي ضيق الحجر معور
هما خطتا إما إسار ومنة	وإما دم والقتل بالحر أجدر
وأخرى أصادي النفس عنها وأنها	لمورد خرم إن فعلت ومصدر
فرشت لها صدري فزل عن الصفا	به جؤجؤ عبل ومتن محضر
فخالط سهل الأرض لم يكدح	به كدحة والموت خزيان ينظر

فأبـت إلـى فهـم ومـا كـدت آيبًـا   وكـم مثلهـا فارقتهـا وهـي تـصفر

قريـع الـدهر الـذي قرعتـه الأيـام بنوائبهـا حتـى عـرف وجـوه المنـافع والمضار بالممارسة والتجارب، فإن معرفة ذلك تكون أثبت وأمكن من معرفة من كانت طريقه إليها التعلم والأخذ عن الأخبار يقال: فلان صنيعة الدهر وحنكته التجارب وأدبته الأيام والليالي إلى غير تلك من العبارات، وقوله: هما خطتا إما إسار يروى برفع إسار وما بعده بدلًا فخذف النون شاذ، ويروى بالخفض فالحذف للإضافة وقوله: صفرت لهم وطابي هو مثل يضرب لمفارقة الروح البدن أي كان ذلك في خيالهم وحسبما سولت لهم تلك المكنة منه، وقوله: إذا سدّ منه منخر أي كلما ضاق عليه أمر من الحيلة اتسع له آخر وقوله: وكم مثلها فارقتها أي كم مثل تلك المنزلة فارقتها وأهلها يتحسرون على إفلاتي وفواتي من يدهم. وقال أبو كبير الهذلي: يذكر ثابتًا هذا وهو غلام وكان قد تزوج أمه فكان يرى من عينيه استنكافه لذلك وأنه يضمر له السوء، فعرض ذلك على أمه فسمحت نفسها بأن يعمل فيه ما شاء، فأصبح ذات يوم وقال: يا ثابت هل تلك في الغزو؟ فقال: ذلك من أمري فخرجا وأبو كبير يريد به السوء ولم يكن يتمكن لنباهة الغلام وشدة حرصه ولم يكونا تزودا لسفرهما فاشتد الجوع في الليلة الثانية بأبي كبير ولاحت لهما من بعيد نار فقال: يا ثابت اقصد النار وأنا أنتظرك عسى أن تجد ما نأكل فقال: أهذا وقت أكل؟ فقال: لا بد من ذلك فلما قصد النار وجدها لرجلين من مشاهير لصوص العرب فهما به وجرى أمامهما حتى أطمعهما في نفسه ثم انعطف فقتل أقربهما له ثم جرى للآخر فألحقه به وجاء النار فأخذ ما كان من طعام وأحضره إلى أبي كبير وقال: كل لا أشبع الله بطنك، فسأله عما جرى فقال: كل ولا تسأل فألح عليه حتى أخبره بما كان فعند ذلك عظم في صدره جدًّا واشتدت

مهابته له وخوفه منه ثم سارا حتى وجدا إبِلًا فاستقاها ورجعا قافلين فكان يسير به اليوم أجمع وصدرا من الليل ثم يقول له: أنام وتحرس ثم تنام وأحرس، وكان ذلك دأبهما فبينا ثابت نائم في بعض نوباته إذ بدا لأبي كبير أن يقتله وأراد أن يختبره أولًا إن كان قد غمره النوم أولا فأخذ حصاة ونبذها ناحية رأسه فنهض ثابت قائمًا كأنه كعب قناة وقال: ما هذه الوجبة؟ فقال أبو كبير: لا أدري سمعت كما سمعت، فطاف ثابت حول الإبل وعس فلم يجد شيئًا ثم رجع وناه فنبذ أبو كبير حصاة أصغر من الأولى فكان منهما كما كان في المرة الأولى، فلما كانت الثالثة قال ثابت: يا هذا قد رابني أمرك منذ الليلة والله لئن عدت سمعت شيئًا قتلتك قال أبو كبير: فملأني الخوف منه حتى سهرت بقية الليلة أطوف حول الإبل؛ مخافة أن يتحرك بعضها فيسمع فيبر قسمه، فلما رجعا قال أبو كبير لأم ثابت: ليست أم مثل هذا لي بزوجة وهذه لأبيات:

ولقد سريت على الظلام بمغشم ... جلد من الفتيان غير مثقل
ممن حملن به وهن قواعد ... حبك النطاق فشب غير مهبل
ومبرء من كل غبر حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل
حملت به في ليلة مزءودة ... كرهًا وعقد نطاقها لم يحلل
فأتت به حوش الفؤاد مبطنًا ... سهدًا إذا ما نام ليل الهوجل
فإذا نبذت له الحصاة رأيته ... ينزو لوقعتها طمور الأخيل
وإذا يهب من المنام رأيته ... كرتوب كعب الساق ليس بزمل
ما أن يمس الأرض إلا منكب ... منه وحرف الساق طي المحمل
وإذا رميت به الفجاج رأيته ... يهوى مخارمها هوى الأجدل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

صعب الكريهة لا يرام جنابه ماضي العزيمة كالحسام المصقل
يحمى الصحاب إذا تكون عظيمة وإذا هم نزلوا فمأوى العيل

قوله: مغشم هو صيغة الآلة إذا كان الغرض صفة الشيء بكونه عدة للفعل فهو بمنزلة آلته عبر عنه بصيغتها كقول امرئ القيس في صفة الفرس: مكر مفر مقبل مدبر معًا، بكسر ميمي مكر ومفر وإذا أريد صفته بكونه قويًا في الفعل ثابتًا فيه مستمرًا عبر عنه بصيغة فعول إحدى صيغ المبالغة المشهورة: كصبور وصدوق، وإذا أريد صفته بكثرة الفعل مع تخلل الترك عبر بفعال كقولهم طلاع أنجاد وخواض غمرات، وإذا أريد صفته بكونه له عادة عبر بمفعال كقولهم: هو منحار للإبل وهو فرق ينبغي التنبه له ليستعمل كل شيء في موضعه وقوله: مهبل أي غير مشتوم بأن يقال له: هبلتك أمك أي فقدتك كما يقال لمن لا خير فيه بل هو مغدى يقال له: جعلت فداءك كما يقال لمن يؤمل منه النفع والمهبل أيضًا: اللحيم المورم الوجه وقوله: حملت به في ليلة يقال: إن المرأة إذا أكرهت على الجماع ضعفت شهوتها وكانت القوة الفعالة لشهوة الرجل، فإذا حملت في تلك الحالة جاء للولد نجيبًا شهمًا خفيفًا ندبًا وقوله: وإذا نظرت إلى أسرة وجهه الأسرة الخطوط التي تظهر في الجبين وقد شرفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذا البيت حيث تمثلت به وقد نظرت إلى وجهه صلى الله عليه وسلم يتحدر منه العرق وهو مقبل على مباشرة خصف نعله، فقالت: كان أبا كبير راك حيث يقول: وإذا نظرت إلى أسرة وجهه البيت، فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم وقبلها بين عينيها وقال رجل من بني قيسر بن ثعلبة وقيل إنها لبشامة بن خرن النهشلي ومن يقول: إنها للقيس يروي قوله الآتي:

أنا محيوك يا سلمى فحيينا ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جلي ومكرمة ... يومًا سراة كرام الناس فادعينا
أنا بني نهشل لا ندعي لأب ... عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
أن تبتدر غاية يومًا لمكرمة ... تلق السوابق منا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبدًا ... إلا افتلينا غلامًا سيدًا فينا
أنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ... ولو نسام بها في الأمن أغلينا
بيض مفارقنا تغلي مراجلنا ... تأسوا بأموالنا آثار أيدينا
إني لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيل الكماة إلى أين المحامونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... من فارس خالهم إياه يعنونا
إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم ... حد الظباة وصلناها بأيدينا
ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم ... مع البكاة على من مات يبكونا
ونركب الكره أحيانًا فيفرجه ... عنا الحفاظ وأسياف تواتينا

قوله: وإن سقيت كرام الناس أي وإن أردت أن تدعي بالسقيا لكرام الناس فادعي لنا فأنا هم وليس الغرض الدعاء حقيقة ولكن التعجب واستعظام الأمر، فإن من استعظم شيئًا يقول: سقاه الله وعند استحسانك عمل إنسان تقول: حياك الله وقوله:

تلقى السوابق منا والمصلينا

هما من أسماء خيل الحلبة أي خيل السباق وكان من عادتهم أن يجروها عشرة عشرة، فكانت تجيء العشرة نحو الغاية وهي القصب المركوز في آخر مسافة السباق التي يقال فيها: أحرز قصب السبق فكان أول حصان يسمى المجلي والسابق لأنه جلي عن نفسه والثاني يسمى

المصلي لأن جحفلته تكون عند صلوى السابق والصلوان عرقان يكتنفان الصلب أو عظمان اختلف في تفسيرهما، والثالث يسمى المسلي والرابع التالي والخامس المرتاح والسادس العاطف والسابع المؤمل والسبعة لها أنصبة من مبلغ المراهنة والثامن الحظي والتاسع اللطيم والعاشر السكيت مثل كميت ويشدد فيقال: سكيت كجميز ويسمى أيضًا فكلا كقنقذوز برج وذكر هذه الأسماء في نظم وصف به حلبة سباق محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان فقال:

فجلى الأغرّ وصلى الكميت ... وسلى فلم يذمم الأدهم

واتبعها رابع تاليا ... وأنى من المنجد المتهم

وما ذم مرتاحها خامسًا ... وقد جاء يقدم ما يقدم

وسادسها العطف المستحير ... يكاد لحيرته يحرم

وخاب المؤمل فيما يخيب ... وعنَّ له الطائر الأشام

وجاء الحظي لها ثامنا ... فأسهم حصته المسهم

حدا سبعة وأتى ثامنًا ... وثامنة الخيل لا تسهم

وجاء اللطيم لها تاسعًا ... فمن كان ناحية يلطم

يخب السكيت على إثرها ... وعلياه من قنبه أعظم

على ساقة الخيل يعدو بها ... مليمًا وسايسها ألوم

إذا قيل من رب ذا لم يجب ... من الحزن بالصمت مستعصم

خيبة المؤمل كونه أقل ذوات الأنصباء وقوله: أسهم حصته المسهم أي كانت حصته سهمًا لذوي السهام، وحصته التي له لو لم يجيء ثامنًا وقوله: أفتلينا أي انتزعنا وميزنا كما ينزع الفو عن أمه عند الفطام والفلو كسمو وعدو المهر الصغير عند فطامه، وقوله: الكماة جمع كام كقاض

وقولهم جمع كي مسامحة وسمى الشجاع كميا لأنه يكتم صفات نفسه حتى تعبر عنها أعماله أو يستر نفسه في السلاح وقال زفر بن الحارث يقر لأعدائه بالغلبة:

وكنا حسبنا كل بيضا شحمة ... ليالي لاقينا جذام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
ولما لقينا عصبة تغلبية ... يقودون جردًا للمنية ضمرا
سقيناهم كأسًا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

وتغلب التي ذكرها في الشعر قوم من قضاعة؛ وليست تغلب وائل وقال يذكر هزيمته في تلك الواقعة ويعتذر:

أريني سلاحي لا أبا لك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ولم تر مني نبوة قبل هذه ... فراري وتركي صحبي ورائيا
عشية أجرى بالصعيد ولا أرى ... من الناس إلا من على ولا ليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته ... بصالح أيام وحسن بلائيا
وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

ولما رأيت الخيل زورًا كأنها ... جداول زرع أرسلت فاسبطرت
فجاشت إلى النفس أول مرة ... فردت على مكروهها فاستقرت
علام تقول الرمح يثقل عاتقي ... إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت
لحا الله جرمًا كلما ذر شارق ... وجوه كلاب هارشت فاز بأرت
فلم تغن جرم تهدها إذ تلاقتا ... ولكن جرمًا في اللقاء ابذعرت
ظللت كأني للمراح دريئة ... أقاتل عن أبناء جرم وفرت

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم ... نطقت ولكن الرماح أجرت

اسبطرت امتدت في استرسالها، وازبأرت تهيأت وابذعرت تفرقت وتناكصت، وأصل الإجرار أن يشق لسان الفصيل ويوضع فيه عود يمنع بذلك من رضاع أمه، واستعير هاهنا لقبيح الإسكات والمنع من النطق بالثناء وجرم هؤلاء كانوا نزلوا في جوار عمرو وفيهم ثأر لنهد فجاءوا يطلبونه فأراد يدفعهم ويعين جيرانه فثبت ولم يثبتوا وقال أنيف بن زبان النبهاني من طئ:

جمعناكم من حي عوف ومالك ... كتائب يردي المقرفين نكالها

لهم عجز بالرمل فالحزن فاللوى ... وقد جاوزت حي جديس رعالها

وتحت نحور الخيل حرشف رجلة ... تتاح لغرات القلوب نبالها

أبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم ... بنو ناتق كانت كثيرًا عيالها

فلما أتينا السفح من بطن حائل ... بحيث تلاقى طلحها وسيالها

دعوا لنزار وأنتمينا لطيء ... كأسد الشرى أقدامها ونزالها

فلما التقينا بين السيف بيننا ... لسائلة عنا حفى سؤالها

ولما تدانوا بالرماح تضلعت ... صدور القنا منهم وعلت نهالها

ولما عصينا بالسيوف تقطعت ... وسائل كانت قبل سلمى حبالهم

فولوا وأطراف الرماح عليهم ... قوادر مر بوعاتها وطوالها

حرشف رجلة بفتح أولها وسكون ثانيهما جماعة المشاة الكثيرة، وقال عمرو بن معد يكرب:

ليس الجمال بمئزر ... فاعلم وأن رديت بردا

إن الجمال معادن ... ومناقب أورثن مجدا

أعـــــددت للحـــــدثان ســـــا ... بغـــــة وعـــــداء علنـــــدا
نهـــدًا وذا شـــــطب يقـــــد ... البـــيض والأبـــدان قـــدا
وعلمـــــت أنـــــي يـــــوم ذا ... ك منـــــازل كعبًـــــا ونهـــــدا
قـــوم إذا لبـــــسوا الحديـــــ ... ـــد تنمـــر وأحلقـــا وقـــدا
كـــل امـــرئ يجـــرى إلـــى ... يـــوم الهيـــاج بمـــا اســـتعدا
لمـــــا رأيـــــت نـــــساءنا ... يفحـــصن بـــالمعزاء شـــدا
وبـــدت لمـــيس كأنهـــا ... بـــدر الـــسماء إذا تبـــدى
وبـــدت محاســـنها التـــي ... تخفـــى وكـــان الأمـــر جـــدا
نازلـــت كبـــشهم ولـــم ... أر مـــن نـــزال الكـــبش بـــدا
هـــم ينـــذرون دمـــي وأنـــ ... ـــذر إن لقيـــت بـــأن أشـــدا
كـــم مـــن أخ لـــي صـــالح ... بوأتـــــه بيـــــدي لحـــــدا
مـــا أن جزعـــت ولا هلعـــ ... ـــت ولا يـــرد بكـــاي زنـــدا
أغنـــي غنـــاء الـــذاهبين ... أعـــدُّ للأعـــداء عـــدا
ذهـــب الـــذين أحـــبهم ... وبقيـــت مثـــل الـــسيف فـــردا

قوله: إن الجمال معادن أي غرائز وطبائع وقد أقر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام**». والمناقب هي الأحوال والأفعال وبها وبالغرائز يكون تمام الشرف في الإنسان والعلندا الشديد يوصف به الخيل والإبل والبيض جميع بيضة وهي والمغفر والخوذة وقاء الرأس من ضمن السلاح والأبدان لصنف من أصناف الدروع والقد درع من جلد. وقوله:

ولا يرد بكاي زندا أي لا يرد شيئًا كما يقال: لا يرد فتيلًا وقال قيس بن الحطيم:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها
يهون على أن ترد جراحها عيون الأواسي إذ حمدت بلاءها
وساعدني فيها ابن عمرو بن عامر خداش فادي نعمة وأفاأها
وكنت امرأ لا أسمع الدهر سبة أسب بها إلا كشفت غطاءها
فإني في الحرب الضروس موكل بأقدام نفس ما أريد بقاءها
إذا ما اصطبحت أربعًا خط مئزري واتبعت دلوي في السماح رشاءها
متى يأتي هذا الموت لا تلق حاجة لنفسي إلا قد قضيت قضاءها
ثأرت عديًا والخطيم فلم أضع ولاية أشياخ جعلت إزاءها

وقال الحارث بن هشام أخو أبي جهل يعتذر من فراره يوم بدر وتركه أخاه وبقية أهله حتى عيره حسان بن ثابت حيث يقول:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

دعا عليها بلحوق العار والفضيحة كما لحق هذا الفار، وذكر ذلك في ضمن أبيات الحماسة للجمع بين الشيء وضده وهذه أبيات الاعتذار:

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسي بأشقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم في مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أني إن أقاتل واحدًا أقتل ولا يضرر عدوى مشهدي
فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعًا لهم بعقاب يوم مرصد

الأشقر المزبد هو الدم الخارج إما من جرحه أو جرح فرسه.

وقال حيان بن الحكم السلمي: المشهور بالفرار يتبجح بالفرار وأنه مقتضى العقل وأن من أمره أنه يوافق السفهاء في آرائهم حتى يشتبكوا، فإذا اشتبكوا رجع هو إلى ما هو الخير عنده:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي
فتركتهم تقص الرماح ظهورهم من بين منعفر وآخر مسند
ما كان ينفعني فعال نسائهم وقتلت دون نسائها لا تبعد

يقال: إن بعض العلماء سئل تفسير قوله وكتيبة فقال: هو كقوله تعالى: {كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر} الآية وقال الحصين بن الحمام المري:

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هامًا من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فاعل تقطر ضمير الكلوم والدم مفرد مفعول.

وقال رجل من بني عقيل وقد حار به بنو عمه فقتل منهم:

بكره سراتنا يا آل عمرو نغاديكم بمرهفة صقال
نفديهن يوم الروع عنكم وإن كانت مثلمة النصال
لها لون من الهامات كاب وإن كانت تحادث بالصقال
ونبكي حين نقتلكم عليكم ونقتلكم كانسا لا نبالي

من هذا أخذ البحتري قوله وحلاه بحلية البديع المزاوجة:

إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

وهذا الكلام في الانتقام والأخذ بالثأر عن قريب من قريب آخر، وقد اختلفت آراؤهم في ذلك فمنهم من رجح الانتقام لتبريد الغلة ودفع الهوان وإن كان فيه نقص عدد الحماة والأنصار، ومنهم من رجح العفو إبقاءً العدد فمن الأول ما مضى وقول قيس بن زهير:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني

فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وكان حمل وحذيفة قريبين قتلا قريبًا له فقتلهما وقوله: فإن أك قد بردت بهم غليلي جمع الضمير لأنه رده على القتيلين وقومهما فإنه قتلهما وأدخل الحزن على قومهما وفرح هو وقومه، وبذلك برد غليله ومن الثاني قول الحارث بن وعلة الذهلي:

قومي همو قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللًا ولئن سطوت لأوهنن عظمي

وقول أعرابي:

أقول للنفس تأساء وتعزية إحدى يدي أصابتني ولم ترد

كلاهما خلف من بعد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وفي هذا قليل بعد عما قبله فإنه جعل سبب العفو والقرابة وعدم الإرادة والسابق جعل السبب محض القرابة، وقال بعض بني فقعس:

رأيت موالي الآلي يخذلونني على حدثان الدهر إذ يتقلب

فهلا أعدوني لمثلي تفاقدوا إذا الخصم أبري مائل الرأس انكب

وهــلا أعــدوني لمثــل تفاقــدوا وفي الأرض مبثوث شجاع وعقرب
فـلا تأخـذوا عقـلًا مـن القـوم إنني أرى العـار يبقـى والمعاقـل تـذهب
كأنـك لـم تـسبق مـن الـدهر ليلـة إذا أنت أدركـت الـذي كنت تطلـب

قوله: رأيت موالى الألى أي رأيت بني عمي هم الألى فالألى مفعول ثان وقوله: إذا الخصم أبزى مذكر بزواء ومن معاني البزاء ومنه الاستعارة خروج الصدر ودخول الظهر يفعل ذلك الخصم تكبرا وقوله: شجاع وعقرب كناية عن العدو ولذلك صح أن يكون مبتدأ ومعطوفًا عليه ومبثوث خبر دون تثنية إذا المعنى وعدو مبثوث في الأرض، ولهم في هذا المعنى وهو تفظيع أخذ الدية والتحريض على الثار كلام كثير وقال عنترة طيء:

أطـل حمـل الـشناءة لـي وبغـضي وعـش مـا شئت فـانظر مـن تـضير
فمـــا بيـــديك نفـــع أرتجيـــه وغيـــر صـــدودك الخطـــب الكبيـــر
ألـــم تـــر أن شـــعري ســـارعني وشـــعرك حـــول بيتـــك مـــا يـــسير
إذا أبـــصرتني أعرضـــت عنـــي كـــأن الـــشمس مـــن قبلـــي تـــدور

وقال الطرماح بن حكيم من وادي هذا الكلام:

لقــد زادنــي حبًــا لنفــسي أنني بغيض إلـى كـل امـرئ غيـر طائـل
وأنــي شــقي باللئــام ولا تــرى شــقيًا بهــا إلا كــريم الــشمائل
إذا مـا رآنـي قطـع الطـرف بينـه وبينـي فعـل العـارف المتجاهـل
مـلأت عليـه الأرض حتـى كأنهـا مـن الـضيق فـي عينيه كفـة حابـل
أكـل امـرئ ألفـي أبـاه مقـصرًا معـاد لأهـل المكرمـات الأوائـل
إذا ذكـرت مـسعادة والـده اضـطني ولا يضطني من شتم أهل الفضائل

وما منعت دار ولا عز أهلها ... من الناس إلا بالقنا والقنابل

القنابل جمع قنبل أو قنبلة بفتح فسكون ففتح للجماعة من الناس أو الخيل:

وقال يزيد بن الحكم الكلابي:

دفعناكم بالقول حتى بطرتم ... وبالراح حتى كان دفع الأصابع

فلما رأينا جهلكم غير منته ... وما غلب من أحلامكم غير راجع

مسنا من الآباء شيأ وكلنا ... إلى حسب في قومه غير واضع

فلما بلغنا الأمهات وجدتم ... بني عمكم كانوا كرام المضاجع

بني عمنا لا تشتمونا ودافعوا ... على حسب ما فات قيد إلا كارع

وكنا بني عم نزا الجهل بيننا ... فكل يوفى حقه غير وادع

قوله: ما فات قيد أي لم يزل عن موضعه قدر كراع وضع الجمع موضع المفرد لإقامة الشعر ولأن الجمع لا يقع به اشتباه؛ إذ الغرض التقليل وذلك يأتي من حقارة الكراع بضم أوله، وقال إبراهيم بن كنيف النبهاني:

تعز فإن الصبر بالحر أجمل ... وليس على ريب الزمان معول

فلو كان يغني أن يرى المرء جازعًا ... لحادثة أو كان يغني التذلل

لكان التعزي عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر أولى وأجمل

فكيف وكل ليس يعدو حمامه ... وما لامرئ عما قضى الله مزحل

فإن تكن الأيام فينا تبدلت ... ببؤسي ونعمى والحوادث تفعل

فما لينت منا قناة صلبية ... ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

ولكن رحلناها نفوسا كريمة تحمل ما لا يستطاع فتحمل

وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا فصحت لنا الأعراض والناس هزل

قوله: مزحل من زحل أي لا يتجاوز ولا يفوت المرء ما قضاه الله عليه

وقال عويف القوافي الفزاري:

ذهب الرقاد فما يحس رقاد مما شجاك ونامت العواد

خبر أتاني عن عيينة موجع كادت عليه تصدع الأكباد

بلغ النفوس بلاؤه فكأننا موتى وفينا الروح والأجساد

يرجون عثرة جدنا ولو أنهم لا يدفعون بنا المكاره بادوا

لما أتاني عن عيينة أنه أمسى عليه تظاهر الأقياد

نخلت له نفسي النصيحة إنه عند الشدائد تذهب الأحقاد

وذكرت أي فتى يسد مكانه بالرفد حين تقاصر الأرفاد

أم من يهين لنا كرائم ماله ولنا إذا عدنا إليه معاد

الأجساد في الشعر جمع جسد والمراد به الدم كما هوالمراد في قوله النابغة:

وماهريق على الأنصاب من جسد

وقال بشر بن المغيرة أخي المهلب بن أبي صفرة وهو أبو يزيد المذكور في الشعر، وكان المهلب أمير العسكر إذ ذاك هو مشهور يتوجع في هذه الأبيات من عمه وأبيه وابن عمه:

جفاني الأمير والمغيرة قد جفا وأمسى يزيد لي قد أزور جانبه

وكلهم قد نال شبعًا لبطنه وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

فيا عم مهلًا واتخذني لنوبة تنوب فإن الدهر جم عجائبه
أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلي لا تنبو عليك مضاربه

وقال رجل في ابنه واختلف في تسميته فقيل هو أبو الشغب العبسي وقيل غير ذلك:

رأيت رباطًا حين تم شبابه وولى شبابي ليس في بره عتب
إذا كان أولاد الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب
لنا جانب منه دميث وجانب إذا رامه الأعداء ممتنع صعب
وتأخذه عند المكاره هزة كما اهتز تحت البارح الغصن

الحزازة تألم النفس غيظًا أي إذا كانوا سببها وقال إسحاق بن خلف:

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أقاس الدجى في حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذرا الفقر يومًا أن يسلم بها فيهتك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقًا والموت أكرم نزال على الحرم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أبقى عليها من أذى الكلم

وقال حطان بن المعلى:

أنزلني الدهر على حكمه من شامخ عال إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى فليس لي مال سوى عرض
أبكاني الدهر ويا ربما أضحكني الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض

وإنمــــا أولادنـــا بيننــــا أكبادنـــا تمـــشي علـــى الأرض
لـو هبـت الـريح علـى بعـضهم لامتنعـت عينـي مـن الغمـض

قوله: لولا بنيات كزغب القطا أي ضعاف كفراخ القطا التي لم يقو ريشها بعد؛ بل هو زغب فهي في الاحتياج إلى ما يعولها ويجلب رزقها. وقوله: رددن من بعض إلى بعض يريد أن كبارهن وإن قويت بنيتهن حتى ردت إليهن الصغار ليحفظن ويدبرن أمورهن فهن ضعاف العقول والعزائم بحيث يرددن إلى الصغار ويجعلن من عددهن إذ الفريقان في الضعف سواء، فخلاصة المعنى أن البنات في عدم غنائهن واحتياجهن إلى من يكفلهن ويعول أمرهن لا تميز لبعضهن عن البعض، وقال رجل أسدي:

ومـا أنـا بـالنكس الـدنيء ولا الـذي إذا صـد عنـي ذو المـودة أحـرب
ولكننـــي إن دام دمـــت وإن يكـــن لـه مـذهب عني فلـي عنه مـذهب
إلا أن خيـــر الـــود ود تطوعـــت بـه الـنفس لا ود أتـى وهـو متعـب

يقال: إن الأفصح إذا أخبر موصول عن ضمير متكلم أو مخاطب أن يؤتى بالضمائر طبق الموصول ضمائر غيبة، وهذا الشعر على خلاف ذلك فكان يقول:

إذا صد عنه ذو المودة يحرب

ويحرب يغتاظ.

ومن كلام عليٍ كرم الله وجهه:

أنا الذي سمتن أمي حيذره

فهو كالشعر. وقال بشامة بن حزن:

ولقد غضبت لخندف ولقيسها لما ونى عن نصرها خذالها
دافعت عن أعراضها فمنعتها ولدي في أمثالها أمثالها
إني امرؤ اسم القصائد للعدا إن القصائد شرها أغفالها
قومي بنو الحرب العوان بجمعهم والمشرفية والقنا أشعالها
مازال معروفًا لمرة في الوغى عل القنا وعليهم أنهالها
من عهد عاد كان معروفًا لنا أسر الملوك وقتلها وقتالها

في القاموس ولد الياس بن مضر عمرا وهو مدركة وعامرا وهو طابخة وعميرا وهو قمعة وأمهم خندف كزيرج وهي ليلى بنت حلوان بن عمران، وكان إلياس خرج في نجعة فنفرت إبله من أرنب فخرج إليها عمرو فأدركها وخرج عامر فتصيدها وطبخها وانقمع عمير في الخباء وخرجت أمهم تسرع فقال لها إلياس: أين تخندفين؟ فقالت: مازلت أخندف في أثركم فلقبوا مدركة وطابخة وقمعة وخندف فسميت القبيلة باسم أمها. وقوله: اسم القصائد وسم القصيدة عبارة عن ذكر من قبلت برسمه من ممدوح أو مهجو وقال العباس بن مرداس وهي من المنصفات إذ لم يكتم حال أعدائه:

ولم أر مثل الحي حيًا مصبحًا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمي للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعسا
إذا الخيل جالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا

ذكاء الخيل تمامها وخروجها من سن الفتاء. وقال عبد الشارق بن عبد العزي الجهني من المنصفات أيضًا:

ألا حييت عنا يا ردينا ... نحييها وإن كرمت علينا

ردينة لو رأيت غداة جئنا ... على أضماتنا وقد احتوينا

فأرسلنا أبا عمرو ربيئًا ... فقال ألا انعموا بالقوم عينا

ودسوا فارسًا منهم عشاء ... فلم نغدر بفارسهم لدينا

فجاءوا عارضًا بردًا وجئنا ... كمثل السيل نركب وازعينا

تنادوا يال بهنة اذرأونا ... فقلنا أحسني ملأ جهينا

سمعنا دعوة عن ظهر غيب ... فجلنا جولة ثم ارعوينا

قلما أن تواقفنا قليلًا ... انخنا للكلا كل فارتمينا

فلما لم ندع قوسًا وسهمًا ... مشينا نحوهم ومشوا إلينا

تلألأ مزنة برقت لأخرى ... إذا حجلوا بأسياف ردينا

شدد ناشدة فقتلت منهم ... ثلاثة فتية وقتلت قينا

وشدوا شدة أخرى فجروا ... بأرجل مثلهم ورموا جوينا

وكان أخي جوين ذا حفاظ ... وكان القتل للفتيان زينا

فآبوا بالرماح مكسرات ... وأبنا بالسيوف قد انحنينا

فباتوا بالصعيد لهم أحاح ... ولو خفت لنا الكلمى سرينا

قوله: نحييها وإن كرمت علينا تحقق المنافرة بأن يراد بتحيتها تحية الوداع أو تحية الغائب أداء لواجب المحبة على لسان رسول مراغمة للغيرة، أو يراد بكرمها عليه تعذرها وامتناعها. وقوله: على أضماتنا وقد اختوينا أي على أشد أحقادنا وقد أخلينا أجوافنا وكانت تلك لهم عادة إذا

أرادوا الحرب. وقوله: نركب وازعينا أي لا يطيع أحد الجيشين وازعه ورئيسه إذا أراد أن يكفه عن الأقدام والملأ في قوله: أحسني ملأ معناه الخلق وبهثة ولد الزنا وهو اسم للقبيلة هنا، وقال المساور بن هند بن زهير:

أودى الشباب فماله متقفر ... وفقدت أترابي فأين المغبر

وأرى الغواني بعدما أوجهنني ... أعرض ثمت فلن شيخ أعور

ورأين رأسي صار وجهًا كله ... إلا قفاي ولحية ما تضفر

ورأين شيخًا قد تحنى ظهره ... يمشي فيقعس أو يكب فيعثر

لما رأيت الناس هروا فتنة ... عمياء توقد نارها وتسعر

وتشعبوا شعبًا فكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولتعلمن ذبيان أن هي أعرضت ... أنا لنا الشيخ الأعز الأكبر

ولنا قناة من ردينة صدقة ... زوراء حاملها كذلك أزور

اقتفر الشيء تتبعه وقوله: ولحية لا تضفر تأسف على فقد الذوائب التي من شأنها الضفر وقوله: يقعس أي يكون كالأقعس وهو مقابل الأحدب، وفي قوله: يكب فيعثر قلب لأمن اللبس. وقال عروة بن الورد العبسي:

قلت لقوم في الكنيف تروحوا ... عشية بتنا عند ماوان رزح

تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم ... إلى مستراح من حمام مبرح

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترًا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرًا أو يصيب رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

كان عروة غائبًا فلما حضر وجد قومه قد نهكهم الجدب وهم رزح قاعدون في ملتف من الشجر وهو الكنيف ينتظرون الهلاك فقال لهم: تروحوا يحرضهم على النهوض في طلب المعيشة فترتيب البيت الأول قلت لقوم رزح في الكنيف عشية بتنا عند ماؤان تروحوا تنالوا الغنى أو تقتلوا فتريحوا أنفسكم من حالة تشبه الحمم لكنه حمام مبرح، وقال ربيعة بن مقروم:

أخوك أخوك من يدون وترجو ... مودته وإن دعى استجابا

إذا حاربت حارب من تعادى ... وزاد سلاحه منك اقترابا

وكنت إذا قربني جاذبته ... حبالى مات أو تبع الجذابا

فإن أهلك فذي حنق لظاه ... علي تكاد تلتهب التهابا

مخضت بدلوه حتى تحسى ... ذنوب الشر ملأى أو قرابا

بمثلي فأشهد النجوى وعالن ... بي الأعداء والقوم الغضابا

فإن الموعدي يرون دوني ... أسود خفية الغلب الرقابا

كان على سواعدهن ورسا ... علا لون الأشاجع أو خضابا

قوله: فذي حنق أي فرب حذفها بعد الفاء وهو أحد مواضع حذفها وقوله: الغلب الرقابا نصب معمول الصفة على التشبيه بالمفعول به. وقال سنان بن الفحل أخو بني أم الكهف من طيء:

وقالوا قد جننت فقلت كلا ... وربي ما جننت وما انتشيت

ولكني ظلمت فكدت أبكي ... من الظلم المبين أو بكيت

فإن الماء ماء أبي وجدي ... وبئري ذو حفرت وذو طويت

وقبلك رب خصم قد تمالوا ... علي فما هلعت ولا دعوت

ولكني نصبت لهم جبيني ... وآلة فارس حتى قريت

تمالوا أصله تمالؤوا بالهمز فخفف وصار معتلًّا وفي الأبيات ذو الطائية وهي بمعنى التي والشاعر من أهل أشهر لغات طيء في استعمال كلمة ذو الذين ينطقون بها على صورة واحدة دائمًا. وقال إياس بن مالك الطائي:

سمونا إلى جيش الحروري بعدما ... تناذره إعرابهم والمهاجر
بجمع تظل الأكم ساجدة له ... وإعلام سلمى والهضاب النوادر
فلما ادركناهم وقد قلصت بهم ... إلى الحي خوص كالحنى ضوامر
أنخنا إليهم مثلهن وزادنا ... جياد السيوف والرماح الخواطر
كلا ثقلينا طامع بغنيمة ... وقد قدر الرحمن ما هو قادر
فلم أر يومًا كان أكثر سالبًا ... ومستلبًا سرباله لا يناكر
وأكثر منا يافعًا يبتغي العلى ... يضارب قرنا دارعًا وهو حاسر
فما كلت الأيدي ولا أنأطر القنا ... ولا عثرت منا الجدود العوائر

حروري بفتح الراء الأولى بلد ينسب لها بعض الخوارج، والخوارج أهل مذهب في الإسلام أولهم جماعة خرجوا على علي ومعاوية ومن كان معهم من المسلمين بعدما كان من حرب صفين وجرى من أمر تحكيم الحكمين فقالوا بكفر من حكم الحكمين وكانوا يتشددون في أحكامهم وعظم أمرهم وشغلوا ملوك الإسلام بالحرب مدة من الزمان، واشتهر فيهم كثير بالشجاعة والإقدام وكانوا يرون أنهم هم أمة الإسلام وأمير المؤمنين منهم والمذكور في الشعر جيش من جيوشهم وصفة الشاعر بالقوة والشدة وأنه عمت مخافته الناس فكان يتناذره أهل البادية وهم الأعراب والفريق المهاجر وهم من ترك البادية وسكن الأمصار. وقوله: بجمع تظل إلا كم أي جمع كثيف ذو خيل وإبل كثيرة بحيث إنه

يثقل وطأته يسوى مرتفعات الأرض فمعنى سجود الأكم هبوطها وزوال ارتفاعها وقوله: كان أكثر سالبًا أي من ذلك اليوم ومستلبًا سريانه بنصب سريال مفعول ثان تقول: استلبته كذا، وقال سعيد بن ناشب:

تفنـدني فيمـا تـرى مـن شراسـتي — وشـدة نفسـي أم سـعد ومـا تـدري
فقلـت لهـا إن الكـريم وإن حـلا — ليلفـى علـى حـال أمـر مـن الـصبر
وفـي اللـين ضـعف والـشراسة هيبـة — ومـن لـم يهـب يحمـل علـى مركـب
وما بي علـى من لان لـي من فظاظة — ولكننـي فـظ أبـى علـى القمـر
أقـيم صـغًا ذي الميـل حتـى أرده — وأخطمـه حتـى يعـود إلـى القـدر
فـإن تعـذليني تعـذلي بـي مـرزأ — كـريم نثـا الأعـسار مـشترك اليـسر
إذا هـم ألقـى بـين عينيـه عزمـه — وصـمم تـصميم الـسريجي ذي الأثـر

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب:

سـائل بنـا فـي قومنـا — وليكـف مـن شـر سـماعه
قيـسا ومـا جمعـوا لنـا — فـي مجمـع بـاق شـناعه
فيـه الـسنور والقنـا — والكـبش ملتمـع قناعـه
بعكـاظ يعـشى النـاظرين — إذا هـم لمحـوا شـعاعه
فيـه قتلنـا مالكًـا — قـسروا أسـلمه رعاعـه
ومجـدلا غادرنـه — بالقـاع تنهـسه ضـباعه

السنور يراد به الدروع ويراد به السلاح كله. وقال أمية بن أبي الصلت يشتكي من ولده:

غـذوتك مولـودًا وعلتـك يافعًـا — تعـل بمـا أدنـى إليـك وتنهـل
إذا ليلـة نابتـك بالـشكو لـم أبـت — لـشكواك إلا سـاهر أتملمـل

كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني وعيني تهمل
فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي منك جبهًا وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتني باسم المفند رأيه وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل
تراه معدًّا للخلاف كأنه يرد على أهل الصواب موكل

وقالت امرأة في مثل هذا المعنى:

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه أم الطعام ترى في جلده مزغبا
حتى إذا آض كالفحال شذبه إباره ونفى عن متنه الكربا
أنشى يمزق أثوابي يؤدبني أبعد شيبي عندي يبتغي الأدبا
إني لأبصر في ترجيل لمته وخط لحيته في خده عجبا
قالت له عرسه يومًا لتسمعني مهلًا فإن لنا في أمنا إربا
ولو رأتني في نار مسعرة ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا

أعظمه أم الطعام أي أكثره حوصلته وأم الطعام من الآدمي المعدة وأبر النخل تلقيح إناثها من ذكورها والإبار فاعل ذلك فإضافته إلى الفحال وهو ذكر النخل لأدنى ملابسة كالإضافة في قوله تعالى: {فإن أجل الله لآت} والكرب أصول السعف.

انتهى ما أردت إيراده من باب الحماسة، وهذه جملة من باب الرثاء وهو ذكر محاسن الميت والبكاء عليه والتحسر على فقده يقال: رثيته ورثوته والمرثية الكلام الذي يكون به الرثاء. قال أبو خراش الهذلي وقد

سافر أخوه وابنه فأسرا وقتل أخوه وألقى رجل رداء على ابنه واجتهد في إطلاقه وتخليصه ممن أرادوا قتله:

حمدت إلهي بعد عروة إذ نجا خراش وبعض الشر أهون من بعض

فوالله ما أنسى قتيلًا رزئته بجانب قوسي ما مشيت على

على أنها تعفوا الكلام وإنما نوكل بالأدنى وإن جل ما يمضي

ولم أدر من ألقى عليه رداءه على أنه قد سل عن ماجد محض

ولم يك مثلوج الفؤاد مهبجا أضاع الشباب في الربيلة والخفض

ولكنه قد لوحته مخامص على أنه ذو مرة صادق النهض

وقد قيل: إن الذي ألقى عليه الرداء هو عروة وقد وجده ملقيه مكشوف العورة، وهذا القول أوفق لسياق الكلام والربيلة تطلق على السمن والنعمة فإذا أريد السمن فهو على حذف مضاف؛ أي في تحصي الربيلة، وكانوا يتمدحون بقلة الطعام والشراب إما لكثرة الاشتغال بالمهمات وإما لإيثار الغير، وقال عبدة بن الطبيب:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

تحية من غادرته غرض الردى إذ زاد عن شحط بلادك سلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وقال هشام بن عقبة العدوي أخو ذى الرمة يرثي أوفى بن دلهم:

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده عزاء وجفن العين ملآن مترع

نعى الركب أوي حين آبت ركابهم لعمري لقد جاءوا بشر فأوجعوا

نعوا باسق الأفعال لا يخلفونه تكاد الجبال الصم منه تصدع

خوى المسجد المعمور بعد ابن وأمسى بأوفى قومه قد تضعضوا

فلم تنسى أوفى المصيبات بعده ... ولكن نكء القرح بالقرح أوجع

وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكًا وكانا أسلما وهاجر متمم إلى المدينة وبقى مالك في البادية وكان عريف قوم أي نقيبهم والمتكلم عنهم، فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم ارتد كثير من العرب ومنهم مالك هذا وكانت إبل الصدقة مجموعة في موضع يقال له رحرحان لم تصل بعد إلى المدينة، فأغار عليها مالك ونهب منها ثلاثمائة فلامه على ذلك الأقرع بن حابس وضرار بن القعقع ومشيا به في بني تميم يحرضانهم عليه ليردوه عن منكر فعله فقال في ذلك:

أراني الله بالنعم المندى ... ببرقة رحرحان وقد أراني

أإن قرت عيون واستغيثت ... غنائم قد تجود بها بناني

حويت جميعها والسيف صلت ... ولم ترعد يداي ولا جناني

تمشي يا ابن عوذة في تميم ... وصاحبك الأقيرع تلحياني

ألم أك نار رابية تلظى ... فتتقيا أذاي وترهباني

فقل لابن المذب يغض طرفًا ... على قطع المذلة والهوان

النعم المندى هي الإبل تسقى قليلًا، ثم تراح ناحية ثم تورد الماء لتحصيل تمام الري يظهر غيظه وشماتته باجتماع إبل الصدق، وكانوا يرون ذلك نهبًا لأموالهم. وقوله: تمشى أي تفشي وهو معلول قوله: إن قرت عيون وقوله: يا ابن عوذة ناداه باسم أمه تحقيرًا وعوذة أم ضرار ومذبة أم الأقرع، فلما قام أبو بكر بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشًا رئيسه خالد بن الوليد لقتال أهل الردة وأوصاه بقتل مالك هذا، فلما قتل أكثر من رثائه والبكاء عليه أخوه متمم يروي أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال لمتمم يومًا: لو رثي أخي زيد بمثل ما

رثيت به أخاك فقال متمم له: لو علمت أن أخي صار لما صار إليه أخوك ما رثيته يعني لو علم موته على الإسلام فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل ما عزاني به متمم، والأبيات المراد إثباتها من رثاء متمم قوله:

لقد لامني عند القبور على البكى رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالك

ولابن نباتة المصري قصيدة يرثي فيها ملكًا ويهنئ ابنه بالجلوس مكانه مطلعها:

هناء محاذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

ثغور ابتسام في ثغور مدامع شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

يقول فيها تلميحًا بمالك ومتمم ابني نويرة:

فقدنا لأعناق البرية مالكًا وشمنا لأفعال الجميل متمما

وسنوردها بعد إن شاء الله تعالى. وقال رجل من خثعم:

نهل الزمان وعل غير مصرد من آل عتاب وآل الأسود

من كل فياض اليدين إذا غدت نكباء تلوى بالكنيف المؤصد

فاليوم أصحوا للمنون وسيقة من رائح عجل وآخر مغتد

خلت الديار فسدت غير مود وم الشاقىء تفردي بالسودد

النكباء واحدة النكب وهي الرياح الخارجة بين المهاب الأصلية وهي مهب الصبا للشرق ومهب الشمال ومهب الجنوب ومهب الدبور، وإذا توالت النكب كان الجدب والكنيف المؤصد الحظيرة من الشجر التي

جعل لها إصاد أي باب وعتبة اعتناء بها ومحافظة عليها وألوت بها أفسدتها وجود الجواد أظهر ما يكون في الجدب. وقال محمد بن بشير الخارجي نسبة إلى خارجة:

نعم الفتى فجعلت به إخوانه ... يوم البقيع حوادث الأيام
سهل الفناء إذا حللت ببابه ... طلق اليدين مؤدب الخدام
وإذا رأيت صديقه وشقيقه ... لم تدر أيهما ذوو الأرحام

أراد بالصديق والشقيق الجنس أي أصدقاءه وأشقاءه ولذلك قال: أيهما ذووا الأرحام. وقال دريد بن الصمة يرثى أخاه -ودريد هذا من فرسان العرب المعدودين وقتل في غزوة حنين مع المشركين وكانوا أخرجوه معهم شيخًا فانيًا ليستضيئوا برأيه-:

نصحت لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بني السوداء والقوم شهدي
فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسي المسرد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم وأنني غير مهتدي
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد
تنادوا فقالوا أردت الخيل فارسًا ... فقلت أبعد الله ذلكم الردى
فجئت إليه والرماح تنوشه ... كوقع الصياصي في النسيج الممدد
وكنت كذات البو ريعت فأقبلت ... إلى جلد من مسك سقب مقدد
فطاعنت عنه الخيل حتى تنفست ... وحتى علاني حالك اللون أسودي
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه ... ويعلم أن المرء غير مخلد
فإن يك عبد الله خلى مكانه ... فما كان وقافًا ولا طائش اليد

كميش الإزار خارج نصف ساقه ... بعيد من الآفات طلاع أنجد
قليل التشكي للمصيبات حافظ ... من اليوم أعقاب الأحاديث في غد
تراه خميص البطن والزاد حاضر ... عتيد ويعدو في القميص المقدد
وإن مسه الإقواء والجهد زاده ... سماحًا وإتلافًا لما كان في اليد
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ... فلما علاه قال للباطل أبعد
وطيب نفسي أنني لم أقل له ... كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

قوله: مدجج على صيغة اسم الفاعل أو اسم المفعول تام السلاح وذات البو هي الناقة يموت ولدها فيحشى جلده على صورة ولدها لتر أمه؛ أي تشمه وتعطف عليه تخيلًا أنه ابنها فتدر لتحلب، ومسك الحيوان جلده بفتح فسكون والسقب ولد الناقة الصغير والصياصي جمع صيصاة بكسر فسكون شوكة للحائك يسوى به اللحمة والسدى من منسوجه. وقال تأبط شرًا كما روى أبو تمام ولكن قيل: إن الشعر لخلف الأحمر واستدلوا على ذلك بأنه قد ذكر فيه سلع وهو بالمدينة وتأبط شرًا كان في بلاد بعيدة عنها وبها انتهت حياته، وكيفما كان فالشعر جيد:

إن بالشعب الذي دون سلع ... لقتيلًا دمه ما يطل
خلف العبء علي وولى ... أنا بالعبء له مستقل
ووراء النار مني ابن أخت ... مصع عقدته ما تحل
مطرق يرشح سما كما أطرق ... أفعى ينفث السم صل
خبر ما نابنا مصمئل ... جل حتى دق فيه الأجل
بزني الدهر وكان غشومًا ... بأبي جاره ما يذل
شامس في القر حتي إذا ما ... ذكت الشعرى فبرد وظل

يـابس الجنبين من غير بؤس	ونـدى الكفين شهم مدل
ظاعن بالحزم حتى إذا ما	حل حل الحزم حيث يحل
غيث مزن غامر حيث يجدى	وإذا يسطو فليث أبل
مسبل في الحي أحوى رفل	وإذا يغزو فسمع أزل
وله طعمان أرى وشرى	وكلا الطعمين قد ذاق كل
يركب الهول وحيدًا ولا يصحبه	إلا اليمانى الأفل
وفتو هجروا ثم أسروا	ليلهم حتى إذا انجاب حلوا
كل ماض قد تردى بماض	كسنا البرق إذا ما يسل
فادركنا الثأر منهم ولما	ينج مل حيين إلا الأقل
فاحتسوا أنفاس نوم فلما	هوموا رعتهم فأشمعوا
فلئن فلت هذيل شباه	لبما كان هذيل يفل
وبما أبركها في مناخ	جعجع ينقب فيه الأظل
وبما صبحها في ذراها	منه بعد القتل نهب وشل
صليت مني هذيل بخرق	لا يمل الشر حتى يملوا
ينهل الصعدة حتى إذا ما	نهلت كان لها منه عل
حلت الخمر وكانت حرامًا	وبلأى ما ألمت تحل
فأسقنيها بأسواد بن عمرو	إن جسمي بعد خالي لخل
تضحك الضبع لقتلي هذيل	وترى الذئب لها يستهل
وعتاق الطير تغدو بطانًا	تتخطاهم فما تستقل

طل دم القتيل أهدر ولم يؤخذ بثأره والمصع الشديد القتال والمصمئل الشديد وقوله: بزني الدهر بأبي بز معناه سلب بتعدي بنفسه يقال: بزني

كذا ولكن في بز هنا معنى فجع، فالباء لأجله وهو التضمين وليث أبل أي ماض على وجهه لا يبالي ما لقي ورفل بكسر ففتح أي طويل الشعر أو الذنب الأرى والشرى العسل وشجر مر مناخ جعجع أي غليظ وعر، والأظل باطن الخف وينقب يصيبه أي يتخدش، وقال الحارث بن زيد الخيل:

ألا بكر الناعي بأوس بن خالد أخي الشتوة الغبراء والزمن المحل
فإن يقتلوا بالغدر أوسًا فإنني تركت أبا سفيان ملتزم الرحل
فلا تجزعي يا أم أوس فإنه تصيب المنايا كل حاف وذي نعل
قتلنا بقتلانا من القوم عصبة كرامًا ولم نأكل بهم حشف النخل
ولولا الأسى ما عشت في الناس ولكن إذا ما شئت جاوبني مثلي

قال أبو رياش: كان سبب هذه الأبيت أن عمر بن الخطاب بعث رجلًا يكنى أبا سفيان ليس بالهاشمي ولا 'الأموي إلى البادية يستقرئهم، فمن لم يقرأ شيئًا فضربه فمات من ضربه فقامت أم أوس تندبه، فأقبل حريث بن زيد الخيل حتى دخل على أبي سفيان فقتله وأصحابه وقال هذه الأبيات وقالت قتيلة سميت بمصغر قتنة بنت النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن هاشم بن عبد مناف، وكان النضر من أشد أهل مكة على النبي صلى الله عليه وسلم فكان يشتري كتب القصص بين فارس والروم ويقول: إن كان محمد يقص على الناس أخبار عاد وثمود فأنا أقص عليكم أخبار فارس والروم يريد بهذا معارضة القرآن وإبطال الرسالة، وفيه نزل قوله تعالى: {ومن الناس من يشتري لهو الحديث...} الآية، فلما أسر ببدر أمر صلى الله عليه وسلم بقتله صبرًا؛ والقتل صبرًا أن يحبس مكتوفًا ويرمى حتى يموت ولما أنشدت قتيلة الأبيات وبلغت النبي

صلى الله عليه وسلم رق لها وقال: لو بلغتني قبل قتله لعفوت عنه وقال: لا تقتل قريش صبرًا بعد هذا اليوم:

يا راكبًا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق

بلغ به ميتًا فإن تحية ... ما أن تزال بها الركائب تخفق

مني إليه وعبرة مسفوحة ... جادت لمائحها وأخرى تخنق

فليسمعن النضر أن ناديته ... إن كان يسمع ميت أو ينطق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

أمحمد ولأنت ضنء نجيبة ... من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من أصبت وسيلة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

الضنء بفتح أوله الفرع وبكسره الأصل وقولها وأحقهم إن كان عتق يعتق أي بأن يعتق حذف الخافض وإن فارتفع الفعل وكان تامة وقال ابن عنمة الضبي في مقتل بسطام بن قيس قتله عاصم بن خليفة، وكان ابن عنمة مجاورًا في بني شيبان فخاف على نفسه لما قتل بسطام فرثاه يستميل بذلك بني شيبان، وهو من بني السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة:

لام الأرض ويل ما أجنت ... بحيث أضر بالحسن السبيل

نقسم ماله فينا وندعو ... أبا الصهباء إذ جنح الأصيل

أجدك لا تراه ولن تراه ... تخب به عذافرة ذمول

حقيبة رحلها بدن وسرج ... تعارضها مربية دؤول

إلى ميعاد أرعن مكفهر ... تضمر في جوانبه الخيول

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول

أفاتته بنو زيد بن عمرو ... ولا يوفى ببسطام قتيل

وخر على الألاءة لم يوسد ... كأن جبينه سيف صقيل

الحسن في الأبيات اسم جبل وأمامه هضبة يقال لها حسين ويقولون: الحسنان في التثنية وحقيبة الرحل وعاء خلف الراكب كالخرج والبدن الدرع القصيرة والمربية الدؤول أي المتقاربة العدو عبارة عن الفرس فإنهم كانوا يركبون الإبل في سفرهم للغزو ويجنبون الخيل ليركبوها في الحرب والمرباع الربع كالمعشار العشر، ولا يستعمل غيرهما كان رئيس الجيش يأخذ ربع الغنيمة ثم يقسم والصفايا جمع صفية كان للرئيس أن يصطفي ما شاء كسيف أو فرس وكان من عادتهم عند افتتاح الحرب أن يبادر فارس فارسًا فإذا قتله فالحكم في سلبه للرئيس إما أن ينفله القاتل وإما أن يرده للمغنم والنشيطة ما يصيبونه قبل الوصول إلى المقصد وهي للرئيس والفضول أشياء كانت تبقى بعد القسمة فيأخذها وكان لهم النقيعة وهي جمل يذبحه الرئيس قبل القسمة يطعمه الناس بقى من ذلك في الإسلام الصفايا فقد استصفى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ذا الفقار سيف منه بن الحجاج وجويرية بنت الحارث في المصطلق وجعل صداقها عتقها وصفية بنت حي من خيبر كذلك، وأبدل الربع بالخمس للمذكورين في قوله تعالى: {واعلموا أن ما غنتم...} الآية وبطل الباقي، وقال الغطمش:

ألا رب من يغتابني ودَّ أنني ... أبوه الذي يدعى إليه وينسب

على رشدة من أمه أو لغية ... فيغلبها فحل على النسل منجب

فبالخير لا بالشر فارج مودتي ... وأي امرئ يقتال منه الترهب

أقول وقد فاضت لعيني عبرة ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

أخـلاى لـو غيـر الحمـام أصـابكم عتبت ولكـن مـا على الـدهر معتب

قولـه: أي امرئ يقتـال هـو افتعـال مـن القـول أي وأي امـرئ يظهـر منه الترهـب القـول بـالمودة ذلـك الـضعيف المقهـور دون القـوي، فإنه لا يظهـر المودة إلا وهي حق فـلا يتملـق فالاستفهام إنكاري أي لا أحد يقتـال منه الترهـب جعـل مـن يقتـال منـه لا شـيء، وقالـت زينـب بنـت الطثريـة ترثـي أخاها يزيد وهو شاعر، ومن كلامه في الغزل:

بنفـسي مـن لـو مـر بـرد بنانـه علـى كبـدي كانـت شـفاء أناملـه
ومـن هـابني فـي كـل شـيء وهبتـه فـلا هـو يعطينـي ولا أنـا سـائله
أرى الأثل من بطن العقيق مجاوري مقيمًـا وقـد غالـت يزيـد غوائلـه
فتـى قدقـد الـسيف لا متـضائل ولا رهـــل لباتـــه وبآدلـــه
إذا نـزل الأضـياف كـان عـذورًا علـى الحـي حتـى تـستقل مراجلـه
مـضى وورثنـاه دريـس مفاضـة وأبـيض هنـديًا طـويلًا حمائلـه
وقـد كـان يـروي المـشرفي بكفـه ويبلـغ أقـصى حجـرة الحـي نائلـه
كـريم إذا لاقيتـه متبـسمًا وأمـا تـولي أشـعث الـرأس جافلـه
إذا القـوم أمـوا بيتـه فهـو عامـد لأحـسن مـا ظنـوا بـه فهـو فاعلـه
تـرى جازريـه يرعـدان ونـاره بـصيرًا بهـا لـم تعـد عنهـا مـشاغله

البآدل جمع بأدلة بتثليث أوله وهو اللحم حوال الثدي وقولها: وأما تـولي أي أعـرض غـضبًا فـي مقابلـة حـال الرضـا المـدلول عليهـا بالتبسم وأشـعث الـرأس جافلـه صـفة الغـضبان المتهيـئ للحـرب وجافلـه تأكيـد لأشعث، والعذور السيئ الخلق وأرادت أنه سريع في تهيئة القرى وارتعاد الجازرين؛ إما من خوفه أو من البرد في وقت الشدة والاحتياج والعداميل

جمع عدمول القديم والصامل اليابس أي هو معد دائمًا النار القرى، وقولها: خيرها عظم جاره أرادت أن خير ما فيها هو العظم بلحمه والذي يهدى للجار كالذراع مثلًا وقولها: بصيرًا أي يذبحها عامدًا لا غلطًا فهو يتخير للقرى. انتهى المنقول من باب الرثاء، وهذه جملة من باب الأدب وهي أشعار تنبه على الفضائل الإنسانية مثل كتمان السر والمحافظة على حقوق الصداقة، قال مسكين الدارمي:

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم ... على سر بعض غير أني جماعها

لكل امرئ شعب من القلب فارغ ... وموضع نجوى لا يرام اطلاعها

يظلون شتى في البلاد وسرهم ... إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

وقال المرار بن سعيد:

إذا شئت يومًا أن تسود عشيرة ... فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

وللحلم خير فاعلمن مغبة ... من الجهل إلا أن تشمس من ظلم

وقال شبيب بن البرصاء المري: يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم خطب البرصاء هذه من أبيها فقال: لا أرضاها لك يا رسول الله، فإن بها برصًا، وليس بها برص فعاد فوجدها قد برصت:

وإني لتراك الضغينة قد بدا ... ثراها من المولى فلا أستثيرها

مخافة أن تجني عليَّ وإنما ... يهيج كبيرات الأمور صغيرها

لعمري لقد أشرفت يوم عنيزة ... على رغبة لو شد نفسي مريرها

تبين أعقاب الأمور إذا مضت ... وتقبل أشباها عليك صدورها

إذا افتخرت سعد بن ذبيان لم تجد ... سوى ما ابتنينا ما يعد فخورها

ألم تر أنا نور قوم وإنما ... يبين في الظلماء للناس نورها

من الأدب الحزم، ومن الحزم الإغضاء عن الصغير إذا كان يهيج كبيرًا وقال معن بن أوس:

لعمـرك مـا أدري وإنـي لأوجـل ... علـى أينـا تعـدو المنيـة أول

وإني أخوك الدائم العهد لم أخن ... إن أبـزاك خـصم أو نبـا بـك منـزل

أحارب من حاربت من ذي عداوة ... وأحـبس مـالي إن عزمـت فاعقـل

وإن سؤتني يومًا صفحت إلى غد ... ليعقـب يومًـا منـك آخـر مقبـل

كأنـك تـشفى منـك داء مـساءتي ... وسـخطي وما في ريبتي ما تعجل

وإنـي علـى أشـياء منـك تريبنـي ... قـديمًا لـذو صفح على ذاك مجمل

ستقطع فـي الـدنيا إذا مـا قطعتنـي ... يمينـك فـانظر أي كـف تبـدل

وفي الناس إن رثت حبالك واصل ... وفي الأرض عن دار القلى متحول

إذا أنت لـم تنـصف أخـاك وجدتـه ... على طرف الهجران إن كـان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

وكنـت إذا مـا صـاحب رام ظنتـي ... وبـدل سـوءا بالـذي كنـت أفعـل

قلبـت لـه ظهـر المجـن فلـم أرم ... علـى ذاك إلا ريثمـا أتحـول

إذا انـصرفت نفـسي عـن الشيء لم ... إليـه بوجـه آخـر الـدهر تقبـل

قوله: إن أبزاك أي قهرك ألقيت حركة الهمزة على النون، ومزحل من زحل بمعنى تأخر وبعد وقوله: وما في ريبتي ما تعجل أي ليس في إساءتي شفاء دائك الذي تتعجل أخرجه بعد التظنن إلى التحقيق وقال عمرو بن قميئة:

يا لهف نفسي على الشباب ولم ... أفقـد بـه إذا فقدتـه أممـا

إذ أسـحب الـريط والمـروط إلـى ... أدنـى تجـاري وانفـض اللممـا

لا تغبط المرء أن يقال له ... أمسى فلان لسنه حكما
إن سره طول عمره فلقد ... أضحى على الوجه طول ما سلما

المراد بالتجاز باعة الخمر وقوله: لا تغبط المرء معناه لا تعد كون الإنسان يصير لكبره واستحكام رأيه رئيسًا يتحاكم إليه من جليل النعم بعد نعمة الشباب والأدب في هذه الأبيات أنه أشار إلى أنه ينبغي أن يكون الشباب وأن لها فيه الإنسان ما لها بالتعقل وضبط ما يمر من الأحوال ذريعة لأن يعتاض الإنسان من لذاته شرف الرياسة إذا فارقه كقول الآخر:

إن الشباب الذي مجد عواقبه ... فيه نلذ ولا لذات للشيب

كأنه لم يعتبر من فرط في شبابه حتى ساءت آخرته شيئًا مذكورًا، وقال إياس بن القائف:

تقيم الرجال الأغنياء بأرضهم ... وترمي النوى بالمقترين المراميا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معًا ... كفى بالممات فرقة وتنائيا
إذا زرت أرضًا بعد طول اجتنابها ... فقدت صديقي والبلاد كما هيا

وقال ربيعة بن مقروم الضبي:

وكلم من حامل لي ضب ... بعيد قلبه حلو اللسان
ولو أني أشاء نقمت منه ... بشغب أو لسان تيحان
ولكني وصلت الحبل منى ... مواصلةً بحبل أبي بيان
وضمرة إن ضمرة خير جار ... علقت له بأسباب متان
هجان الحي كالذهب ... صبيحة ديمة يجنيه جان

هجان الحي كريمه وخالصه والذهب المصفى أي بخلقته ويكون مستورًا بالأغبرة، فإذا دام المطر على معدنه أزال الأغبرة فانكشف فتجنيه جناته، وذكر أن أبا بيان وضمرة صديقاه خالصًا الصداقة والأدب في الشعر التنبيه على أنه ينبغي أن يعرف الإنسان عدوه من صديقه، ثم يعرف للصديق حقه ويداري العدو على احتراسه منه، ومن كلام الناس اللبيب من دار ويروى أن عيينة بن حصن الفزاري دخل على النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤمر بحجاب النساء فلمح عائشة فسأله عنها فقال: «هي بنت أبي بكر». فقال عيينة أتنزل لي عنها وأنزل لك عن أجمل نساء العالم؟ فقال له النبي: «**ذلك لا يكون في الإسلام**». فلم يزل صلى الله عليه وسلم مكرمًا له، فلما خرج من عنده قال النبي: «**بئس الرجل وعشيرته**». فقالت عائشة: أليست هذه الغيبة؟ فقال: «**لا؛ إنه الأحمق المطاع في قومه، وأنا لنبش في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم**». فنبه النبي صلى الله عليه وسلم على استعمال المداراة فهي سنة فينبغي للإنسان أن لا يتخذ عدوًّا. وقوله في الشعر بشغب أو لسان يتحان الشغب المصاخبة في الجدال والتيحان الذي يعرض لما لا يعنيه. وقوله وصلت الحبل منه إلى آخره معناه قرنته على معرفة عداوته بالصديق الذي أنا متحقق من صداقته فهما في المعاملة سواء. وقال عبد الله بن همام السلولي وقد سعى به ساع عند زياد بن أبي سفيان فقال له: هجاك فقال: أجمع بينكما فقال: أفعل، فأحضر عبد الله وقال له: هجوتني فأنكر فقال: هذا أخبرني فسكت قليلًا ثم خاطب الرجل بقوله:

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا ... فخنت وإما قلت قولًا بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

رأيت لبعض الناس اعتراضًا على هذا التقسيم فقال: إن الخيانة إثم فلم تصح المقابلة، وليس كما رأى فإن الشاعر أراد إدارة الأمر بين صدق قبيح لما فيه من الخيانة، وبين كذب والكذب ولو على سبيل الاحتمال قبيح وعبر عن الكذب بالإثم فإنه لا شبهة في كونه إثمًا؛ بخلاف حالة الخيانة فإن فيها شبهة الصدق فهو كلام متين صادر عن تعقل صحيح، فقول المرء ما لم يعلم وإن وافق الواقع واتفق كونه صوابًا ذميم سيئ، وقال سالم بن وابصة الأسدي:

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطًا أذى ... ولا مانعًا خيرًا ولا قائلًا هجرا
إذا شئت أن تدعى كريمًا مكرمًا ... أديبًا ظريفًا عاقلًا ماجدًا حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالًا لزلته عذرا
غني النفس ما يكفيك من سدّ خلة ... فإن زاد شيئًا عاد ذاك الغنى فقرا

يشبه البيت الأخير قول المتنبي:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقر

والمعنى أن من اشتغل بتربية المال وتنمية لم يكن له وقت لاكتساب الفضائل واغتنام اللذاذات؛ فكان فقيرًا من ذلك، فالموفق يكون له من العيش ما لا يحتاج معه ثم يصرف الأوقات بعد في تتميم الإنسانية، وقال عقيل بن علفة المري:

وللدهر أثواب فكن في ثيابه ... كلبسته يومًا أجد وأخلقا
وكن أكيس الكيس إذا كنت فيهم ... وإن كنت في الحمقى فكن أنت

يروى عن الشافعي رضي الله عنه مثل هذا وهو قوله:

وأنزلني طول النوى دار غربة يصاحبني فيها الذي لا أشاكله
أحامقه حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وقال بعض الفزاريين:

أكنيه حين أناديه لا كرمه ولا ألقبه والسوأة اللقب
كذاك أدبت حتى صار من خلقي إني وجدت ملاك الشيمة الأدب

قوله: إني وجدت هو على أن المفعول الأول ضمير الشأن، والجملة هي المفعول الثاني أو هو على حذف لام الابتداء المعلقة للفعل عن العمل؛ لأنه متى تقدم الفعل لم يجز إلغاؤه، وقال رجل من بني قريع:

متى ما يرى الناس الغنيّ وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد
وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود
إذا المرء أعيته المروءة ناشئًا فمطلبها كهلًا عليه شديد
وكائن رأينا من غني مذمم وصعلوك قوم مات وهو حميد

وقال آخر:

أضحت أمور الناس يغشين عالمًا بما يتقي منها وما يتعمد
جدير بأن لا أستكين ولا أرى إذا الأمر ولى مدبرًا أتبلد

أراد بالعالم نفسه فهو على تقدير يغشين مني عالمًا، والتبلد مأخوذ من بلدة الصدر لنقرته وما حولها فإن المتحير ربما يضرب بلدة صدره، كما يقال: يقرع سنه ندما. وقال آخر:

وإنك لا تدري إذا جاء سائل أأنت بما تعطيه أم هو أسعد؟
عسى سائل ذو حاجة إن منعته من اليوم سؤلًا أن يكون له غد

وفي كثرة الأيدي لذي الجهل زاجر ... وللحلم أبقى للرجال وأعود

غد اسم يكون يعني عسى أن يكون السائل الذي عليه الأوقات الحاضرة تكون له الأوقات المستقبلة كقوله:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

وعنى بكثرة الأيدي كثرة الإخوان من قولهم المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ففي كثرة الإخوان العز وامتناع الجانب بحيث يكون ذلك زاجر للجاهل قاطعًا لطمعه في البطش بكثير الإخوان، قال آخر في هذا المعنى وهو أظهر:

عليك بإخوان الصفاء فإنهم ... عماد إذا استنجدتهم وظهور

وإن قليلًا ألف خل وصاحب ... وإن عدوًّا واحدًا لكثير

وقال آخر:

وإياك والأمر الذي إن توسعت ... موارده ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه ... وليس له من سائر الناس عاذر

وقال العباس بن مرداس:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد مزير

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

فما عظم الرجال لهم بفخر ... ولكن فخرهم كرم وخير

بغاث الطير أكثرها فراخًا ... وأم الصقر مقلات نزور

ضعاف الطير أطولها جسومًا ... ولم تطل البزاة ولا الصقور

لقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير

يصرفه الصبى بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير
فإن أك في شراركم قليلًا فإني في خياركم كثير

مزر من باب كرم مزارة فهو مزير أي ظريف أو شديد القلب نافذ وهو أنسب، ويروى مرير أي ممر اسم مفعول من أمر الشيء أي أحكمه فهو حكيم بمعنى محكم، وأصله من أمر الحبل أحكم فتله فهو ذو مرة بكسر أوله أي قوة، وقال منظور بن سحيم:

ولست بهاج في القرى أهل منزل على زادهم أبكي وأبكي البواكيا
فأما كرام موسرون أتيتهم فحسبي من ذو عندهم ما كفانيا
وأما كرام معسرون عذرتهم وأما لئام فادكرت حيائيا
وعرضي أبقى ما ادخرت ذخيرة وبطني أطويه كطي ردائيا

قوله: على زادهم أبكي هو استهزاء بمن يطعن على الناس ويصفهم بالبخل ويشتكي منهم الحرمان، فإن الناس بين كريم ولئيم فالكريم مشكور أو معذور واللئيم لا يقصد في حاجة ومن غلط فقصده أو تعمد قصده فعلى نفسه يلوم حيث لم يتأمل أو وضع حاجته في غير موضع فهو احتجاج قاطع لعذر الهاجي. وقال آخر:

وأعرض عن مطاعم قد أراها فأتركها وفي بطني انطواء
فلا وأبيك ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

قوله: وأعرض عن مطاعم هو كقول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أنشد قصيدة هذا البيت أظهر استحسانه وقال: «**ما وصف لي أعرابي فأحببت أن أراه إلا عنترة**». وقال مالك بن حريم الهمداني:

أنبئت والأيام ذات تجارب وتبدي لك الأيام ما لست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه ويثني عليه الحمد وهو مذمم
وإن قليل المال للمرء مفسد يحز كما حز القطيع المحرم
يرى درجات المجد لا يستطيعها ويقعد وسط القوم لا يتكلم

القطيع المحرم السوط الخشن الجافي يعني أن الفقر يؤثر في صاحبه تأثير هذا السوط فيمن يضرب به. وقوله: يثني عليه الحمد أي يعطفه، وقال محمد بن بشير:

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر طورًا وطورًا تركب اللججا
كم من فتى قصرت في الرّزق ألفيته بسهام الرّزق قد فلجا
إنَّ الأمور إذا انسدّت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصّبر أن يحظى ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقًا عن غرة زلجا
ولا يغرنك صفو أنت شاربه فربما كان بالتكدير ممتزجا

ليس قوله: ماذا يكلفك البيت تثبيطًا عن السعي وإدامة الحركة في الطلب وإنما هو نهى عن كثرة الإطراب بغير تأمل جادة الطريق التي يغلب على الظن إيصالها للمقصود كما هو مدلول جميع الشعر فحقيقة

معناه أنه ينبغي للإنسان أن يسعى سعيًا حسنًا مقرونًا بالتبصر والصبر في تحصيل المرغوب. وقال محمد الكندي الملقب بالمقنع:

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا
أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وفي جفنة ما يغلق الباب دونها مكللة لحما مدفقة ثردا
وفي فرس نهد عتيق جعلته حجابًا لبيتي ثم أخدمته عبدا
وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمه لمختلفٌ جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غَيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرًا بنجس تمر بي زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل
لهم جلُّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام نازلًا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

وقال رجل من الفزاريين يذهب حسرته على قصره فإنهم يتمدحون بتمام الأجسام كما قال الشاعر:

تبين لي أن القماءة ذلة وأن أعزاء الرجال طيالها

وقال الله تعالى: {زاده بسطة في العلم والجسم}.

إن لا يكن عظمي طويلًا فإنني له بالخصال الصالحات وصول
ولا خير في حسن الجسوم ونبلها إذا لم تزن حسن الجسوم عقول
إذا كنت في القوم الطوال علوتهم بعارفة حتى يقال طويل
وكم قد رأينا من فروع كثيرة تموت إذا لم تحيهن أصول

ولـم أر كـالمعروف أمـا مذاقـه فحلـو وأمـا وجهـه فجميـل

وقال مضرس بن ربعي:

إنـا لنصفح عـن مجاهـل قومنـا ونقـيم سـالفة العـدو الأصـيد
ومتـى نخـف يومًـا فساد عـشيرة نـصلح وإن نـر صـالحًا لا نفـسد
وإذا نمـوا صـعدًا فلـيس علـيهم منـا الخبـال ولا نفـوس الحـسد
ونعـين فاعلنـا علـى مـا نابـه حتـى نيـسره لفعـل الـسيد
ونجيـب داعيـة الـصباح بثائـب عجـل الركـوب لـدعوة المستنجد
فنقـل شـوكتها ونفثـأ حميهـا حتـى تبـوخ وحمينـا لـم يبـرد
وتحـل فـي دار الحفـاظ بيوتنـا رتـع الجمائـل فـي الـدرين الأسـود

وقال قيس بن الخطيم:

ومـا بعـض الإقامـة فـي ديـار يهـان بهـا الفتـى إلا بـلاء
وبعـض خلائـق الأقـوام داء كـداء الـبطن لـيس لـه دواء
يريـد المـرء أن يعطـى منـاه ويـأبى الله إلا مـا يـشاء
وكـل شـديدة نزلـت بقـوم سـيأتي بعـد شـدتها رخـاء
ولا يعطى الحـريص غنـى لحـرص وقـد ينمـي إلـى الجـود الثـراء
غنـى الـنفس مـا عمـرت غنـى وفقـر الـنفس مـا عمـرت شـقاء
ولـيس بنـافع ذا البخـل مـال ولا مـزر بـصاحبه الـسخاء
وبعـض الـداء ملـتمس شـفاه وداء النـوك لـيس لـه شـفاء

وقال يزيد بن الحكم الثقفي يعظ ابنه بدرًا:

يـا بـدر والأمثـال يـضر بهـا لـذي اللـب الحكـيم

دم للخليل بوده ... ما خير ود لا يدوم
واعرف لجارك حقه ... والحق يعرفه الكريم
واعلم بأن الضيف يو ... ما سوف يحمد أو يلوم
والناس مبتنيان محمـ ... ـود البناية أو ذميم
واعلم بني فإنه ... بالعلم ينتفع العليم
إن الأمور دقيقها ... مما يهيج له العظيم
والتبل مثل الدين تقضاه ... وقد يلوى الغريم
والبغي يصرع أهله ... والظلم مرتعه وخيم
ولقد يكون لك البعـ ... ـيد أخًا ويقطعك الحميم
والمرء يكرم للغنى ... ويهان للعدم العديم
قد يقتر الحول التقي ... ويكثر الحمق الأثيم
يملأ لذاك ويبتلى ... هذا فأيهما المضيم
والمرء يبخل في الحقو ... ق وللكلالة ما يسيم
ما بخل من هو للمنو ... ن وريبها غرض رجيم
ويرى القرون أمامه ... همدوا كما همد الهشيم
وتخرب الدنيا فلا ... بؤس يدوم ولا نعيم
كل امرئ ستئيم مـ ... ـنه العرس أو منها يئيم
ما علم ذي ولدًا يثـ ... ـكله أم الولد اليتيم
والحرب صاحبها الصلـ ... ـيب على تلاتلها العزوم
من لا يمل ضراسها ... ولدى الحقيقة لا يخيم
واعلم بأن الحرب لا ... يسطعها المرح السؤوم

والخيـــل أجودهـــا المنـــا هـــب عنـــد كبتهـــا الأزوم

وقال منقذ الهلالي:

أي عـيش عيـشي إذا كنـت منـه بـين حـل وبـين وشـك رحيـل
كـل فـج فـي الـبلاد كـأني طالـب بعـض أهلـه بـذحول
مـا أرى الفـضل والتكـرم إلا كفك النفس عن طلاب الفضول
وبـلاء حمـل الأيـادي وإن تـسـ ـمـع منـا تـؤتى بـه مـن منيـل

وقال محمد بن أبي شحاذ الضبي:

إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجد بفضل الغنى ألفيت مالك حامد
إذا أنت لم تعرك بجنبك بعض ما بريـب من الأدنى رماك الأباعد
إذا الحلم لم يغلب لك الجهل لم عليـك يـروق جمـة ورواعـد
إذا العزم لم يفرج لك الشك لم جنيبًا كما استتلى الجنيبة قائد
وقـل غنـاء عنـك مـال جمعتـه إذا كـان ميراثـا وواراك لأحـد
إذا أنـت لـم تتـرك طعامًـا تحبـه ولا مقعـدًا تـدعى إليـه الولائـد
تجللـت عـارًا لا يـزال يـشبه سـباب الرجـال نثـرهم والقـصائد

وقالت حرقة بنت النعمان:

بينـا نـسوس النـاس والأمـر أمرنـا إذا نحـن فـيهم سـوقة تتنـصف
فـأف لـدنيا لا يـدوم نعيمهـا تقلـب تـارات بنـا وتـصرف

وقال الصلتان العبدي:

أشـاب الـصغير وأفنـى الكبـ يـر كـر الغـداة ومـر العـشي
إذ الليلـة هرمـت يومهـا أتـى بعـد ذلـك يـوم فتـي

نـــــروح ونغــــــدو لحاجاتنـــــا وحاجــــة مـــن عــــاش لا تنقــضي
تمـــوت مـــع المـــرء حاجاتـــه وتبقــــى لـــــه حاجــــة مــــا بقــــى
إذا قلــت يومًــا لمــن قــد تــرى أرونــــي الـــسري أروك الغنـــى
ألــم تــر لقمــان أوصــى ابنــه وأوصــيت عمــرًا فــنعم الوصــي
بنــي بــدا خــب نجــوى الرجــال فكــن عنــد ســرك خــب النجــى
وســـرك مـــا كـــان عنـــد امـــرئ وســـر الثلاثـــة غيـــر الخفـــي

- انتهى المختار من باب الأدب، ويليه منتقي باب النسيب؛ النسيب ذكر محاسن النساء والأخبار عن تصرف هواهن به وكان يتغنى بما يقوله من ذلك ولأجل ذلك ترى صيغة المصدر الصوتي ويسمى النسيب غزلًا، والغزل في الأصل ظهور الإنسان في أحوال الغزال من الملاعبة وخفة الحركة. قال الصمة القشيري -وهو شاعر غزل هوى بنت عم له يقال لها ريا فخطبها إلى عمه فزوجه إياها على خمسين من الإبل، فجاء إلى أبيه فساله ذلك فساق عنه تسعًا وأربعين وقال: عمك لا يناظرنا بنقصان ناقة فساقها إلى عمه وذكر له ما قال أبوه، فأبى أن يقبلها إلا كملا فلج أبوه ولج عمه فقال: والله ما رأيت ألأم منكما جميعًا وإني لألأم إن أقمت معكما فرحل إلى الشام فتبعتها نفسه فقال ومثل هذا الشعر من بين النسيب يسمى بالغرامي:

حننــت إلــى ريــا ونفــسك باعــدت مــزارك مــن ريــا وشــعبا كمــا معــا
فمــا حــسن أن تــأتي الأمــر طائعًــا وتجــزع أن داعــي الــصبابة أســمعا
قفــا ودعــا نجــدا ومــن حــل بــالحمى وقــــل لنجـــد عنـــدنا أن يودعـــا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا ومــا أحــسن المــصطاف والمتربعــا
وليــست عــشيات الحمــى برواجــع عليــك ولكــن خــل عينيــك تــدمعا

ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنن نزعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

لقد كنت جلدًا قبل أن توقد النوى على كبدي جمرًا بطيئًا خمودها
وقد كنت أرجو أن تموت صبابتي إذا قدمت أيامها وعهودها
فقد جعلت في حبة القلب والحشا عهاد الهوى تولى بشوق يعيدها
بسود نواصيها وحمر أكفها وصفر تراقيها وبيض خدودها
مخصرة الأوساط زانت عقودها بأحسن مما زينتها عقودها
يمنيننا حتى ترف قلوبنا رفيف الخزامى بات طل يجودها

وقال أبو صخر الهذلي:

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وقال ابن أذينة:

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وقال آخر:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

أي: لا كله والنفس له طالبة ولا عن بعضه وهي به غير قانعة. وقال آخر:

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحي نجدًا وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا بإنصاف لهن ولا سرار

وقال عمر بن أبي ربيعة -وهو من فتيان قريش وكل شعره غزل واشتهر بذلك وله أخبار، ولد ليلة مات عمر بن الخطاب فقيل: أي حق رفع وأي باطل وضع، وكان ابن عباس يستريح لاستماع إنشاده شعره، فكان ربما يأتيه وهو في مجلس استفتاء الناس إياه فينصرف عنهم إليه، وكان مع غزله وشدة كلفه بمحادثة النساء عفيفًا-:

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما عرفنني وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا
وقربن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعًا كلما قسن أصبعا
وقلت لمطريهن ويحك إنما ضررت فهل تستطيع نفعا فتنفعا

يروى أن عائشة بنت طلحة وكانت من أجمل نساء وزمانها يقال: إن أبا هريرة رآها يومًا في المسجد وهي مارة إلى عائشة أم المؤمنين فقال: إنها من الحور العين كانت لا تستر وجهها، وكان زوجها مصعب بن الزبير يأمرها بستره فتقول: إن الله وسمني بميسم جمال فلا أحب أن أستر نعمة الله عليَّ. وقال عبد الله بن الدمينة الخثعمي:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد | لقد زادني مسراك وجدًا على وجد
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى | على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن | جليدًا وأبديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا | يمل وأن النأى يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا | على ذاك قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع | إذا كان من تهواه ليس بذي عهد

وقال آخر:

ألا طرقتنا آخر الليل زينب | عليك سلام هو لما فات مطلب
وقالت تجنبنا ولا تقربننا | وكيف وأنتم حاجتي أتجنب؟
يقولون هل بعد الثلاثين ملعب | فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب؟
لقد جلَّ خطب الشيب إن كان كلما | بدت شيبة يعرى من اللهو مركب

وقال كثير:

وأدنيتني حتى إذا ما ملكتني | بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناهيت عني حين لا لي حيلة | وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وقال آخر:

سلي البانة الغيناء بالأجرع الذي ... به البان هل حييت أطلال دارك؟
وهل قمت في أطلالهن عشية ... مقام أخي البأساء واخترت ذلك
وهل هملت عيناي في الدار غدوة ... بدمع كنظم اللؤلؤ المتهالك
أرى الناس يرجون الربيع وإنما ... ربيعي الذي أرجو نوال وصالك
أرى الناس يخشون السنين وإنما ... سني الذي أخشى صروف احتمالك
لئن ساءني أن نلتني بمساءة ... لقد سرني أني خطرت ببالك
ليهنك إمساكي بكفي على الحشا ... ورقراق عيني رهبة من زيالك

الغيناء الظليلة فهي تستر ما تحتها ولما في السحاب من الستر يسمى غينًا، ومنه غان على قلبه كذا، ويروى الغناء ويصفون الشجر بالغناء لما يسمع منه إذا مرت به الرياح قال بعضهم:

للثرى تحتها سبات وللما ... ء خرير وللغصون غناء

وقال آخر:

تتمتع بها ما ساعفتك ولا تكن ... عليك شجى في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك الليان فإنها ... لغيرك من خلانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن الزهري:

ولما نزلنا منزلًا طله الندى ... أنيقًا وبستانًا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه ... مني فتمنينا فكنت الأمانيا

وقال معدان بن المضرب الكندي:

صفا ود ليلى ما صفا ثم لم نطع ... عدوًا ولم نسمع به قيل صاحب

فلمـا تـولى ود ليلـي لجانـب ... وقـوم تولينـا لقـوم وجانـب
وكـل خليـل بعـد ليلـي يخـافني ... عـن الغـدر أو يرضـى بـود مقـارب

وقال آخر:

هـل الحـب إلا زفـرة بعـد زفـرة ... وحـر علـى الأحـشاء لـيس لـه بـرد
وفـيض دمـوع العـين يـأمى كلمـا ... بـدا علـم مـن أرضكم لـم يكـن يبدو

وقال يزيد بن المنتشر القشيري المشهور بان الطثرية -وهي أمه نسبت لحي من قضاعة يقال لهم طثر-:

عقيليـة أمـا مـلاث إزارهـا ... فـدعص وأمـا خـصرها فبتيـل
تقـيظ أكنـاف الحمـى ويظلهـا ... بنعمـان مـن وادي الأراك مقيـل
ألـيس قلـيلًا نظـرة إن نظرتهـا ... إليـك وكـلا لـيس منـك قليـل
فيـا خلـة الـنفس التـي لـيس دونهـا ... لنـا مـن أخـلاء الـصفاء خليـل
ويـا مـن كتمنـا حبـه لـم يطـع بـه ... عـدو ولـم يـؤمن عليـه دخيـل
أما مـن مقـام أشـتكي غربـة النـوى ... وخـوف العـدا فيـه إليـك سـبيل
فـديتك أعـدائي كثيـر وشـقتي ... بعيـد وأشـياعي لـديك قليـل
وكنـت إذا مـا جئـت جئـت بعلـة ... فأفنيـت علاتـي فكيـف أقـول
فمـا كـل يـوم لـي بأرضـك حاجـة ... ولا كـل يـوم لـي إليـك رسـول
صـحائف عنـدي للعتـاب طويتهـا ... ستنـشر يومًـا والعتـاب طويـل
فـلا تحملـي ذنبـي وأنـت ضـعيفة ... فحمـل دمـي يـوم الحـساب ثقيـل

وقال آخر:

بيـضاء آنـسة الحـديث كأنهـا ... قمـر توسـط جـنح ليـل مبـرد

موسومة بالحسن ذات حواسد　　إن الحسان مظنة للحسد
خود إذا كثر الحديث تعوذت　　بحمى الحياء وإن تكلم تقصد
وترى مدامعها ترقرق مقلة　　سوداء ترغب عن سواد الإثمد

إنما يكون الليل ذا برد إذا صفا الجو. وقال آخر:

أهابك إجلالًا وما بك قدرة　　عليَّ ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها　　قليل ولكن قلَّ منك نصيبها

وقال ابن الدمينة:

ألا لا أرى وادي المياه يثيب　　ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط ا لواديين وإنني　　لمشتهر بالواديين غريب
أحقًّا عباد الله أن لست واردًا　　ولا صادرًا إلا على رقيب
ولا زائرًا فردًا ولا في جماعة　　من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة في أن تحن نجيبة　　إلى إلفها أو أن يحن نجيب
وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى　　إلي وإن لم آته لحبيب
لك الله أني واصل ما وصلتني　　ومثن بما أوليتني ومثيب
وآخذ ما أعطيت عفوًا وإنني　　لا زور عما تكرهين هيوب
فلا تتركي نفسي شعاعًا فإنها　　من الوجد قد كادت عليك تذوب
وإني لأستحييك حتى كأنما　　علي بظهر الغيب منك رقيب

وقال آخر:

تحمل أصحابي ولم يجدوا وجدي　　وللناس أشجان ولي شجن وحدي
أحبكم ما دمت حيًا فإن أمت　　فواكبدا ممن يحبكم بعدي

وقال أبو حية النميري:

رمتـه أنـاة مـن ربيعـة عـامر ... نئوم الضحى في مأتم أي مأتم

فجاء كخوط البان لا متتايع ... ولكن بسيما ذي وقار وميسم

فقلن لها سرًا فديناك لا يرح ... صحيحًا وإن لم تقتليه فألمي

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت ... بأحسن موصولين كف ومعصم

وقالت فلما أفرغت في فؤاده ... وعينيه منها السحر قلن له قم

فود بجدع الأنف لو أن صحبه ... تنادوا وقالوا في المناخ له نم

الأناة إما من وني وإبدال الهمزة من الواو المفتوحة قليل كأحد وأجم في وجم أي سكت حزنًا، أو من أني أي تأنى. وقوله: فجاء كخوط البان أي المرمى حين أقبل في وقار وتؤدة شابًا ناعمًا معتدل القامة كالخوط بضم الخاء أي الغصن، والمتتايع المتسرع في حماقة والمأتم المجمع من النساء في خير أو شر. وقال أبو االشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس ... متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبًا لذكرك فليلمني اللوم

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم

وأهنتني فأهنت نفسي صاغرًا ... ما من يهون عليك ممن أكرم

المحب يستطيب اللوم والعذل لما فيه من ذكر الحبيب كما قال، وقال آخر:

أصغى إلى قول العذول بجملتي ... مستفهمًا عنكم بغير ملال

لتلقطي زهرات ورد حديثكم ... من بين شوك ملامة العذال

وخالف ذلك المتنبي حيث يقول:

أأحبه وأحب فيه ملامة … إنَّ الملامة فيه من أعدائه

وقال آخر:

ولا غرو إلا ما يخبر سالم … بأن بني استاهها نذروا دمي
وما لي من ذنب إليهم علمته … سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمي
نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمت … ثلاث تحيات وإن لم تكلم

لا غرو إلا ما يخبر أي: لا عجب إلا أخبار والسرحة واحدة السرح وهو من الشجر ما لا شوك له ويقابله العضه كني بالسرحة عن المرأة وقال زياد بن حمل أو ابن منقذ التميمي، وكان قد أتى اليمن واشتاق بلاده:

لا حبذا أنت يا صنعاء من بلد … ولا شعوب هوى مني ولا نقم
ولن أحب بلادًا قد رأيت بها … عنسًا ولا بلدًا حلت به قدم
إذا سقى الله أرضًا صوب غادية … فلا سقاهن إلا النار تضطرم
وحبذا حين تمسي الريح باردة … وادي أشي وفتيان به هضم
الواسعون إذا ما جر غيرهم … على العشيرة والكافون ما جرموا
والمطعمون إذا هبت شآمية … وباكر الحي من صرادها صرم
وشتوة فللوا أنياب لزبتها … عنهم إذا كلحت أنيابها الأزم
حتى انجلى حدُّها عنهم وجارهم … بنجوة من حذار الشر معتصم
هو البحور عطاء حين تسألهم … وفي اللقاء إذا تلقى بهم بهم
وهم إذا الخيل حالوا في كواثبها … فوارس الخيل لا ميل ولا قزم
لم ألق بعدهم حيًا فأخبرهم … إلا يزيدهم حبًا إلى هم
كم فيهم من فتى حلو شمائله … جم الرماد إذا ما أخمد البرم

تحب زوجات أقوام حلائله إذا الأنوف امترى مكنونها الشيم

ترى الأرامل والهلاك تتبعه يستن منه عليهم وابل رذم

كان أصحابه بالقفز يمطرهم من مستحير غزير صوبه ديم

غمر الندى لا يبيت الحق يثمده إلا غدا وهو سامي الطرف يبتسم

إلى المكارم يبنيها ويعمرها حتى ينال أمورًا دونها قحم

تشقى به كل مرباع مودعة عرفاء يشتو عليها تامك سنم

ترى الجفان من الشيزى مكللة قدامه زانها التشريف والكرم

ينوبها الناس أفواجًا إذا نهلوا علوًّا كما عل بعد النهلة النعم

زارت رويقة شعثًا بعد ما هجعوا لدى نواحل في أرساغها الخدم

وقمت للزور مرتاعًا فأرقني فقلت أهي سرت أم عادني حلم

وكان عهدي بها والمشي يبهظها من القريب ومنها النوم والسأم

وبالتكاليف تأتي بيت جارتها تمشي الهوينا وما تبدو لها قدم

سود ذوائبها بيض ترائبها درم مرافقها في خلقها عمم

رويق أني وما حج الحجيج له وما أهل بجنبي نخلة الحرم

لم ينسني ذكركم مذ لم ألاقكم عيش سلوت به عنكم ولا قدم

ولم تشاركك عندي بعد غانية لا والذي أصبحت عندي له نعم

متى أمر على الشقراء معتسفًا خل النقا بمروح لحمها زيم

والوشم قد خرجت منه وقابلها من الثنايا التي لم أقلها ثرم

يا ليت شعري عن جنبي مكسحة وحيث تبنى من الحناءة الأطم

عن الإشاءة هل زالت مخارمها وهل تغير من آرامها إرم

وجنة ما يذم الدهر حاضرها جبارها بالندى والحمل محتزم

فيها عقائل أمثال الدمى خرد ... لم يغذهن شقًا عيش ولا يتم
يتنابهن كرام ما يذمهم ... جار غريب ولم يؤذى لهم حشم
مخدمون ثقال في مجالسهم ... وفي الرحال إذا صاحبتهم خدم
بل ليت شعري متى أغدوا تعارضني ... جرداء سابحة أو سابح قدم
نحو الأميلح أو سمنان مبتكرًا ... بفتية فيهم المرار والحكم
ليست عليهم إذا يغدون أردية ... إلا جياد قسي النبع واللجم
من غير عدم ولكن من تبذلهم ... للصيد حين يصيح القانص اللحم
فيفزعون إلى جرد مسومة ... أفنى دوابرهن الركض والأكم
يرضخن صم الحصا فى كل هاجرة ... كما تطايح عن مرضاخه العجم
يغدو أمامهم في كل مربأة ... طلاع أنجدة في كشحه هضم

شعوب ونقسم بضمتين موضعان تقول للشيء هو مني هوى أي: محبوب وعنس وقدم بفتحتين حيان من أحياء اليمن من الأول الأسود العنسي الكذاب الذي تنبأ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان ساحر المنطق وقتله فيروز الديلمي، وهضم جمع هضوم أي: يهضمون المال في وجوه الخير والصراد كرمان السحاب لا ماء فيه، والصرم جمع صرمة بكسر فسكون الجملة من الإبل واستعيرها هنا لزبة السنة المجدبة وفللوا أنيابها أزالوا شدائدها من تفليل حدّ السيف أي: إحداث الفلول به والأزم جمع أزوم والأزوم الإمساك على الشيء بالأسنان، وكواثب الخيل جمع كاثبة أعالي ظهورها وإذا الخيل حالوا في كواثبها تراكيب الاشتغال أي إذا قصدوا الخيل والقدم بفتحتين أراذل الناس. وقوله: إلا يزيدهم حبًا إلي هم أي إلا يزيدون أنفسهم حبًا إلي لا برارهم على غيرهم وضع الضمير المنفصل موضع المتصل، والبرم اللئيم البخيل على وزن الشيم

بفتح أوله وهو البرد والعرفاء التي طال وبرها حتى صار لها مثل العرف والجبار النخل الطويل والأرم العلم وزنًا ومعنى والحناءة نوع رمل يستعمل في بناء الأطم بضمتين وهي الحصون والقصور، وقال عمرو ضبيعة الرقاشي:

تضيق جفون العين عن عبراتها ... فتسفحها بعد التجلد والصبر
وغصة صدر أظهرتها فرفهت ... حرارة حرفي الجوانح والصدر
ألا ليقل من شاء ما شاء إنما ... يلام الفتى فيما استطاع من الأمر
قضى الله حب المالكية فاصطبر ... عليه فقد تجري الأمور على قدر

وقال جميل:

بثينة ما فيها إذا ما تبصرت ... معاب ولا فيها إذا نسبت أشب
لها النظرة الأولى عليهم وبسطة ... وإن كرت الأبصار كان لها العقب
إذا ابتذلت لم يزرها ترك زينة ... وفيها إذا ازدانت لذي نيقة حسب

ذلك المختار من باب النسيب، وهاك أشياء من باب الهجاء وهو من هجاه يهجوه إذ رماه بالمعايب في أعماله أو أعمال أسلافه. قال موسى بن جابر الحنفي:

كانت حنيفة لا أبا لك مرة ... عند اللقاء أسنة لا تنكل
فرأت حنيفة ما رأت أشياعها ... والريح أحيانًا كذا تحول

وقال قراد بن حنش الصاردي:

لقومي أدعى للعلى من عصابة ... من الناس يا حار بن عمرو تسودها
وأنت سماء يعجب الناس رزها ... بآبدة تنحى شديد وئيدها
تقطع أطناب البيوت بحاصب ... وأكذب شيء برقها ورعودها

فويل أمها خيلًا بهاء وشارة إذا لاقت الأعداء لولا صدودها

الرز بالكسر الصوت تسمعه من بعيد، والباء في بآبدة بمعنى مع والآبدة المنكرة وتنحى من أنحى أي: اعتمد والحاصب الريح تأتى بالحصباء أي الحصى لشدتها مثل تهويلهم وما يظهر منه بحساب له برق ورعد مصحوب بريح شديدة ثم لا يمطر فهو وهو لا خير فيهم. وقال طرفة بن العبد:

فرق عن بيتيك سعد بن مالك وعمرًا وعوفً ما تشي وتقول
وأنت على الأدنى شمال عرية شآمية تزوى الوجوه بليل
وأنت على الأقصى صباغير قرة تذأب منها مرزغ ومسيل
وأعلم علمًا ليس بالظن أنه إذ ذل مولى المرء فهو ذليل
وإن لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

أراد بالبيتين العصبة وذوي الأرحام، وقصد تخليصه بالهجاء وإخراجه من شرف أهله بسوء عمله ومرزغ ومسيل أي: ذات رزغة وهي الوحل وسيل، وقال قعنب بن ضمرة:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحًا مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلًا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

ولبعضهم زيادة في هذا المعنى:

إن يعلموا الخير أخفوه وإن سمعوا شرًا أذعوا وإن لم يسمعوا كذبوا

وقال محرز بن المكعبر الضبي لبني عدي بن جندب بن العنبر:

أبلغ عديًا حيث صارت بها النوى ... وليس لدهر الطالبين فناء
كسالى إذا لاقيتهم غير منطق ... يلهي به المتبول وهو عناء
أخبر من لاقيت أن قد وفيتم ... ولو شئت قال المنبأون أساءوا
لهم رثية تعلو صريمة أمرهم ... وللأمر يومًا راحة فقضاء
وإني لراجيكم على بطء سعيكم ... كما في بطون الحاملات رجاء
فهلا سعيتم سعي عصبة مازن ... وهل كفلائي في الوفاء سواء
لهم أذرع باد نواشر لحمها ... وبعض الرجال في الحروب غثاء
كأن دنانيرًا على قسماتهم ... وإن كان قد شف الوجوه لقاء

وقال سويد بن مشنوء:

دعى عنك مسعودًا فلا تذكرنه ... إلي بسوء واعرضي لسبيل
نهيتك عنه في الزمان الذي مضى ... ولا ينتهي الغاوي لأول قيل

وقال رجال من طيء:

إن امرأ يعطي الأسنة نحره ... وراء قريش لا أعدله عقلا
يذمون لي الدنيا وقد ذهبوا بها ... فما تركوا فيها الملتمس ثعلا

يعني الأمراء في خطبهم، والثعل بفتح أوله أو ضمه خلف صغير زائد في أخلاف الحلوبة. وقال أبو الأسد عصري أبو تمام في الحسن بن رجاء بن أبي الضحاك ولأبي تمام فيه مديح:

فلا نظرن إلى الجبال وأهلها ... وإلى منابرها بطرف أخزر
ما زلت تركب كل شيء قائم ... حتى اجترأت على ركوب المنبر

الجبال ناحية كان الحسن المذكور يلي إمارتها والنظر بطرف أخزر أي ينظر من مؤخره هو نظر الاحتقار ونزل بالراعي النميري رجل من بني كلاب في ركب معه ليلافي سنة مجدبة، وقد عزبت عن الراعي إبله فنحر لهم ناقة من رواحلهم وصبحت الراعي إبل فأعطى رب الناب نابًا مثلها وزاده ناقة ثنية فقال:

عجبت من السارين والريح قرة ... إلى ضوء نار بين فردة فالرحا

إلى ضوء نار يشتوي القد أهلها ... وقد يكرم الأضيف والقد يشتوي

فلما أتونا فاشتكينا إليهم ... بكوا وكلا الحيين مما به بكى

بكى معوز من أن يلام وطارق ... يشد من الجوع الإزار على الحشا

فألطفت عيني هل أرى من سمينة ... ووطأت نفسي للغرامة والقرى

فأبصرتها كوماء ذات عريكة ... هجانا من اللائي تمتعن بالصوى

فأومأت إيماء خفيًا لحبتر ... ولله عينا حبتر أيما فتى

وقلت له ألصق بأيبس ساقها ... فإن يجبر العرقيب لا يرقأ النسا

فأعجبني من حبتر أن حبترا ... مضى غير منكوب ومنصله انتضى

كأني وقد أشبعتهم من سنامها ... جلوت غطاء عن فؤادي فانجلى

فبتنا وباتت قدرنا ذات هزة ... لنا قبل ما فيها شوء ومصطلى

وأصبح راعينا بريمة عندنا ... بستين أبقتها الأخلة والخلا

فقلت لرب الناب خذها ثنية ... وناب علينا مثل نابك في الحيا

القرة بفتح القاف الباردة وفردة بفتح أوله والرحا موضوعان قصد تعيين منزله، والقد الجلد والإنسان إذا جاع يأكل كل ما لان والعريكة السنام والصوى جمع صوة بضم الصاد الأرض الغليظة ويروى الصوى مصدر صوى كفرح أي: خلا الضرع من اللبن وتمتع الناقة به أنها لا

تحلب فهي حائل تربى لحمًا وشحمًا. وقوله: ألصق بأيبس ساقها معناه بالغ في القطع ليسيل دمها من مسبل لا ينقطع سيلانه حتى يفنى الدم وهو النسا ورقأ الدم والدمع انقطع، والأخلة جمع خلال جمع خلة لنوع من النبات والخلا الرطاب، ويروى الأجلة بالجيم جمع جلال؛ وهو الغطاء وأراد حينئذ أن حفظها من البرد بالوقاء ورعيها أبقياها أو أنقياها أي: أكثر فيها النقى وهو مخ العظام وهما روايتان والحيا المطر يسمى به النبات مجازًا للسببية ويتجوز عن النبات للشحم فهو مجاز عن مجاز فقال الحلال ابن أرفم الملقب بالخنزر النميري:

بني قطن ما بال ناقة ضيفكم ... تعشون منها وهي ملقى قتودها
غدا ضيفكم يمشي وناقة رحله ... على طنب الفقماء ملقى قديدها
وبات الكلابي الذي يبتغي القرى ... بليلة نحس غاب عنها سعودها
أمن ينقص الأضياف أكرم عادة ... إذا نزل الأضياف أم من يزيدها
كأنكم إن قمتم تنحرونها ... براذين مشدود عليها لبودها
فما فتح الأقوام من باب سوأة ... بني قطن إلا وأنتم شهودها

تعشون أي: تتعشون حذفت منه تاء والقتود عدة الجمل والفقماء زوجة الراعي، وأصل الفقم خروج الثنايا السفلى حتى لا تقع عليها العليا والقديد اللحم بشرح ليجفف وكان ينشر على أطناب البيوت وهي الحبال التي تشد بها ولاحق لهذا الهاجي في هجائه بعد ما صنع الراعي، ولذلك أجابه عن فريته بقوله:

ماذا نكرتم من قلوص نحرتها ... بسيفي وضيفان الشتاء شهودها
فقد علموا أني وفيت لربها ... فراح على عنس بأخرى يقودها
قريت الكلابي الذي يبتغي القرى ... وأمك إذ يحدى إلينا قعودها

رفعنا لها نارًا تثقب للقرى ... ولقحة أضياف طويلًا ركودها
إذا أخليت عود الهشيمة أرزمت ... جوانبها حتى نبيت نذودها
إذا نصبت للطارقين حسبتها ... نعامة حزباء تقاصر جيدها
تبيت المحال الغر في حجراتها ... شكارى مراها ماؤها وحديدها
بعثنا إليها المنزلين فحاولا ... لكي ينزلاها وهي حام حيودها
فباتت تعد النجم في مستحيرة ... سريع بأيدي الآكلين جمودها
فلما سقيناها العكيس تملأت ... مذاخرها وارفض رشحا وريدها
لما قضت من ذي الإناء لبانة ... أرادت إلينا حاجة لا نريدها

نكر الشيء وأنكره نفر منه واستقبحه، والعنس بفتح أوله الناقة الصلبة وأثقاب النار وتثقيبها إذكاؤها وما به الأثقاب ثقوب كوقود بفتح أولهما وأراد بلقحة الأضياف القدر استعارة رشحها بقوله: إذا أخليت أي أعطيت الخلاء وأرزام الناقة حنينها والمحال فقار الظهر الواحدة محالة وجعلها غرًّا لسمنها، وشكارى جمع شكري وهي في الأصل الضرع الممتلئة ولذلك قال: مراها أي اعتصرها والخلاصة إن الماء بحرارته استخرج ما فيها. وقوله: فباتت تعد النجم أي أمك باتت تنظر في مرق القدر وهو المراد بالمستحيرة من قولهم استحار الماء أي دار حتى ملأ قرارته وتعد النجم أما من العد الحسباني أو الحساب، فالأول يصف المرقة بالدسومة حتى تمثل فيها صورة النجوم، والثاني يقول: إن الثريا تمثلت في الإناء لكونها محاذية للرءوس إذ كان الوقت في وسط الشتاء والعكيس لبن يصب عليه مرق وتملأت مذاخرها أي المواضع التي تذخر فيها الأغذية ووصفها بغاية الشره حيث تملأت جدًّا حتى تصبب عرقها وذلك في قوله: وارفض رشحًا وريدها وقوله: ولما قضت من ذي الإناء لبانة أي:

ولما شبعت فوق كفايتها فإن اللبانة بعد الحاجة الأصلية اغتلمت وطوى ذلك في قولها: أرادت إلينا حاجة لا نريدها يقال: أراد إليها وطلب إليه كذا، والحيود جمع حيد بفتح أوله المراد منها هنا الجوانب، وقال رجال من أسد:

دببت للمجد والساعون قد بلغوا ... جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
فكابروا المجد حتى مل أكثرهم ... وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقال آخر:

ومستعجل بالحرب والسلم حظه ... فلما استثيرت كل عنها محافره
وحارب فيها بامرئ حين شمرت ... من القوم معجاز لئيم مكاسره
فأعطى الذي يعطى الذليل ولم يكن ... له سعي صدق قدمته أكابره

وقال آخر:

كاثر بسعد إن سعدًا كثيرة ... ولا تبغ من سعد وفاء ولا نصرا
ولا تدع سعدًا للقراع وخلها ... إذا أمنت ونعتها البلد القفرا
يروعك من سعد بن عمرو جسومها ... وتزهد فيها حين تقتلها خبرا

وقال آخر:

أعاريب ذوو فخر بإفك ... وألسنة لطاف في المقال
رضوا بصفات ما عدموه جهلًا ... وحسن القول من حسن الفعال

أي: رضوا بحسن القول بدل حسن الفعال.

وقال آخر:

هجــوت الأدعيـــاء فناصـــبتني معاشــر خلتهــا عربًــا صــحاحا

فقلـت لهـم وقـد نبحـوا طـويلًا علـي فلـم أجـب لهـم نباحـا

أمـــنهم أنـــتم فـــأكف عـــنكم وأدفـع عـنكم الـشتم الـصراحا

وإلا فاحمـــدوا رأيـــي فـــإني سـأنفي عـنكم الـتهم القباحـا

وحـــسبك تهمـــة ببـــرئ قـــوم يـضم علـى أخـي سـقم جناحـا

وقال فرعان بن الأعرف في ابنه منازل:

جـزت رحـم بينـي وبـين منـازل جـزاء كمـا يـستنزل الـدين طالبـه

لربيتــه حتــى إذا آض شــيظمًا يكاد يساوي غـارب الفحـل غاربـه

فلما رآني أبصر الشخص أشخصًا قريبًـا وذا الـشخص البعيـد أقاربـه

تغمـد حقـي ظالمًـا ولـوى يـدي لـوى يـده الله الـذي هـو غالبـه

وكـان لـه عنـدي إذا جـاع أو بكـى مـن الـزاد أحلـى زادنـا وأطايبـه

وربيتـــه حتـــى إذا مـــا تركتـــه أخـا القـوم واستغنى عـن المـسح

وجمعتهـا دهمًـا جـلادًا كأنهـا أشـاء نخيـل لـم تقطـع جوانبـه

فـأخرجني منهـا سـليبًا كـأنني حـسام يمـان فارقتـه مـضاربه

أإن أرعـشت كفـا أبيـك وأصـبحت يـداك يـدي ليـث فإنـك ضـاربه

انتهـى المنقـول مـن بـاب الهجـاء، ودونـك مـا يستحـسن مـن بـاب الأضياف والمديح. قال مرة بن محكان التميمي:

يـا ربـة البيـت قـومي غيـر صـاغرة ضمي إليـك رحـال القـوم والقربـا

فـي ليلـة مـن جمـادي ذات أنديـة لا يبصر الكلـب من ظلمائها الطنبا

لا ينـبح الكلـب فيهـا غيـر واحـدة حتـى يلـف علـى خيشومه الـذنبا

مــاذا تــرين أنــدنيهم لا رحلنــا في جانب البيـت أم نبني لهـم قببا

لمرمـــل الـــزاد معنـــي بحاجتـــه — مـن كـان يكـره ذمًّـا أو يقـي حـسبا

وقمت مستبطنًا سيفي فاعرض لي — مثـل المجـادل كـوم بركـت عـصبا

فـصادف الـسيف منهـا سـاق متليـة — جلـس فـصادف منـه سـاقها عطبـا

زيافـــة بنـــت زيـــاف مـــذكرة — لمـا نعوهـا لراعـي سـرحنا انتحبـا

أمطيـت جازرنـا أعلـى سناسـنها — فـصار جازرنـا مـن فوقهـا قتبـا

ينـشنش اللحـم عنهـا وهـي باركـة — كمـا تنـشنش كفافـا تـل سـلبا

وقلـت لمـا غـدوا أوصـى قعيـدتنا — غـدى بنيـك فلـن تلقـيهم حقبـا

أدعـى أبـاهم ولـم أقـرف بـأمهم — وقـد عمرت ولـم أعرف لهـم نـسبا

أنا ابـن محكـان أخـوالي بنـو مطـر — أنمـي إلـيهم وكـانوا معـشرًا نجبـا

وقال أبو زياد الأعرابي الكلابي:

لـــه نـــار تـــشب علـــى يفـــاع — إذا النيـــران ألبـــست القناعـــا

ولـــم يـــك أكثـــر الفتيـــان مـــالًا — ولكـــن كـــان أرحـــبهم ذراعـــا

اليفاع المرتفع من الأرض، وكان من عادتهم إيقاد النار على رءوس المرتفعات ليبصرها الساري فيقصدها. وقال آخر:

سأشـكر عمـرًا إن تراخـت منيتـي — أيـادي لـم تمـنن وإن هـي جلـت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه — ولا مظهـر الشكوى إذا النعـل زلـت

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها — فكانـت قـذى عينيـه حتـى تجلـت

وقال آخر:

تركـت ضـأني تـود الـذئب راعيهـا — وأنهـــا لا تراني آخـــر الأبـــد

الـذئب يطرقهـا فـي الـدهر واحـدة — وكـل يـوم تراني مديـة بيـدي

وقال العرندس:

هينون لينون أيسار ذوو كرم ... سواس مكرمة أبناء أيسار

إن يسألوا الخير يعطوه وإن خبروا ... في العهد أدرك منهم طيب أخبار

وإن توددتهم لانوا وإن شهموا ... كشفت أذمار شر غير أشرار

فيهم ومنهم يعد المجد متلدًا ... ولا يعد نثا خزي ولا عار

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكثار

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

شهموا بالبناء للمجهول من شهم كمنع أي حرك للشر وأفزع. وقال آخر:

رهنت يدي بالعجز عن شكر بره ... وما فوق شكري للشكور مزيد

ولو كان شيئًا يستطاع استطعته ... ولكن ما لا يستطاع شديد

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويوم نعيم فيه للناس أنعم

فيمطر يوم الجود من كفه الندى ... ويمطر يوم البأس من كفه الدم

ولو أن يوم البأس خلى عقابه ... على الناس لم يصبح على الأرض

ولو أن يوم الجود خلى يمينه ... على الناس لم يصبح على الأرض

وقالت ليلى الأخيلية:

يأيها السدم الملوى رأسه ... ليقود من أهل الحجاز بريما

أتريد عمرو بن الخليع ودونه ... كعب إذًا لوجدته مرءوما

إن الخليع ورهطه في عامر ... كالقلب ألبس جؤجؤًا وحزيما

لا تغــزون الــدهر آل مطــرف ... لا ظالمًـــا أبـــدًا ولا مظلومـــا

ومخـــرق عنـــه قمـــيص تخالـــه ... وسـط البيـوت مـن الحيـاء سقيما

حتـــى إذا رفـــع اللـــواء رأيتـــه ... تحت اللواء على الخميس زعيما

السدم النادم أو اللجوج، أو هو مستعار من فحل الإبل الممنوع ناحية عن الدخول في الإبل فهو يهدر وحده، والملوى رأسه المتكبر جهلًا، والبريم أصله حبل يفتل من قوى مختلفة الألوان مستعار للجيش من الأخلاط وقالت وقيل هي لأبيها:

نحـن الأخايـل لا يـزال غلامنـا ... حتـى يـدب علـى العـصا مـذكورا

تبكـي الـسيوف إذا فقـدن أكفنـا ... جزعًـا وتعلمنـا الرفـاق بحـورا

ولـنحن أوثـق فـي صـدور نـسائكم ... مـنكم إذا بكـر الـصراخ بكـورا

وقال آخر:

إذا انتـدى واحتبـى بالـسيف دان لـه ... شـوس الرجـال خـضوع الجـرب

كأنمـا الطيـر مـنهم فـوق هـامهم ... لا خوف ظلم ولكن خوف إجلال

وقال العجير السلولي:

أقـول لعبـد الله وهنـا ودوننـا ... مناخ المطايا من منى فالمحصب

لـك الخيـر عللنـا بهـا علـى سـاعة ... تمـر وسـهواء مـن الليـل يـذهب

فقـام فـأدنى مـن وسـادي وسـاده ... طـوى الـبطن ممـشوق الـذراعين

بعيـد مـن الـشيء القليـل احتفاظـه ... عليك ومنزور الرضا حين يغضب

هـو الظفـر الميمـون إن راح أو غـدا ... بـه الركـب والتلعابـة المتحبـب

أول الشعر غزل، فإنه أراد بضمير ودوننا نفسه وحبيبته والكناية في قوله: لك الخير عللنا بها عن حبيبته وسهواء من الليل، ويروى وتهواء بكسر التاء أي: جانب منه، والشرجب الطويل والاحتفاظ الغضب أي: لا يغضب عليك السفهاء من الشيء الذي لا خطر له، فإن جاء موضع الغضب فهو قليل الرضا، فبقية الشعر مدح لصاحبه عبد الله. وقال حجر بن خالد يمدح النعمان بن المنذر:

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد ... كمثل أبي قابوس حزمًا ونائلا

فساق إلهي الغيث من كل بلدة ... إليك فأضحى حول بيتك نازلا

فأصبح منه كل واد حللته ... من الأرض مسفوح المذانب سائلا

متى تنع ينع الجود والبأس والتقى ... وتصبح قلوص الحرب جرباء حائلا

فلا ملك ما يدركنك سعيه ... ولا سوقة ما يمدحنك باطلا

وقال آخر:

ومستنبح بعد الهدو دعوته ... بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها

فقلت لها أهلًا وسهلًا ومرحبًا ... بموقد نار محمد من يرودها

نصبنا له جوفاء ذات ضبابة ... من الدهم مبطانًا طويلًا ركودها

فإن شئت أثويناك في الحي مكرمًا ... وإن شئت بلغناك أرضًا تريدها

وقال آخر:

ومستنبح تهوى مساقط رأسه ... إلى كل شخص فهو للسمع أصور

يصفقه أنف من الريح بارد ... ونكباء ليل من جمادى وصرصر

حبيب إلى كلب الكريم مناخه ... بغيض إلى الكوماء والكلب أبصر

حضأت له ناري فأبصر ضوءها ... وما كاد لولا حضأة النار يبصر

دعتـه بغيـر اسـم هلـم إلـى القـرى ... فأسـرى يبـوع الأرض والنـار تزهـر
فلمـا أضـاءت شخصه قلـت مرحبًـا ... هلــم وللــصالين بالنــار أبــشروا
فجــاء ومحمــود القــرى يــستفزه ... إليهـا وداعـي الليـل بالـصبح يـصفر
تأخرت حتى لم تكد تصطفي القرى ... علـــى أهلـــه والحـــق لا يتـــأخر
وقمت بنصل السيف والبرك هاجد ... بهـا ذرء والمـوت فـي الـسيف ينظـر
فأغضـضته الطـولى سـنامًا وخيرهـا ... بـــلاء وخيـــر الخيـــر مـــا يتخيـــر
فأوفـضن عنهـا وهـي ترغـو حـشاشة ... بـذي نفـسها والـسيف عريـان أحمـر
فباتــت رحــاب جونــة مــن لحامهـا ... وفوهــا بمــا فـــي جوفهــا يتغرغــر

مساقط الرأس ميلاته فهو مصدر إلى كل شخص أي شيء قائم يرجوه إنسانًا والسمع التسمع وهو له أصور أي: مائل الرأس لأجله وصفقه أنف الريح أي ضربه أوله وحضأ النار أذكاها فرفعها والبهاذر السمان الواحد بهذرة أو بهذورة أو بهذار وأوفضن عنها تفرقن، والحشاشة بقية النفس نصب تمييزًا، وعريان غير مصروف ضرورة، وقال عمرو بن الأهتم:

ذرينــي فــإن الــشح يــا أم هيــثم ... لــصالح أخــلاق الرجــال ســروق
ذرينـي وحطـي فـي هـواي فـإنني ... على الحسب الزاكي الرفيع شفيق
ذرينــي فــإني ذو فعــال تهمنــي ... نوائــب يغــشى رزؤهــا وحقــوق
وكــل كــريم يتقــي الــذم بــالقرى ... وللحــق بــين الــصالحين طريــق
لعمــرك مــا ضــاقت بــلاد بأهلهــا ... ولكـــن أخـــلاق الرجـــال تـــضيق

الصاحب يحط رحله حيث يحط صاحبه فهو موافق غير مفارق استعير للموافقة. وقال عروة بن الورد:

إنـــي امـــرؤ عـــافى أنـــائي شـــركة ... وأنـــت امـــرؤ عـــافى أنائـــك واحـــد

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

العفاة طلاب المعروف.

وقال آخر:

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى ... وكل غني في القلوب جليل
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى ... عشية يقرى أو غداة ينيل

وقال آخر:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له ... أكيلًا فإني لست آكله وحدي
أخا طارقًا أو جار بيت فإنني ... أخاف ملامات الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا ... وما في إلا تلك من شيمة العبد

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان من جل همه ... صبوح وإن أمسى ففضل غبوق
ولكن فتى الفاتيان من راح أو غدا ... لضر عدو أو لنفع صديق

وقال حسان بن حنظلة الطائي:

تلك ابنة العدوى قالت باطلًا ... أزرى بقومك قلة الأموال
إنا لعمر أبيك يحمد ضيفنا ... ويسود مقترنًا على الإقلال
وأنا امرؤ من آل حية منصبي ... وبنو جوين فاسألي أخوالي
وإذا دعوت بني جديلة جاءني ... مرد على جرد المتون طوال

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... ويزيد جاهلنا على الجهال

وقال النمري -ويقال: إنها لرجل من باهلة-:

وداع دعا بعد الهدوء كأنما ... يقاتل أهوال السرى وتقاتله

فلما سمعت الصوت ناديت نحوه ... بصوت كريم الجد حلو شمائله

فأبرزت ناري ثم أثقبت ضوءها ... وأخرجت كلبي وهو في البيت

فلما رآني كبر الله وحده ... وبشر قلبًا كان جمًّا بلابله

فقلت له أهلًا وسهلًا ومرحبًا ... رشدت ولم أقعد إليه أسائله

وقمت إلى برك هجان أعده ... لوجبة حق نازل أنا فاعله

بأبيض خطت نعله حيث أدركت ... من الأرض لم تخطل علي حمائله

فجال قليلًا واتقاني بخيره ... سنامًا وأملاه من التي كاهله

بقرم هجان مصعب كان فحلها ... طويل القرى لم يعد أن شق بازله

فخر وظيف القرم في نصف ساقه ... وذاك عقال لا ينشط عاقله

بذلك أوصاني أبي وبمثله ... كذلك أوصاه قديمًا أوائله

مثل هذا لكونه مدح المرء نفسه أفرده الناس بعد باسم الفخر فيقولون في تمييز الشعر قال يمدح وقال يفتخر وقال حاتم:

وعاذلة قامت علي تلومنى ... كأنى إذا أعطيت مالى أضيمها

أعاذل إن الجود ليس بمهلكي ... ولا مخلد النفس الشحيحة لومها

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه ... مغيبة فى اللحد بال رميمها

ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه ... يدعه ويغلبه على النفس خيمها

وقال:

أكف يدي عن أن ينال التماسها أكف صحابي حين حاجاتنا معا

أبيت هضيم الكشح مضطمر الحشا من الجوع أخشى الذم أن أتضلعا

وإني لأستحي رفيقي أن يرى مكان يدي من جانب الزاد أقرعا

وإنك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقال جوية بن النضر:

قالت طريفة ما تبقى دراهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق

أنا إذا اجتمعت يومًا دراهمنا ظلت إلى طرق المعروف تستبق

ما يألف الدرهم الصياح صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

حتى يصير إلى نذل يخلده يكاد من صره إياه ينمزق

باب المدح أوسع أبواب الشعر وكفى هذا القدر من مدائح الحماسة، ودونك مثال ما يسمى من الشعر بالصفات؛ وذلك لأنه يذكر شيئًا فيأخذ في متابعة أوصافه. قال البعيث الحنفي يصف ناقة:

وهاجر يشوي مهاها سمومها طبخت بها عيرانة واشتويتها

مفرجة منفوجة حضرمية مساندة سر المهارى انتقيتها

فطرت بها شجعاء قرواء جرشعًا إذا عد مجد العيس قدم بيتها

وجدت أباها رائضيها وأمها فأعطيت فيها الحكم حتى حويتها

وقال عنترة بن الأخرس يصف ثعبانًا:

لعلك تمنى من أراقم أرضنا بأرقم يسقي السم من كل منطف

تراه بأجواز الهشيم كأنما على متنه أخلاق برد مفوف

كأن بضاحي جلده وسراته ومجمع ليتيه تهاويل زخرف

كــأن مثنــى نــسعة تحــت حلقــه　　　بما قد طوى من جلده المتغضف
إذا أنسل الحيات بالصيف لم يزل　　　يــشاعر بــاقي جليــة لــم تقــرف

من استعمال جملة الرجاء في الدعاء ما في صدر هذا الشعر دعا عليه بأن يقدر له ويصاب بأرقم أو برحل يشبه ثعبانًا هذه صفته وتغضف الجلد تثنيه واستعار الأنسال الذي هو سقوط ريش الطائر لسلخ الحية، فإنه يقال: سلخت الحية إذا خلعت ثوبها وأنسل الطائر إذا سقط ريشه ويشاعر من لبس الشعار وهو الثوب الذي يلي البدن وأراد بالجلبة ثوبه ولم يقرف ولم ينقشر يصفه بصلابة جلده، وقال ملحة الجرمي يصف سحابًا:

أرقت وطال الليل للبارق الومض　　　حبيا سرى مجتاب أرض إلى أرض
نــشاوى مــن الإدلاج كــدري مزنــه　　　يقضي بجدب الأرض ما لـم يكد
تحـــن بـــأجواز الفـــلا قطراتـــه　　　كما حن نيب بعضهن إلى بعض
كــأن الــشماريخ العــلا مــن صــبيره　　　شماريخ من لبنان بالطول والعرض
يبــاري الريــاح الحــضرميات مزنــه　　　بمنهمــر الأرواق ذي قــزع رفــض
يغادر محض الماء ذو هو محضه　　　على إثره إن كان للماء من محض
يروي العروق الهامدات من البلى　　　مــن العــرفج النجــدي ذو بــاد
وبات الحبى الجون ينهض مقدما　　　كــنهض المــدانى قيــده الموعــث

البارق ذو البرق وهو عامل الحال من قوله: حبيا واجتاب الأرض وجابها قطعها بالسير ونشاوى من الإدلاح مستعار لقطع السحاب المتمايلة لثقلها بكثره مائها والكدرى أصله من صفة القطا استعاره لما في لونه كدرة من المزن الصبير السحاب الأبيض والحبى الجون السحاب الأسود أو الأبيض الذي يشبه سيره لثقله حبو الصبى، ولذلك ينهض كما

ينهض البعير المقارب قيده الذي يسير في الوعثاء وهو الرمل الذي تسوخ فيه الأقدام النقض الهزيل الضعيف، هذا ما أورد أبو تمام في باب الصفات من الحماسة، وهذا النوع كثير يقولون في تمييزه من دواوين الشعر قال يصف كذا إن كان الكلام مسوقًا للصفة وقال ووصف في هكذا كالأسد والذئب إن كانت القصيدة في نوع من أنواع المعاني واستطرد فيها بصفة ما وصف، ثم عقبه بذكر بعض ما قيل في السير والنعاس قال بعضهم:

وفتيان بنيت لهم ردائي ... على أسيافنا وعلى القسي
فظلوا لائذين به وظلت ... مطاياهم ضوارب باللحي
فلما صار نصف الليل هنا ... وهنا نصفه قسم السوي
دعوت فتى أجاب فتى دعاه ... بلبيه أشم شمردلي
فقام يصارع البردين لدنا ... يقوت العين من نوم شهي
فقاموا يرحلون منفهات ... كأن عيونها نزح الركي

وقال حندج بن حندج المري:

في ليل صول تناهى العرض ... كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به ... وإن بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال في صول تململه ... كأنه حية بالسوط مقتول
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله ... والليل قد مزقت عنه السرابيل
ليل تحير ما ينحط في جهة ... كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه ركد ليست بزائلة ... كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يدني على شحط ... من داره الحزن ممن داره صول

الله يطوي بساط الأرض بينهما حتى يرى الربع منه وهو مأهول

وقال حميد الأرقط ووصف فيها الصقر عندما جاء به التشبيه وتلك عادتهم واقتدى بهم الشعراء:

قد أغتدي والصبح محمر الطرر والليل يحدوه تباشير السحر
وفي تواليه نجوم كالشرر بسحق الميعة ميال العذر
كأنه يوم الرهان المحتضر وقد بدا أول شخص ينتظر
دون أثابي من الخيل زمر ضار غدا ينفض صئبان المطر
عن زف ملحاح بعيد المنكدر أقنى تظل طيره على حذر
يلذن منه تحت أفنان الشجر من صادق الودق طروح بالبصر
بعيد توهيم الوقاع والنظر كأنما عيناه في حرفي حجر
بين مآق لم تخرق بالإبر

طرر الشيء حافاته وسحق الميعة أي: بعيد النشاط فهو لا يفنى عن قرب ويروى مشعل الميعة أي ملتهبها والعذر خصل الشعر في نواحي الرأس والأثابي الجماعات لا واحد له وقيل: هو جمع أنبية كأمنية والضاري الجريء وصيبان المطر بفتح الصاد صائبه أو هو صئبان بكسر الصاد والهمز بعدها جمع صؤاب على التشبيه والمنكدر المهوى ومن صادق الودق أي صادق الهبوط بدل من قوله منه وبعيد توهيم الوقاع والنظر أي هو لا يلحقه وهم في نظره ولا وقوعه وقوله: لم تخرق بالإبر أي هو على وحشيته لم يأخذه الناس والصقر إذا أخذ حيصت عيناه أي: خيطتا ليأنس.

انتهى ما اخترت إثباته من هذا الباب وهاك طرفًا من باب الملح، وأراد أبو تمام بالملح الأشعار الهزلية المستطرفة قال بعضهم:

يقول لي الأمير بغير جرم تقدم حين جد بنا المراس

فما لي أن أطعتك في حياة وما لي غير هذا الرأس راس

وقالت امرأة:

فقدت الشيوخ وأشياعهم وذلك من بعض أقواليه

ترى زوجة الشيخ مغمومة وتمسي لصحبته قاليه

فلا بارك الله في عرده ولا في غضون استه الباليه

وإن دمشق وفتيانها أحب إلينا من الجاليه

نكحت المديني إذ جاءني فيا لك من نكحة غاليه

له ذفر كصنان التيو س أعيا على المسك والغاليه

وقال أبو الخندق الأسدي، وقيل: إنه لدعبل:

أعوذ بالله من ليل يقربني إلى مضاجعة كالدلك بالمسد

لقد لمست معراها فما وقعت مما لمست يدي الأعلى وتد

في كل عضو لها قرن تصك به جنب الضجيع فيضحى واهي

وقال عمر بن أبي ربيعة:

خبروها بأنني قد تزوجت فظلت تكاتم الغيظ شرا

ثم قالت لأختها ولأخرى جزعًا ليته تزوج عشرا

وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسرِّ سترا

ما لقلبي كأنه ليس مني وعظامي كأن فيهن فترا

مـن حـديث نمـا إلـيَّ فظيـع خلـت فـي القلـب مـن تلظيه جمـرا

وقال آخر:

جـزى الله عنـا ذات بعـل تـصدقت على عـزب حتـى يكـون لـه أهـل
فإنـا سـنجزيها بمـا فعلـت بنـا إذا مـا تزوجنـا ولـيس لهـا بعـل
أفيـضوا علـى عـزابكم بنـسائكم فمـا فـي كتـاب الله أن يحـرم الفـضل

وقال آخر:

وفيـشة زيـن وليـست فاضـحه نابلـة طـورًا وطـورًا رامحـه
علـى العـدو والـصديق جامحـه مـن لقيـت فهـي لـه مـصافحه
تـسد فـرج القحبـة المـسافحه مفـسدة لابـن العجـوز الـصالحه
كأنها صنجة ألف راجحه

وقال آخر:

وفيـشة كهـذي الفـيش قـد ملئـت مـن خـرق وطـيش
إذا بـدت قلـت أميـر الجـيش مـن ذاقهـا يعـرف طعـم العـيش

وقال آخر:

لا أكـتم الأسـرار لكـن أنمهـا ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي
وإن قليـل العقـل مـن بـات ليلـة تقلبـه الأسـرار جنبًـا إلـى جنـب

وأفرد أبو تمام مذمة النساء بباب جعله عاشر الأبواب؛ فمنه قال بعضهم:

دمـشق خـذيها واعلمـي أن ليلـة تمـر بعـودي نعـشها ليلـة القـدر

أكلت دمًا إن لم أرعك بضرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

وقال آخر:

سقى الله دارًا فرق الدهر بيننا ... وبينك فيها وابلًا سائل القطر

ولا ذكر الرحمن يومًا وليلة ... ملكناك فيها لم تكن ليلة البدر

وقال آخر في امرأة طلقها:

رحلت أنيسة بالطلاق ... وعتقت من رق الوثاق

بانت فلم يألم لها ... قلبي ولم تبك المآقي

ودواء ما لا تشتهيه ... النفس تعجيل الفراق

لو لم أرح بفراقها ... لا رحت نفسي بالأباق

وخصيت نفسي لا أريد ... حليلة حتى التلاقي

وقال آخر:

تمت عبيدة إلا من محاسنها ... والملح منها مكان الشمس والقمر

قال للذي عابها من عائب حنق ... أقصر فرأس الذي قد عبت للحجر

وقال آخر:

لا تنكحن عجوزًا إن أتيت بها ... واخلع ثيابك منها ممعنًا هربا

وإن أتوك فقالوا إنها نصف ... فإنا أمثل نصفيها الذي ذهبا

وقال آخر:

رقطاء حدباء يبدى الكيد مضحكها ... قنواء بالعرض والعينان بالطول

لها فبم ملتقى شد فيه نقرتها ... كأن مشفرها قد طرّ من فيل

أسنانها أضعفت في خلقها عددًا مظهرات جميعًا بالرواويل

الراوول كطاووس السنة الزائدة تنبت خلف الأصلية. وقال آخر:

ألام على بغضي لما بين حية وضبع وتمساح تغشاك من بحر
تحاكي نعيمًا زال في قبح وجهها وصفحتها لما بدت سطوة الدهر
هي الضربان في المفاصل خاليًا وشعبة برسام ضممت إلى النحر
إذا سفرت كانت بعينك سخنة وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر
وإن حدثت كانت جميع مصائب موفرة تأتي بقاصمة الظهر
حديث كقلع الضرس أو نتف وغنج كحطم الأنف عيل به صبري
وتفتر عن قلح عدمت حديثها وعن جبلي طي وعن هرمي مصر

وأنشد أبو عبيدة لأبي الغطمش الحنفي:

منيت بزنمردة كالعصا ألص وأخبث من كندش
تحب النساء وتأبى الرجا ل وتمشي مع الأخبث الأطيش
لها وجه قرد إذا ازينت ووجه كبيض القطا الأبرش
وثدي يجول على نحرها كقربة ذي الثلة المعطش
لها ركب مثل ظلف الغزال أشد اصفرارًا من المشمش

وفخذان بينهما نفنف يجيز المحامل لم تخدش
وساق مخلخلها حمشة كساق الجرادة أو أحمش
كأن التآليل في وجهها إذا سفرت بدد الكشمش
لها جمة فرعها جثلة كمثل الخوافي من المرعش

الزنمردة المرأة المتشبهة بالرجال، أصلها فارسية من كلمتين زن وهي المرأة، ومرد وهو الرجل، وكندش قيل هو لص مشهور وقيل: هو العقعق أو الفأرة لكونهما يوصفان بالسرقة والركب منبت العانة ذلك وحيث كانت العزيمة على أن أورد هنا لك طرفًا من جيد الشعر في بعض طوال قصائد لفحول من الشعراء تعين كما اقتضاه الحال أن أقدم تعريفك بما يسميه أهل الأدب فن القريض وسماه قدامة قبل نقد الشعر لتعرف ما المراد بجيد الشعر ورديئه، فتكون على بصيرة من ذلك قرأت لأبي هلال العسكري كتابه المشهور بالصناعتين؛ فوجدته رتبه عشرة أبواب:

الباب الأول في تعريف البلاغة

الباب الثاني في تمييز جيد الكلام من رديئه

الباب الثالث في معرفة صنعة الكلام

الباب الرابع في البيان عن حسن السبك وجودة الرصف

الباب الخامس في ذكر الإيجاز والإطناب

الباب السادس في حسن الأخذ وقبحه وجوده ورداءته

الباب السابع في القول في التشبيه

الباب الثامن في ذكر السجع والازدواج

الباب التاسع في شرح البديع

الباب العاشر في ذكر مقاطع الكلام ومباديه والقول في الإساءة في ذلك والإحسان، وهأنا ذا ملخص لك منه ما تقع الكفاية به في ذلك الغرض، أما البلاغة والإيجاز وما يقابله والبديع وفي ضمنه القول في المبادي والمقاطع فقدْ تقدمت، ولكن أزيدك نور بصيرة بما أثبت لك من أشياء نقلها أبو هلال في هذه الأبواب، قال في باب البلاغة بعد أن تكلم عليها وعلى الفصاحة بكلام ما سلف لك صدر المعاني أحسن منه وأضبط قد جاء عن الحكماء والعلماء في البلاغة أقوال أنا ذاكرها ومفسرها قال إسحاق بن حسان: لم يفسر أحد البلاغة تفسير ابن المقفع إذ قال: البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا، ومنها ما يكون خطبًا، وربما كانت رسائل بعامة ما يكون من هذه الأبواب، فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ والإيجاز هو البلاغة فقوله: منها ما يكون في السكوت فالسكوت يسمى بلاغة مجازًا وهو في حالة لا ينجع فيها القول ولا تنفع إقامة الحجج أما عند جاهل لا يفهم الخطاب أو عند وضيع لا يرهب الجواب أو ظالم سليط يحكم بالهوى ولا يرتدع بكلمة التقوى، وإذا كان الكلام يعرى من الخير أو يجلب الشرفا لسكوت أولى كما قال أبو العتاهية:

ما كل نطق له جواب ... جواب ما يكره السكوت

وقال معاوية لابن أوس: ابغني محدثًا قال: أو يحتاج معي إلى محدث قال: أستريح منك إليه ومنه إليك، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك وله وجه آخر وهو في كلامهم كل صامت ناطق من جهة الدلالة؛ وذلك أن دلائل الصنعة في جميع الأشياء واضحة والموعظة فيها قائمة، وقد قال الرقاشي: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجني

ثمارك، فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا، ولما مات الإسكندر وقف عليه بعض اليونانية فقال: قد طالما وعظنا هذا الشخص بكلامه وهو اليوم الساكت الواعظ بسكوته وحقًّا إنه في يومه هذا أوعظ فنظم هذا الكلام أبو العتاهية في قوله:

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وأحسن من هذا كله وأبلغ قول الله عزَّ وجلَّ: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}، وقوله تعالى: {ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة} معناه يدل على الله بصنعته وكأنه يسجد وإن لم يسجد ولم يقر بذلك، وقوله تبارك وتعالى: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال}، وقوله: وربما كانت رسائل بعامة ما يكون من هذه الأبواب معناه وربما كانت كلامًا مشتملًا على الشعر والسجع والخطبة، فالباء فيه للملابسة ثم أفرد الوحي والإشارةِ والإيجاز بالثناء لظهور بداعتها وحسن موقعها من النفوس، وحاصل كلام ابن المقفع أن لكل شيء موضعًا يكون وضع غيره فيه إساءة وقال حكيم الهند: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ويصفيها كل التصفية ويهذبها كل التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا وفيلسوفًا عليمًا، ومن تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشترك الألفاظ نظر في صناعة المنطق على جهة الصياغة والمبالغة فيها لا على جهة الاستطراف والتطرف لها قال: واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا، وتلك الحال له وفقًا ولا يكون الاسم فاضلًا ولا مقصرًا مشتركًا ولا

مضمنًا ويكون تصفحه لمصادر كلامه بقدر تصفحه لموارده ويكون لفظه موثقًا ومعناه نيرًا واضحًا ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على قدر منازلهم وأن تؤاتيه آلته وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلًا وفي حسن الظن بها مقتصدًا، فإنه إن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الأميين، وإن تجاوز بها مقدار الحق في التهمة ظلمها وأودعها ذل المظلومين فقوله: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة أي أول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان، وذلك من فعل الله عزَّ وجلَّ لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها، ومن الناس من إذا خلا بنفسه وأعمل فكره أتى بالبيان العجيب والتبيان البديع المصيب واستخرج المعنى الرائق، وجاء باللفظ الرائع وإذا حاور أو ناظر قصر وتأخر فحق هذا لا يتعرض لارتجال الخطب ولا يجاري أصحاب البداهة في ميدان القريض ويكتفي بنتائج فكره والناس في صناعة الكلام على طبقات؛ منهم من إذا حاور وناظر أبلغ وأجاد وإذا كتب وأملى أخل وتخلف، ومنهم من إذا أملى برز وإذا حاور أو كتب قصر، ومنهم من إذا كتب أحسن وإذا حاور وأملى أساء ومنهم من يحسن في جميع هذه الحالات، ومنهم من يسيء فيها كلها، فأحسن حالات المسيء الإمساك وأحسن حالات المحسن التوسط فإن الإكثار يورث الإملال، وقل ما ينجو صاحبه من الزلل والعيب والخطل، وليس ينبغي للمحسن في أحد هذه الفنون المسيء في غيرها أن يتجاوز ما هو محسن فيه إلى ما هو مسيء فيه، فإن اضطر في بعض الأحوال إلى تجاوزه فخير سبيله قصد الاختصار وتجنب الإكثار والإهذار ليقل السقط في كلامه، ولا يكثر العيب في منطقه وقيل لابن المقفع: لم لا تطيل القصائد؟ قال: لو أطلتها عرف صاحبها يريد أن المحدث يتشبه بالقديم في القليل من

الكلام فإذا طال أخل فعرف أنه كلام مولد، على أن السابق في ميادين البلاغة إذا أكثر أسقط فكيف المقصر عن غايتها والمتخلف عن أمدها، ومن تمام آلة البلاغة التوسع في معرفة العربية ووجوه الاستعمال لها والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها وجيدها ورديئها ومعرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام وقوله: وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح؛ هذا لأن الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهما سببا الارتاج والأخبال وقد بلغك ما أصاب عثمان بن عفان رضي الله عنه لما صعد المنبر فارتج عليه فقال: إن اللذين كانا قبلي كانا يعدان لهذا المقام مقالًا وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها. ثم نزل وصعد بعض العرب منبرًا بخراسان فارتج عليه فقال:

لئن لم أكن فيكم خطيبًا فإنني ... بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

ونزل.

ومن حسن الاعتذار عند الارتاج ما روي أن داود بن علي خطب فحمد الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فلما قال: أما بعد؛ امتنع عليه الكلام ثم قال: أما بعد فقد يجد المعسر ويعسر الواجد ويفل الحديد ويقطع الكليل، وإنما الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام، وقد يعزب البيان ويعتقم الصواب وإنما بضعة من الإنسان يفتر بفتوره إذا نكل ويثوب بانبساطه إذا ارتجل إلا وإنا لا ننطق بطرًا ولا نسكت حصرًا؛ بل نسكت معتبرين وننطق مرشدين ونحن بعد أمراء الكلام فينا وشجت أعراقه وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدلت ثمرته فنتخير منه ما احلولي وعذب ونطرح منه ما املولح وخبث ومن

بعد مقامنا مقام وبعد يومنا أيام يعرف فيها فضل البيان وفصل الخطاب والله أفضل مستعان. ثم نزل وعلامة سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه هدوه في كلامه وتمهله في منطقه وقال ثمامة: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس قد جمع الهدو والجزالة والتمهل والحلاوة ولو كان في الأرض ناطق يستغنى عن الإشارة لكأنه وقوله: متخير الألفاظ فمدار البلاغة على تخير اللفظ وتخير اللفظ أصعب من جمعه وتأليفه وقوله: ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة وهو أن يكون صانع الكلام قادرًا على جميع ضروبه متمكنًا من جميع فنونه لا يعتاص عليه قسم من أقسامه، فإن كان شاعرًا تصرف في وجوه الشعر مديحه وهجائه ومراثيه وصفاته ومفاخره، وغير ذلك من أصنافه ولاختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه قيل: كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب، وكذلك الكاتب ربما تقدم في ضرب من الكتابة وتأخر في غيره وسهل عليه نوع منها وعسر عليها نوع آخر وقال إبراهيم بن العباس: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرني المأمون أن أكتب إلي النواحي في الاستكثار من القناديل في المساجد فبت لا أدري كيف احتذى فأتاني آت في منامي فقال لي: قل فإن في ذلك عمارة للمساجد وإرشادًا للسابلة وإضاءة للمتهجدين ونفيًا لكامن الريب وتنزيهًا لبيوت الله من وحشة الظلم، فانتبهت وقد انفتح لي ما أريد فابتدأت بهذا وأتممت عليه والمقدم في صنعة الكلام هو المستولى عليه من جميع جهاته المتمكن من جميع أنواعه، وبهذا فضلوا جريرًا على الفرزدق وقالوا: إن في الشعر ضروبًا ما كان يعرفها الفرزدق وشاهد ذلك أنه لما ماتت زوجته النوار ناح عليها بشعر جرير:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

وكان البحتري يفضل الفرزدق على جرير ويزعم أنه يتصرف من المعاني فيما لا يتصرف فيه جرير ويورد منه في كل قصيدة خلاف ما يورده في الأخرى؛ قال وجرير يكرر في هجاء الفرزدق ذكر الزبير وجعثن والنوار وأنه قين مجاشع لا يذكر شيئًا غير هذا وسئل بعضهم عن أبي نواس ومسلم فذكر أن أبا نواس أشعر لتصرفه في وجوه الشعر وكثرة مذاهبه فيه، ومسلم جار على وتيرة ولا يتغير عنها وأبلغ من هذه المنزلة أن يكون في قوة صانع الكلام أن يأتي مرة بالجزل وأخرى بالسهل فيلين إذا شاء ويشتد إذا أراد، ومن هذا الوجه فضلوا جريرًا على الفرزق وأبا نواس على مسلم قال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

تجري السواك على أغر كأنه ... برد تحدر من متون غمام

فانظر إلى رقة هذا الكلام والفرزدق يجري على طريقة واحدة والتصرف في الوجوه أبلغ. وقال أبو نواس:

قل لذي الوجه النضير ... ولذي الردف الوثير

ولمغلاق همومي ... ولمفتاح سروري

يا قليلًا في التلاقي ... وكثيرًا في الضمير

فانظر إلى سلاسة هذا الكلام وسهولته وقال:

ما هوى إلا له سبب ... يبتدي منه وينشعب

فتنت قلبي محجبة ... بـرداء الحسن تنتقب

خليت والحسن تأخذه ... تنتقي منه وتنتخب

فانتقت منه طرائفه ... واستزادت فضل ما تهب

صار جدًا ما زحت به — رب جد ساقه اللعب

فهذا أجزل من الأول قليلًا. وقال في صفة الكلب:

أنعت كلبًا جال في رباطه — جول مصاب فرَّ من إسعاطه
عند طبيب خاف من سياطه — هجنا به وهاج من نشاطه
كالكوكب الدّرّى في انحطاطه — عند تهاوى الشدّ وانبساطه
يقحم القائد في حطاطه — وقدّه البيداء في اعتباطه
لما رأى العلهب في أقواطه — سانحة ومرّ في التباطه
كالبرق يقرى المرو بالتقاطه — مثل قلى طار في أنفاطه
وانصاع يتلوه على قطاطه — أغضف لا ييأس من خلاطه
يصيد بعد البعد وانبساطه — إن لم يبت القلب من نياطه
فلم يزل يأخذ في لطاطه — كالصقر ينقض على غطاطه
يقشر وجه الأرض من بلاطه — بأربع يذهب في إفراطه
لشدة الجرى ولاستحطاطه — ما أن تمسّ الأرض في أشواطه
قد خدشت رجلاه في آباطه — وخرق الأذنين بانتشاطه
خلج ذراعيه إلى ملاطه — ينقد عنه الصيق بانعطاطه
في هبوات الضّيق أو رياطه — فأدرك الظّبى ولم يباطه
ولف عشرين إلى أشراطه — فلم يزل يقرن في رباطه
ويخمط الشّاوون من خماطه — ويطبخ الطابخ من أسقاطه
حتى علا في الجوِ من شياطه — كداخن النفط إلى نفاطه

المصاب هاهنا المجنون وإسعاطه انشاقه السعوط لمداواته وقوله: يقحم القائد في حطاطه أي: لقوته يجذبه حتى يوقعه في حال حطه أي:

اندفاعه في العدو والاعتباط الجري على غير روية والعلهب بفتح أوله المسن من تيوس الجبل والأقواط جمع قوط بفتح أوله القطيع أو الجماعة وفي بمعنى مع والالتباط خبط الأرض في العدو ويذري المرو أي: يفرقها والقطاط ككتاب المثال ومعناه أنه يتبعه في طريقه لا يميل والأغضف مسترخي الأذنين ذاهبتين إلى خلف والغطاط كسحب القطا، والصيق بكسر أوله الغبار في الهواء والانعطاط الانشقاق والملاط العضد إلى الكتف والأشراط الأشباه والخمط الشيء، فانظر إليه كيف يتصرف بين الشدة واللين ويضع كل واحد منهما في موضعه ويستعمله في حينه، وعلى ذكر المفاضلة بين الشعراء فلا بأس أن استطرد لك هاهنا بذكر كلام رأيته في شرح ديوان أبي نواس يتضمن صفة شعراء تطلع به على ما لكل منهم في أنفس علماء عصرهم وما كان لأولئك العلماء من الفطنة والنقد وتمييزًا الأشياء والوقوف بكل عند حده وهذا نصه قال ابن دريد: سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال: إن جد أحسن وإن هزل ظرف وإن وصف بالغ يلقى الكلام على عواهنه لا يبالي من حيث أخذه، وهذه الحكاية وجدتها في أماليه في أثناء أوصاف خمسة وعشرين رجلًا من الشعراء المحدثين، أنا أحكيها على وجهها لما فيها من الفائدة قال وسألته عن بشار فقال: نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم ير كأنه قد رآه على أن في شعره خللًا كثيرًا قلت: فمروان قال: شاعر راض عن نفسه يستحسن كلما جاء منه معجب لا يرى أن أحدًا يتقدمه كثير الصواب كثير الخطأ ليس لشعره صنعة، قلت: فمسلم قال: خليج صاف بنزع من بحر كدر كالزند يورى تارة ويصلد أخرى قلت: فأبو العتاهية قال: غثاء جم واقتدار سهل وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد قلت: فابن الأحنف قال: يلقي دلوه في الدلاء فيغترف الصفو أحينًا والحمأة أحيانًا؛

على أن كدره أكثر من صفوه قلت: فسلم الخاسر قال: مقل مداح شعره ديباح وعهن يموه الرديء حتى يشبهه بالجيد قلت: فالعتابى قال: عالم بإشعار العرب محتذ على مثالهم أحيانًا وربما مال إلى تعقيد الكلام على أنه ينال مرامه من كلتى الجهتين قلت: الخزيمي قال: صنعة سهلة لا يكابر طبعه ولا يكد فكره يسوق ما انقاد له عفوًا قلت: فأشجع قال: يحسن ويسيء فصوله مختلفة إن شئت قلت مطبوع وإن شئت قلت متكلف، قلت: فأبو الشيص قال: جد كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التي نفضت ففيها المستعذب والمستبشع قلت: فعلى ابن جبلة قال: بحاث عن الكلام الفخم والمعنى الرائع لا ينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء قلت: فدعبل قال: شديد الأسر محكم الصنعة قليل الطلاوة مفحش الهجاء غير مقنع المديح قلت: فأبو تمام قال: سيل كثير الغثاء غزير الغمار جم النطاف، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال، قلت: فالحاركى قال: ظريف مقل منحل الألفاظ متعقد المعاني قلت: فأبو سعد قوصره قال: ورق ناضر وعود خوار إن حفظ لم ينفع وإن ضيع لم يضر قلت: فابن بشير قال: عذب الكلام سهله إذا أراد الشيء قدر عليه وإن اشتدت كلفته في مرامه قلت: فأبن أبي عيينة قال: أعجبه اقتداره فتجاوز مقداره على أنه إذا فخر أفلق وإذا كوى أنضج قلت: فعبد الصمد بن المعذل قال: خراج ولاج يعتسف تارة ويهتدي أخرى إن سلك سبل العرب الأول أرب وإن مال إلى طريق المولدين شاكه قلت: فعلي بن الجهم قال: كلام رصين ومسلك وعر عقله أغلب على شعره من طبعه قلت: فبكر بن النطاح قال: تشبه بالأعراب فأفرط وتجاوز حد المولدين فأسهب فهو الساقط بين القريتين قلت: فخالد النجار قال: سيء الكلام رخو النظام إن طال بلد وإن قصر أجهد قلت: فأبو دلامة قال: جد وهزل

ومجتنى ومرغوب عنه إذا قصد مرامًا تناوله غثًّا وسمينًا قلت: فأبو الشمقمق قال: هجاؤه لداغ ومديحه بلا ماء أكثره لا نفع فيه قلت: ففلان قال: كلام مؤلف تلظه أسماع الجهال وتلفظه آذان العلماء. قال ابن دريد: وذهب عني أن أسأل عن الأغرين المطبوعين السيد والنميري فقد أغفل ابن دريد استيصاف هذين الشاعرين ووقع لي وصفهما في حكايتين أخريين؛ فأما النميري فذكر إسحاق الموصلي قال: حضرت الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك وعنده منصور النميري ومسلم بن الوليد ينشدانه فالتفت إليّ وقال: يا إسحاق احكم أيهما أشعر؟ فقلت: إنه قل من حكم بين الشعراء فسلم منهم؛ ولكن إن أحب الأمير تكلفت وصف شعرهما فقال: صف فقلت: أما النميري فإن شعره حسن البناء قريب المعنى سهل كلامه صعب مرامه سليم المتون كثير العيون، وأما مسلم فإنه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين فضمنه المعاني اللطيفة وكساه الألفاظ الظريفة فله جزالة البدويين ورقة الحضريين فقال الفضل: وصفت والله فأحسنت وأوتيت الحكم فحكمت النميري أشعرهما، وأما الحكاية الأخرى فللجاحظ فصل من فصول كتبه ذكر فيه السيد الحميري وإبان بن عبد الحميد وأبا العتاهية وبشارًا وأبا نواس فقال: أما السيد الحميري فأطبع الناس على قول الشعر وأقلهم صنعة وأبعدهم من التكلف وأجدر أن ينقل جميع أحاديث الناس شعرًا سهلًا بلا تعقد ولا استكراه، وأما إبان بن عبد الحميد فلم يكن في زمانه أطبع منه ولا أسلس كلامًا ولا أسهل مخارج، وكان يقل على الثاء والذال والغين والظاء مائة قصيدة، وأما أبو العتاهية فأحسد المطبوعين وكاد كلامه يكون شعرًا على أن غزله ضعيف مشاكل لطبع النساء، وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد والشدة اثنان بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولًا ولا تعب من عمل شعر، وأبو نواس

حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إذن رجعنا إلى نقل كلام أبي هلال في شرح قول حكيم الهند قال: وقوله: ولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة؛ لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام وأحسن الذي قال: لكل مقام مقال فإذا كان موضع الكلام على طبقات الناس فليخاطب السوقي بكلام السوقي والبدوي بكلام البدوي، ولا يتجاوز به ما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتنعدم منفعة الخطاب وقوله: ولا يدقق المعاني كل التدقيق؛ لأن الغاية في تدقيق المعاني سبيل إلى تعمية المعنى وهي لكنة إلا إذا أريد به الإلغاز وكانت في تعميته فائدة مثل أبيات المعاني، وأما من أراد الإبانة في مديح أو غزل أو صفة شيء فأتى بإغلاق دل ذلك على عجزه عن الإبانة وقصوره عن الإفصاح. وقوله: ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح تنقيح اللفظ أن يبنيه بناء لا يكثر في الاستعمال فربما وقع من يقصد ذلك في إساءة يغفله عنها الاغترار بالاقتدار على ابتداع ما ليس جاريًا في كلام الناس مثل ما وقع لبعضهم في خطاب وزير حيث قال في الدعاء له: أحسن الله إثابتك فردَّ عليه الوزير في الجواب وأحسن فقال: وأنت عجل الله أمانتك. وقوله: ويصفها كل التصفية ويهذبها كل التهذيب؛ فتصفيته تعريته من الوحشي ونفي الشواغل عنه وتهذيبه تبرئته من الرديء المرذول والسوقي المردود فمن الكلام المهذب الصافي قول بعض الكتاب مثلك أوجب حقًّا لا يجب عليه وسمح بحق يجب له وقبل واضح العذر واستكثر قليل الشكر لازالت أياديك فوق شكر أوليائك ونعمة الله عليك فوق آمالهم فيك وقول أحمد بن يوسف يومنا يوم لذيذ الحواشي وطيء النواحي وهذه سماء قد تهللت بودقها وضحكت بلوامع برقها وأنت قطب السرور ونظام الأمور فلا تغب عنا فنقل ولا تفردنا

فنستوحش، فإن الحبيب يحبيبه كثير وبمساعدته جدير وقوله: ولا يفعل ذلك حتى يلاقي حكيمًا وفيلسوفًا عليمًا ومن تعود حذف فضول الكلام ومشتركات الألفاظ نظر في المنطق على جهة الصناعة فيها لأعلى جهة الاستطراف والتطرف لها يقول: ينبغي أن يتكلم بفاخر الكلام ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه عنه ويقبله منه، وأما قوله: من تعود حذف فضول الكلام هو أن يسقط من الكلام ما يكون الكلام مع إسقاطه تامًّا غير منقوص ولا يكن في زيادته فائدة سأل معاوية رجلًا عن البلاغة فقال: هي أن تقول فلا تخطئ وتسرع فلا تبطئ فقال معاوية: لو قلت هي أن لا تخطئ ولا تبطئ فحذف منه الفضل. وقوله: ومشتركات الألفاظ هو أن يريد الإبانة عن معنى فيأتى بألفاظ لا تدل عليه خاصة بل تشترك فيها معه معاني أخر فلا يعرف السامع أيها أراد، وربما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس حتى لا يوقف على معناه إلا بالتوهم، فمن الجنس الأول قول جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم ... يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فليس يدري إلى أي أفعاله أشار بقوله: فعلت ما لم أفعل أن يبكي إذا رحلوا أو يهيم على وجهه من الغم الذي لحقه أو يتبعهم إذا ساروا أو يمنعهم من المضي على عزيمة الرحيل أو يأخذ منهم شيئًا يتذكرهم به أو يدفع إليهم شيئًا يتذكرونه به أو غير ذلك مما يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبته، فلم يبين عن غرضه وأحرج السائل أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم، وليس هذا كقولهم لو رأيت عليًّا عليه السلام بين الصفين فإن إرادة البسالة والنكاية بينة وإمارة النقصان في بيت جرير واضحة فمن سمعه وإن لم يكن من أهل البلاغة يستبرده ويستغثه ويسترجح الآخر ويستجيده ومثله قول سعد بن مالك الأسدي:

فإنك لو لاقيت سعد بن مالك للاقيت منه بعض ما كان يفعل

فلم يبن بقوله: عما أراد يلقى منه أخيرًا أم شرًّا إلا أن يسمع ما قبله وما بعده فيتبين معناه، وأما في نفس البيت فلا يتبين وأقول: إن النقد على جرير في غير محله حيث كان كلامه مع نفسه وليس لأحد أن يسأله عما أراد وقصده أن يخفى مراده فذلك مقتضى الحال ومثله قول أبي تمام:

وقمنا فقلنا بعد أن أفرد الثرى به ما يقال في السحابة تقلع

وقول الناس في السحاب إذا أقلع على وجوه كثيرة فمنهم من يمدحه ومنهم من يكره إقشاعه على حسب ما كانت حالها عندهم ومواقعها منهم فلم يبين بقوله ما يقال في السحابة تقلع معنى يعتمده السامع وأين هو من قول مسلم:

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة أثني عليها السهل والأوعار

على أن المحتج له لو قال العادة في السحاب أن يحمد أثره ويثنى عليه بعده لما كان مبعدًا ولم أرد عيب أبي تمام؛ إنما أريد الأخبار عن وجه الاشتراك وذكر ما يتشعب منه ويقرب من بابه وينظر إليه من قريب أو من بعيد، وأما ما يستبهم فلا يعرف المعنى إلا بالتوهم فمثل قول أبي تمام:

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء

فوجه الاشتراك في هذا أن للجهم مذاهب كثيرة وآراء مختلفة متشعبة لم يدل فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبه به الخمر، وتنسب إليه إلا أن يتوهم المتوهم فيقول: إنما أراد كذا وكذا من مذاهب جهم من غير أن يدل الكلام منه على شيء بعينه ولا يعرف معنى قوله قد

لقبوها جوهر الأشياء بالتوهم أيضًا ومن الكلام الخالي من الاشتراك كلام بعضهم لأخ له أراد فراقه لما تصفحت أخلاقك فوجدتها مباينة لشاكلتي زائغة عن قصد طريقي صبرت عليها رياضة لنفسي على الصبر لمساوي أخلاق المعاشرين، ولعلمي بكامن العدوان في العالمين والذي رجوت من مروءة خصالك بما أقابلها من التجاوز فأسحب في سوء آثارها أذيال التغاضي رأيت ذلك لا يقوم اعوجاج مذاهبك ولا يعطف بك الرأي على رشدك، فلما فنيت حيلتي فيك وانقطعت أسباب أملي منك ورأيت الداء لا يزيد على التعهد إلا فسادًا والخرق على الترقيع إلا اتساعًا قدمت اليأس منك على الرجاء فيك واحتسبت أيامي السالفة في استصلاحي لك. أقول: والاحتراز عن المشترك أمر مهم محتاج لدقة نظر وإطالة فكر حتى يأخذ بجميع موارد الانتقاد ويضرب دونها بالإسداد فيسلم مما وقع فيه كثير من فحول الشعراء وتستبين ذلك مما أحكيه لك يحكى أن جريرًا قدم المدينة مرة وشاعرها يومئذ الأحوص فاجتمع الناس لتعظيم جرير إذ كان من أكابر الشعر ذلك العصر ولم ير من الأحوص ما يرضيه، فأراد أن يطأطأ منه ويحط من كبره فقال له: يا أحوص أنت القائل

يقــر بعينــي مــا يقــر بعينهــا وأحسن شيء ما به العين قرت

فقال: نعم يرى أنه استحسنه وأنه سيثني عليه فكان الأمر على خلاف ذلك وقابله من البيت بدامغة فقال له: إنه يقر بعينها أن يدخل فيها مثل ذراع البكر أفيقر بعينك ذلك فخجل الأحوص ولم يقابله بعد، وإن الفرزدق لما قال يفتخر:

إذا نحن سرنا سارت الناس خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

قال بعض أهل عصره: ذلك وقومه أدلاء ركبان وإن ابن هرمة لما قال في التمدح بالكرم:

ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي تنزل القدر

قالت امرأته: لأنها نار الجار وقدره. ولما قال المتنبي في صفة جسمه بالنحول على عادة العشاق:

أبلى الهوى أسفًا يوم النوى بدني وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولًا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

قال عصريه الرمادي شاعر الأندلس: لم يزد أن جعل نفسه ضرطة يسمع صوتها ولا يرى لها شخص فاتفق أن قال الرمادي في غزل قصيدة:

في أي جارحة أصون معذبي سلمت من التجريح والتنكيل

فقال المتنبي يصونه في استه ولكن لم يبلغ من الرمادي بهذا الانتقاد ما بلغه منه، وهذا النوع من الانتقاد هو الذي يسميه ظرفاء أهل مصر بالتنكيب ولهم فيه غرائب وعلى من يحب تربية ذوقه وإيقاظ فكره أن يعاشرهم ويستفيد ذلك منهم، فالعاقل يخرج من الهزل إلى الجد ويحصل من صغار الأمور على كبارها رجعنا إلى كلام أبي هلال قال: وقوله: وحق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا أي اللفظ بقدر المعنى غير زائد عليه ولا ناقص عنه وكأن ذلك من قول امرئ القيس:

طبق الأرض تحرى وتدر

أي: هو على الأرض كالطبق على الإناء لا ينقص منه شيء قول امرئ القيس هذا في صفة المطر والبيت:

ديمـــة هطـــلاء فيهـــا وطـــف طبـــق الأرض تحـــرى وتـــدر

وقوله: ولا يكون الاسم فاضلًا ولا مقصر أمثال الفاضل من اللفظ عن المعنى قول عروة ابن أذينة:

واسـق العـدو بكأسـه واعلـم لـه بالغيـب أن قـد كـان قبـل سـقاكها

واجـز الكرامـة مـن تـرى أن لولـه يومًـا بـذلت كرامـة لجزاكهـا

ومعنى هذا الكلام محصور تحت ثلاث كلمات أن اجز كلا بفعله وكان السكوت لعروة خيرًا منه. ومن الكلام الفاضل لفظه عن معناه قول أبي العيال الهذلي:

ذكـــرت أخـــي فعـــادوني صـــداع الـــرأس والوصـــب

فذكر الرأس مع الصداع فضل، وقول أوس بن حجر:

وهـــم لمقـــل المـــال أولاد علـــة وإن كان محضًا في العمومة مخولا

فقوله: المال مع المقل فضلة يعني أن المقل والمكثر معناهما في الاستعمال الفقير والغنى وأولاد علة هم الأولاد لأمهات شتى وهم غالبًا أعداء لبعضهم، فمعنى الكلام أن الناس أعداء الفقير والمقصر من الكلام ما لا ينبئك عن معناه عند سماعك إياه ويحوجك إلى شرح كبيت الحارث بن حلزة:

والعـــيش خيـــر فـــي ظـــلا ل النـــوك ممـــن عـــاش كـــدا

معناه والعيش في ظلال الحماقة وهو العيش الرخي خير من عيش العقلاء وهو العيش الشديد ذلك حسبما هو دائر بين الناس من أن الدنيا لا تزال مع الحمقا والعاقل محروم منها، وللناس في ذلك كلام كثير.
وقوله: ولا مضمنا التضمين أن يكون الفصل الأول مفتقرًا إلى الفصل الثاني، والبيت الأول محتاجًا إلى الأخير كقول الشاعر:

كان القلب ليلة قيل يغدى بليلي العامرية أو يراح
قصاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فلم يتم المعنى إلا في البيت الثاني وهو قبيح، ومثاله من نثر الكتاب قول بعضهم: وجعل سيدنا أخذًا من كل ما دعى به أو يدعى في الأعياد بأجزل الأقسام وأوفر الأعداد. وقال بعض الحكماء: البلاغة قول يسير يشتمل على معنى خطير، وهذا مثل قول الآخر البلاغة علم كثير في قول يسير ومثاله قول الأعرابي وقد سئل عن مال يسوقه لمن هو فقال: لله في يدي فأي شيء لم يدخل تحت هذا الكلام القليل من الفوائد الخطيرة والحكم البارعة الجسيمة، وقال الله عزَّ وجلَّ: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} فدخل تحت قوله: {فهو حسبه} من المعاني ما يطول شرحه من إيتاء ما يرجى وكفاية ما يخشى، وهذا مثل قوله عزَّ وجلَّ: {وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين}. وسئل بعض الأوائل عن سبب موت أخيه فقال: كونه -أي سبب موته كونه- أي وجوده بحسب استعداده وطبيعة خلقته وقد تنازع الناس في هذا المعنى أخبرنا أبو أحمد قال: أنبأنا أبو بكر بن دريد عن الرياشي قال: قيل لأعرابي: كيف حالك؟ فقال: ما حال من يفنى ببقائه ويسقم بسلامته ويؤتى من مأمنه، وأخبرنا أبو أحمد قال: أنبأنا محمد بن يحيى قال: حدثنا القلابي قال: حدثنا ابن عائشة قال: قلت لأبي: حدثني حماد بن سلمة عن حميد بن ثابت عن أنس والحسن أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كفى بالسلامة داء». قال: يا بني، لا أراه إلا مسندًا، وقد قال حميد بن ثور:

أرى بصري قد رابني بعد صحة ... وحسبك داء أن تصح وتسقما

وقال الآخر:

كانت قناتي لا تلين لغامز ... فألانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربي بالسلامة دائمًا ... ليصحني فإذا السلامة داء

وأول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب في الجاهلية:

يود الفتى طول السلامة والغنى ... فكيف ترى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام ويحمل

وقال آخر:

ما حال من آفته بقاؤه ... نغص عيشي كله فناؤه

وقال ابن الرومي:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... إذا زال عن عين البصير غطاؤها

وكيف بقاء النفس فيها وإنما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

ولبعض المتأخرين في هذا المعنى شعر حسن لا بأس بإثباته مع ما أثبت أبو هلال وهو:

صحة المرء للسقام طريق ... وطريق الغناء هذا البقاء

بالذي تغتذي نموت ونحيا ... أقتل الداء للنفوس الدواء

ما لقينا من غدر دنيا فلا كا ... نت ولا كان أخذها والعطاء

جودها راجع إليها فمهما ... يهب الصبح يسترد المساء

صلف تحت راعد وشراب كرعت فيه مومس خرقاء
ليت شعري حلم تمر به الأيام أم ليس تعقل الأشياء
قبح الله لذة لشقانا نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقـ ـد فإيجادنا علينا بلاء

ولبعضهم البلاغة حسن الاقتضاب عند البديهة والغزارة عند الإطالة والاقتضاب أخذ القليل من الكثير، وأصله من قولهم: اقتضبت الغصن إذا قطعته من شجرته فمن البديهة الحسنة ما أخبرنا به أبو أحمد قال: أخبرنا إبراهيم بن أحمد الشطبي قال: حدثني أحمد بن يحيى قال: دخل المأمون ديوان الخراج فمر بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين الناشئ في دولتك وخريج أدبك والمتقلب في نعمتك الحسن بن رجاء فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ثم أمر برفع رتبته وإعطائه مائتي ألف درهم ومن الاقتضاب الجيد ما ورد في خبر عن أبي عبيدة قال: استفتحت غلامين في الصبا فزكنت منهما بلوغ الغاية، فجاء كما زكنت بلغني أن النظام يتعاطى علم الكلام فمر بي وهو غلام على حمار يطير به فقلت: يا غلام ما عيب الزجاج؟ فقال: سريع الكسر بطيء الجبر. وبلغني أن أبا نواس يتعاطى قرض الشعر فلقيني وهو سكران يومًا وما طر شاربه بعد فقلت: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل جامد النسيم فقلت: زد فقال: مظلم الهواء منتن الفناء فقلت: زد فقال: غليظ الطبع بغيض الشكل قلت: زد قال: وخم الطلعة عسر القلعة قلت: زد قال: نابي الجنبات بارد الحركات ثم قلت: حسبك فقال: زدني سؤالًا أزدك جوابًا فقلت: كفى من القلادة ما أحاط بالعنق ومن جيد البديهة ما كان من يحيى بن أكثم وقد قال له

المأمون: صف لي حالي عند الناس فقال: يا أمير المؤمنين قد انقادت لك الأمور بأزمتها وملكتك الأمة فضول أعنتها بالرغبة إليك والمحبة لك والرفق منك بهم ومنك عليهم، فالحمد لله الذي جمع بك بعد التقاطع ورفعنا في دولتك بعد التواضع فقال: يا يحيى تحبيرًا أم ارتجالًا؟ قال: وهل يمتنع فيك وصف أو يتعذر على مادحك قول أو يفحم فيك شاعر أو يتلجلج فيك خطيب ومن حسن البديهة ما يحكى أنه قدم للمهدي رجل من خراسان فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين إنا قوم نأينا عن العرب وشغلتنا الحروب عن الخطب وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا وما فيه مصلحتنا، فيكتفي منا باليسير عن الكثير ويقتصر على ما في الضمير، ومن حسن البديهة ما تسمعه فيما يحكى أن أعرابيًا دخل على المنصور فتكلم فأعجب بكلامه فقال له: سل حاجتك فقال: يبقيك الله ويزد في سلطانك فقال: سل حاجتك فليس في كل وقت يؤمر بذلك فقال: ولم يا أمير المؤمنين؟ فوالله يا أمير المؤمنين ما استقصر عمرك ولا أخاف بخلك ولا أغتنم مالك، وإن سؤالك لشرف وإن عطاءك لزين وما بامرئ بذل وجهه لك نقص ولا شين أخذ المعنى الأخير من قول أمية بن أبي الصلت في عبد الله بن جدعان:

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ... بسبب وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرئ بذل وجهه ... إليك كما بعض السؤال يشين

وقال جعفر بن يحيى: البلاغة أن يكون الاسم يحبط بمعناك ويجلى عن مغزاك ويخرجه من الشركة ولا يستعين عليه بطول الفكر ويكون سليمًا من التكلف بعيدًا من سوء الصنعة بريئًا من التعقيد غنيًا عن التأمل. قوله: أن يكون الاسم يحيط بمعناك فالاسم هاهنا للفظ أي يحصر اللفظ جميع المعنى ويشتمل عليه فلا يشذ منه شيء يحتاج إلى أن يعرف بشرح

أو بتفسير فإذا سمعت اللفظ عرفت أقصى المعنى، وهذا مثل قول الآخر البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر، ولا يكون الكلام بليغًا مع ذلك حتى يعرى من العيب ويتضمن الجزالة والسهولة وجودة الصنعة فيما ذكرنا، ومثال ذلك ما كتب بعضهم إلى أخ له، أما بعد فإن المرء يسره درك ما لم يكن ليحرمه ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير وأسفك على ما فاتك من بر وقول أعرابي لابنه: يا بني إن الدنيا تسعى على من يسعى لها، فالهرب قبل العطب فقد آذنتك بدين وانطوت لك على حين. وقال الشاعر:

حلال لليلى أن يروح فؤاده ... بهجر ومغفور لليلى ذنوبها
تطلع من نفسي إليك نوازع ... عوارف أن اليأس منك نصيبها
وزالت زوال الشمس عن مستقرها ... فمن مخبري في أي أرض غروبها

وقال آخر:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا ... سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
أجل صدق الواشون أنت حبيبة ... إليَّ وإن لم تصف منك الخلائق

وقوله: ويجلى عن مغزاك أي يوضح مقصدك ويبين للسامع مرادك ينهى عن التعمية والإغلاق وقوله: ويخرجه من الشركة فقد مضى تفسيره وقوله: ولا يستعين عليه بطول الفكرة هذا لأن الكلام إذ انقطعت أجزاؤه ولم تتصل فصوله ذهب رونقه وغاض ماؤه؛ وإنما رونق الكلام إذا جرى جريان السيل وانصب انصباب القطر. وقال ثمامة: ما رأيت أحدًا إذا تكلم لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يترقب لفظًا استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد اعتاص عليه بعد طلبه إلا جعفر بن يحيى فمن الكلام الجاري مجرى السيل قول بعض العرب

لبعض ملوك بني أمية: أقطعت فلانًا أرضًا وسط حلتنا وسوء خطتنا ومركز رماحنا ومنزل لقاحنا ومخرج نسائنا ومتقلب آبائنا ومسرح شبابنا ومصبحنا في صيفنا فقال: تكفون وعوضه عنها وردها عليهم ويروى أن الإمام أبا محمد الحسن ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله وسلامه عليهما خطب فقال: اعلموا أن الحلم زين والوقار مروءة والصلف نقمة والإكثار صلف والعجلة سفه والسفه ضعف والقلق ورطة ومجالسة أهل الدناءة شين ومخالطة أهل الفسوق ريبة. فهذه هي البلاغة التامة والبيان الكامل وكما قال بعضهم: البلاغة صواب في سرعة جواب والعي إكثار في إهذار وإبطاء في دقة أخطاء. وقال بعضهم: لست ممن يتوهم بجهله ويظن بقلة عقله أن الديانة والأمانة والنزاهة والصيانة إنما هي في تشمير ثوبه وإحفاء شاربه وكشفه عن ساقه وزهوه بإطماره وإنعال خفه وترقيع ثوبه وإظهار سجادته وتعليق سبحته وخفض صوته وخضوع جسمه دون قلبه واختلاس مشيه وخفة وطئه بين قومه ولا يرتشي في حكمه ويأخذ على علمه ويطلب الدنيا بدينه ولا يرفع طرفه من عظمته وكبريائه، ولا يكلم الناس من تصنعه وريائه. فهذا الكلام وأمثاله في طول النفس يدل على ا قتدار المتكلم وفضل قوته في التصرف. وقوله: ويكون سليمًا من التكلف فالتكلف طلب الشيء بصعوبة للجهل في طلبه بالسهولة فالكلام إذا جمع بتعب وجهد ونبو وأتت ألفاظه من بعد فهو متكلف مثاله قول بعضهم في دعائه: اللهم ربنا وإلهنا صل على محمد نبينا ومن أراد بنا سوأ فاحطط ذلك السوء به وأرسخه به كرسوخ السجيل على أصحاب الفيل، وانصرنا على كل باغ وحسود كما انتصرت لناقة ثمود. وقوله: بريئًا من سوء الصنعة فسوء الصنعة يتصرف على وجوه منها سوء التقسيم وفساده وقبح الاستعارة والتطبيق وفساد النسيج والسبك إلى

غير ذلك مما سينبهك عليه لاحق الكلام. وروي أنه قال: بريئًا من الصنعة فالصنعة النقصان من غاية الجودة والقصور عن جد الإحسان، ويحكى أن النابغة لما دخل المدينة شرب وغناه المغني قصيدته:

أمـــن آل ميـــة رائـــح أو مغتـــد عجـــلان ذا زاد وغيـــر مـــزود

وحركة رويها الكسرة فلما سمع ويـــداك خبرنـــا الغـــراب الأســـود

وقوله:

عنم يكاد من اللطافة يعقد

استنكر ذلك وخرج من المدينة وهو يقول: دخلت المدينة فوجدت في شعري صنعة فخرجت منها وأنا أشعر اناس. وقوله: فيه صنعة هو كقول الصانع إذا لم يتمم عمله في شيء هذا الشيء لم يزل فيه شغل أي: هو محتاج لأن يصنع حتى يتم ويبلغ أحسن أحواله مثلًا أحسن أحوال القصيدة أن تكون أبياتها جميعها متفقة الروي فقصيدة النابغة المذكورة محتاجة لتغيير تركيب البيتين حتى يوافق رويهما بقية القصيدة يقال: إنه غير قوله:

وبذاك خبرنا الغراب الأسود

إلى:

وبذاك تنعاب الغراب الأسود

وهو فرار من عيب لأشد منه فإنك تقارن بين خبرنا وتنعاب فتجد الأولى صادرة عن مصدر شعر، والثانية لم تجيء إلا بالبحث والتكلف لها وقهرها في وضعها بغير مقرها، وحكى أنه كان ابن الأعرابي يأمر بكتب

جميع ما يجرى في مجالسه فأنشده رجل يومًا أرجوزة أبي تمام في وصف السحاب على أنها لبعض العرب:

سارية لم تكتحل بغمض كدراء ذات هطلان محض

موقورة من خلة وحمض تمضي وتبقى نعمًا لا تمضي

قضت بها السماء حق الأرض

فقال ابن الأعرابي: اكتبوها فلما كتبوها قيل: إنها لحبيب بن أوس فقال: خرق خرق لا جرم أن أثر الصنعة فيها بين وقال الفرزدق: إن للقصائد مصنعًا أي معابًا ومنقصة وقوله: بعيد من التعقيد فالتعقيد الإغلاق وهو استعمال الوحشي وتعليق الكلام بعضه ببعض حتى يستبهم المعنى، فمن أمثلة ذلك ما يحكى أن رجلًا مرضت أمه فكتب رقاعًا وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام يطلب فيها أن يدعو الناس لأمه وهذا ما كتب فيها صين امرؤ دعا لامرأة مقسبنة فقد منيت بأكل الطرموق فأصابها من أجله الاستمصال أن يمن الله عليها أباطر غشاش وأبر غشاش الطرموق الخفاش والاستمصال الإسهال واطرغش وابرغش إذا أبل وبرأ فكان كل من قرأ رقعة بالغ في لعنه ولعن أمه والتعليق كقول أبي تمام:

جاري إليه البين وصل خريدة ماشت إليه المطل مشي الأكبد

يا يوم شرد يوم لهوى لهوه بصبابتي وأذل عز تجلدي

يوم أفاض جوى أغاض تعزيا خاض الهوى بحري حجاه المزبد

وقوله:

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى امرؤ يرجوك إلا بالرضى

وقول المتنبي:

من يهتدي في الفعل ما لا يهتدي   في القول حتى يفعل الشعراء

ويلغنا أن إسحاق.بن إبراهيم كان ينشد مثل هذا عند الحسن بن وهب فكان يقول له: يا هذا إنك تشدد على نفسك فكل ما كان من الكلام بهذه المثابة كان مذمومًا مردودًا وكان السكوت خيرًا منه وقوله: غنيمًا عن التأمل أي: هو مستغن لوضوحه عن تأمل معانيه وترديد النظر فيه كقول بعضهم لصديق له: وجدت المودة منقطعة ما دامت الحشمة عليها مسلطة ولا يزول سلطان الحشمة إلا بملكة المؤانسة. ومما يؤيد ما قلناه قول الجاحظ: من أعاره الله عزَّ وجلَّ من معونته نصيبًا وأفرغ عليه من محبته ذنوبًا حبب إليه المعاني وسلسل له نظام اللفظ وكان قد أعفى المستمع من كد التلطف وأراح قارئ الكتاب من الفهم معناه أنه يعفيه ويريحه من تعب أن يتطلب المراد بشدة النظر وكثرة التأمل حتى يعثر عليه، ولبعضهم: البلاغة التقريب من المعنى البعيد والتباعد من حشو الكلام وذلك بالقصد إلى الإيجاز في صواب والحجة وحسن الاستعارة ومثله قول آخر: البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب وتقريب المعنى البعيد بأن يعمد إلى المعنى اللطيف فيكشفه وينفي الشواغل عنه فيفهمه السامع من غير فكر فيه وتدبر له. مثل قول الأول في امرأة:

لم ندر ما الدنيا وما طيبها   وحسنها حتى رأيناها

أنك لو أبصرتها ساعة   أجللتها أن تتمناها

وقول بعضهم لملك من الملوك: أما التعجب من مناقبك فقد نسخه تواترها فصارت كالشيء القديم الذي قد أنس به لا كالشيء البديع الذي يتعجب منه، ومن هذا أخذ أبو تمام قوله:

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وقول آخر لبعض الملوك أيضًا: أخلاقك تجعل العدو صديقًا وأحكامك تجعل الصديق عدوًّا وقال بعض القدماء لكل جليلة دقيقة ودقيقة الموت الهجر. قال أبو هلال:

وقلت اسم التفرق بين لكن معناه موت
وجدانا كل شيء إذا تباعدت فوت

وقوله: والتباعد من حشو الكلام فالحشو يكون على ثلاثة أضرب اثنان منها مذمومان وواحد محمود فأحد المذمومين هو إدخالك في الكلام لفظًا لو أسقطته لكان الكلام تامًّا مثل قول الشاعر:

أبغي فتى لم تذر الشمس طالعة يومًا من الدهر إلا ضر أو نفعا

فقوله يومًا من الدهر حشوًا لا يحتاج إليه، وقول بعض بني عبس:

أبعد بني بكر أؤمل مقبلًا من العيش أو آسي على أثر مدبر
وليس وراء الصبر شيء يرده عليك إذا ولى سوى الصبر فاصبر
أولاك بنو خير وشر كليهما ومعرفة أني أريد ومنكر

قوله: أريد زيادة وحشو وقوله: كليهما يكاد يكون حشوًا، وكذلك قوله: إذا ولى والضرب الآخر العبارة عن المعنى بكلام طويل لا فائدة في طوله، ويمكن أن يعبر عنه بأقصر منه مثل قول النابغة:

تبينت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

كان ينبغي لسبعة أعوام ثم يتمم البيت بما فيه فائدة قلت: والذي أحوج النابغة لذلك أن العام السابع لم يتم، وأما الضرب المحمود فكقول كثير:

لو أن الباخلين وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا

قوله: وأنت منهم حشوًا لا أنه مليح وهذا ما يسمى في البديع اعتراضًا. ومن الكلام الذي لا حشو فيه قول صبرة بن سليمان حين دخل على معاوية مع الوفود فتكلموا فأكثروا فقال صبرة: يا أمير المؤمنين أناحي فعال وأسناحي مقال ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم قال معاوية: صدقت ومن هذا قول الشاعر:

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وكتب رجل لأخ له: ثقتي بكرمك تمنع من اقتضائك وعلمي بشغلك يحدو على أذكارك ولآخر في الناس طبائع سيئة فارتبط بمن رجحت محاسنه. وقال الحسن رضوان الله عليه: نعم الله على العبد أكثر من أن تشكر إلا أن يعان عليها وذنوبه أكثر من أن يسلم إلا أن يعفى له عنها. قيل: ومن البلاغة قرب المأخذ وهو تناول المعنى من قريب دون كد له وتعمل في تحصيله وفي ذلك غرائب كالاتفاقيات يحكى أن الرشيد قال ليلة وهو في ندمائه: قد طلعت الثريا فقال واحد منهم: كأنها عقد ريا وقال رجل: برد الماء وطابا فقال آخر: حبذا الماء شرابًا. وطال وقوف بشار بباب يعقوب فأنشد:

طال الثواء على رسول المنزل فرفع ليعقوب فقال

فإذا تشاء أبا معاذ فادخل

ومن قرب المأخذ أن الجاحظ أوغيره قال للجماز: أنا أريد أن أنظر إلى الشيطان فقال: انظر في المرآة وقال بعض الولاة لأعرابي: قل الحق وإلا أوجعتك ضربًا فقال: وأنت فاعمل به فوالله لما أوعدك الله به منه أعظم مما أوعدتني به منك. ومنه أن المأمون قال لأم الفضل بن سهل بعد قتله إياه: أتجزعين ولك ولد مثلي؟ فقالت: وكيف لا أجزع على ولد أفادنيك وكانت أمه من الرضاعة ولأبي حنيفة إذا أتتك معضلة فاجعل جوابها منها. ومن ذلك ما يحكى أن عبد الملك دعا يومًا بالغداء وبحضرته رجال فدعاه إلى غدائه فقال: ليس بي غداء قد تغديت يا أمير المؤمنين فقال عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه فضل للطعام! فقال: يا أمير المؤمنين في فضل ولكن أكره أن آكل فأصير إلى ما أستقبحه أمير المؤمنين. وقال محمد بن علي عليهما السلام: البلاغة قول يفقه في لطف وفقه القول فهم حقيقته واللطيف من الكلام ما تعطف به القلوب النافرة وتؤنس به الأفئدة المستوحشة وتلين به العريكة الأبية المستصعبة وتبلغ به الحاجة وتقيم به الحجة فتلخص نفسك من العيب وتلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتقلقه وتستدعى غضبه وتستبين حفيظته كقول بعض الكتاب لأخ له: أنفذ إليَّ أبو فلان كتابًا منك فيه درة من عتاب كان أحلى عندي من تعريسة الفجر وألذ من الزلال العذب، ولك العتبى داعيًا مستجابا له وعاتبًا معتذرًا إليه، ولو شئت مع هذا أن أقول: إن العتب عليك أوجب والاعتذار إليك ألزم لفعلت ولكني أسامحك ولا أشاحك وأسلم إليك ولا أرادك؛ لأن أفعالك عندي مرضية وشيمك لدي مقبولة، ولولا أن للحجة موقعها لأعرضت عما أومات إليه وما عرضت مما بدأت وقلت:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون نأتيكم فتعتذر

فانظر كيف خلص نفسه من الجرم وأوجبه لصاحبه في ألطف وجه وألين مس، ومن الكلام الذي يعطف القلوب النافرة قول آخر لأخيه: زين الله ألفتنا بمعاودة صلتك واجتماعنا بترادف زيارتك وأيامنا الموحشة بغيبتك برؤيتك توعذتني بالانتقام على أخلالي بمطالعتك وصنتني من عقوبتك على ما ابتدأت به من عدم مشاهدتك. وقال علي كرم الله وجهه: البلاغة إيضاح الملبسات وكشف عوار الجهالات وتستبين ذلك فيما يحكى عن المأمون وقد أحضر رجلًا ارتد إلى النصرانية بعد الإسلام فقال له: ما أوحشك من الإسلام؟ فقال: كثرة الاختلاف فيكم فقال المأمون: أما اختلافنا فمنه ما يكون كاختلافنا في الآذان وتكبير الجنائز والتشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القرآن واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك ليس هذا باختلاف؛ وإنما ذلك توسعة وتخفيف من المحنة ومنه ما يكون كاختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الخبر عن نبينا مع اجتماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذي أوحشك هو هذا حتى أنكرت هذا الكتاب فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقًا على تأويله كما يكون متفقًا على تنزيله، ولا يكون بين النصارى اختلاف في شيء من التأويلات ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله كلا ما لا يحتاج إلى التفسير لفعل؛ ولكنا لم نر شيئًا من الدهر والدنيا دفع إلينا على الكفاية ولو كان الأمر كذلك لسطعت المحنة والبلوى وذهبت السابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل، وليس على هذا بنى الله الدنيا فقال المرتد: إنك أمير المؤمنين حقًا. وقال ابن المقفع: البلاغة كشف ما غمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل والذي قاله أمر صحيح ولا يخفى موضع الصواب فيه على أحد من أهل التمييز والتحصيل؛ وذلك أن الأمر الصحيح الثابت المكشوف

ينادي على نفسه بالصحة ولا يحوج إلى التكلف لصحبته حتى يوجد المعنى فيه خطيب وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن وتصحيح ما ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتخبيل ونوع من العلل والمعاريض والمعاذير ليخفى موضع الإساءة ويغمض موضع التقصير، وما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس عند اعتذاره من هزيمة أو حاجته إلى تغيير رسم أو رفع منزلة دنيء له فيه هوى أو حط منزلة شريف استحق ذلك منه إلى غير هذا من عوارض أموره، فأعلى رتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود والمحمود حتى يصيره في منزلة المذموم وقد ذم عبد الملك بن صالح المشورة وهي ممدوحة بكل لسان فقال: ما استشرت أحدًا إلا تكبر عليَّ وتصاغرت له ودخلته العزة ودخلتني الذلة، فعليك بالاستبداد فإن صاحبه جليل مهيب في الصدور، فإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون فتضعضع شأنك ورجفت بك أركانك واستحقرك الصغير واستخفك الكبير، وما عز سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه ونصحائه. قلت: عبد الملك هذا أحد عقلاء بني العباس وبلغائهم وكان خليفة وقته هارون منحرفًا عنه جدًّا لكثرة سعي بغضائه به وتفهيم الخليفة أنه في عزيمة أن يتغلب على الملك وأنه بقوة بلاغته وحسن تصرفه في العقول قد وجد الأسباب الموصلة إلى هذا الغرض، وكأنه قد لحقه عنده شؤم هذا الاسم الأموي فكان يحبسه ثم يحتج عن نفسه ويثبت براءته مما رمى به فيطلقه. ويروى أنه قال له مرة وفيه شاهد على ما نحن فيه: بلغني أن فيك حقدًا، فقال له: يا أمير المؤمنين إن كان الحقد بقاء الخير والشر في قلبي لفاعليهما فأنا حقود. فقال هارون: ما سمعت مثل احتجاجك للحقد يعني من المسلم الذي لا ينبغي أن ينازع فيه حسن تذكر الإنسان ما صنع به من خير ليكافأ عليه بما

أمكنه أو شر ليحترس من مثله ويجازي به أن اقتضت ضرورة ذلك. ومدح بعضهم الموت فقال:

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا   في الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان لقائه بلقائه   وفراق كل معاشر لا ينصف

وذلك باب واسع يرد عليك منه إن شاء الله تعالى وللناس فيه موضوعات ضمنوها شعرًا ونثرًا في مدح الشيء وذمه كالتحف والظرف لأبي منصور عبد الملك الثعالبي صاحب يتيمة الدهر.

انتهى ما أردت نقله من باب البلاغة، وهأنا مثبت لك من باب الإيجاز وما يقابله ما تتبين به حق التبين موضع كل منها والحجة لحسن كل واحد في موضعه، فمن الكلام الدال على حسن الإيجاز واختيار أهل البلاغة له ما نقله أبو هلال رحمه الله حيث قال: قال أصحاب الإيجاز: الإيجاز هو البلاغة وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والحصر وهما من أعظم أدواء الكلام وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا وقال بعضهم: الزيادة في الجد نقصان وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإن له فهامًا وللإطالة استبهامًا. وقال شبيب بن شبة: قليل كاف خير من كثير شاف. وقال آخر: إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلف ولا خير في شيء يأتي به التكلف وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز. قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعد. وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا يقول لرجل: كفاك الله ما أهمك. فقال: «هذه البلاغة». وسمع آخر يقول: عصمك الله من المكاره فقال: «هذه البلاغة». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أوتيت جوامع الكلم». وقيل لبعضهم: لم لا تطيل الشعر؟ قال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل لآخر: لم لا تطيل شعرك؟ فقال: لست أبيعه مذارعة. وقيل للفرزدق: ما صيرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟ قال: لأني رأيتها في القلوب أوقع وفي المحافل أجول. وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ قال: لأنها في الآذان أجول وبالإقبال أخلق. وقال أبو سفيان لابن الزبعري: قصرت في شعرك! قال: حسبك من الشعر غرة لائحة وسمة واضحة. وقيل للنابغة الذبياني: لم لا تطيل القصائد كما أطال صاحبك ابن حجر؟ فقال: من انتخل أسفر. وقيل لبعض المحدثين: ما لك لا تزيد على أربعة واثنين؟ فقال: هي بالقلوب أوقع وإلى الحفظ أسرع وبالألسن أعلق وللمعاني أجمع وصاحبها أبلغ وأوجز. وقيل لابن حازم: ألا تطيل القصائد؟ فقال:

أبى لي أن أطيل الشعر قصدي ... إلى المعنى وعلمي بالصواب
وإنجازي لمختصر قريب ... حذفت به الفضول من الجواب
فأبعثهن أربعة وخمسًا ... مثقفة بألفاظ عذاب
خوالد ما حدا ليل نهارا ... وما حسن الصبا بأخ الشباب
وكن إذا رسمن مسافرات ... تهاداها الرواة مع الركاب

وقال أمير المؤمنين علي رضوان الله وسلامه عليه: ما رأيت بليغًا قط إلا وله في اللفظ إيجاز وفي المعاني إطالة. وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيب غير أنك كثير الكلام، قال: أفتسمعون صوابًا أم خطأ فالوابل صوابًا قال: فالزيادة من الحير خير وليس كما قال لأن للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال وصار سببًا للملال فذلك الهذر والإسهاب والخطل وهو معيب

عند كل لبيب. وقال بعضهم: البلاغة بالإيجاز أنجع من البيان بالإطناب وقالوا: المكثار كحاطب الليل وقيل لبعضهم: من أبلغ الناس؟ قال: من جلا المعنى المتين باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزيز مأخوذ من كلام معاوية وهو قوله لعمرو بن العاص لما أقبل أبو موسى: يا عمرو إنه قد ضم إليك رجل قصير اللسان طويل الرأي والعرفان فأقلل الحز وطبق المفصل ولا تلقه بكل رأيك. فقال عمرو: أكثر من الطعام ما بطن قوم إلا فقدوا بعض عقولهم.

ثم أورد أبو هلال بعد هذا الكلام أمثلة للإيجاز منها قوله تعالى: {ولكم في القصاص حياة} وقد أسلفنا تعريفك به وفضل العبارة على قرينتها من كلام العرب وهي القتل أنفى للقتل، وقوله: {إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} وعقبه بقوله: لا يوازي هذا الكلام في الاختصار شيء، وقوله: {يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم} وقوله: {أفنضرب عنكم الذكر صفحا}، وقوله: {ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم}، وقوله: {فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا} تحير في فصاحته جميع البلغاء ولا يجوز أن يوجد مثله في كلام البشر. وقوله: {ولقد راودته عن نفسه فاستعصم}، وقوله: {يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي...} الآية تتضمن مع الفصاحة والإيجاز دلائل القدرة، وقوله: {ألا له الخلق والأمر} كلمتان استوعبتا جميع المكونات والمقدورات والموجودات والمعدومات. وروي أن ابن عمر قرأها فقال: من بقي له شيء فليطلبه. وقوله في صفة خمر أهل الجنة: {لا يصدعون عنها ولا ينزفون}، فقوله: {لا ينزفون} انتظم عدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب وانحلال القوى وفساد الصحة وانقطاع الأخوة والمودة بالآخرة، وقوله تعالى: {أولئك لهم الأمن} دخل تحت الأمن جميع المحبوبات

لأنه نفى به أن يخافوا شيئًا أصلًا من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغير ذلك من أصناف المكروه فلا ترى كلمة أجمع من هذه. وقوله تعالى: {والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس} انتظم جميع أنواع التجارات وصنوف المرافق التي يبلغها الحد والإحصاء ومثله قوله: {ليشهدوا منافع لهم} تضمن جميع منافع الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: {فاصدع بما تؤمر} ثلاث كلمات تشتمل على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقصاء، وقوله تعالى: {كل أمر مستقر} ثلاث كلمات اشتملت عواقب الدنيا والآخرة وقوله: {وله ما سكن في الليل والنهار}، وقوله جلَّ وعزَّ: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} فجمع جميع مكارم الأخلاق بأصلها لأن في العفو صلة القاطعين واالصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان وغض الطرف عن المحرمات والتبرؤ من كل قبيح؛ إذ لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو ملابس شيء من المنكر وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يوقع في الذم ويسقط القدر، وقوله تعالى: {أخرج منها ماءها ومرعاها} فدل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للناس من العشب والشجر والحطب واللباس والنار والملح وغير ذلك، والشاهد على أنه أراد ذلك كله قوله تعالى: {متاعا لكم ولأنعامكم}، وقوله تعالى: {يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل}. فانظر هل يمكن أحدًا من أصناف المتكلمين إيراد هذه المعاني في مثل هذا القدر من الألفاظ. وقوله تعالى: {ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} جمع الأشياء كلها حتى لا يشذ منها شيء على وجه، وقوله تعالى: {وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين} جمع فيه من نعم الجنة ما لا تحصره الأفهام ولا تبلغه

الأوهـام، وقـول رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: «**الـصحة والفـراغ يغتنمان**». وقوله عليه الصلاة والسلام: «**نية المرء خير من عمله**».

قلت: وهذا من أمثلة المبالغة فإنه نبه على عظم أمر النية بتفضيلها على العمل وظاهر أنه أفضل إذ هو المستتبع للمنافع المرادة فما آل الكناية تعظيم شأن النية وحينئذ فلا حيرة في تفسير الخبر ولا يصح أن يقال: إن معناه النية فرد من أفراد العمل وخير من الخيرات وأن لفظ خير ليس اسم تفضيل. وقوله: ترك الشر صدقة، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا أعطاك الله خيرًا فليبن وابدأ بمن تعول، وارتضخ من الفضل ولا تعجز عن نفسك**» ويروى: «**وابدأ بنفسك ثم بمن تعول**». وهو مثل قوله: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» وقوله: «**لا تعجز عن نفسك**» أي: لا تغلبك نفسك بما ركب فيها من الشح فتكون لها مقهورًا قليل الثقة، وقول أعرابي: اللهم هب لي حقك وأرض عني خلقك وقول آخر يمدح قومًا: أولئك قوم جعلوا أموالهم مناديل لأعراضهم، فالخير بهم زائد والمعروف لهم شاهد أي: يقون أعراضهم بأموالهم، ولآخر يمدح إنسانًا: أنه يعطي عطاء من يعلم أن الله مادته، وقول آخر: أما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستحي من الله بقدر قربه منك وخفه بقدر قدرته عليك. وقول آخر: إن شككت في شيء فسل قلبك عن قلبي ثم اتبع ذلك إيراد أمثلة للمساواة فمنها قوله تعالى: {حور مقصورات في الخيام} وقوله تعالى: {ودوا لو تدهن فيدهنون}، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنمًا والزكاة مغرمًا**» وقوله عليه السلام: «**إياك والمشارة؛ فإنها تذهب الغرة وتظهر العرة**». ومن نثر الكتاب قول بعضهم: سألت عن خبري فأنا في صحة وعافية لا عيب فيها إلا فقدك ونعمة لا مزيد فيها إلا بك واستصوب اطراح لفظ الفقد وما

شاكله من الكلام فتقول مثلًا: لا عيب فيها إلا بعدك أو غيبتك، وقول آخر: قد علمتني بنوتك سلوتك واسلمني يأسى منك لي الصبر عنك، وقول آخر: فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى إصلاحك والصلاح لك وأجزل من الخير حظك والحظ منك ومنَّ عليك وعلينا بك، وقول آخر: يئست من صلاحك وأخاف من فسادي بك، وقول آخر: قد أطنب في ذم الحمار من شبهه به، ومن المنظوم قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول آخر:

تهدي الأمور بأهل الرأي ما وإن تولت فبالأشرار تنقاد

وقول آخر:

أهابك إجلالا وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس إنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول آخر:

فأما الذي يحصيهم فمكثر وأما الذي يطريهم فمقلل

أي: كثروا عددًا وقلوا مددًا فهو كقول الآخر:

كاثر بسعد إن سعدًا كثيرة ولا ترج من سعد وفاء ولا نصرا

وقول آخر:

أصد بأيدي العيس عن قصد أرضها وقلبي إليها بالمودة قاصد

وقول الآخر:

يقــول أنــاس لا يــضيرك فقــدها ... بلى كل ما شف النفوس يضيرها

وقول آخر:

يطــول اليــوم لا ألقــاك فيــه ... وحــول نلتقــي فيــه قــصير

وقــالوا لا يــضيرك نــأى شــهر ... فقلــت لــصاحبي فلمــن يــضير

قال أبو هلال: قوله لصاحبي يكاد يكون فضلًا قلت: ولو قال الشاعر: ونأى شهر لا يضير على معنى الاستفهام الإنكاري والتعجب من قولهم لكان موافقًا لاحتقار نأى الشهر، فإن زعمهم أن نأى شهر لا يضير أحدًا لا أنه لا يضيره دون غيره ثم عقب ذلك بأن أورد من أمثلة إيجاز الحذف قوله تعالى: {واسأل القرية} أي أهلها وقوله: {وأشربوا في قلوبهم العجل} أي: حبه وقوله: {الحج أشهر معلومات} أي: وقت الحج، وقول الشاعر:

لهم مجلس صهب السبال أذلة ... سواســية أحرارهــا وعبيــدها

أي: أهل مجلس وسواسية جمع سوائم. وقول آخر:

تــراه كــأن الله يجــدع أنفــسه ... وعينيــه أن مــواه بــات لــه وفــر

أي: ويفقأ عينيه. وقول آخر:

إذا مــا الغانيــات بــرزن يومًــا ... وزججــن الحواجــب والعيونــا

أي: وكحلن العيونا. وقوله تعالى: {ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا} أي: لكان هذا القرآن، وقوله أيضًا: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم} أي: لعذبكم. وقول الشاعر:

وأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أي: لرددناه وقول رجل وقد سئل عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: لم يقل فيه مستزيد لو أنه أنه جمع الحلم والعلم والسلم والقرابة القريبة والهجرة القديمة وهو البصير بالأحكام والبلاء العظيم في الإسلام، أي: لو أنه كان كذا وكذا الأمور يرى أنها فاتته. وقول آخر: ما زلت أمتطي النهار إليك وأستدل بفضلك عليك حتى إذا جنني الليل فقبض البصر ومحا الأثر أقام بدني وسافر أملي والاجتهاد عاذر، وإذا بغتك فقط. ومن الحكايات المشتملة على كلام يتضمن أمثلة لإيجاز الحذف ما يحكى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدًا فقال: يا أخي لقد هممت أن أقتل الوليد بن عبد الملك فقال خالد: بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني فيها فقال: أنا أكفيك فدخل على عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إن الوليد ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين مرت به خيل لابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره فيها وعبد الملك مطرق فرفع رأسه فقال: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة فقال خالد: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلمني والله لقد دخل عليَّ فما أقام لسانه لحنًا فقال خالد: فعلى الوليد تعول فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان فقال خالد: إن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد فقال له عبد الملك: اسكت يا خالد فوالله ما تعد في العير ولا في النفير فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين ثم أقبل عليه فقال: من للعير والنفير جدي أبو سفيان صاحب العير وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير؛ ولكن لو قلت غنيمات وجبيلات والطائف ورحم الله

عثمان قلنا صدقت فقوله: أفعلى الوليد تعول؟ أي: فإنه أسوأ حالًا في ذلك من عبد الله. وقوله: فإن أخاه سليمان أي: وهو لا يلحن وقوله: فإن أخاه خالد أي: وهو كما تعرف وقوله: لا تعد في العير ولا في النفير مثل في الاحتقار معناه أنه ليس بشيء يذكر وأصله كما صرف الكلام إليه خالد عن التمثل أنه لما سمع أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عزم أن يتلقى ركب تجارتهم عند قدومه من الشام وهو العير وكان رئيسه أبا سفيان صخر بن حرب أبا معاوية خرجوا بأجمعهم ورئيسهم عتبة بن ربيعة ليمنعوا تجارتهم وهو المسمى بالنفير، فكانت غزوة بدر الشهيرة وقوله: لو قلت غنيمات وجبيلات إلى آخره إشارة لقصة؛ وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم نقم على الحكم أبي مروان وجد عبد الملك أمورًا فنفاه إلى الطائف وأقام هنالك يعيش في قطعة من الغنم بقية مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدتي أبي بكر وعمر ورده إلى المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافته، وكان ذلك من الحجج التي تمسك بها المسلمون؛ إذ ذاك على إساءة عثمان رضي الله عنه وإذا أحسنت النظر وتفهم المعاني وما تستدعيه من الألفاظ لم يصعب عليك أن تتبين عمل القرائن الحالية واللفظية ونيابتها عن ذكر بعض ما تقتضيه المعاني كلمة كان أو أكثر، وبهذا القدر مع ما سلف من فن المعاني تجد في نفسك مادة لإتقان معرفة الإيجاز بنوعيه والمساواة وموضع كل ثم هاك بعض ما قيل في الإطناب قال أبو هلال: قال أصحاب الإطناب: المنطق إنما هو بيان والبيان لا يكون إلا بالإشباع والشفاء لا يقع إلا بالإقناع وأفضل الكلام أبينه وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء والإيجاز للخواص والإطناب مشترك فيه الخاص والعام والغبي والفطن ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا

والقول القصد أن الإطناب والإيجاز كما اعترف به مادحو الإطناب محتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ولكل واحد منهما موضع والحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته واستعمال الإطناب في موضع الإيجاز أخطأ كما روي عن جعفر بن يحيى أنه قال مع عجبه بالإيجاز حيث يقول كما سلف لكتبته: إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا أي: وجيزة مثل التوقيعات وهي العبارات التي تكتب عن السلطان أو نوابه على القصص لإجراء ما فيها فإنه كما جرت العادة يختار لها أوجز العبارات، فربما كان التوقيع كلمة أو كلمتين متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيًا ومتى كانت الكتابة في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرًا وأمر يحيى بن خالد اثنين أن يكتبا كتابًا في معنى واحد فأطال أحدهما واختصر الآخر فقال للمختصر وقد نظر في كتابه: ما أرى موضع مزيد وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان قلت: لا معنى لإيراد أبي هلال هذه الحكاية في هذا الموضع؛ إذ غرضه تمييز موضع كل من الإيجاز والإطناب ويؤخذ من هذا الكلام أنه ربما كان المعنى موضعًا لاختلاف الرأي والذوق فبعض يرى حسن الإطناب وآخر حسن الإيجاز، وربما يستدعي المعنى أحدهما فقط فيكون الكاتب أو المتكلم أسيرًا لذلك الاستدعاء، وقال غيره: البلاغة الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل، ولا شك أن الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة أو الترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب، فمن هنا ترى أن ما كتبه المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج في فتح الأزارقة الحمد لله الذي كفى بالإسلام فقد ما سواه وجعل الحمد

متصلًا بنعمته وقضى أن لا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من خلقه، ثم إنا كنا وعدونا على حالين مختلفين نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما يسوؤنا ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم دأبنا ودأبهم ينصرنا الله ويخذلهم ويمحصنا الله ويمحقهم حتى بلغ الكتاب بنا وبهم أجله {فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين}. إنما حسن في موضعه ومع الغرض الذي كان لكاتبه وهو تعجيل البشرى للسلطان بما تم لعسكره وفي عدوه وذلك القدر كاف، وأما إذا كتب مثله في فتح يوازي ذلك الفتح في جلالة القدر ونباهة الخطر وقد تطلعت أنفس الخاصة والعامة إليه وتصرفت ظنونهم فيه وورد عليهم مثل هذا القدر من الكلام في أقبح صورة وأسمجها وأشوهها وأهجنها، وكان حقيقًا أن يتعجب منه ومن الوجيز في موضعه ما كتب به بعض ملوك بني أمية لرجل تأخر عن البيعة، أما بعد فإني أراك تقدم في الطاعة رجلًا وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت، وما كتب به جعفر بن يحيى لعامل كثرت منه الشكوى: قد كثر شاكوك فإما عدلت وإما عزلت، وما كتب به آخر لوالي خراج ظهر منه تحامل على الرعية: أما بعد فإن الخراج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل ولا استنزر بمثل الجور، وقال الخليل بن أحمد يختصر الكلام ليحفظ ويبسط ليفهم، ومن هنا وضع الناس في العلوم متونًا وشروحًا، وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم كانت تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها والإطناب إذا لم يكن منه بد وجب، وهو في المواعظ خاصة محمود ممدوح زيادة والموعظة كقول الله تعالى: {أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون* أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون} فتكرير ما كرر من الألفاظ

هاهنا في غاية حسن الموقع وقيل لبعضهم: متى يحتاج إلى الإكثار؟ فقال: إذا عظم الخطب وأنشد:

صموت إذا ما الصمت زين أهله وفتان أبكار الكلام المحبر

وقال آخر:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خشية الرقباء

وقال بعضهم:

إذا ما ابتدا خاطبًا لم يقل له أطل القول أو أقصر

طبيب بداء فنون الكلا م له يعى يومًا ولم يهذر

فإن هو أطنب في خطبة قضى للمطيل على المقصر

وإن هو أوجز في خطبة قضى للمقل على المكثر

ووجدنا الناس إذا خطبوا في الصلح بين العشائر أطالوا وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملك أطنبوا والإطالة والإطناب في هذه المواضع إيجاز، وقيل لقيس بن خارجة: ما عندك في جمالات ذات حسن؟ قال: عندي قرى كل نازل ورضى كل ساخط وخطبة من لدن مطلع الشمس إلى أن تغرب آمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع، وقد رأينا الله تباك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي فإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطًا فما خاطب به أهل مكة: {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب}، وقوله تعالى: {إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} وأشباه هذا كثيرة وقلما تجد قصة لبني

إسرائيل إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم وكلام الفصحاء إنما هو شوب الإيجاز بالإطناب والفصيح العالي بما دون ذلك؛ ليستدل به عليه وليخرج السامع من شيء إلى شيء ويزداد نشاطه وتتوفر رغبته فتصرفوا في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه حتى استعملوا التكرار ليتوكد القول للسمع، وقد جاء في القرآن وفي فصيح الشعر منه شيء كثير فمن ذلك قوله تعالى: {كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون}، وقوله تعالى: {فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا} فتكرر للتوكيد كما يقول القائل: ارم ارم اعجل اعجل، وقد قال الشاعر:

كم نعمة كانت لكم ... كم كم وكم

وقال آخر:

هلا سألت جموع كنـ ... ـدة يوم ولت أين أينا

وربما جاءوا بالصفة وأرادوا توكيدها فكرهوا إعادتها ثانية فغيروا منها حرفًا ثم أتبعوها الأولى كقولهم عطشان نطشان كرهوا أن يقولوا: عطشان عطشان فأبدلوا من العين نونًا، وكذلك قالوا: حسن بسن وشيطان ليطان وأشباه هذا كثيرة فقد كرر الله جلت قدرته في سورة الرحمن قوله: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} وذلك أن الله تعالى عدد فيه نعماءه وأذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرها وقدرته عليها ولطفه فيها وجعلها فاصلة بين كل نعمة؛ ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها، وقد جاء مثل ذلك عن أهل الجاهلية قال مهلهل في شعره:

على أن ليس عدلًا في كليب

وكررها في أكثر من عشرين بيتًا وهكذا قول الحارث بن عبيد:

قربا مربط النعامة متى

كررها في أكثر من ذلك لما كانت الحاجة إلى التكرير ماسة والضرورة إليه داعية لعظم الخطب وشدة موقع الفجيعة، فهذا يدل على أن الإطناب عندهم مستحسن كما أن الإيجاز في مكانه مستحب، ولا بد للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شعب من الإطناب يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين ولا يعاب ذلك منه، وذلك مثل أن يكتب عظمت نعمنا عليه وتظاهر إحساننا لديه فيكون الفصل الأخير داخلًا معناه في الفصل الأول وقال مروان آخر ملوك بني أمية وقد أحاط به أعداؤه لخادمه باسل: من أغفل القليل حتى يكثر والصغير حتى يكبر والخفي حتى يظهر أصابه مثل هذا، وهذا كلام في غاية الحسن وإن كان معنى الفصلين الأخيرين داخلًا في الفصل الأول، وقال أبو تمام:

رب خفض تحت السري وغناء   من عناء ونضرة من شحوب

الغناء داخل في الخفض والعناء داخل في السرى ومما هو أجدى من ذلك كله قول الله عزَّ وجلَّ: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر} والبغي والإحسان داخل في العدل وإيتاء ذي القربى داخل في الإحسان والفحشاء داخلة في المنكر والبغي والمنكر داخلان في الفحشاء، وهذا يدل على أن عظم مدار البلاغة على تحسين اللفظ لأن المعاني إذا دخل بعضها في بعض هذا الدخول وكانت الألفاظ مختارة حسن الكلام وإذا كانت المعاني مرتبة حسنة والمعارض سيئة كان الكلام مردودًا فاعتمد على ما مثلته لك وقس عليه ومن الله الهداية. وقال أبو هلال في باب القول عن مبادئ الكلام ومقاطعة والخروج من فصل إلى فصل. قال بعض الكتاب: أحسنوا معاشر الكتاب

الابتداء آت فإنهن دلائل البيان وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير منه ويستجفى من الكلام والمخاطبة كالبكاء ووصف اقتفار الدار وتشتت الآلاف ونعي الشباب لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني وتستعمل ذلك في المرائى ووصف الخطوب الحادثة، فإن الكلام إذا كان مؤسسًا على هذا المثال تطير منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح مثل ابتداء ذي الرمة:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنه من كلا مفرية سرب

وكان بعيني عبد الملك علة يد معان منها فقال له: ما لك وهذا يا بغيض، وقد أنكر الفضل البرمكي على أبي نواس:

أربع البلى إن الخشوع لباد

فلما انتهى إلى قوله:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغادي

استحكم تطيره وقيل: إنه لم يمض أسبوع حتى نكبوا قلت: وإذا كان هذا الشعر من أبي نواس مقصودًا أن يكون على هذا النحو وأنه به مأمور تعجيلًا لإساءتهم ومبادرة بتنغيص حياتهم وأشعارهم بعزيمة الانتقام منهم كما قيل ذلك لم يكن مثالًا لما نحن فيه، وحكى أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسة جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج وجعل سريره في الإيوان المنمفوش بالفسافس الذي كان في صدره صورة العنقاء فجلس على سرير مرصع بأنواع الجوهر وجعل على رأسه التاج الذي كانت فيه الدرة اليتيمة، وفي

الإيوان أسرة أبنوس عن يمينه وعن يساره من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رتبه هو بنفسه في الموضع الذي يليق به، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم فاستأذنه إسحاق بن إبراهيم الموصلي في النشيد فأذن له فأنشده شعرًا ما سمع الناس أحسن منه في صفته وصفة الجلس إلا أن أوله تشبيب بالديار القديمة وبقية آثارها فكان أول بيت منها:

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم من ذلك وتغامر الناس وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك، قال: راوي الحكاية فأقمنا يوم وانصرفنا فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج لمعتصم إلى سر من رأى وخرب القصر، وأنشد البحتري أبا سعيد قصيدة أولها:

لك الويل من ليل تطاول آخره ووشك نوى حتى تزم أباعره

فقال أبو سعيد: بل الويل والحرب لك فغيره وجعله له الويل وهو رديء أيضًا، وأنشد أبو مقابل الداعي:

لا تقل بشري ولكن بشريان غرة الداعي ويوم المهرجان

فأوجعه الداعي ضربًا ثم قال هلا أن تقل بشرى فهذي بشريان

ولم يجزه وقال: جائزته تحسين أدبه فإن أراد أن يذكر دارًا فليذكرها كما ذكر الخزيمي:

ألا يا دار دام لك الحبور وساعدك الغضارة والسرور

وكما قال أشجع:

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام

وقالوا: أحسن ابتداءات الجاهلية قول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وأحسن مرثية جاهلية ابتداء قول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وأحسن مرثية إسلامية ابتداء قول أبي تمام:

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغني الجود بعدك بلقعا

وقد بكى امرؤ القيس واستبكى ووقف واستوقف وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت:

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل

فهو من أجود الابتداءات وكرره في مطلع قصيدة أخرى وهو قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان وربع عفت آياته منذ أزمان

وهو أحسن وأتم من الأول، ومن أحكم ابتداءات العرب قول السموأل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس فليس إلى حسن الثناء سبيل

وقال بعضهم: أحكم ابتداءاتهم قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وبعضهم يجعل ابتداء هذه القصيدة:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضي أم ضلال وباطل

ومن جياد ابتداءات الجاهلية قول النابغة:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

قالوا: وكان عبد الحميد لا يبتدئ بلولا ولا أن رأيت وقد جعل الناس قول أبي تمام:

بأبعد غاية دمع العين إن بعدوا

من جياد الابتداء قوله:

سعدت غربة النوى بسعاد

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء فقال: من يتفقد الابتداء والمقطع ولما نظر أبو العميثل في قصيدة أبي تمام:

هن عوادي يوسف وصواحبه

فاسترذل ابتدأها وأسقط القصيدة كلها حتى راجعه أبو تمام وأوقفه على موضع الإحسان منها، فراجع عبد الله بن طاهر وأجازه قلت: أبو العميثل هذا كان من علماء الشعراء المقيمن في خدمة عبد الله بن طاهر وهو أمير خراسان إذ ذاك وكان الشعراء يقصدونه من لجهات البعيدة بمدائح يبتغون جوائزه؛ ولكن لم يكن ليسمع شعرًا حتى يسمعه أبو العميثل وأصحابه فإن استجادوه أبلغوه الأمير وأثنوا على صاحبه فيجيزه وإن لم يستجيدوه ردوه صفر اليدين، ومن عيون أبيات هذه القصيدة قوله في صفة مشقة السفر وعلو همة الركب:

وركب كأمثال الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن يتموا صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

وقوله في صفة الجمل بالنحول والهزال من شدائد السفر في الفيافي:

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

ولأبي تمام ابتداءات كثيرة تجرى هذا المجرى منها قوله:

قدك انئب أربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم شجرائي

تفسير هذا البيت أنه عدد الألفاظ الصادرة من العذال على سبيل التعجب والاستهزاء وهي قولهم: قدك أي حسبك اتئب وأصله أو تئب أي: استح أربيت في الغواء أي: زدت في الغلو والتغرير بنفسك في أمر العشق ثم التفت إلى العذال فقال يخاطبهم: كم تعذلون وأنتم شجرائي أي: خلطائي جمع شجير بمعنى مشاجر. ومن الابتداءات البديعة قول مسلم:

أجررت ذيل خليع في الصبى غزل وشمرت همم العذال في عذلي

والابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك فينبغي أن يكون جميعًا مرتقبين وقد استحسن لبعض المتأخرين يعني المتنبي ابتداءه:

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر

وله بعد ذلك ابتداءات المصائب وفراق الحبائب منها قوله:

هذي برزت لنا فهجت رسيسًا ثم انصرفت وما شفيت نسيسا

وقوله:

جللا كما بي فليك التبريح

وقوله:

أحاد أم سداس في أحاد

وقوله:

لجنية أم غادة رفع السجف لوحشية لا ما لوحشية شنف

قلت: وهذه القصيدة يقولها في مدح قاض ففيه ومنها وفيه قبح الاستعارة وسوء العبارة قوله:

فقيه رست للعلم في أرض صدره جبال جبال الأرض في جنبها قف

وقوله:

في الخد إن عزم الخليط رحيلًا دمع تزيد به الخدود محولا

قال إسماعيل بن عبادان: المحول في الخدود من البديع المزور فهذه وما شاكلها ابتداءات لأخلاق لها، وإذا كان الابتداء حسنًا بديعًا ومليحًا رشيقًا كان داعية لاستماع ما يجيء بعده من الكلام، ولهذا المعنى يقول الله تعالى: «ألم وحم وطس وطسم وكهيعص» فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم: «**كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر**». هذا وقال أبو هلال في بيان وجوب الاعتناء بمواضع فصل كلام من كلام ووصل الكلام بعضه ببعض. قيل للفارسي: ما

البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقال المأمون لبعضهم: من أبلغ الناس؟ قال: من قرب الأمر البعيد المتناول والصعب الدرك بالألفاظ اليسيرة قال: ما عدل سهمك عن الغرض؛ ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته ولا يجبل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يكره المعاني بإنزالها في غير منازلها، ولا يتعمد الغريب الوحشي ولا الساقط السوقي، والبلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كالآلئ بلا نظام، فقد استحسن المأمون الجواب ولكنه عرفه أنه غير مقنع فساق له ما عنده، وينبغي أن يكون الجواب وصفة أبلغ الناس. وقال أبو العباس: السفاح لكاتبه قف عند الكلام وحدوده وإياك أن تخلط المرعى بالهمل، ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل من الوصل. وقال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلًا تكلم فأحسن الوقف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده إلا أبا عمرو بن العلاء كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام وأعظم حق المقام وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج حتى كان يقف عند المقطع وقفًا يحول بينه وبين بغيته من الألفاظ، وكان كثيرًا ما ينشد:

إذا ما بدا فوق المنابر قائلًا أصاب بما يومي إليه المفاصلا

وحكى أن شبيب بن شبة كان يومًا قاعدًا بباب المهدى فأقبل عبد الصمد بن الفضل الرقاشي فلما رآه شبيب قال: أتاكم والله كليم الناس فلما جلس قال شبيب: تكلم يا أبا العباس فقال: أمعك يا أبا معمر وأنت خطيبنا وسيدنا؟ قال: نعم والله ما رأيت قلبًا أقرب من لسان من قلبك من لسانك قال: في أي شيء تحب أن أتكلم؟ قال: وإذا شيخ يتوكأ على عصا قال: صف لنا هذه العصا فحمد الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه، ثم ذكر السماء فقال: رفعها الله بغير عمد وجعل فيها نجوم رجم ونجوم اهتداء وأدار فيها

سراجًا قمرًا منيرًا لتعلموا عدد السنين والحساب وأنزل منها ماء مباركًا أحيا به الزرع والضرع وأدر به الأقوات وحفظ به الأرواح وأنبت منها أنواعًا مختلفة يصرفها من حال إلى حال تكون حبة، ثم يجعلها عرقًا ثم يقيمها على ساق فبينا تراها خضراء ترف إذ تراها يابسة تنقصف ليتنفع بها العباد وتعمر بها البلاد ثم جعل من يبسها هذه العصا ثم أقبل على الشيخ وقال: وكان هذا نطفة في صلب أبيه ثم صار علقة حين خرج منه ثم مضغة ثم عظمًا ولحمًا فصار جنينًا أوجده الله بعد عدم وأنشأه من بدء ووقفه مكتهلًا ونقضه شيخًا إلى أن صار إلى هذه الحال من الكبر، فاحتاج إلى هذه العصا في آخر حالاته فتبارك المدبر للعباد. قال شبيب: فما سمعت كلامًا على بديهة أحسن منه وقال معاوية: يا أشدق قم عند قروم العرب وحجاجها فسل لسانك وجل في ميادين البلاغ وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال، فإني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملي علي بن أبي طالب عليه السلام كتابًا فكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صرمته، ولما أقام أبو جعفر المنصور صالحًا خطيبًا بحضرة شبيب بن شبة وأشراف قريش فتكلم أقبل شبيب فقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم أبين بيانًا ولا أربط جنانًا ولا أفصح لسانًا ولا أبل ريقًا ولا أغمض عروقًا ولا أحسن طريقًا إلا أن الجواد عسير لم يرض، فحملته القوة على تعسف الآكام وخطبها وترك الطريق اللاحب، وأيم الله لو عرف في خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان. وقال المأمون: ما أعجب بكتاب أحد كإعجابي بكتاب القاسم ابن عيسى فإنه يوجز في غير عجز ويصيب مقاطع الكلام، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب، يجلى عن مراده في كتبه ويصيب المغزى في ألفاظه. وكان يزيد بن معاوية يقول: إياكم أن تجعلوا

الفصل وصلًا فإنه أشد وأعيب من اللحن. وقال أكثم بن صيفي: كانت ملوك الجاهلية تقول لكتابها: افصلوا بين كل متقضي معنى وصلوا إذا كان الكلام معجونًا بعضه ببعض. وكان الحارث بن أبي شمر الغساني يقول لكاتبه المرقش: إذا نزع بك الكلام إلا الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ؛ فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيه وملته الأسماع واستثقلته الرواة. وكان بزر جمهر يقول: إذا مدحت رجلًا وهجوت آخر فاجعل بين القولين فصلًا حتى يعرف المدح من الهجاء كما تفعل بكتبك إذا استأنفت القول فأكملت ما سلف من الفلفظ. وقال الحسن بن وهب لكاتبه الحراني: ما منزلة الكاتب في قوله وفعله؟ قال: أن يكون مطبوعًا محتنكًا بالتجربة عالمًا بحلال الكتابة وحرامها وسنتها وبالدهور في تداولها وتصرفها وبالملوك في سيرها وأيامها مع براعة اللفظ وحسن التنسيق وتأليف الأوصال بمشاكلة الاستعارة وشرح المعاني حتى تنصب صورها وبمقاطع الكلام ومعرفة الوصل من الفصل، فإذا كان كذلك فهو كاتب مجيد والقول إذا استكمل آلته استتم معناه فالفصل عنده. وقال المأمون: ما أتفحص من رجل شيئًا كتفحصي عن الفصل والوصل في كتابه والتخلص من المعقود إلى المحلول، فإن لكل شيء جمالًا وحلية الكتاب وجماله إيقاع الفصل في موقعه وشحذ الفكرة وإجالتها في لطف التخلص من المعقود إلى المحلول، ومعنى المعقود والمحلول هاهنا هو أنك إذا ابتدأت بمخاطبة ثم لم تنته إلى موضع التخلص مما عقدت عليه كلامك سمي الكلام معقودًا فإذا شرحت المستور وأبنت عن الغرض المنزوع إليه سمي الكلام محلولًا مثال ذلك ما كتب بعضهم وجرى لك من ذكر ما خصك الله به وأفردك بفضيلته من شرف النفس والقدرة وبعد الهمة

والذكر وكمال الأداة والآلة والتمهد في السياسة والإيالة وحياطة أهل الدين والأدب وإنجاد عظيم الحق وتضعيف السبب ما لا يزال يجرى مثله عند كل ذكر يتجدد ذلك ويؤثر عنك فالكلام من أول الفصل إلى قوله تضعيف السبب معقود، فلما اتصل بما بعده صار محلولًا وما كتب بعضهم ربما كانت مودة السبب أوكد من مودة النسب؛ لأن المودة التي تدعوا إليه رغبة أو رهبة أو شكر نعمة أو مشاركة في صنعة أو مناسبة لمشاكلة مودة معروفة وجوهها موثوق بخلوصها فتوكدها بحسب السبب الداعي إليها ودوامها بدوامه واتصالها باتصاله ومودة القربى موات، وإن أوجبتها اللحمة فهي مشوبة بحسد ونفاسة وبحسب ذلك يقع التقصير فيما توجبه الحال والإضاعة لما يلزم من الشكر، والله يعلم أني أودك مودة خالصة لم تدع إليها رغبة فيزيلها استغناء ولا اضطر إليها رهبة فيقطعها أمن منها وإن كنت مرجوًّا للموهبات بحمد الله تعالى ومقصدًا من مقاصد الرغبات وكهفًا وحرزًا من الموبقات، فهذا الكلام معقول إلى قوله لمشاكلة فلما اتصل بما بعده صار محلولًا. وقال بعضهم: انظر سددك الله أن لا تدعوك مقدرتك على الكلام إلى إطالة المعقود، فإن ذلك فساد ما أكننته في صدرك وأردت تضمينه كتابك، واعلم أن إطالة المعقود تورث نسيان ما عقدت عليه كلامك وأرهنت به فكرك، وكان شبيب بن شبة يقول: لم أر متكلمًا قط أذكر لما عقد عليه كلامه ولا أحفظ لما سلف من نطقه من خالد بن صفوان يشبع المعقود بالمعاني التي يصعب الخروج منها إلى غيرها، ثم يأتي بالمحلول واضحًا بينا مشروحًا منثورًا، فكان السامع لا يعرف مغزاه ومقصده في أول كلامه حتى يصير إلى آخره وقال بعضهم: ليس يحمد من القائل أن يعمى معرفة مغزاه على السامع لكلامه في أول ابتدائه حتى ينتهي إلى آخره، بل الأحسن أن يكون في صدر

كلامه دالًّا على حاجته ومبينًا لمغزاه ومقصده كما أن خيرًا بيان الشعر ما إذا سمعت صدره عرفت قافيته، وكان شبيب بن شبة يقول: الناس موكلون بتعظيم جودة الابتداء وبمدح صاحبه وأنا موكل بتعظيم جودة المقطع وبمدح صاحبه، وخيرُ الكلام ما وقف عند مقاطعه وبين موقع فصوله، ومثال ما لم بين موضع الفصل فيه فأشكل الكلام قول شاعر يهجو ويمدح:

وأبوك بدر كان ينتهش الخصى ... وأبي الجواد ربيعة بن قتال

فقال المهجو: لا بأس شيخان اشتركا في صفة وقلما رأينا بليغًا ألا وهو يقطع كلامه على معنى بديع أو لفظ حسن رشيق. قال: لقيط في آخر قصيدته:

لقد محضت لكم ودي بلا دخل ... فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

فقطعها على كلمة حكمة عظيمة الموقع، ومثله قول امرئ القيس:

ألا إن بعد العدم للمرء قنوة ... وبعد الشباب طول عمر وملبسا

فقطع القصيدة أيضًا على حكمة بالغة. وقال أبو زبيد الطائي في آخر قصيدة:

كل شيء يحتال فيه الرجال ... غير أن ليس للمنايا احتيال

وقال أبو كبير الهذلي:

هذا وذلك ليس إلا ذكره ... وإذا مضى شيء كان لم يفعل

فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها، كما فعل ابن الزبعري في آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ويستعطفه:

فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت　　　واقبل تضرع مستضيف ثابت

فجعل نفسه مستضيفًا ومن حق المستضيف أن يضاف فإذا أضيف فمن حقه أن يصان واعدًا بالثبات الذي مدار الأمر عليه مخبرًا بصدق عزيمته جعل العفو عنه فضيلة فجمع ما يحتاج إليه في طلب، وقول تأبط شرًا فى آخر قصيدة:

لتقرعن على السن من ندم　　　إذا تذكرت يومًا بعض أخلاقي

هذا البيت أجود بيت فيها الصفاء لطفه وحسن معناه وأحق ما يختم كلام في عتاب، ومثله قول الشنفرى في آخر قصيدة:

وإني لحلو إن أريدت حلاوتي　　　ومر إذا نفس العزوف أمرت

أبى لما آبي قريب مقادتي　　　إلى كل نفس تنتحي في مسرتي

وهذان البيتان أجود ما فخر به في هذه القصيدة. وقال بشر بن أبي حازم في آخر قصيدة:

ولا ينجي من الغمرات إلا　　　براكاء القتال أو الفرار

فقطعها على مثل سائر والأمثال أحب إلى النفوس لحاجتها إليها عند المحاضرة والمجالسة، وقال الهذلي:

عصاك الأقارب في أمرهم　　　فزايل بأمرك أو خالط

ولا تسقطن سقوط النوا　　　ة من كف مرتضخ لاقط

فقطعها على تشبيه مليح ومثل حسن، وهكذا يفعل الكاتب الحاذق والمترسل المبرز ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له فإن حنثت فيما حلفت فلا خطوت لتحصيل مجد ولا نهضت لاقتناء حمد ولا سعيت إلى مقام فحر ولا حرضت على علو ذكر، وهذه اليمين لو سمعها عامر بن الظرب أحد مشاهير قضاة العرب لقال: هي الغموس لا القسم باللاة والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فأتى بأيمان غريبة ومعان ظريفة وكتب أيضًا في آخر رسالة: وأنا متوقع لكتابك توقع الظمآن للماء الزلال والصوام لهلال شوال، وكتب آخر أخرى: وسأل أن أخلفه في تجشيم مولاي إلى هذا المجتمع ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته ولمس الشمس بغرته، فانظر كيف تقع كلماته على كل معنى بديع ولفظ شريف، هذا وحسن المقطع وجودة الفاصلة وحسن تمكنها في موضعها على ثلاثة أضرب؛ فضرب منها أن يضيق على الشاعر موضع القافية، فيأتي بلفظ قصير قليل الحروف فيتم به البيت كقول زهير:

واعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

وقول النابغة:

جفت أعاليه وأسفله ند

وقول الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وبعده:

لكي يعلم الناس أني امرؤ أتيت اللذاذة من بابها

وقول امرئ القيس:

مكــر مفــر مقبــل مــدبر معًــا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول طرفة:

إذا ابتـدر القـوم السلاح وجدتني   منيعًــا إذا بلــت بقائمــه يــدي

وقول النابغة من القصيدة التي أولها:

أمــن آل ميــة رائــح أو مغتــد   ....

لا مرحبًــا بغــد ولا أهــلًا بــه   إن كــان تفريــق الأحبــة فــي غــد

أفــد الترحــل غيــر أن ركابنــا   لمــا تــزل برحالهــا وكــان قــد

وقوله:

كــالأقحوان غــداة غــب ســمائه   جفــت أعاليــه وأســفله نــدى

وقوله:

تشفى ببرد لثاتها العطش الصدى   ....

وقول آخر:

ألا يــا غرابــي بينهــا لا تــصدعا   وطيــرًا جميعًــا بــالنوى وقعــا معــا

وقول ابن أحمر:

وإن كانــت النعمــاء عنــدك لامــرئ   فمــثلًا بهــا نــاجز المطالــب أو زد

وقول أبي حية:

فقلنا لها سرًا فديناك لا يرح

الأبيات السالفة.

ومن شعر المحدثين قول ابن عبدة:

دنيا دعوتك مسمعًا فأجيبي وبما اصطفيتك في الهوى فأثيبي

دومي أدم لك بالوفاء على القضا أني بعهدك واثق فثقي بي

وقول آخر:

أتتني تؤنبني في البكا فأهلًا بها وبتأنيبها

وقالت وفي قولها حشمة أتبكي بعين ترانا بها

فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها

والضرب الآخر أن يضيق به المكان أيضًا ويعجز عن إيراد كلمة سالمة تحتاج إلى إعراب فيأتي بكلمة ليست كذلك يتم بها البيت مثل قول امرئ القيس:

كذئب الغضا يمشي الضراء ويتقي

وقول زهير:

صحا القلب عن سلى وقد كان لا يسلو

ثم قال:

وقد كنت من سلمى سنين ثمانيًا على صبر أمر ما يمر ولا يحلو

وقوله:

لذي الحلم من ذبيان عندي مودة وحفظ ومن يلحم بي الشر أنسج

مخوفًا كان الطير في منزلاته | على جيف الحسرى مجالس تنتجي

وقول ذي الرمة:

أراح رفاق جيرتك الجمالا | كأنهم يريدون احتمالا
وكدت أموت من حزن عليهم | ولم أر حادي الأظعان بالا

وقول الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها | واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

والضرب الثالث أن تكون لفظة لائقة بما تقدمها من الألفاظ وتكون مستقرة في قرارها ومتمكنة في موضعها حتى لا يسد مسدها غيرها، وإن لم تكن قليلة الحروف كقول الحطيئة:

هم القوم الذين إذا ألمت | من الأيام مظلمة أضاءوا

وقول آخر:

صلى الإله على امرئ ودعته | وأتم نعمته عليه وزادها

وقول البحتري:

ظللنا نرجم فيك الظنون | أحاجبه أنت أم حاجمه

وقول أبي نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت | له عن عدو في ثياب صديق

ومما عيب من القوافي قول ابن الرقيات وقد أنشد عبد الملك:

إن الحوادث بالمدينة قد | أوجعتني وقرعن مروتيه
وجبينني جب السنام فلم | يتركن ريشًا في مناكبيه

فقال له عبد الملك: أحسنت إلا أنك تخنثت في قوافيه فقال: ما عدوت قول الله عزَّ وجلَّ: {ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه} وليس كما قال لأن فاصلة الآية حسنة الموقع وفي قوافي شعره لين يدرك ذلك بالوجد أن وسببه اللفظي أن فواصل الآية كائنة من مدة وحركتين وحرف السكت وقوافيه من ساكن يابس أولين وثلاث حركات وحرف السكت، فتجد في الآية من الشدة بقدر ما تجد في أبياته من اللين، ولذلك وصفه عبد الملك بالتخنث وهو التشبه بالمخنثين في التلفظ والمخنث الرجل في خلائق النساء طبعًا أو تطبعًا، ومن عيوب القوافي أن تكون القافية مستدعاة لا تفيد معنى؛ وإنما أوردت ليستوي الروى فقط. قلت: وهذا من أقبح عيوب الشعر فإن الشعر إنما هو بالقوافي، وإذا احتاج من يريد أن يقول الشعر لمثل ذلك فراحة الناس في سكوته مثل قول أبي تمام كالظبية:

كالظبية الأدماء صافت وارتعت زهر العرار الغض والجثجاثا

ليس في وصف الظبية بأنها ترتعي الجثجاث فائدة وسواء رعت الجثجاث أو القلام أو غير ذلك من النبات، وإذا قصد لنعت الظبية بزيادة حسن قيل: إنها ثعطو الشجر لأنها حينئذ ترفع رأسها فيطول جيدها وتظهر محاسنها كما قال:

والجيد منها جيد جازية تعطو إذا ما طالها المرد

وقريب منه قول الآخر:

وسابغة الأذيال زغف مفاضة يكفكفها عني نجاد مخطط

وليس لتخطيط النجاد معنى يرجع إلى السيف ولا إلى الدرع. قلت: وإذا انتهى إلى أن يقول كما يقول بعض المصنفين القيد لبيان الواقع يقال: وما حيلة المضطر إلا بارد العذر، ومثله قول آخر:

أأنشر البز فيمن ليس يعرفه وأنثر الدر بين العمى في الغلس

وليس لذكر الغلس مع العمى معنى لأن الأعمى يستوي عنده الغلس والهاجرة، ولو قال العمش لكان أقرب من العمى على أن الجميع لا خير فيه، وقول ابن الرومي:

ألا ربما سوءت الغيور وساءني وبات كلانا من أخيه على وحر

وقبلت أفواهًا عذابًا كأنها ينابيع خمر حصبت لؤلؤ البحر

فقوله: لؤلؤ البحر أفسد البيت وأطفأ نوره لأن اللؤلؤ لا يكون في النهر ولا غيره من المواضع فنسبته إلى البحر لا فائدة فيه إلا إقامة الورى، هذا وروح المقصود بالنقل من كتاب أبي هلال قوله في تمييز الكلام جيده من رديئه ونادره من بارده قال الكلام أيدك الله بحسن سلاسته وسهولته وصناعته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين معاطفه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبيه إعجازه بهواديه وموافقة ما خيره لمباديه مع قلة ضروراتها بل عدمها إصلاحتي لا يكون لها في الألفاظ أثر فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك صار بالقبول حقيقًا وبالتحفظ خليقًا كقول القائل:

هم الألى وهبوا للمجد أنفسهم فما يبالون ما نالوا إذا حمدوا

وقول معن بن أوس:

لعمري ما أهديت كفى لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم إني لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي
ولست بماش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي

وقال الآخر:

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

وقال آخر:

ذريني أسير في البلاد لعلني أصيب فتى فيه لدى الحق محمل
فإن نحن لم نسطع دفاعًا لحادث تجيء به الأيام فالصبر أجمل
أليس كثيرًا إن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول

ومما هو صحيح في وصفه جيد في رصفه قول الشنفرى:

أطيل مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه القلب صفحًا فيذهل
ولولا اجتناب الدم لم يلف مشرب يعاش به إلا لدي ومأكل
ولكن نفسًا حرة ما تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحول

وقول بشار:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقول دعبل:

وما إن قتلناهم بأكثر منهم ولكن بأوفى للطعان وأكرما

وإن امرأ أمست مساقط رأسه بأسوان لم يترك له الحزم معلما
حللت محلًا يقصر الطرف دونه ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

وقول النابغة:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

وليس لهذا البيت نظير في كلام العرب قال بعضهم: نظيره قول أوس بن حجر:

ولست بحابس أبدًا طعامًا حذار غد لكل غد طعام

هذا وإن كان نظيره في التأليف فإنه دونه لما تكرر فيه من لفظ غد، فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والصناعة واشتمل على الرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف وبعد من سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما توافقه وتنفر عما تضاده وتخالفه؛ فالعين تألف الحسن وتقذى بالقبيح والأنف يرتاح للطيب ويعاف المنتن والفم يلتذ بالحلو ويمج المر والسمع يتشوف للصوت الرائع وينزوي عن الجهير الهائل واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن والفهم يأنس بالكلام المعروف ويسكن إلى المألوف ويصغي إلى الصواب ويهرب من المحال وينقبض عن الوخم ويتأخر عن الجافي الغليظ ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة، وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي والقروي والبدوي؛ وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه

ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والحلو من النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابًا ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت ألا ترى إلى قول حبيب بن أوس:

مستسلم لله سائس أمة ... لذوي تجهضمها له استسلام

فإنه أتى بصواب اللفظ وليس هو بحسن ولا مقبول. وقال أبو داود: رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخير الألفاظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه وأنشد:

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحي الملاحظ خشية الرقباء

ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسين اللفظ أن الخطب الفائقة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الأفهام؛ وإنما يدل حسن الكلام وإحكام الصنعة ورونق ألفاظه وجودة مقاطعه وبديع مباديه وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشيه، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني، ولهذا يتأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة ويبالغون في تجويدها ويغلون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدًّا كثيرًا وأسقطوا عن أنفسهم تعبًا طويلًا، ودليل آخر أن الكلام إذا كان لفظه حلوًا عذبًا وسلسًا سهلًا ومعناه وسطًا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخـذنا بـأطراف الأحاديـث بيننـا وسـالت بأعنـاق المطـى الأبـاطح

فليس تحت هذه الألفاظ كبيرة معنى وهي رائقة معجبة؛ وإنما المعنى ولما قضينا الحج ومسحنا وشدت رحالنا على مهارى الإبل سرنا نتحدث في بطون الأودية وبارد الشعر مثل قول عمرو بن معد يكرب:

قـد علمـت سـلمى وجاراتهـا مـا قطـر الفـارس إلا أنـا

شـككت بـالرمح سـرابيله والخيـل تعـدو زيمًـا حولنـا

زيمًا: أي متفرقة، وقول أبي العتاهية:

مـات والله سـعيد بـن وهـب رحـم الله سـعيد بـن وهـب

يـا أبـا عثمـان أبكيـت عينـي يـا أبـا عثمـان أبكيـت قلبـي

والبارد في شعر أبي العتاهية كثير والشعر كلام منسوج ولفظ منظوم وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف وحسن نظمه ولم يهجن ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام، فيكون جلفًا بغيضًا ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلًا دوينا فالبغيض كقول أبي تمام:

قد كـان حزن الخطـب فـي أحزانـه حتـى دعـاه الحـين للأسـهال

جعلـوا القنـا الـدرجات للكزجـات ذات الغيـل والحرجـات والأدحـال

قلت: هذان البيتان المستكرهان من أبيات قصيدة فتحية معتصمية من غرر قصائد أبي تمام البيت الأول في صفة حال العدو أولًا وآخرًا؛ وذلك أنه كان ممتنعًا بإقامته في أماكن مرتفعة وعرة ذات أشجار ومهاوى فكان لا يقدر عليه، وهو معنى قوله:

قد كان حزن الخطب في أحزانه

أي: أشد الخطب في سكناه حزن الأرض وهو ضد السهل، والبيت الثاني في صفة عسكر المعتصم أي: جعلوا القنا سلمًا لهذه المواضع المرتفعة الوعرة المشتملة على الشجر الملتف وهو الغيل والحرجات ومهاو وهي الأدحال وقوله:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهرًا والألفاظ إذا أجبرت قسرًا ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه؛ ولكن في غرابة المعنى إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ويستعظمونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسًا عذبًا وسهلًا حلوًا ولم يعلموا أن السهل إذا أمنع جانبًا وأعزه مطلبًا وهو أحسن موقعًا وأعذب مستمعًا، ولهذا قيل: أجود الكلام السهل الممتنع. ويحكى أن الفضل بن سهل وصف عمرو بن مسعدة فقال: هو أبلغ الناس ومن بلاغته يظن الظان أنه يكتب مثل كتبه فإذا: رامها تعذرت عليه وأن إبراهيم بن العباس بن الأحنف أنشد يومًا بعض أصحابه:

إن قال لم يفعل وإن سيل لم يبذل وإن عوتب لم يعتب

صب بعصياني ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب

ثم قال: هذا والله الشعر الحسن المعنى السهل اللفظ العذب المستمع القليل النظير العزيز الشبيه المطمع الممتنع البعيد مع قربه الصعب مع سهولة فجعل أصحابه يقولون: هذا الكلام والله أحسن من شعره وأنه قيل للسيد الحميري: ألا تستعمل الغريب في شعرك فقال ذلك عي في زماني

وتكلف مني لو قلته وقد رزقت طبعًا واتساعًا في الكلام، وأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ولا يحتاج إلى تفسير ثم أنشد:

أيا رب إني لم أرد بالذي به مدحت عليًا غير وجهك فارحم

فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه ويستعمله في إبانه. ومن الكلام المطبوع السهل ما وقع به علي بن عيسى: قد بلغتك أقصى طلبتك وأنلتك غاية بغيتك وأنت مع ذلك تستقل كثيري وتستقبح حسني فيك فأنت كما قيل:

كالحوت لا يكفيه شيء يلهمه يصبح ظمآن وفي البحر فمه

ومن المنظوم المطمع الممتنع قول البحتري عفا الله عنه:

أيها العاتب الذى ليس يرضى نم هنيئًا فلست أطعم غمضا
إنَّ بي من هواك وجدًا قد استهـ ـلك نومي ومضجعًا قد أقضا
فجفونى فى عبرة ليس ترقى وفؤادي فى لوعة ما تقضى
أحينى بالوصال إن كان جودًا وأثبنى بالحبِ إن كان قرضا
بأبى شادن تعلق قلبى بجفون فواتر اللّحظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب يتثنّى تثنّى الغصن غضا
واعتذارى إليه حين تجافى لى عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفّاح خدّيه تقبيـ ـلًا ولثمًا طورًا وشمًّا وعضّا
أيّها الرّاغب الذى طلب الجو د فأبكى كوم المطايا وأنضى
رد حياض الإمام تلق نوالا يسع الرّاغبين طولًا وعرضا

هو أندى من الغمام وأوحى وقعات من الحسام وأمضى
يتوخى الإحسان قولًا وفعلًا ويطيع الإله بسطًا وقبضا
فضّل الله جعفرًا بخلال جعلت حبه على الناس فرضا

ويقول فيها:

وأرى المجد بين عارفة منك ترجى وعزمة منك تمضى

قلت: قول البحتري أيها العاتب الذي ليس يرضى لم يقل: أيها الساخط الذي ليس يرضى ليحصل الطباق في كلامه مع ولوعهم بالبديع إذ ذاك؛ لأن لفظ العاتب أأدب وأحشم مع أنه لم يفته الطباق فإن العتب يستلزم السخط فاجتمع له مع الطباق المعنوي الكناية الظريفة، فهو من تخير الألفاظ ونبهتك بهذا؛ لأن تصرف التفاتك إلى ملاحظة مثله فتلتزم التأني في تعرف لطائف الكلام فلا تدرسه درسًا وتمر عليه مرًّا بحيث تفوتك بغيتك وأنت مكدود في طلبها. وقوله: أبكى كوم المطايا ليس من البكاء وإنما هو من البكء وهو ذهاب اللبن بكأت الناقة كمنع فهو وما بعده عبارة عن إهزال المطايا تدريجًا، ومن هذا الموضع تعرف أنه ينبغي أن تكون الأمور على حسب الأزمنة فربما كان الأمر مستحسنًا في زمن حسب أحوال أهله ويصير في زمن آخر غير مستحسن حسب تغير الأحوال، ألا ترى أن الشعر في الصدر الأول كان على صورة لم يكن عليها بعد حتى دخل في صور شتى وكان المتأخر معيبًا باستعماله في صورة الأول، ثم هذا لا يخص الشعر والإنشاء، فلقد سمعت قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: لا تقسروا أولادكم على آدابكم؛ فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم. وكان أخذ الأجرة على تعليم القرآن محكومًا بحرمته، ثم أفتى العلماء بعد بجوازه للضرورة، ولذلك شواهد

كثيرة، وهذه الإشارة كافية ونرجع لما نحن فيه، قال أبو هلال: ومن أمثلة السهل قول محمد بن وهب:

مــــا زال يلثمنـــــي مراشـــــفه	ويعلنــــي الإبريـــق والقـــدح
حتـــى اســـترد الليـــل خلعتـــه	ونـــشا خــــلال ســـواده وضــح
وبـــدا الـــصباح كـــأن غرتـــه	وجـــه الخليفـــة حـــين يمتـــدح
أنـــت الـــذى بـــك ينقـــضي فرحًـــا	ضـــيق الـــبلاد لنـــا وينفـــسح
نـــشرت بـــك الـــدنيا محاســـنها	وتزيّنـــت بـــصفاتك المـــدح

ومن السهل المطبوع المختار الجيد قول الآخر:

صـــرفت الـــدهر فانـــصرفا	ولـــم تـــرع الـــذي ســـلفا
وبنــــت فلــــم أذب كمــــدًا	عليــــك ولــــم أمــــت أســــفا
كلانــــا وأجــــد فــــي النــــا	س ممــــن ملــــه خلفــــا

وليس الغرض من سهولة الكلام وبيان معناه أن يبلغ إلى حد مثل قول بعضهم:

يـــا رب قـــد قـــل صـــبري	وضــــاق بالحــــب صــــدري
واشــــتد شــــوقي ووجــــدي	وســــيدي لــــيس يــــدري
مغفــــل عــــن عــــذابي	ولــــيس يــــرحم ضــــري
إن كــــان أعطــــى اصــــطبارًا	فلــــست أملــــك صــــبري
أنــــا الفــــدا لغــــزال	دنــــا فقبــــل نحــــري
وقــــال لــــي مــــن قريــــب	يــــا ليــــت بيتــــك قبــــري

فإنه إذا لان الكلام حتى يصير إلى هذا الحد فليس فيه خير لا سيما إذا ارتكبت فيه مثل هذه الضرورات، فإن تسكين الياء ممن أعطى غير جائز والفداء ممدود قصره، وأما الجزل المختار من الكلام فهو الذي تعرفه فطناء العامة إذا سمعوه ولا يستعملون في محاوراتهم كقول القائل:

لا تسأل القوم عن مالي وكثرته   قد يقتر المرء يومًا وهو محمود

أمضى على سنة من والدي سلفت   وفي أرومته ما ينبت العود

ومن النثر قول يحيى بن خالد: أعطانا الدهر فأسعف ثم عطف علينا فعسف، قلت: يحيى هذا هو ابن خالد بن برمك أبو الفضل وجعفر وهم جعفر وهم الوزراء المشهورون بالبرامكة وكانوا بلغوا من المنزلة وعلو الشأن مبلغًا لم يصله غيرهم، وكان الرشيد يقول ليحيى: يا أبي لكونه كان تولى تربيته وكان يسمى الفضل وجعفرًا أخويه، ثم لم تزل بهم الأيام حتى اقتضت أسباب تغير قلب الخليفة عليهم تغير أوجب حبسهم وإهانتهم وإخلاء الدنيا منهم، ومن شعر يحيى وهو في السجن:

سألونا عن حالنا كيف أنتم   من هوى عرشه فكيف يكون

نحن قوم أصابنا عنت الدهـ   ـر فظلنا لحكمه نستكين

وجميع كلامهم نثرًا ونظمًا كان على هذه الصورة فرحمه الله تعالى. قال أبو هلال: ومن شواهد ذلك ما كتب سعد بن حميد في الاستعفاف واسترجاع المودة وأنا لا يحاجك عن نفسه ولا يغالطك عن جرمه ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ولا يستدعى هواك إلا من طريقته ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم نبت بي عنك غرة الحداثة وردتني إليك الحنكة وباعدتني منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر وتجدد

النعمة بإطراح الحقد فإن قديم الحرمة وحديث التوبة بمحقان ما بينهما من الإساءة وأن أيام القدرة إن طالت قصيرة والمنعة بها، وإن كثرت قليلة فعلت، وفي هذا الكلام وما قبله قوة في سهولة ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وأراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث: أجدب بنا الجناب وأحزن بنا المنزل فاستحلنا الحذر واكتحلنا السهر وأصابتنا فتنة لم تكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء، فعفا عنه فأجود الكلام ما يكون جزلًا سهلًا لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه ولا يكون مكدودًا مستكرهًا ومتعرًا متقعرًا ويكون بريئًا من الغثاثة عاريًا من الرثاثة، والكلام إذا كان لفظه غثًّا ومعرضه رثا كان مردودًا ولو احتوى على أجل معنى وأنبله وأرفعه وأفضله كقول بعضهم:

أرى رجالًا بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنيا هم عن الدين

قال أبو هلال: فمثل هذا لا يدخل في جملة المختار ومعناه كما تراه نبيل فاضل جليل ولا أرى لمثل هذا معنى فهو كلام منحرف وضيع لم يجعل نفسه في الرتبة التي أعدها له الدين، فإنه لا ينبغي من العلماء أن ينعزلوا ناحية عن ساسة الناس بل يجب عليهم أن يخالطوهم مخالطة يتحينونهم فيها بالموعظة ويعطفونهم على الهدى ويرشدونهم لصنع الجميل، فإن الدين والدنيا لا يصح فصلهما كما قال صلى الله عليه وسلم: **«لا تسب الدنيا؛ فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر»**.

ثم قال أبو هلال: وللمعاني خطأ وصواب وأنا منبه عليهما ليتتبع من يريد العمل برسمنا مواقع الصواب فيلزمها ويقف على مواقع الخطأ

فيجتنبها فنقول: إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ؛ لأن المدار بعد على إصابة المعاني فإنها تحل من الكلام محل الأبدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ومزية إحداهما على الأخرى معروفة، ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما نهيأ له في الأولى ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي فلا يستكمل صناعة الكلام إلا بإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال والمعاني على ضربين: أحدهما: يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له فيه إمام يقتدي به ولا رسوم قائمة في أمثلة ماثلة يعمل عليها، وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة ويتبينه عند الأمور النازلة الطارئة، والآخر: ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط وينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك ويتوخى فيه الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه ولا يعتد بابتداعه له ذلك الاعتداد فيساهل نفسه في تهجين صورته فيذهب حسنه ويطمس نوره، ويكون فيه إلى الذم أقرب منه إلى المدح والمعاني بعد ذلك على وجوه منها ما هو قبيح مستقيم نحو قولك: قد زيدًا رأيت؛ وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب مثل قولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر، ومنه ما هو محال كقولك: آتيك أمس وأتيتك غدًا، وكل محال فاسد وليس كل فاسد محالًا ألا ترى أن قولك: قام زبد فاسد وليس بمحال فالمحال ما لا يجوز كونه ألبتة كقولك: الدنيا بيضة وأما قولك: حملت

الجبل، وأمثاله فكذب وليس بمحال لا مكان أن يزيد الله في قوتك فتجمل، ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذبًا ومحالًا كقولك: رأيته قائمًا قاعدًا ومررت بيقظان نائم فتصل كذبًا بمحال فصار الذي هو الكذب والمحال بالجمع بينهما وإن كان لكل واحد منهما معنى على حياله ومنها الغلط وهو أن يقول: ضربني زيد، وأنت تريد: ضربت زيدًا، فغلطت فإن تعمدت كان كذبًا وللخطأ صور مختلفة أنبهك على أشياء منها وأبين وجوهها وأشرح أبوابها لتقف عليها فتجتنبها ويكون فيما أوردت دلالة على أمثاله مما تركت ومن لا يعرف الخطأ كان جديرًا بالوقوع فيه، فمن ذلك قول امرئ القيس:

ألم تسأل الربع القديم بعسعسا ... كأني أنادي أو أكلم أخرسا

فهذا فاسد لأنه لا يقال: كلمت حجرًا فلم يحبني، فكأنه كان رجلًا، وتبعه أبو نواس فقال يصف دارًا:

كأنها إذا خرست حازم ... بين ذوي تفنيده مطرق

والجيد قول كثير في امرأة:

فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطنت يومًا لها النفس ذلت

كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشى بها العصم زلت

فشبه المرأة عند السكوت والتغافل بالصخرة؛ يعني أن وضع التشبيه على أن يشبه الضعيف بالقوى إذا لم يكن الغرض مجرد التعريف كما سلف لك في البيان، ولا يحسن التشبيه المقلوب إلا إذا اشتمل على نكتة كما سلف أيضًا وهذان التشبيهان منه ولم تظهر نكتة محسنة له فيهما ظهورها في قول ابن وهب وبدا الصباح ومن خطأ المعنى قول الراعي:

يكسو المفارق واللبات ذا أرج من قصب معتلف الكافور دراج

أراد المسك فجعله من قصب الظباء والقصب بضم فسكون المعي جعل الظباء تعتلف الكافور فيتولد منها لذلك المسك، وهذا من طرائف الغلط وقريب منه قول زهير:

يخرجن من شربات ماؤها طحل على الجذوع تخاف الغم والغرقا

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق، ومثله قول ابن أحمر:

لم يدر ما نسج اليرندج قبلها

فظن اليرندج منسوجًا؛ وهو جلد أسود يعمل منه الخفاف، وأصل الكلمة فارسية، ومن الغلط مثل قول امرئ القيس:

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وإذا لم تغررها هذه الحال منه فما الذي يغرها وليس للمحتج عنه أن يقول: إنه إنما عنى بالقتل التبريح فإن الذي يلزمه مع ذكر القتل يلزمه أيضًا مع ذكر التبريح، ومما أخذ أيضًا على امرئ القيس قوله في الفرس:

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أهوج من عب

فلو وصف أخس حمار وأضعفه ما زاد على ذلك فالجيد قوله:

على سابح يعطيك قبل سؤاله أفانين جرى غير كز ولا وان

فما سمعنا أبلغ ولا أجود من قوله: أفانين جرى وقول علقمة:

فأدركهن ثانيًا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فقال: أدرك طريدته وهو ثان من عنانه ولم يضرب بسوط ولم يمره بساق ولم يزجره بصوت. قلت: وكذلك الجواد إنما يرفع رأسه بشد العنان فيعرف أن قد أريد منه الجري فيخرج ما عنده. ويحكى أن امرأ القيس لما قال قصيدة هذا البيت وقال علقمة الفحل قصيدته التي في رويها ووزنها تحاكما إلى أم جندب زوج امرئ القيس فحكمت لعلقمة على امرئ القيس بهذين البيتين؛ فطلقها وتزوجها علقمة، وسنورد لك القصيدتين بعد إن شاء الله تعالى، ومما عيب ويعاب قول الأعشى:

ويأمر لليحموم كل عشية ... بقت وتعليف وقد كاد يسنق

أي: تصيبه التخمة واليحموم اسم فرس الملك يقول: إنه يأمر لفرسه كل عشية بقت وتعليف، وهذا مما لا يمدح به الملوك بل ولا رجال من خساس الناس، وقريب منه قول الأخطل:

وقد جعل الله الخلافة منهم ... لأبلج لا عاري الخوان ولا جدب

يقوله في عبد الملك، ومثل هذا لا يمدح به الملوك، وأطرف منه قول كثير بن عبد الرحمن الخزاعي:

وإن أمير المؤمنين بلطفه ... غزا كامنات الصدر مني فنالها

فجعل أمير المؤمنين يتودد إليه، وقوله لعبد العزيز بن مروان:

وما زالت رقاك تسل ضغني ... وتخرج من مكامنها ضبابي

وترقيني لك الراقون حتى ... أجابت حية تحت الحجاب

وإنما يمدح الملوك بمثل قول الشاعر:

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها ... على البركان البر أندى من البحر

ومثل قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن غفلة كثير قوله في المنى:

ألا ليتنا يا عز كنا لذي غنى ... بعيرين نرعى في الخلاء ونعزب

كلانا به عز فمن يرنا يقل ... على حسنها جرباء تعدو وأجرب

نكون لذي مال كثير مغفل ... فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

إذا ما وردنا منهلًا هاج أهله ... إلينا فما ننفك نرمي ونضرب

فقالت له عزة: لقد أردت بي الشقاء الطويل، ومن قبيح التمني قول جنادة:

من حبها أتمنى أن يلاقيني ... من نحو بلدتها ناع فينعاها

لكي يكون فراق لإلقاء له ... وتضمر النفس بأسًا ثم تسلاها

ومثل قبح هذا التمني قبح دعاء عبد بني الحسحاس إذ يقول:

وراهن ربي مثل ما قدورينني ... وأحمي على أكبادهن المكاويا

وللناس في المنى كلام كثير بين مدح لها واستحسان وذم واستهجان قال الشاعر:

أماني من ليلى حسان كأنما ... سقتني بها ليلى على ظمأ بردا

مني إن تكن حقاتكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدا

وللطغرائي:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ومن ذم التمني قول عنترة:

ألا قاتــل الله الطلــول البواليــا وقاتــل ذكــراك الــسنين الخواليــا
وقولــك للــشيء الــذي لا تنالــه إذا هويتــه الــنفس يــا ليــت ذاليــا

ومن خطأ الوصف قول أبي ذؤيب في صفة فرس:

قــصر الــصبوح لهــا فــشرح لحمهــا بــالنئ فهــو يــسوخ فيــه الأصــبع
تــأتي بــدرتها إذا مــا اســتكرهت إلا الحمـــيم فإنـــه يتنـــصع

قال الأصمعي: هذه الفرس لا تساوى درهمين لأنه جعلها كثيرة اللحم رخوة يدخل فيها الأصبع؛ وإنما توصف بهذا الشاء يضحى بها، وجعلها لا تجري إلا بالاستقرار. ومن خطأ المعاني قول الأعشى:

ومــا رابهــا مــن ريبــة غيــر أنهــا رأت لمتــي شــابت وشــابت لــداتيا

وأي ريبة عند امرأة أعظم من شيب، ومثله قول الآخر:

وأنكرتنــي ومــا كــان الــذي نكــرت مــن الحــوادث إلا الــشيب والــصلعا

وأعجب منه قوله:

صــدت هريــرة عنــا مــا تكلمنــا جهــلًا بــأم خليــد حبــل مــن تــصل
أإن رأت رجــلًا أعــشى أضــربه ريــب المنــون ودهــر خــائن ختــل

وأي شيء أبغض عند النساء من العشا وأعجب ما في هذا الكلام أنه قال: من تصل بعدي هذه المرأة وأنا بهذه الصفة من العشا والفقر والشيب فلا ترى كلامًا أحمق من هذا. ومن الخطأ قول من أراد أن يفتخر فأوقع نفسه في أخس تشبيه حيث يقول:

تعرضــت تــيم لــي عمــدًا لأهجوهــا كما تعرض لاست الخارئ الحجر

ومن الخطأ في التشبيب قول كثير:

ومـا روضـة بـالحزن طيبـة الثـرى　　يمـج النـدى جثجاثهـا وعرارهـا
بأطيـب مـن أراد أن عـزة موهنًـا　　وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

يقال: إن عجوزًا لقيته وبيدها روثة عليها نار وضعت فيها مندلًا فقالت له: لم تزدها في الصفة على هذا، والصواب في مثل ذلك قول امرئ القيس:

ألـم تريـاني كلمـا جئـت طارقًـا　　وجـدت بهـا طيبًـا وإن لـم تطيـب

فجعلها طيبة الذات. ومن عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تخص النفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما هو من أوصاف الجسم كقول ابن الرقيات في ابن مروان:

يـأتلق التـاج فـوق مفرقـه　　علـى جبـين كأنـه الـذهب

فغضب عبد الملك وقال: قد قلت في مصعب:

إنمـا مـصعب شـهاب مـن اللـ　　ـه تجلـت عـن وجهـه الظلمـاء

فأعطيته المدح بكشف الغم وجلاء الظلم وأعطيتني ما لا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة ذلك إلى م رميتني به من صفة الأعاجم وجيد المدح قوله:

مـا نقمـوا مـن بنـي أميـة إلا　　أنهـم يحلمـون أن غـضبو
وأنهـم سـادة الأنـام ولا　　تـصلح إلا علـيهم العـرب

ومن التقصير في المديح ما تراه فيما يحكى أنه اجتمع جرير والفرزدق عند الحجاج فقال: من مدحني منكما بشعر يوجز فيه ويحسن القول في صفتي فهذه الخلعة له، فقال الفرزدق:

ومن يأمن الحجاج والطير يتقي   عقوبته إلا ضعيف العزائم

فقال جرير:

ومن يأمن الحجاج أما عقابه   فمر وأما عقده فوثيق

يسر لك البغضاء كل منافق   كما كل ذي دين عليك شفيق

فقال الحجاج للفرزدق: ما عملت شيئًا؛ فإن الطير يتقي من الصبي والخشبة. ودفع الخلعة إلى جرير. ومن خطأ المدح قول مروان بن أبي حفصة في المأمون:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلًا   بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

وحين أنشد هذا البيت لعمارة بن عقيل قال له: ما زدته على أن وصفته بصفة عجوز في يدها سبحة، هلا قلت كما قال جدي -يعني جريرًا- في عمر بن عبد العزيز:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه   ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ومن الغلط قول أبي تمام:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه   بكفيك ما ماريت في أنه برد

وما وصف أحد من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام الحلم بالرقة؛ وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة كما قال الشاعر:

أحلامنا تزن الجبال رزانة   ويزيد جاهلنا على الجهال

هذا ومرجع أسباب الخطأ في المعاني إلى الجهل بالأحوال والغفلة عما ينبغي أن يقال: ومن لم يتكلم إلا بعد علم ولم يخاطب إلا بعد صحة فهو نجا من الوقوع في مثل ما وقع فيه أولئك، وحسبك هذا دليلًا مرشدًا إلى اعتبار غيره به فيقوى التفاتك ويزيد انتباهك حتى تعتبر كل مقام وتنطق فيه بما يليق به وتهتدي إلى ذلك تمام الاهتداء بمطالعة أقوال من اتفق الناس على استحسان أقوالهم والمبالغة في تأملها ذاكرًا تلك الانتقادات وما أشبهها مما لا يصعب عليك ملاحظته مع ما ضرب لك من الأمثلة، فإذا رعيت ذلك وقد وجدت من طبعك استعدادًا لإنشاء الكلام وتحرير النظام بأن تكون قوي الحافظة والذاكرة بحيث يكون استحضارك لما تمس إليه الحاجة من الألفاظ ومصنوع العبارات كالأمثال أسرع من البرق فأقبل على ذلك وإلا فدع التكلف، فإنه ليس يأتي منك بخير تكد فكرك وتضيع وقتك وتؤذي سامعك وقل: إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وتذكر ما روي عن المبرد حيث يقول: لا أحتاج إلى وصف نفسي لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد من الخافقين يختلج في نفسه مسألة مشكلة إلا لقيني بها وأعدني لها، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى علي مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل، ولربما احتجت إلى اعتذار من فلتة والتماس حاجة فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلًا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغني أن عبد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أموري فاتعبت نفسي يومًا في ذلك، فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما في ضميري فينحرف لساني إلى غيره وما حكي عن بعض أكابر العلماء وقد قيل له: لم لا تقول الشعر؟ فقال: ما أرضاه لا يجيئني ما لا أرضاه. وعن اليوناني

الذي كان يعلم الشعر فتبرع فيه تلامذته وهو لا يقوله فسئل في ذلك فقال: أنا كالمسن أرهف ولا أقطع. فهذا اعتراف العقلاء الراضين بما قسم لهم الواقفين عند حدودهم المتحققين بقوله صلى الله عليه وسلم: «**من طلب ما لم يخلق تعب ولم يرزق**». ثم ليكن أمر الكاتب في الكتابة على ما وصف أبو هلال حيث يقول: واعلم أن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ؛ لأن حكم ما ينفذ من السلطان في كتبه شبيه بحكم توقيعاته من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى هذا إذا كان الأمر والنهي واقعين في جملة واحدة لا تقع فيها وجوه التمثيل للأعمال، فأما إذا وقعا في ذلك الجنس فإن الحكم فيها يخالف ما ذكرناه وسبيل الكلام فيها أن يحمل على الإطالة والتكرير دون الحذف والإيجاز، وذلك مثل ما يكتب عن السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها فسبيل الكلام أن تقدم فيه ذكر ما رآه السلطان في ذلك ودبره ثم تعقب في ذكر الأمر بامتثاله، ولا تقتصر على ذلك حتى تكرر وتؤكد لتتأكد الحجة على المأمور به ويحذر مع ذلك من الإخلال والتقصير ومنها الإحماد والإذمام والثناء والتقريظ والذم والاستصغار والعذل والتوبيخ، وسبيل ذلك أن يشبع الكلام فيه ويمد القول حسب ما تقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير ليرتاح بذلك قلب المطيع ويبسط أمله ويرتاع قلب المسيء ويأخذ نفسه بالارتداع، فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم فإن سبيل ما كان واقعًا منها في إنهاء الأخبار وتقرير صورة ما يلونه من الأعمال ويجري على أيديهم من صنوف الأموال أن يمد القول حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع وتمام الشرح والاستقصاء؛ إذ ليس للإيجاز والاقتصار فيه موضع، ويكون ذلك بالألفاظ السهلة القريبة

المأخذ السريعة إلى الفهم دون ما يقع فيه استكراه وتعقيد وربما تعرض الحاجة في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتورية عن الشيء دون الإفصاح به لما في التصريح من هتك السر، وفي حكايته عن عدو ما أطلق لسانه به من أطراح مهابة الرئيس فيجب إجلاله عنه وفي الصدق ما يسوؤه سماعه ويقع بخلاف محبته فيحتاج منشئ الكتاب إلى استعمال لفظ في العبارة لا تنحرق معه هيبة الرئيس ولا يعرض فيه بما يشتد عليه ولا يكون أيضًا معها خيانة في طي ما يجب نشره ولا يكمل لهذا إلا المبرز الكامل المقدم، وسبيل ما يكتب به في باب الشكر ألا يقع فيه إسهاب فإن إسهاب المبالغ في الشكر يرجع إلى نوع من الإبرام والتثقيل، ولا يحسن منه أن يستعمل الإكثار من الثناء والدعاء أيضًا، فإن ذلك فعل ألاباعد الذين لم يتقدم لهم وسائل من الخدمة ومقدمات من الحرمة وتكون صناعتهم التكسب بتقريظ الملوك وإطراء السلاطين، فلا يقبح إكثار الثناء من هؤلاء وليس يحسن تكرير الدعاء في صدور الكتب والرقاع وعند ما يجريه من ذكر الرئيس فإن ذلك مشغلة وكلفة، وحكم ما يستعمل من ذلك في الكتب حكم ما يستعمل شفاها منه ويقبح من خادم السلطان أن يشغل سمعه في مخاطبته إياه بكثرة الدعاء له وتكريره عند استئناف كل لفظة وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النظر ألا يكثر من شكاية الحال ورقتها واستيلاء الخصاصة عليه فيها، فإن ذلك يجمع إلى الإضجار والإبرام شكاية الرئيس بسوء حاله وقلة ظهور نعمته عليه، وهذا عند الرؤساء مكروه جدًّا؛ بل يجب أن يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة وتوفير الفائدة وسبيل ما يكتب به في الاعتذار من شيء أن يتجنب الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة

الموجدة ولا يمعن في تبرئة ساحته من الإساءة والتقصير، فإن ذلك مما يكرهه الرؤساء والذي جرت به عادتهم استحسان الاعتراف من خدمهم وخولهم بالتقصير والتفريط في قضاء حقوقهم وتأدية فروضهم ليكون لهم فيما يعقبون به ذلك من العفو والتجاوز موضع منة مستأنفة تستدعي شكرًا وعارفة مستجدة تقتضي نشرًا، وأما إذا بالغ المتنصل في براءة ساحته من كل ما قذف به فلا موضع للإحسان إليه في إعفائه من ترك التسخط بل ذلك أمر واجب له وفي منع الرئيس حصته منه ظلم وإساءة، وينبغي أن لا يكثر الألفاظ عنده وإن احتاج إلى إعادة المعاني أعاد ما يعيده منها بغير اللفظ الذي ابتدأه به مثل ما قال معاوية: من لم يكن في بني عبد المطلب جوادًا فهو دخيل ومن لم يكن من بني الزبير شجاعًا فهو لزيق ومن لم يكن من ولد المغيرة تياهًا فهو مستند. والمعنى واحد والكلام على ما تراه حسن ولو قال: لزيق ثم أعاده لسمج هذا. قلت: فهذا مثال رسمه أبو هلال ليكون عمل الكاتب على موجبه ويهتدي به إلى رعاية مقامات الخطاب في سائر أصناف المعاني وليس على المؤلف أن يبين لك عن كل صغيرة وكبيرة؛ وإنما عليه أن يعين لك الطريق التي ينبغي أن تسلكها ثم تستعمل ذوقك وقوة فكرك في تمييز الأشياء وإعطاء كل شيء حقه حسبما تقف عليه من الآداب التي أودعتها أسلافك في منشآتهم نثرًا ونظمًا وما يخصك به الفتاح العليم مما يشاكل ذلك وينتظم في سلكه. ثم قال أبو هلال في الإبانة عن حسن النظم جودة الرصف والسبك: أجناس الكلام المنظومة ثلاثة: الرسائل والخطب والشعر وجميعها يحتاج إلى علم حسن التأليف وجودة التركيب وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحًا، ومع سواء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سيئًا ورصف اللفظ جيدًا كان أحسن موقعًا وأطيب مسمعًا فهو

بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة إلى ما يليق بها كان رائقًا في المرأى وإن لم يكن مرتفعًا نبيلًا وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين، وإن كان فائقًا ثمينًا وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن من أماكنها ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذف ما تقتضيه الأحوال المبينة بعلم المعاني وبضم كل لفظة منها إلى كشلها وتضاف إلى وفقها. وقال العتابي: الألفاظ أجساد والمعاني أرواح وإنما نراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرًا أو أخرت منها مقدمًا أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما أنه لو حول رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رأس أو رجل لتحولت الحلية وتغيرت الخلقة، وقد أحسن في هذا التمثيل ونبه به على أن الذي ينبغي في صنعته وضع كل شيء موضعه ليخرج بذلك من سوء النظم، فمن سوء النظم المعاظلة وقد مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيرًا بمجانبتها إذ قال حين فضله على الشعراء: كان لا يعاظل في شعره ولا يمدح الرجال إلا بما في الرجال، وأصل هذه الكلمة من قولهم: تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما على الأخرى وعاظل الرجل على المرأة إذا ركبها، فمن المعاظلة قول الفرزدق:

تعش فإن عاهدتني لا تخونني تكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وقوله:

تخامص عن برد الوشاح إذا مشت تخامص حافي الخيل في الأمعز

أي: تخامض حافي الخيل الوجى في الأمعز وقول لبيد:

وشمول قهوة باكرتها في التباشير من الصبح الأول

وقول أبي حية النميري:

كما خط الكتاب بكف يومًا ... يهودي يقارب أو يزيل

وقول امرأة من قيس:

هما أخوا في الحرب من لا أخاله ... إذا خاف يومًا نبوة فدعاهما

تريد أخوا من لا أخاله في الحرب وليس للحدث أن يقول: هذه الأبيات حجة وبيتي عليها فإنه لا يعذر في شيء منها لإجماع الناس اليوم على مجانبة أمثالها واستجادة ما يصح من الكلام واسترذال ما يشكل ويستبهم. قلت: وذلك لأن الشعر وإن كان للعرب صناعة كما هو لغيرهم فإنهم هو المخترعون له والسنة الإلهية على أن الفكر الإنساني لا يحيط بجميع ما يحسن في أمر ويقبح؛ ولكن يلقى في فكر ما فات غيره، ولذلك كان شعراء العرب ينتقد بعضهم على بعض، ومنه حصل التفاوت في البلاغة واختلف الناس في تفضيل شاعر على شاعر حتى تبينت محاسن الصناعة ومساويها، فمن أراد أن يكون من أهلها فعليه أن ينتهي من التعلم إلى غايته حتى يتمكن من إعطاء الصناعة حقها فقد نصبت له الأمثلة وعينت له الحدود. قال أبو هلال: فمن الكلام المستوي النظم الملتئم الرصف قول أخت طريف ترثيه:

أيا شجر الخابور ما لك مورقًا ... كأنك لم تحزن على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنى وسيوف

كأنك لم تشهد طعانًا ولم تقم ... مقامًا على الأعداء غير خفيف

فلا تجزعا يا ابني طريف فإنني ... أرى الموت حلالًا بكل شريف

والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سهولته وسلاسته وسيولته وقلة ضروراته، ومن ذلك قول بعض المحدثين:

وقوفك تحت ظلال السيوف ... أقر الخلافة في دارها
كأنك مطلع في القلوب ... إذا ما تناجت بأسرارها
وكراة طرفك مردودة ... إليك بغامض أخبارها
وفي راحتيك الردى والندى ... وكلتاهما طوع ممتارها
وأقضية الله محتومة ... وأنت منفذ أقدارها

ولا تكاد القصيدة تستوي أبياتها في حسن التأليف ولا بد أن تتخالف في ذلك كقول عبيد بن الأبرص:

وقد علا لمثي شيب فودعني ... له الغواني وداع الصارم القالي
وقد أسلى همومي حين تحضرني ... بجسرة كعلاة القين شملال
زيافة يقتود الرحل ناجية ... تنفي الهجير بتبغيل وإرقال

فهذا نظم حسن وتأليف مختار وفيها ما هو رديء لا خير فيه كقوله:

بأن الشباب فآلى لا يسلم بنا ... واحتل من مشيب كل محلال

وقوله:

فبت ألعنها طورًا وتلعنني ... ثم انصرفت وهي مني على بال

فقوله: واحتل بي من مشيب كل محلال بغيض خارج عن طريق الاستعمال، وأبغض منه قوله: وهي مني على بال بتسكين هي ضرورة، وقوله:

وكبش ملمومة بباد نواجذها ... شهباء ذات سرابيل وإبطال

السرابيل الدروع فلو وضع السيوف مع الدرع لكان أجود، ومثل هذا النقد مما سبقت به العرب وقوله:

وقهوة كرضاب المسك طاب بها ... في دنها كر حول بعد أحوال

هذا البيت متوسط وقوله:

باكرتها قبل أن يبدو الصباح لنا ... في بيت منهمر الكفين مفضال

النصف الثاني خير من الأول، فإن قوله: باكرتها كاف وما بعده فضل وكقول النمر بن تولب:

لعمري لقد أنكرت نفسي ورابني ... مع الشيب إبدال التي أتبدل

فضول أراها في أديمي بعدما ... يكون لفاق اللحم أو هو أجمل

وبطء عن الداعي فلست بآخذ ... سلاحي إليه مثل ما كنت أفعل

كان مخطًا في يدي حارثية ... صناع علت مني به الجلد من عل

تدارك ما قبل الشباب وبعده ... حوادث أيام تمر وأغفل

يود الفتى طول السلامة جاهدًا ... فكيف ترى طول السلامة يفعل

فهذه الأبيات جيدة السبك حسنة الرصف، وقوله:

فلا الجارة الدنيا لها تلحينها ... ولا الضيف عنها أن أناخ محول

فالنصف الأول مختل لأنه خالف فيه وجه الاستعمال ووجه الكلام ولا تلحي حارثها الدنيا أي القريبة وأعطى المرأة في النصف الثاني ما ليس من صفتها، وقوله:

إذا هتكت أطناب بيت وأهله ... بمعطنها لم يوردوا الماء قيلوا

هذا مضطرب لتناوله المعنى من بعد، ووجه الكلام أن يقول: إذا دنت إبلنا من حي ولم ترد إبلهم الماء قيلوا، والقيل شرب نصف النهار يعني أنهم لعزهم وشدة بأسهم متى وردوا ماء وعنده من سبقهم إليه قدموهم ولم يجسروا أن يتقدموهم بل يضطرون إلى تأخير السقي لغير وقته وهو نصف النهار ووقته الغداة، ومثال حسن الرصف من المنثور قول القائل: ولولا أن أجود الكلام ما يدل قليله على كثيرة وتغني جملته عن تفصيله لوسعت نطاق القول فيما انطوى عليه من خلوص المودة وصفاء المحبة فجال مجال الطرف في ميدانه وتصرف الروض في افتنانه؛ لكن البلاغة بالإيجاز أبلغ من البلاغة بالإطناب، ومن تمام حسن الرصف أن يخرج الكلام مخرجًا يكون له فيه طلاوة وماء، فربما كان الكلام مستقيم الألفاظ صحيح المعاني ولا يكون له رونق ولا رواء وذلك بأن يخرج في غيرة تكلف وكد وشدو وتفكر وتعمل ويكون سلسًلا سهلًا وله ماء ورواء ورقراق، وعليه فريد لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه تدرك ذلك بالوجدان بعد كثرة قراءة مختلفات الأشعار، فإنك تجد لنفسك من الفرح عند قراءة بعضها ما لا تجده عند قراءة غيره واعتبر ذلك بمثل قول الحطيئة:

هم القوم الذين إذا ألمت ... من الأيام مظلمة أضاءوا

وقوله:

له في بنى الحاجات أيد كأنها ... تساقط ماء المزن في البلد القفر

وقول أشجع:

قصر عليه تحية وسلام ... نشرت عليه جمالها الأيام

وإذا سيوفك صافحت هام العدا ... طارت لهن عن الفراخ الهام

برقت سماؤك للعدو فأمطرت هامًا لها ظل السيوف وغمام

وعلى عدوك يا بن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام

فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

ففي هذه الأبيات مع جودتها رونق ليس في غيرها مما يجري مجراها من صحة المعنى وصواب اللفظ هذا، ومما ينبغي أن نطلعك عليه مع ما سبق تتميمًا لمعرفتك ودلالة لك على ما يعترضك في الطريق التي تسلكها لمعرفة إنشاء الكلام نثرًا ونظمًا أن المعاني دائرة بين الناس يتفاوتون في التعبير عنها، ومنه نشأ القول بأن الناس يأخذ بعضهم من بعض وتنويع ذلك الأخذ إلى حسن وغير حسن، فوجب أن نسوق لك أمثلة من ذلك لتطلب الحسن وتجتنب غيره.

قال أبو هلال: ليس لأحد من أصناف القائلين غني عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم؛ ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكتبوها عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويؤدوها في غير حليتها الأولى ويزيدوا في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أولى بها ممن سبق إليها ولولا أن القائل يؤدي ما سمع ما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لولا أن الكلام يعاد لنفد على أن المعاني مشتركة بين العلاء وربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي، وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها، وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ولكن كما وقع للأول وقع للآخر، وهذا أمر عرفته من

نفسي فلست أمتري فيه وذلك أني كنت عملت في صفة النساء: سفرن بدور أو انتقبن أهلة

وظننت أني سبقت إلى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت إلى أن وجدته لبعض البغداديين فكثر تعجبي وعزمت على ألا أحكم على المتأخر بالسرق من المتقدم حكمًا حتمًا وقد قيل: إن من أخذ المعنى فكساه لفظًا من عنده كان هو أولى به ممن تقدمه وقالوا: إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه ومن أخذ معنى بلفظه كله أو بعضه فذلك هو السارق كقول النابغة:

بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقد سبقه إليه رجل من كندة في عمرو بن هند حيث يقول:

هو الشمس وافقت يوم دجن على كل ضوء والملوك كواكب

والحاذق يخفى دبيبه إلى المعنى حتى يأخذه في ستر فيحكم له بالسبق إليه من يمر به، وأحد أسباب إخفاء السرق أن يأخذ المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعله في مديح أو من مديح فينقله إلى وصف مثلًا إلا أنه لا يكمل لهذا إلا المبرز الكامل المقدم، فمن أخفى دبيبه إلى المعنى وستره غاية الستر أبو نواس في قوله:

أعطتك ريحانها العقار

إذ كان قد أخذه من قول الأعشى على ما قالوا:

وسبية مما تعتق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها

سئل الأعشى عن سلبتها جريالها والجريال حمة المدام أو هي المدام الحمراء فقال: شربتها حمراء وبلتها بيضاء فبقى حسن لونها في بدني، ومعنى أعطتك ريحانها العقار أي: شربتها، فانتقل إليك وكذلك قوله:

لا ينـزل الليـل حيـث حلـت ... فـدهر شـرابها نهـار

من قول قيس بن الخطيم:

قضى لها الله حين صورها الخـ ... ـالق ألا تجنهـا السـدف

فنقل ذلك أبو نواس من صفة المرأة إلى الخمر وكقول أبي تمام:

جمعت عرى أعمالها بعد فرقة ... إليك كما ضم الأنابيب عامل

قبل نقله إلى المدح من قول أبي حال الربعي في الرثاء:

أولئك إخوان الصفاء رزئتهم ... وما الكف إلا أصبع ثم أصبع

وكقول البحتري:

ولو أن مشتاقًا تكلف غير ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر

نقله إلى المدح من قول العرجي في الغزل:

لو كان حيًا قبلهن ظعائنا ... حي الحطيم وجوههن وزمزم

إلا أنه غير خاف ثم المدار في حسن الأخذ على أن يشتمل كلام الآخذ على ما لم يشتمل عليه كلام المأخوذ منه من حسن تركيب أو ا ختصار عبارة أو زيادة معنى، وتستبين ذلك فيما تراه من الأمثلة قال مسلم بن الوليد:

أحب الريح ما هبت شمالًا ... وأحسدها إذا هبت جنوبا

أخذه من قول جران العود:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم　　وجدت لرياها على كبدي بردا

وقال أيضًا:

ويغمد السيف بين النحر والجيد

أخذه من قول بعض الفرسان:

جعلت السيف بين الليت منه　　وبين سواد لحيته عذارا

فإغماد السيف أقوى من جعله عذارًا، وقال أبو نواس:

سبط ا لبنان إذا احتبى بنجاده　　غمر الجماجم والسماط قيام

يصف ممدوحه ببسطة القامة فيقول: إنه وهو قاعد محتب بنجاده يطول من حوله من العسكر وهم قيام، وكان الخليفة إذا جلس مجلس المهابة قام بجانبيه صفان ممتدان إلى مسافة من العسكر يمشي بينهما المار إليه وهما السماطان، وكان يقال: قال فلان القصيدة الفلانية وأنشدها بين السماطين، أخذ أبو نواس قوله من قول جرير:

وقد أطول نجاد السيف محتبيًا　　مثل الرديني هزته الأنابيب

وقال أيضًا في هذا المعنى:

أشم طويل الساعدين كأنما　　يلاث نجادًا سيفه بلواء

أخذه من قول عنترة:

بطل كأن ثيابه في سرحة　　يحذى نعال السبت ليس بتوأم

وقال محمد بن عطية العدوي:

ما العيش إلا في جنون الصبى ... فإن تقضى فجنون المدام
راح إذا ما الشيخ والى بها ... خمسا تردى برداء الغلام

قيل أخذه من قول حسان:

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ... ـود ما لم يعاص كان جنونا

وقال أبو تمام:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

أخذه من قول كثير:

إذا ما أرادت خلة أن تزيلنا ... أبينا وقلنا الحاجبية أول

وقال أبو تمام أيضًا:

وركب كأطراف الأسنة عرسوا ... على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره ... وليس عليهم أن تتم عواقبه

أخذ البيت الأول من قول البعيث:

أطافت بركب كالأسنة هجد ... بخاشعة الأرجاء غبر صحونها

والبيت الثاني من قول أعرابي:

غلام وغى تقحمها فأبلى ... فخان بلاءه الزمن الخؤون
وكان على الفتى الإقدام فيها ... وليس عليه ما جنت المنون

وقال في رثاء ولدين لعبد الله بن طاهر:

نجمان شاء الله ألا يطلعا ... إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

إن الفجيعة بالرياض نواضرًا ... لأجل منها بالرياض ذوابلا
لهفي على تلك المخايل فيهما ... لو أمهلت حتى تكون شمائلا
لو ينسأن لكان هذا غاربًا ... للمكرمات وكان هذا كاهلا
إن الهلال إذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيصير بدرًا كاملا

ألم في هذه المعاني بقول الفرزدق وأجاد ما شاء:

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح ... عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظة ... لو أن المنايا أنسأته لياليا

ويحكى عن أبي نواس أنه كان يقول: ما زلت أستهجن قول الشماخ:

إذا بلغتني وحملت رحلي ... عرابة فأشرقي بدم الوتين

وموافقة ذي الرمة إياه في قوله:

إذا ابن أبي موسى بلالًا بلغته ... فقام بفاس بين عينيك جازر

حتى سمعت قول الفرزدق:

علام تلفتين وأنت تحتي ... وخير الناس كلهم أمامي
متى تردى الرصافة تستريحي ... من التهجير والدبر الدوامي

فتبعته في قولي:

وإذا المطي بنا بلغن محمدًا ... فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطئ الحصى ... فلها علينا حرمة وذمام

وقلت:

أقول لناقتي إذ بلغتني ... لقد أصبحت عندي بالثمين

فلــم أجعلــك للعربــان نحــلًا ... ولا قلــت أشــرقي بــدم الــوتين
حرمــت علــى الأزمــة والولايــا ... وأعــلاق الرحالــة والوضــين

فأنت تراه قد اعترف بالمتابعة ولم يخش فيها معابة لما عرفت من استحسان سلوكهم تلك السبيل إذا أحسنوا وأجادوا، وقد شرف هذا المعنى صلى الله عليه وسلم خيث قال لامرأة قالت: نجوت على هذه النجيبة ونذرت إن بلغتني أن أنحرها: «بئس ما جزيتها». ويحكى أن دعبلًا كان جالسًا يومًا في جماعة فجري ذكر أبي تمام فوقع فيه كما هو شأن أكثر المتعاصرين المشتركين في صناعة وقال: إنه يتتبع معاني فيأخذها فقال رجل: ما من ذالك أعزك الله فقال: قلت:

وإن امــرأ أســدى إلــي بــشافع ... إليـه ويرجـو الـشكر مني لأحمـق
شـفيعك فاشـكر فـي الحـوائج إنـه ... يصونك عن مكروهها وهـو يخلق

فقال:

فمتـى أقـوم بحـق شـكرك إذ جنـت ... بالغيــب كفــك لــي ثمــار نوالــه
فلقيــت بـين يـديك حلـو عطائـه ... ولقيــت بــين يديــه مــر ســؤاله
وإذا امــرؤ أســدى إليــك صـنيعة ... مــن جاهــه فكأنهــا مــن مالــه

فقال الرجل: أحسن والله فقال دعبل: كذبت قبحك الله فقال الرجل: إن كان سبق إلى هذا المعنى فتبعته لما أحسنت، وإن أخذه منك لقد أجاده فصار أولى به منك، فغضب دعبل وقام، فانظر هداك الله في مثل هذا يفدك أدبًا فأي إساءة أساء دعبل، فإن من أسدى يستوجب الشكر على أي حال ولمن أسدى بشفيع منتان وما على المحسنين من سبيل، وقد أظهر دعبل حماقته في قوله: أحمق ويخلق، وكان طبع دعبل لا يصبر عن

الهجاء وبقى مدة مستخفيًا بدور في البلاد لهجائه الملوك، وكان يقول: أنا منذ كذا وكذا أحمل خشبتي على كتفي يعني خشبة الصلب لكونه كان يتوقع ذلك لإفراطه في التشيع وذمه خلفاء وقته، وأي إحسان أحسن أبو تمام في سلاسة عبارته وتمام أدبه، وسمع بشار قول المجنون:

ألا إنمــا ليلــى عــصا خيزرانــة إذا غمزوهــا بــالأكف تلــين

فقال: والله لو جعلها عصا من زبد أو مخ لما أحسن ألا قال مثل ما قلت:

وحــوراء المــدامع مــن معــد كــأن حــديثها ثمــر الجنــان
إذا قامــت بــسبحتها تثنــت كــأن عظامهــا مــن خيــزران

واستهجن الناس قوله عظامها ولما قال بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفــاز بالطيبــات الفاتــك اللهــج

تبعه سلم الخاسر فقال:

مــن راقــب النــاس مــات غمًّــا وفـــاز باللـــذة الجـــسور

فلما سمع بشار هذا البيت قال: ذهب ابن الفاعلة ببيتي وكان تلميذه ومن حسن الاتباع قول إبراهيم بن العباس الصولي إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه وللمسيء من العقاب ما يقمعه ازداد المحسن في الإحسان رغبة وانقاد المسيء للحق رهبة اتبع فيه عليًا كرم الله وجهه حيث يقول: يجب على الوالي أن يتعهد أموره ويتفقد أعوانه حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء، ثم لا يترك واحدًا منهما بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وانفد الأمر وضاع العمل وقال بعضهم:

أأقاتــل الحجــاج عــن ســلطانه بيــــد تقــــر بأنهــــا مولاتــــه
مــــاذا أقــــول إذا وقفــــت إزاءه فــي الــصف واحتجــت لــه فعلاتــه

وقال نصيب:

فعــاجوا فــأثنوا بالــذي أنــت أهلــه ولــو سكتوا أثنت عليك الحقائب

أي: ولو سكنوا أثنت عليك العطايا الظاهرة وقيل: شهادة الأحوال أعدل من شهادة الأقوال فكتب من كتب اتباعًا لذلك لو أمسك لساني عن شكرك لنطق أثرك علي وفي موضع آخر ولو جحدت إحسانك لأكذبتني آثارك ونمت علي شواهده وقال أبو نواس:

قــــولًا لهــــارون إمــــام الهــــدى عنــد احتفــال المجلــس الحاشــد
أنــت علــى مــا بــك مــن قــدرة فلــست مثــل الفــضل بالواجــد
لــــيس علــــى الله بمــــستنكر أن يجمــع العــالم فــي واحــد

أخذًا من قول جرير:

إذا غــضبت علــى بنــو تمــيم وجــدت النــاس كلهــم غــضابا

وقال ابن عيينة:

مــــا كنــــت إلا كلحــــم ميــــت دعــــا إلــــى أكلــــه اضــــطرار

أخذه من قول الأول:

وإن بقــــوم ســــودوك لفاقــــة إلــى ســيدلو يظفــرون بــسيد

وقال إبراهيم بن العباس:

لفــــضل بــــن ســــعد يــــد تقاصــــر عنهــــا المثــــل

فبسطتها للغنى وسطوتها للأجل
وباطنها للندى وظاهرها للقبل

فقال ابن الرومي:

أصبحت بين خصاصة وتجمل والمرء بينهما يموت هزيلا
فامدد إلي يدًا تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقبيلا

ولكن قول إبراهيم باطنها وظاهرها أحسن من تعود بطنها وقال بشار:

الدهر طلاع بأحداثه ورسله فيها المقادير
محجوبة تنفذ أحكامها ليس لها عن ذاك تأخير

فتبعه ابن الرومي حيث يقول في المدح:

يظل عن الحرب العوان بمعزل وآثاره فيها وإن غاب شهد
كما احتجب المقدار والحكم على الناس طراليس عنه معرد

قال أبو هلال: إلا أن قول بشار أكثر ماء وطلاوة وقال أبو تمام:

وجدت رجائي فيك وحدك همة ولكنه في سائر الناس مطمع

قال أبو هلال: أخذه البحتري واختصره:

ثني أملي واحتازه عن معاشر يبيتون والآمال فيهما مطامع

وعجبت من قول أبي هلال فقد نزل البحتري عن أبي تمام درجات فأين هو من قوله: وحدك همة ومن قوله: في سائر الناس وكيف يقول: اختصر وهو يقول: ثنى أملي واحتازه عن معاشر يبيتون وتبعهم ابن الرومي في هذا المعنى حيث يقول:

بـه صـدق الله الأمـاني حـديثها   وقـد مـر دهـر والأمـاني وسـاوس

وقال أبو تمام:

همـة تـنطح النجـوم وجـد   آلـف للحـضيض فهـو حـضيض

وتبعه البحتري فلم يسيء:

متحيـر يغـدو بعـزم قـائم   فـي كـل نائبـة وجـد قاعـد

وقال أبو العتاهية:

كـم نعمـة لا تـستقل بـشكرها   لله فـي طـي المكـاره كامنـه

فتبعه أبو تمام بقوله:

قـد يـنعم الله بـالبلوى وإن عظمـت   ويبتلـي الله بعـض القـوم بـالنعم

لكنه وإن زاد فقول أبي العتاهية أجمل. وقام أبو تمام:

رافعًـا كفـه لبـري فمـا أحـ   ـسبه جـاءني لغيـر اللطـام

أخذه البحتري فأوضحه وأحسن العبارة عنه:

ووعـد لـيس يعـرف مـن عبـوس   بـأوجههم أوعـد أم وعيـد

وقال عربي:

وفرقـت بـين ابنـي هتـيم بطعنـة   لهـا عانـد يكـسو الـسليب إزاره

العاند الدم الشديد الخروج فأخذه البحتري وقال:

سـلبوا وأشـرقت الـدماء علـيهم   محمـرة فكـأنهم لـم يـسلبوا

على أن محمرة حشو وكفاك هذا القدر منبها على اعتبار أمثاله عند قراءة الأشعار متى كنت مستحضرًا، وهاك أمثلة لقبيح الأخذ فمن ذلك لو لم يكن من توارد الخواطر قول طرفة:

وقوفًا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

أخذًا من قول امرئ القيس بتغيير القافية:

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول الفرزدق:

أترجو ربيع أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا ربيعًا كبارها

من قول البعيث:

أترجو كليبًا أن يجيء حديثها بخير وقد أعيا كليبًا قديمها

وفي توارد الخواطر يقول أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن الشاعرين يتفقان عقول رجال توافقت على ألسنتها وفي تحقيق توارد الخواطر يروى أنه لما أنشد عمر بن أبي ربيعة عبد الله بن العباس رضي الله عنهما قوله: (تشط غدا دار جيراننا) سبقه لتتميم البيت فقال: (وللدار بعد غد أبعد) فقال عمر: هكذا قلت فقال: هكذا ينبغي أن يقال وأن جريرًا والفرزدق حضرا مرة مجلس هشام أو غيره وعدي بن الرقاع ينشد قصيدته التي أولها:

عرف الديار توهمًا فاعتادها

فلما وصل إلى قوله في صفة الغزالة وابنها:

تزجى أغن كأن أبرة روقه

عرض للملك شغل عن الاستماع فقال الفرزدق لجرير: ماذا تراه يقول؟ فقال جرير: أراه يستلب مثلًا. قال الفرزدق: إنه يقول:

قلم أصاب من الدواة مدادها

فلما عاد عدي للإنشاد وأتم البيت هكذا قال جرير: لقد حسدت الفرزدق على إدراكه فوق ما حسدت عديًا على شعره، ومثل ذلك وقع كثيرًا لا سيما في الأشعار المحكمة التي تنبئ صدورها عن إعجازها وخطب النابغة بين يدي النعمان فقال: يفضله على ملك غسان أيفاخرك ابن جفنة؟ واللات لأمسك خير من يومه ولقذالك أحسن من وجهه وليسارك أسمح من يمينه ولعبدك أكبر من قومه ولنفسك أكبر من جده وليومك أشرف من دهره ولوعدك أنجز من رفده ولهزلك أضرب من جده ولكرسيك أرفع من سريره ولقبرك أبسط من شبره ولأمك خير من أبيه، فأخذ الشعراء قول النابغة: ولقذالك أحسن من وجهه. قال أبو نواس:

بذ حسن الوجوه حسن قفاكا

وقال عبد الصمد بن المعذل:

لما رأيت البدر في	أفق السماء وقد تعلى
ورأيت قرن الشمس في	أفق السماء وقد تدلى
شبهت ذاك وهذه	وأرى شبيههما أجلا
وجه الحبيب إذا بدا	وقفا الحبيب إذا تولى

قال أبو هلال: لا يحسن أن يقال للرجل: قفاك حاله كذا وكذا فعبارة النابغة أحسن وسمع الحسن بن وهب قول أعرابي: جمعتني وإياها ظلمة الليل وكان البدر يزينها فلما غاب أرتنيه فقال:

أراني البدر سنتها عشاء ... فلما أزمع البدر الأفولا
أرتنيه بسنتها فكانت ... من البدر المنور لي بديلا

فأساء بالإطالة والتكرير وسوء العبارة فقد فاته قول الأعرابي وكان البدر يزينها وقال البحتري:

أضرت بضوء البدر والبدر طالع ... وقامت مقام البدر لما تغيبا

قال أبو هلال: زاد البحتري على الأعرابي في قوله: أضرت قلت: ولم يصب فليس قوله: أضرت واقعًا من الحسن موقع قول الأعرابي وسمع بعضهم قول محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... على له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سروره ... وإن مس بالضراء أعقبه أجر
وما منهما إلا له فيه نعمة ... تضيق بها الأوهام والبر والبحر

فقال وأساء:

الحمد لله إن الله ذو نعم ... لم يحصها عددًا بالشكر من حمدا
شكري له عمل فيه على له ... شكر يكون فما للشكر فيه مدى

وقال علي كرم الله وجهه: قيمة كل امرئ ما يحسنه. فقال ابن طباطبا العلوي:

فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وقال آخر: (فقيمة كل امرئ علمه) فأساء كل وإساءة الأول أشد فإن قوله: كل الناس ليس كقولهما كل امرئ وقال عربي:

دنوت له بأبيض مشرفي كما يدنو المصافح للعناق

فأساء في أخذه أبو تمام حيث يقول:

حن إلى الموت حتى ظن جاهله بأنه حن مشتاقًا إلى وطن

وأحسن البحتري أخذه في قوله:

تسرع حتى قال من شهد الوغى لقاء أعاد أم لقاء حبائب

وقال ذو الرمة:

وليل كجلباب العروس أدرعته بأربعة والشخص في العين واحد

أحم غدًا في وأبيض صارم وأسمر خطى وأبيض ماجد

فأساء في أخذه أبو تمام في قوله:

البيد والعيس والليل التمام معًا ثلاثة أبدًا يقرن في قرن

فقوله: والليل التمام معًا وقوله: ثلاثة أبدا وقوله: يقرن في قرن كلها عبارات قبيحة، وأجاد البحتري الاتباع بعض الإجادة في قوله:

اطلبا ثالثًا سواي فإني رابع العيس والدجى والبيد

وقال البحتري:

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

فقصر عن أصله، وهو قول عمرو بن معد يكرب:

والضاربين بكل أبيض مرهف والطاعنين مجامع الأضغان

فقوله: مجامع الأضغان أجود من قوله: مواطن الكتمان لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل إضغانهم، فإذا وقع الطعن في موضع الضغن فذاك المراد، وقال البحتري أيضًا:

من غادة منعت وتمنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل

منعت بصيغة فعل المجهول أي: منعها أهلها وكذلك بذلت أي: لو بذلوها فقصر فيه عن قول عبد الصمد بن المعذل لاختصاره وظهور المعنى فيه:

ظبي كان بخصره من دقة ظمأ وجوع

ومن البلية أنني علقت ممنوعًا منوع

وغير حسن قوله: ظمأ وجوعا وقد يتفق الشاعر أن الآخذ والمأخوذ منه في سوء العبارة كقول ابن أذينة:

كأنما عائبها دائبًا زينها بتزيين

وقول أبي نواس:

كأنهم أثنوا ولم يعلموا عليك عندي بالذي عابوا

وربما اتفقا في الإجادة كقول أعرابي:

فنم عليها المسك والليل عاكف

وقول البحتري:

وحاولن كتمان الترحل في الدجى فنم بهن المسك حين تضوعا

وقال أيضًا:

فكان العبير بها واشيًا وجرس الحلى عليها رقيبا

وزاحمهما المتنبي بقوله:

قول المليحة وهي مسك هتكها ومسيرها في الليل وهي ذكاء

فجمع شيئين كما فعل البحتري في بيته الثاني؛ ولكنه سقط في أسفل الرابية. وقال عربي:

حرام على أرماحنا طعن مدبر وتندق قدما في الصدور صدورها

مسلمة إعجاز خيلي في الوغى مكلمة لباتها ونحورها

وقال أبو تمام:

أناس إذا ما استحكم الروع كسروا صدور العوالي في صدور الكتائب

فأحسنا جميعًا، ومن وادي هذا الكلام قول بعضهم:

يلقي السيوف بوجهه وبنحره ويقيمها منه مقام المغفر

ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا فهدمت ركن المجدان لم تعقر

وفي قوله: ويقيمها استخدام، فإن الكناية لسيوف الممدوح وقول أبي بكر بن النطاح:

يتلقى الندى بوجه حيي وصدور القنا بوجه وقاح

وهذا كله مأخوذ من قول كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

أو من قول حسان:

ولسان على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وهذا ما أردت نقله من كتاب أبي هلال فاستوعه، ثم اعلم أن الناس في نقد الشعر وسائر الكلام صنفان؛ الصنف الأول الشعراء والكتاب ورواة المنظوم والمنثور من العلماء لغرض التعليم والتأديب، وهؤلاء إنما انتقدوا بما ظهر قبحه وتبين فيه المخالفة للحكمة في تشريف النوع الإنساني بالكلام كنوع التعقيد والحشو والتطويل والخطأ في المعاني واستعمال ألفاظ لائقة بمقام في غيره إلى ما يشاكل ذلك، وكفاك ما سلف منبهًا عليه، وربما تسامحوا في أشياء ليست بتلك المنزلة؛ لما عرفوا من القصور الطبيعي الذي لا يمكن معه الاستكمال على الإطلاق، الصنف الثاني: أولئك العلماء الذين تكلموا في إثبات إعجاز القرآن الشريف من جهة البلاغة ووضعوا لذلك مصنفات وهؤلاء حيث إنهم قرنوا بين الكلام البريء من كل عيب جل أو دق ظهر أو خفي وهو كلام من لا تخفى عليه خافية، وبين كلام الناس الذين هم موضع السهو والنسيان لا يكاد يسلم لهم كلام من متعلق لزمهم أن يبالغوا في البحث والتفتيش، وأن لا يتغاضوا عن شيء يمكن أن يؤثر في سلامة الكلام وبراءته من المطاعن، وهأنا مورد لك من ذلك أنموذجًا قال أحد المصنفين في ذلك الغرض حيث انتهى من القول إلى إبانة سقوط درجة الشعر كيفما كان عن درجة الكتاب العزيز من البلاغة، فنرجع الآن إلى ما ضمناه من الكلام على الأشعار المتفق على جودتها وتقدم أصحابها في صناعتهم ليبين لك تفاوت أنواع الخطاب وتباعد مواقع البلاغة وتستدل على مواضع البراعة وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورًا اتبع فيها من

ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والمليح الذي تجد في شعره والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعفو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح، وقد ترى الأدباء أولًا يوازنون به فلانًا وفلانًا ويضمون أشعارهم إلى شعره حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبينه في أشياء لطيفة وأمور بديعة، وربما فضلوهم عليه أو سووا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمه عليهم وبروزه بين أيديهم، ولما اختاروا قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ثم تراهم يقولون لفلان لامية مثلها ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته وتساويه في طريقته، وربما غبرت في وجهه في أشياء كثيرة وتقدمت عليه في أسباب عجيبة، وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره كان أمرًا محصورًا وشيئًا معروفًا أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه وتنظر إلى المحدثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن منهم من جمع رصانة الكلام إلى سلاسته ومتانته إلى عذوبته والإصابة في معناه إلى تحسين بهجته حتى أن منهم من إن قصر عنه في بعض تقدم عليه في بعض؛ لأن الجنس الذي يرمون إليه والغرض الذي يتواردون عليه مما للآدمي فيه مجال، فكل يضرب فيه بسهم ويفوز فيه بقدح ثم قد تتفاوت السهام تفاوتًا وتتباين تباينًا، وقد تتقارب تقاربًا على حسب مشاكلتهم في الصنائع ومساهمتهم في الحرف ونظم القرآن جنس متميز وأسلوب متخصص، فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره وما تبين لك من عواره على التفصيل وذلك قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

الذي يتعصبون له ويدعون المعرفة بمحاسن الشعر يقولون هذا من البديع لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والحبيب والمنزل في نصف بيت ونحو ذلك، وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت تأمل أرشدك الله أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرًا ولا تقدم به صانعًا وفي لفظه ومعناه خلل فأول ذلك أنه استوقف ثم استبكى لذكري الحبيب وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي، وإنما يصح طلب الأشعار في مثل هذا على أن يبكي لبكائه ويرق لصديقه في شدة برحائه فإما أن يبكي على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال، فإن كان المطلوب وقوفه وبكاءه أيضًا عاشقًا صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر؛ لأنه من السخف أن يدعو غيره إلى التواجد معه في حبيبه ثم في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن من الدخول، وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا، وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربًا من السعي، ثم إن قوله: لم يعف رسمها ذكر الأصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى؛ لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدة عهد وشدة وجد، وإنما فزع الأصمعي لذكر أنه أفاد هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه فيقال: أي فائدة لأن يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه وأي معنى لهذا الحشو فذكر ما يمكن أنه يذكر ولكن لم يخلصه بانتصاره من الخلل ثم في هذه الكلمة خلل آخر لأنه عقب البيت بأن قال:

فهل عند رسم دارس من معول

ذكر أبو عبيدة أنه رجع فأكذب نفسه كما قال زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم ... بلى وغيرها الأرواح والديم

وقال غيره: أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كله وبالثاني أنه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكلامان، وليس في هذا انتصار لأن معنى عفا ودرس واحد، فإذا قال لم يعف رسمها ثم قال: قد عفا فهو تناقض لا محالة واعتذار أبي عبيدة أقرب لو صح ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك على ما قاله زهير فهو إلى الخلل أقرب وقوله: لما نسجتها كان ينبغي أن يقول لما نسجها ولكنه تعسف فجعل ما في تأويل تأنيث لأنها في معنى الريح والأولى التذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف وقوله: لم يعف رسمها كان الأولى أن يقول: لم يعف رسمه لأنه ذكر المنزل فإن كان رد ذلك إلى هذه البقاع والأماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه بعفائه أو أنه لم يعف دون ما جاوره، وإن أراد بالمنزل الدار حتى أنت فذلك أيضًا خلل ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية التطويل لم نشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين بل يزيد عليهما ويفضلهما ثم قال:

وقوفًا بها صحبي على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وإن شفائي عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من معول

ليس في البيتين أيضًا معنى بديع ولا لفظ حسن كالأولين، والبيت الأول منهما متعلق بقوله: قفا نبك فكأنه قال: قفا وقوف صحبي بها على مطيهم أو قفا حال وقوف صحبي وقوله: بها متأخر في المعنى وإن تقدم في اللفظ ففي ذلك تكلف وخروج عن اعتدال الكلام، والبيت الثاني

مختل من جهة أنه قد جعل الدمع في اعتقاده شافيًا كافيًا فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى ومعول عند الرسوم، ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدل على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ثم يسائل هل عند الربع من حيلة أخرى، وقوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى، وأما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله: إذا قامتا تضوع المسك منهما ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبًا على كل حال، فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير ثم فيه خلل آخر؛ لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بريا القرنفل، وذكر ذلك بعد ذلك المسك نقص، وقوله:

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بل دمعي محملي

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يومًا بدارة جلجل

قوله: ففاضت دموع العين ثم استعانته بقوله: مني استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة وهو حشو غير مليح ولا بديع وقوله: على النحر حشو آخر؛ لأن قوله: بل دمعي محملي يغنى عنه ويدل عليه وليس بحشو حسن ثم قوله: حتى بل دمعي محملي إعادة ذكر الدمع حشو آخر وكان يكفيه أن يقول: حتى بلت محملي فاحتاج في إقامة الوزن إلى هذا كله، ثم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير، ولو كان أبدع لكان يقول: حتى بل دمعي مغانيهم وعراضهم ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية فإن الدمع يبعد أن يبل

المحمل وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل وأن بله فلقلته وأنه لا يقطر وأنت تجد في شعر الخبز رزى ما هو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه، والبيت الثاني خال من المحاسن والبديع خلوه من المعنى وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع ولا يرعك تهويله باسم موضع غريب وقال:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجبًا من رحلها المتحمل

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المقتل

تقديره: أذكر يوم عقرت مطيتي أو يرده على قوله: يوم بدارة جلجل قال بعض الأدباء: قوله: يا عجبًا يعجب من سفهه في شبابه من نحره ناقته لهن وإنما أراد بأن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعًا عن الأول وأراد أن يكون الكلام ملائمًا له، وهذا الذي ذكره بعيد وهو منقطع من الأول، وظاهره أنه يتعجب من تحمل العذارى رحله وليس في هذا عجب كبير ولا في نحر الناقة لهن تعجب وإن كان يعني به أنهن حملن رحله وأن بعضهن حملته فعبر عن نفسه برحله، فهذا قليلًا يشبه أن يكون عجبًا لكن الكلام لا يدل عليه ويتجافى عنه ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب ولا معنى بديع أكثر من سلامته مع قلة معناه وتقارب أمره وشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا، وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع وكلام رائق، وأما البيت الثاني فيعدونه حسنًا ويعدون التشبيه مليحًا واقعًا وفيه شيء، وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم فلا يعلم أنه وصف شحمها وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع وعجز عن تشبيه الآخر، وهذا نقص في الصنعة وعجز عن إعطاء الكلام حقه وفيه شيء آخر من جهة المعنى، وهو أنه وصف طعامه الذي أطعم من أضاف بالجودة، وهذا قد يعاب وقد يقال: إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبًا وإنما الفرس هم

الذين يرون هذا عيبًا شنيعًا، وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشيء يقع للعامة ويجري على ألسنتهم فليس بشيء قد سبق إليه وإنما زاد المقتل للقافية وفيه شيء آخر وهوان تنجحه بما أطعم الأحباب مذموم وإن ساغ التبجج بما أطعم الأضياف إلا أن يكون أورد الكلام مورد المجون والمزاح وقوله:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

قوله: دخلت الخدر خدر عنيزة تكريره لإقامة الوزن لا فائدة فيه غيرها ولا ملاسة له ولا رونق وقوله في المصراع الأخير من هذا البيت فقالت: لك الويلات إنك مرجلي كلام مؤنث من كلام النساء نقله على جهته إلى شعره، وليس فيه غير هذا أو تكريره بعد ذلك تقول: وقد مال الغبيط يعني: قتب الهودج بعد قوله: فقالت لك الويلات إنك مرجلي لا فائدة فيه غير تقدير الوزن وإلا فحكاية قولها الأول كاف وهو في النظم قبيح لأنه ذكر مرة فقالت ومرة تقول في معنى واحد وفصل خفيف وفي مصراع الثاني أيضًا تأنيث من كلامهن، وذكر أبو عبيدة أنه قال: عقرت بعيري ولم يقل: ناقتي لأنهم يحملون النساء على ذكور الإبل لأنها أقوى وفيه نظر لأن البعير اسم للذكر والأنثى واحتاج إلى ذكر البعير لإقامة الوزن، وقوله:

فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ... ولا تبعديني عن جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم مغيل

البيت الأول قريب النسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف كأنه من عبارات المنحطين في الصنعة وقوله: نمثلك حبلى قد طرقت عابه عليه

أهل العربية ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام فرب مثلك حبلى قد طرقت وتقديره: أنه زير نساء وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن؛ لأن الحبلى والمرضة أبعد من الغزل وطلب الرجال، والبيت الثاني غير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الأول لأن تقديره لا تبعديني عن نفسك فإني أغلب النساء وأخدعهن عن رأيهن وأفسدهن بالتغازل وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن وترك إبعادهن إياه بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش وركوبه كل مركب فاسد وفيه من الفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره، وقوله:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق وتحتي شقها لم يحول

ويومًا على ظهر الكثيب تعذرت ... عليَّ وآلت حلفة لم تحلل

فالبيت الأول غاية في الفحش ونهاية في السخف وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد أن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه ويوجب له المقت وهو لو صدق لكان قبيحًا، فكيف لو كان كافيًا ثم ليس في البيت لفظ بديع ولا معنى حسن، وهذا البيت متصل بالبيت الذي قبله من ذكر المرضع التي لها ولد محول، فأما البيت الثاني وهو قوله: ويومًا يتعجب منه وإنما تشددت وتعسرت عليه وحلفت عليه فهو كلام رديء النسج لا فائدة لذكره لنا أن حبيبته تمنعت عليه يومًا بموضع يسميه ويصفه وأنت تجد في شعر المحدثين من هذا الجنس في التغزل ما يذوب معه اللب وتطرب عليه النفس، وهذا مما تستنكره الفنس ويشمئز منه القلب وليس فيه شيء من الإحسان والحسن، وقوله:

أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي

أغـرك منـي أن حبـك قـاتلي وأنـك مهمـا تـأمري القلـب يفعـل

فالبيت الأول فيه ركاكة جدًا وتأنيث ورقة ولعل قائلًا أن يقول: كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل وليس كذلك لأنك تجد الشعراء في المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم، والمصراع الثاني منقطع عن الأول لا يلائمه ولا يوافقه، وهذا يبين لك إذا عرضت معه البيت الذي تقدمه وكيف ينكر تدللها والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله، والبيت الثاني قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا تغتر بما يدلها من أن حبها يقتله وإنما تملك قلبه فما أمرته فعله وكيف يكون ذلك مع ذلك، وإن كان المعنى غير هذا الذي عيب عليه؛ وإنما ذهب مذهبًا آخر وهو أنه أراد أن يظهر التجلد فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات من الحب والبكاء على الأحبة فقد دخل في وجه آخر من المناقضة والإحالة في الكلام ثم قوله تأمري القلب يفعل كان سبيله أن يقول: تأمريني إذا القلب لا يؤمر، فالاستعارة في ذلك غير واقعة ولا حسنة، وقوله:

فإن كنت قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي ومن ثيابك تنسلي
وما أذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

البيت الأول قد قيل في تأويله أنه ذكر الثوب وأراد البدن مثل قول الله تعالى: {وثيابك فطهر}. وقال أبو عبيدة: هذا مثل للهجر وتنسل تبين وتنفصل وهو بيت ركيك المعنى وضيعه وكل ما أضاف إلى نفسه ووصفها به سقوط وسفه وسخف ويوجب قطعه فلم لم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده موردان ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصي من وصله وأنه مهذب الأخلاق شريف الشمائل، فذلك يوجب أن لا ينفك

من وصالة، والاستعارة في المصراع الثاني فيها تواضع وتقارب وإن كانت غريبة، وأما البيت الثاني فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها ومعناه: ما بكيت إلا لتجرحي قلبًا معشرًا أي: مكسرًا من قولهم: بزمة أعشار إذا كانت قطعًا هذا تأويل ذكره الأصمعي رضي الله عنه وهو أشبه عند أكثرهم وقال غيره: وهذا مثل للأعشار التي تقسم الجزور عليها ويعني بسهميك المعلى وله سبعة أنصباء والرقيب وله ثلاثة فأراد أنك ذهبت بقلبي أجمع ويعني بقوله: مقتل مذلل وأنت تعلم أنه على ما يعني به فهو غير موافق للأبيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بينا ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثاني فزع إليه لأنه رأى اللفظ مستكرهًا على المعنى الأول؛ لأنَّ القائل إذا قال: ضرب فلان بسهمه في الهدف بمعنى أصابه كان كلامًا ساقطًا مرذولًا وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينيها كالسهمين النافذين في إصابة قلبه المجروح، فلما بكتا وذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ؛ ولكنه إذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل لأنه إن كان محبًا على ما وصف به نفسه من الصبابة فقلبه كله لها فكيف يكون بكاؤها هو الذي يخلص قلبه لها، واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الأول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لأنه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتًا وكان بديعًا ولا عيب فيه فليس بعجيب لأنه لا يدعي على مثله أن كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين، وإنما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال أنه يتقدم فيه أحدًا من المتأخرين فضلًا عن المتقدمين وإنما قدم في شعره لأبيات قد برع فيها وبان حذقه بها، وإنما أنكرنا أن يكون شعره

متناسبًا في الجودة ومتشابهًا في صحة المعنى واللفظ وقلنا: إنه ينصرف بين وحشي غريب مستنكر وبين كلام سليم متوسط وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى وبين حكمة حسنة وبين سخف مستشنع، ولهذا قال الله عزَّ اسمه: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا}. وقوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراسًا وأهوال معشر ... علي حراص لو يسرون مقتلي

فقد قالوا عني بذلك أنها كبيضة خدر في صفائها ورقتها وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق إليها بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر، ويعني بقوله: غير معجل أنه ليس ذلك مما يتفق قليلًا وأحيانًا بل يتكرر له الاستمتاع بها وقد يحمله غيره على أنه رابط الجأش فلا يستعجل إذا دخل إليها خوف حصانتها ومتعتها وليس في البيت كبير فائدة؛ لأن الذي حكى في سائر أبياته قد تضمن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها فتكريره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى ليس فيه إلا الزيادة التي ذكر من متعتها، والبيت الثاني ضعيف وقوله: لو يسرون مقتلي أراد أن يقول: لو أسروا فإذا نقله إلى هذا أضعف ووقع في مضمار الضرورة والاختلال على نظمه بين حتى أن المحترز يحترز من مثله، وقوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

قد أنكر عليه قوم قوله: إذا ما الثريا في السماء تعرضت وقالوا: الثريا لا تتعرض حتى قال بعضهم: سمى الثريا وإنما أراد الجوزاء لأنها تتعرض والعرب تفعل ذلك كما قال زهير كأجر عاد وإنما هو أجر ثمود وقال بعضهم في تصحيح قوله: تتعرض أول ما تطلع كما أن الوشاح إذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته وقال أبو عمرو: يعني إذا أخذت الثريا في وسط

السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه به وأنه من محاسن هذه القصيدة وإن كان فيه ضرب من التكلف؛ لأنه قال: إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح فقوله: تعرضت من الكلام الذي يستغنى عنه لأنها تشبه أثناء الوشاح سواء كانت في وسط السماء وعند الطلوع والمغيب والتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الألفاظ لا معنى له، وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله: تعرض أثناء الوشاح؛ وإنما أراد أن يقول: تعرض قطعة من أثناء الوشاح فلم يستقم له اللفظ، وقوله:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

انظر إلى هذا البيت والأبيات التي قبلها كيف خلط في النظم وفرط في التأليف فذكر التمتع بها وذكر الوقت والحال والحراس، ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ووصل إليها من نزعها ثيابها إلا ثوبًا واحدًا والمتفضل الذي في ثوب واحد وهو الفضل فما كان من سبيله أن يقدمه ذكره مؤخرًا. وقوله: لدى الستر حشو وليس بحسن ولا بديع، وقوله:

فقمت بها أمشي تجر وراءنا على إثرنا أذيال مرط مرحل

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل

البيت الأول ذكر فيه مساعدتها إياه حتى قامت معه ليخلو وكانت تجر على الأثر أذيال مرط مرحل، والمرحل ضرب من البرود يقال لوشيه الترحيل وفيه تكلف لأنه قال: وراءنا على أثرنا ولو قال: على أثرنا كان كافيًا والذيل إنما يجر وراء الماشي فلا فائدة لذكره وراءنا، وتقدير القول: فقمت أمشي بها وهذا أيضًا ضرب من التكلف، وقوله: أذيال مرط كان

من سبيله أن يقول: ذيل مرط على أنه لو سلم من ذلك كان قريبًا ليس مما يفوت بمثله غيره ولا يتقدم به سواه، وقول ابن المعتز أحسن منه:

فبت أفرش خدي في الطريق له ذلًا وأسحب أكمامي على الأثر

وأمّا البيت الثاني فقوله: أجزنا بمعنى قطعنا والخبت بطن من الأرض والقف رمل متعرج، والعقنقل المنعقد الرمل الداخل بعضه في بعض، وهذا البيت نافر عن الأبيات المتقدمة لأن فيها ما هو سلمي قريب يشبه كلام المولدين، وهذا قد أغرب فيه وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة وليس في ذكرها وإلحاقها بسوابقها من الكلمات فائدة والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها كقوله عزَّ وجلَّ في وصف يوم القيامة: {يوما عبوسا قمطريرا}، فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب ما تحمد في موضعها، وروي أن جريرًا أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته:

بان الخليط برامتين فودعوا أو كلما جدّوا لبين تجزع

كيف العزاء ولم أجد مذ بنتم قلبًا يقر ولا شرابًا ينقع

فكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله:

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزأت بغيرنا يا بوزع

فقال: أفسدت شعرك بهذا الاسم، وقوله:

هصرت بغصني دوحة فتمايلت عليّ هضيم الكشح ريا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

فمعنى قوله: هصرت جذبت وثنيت وقوله: بغصني دوحة تعسف ولم يكن من سبيله أن يجعلها اثنين، والمصراع الثاني أصح وليس فيه شيء إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين وأنت تجد ذلك في وصف كل شاعر؛ ولكنه مع تكرره على الألسن صالح، وأما معنى قوله: مهفهفة أنها مخففة ليست مثقلة والمفاضة التي اضطرب طولها والبيت مع مخالفته في الطبع الأبيات المتقدمة ونزوعه فيه إلى الألفاظ المستكرهة وما فيه من الخلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض ليس بطائل؛ ولكنه قريب متوسط، وقوله:

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي ... بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش ... إذا هي نصته ولا بمعطل

معنى قوله: عن أسيل أي بأسيل وإنما يريد خدًّا ليس بكز وقوله: تتقي يقال: اتقاه بحقه أي: جعله بينه وبينه وقوله: تصد وتبدي عن أسيل متفاوت لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد وقوله: تتقي بناظرة لفظة مليحة ولكن أضافها إلى ما نظم به كلامه وهو مختل وهو قوله: من وحش وجرة ويجب أن تكون العبارة بخلاف هذا كان من سبيله أن يضيق إلى عيون الظباء أو المهادون إطلاق الوحش ففيهن ما تستنكر عيونها وقوله: مطفل فسروه على أنها ليست بصبية وأنها قد استحكمت وهذا اعتذار متعسف وقوله: مطفل زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الأصمعي ولكن قد يحتمل عندي أن يفيد غير هذه الفائدة فيقال: إنها إذا كانت مطفلًا لحظت أطفالها بعين رقة ففي نظر هذه رقة نظر المودة ويقع الكلام معلقًا تعليقًا متوسطًا، وأما البيت الثاني فمعنى قوله: ليس بفاحش أي: ليس بفاحش الطول ومعنى قوله: نصته رفعته وقوله: ليس بفاحش في مدح الأعناق كلام وحش موضوع منه، وإذا نظرت في

أشعار العرب رأيت في وصف الأعناق ما يشبه السحر فكيف وقع على هذه الكلمة ودفع إلى هذه اللفظة، وهلا قال كقول أبي نواس:

مثـــل الظبـــاء ســـمت إلـــي روض صـــوادر عـــن غـــدير

لست أطول عليك فتستثقل ولا أكثر القول في ذمة فتستوحش، وأكلك إلى جملة من القول، فإن كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت وعرفت ما رمينا إليه واستغنيت وإن كنت عن الطبقة خارجًا وعن الإتقان بهذا الشأن خاليًا، فلا يكفيك البيان وإن استقرينا جميع شعره وتتبعنا عامة ألفاظه ودللنا على ما في كل حرف منه، أعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة وأبيات متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة، وقد دللنا على المبتذل منها ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر الذي يروع السمع ويهول القلب ويكد اللسان ويعبس معناه في وجه كل خاطر ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر ولا يقع بمثله التمدح والتفاصح وهو مجانب لما وضع له أصل الإفهام، ومخالف لما بني عليه التفاهم بالكلام، فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود ويلحق باللغز والإشارات المستبهمة، فأما الذي زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل

والمصراع الأخير عندهم بديع، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة لها من يكفيهـ، ومعنى قوله: لم تنتطق عن تفضل يقول: لم تنتطق وهي فضل وعن هي بمعنى بعد، قال أبو عبيدة: لم تنتطق فتعمل ولكنها تفضل. ومما يعدونه من محاسنها:

وليل كموج البحر أرخى سدولة علـــي بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــي

فقلت له لما تمطى بصلبه　　وأردف إعجازًا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي　　بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب　　وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه　　تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تقاعس حتى قلت ليس بمنقض　　وليس الذي يتلو النجوم بآيب

وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء فقدم أبيات امرئ القيس واستحسن استعارتها، وقد جعل لليل صدرًا يثقل تنحيه ويبطئ تقضيه وجعل له أردافًا كثيرة وجعل له صلبًا يمتد ويتطاول ورأوا هذا بخلاف ما يستعيره أبو تمام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة، ورأوا أن الألفاظ جميلة، واعلم أن هذا صالح جميل وليس من الباب الذي يقال إنه متناه عجيب وفيه إلمام بالتكلف ودخل في التعمل وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله:

وقد اغتدى والطير في وكناتها　　بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معًا　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقوله أيضًا:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة　　وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فأما قوله: قيد الأوابد فهو مليح ومثله في كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير والتعمل بمثله ممكن وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفًا ويؤلفون المحاسن تأليفًا ثم يوشحون به كلامهم والذين كانوا من

قبل لغزارتهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك، إنما كان يتفق لهم اتفقًا ويطرد في كلامهم اطرادًا. وأما قوله في وصفه: مكر مفر فقد جمع فيه طبقًا وتشبيهًا وفي سرعة جري الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف، وكذلك في جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة، ولكن قد عورض فيه وزوحم والتوصل إليه يسير وتطلبه سهل قريب، وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتًا بينًا في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه، وله شركاء في نظائرها ومنازعون في محاسنها ومعارضون في بدائعها ولا سواء بين كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ويتلون تلون الحرباء ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه وبين قول يجرى في سبكه على نظام وفي رصفه على منهاج وفي وضعه على حد وفي صفائه على باب وفي بهجته ورونقه على طريق مختلفة مؤتلف ومؤتلفة متحد ومتباعده متقارب وشارده مطيع ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن فأنت ترى هذا الشيخ كيف عمد إلى قصيدة قد اتفق العلماء وأهل الأدب على تقدمها في الجودة وعلوها في البلاغة حتى جعلوها رأس القصائد السبعيات فأفسد بالنقد صورتها وغبر في وجه بهجتها، ولكن أقول: إنه مع نورانية كلامه وسلاسة عباراته وحسن سلوكه في تقرير أغراضه قد تحامل على امرئ القبس بعض التحامل، وما كان ينبغي فإن التحامل في مقام البرهنة يوجب نفرة عن الاستماع واستصعابًا عن الانقياد ويكون ذلك سببًا لضياع الحق ولست أقول: إن كلام المخلوق أينما بلغ من رتب البلاغة يكاد يداني كلام الخالق الذي لا تخفى عليه خافية؛ ولكن أقول: إنه لا ينبغي أن

يبخس كلام حقه ولا يوفي قسطه ويعترف له بحظه منها وهأنا مقتف أثره في الكلام على بعض ما تكلم عليه بما يتلاشى معه كثير من انتقاداته ومفصل ما فيه الكلام منها تفصيله الذي أراده الشاعر. قوله: قفا نبك البيتين فصل أراد فيه بالحبيب والمنزل الجنس فالتنكير فيه للتنويع لا للأفراد فكأنه قال: ليقف كل منا يبكي صفاء عيشه الماضي وسرور أوقاته السالفة وتمتعه بحبيبه في تلك المنازل الشاغلة لتلك النواحي التي سماها وطوي في ذلك الحديث عن كثرة العمران وعظم المجتمع وذلك سبب لقوة الأمن واتساع دائرة السرور والتمكن من الاستتار باللذات وفيه إقامة العذر في اشتداد الوجد وكثرة الحزن؛ إذ بقدر الأنس بالشيء تقع الوحشة عند ذهابه ولإظهار الجزع والمبالغة في الإبانة عن العذر قال: لم يعف رسمها وذلك من إيجاز الإشارة الذي هو معدود من أكبر دعائم البلاغة، فليس ذكره لتلك المواضع فضلًا وتأمل عطفه فيها بالفاء دون الواو كما يقتضيه ظاهر الكلام فالكناية إذا من قوله: رسمها تعود للمنازل ثم إن مناقشته في الألفاظ مع كونه من رءوس أهل اللغة الذين تنقل عنهم وبكلامهم يحتج فيه خروج. وقوله: وقوفًا إلى قوله: إذا أقامتا فصل يبين فيه ما كان من وعظ صحابته إياه ونصحهم له فكان من كلامهم لا تهلك أسى وتجمل فهل عند رسم دارس من معول ذلك منك الآن كدأبك وحالك فيما مضى من فلانة وفلانة واعترض بين أجزاء ما حكاه عنهم بقوله: وإن شفائي عبرة ودعوى كون البكاء شافيًا وإطلاق الدموع مريحًا أمر مشهور بين الشعراء قال بعضهم:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفى نجي البلابل

وقالت الخنساء:

إن البكاء هو الشفا ... ء من الجوا بين الجوانح

وذلك أمر يعرف بالوجدان فقوله: عند رسم دارس ليس من كلامه وعبر بلفظ دارس على معنى المشارفة على الدروس والقرب منه وهو مجاز مشهور الاستعمال حملوا عليه قوله تعالى: {فيه هدى للمتقين} قالوا: أي المشارفين للتقوى الصائرين لها فلا تناقض فلما سمع من صحبه هذا الكلام وقد هتفوا بذكر حبيبتين كانتا له تذكر حالهما فأشار إلى صفة ما كانتا عليه من حسن الحال وطيب النعيم وريعان الشباب إلى غير ذلك من دواعي الغزل والصبابة بقوله: إذا قامتا تضوع المسك، والبيت وحده فصل وإنما خص حالة القيام لمكان الحركة الموجبة لتموج الهواء الذي تنتشر به الرائحة وتبلغ للبعيد، ولذلك وقع التشبيه بعد موقعه فليس غرضه أن يصفها بالطيب حتى يقال: إن ذلك لا يخص حالة دون حالة ولذلك قال: تضوع ولم يقل إنهما إذا قامتا فهما طيبا الرائحة فالتشبيه بين انتشار الرائحة والمرور مع النسيم وليس تشبيه رائحة برائحة حتى يقال: إنه نقص وشبه القوى بالضعيف ثم أبان كيفية بكائه ومقدار دموعه وهو حكاية عما وقع له كما هو العادة في أشعار العرب من كونها في الغالب حكاية عن واقع وليس مجرد تخيل كما هو حال المتأخرين من الشعراء، فإنهم لما أرادوا أن يتبعوا العرب في عمل الشعر تأملوا مذاهبهم فيه وجمعوا تصرفاتهم في أنواعه ثم أخذوا في الجمع والتأليف على سبيل الخيال لا على سبيل حكاية الواقع، فليس لأحد أن يكذبه في صفة حاله ولا أن يكلفه الكذب بأن يقول: إن الدمع بل المقاني وجرى مثل البحر إلى غير ذلك من المبالغة وقد فات هذا الشيخ أن يذكر السبب في انحطاط قوله: دموع العين مني والسبب في ارتفاع قوله عز ذكره: {وهن العظم مني} والعبارتان من واد واحد وأن يبين الفرق بينهما كما تستحضره إذا ذكرت ما سلف من الكلام على الآية في علم المعاني.

وقوله: ألا رب يوم إلى قوله: ويومًا على ظهر الكثيب فصل حكى فيه بعض الوقائع التي كانت له أيام شبابه وهو كلام متلائم آخذ بعضه ببعض يجمعه غرض واحد كما تعرفه من سياق قصته فذكر يوم دارة جلجل؛ وهو يوم عقر الناقة ويوم دخوله الخدر فعطف للاختلاف بالإضافة وليست أيامًا متعددة كأنه قال: يومًا بدارة جلجل يوم عقرت يوم دخلت، وقصة هذا اليوم على ما حكوه عن الفرزدق قالوا: خرج الفرزدق يومًا إلى ظاهر البصرة صبيحة ليلة باتت السماء تكف بها فرأى آثار دواب ذاهبة إلى ناحية فقال: إن هذه الآثار تخبر عن خروج قوم إلى ذلك الوادي وما أراهم إلا قد اجتمعوا لنزهة وطعام وشراب، فعزم على أن يلحق بهم لعله يصيب معهم بعض مآربه، فانتهى به السير على تلك الآثار إلى غدير، وإذا به نسوة قد نزعن ثيابهن ودخلن فيه فنزل عن بغلته وجلس على الثياب وقال: يوم كيوم دارة جلجل، فتضاحك منه النساء وقالوا: حدثنا بحديث ذلك اليوم فأخبر أن جماعة امرئ القيس عزموا يومًا على الانتقال من موضع إلى موضع فسبق الرجال ليصلحوا المنزل ويمهدوا موضع الإقامة، وتخلف النساء وما يكفيهن من الخدم، فاستخفى امرؤ القيس حتى خرج على آثار النسوة حتى إذا كان نصف النهار وصلن إلى غدير فقال بعضهن لبعض: لو نزلنا في هذا الموضع فاسترحنا واستجممنا نشاطنا بالاستنقاع في هذا الغدير، فنزلن ونزعن ثيابهن ودخلن الماء وأدركهن امرؤ القيس فجلس على ثيابهن وحلف أنه لا يعطي واحدة ثيابها حتى تخرج وتأخذها بنفسها، فبعد أن امتنعن برهة وخفن ذهاب الوقت تتابعن في الخروج واحدة بعد واحدة حتى بقيت عشيقته تقسم عليه وتستعطفه وتتذلل له وهو يأبى حتى خرجت فرآها مقبلة ومدبرة ثم قلن له: حبستنا وأجعتنا، فاغتنم ذلك منهن ورأى مكان الحيلة في وصوله إلى حبيبته

فقال: أتأكلن إذا نحرت ناقتي؟ فقلن: نعم، فقام إليها وعقرها وجمع الخدم الحطب وأججوا نارًا عظيمة فجلس وجلسن يشتوون ويأكلون ويترامون ويتلاعبون حتى قضوا غرضهم من الطعام وقاموا لتتميم السفر فتوزعوا متاع ناقته وبقي هو فركب مع حبيبته، وكان هذا قصده فهو يتعجب من تمام حيلته وبلوغه غرضه وتراه يقتصر في الكلام على مواضع النكتب، ثم حكى ما جرى بينه وبين حبيبته بعد ركوبه معها وأنه أخذ في مغازلتها وملاعبتها واقتطاف ثمراتها ونقل أنها قالت له: لك الويلات إنك مرجلي، وليس في نقل كلام الغير على وجهه عيب ألا ترى إلى قوله تعالى شأنه: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا} إلى آخره مع ما اشتمل عليه من وقاحتهم وسفههم وجهلهم بالله، وقوله: قالت وتقول تأدية للمعاني بعباراتها فالقول الأول حصل منها مرة والثاني تكرر، ولولا ذلك ما كان يعجزه أن يقول: وقالت وقد مال الغبيط بنا معًا وتعرف تعين ذلك إذا تلون قوله تعالى: {أرسل الرياح فتثير سحابًا} مع ذكر ما سلف في علم المعاني، وأما قوله: فمثلك حبلى فذلك ما من شأنه أن يقوله في هذا المقام، فإنه لا يقول عن نفسه أنه راهب في صومعة بل يخبر بأنه زير نساء مستعمل حيلة في خدعهن كما يقتضيه استحسان الشباب أهل الترف والنعيم، فإنه لما أراد أن يزيل حياءها ويكسر حدتها ويثير من شهوتها ليتمكن من التمتع بها لم يجد إلا أن يكلمها بما يقتضي ذلك. وقوله: ويومًا على ظهر الكثيب إلى قوله: وقد اغتدى والطير في وكناتها فصل أخبر فيه أنها غضبت منه يومًا واشتد امتناعها عليه وحلفت دون استثناء فأخذ في عتابها وترضيها وتصرف في ذلك تصرف مثله في خضوع وتذلل، وإذا افتخر أو اشتد جعل ذلك في ضمن تواضع لها واستسلام واعتراف لها بملكه واستيلائها عليه وانقياده

لها والمضي مع مرضاتها وتفهيمه إياها أنها قد انفردت به من تمكنه من التمتع بغيرها من ذوات الشرف والترف والنعيم مع إقدامه في ذلك وجراءته ومساعدتهن إياه، فأنت إذا تأملت في فصول القصيدة على ما أشرنا به إليك عرفت أنه لا يتوجه عليه من الانتقادات إلا القليل، وإنما وقفت معك هذا الموقف ليولد فيك الاطلاع على مثل هذا الكلام جراءة وإقدامًا على استعمال ذوقك وإطلاق فكرك في تمييز جيد الكلام ورديئه وصحيحه وفاسده ورفيعه ووضيعه، ولا تتمكن منك مهابة أن هذا شعر فلان المشهور فيستولى عليك حال التقليد ثم قال هذا الشيخ في موضع آخر من كتابه ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحتري فنتكلم عليها كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس، وتلك القصيدة التي نتكلم عليها أجود شعره سمعت أبا مسلم الرستمي يقول: سمعت البحتري يذكر أن أجود شعر قاله:

أهلًا بذلكم الخيال المقبل

قال: وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول: أجود شعره هو قوله:

في الشيب زجر له لو كان ينزجر

قال: وسئلت عن ذلك فقلت: البحتري أعرف بشعر نفسه من غيره قلت: لعل البحتري قال ذلك قبل أن يقول قصيدته الثانية، فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثلها قوله:

أهــلًا بــذلكم الخيــال المقبــل ... فعــل الــذي نهــواه أو لــم يفعــل
برق سرى في بطن وجرة فاهتدت ... بــسناه أعنــاق الركــاب الــضلل

البيت الأول في قوله: ذلكم الخيال ثقل روح وتطويل وحشو وغيره أصلح له وأخف منه قول الصنوبرى:

أهـلًا بـذاك الـزور مـن زور شـمس بـدت فـي فلـك الـدور

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف فيصير إلى الكزازة وتعود ملاحته بذلك ملوحة وفصاحته عيًا وبراعته تكلفًا وسلاسته تعسفًا وملاسته تلويًا وتعقدًا، فهذا فصل وفيه شيء آخر وهو أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال إقباله، فأما أن يحكى الحال التي كانت وسلفت على هذه العبارة ففيه عهدة وفي تركب الكلام عن هذا المعنى عقدة وهو لبراعته وحذقه في هذه الصنعة يتعمد نحو هذا الكلام، ثم قوله فعل الذي نهواه أو لم يفعل ليست بكلمة رشيقة ولا لفظة ظريفة وإن كانت كسائر الكلام، فأما بيته الثاني فهو عظيم الموقع في البهجة وبديع المأخذ حسن الرواء أنيق المنظر والمسمع يملأ القلب والفهم ويفرح الخاطر وتسري بشاشته في العروق، وكان البحتري يسمي هذه الأبيات عروق الذهب وفيه من الخلل مع الديباجة الحسنة والرونق المليح؛ وذلك أنه جعل الخيال كالبرق لإشراقه في مرآه كما يقال: إنه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به كذلك أضاء ما حوله ونور ما مر به، وهذا غلو في الصنعة إلا أن ذكره بطن وجرة حشو وفي ذكره خلل؛ لأن النور القليل يؤثر في بطون الأرض وما اطمأن منها بخلاف ما يؤثر في غيرها فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة وتحديده المكان على الحشو أحد من تحديد امرئ القيس بذكر: سقط اللوى بين الدخول فحومل * فتوضح فالمقراة، لم يقنع بذكر حد حتى حده بأربعة حدود كأنه يريد بيع المنزل فيخشى أن أخل بحد أن يكون بيعه فاسدًا وشرطه باطلًا، فهذا باب ثم إنما يذكر الخيال بخفاء الأثر ودقة المطلب ولطف المسلك،

وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما يوضع عليه أصل الباب، ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحتري قطع الكلام الأول وابتدأ يذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة لأن هذا القطع إن كان فعله كان خارجًا به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعًا، ثم كان لا تكون فيه فائدة لأن كل برق شمل وتكرر وقع الاهتداء به في الظلام وكان لا يكون بما نظمه مقيدًا ولا متقدمًا وهو على ما كان من مقدصه ذو لفظ محمود ومعنى مستجلب غير مقصود ويعلم بمثله أنه طلب العبارات وتعليق القول بالإشارات، وهذا من الشعر الجنس الذي يحلو لفظه وتقل فوائده كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

هذه ألفاظ بديعية المطالع والمقاطع حلوة المجاني والمواقع قليلة المعاني والفوائد، فأما قول البحتري بعد ذلك:

من غادة منعت وتمنع نيلها ... فلو أنها بذلت لنا لم تبذل
كالبدر غير مخيل والغصن غيـ ... ـر مميل والدعص غير مهيل

فالبيت الأول على ما تكلف فيه من المطابقة ألفاظه أوفر من معانيه وكلماته أكثر من فوائده، ونعلم أن القصد وضع العبارات في مثله ولو قال: هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله وتكثيره الكلام وتهويله، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان وأما البيت الثاني فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك، وإنما يبقى تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في البيت، وهذا أيضًا

قريب؛ لأن المعنى مكرر ويبقى له بعد ذلك شيء آخر وهو تعلمه بالترصيع في البيت كله إلا أن هذا الاستثناءات فيها ضرب من التكلف لأن التشبيه بالغصن كاف فإذا زاد فقال: كالغصن غير معوج كان ذلك من باب التكلف وكان ذلك زيادة يستغنى عنها وكذلك والدعص غير مهيل لأنه إذا انهال خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفًا إليه فلا يكون لتقييده معنى، وأما قوله:

ما الحسن عندك يا سعاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمال بمجمل

عذل المشوق وأن من سيما الهوى في حيث تجهله لجاج العذل

قوله في البيت الأول عندك حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة، والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء وفيه شيء آخر أنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهييج وجده وتهييم قلبه، وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب وبيت كشاجم أسلم من هذا وأبعد من الخلل وهو قوله:

بحياة حسنك أحسني وبحق من جعل الجمل عليك وقفًا أجملي

قلت: إنه لم يوف الكلام على ثقل قوله: عندك حقه فإنها لم تثقل لكونها حشوًا فقط بل هي غير صحيحة الاستعمال، فإنه إنما يقال الكتاب الذي عندك مثلًا، وأما أن يقال: الحسن الذي عندك واللطف فلا وإنما يقال: حسنك ولطفك أو الحسن الذي لك، وأما البيت الثاني فإن قوله في حيث حشا بقوله في كلامه ووقع ذلك مستنكر أو حشيًا نافرًا عن طبعه جافيًا في وضعه فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن فهو يمحو حسنه ويأتي على جماله، ثم في المعنى شيء لأن لجاج العذل لا يدل على هوى مجهول ولو كان مجهولًا لم يهتد العذل إليه، فعلم أن المقصد

استجلاب العبارات دون المعاني ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل، فإن ذلك جملهم الذلول وقولهم المكرر. قلت: إن البحتري أخرج هذا البيت مخرج التأسف والتحسر وشكوى الحال في الهوى وتقدير كلاءه وأن من سيما الهوى ولوازمه لجاج العذل في حيث تجهله دون تأمل في قوة أسباب الهوى وعذر صاحبه فقد أدمج في كلامه ما فصله الآخر حيث يقول:

أبصره عاذلي عليه ... ولم يكن قبل ذا رآه

فقال لي لو هويت هذا ... مالا مك الناس في هواه

فضل من حيث ليس يدري ... يأمن بالحب من نهاه

وقوله:

ماذا عليك من انتظار متيم ... بل ما يضرك وقفة في منزل

إن سئل عي عن الجواب فلم يطق ... رجعًا فكيف يكون إن لم يسئل

لست أنكر حسن البيتين وظرفهما ورشاقتهما ولطفهما وماءهما وبهجتهما إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضربًا من الانقطاع؛ لأنه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت ولا يلائمه، ثم الذي ذكره من الانتظار وإن كان مليحًا في اللفظ فهو في المعنى متكلف لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمرًا؛ وإنما يقف تحسرًا وتلذذًا وتحيرًا والشطر الأخير من البيت واقع والأول مستجلب وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر؛ لأن وضع البيت يقتضي تقدم عذل على الوقوف ولم يحصل ذلك مذكورًا في شعره من قبل، وأما البيت الثاني فإنه معلق بالأول لم يستقل إلا به وهم يعيبون

وقوف البيت على غيره ويرون أن البيت التام هو المحمود والمصراع التام بنفسه بحيث لا يقف على المصراع الآخر أفضل وأتم وأحسن وفيه شيء آخر؛ لأنه لا يصلح أن يكون السؤال سببًا لأن يعيا عن الجواب وظاهر القول يقتضيه، فأما قوله:

لا تكلفن لي الدموع فإن لي ... دمعًا يتم عليه إن لم يفضل

ولقد سكنت من الصدود إلى النوى ... والشرى أرى عند أكل الحنظل

وكذاك طرفة حين أوجس ضربة ... في الرأس هان عليه فصد الأكحل

فالبيت الأول مخالف لما عليه مذهبهم في طلب الإسعاد بالدموع والإسعاف بالبكاء، ومخالف لأول كلامه لأنه يفيد مخاطبة العذل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق، وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ: {والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون} فأخبر أنهم يتعبون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف أطاعهم والمعاني حيث تتبع ألفاظهم، وذلك ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفوت شعر شاعر أو كلام متكلم، وأما قوله: والشرى أرى فإنه وإن كان قد تصنع له من جهة الطباق ومن جهة التجنيس المقارب فهي كلمة ثقيلة على اللسان وهم يذمون نحو هذا، كما عابوا على أبو تمام قوله:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ... معي وإذا ما لمته لمته وحدي

ذكر لي الصاحب بن عباد أنه جاري الفضل بن العميد في محاسن القصيدة حتى انتهى إلى هذا البيت فذكر له أن قوله: أمدحه معيب لثقله

من جهة تدارك حروف الحلق، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين تكلموا في هذه النكتة فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف ثم إن قوله: عند أكل الحنظل ليس بحس ولا واقع، وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه غريب في طباعه نافر من جملة شعره وفيه كزازة وفجاجة وإن كان المعنى صالحًا. قلت: إن العاذل هو الرفيق وما يصدر منه يكون في رأيه نصيحة توجبها الشفقة وهو عند المحب عذل إلا أن استحسان الشيخ قوله: ماذا عليك من انتظار لم تظهر إصابته فإن في معناه جريًا على شدة مناقشته نوعًا من الخلل وذلك أنه يدعي أن ليس على الرفيق ضرر في وقوفه بالمنزل وكيف وله أن يقول عليَّ في ذلك إضاعة الوقت في غير طائل وثقل الشغل بغير شاغل ثم إن قوله: إن سئل عي عن الجواب كونه حجة للعاذل أولى من أن يكون عليه، وأما قوله: وكذاك طرفة فهو منتظم مع سابقه فإنه من نوع اختيار أخف الضررين وضرب المثل به صحيح وبديع التلميح بالقصة المشهورة داع لا يراده، وأما قوله:

وأغر في الزمن البهيم محجل ... قد رحت منه على أغر محجل

كالهيكل المبني إلا أنه ... في الحسن جاء كصورة في هيكل

فالبيت الأول لم يتفق له فيه خروج حسن بل هو مقطوع عما سلف من الكلام وعامة خروجه نحو هذا وهو غير بارع في هذا الباب، وهذا مذموم معيب منه لأن من كان صناعته الشعر وهو يأكل به وتغافل عما يدفع إليه في كل قصيدة واستبان بأحكامه وتجويده مع تتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب العبارات وتنقيح الألفاظ وتزويرها كان ذلك أدخل في عيبه وأدل على تقصيره أو قصوره. وأما قوله: وأغر في الزمن البهيم محجل فإن ذكر التحجيل في الممدوح ليس بالجيد، وقد يمكن أن يقال: إنه إذا قرن بالأغر حسن وجرى مجراه وانخرط في سلكه وأهوى إلى

مضماره ولم ينكر لمكان من جواره فهذا عذر والعدول عنه أحسن؛ وإنما أراد أن يرد العجز عن الصدر ويأتي بوجه في التجنيس. قلت: وكيفما كان فالتحجيل في كلامه لم يقع موقعه في قوله صلى الله عليه وسلم: «**أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من آثار الوضوء**» فالغرة والتحجيل فيه حقيقيان ويستتبعان شرف الشهرة والغرة في كلامهم لمجرد الشهرة وظهور التميز وجلالة القدر فهو كقولهم:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

وفيه شيء لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطيًا الأغر الأول ورائحًا عليه يعني: أن من التجريدية لكثرة استعمالها في الشعر تكون أسرع تمثلًا للوهم من الابتدائية التي هي المرادة والدقة تقتضي التحرز عن مثله ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء وأقاويل الناس، فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني ورده عجز البيت عليه وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة وعمل شيئًا حتى كررها فهي كلمة فيها ثقل ونحن نجدهم إذا أرادوا أن يصفوا بنحو هذا قالوا: ما هو إلا صورة وما هو إلا تمثال وما هو إلا دمية وما هو إلا ظبية ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان وقد استدرك هو أيضًا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل، كان أولى وأجمل، ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها وأفزعوهم بذكرها وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم، وأما قوله:

وافى الضلوع يشد عقد حزامه ... يوم اللقاء على معم مخول

أخواله للرستمين بفارس ... وجدوده للتبعين بموكل

نبل المحزم مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع وقوله: يشد عقد حزامه داخل في التكلف والتعسف لا يقبل من مثله وإن قبلناه من غيره لأنه يتبع الألفاظ وينقدها نقدًا شديدًا فهلا قال: يشد حزامه أو يأتي بحشو آخر سوى العقد، فقد عقد هذا البيت بذكر العقد ثم قوله: يوم اللقاء حشو آخر لا يحتاج إليه، وأما البيت الثاني فمعناه أصلح من ألفاظه لأنها غير مجانسة لطباعه وفيها غلظ ونفار، وأما قوله:

يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت ... صيدًا وينتصب انتصاب الأجدل

متوجش برقيقتين كأنما ... تريان من ورق عليه موصل

ما أن يعاف قذى ولو أوردته ... يومًا خلائق حمدويه الأحول

البيت الأول صالح وقد قاله الناس ولم يسبق إليه ولم يقل ما لم يقولوه؛ بل هو منقول وفي سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بإبداعها وقد يقولون: يفوت الطرف ويسبق الريح ويجاري الوهم ولولا أن الإتيان على محاسن ما قالوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب لنقلت لك جملة مما ذهبوا إليه في هذا المعنى فتعلم أنه لم يأت منها بما يجل عن الوصف أو يفوت منتهى الحد على أن الهوى يذكر عند الانقضاض خاصة وليس للفرس هذه الصفة في الحقيقة إلا أن يشبه جده في العدو بحالة انقضاض البازي والعقاب، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها، وأما البيت الثاني فقوله: إن الأذنين كأنهما من ورق موصل وإنما أراد بذلك حدتهما وسرعة حركتهما وإحساسهما بالصوت كما يحس الورق بحفيف الريح وظاهر التشبيه غير واقع، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسنًا ولكن لا يدل عليه اللفظ وليس هذا البيت برائق اللفظ ولا مشاكل فيه لطبعه غير قوله: متوجس برقيقتين فإن هذا القدر حسن، وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب

الاستطراد ونقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره وقطعة أبي تمام في نهاية الحسن في هذا المعنى والذي وقع للبحتري في هذا البيت عندي ليس بجيد في لفظ ولا معنى وهو بيت وحش جدًّا قد صار قذى في عين هذه القصيدة بل وخزًا فيها ووبالًا عليها قد كدر صفاءها وأذهب بهاءها وماءها وطمس بظلمته سناها وما وجه مدح الفرس بأنه لا يعاف قذى من المياه إذا وردها كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار في قوله:

ولا يشرب الماء إلا بدم

وإذا كان لهذا الباب مجانبًا وعن هذا الصمت بعيدا فهلًا وصفه بعزة الشرب كما وصفه المتنبي في قوله:

وصول إلى المستصعبات بخيله فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

وهلا سلك فيه مسلك القائل:

وإني للماء الذي شابه القذى إذا كثرت وراده لعيوف

ثم ولو أوردته يومًا حشو بارد ثم قوله: حمدويه الأحول وحش جدًّا فما أمقت هذا البيت وأبغضه وما أثقله وأسخفه، وإنما غطى على عينه عيبه وزين له إيراده طمعه في الاستطراد، وهلا طمع فيه على وجه لا يغض من بهجة كلامه ولا معنى ألفاظه فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر قول الشيخ فهلا وصفه بعزة الشرب وإيراد بيت المتنبي عجيب، فإن ذلك ليس من صفة الفرس بعزة الشرب وإنما هو من صفة الممدوح بأنه يطلب معالي الأمور وأبعد درجات المجد وأنه يصل إلى ما قصد منها وبالغ في ذلك حتى جعله قادرًا على أن يورد خيله الشمس لو صلحت لذلك، وليس معناه أنه يتخير لخيله المستقي وقطعة أبي تمام التي يقول الشيخ:

إنه أوردها في ضمن ما سبق من كلامه في نوع الاستطراد فهي فيما حكاه بقوله: كتب لي الحسن بن عبد الله قال: أخبرني محمد بن يحيى حدثني محمد بن علي الأنباري قال: سمعت البحتري يقول: أنشدني أبو تمام لنفسه:

وسابح هطل التعداء هتان ... على الجراء أمين غير خوان

أظما الفصوص ولم تظمأ قوائمه ... فخل عينيك في ريان ظمآن

ولو تراه مشيحًا والحصى فلق ... بين السنابك من مثنى ووجدان

أيقنت إن لم تثبت أن حافره ... من صخر تدمر أو من وجه عثمان

وقال لي: ما هذا من الشعر قلت: لا أدري قال: هذا المستطرد أو قال: الاستطراد قلت: وما معنى ذلك؟ قال: يرى أنه يصف الفرس ويريد هجاء عثمان فقال وقال البحتري:

ما أن يعاف قذى ولو أوردته ... يومًا خلائق حمدويه الأحول

قال: فقيل للبحتري: إنك أخذت هذا من أبي تمام فقال: ما يعاب عليَّ أن آخذ منه وأتبعه فيما يقول. قلت: وإذا كانوا يجعلون من أدب الفرس أنه يرد ما أورد لا يتخير مورِّدا دون مورد وبذلك يقوى الانتفاع به وتشتد الثقة بصحبته في الأسفار ومضايق الأمور كما هو أدب في الإنسان أيضًا لم يكن لانتقاد الشيخ موضع. وقوله: ولو أوردته هي العبارة التي يحسن أن يتوصل بها إلى الهجاء ولفظ حمدويه الأحول اسم المهجو وصفته لا يمكن تبديلهما، فإذا لا عيب في البيت، فأما قوله:

ذنب كما سحب الرداء يذب عن ... عرف وعرف كالقناع المسبل

تتوهم الجوزاء في أرساغه ... والبدر فوق جبينه المتهلل

فالبيت الأول وحش الابتداء منقطع عما سبق من الكلام وقد ذكرنا أنه لا يهتدي لوصل الكلام ونظام بعضه إلى بعض، وإنما بتصنع لغير هذا الوجه وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله. ثم قوله: كما سحب الرداء قبيح في تحقيق التشبيه وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة إلا على إضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب. وقوله: يذب عن عرف ليس بحسن ولا صادق والمحمود ما ذكره امرؤ القيس وهو قوله في صفة الذنب:

ضاف فويق الأرض

وأما قوله: تتوهم الجوزاء في إرساغه فهو تشبيه مليح ولكنه لم يسبق إليه ولا انفرد به ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الأمور وتشبيه الحجول لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها وأمور مليحة قد ذهبوا إليها وليس ذلك موضوع كلامنا فتتبع ذلك في أشعارهم لتعلم ما وصفت لك واعلم أنا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس لأنه ذكر عشرين بيتًا في ذلك، والذي ذكرناه في المعنى يدل على ما بعده ولا يعدو وما تركناه أن يكون متوسطًا إلى حد يفوت طريقة الشعراء ولو تتبعت أقاويل الشعراء في وصف الخيل علمت أنه وأن جمع فأوعى وحشر فنادى ففيهم من سبقه في ميدانه ومنهم من ساواه في شأوه ومنهم من داناه، فالقبيل واحد والنسيج متشاكل ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك لتقف على ما قلت فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة قال:

لمحمد بن علي الشرف الذي ... لا يلحظ الجوزاء إلا من عل

وسماحة لولا تتابع مزنها ... فينا لراح المزن غير مبخل

والجـــود يعذلـــه عليـــه حـــاتم　　　ســـرفًا ولا جـــود لمـــن لـــم يعـــذل

البيت الأول منقطع عما قبله على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني وفصله بينها وقلة تأتيه لتجويد الخروج والوصل، وذلك نقصان في الصناعة وتخلف في البراعة، وهذا إذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها، وأما إذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له، وأما المعنى الذي ذكره فليس بشيء مما سبق إليه وهو شيء مشترك فيه وقد قالوا في نحوه الكثير الذي يصعب نقل جميعه وفي المعنى قال المتنبي:

وعزمـــة بعثتهـــا همـــة زحـــل　　　من تحتها بمكان الترب من زحل

قلت: لا معنى لإيراد قول المتنبي مع تأخره عن البحتري وكان عليه حيث أراد أن يذكر شيئًا من كلام المتقدمين كأن يقول قال: زهير مثلًا وينقل مثل قوله:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم　　　قـــوم بـــأولهم أو مجـــدهم قعـــدوا

وأين زحل في كلام المتنبي من الجوزاء في كلام البحتري؟ قال الشيخ: وحدثني إسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل ابن العميد قام لرجل ثم قال لمن حضره: أتدرون من هذا؟ ثم قال: هذا الذي قال في أبيه البحتري:

لمحمد بن علي الشرف الذي

فذلك منه استعظام للبيت بما مدح به من البيت والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب وهو حديث مكرر ليس ينفك مديح شاعر منه، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة إبداع كما قد يقع لهم في نحو هذا

ولكن لم يتصنع له وأرسله إرسالًا، والبيت الثالث وإن كان معناه مكرر فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم يشبه ألفاظ المبتدئين يعني أن ترتيب الكلام هكذا والجود سرفًا يعذله حاتم عليه وذلك أن سرفًا يجب أن يكون مفعولًا مطلقًا للجواد أي: والجود جود سرف، ولا يصح أن يكون مفعولًا له ليعذل لعدم اتحاد الفاعل، وأما قوله:

فضل وأفضال وما أخذ المدى بعد المدى كالفاضل المتفضل
سار إذا ادلج العفاة إلى الندى لا يصنع المعروف غير معجل

فالبيت الأول منقطع عما قبله وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس ببديع لتكرره على كل لسان، وقوله: ما أخذ المدى فإنه لفظ مليح وهو كقول امرئ القيس:

سمو حباب الماء حالًا على حال

ولكنها طريقة مذللة فهو وفيها تابع، وأما البيت الثاني فقريب في اللفظ والمعنى وقوله: لا يصنع المعروف ليس بلفظ محمود قلت: لم يصب الشيخ في دعواه انقطاع البيت عن سابقه فإنه إجمال له وجمع لمفصله، فإنه لما ذكر الشرف وكرم الأعمال وعقب ذلك بقوله: إنه جامع بين الفضل والأفضال لا كمن ينفرد بأحدهما، وأما قوله:

عال على نظر الحسود كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل
أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول

فالبيت الأول منكر جدًا في جر النجوم بالأحبل موضعه إلى العلو والتكلف فيه واقع، والبيت الثاني أجنبي عنه بعيد منه وافتتاحه رديء وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوفيق والتبيان أجنبيان من كلامه

غريبان في قصيدته ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد، ألا ترى أنه قال بعد ذلك:

نفسي فداؤك يا محمد من فتى بوفي على ظلم الخطوب فتنجلي
إني أريد أبا سعيد والعدا بيني وبين سحابه المتهلل

كان هذا ليس من طبعه ولا من سبكه وقوله:

مضر الجزيرة كلها وربيعة الـ ـغا بور توعدني وأزد الموصل
قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخيك من أدد أبيك بمنصل

البيت الأول حسن المعنى وإن كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين، وهذا المعنى قد يمكن إيراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق منه كقوله:

إذا غضبت عليك بنوم تميم حسبت الناس كلهم غضابا

والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف وهو قبيح اللفظ حيث يقول فيه: فثنه لأخيك من أدد أبيك من أخذه بهذا التعرض لهذا السجع وذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره في قوله الشيخ، وهذا المعنى ويمكن إلى آخره نظر، وأما قوله بعد ذلك في وصفه السيف يقول:

يتناول الروح البعيد مناله عفوًا ويفتح في القضاء المقفل
بإنارة في كل حتف مظلم وهداية في كل نفس مجهل
ماض وإن لم تمضه يد فارس بطل ومصقول وإن لم يصقل

ليس لفظ البيت الأول بمضاه لديباجة شعره ولا له بهجة نظمه لظهور أثر التكلف عليه وتبين الثقل فيه، وأما القضاء المقفل وفتحه فكلام غير محمود ولا مرضي واستعارة لو لم يستعرها كان أولى به وهلا عيب عليه كما عيب على أبي تمام قوله:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

وقالوا: يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه وقد اتبعه البحتري في استعارة الأخدع ولوعا باتباعه فقال في الفتح:

وعتقت من ذل المطامع أخدعي

أي: فإن العادة أن يقال: أعتقتني أو أعتقت عنقي قال الشيخ: إن شيطانه حيث زين له هذه الكلمة وتابعه حين حسن عنده هذه اللفظة لخبيث مارد وردى معاند أراد أن يطلق أعنة الذم فيه ويسرح جيوش العتب إليه ولم يقنع بقفل القضاء حتى جعل للحتف ظلمة تجلى بالسيف، وجعل السيف هاديًا في النفس المجهل الذي لا يهتدي إليه وليس في هذا مع تحسين اللفظ وتنميقه شيء لأن السلاح وإن كان معيبًا فإنه يهتدي إلى النفس وكان يجب أن يبدع في هذا إبداع المتنبي في قوله:

كأن الهام في الهجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في فؤاد

فالاهتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن، وفي البيت الأول شيء آخر وذلك أن قوله: ويفتح في القضاء في هذا الموضع حشو رديء يلحق بصاحبه اللكنة ويلزمه الهجنة، وأما البيت الثالث فإنه أصلح هذه الأبيات وإن كان ذكر الفارس حشوًا وتكلفًا ولغوًا لأن هذا لا يتغير

بالفارس والراجل على أنه ليس فيه بديع يعني كان يكفي أن يقول ماض وإن لم تمضه يد بطل كما قال الطغرائي:

فعـادة النـصل أن يزهـى بجـوهره ولـيس يعمـل إلا فـي يـدي بطـل

وأما قوله:

يغـشى الوغـا فـالترس لـيس بجنـة مـن حـده والـدرع لـيس بمعقـل

مصغ إلى حكـم الردى فإذا مضى لـم يلتفـت وإذا قـضى لـم يعـدل

متوقـــد يفـــري بـــأول ضـــربة مـا أدركـت ولـو أنهـا فـي يـذبل

البيتان الأولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه وهي طريقته التي لا يتجنبها وذلك من السبك الكتابي والكلام المعتدل إلا أنه لم يبدع فيهما بشيء، وقد زيد عليه فيهما ومن قصد إلى أن يكمل عشرة أبيات في وصف السيف فليس من حكمه أن يأتي بأشياء منقولة وأمور مذكورة وسبيله أن يغرب ويبدع كما أبدع المتنبي في قوله:

سـله الـركض بعـد وهـن بنجـد فتـصدى للغيـث أهـل الحجـاز

هذا في باب صقاله وأضوائه وكثرة مائه وكقوله:

ريـان لـو قـذف الـذي أسـقيته لجـرى مـن المهجـات بحـر مزبـد

وقوله: مصغ إلى حكم الردى إن تأملته مقلوب كان ينبغي أن يقول: يصغى الردى إلى حكمه كما قال الآخر:

فالسيف يأمر والأقدار تنتظر

وقوله: وإذا قضى لم يعدل متكرر على ألسنتهم في الشعر خاصة في نفس هذا المعنى، والبيت الثالث سليم وهو كالأولين في خلوه عن البديع

قول المتنبي سله الركض البيت في صفة السيف بالإضاءة واللمعان ومعناه اتفق أنه أنسل بسبب ركض متلقده وهو بنجد فبرق حتى بلغ أرض الحجاز بريقه ولمعانه فحسبوه برقًا فتصدوا لما يعقبه من المطر. وقوله: ريان لو قذف صفة له بكثرة القتل به فيعني أنه شرب نفوس قتلاه فلو قذف ما شربه من الأرواح لجرى منها بحر فهو في معناه كقوله:

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

قال الشيخ وأما قوله:

فإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل

وكأنما سود النمال وحمرها دبت بأيد في قراه وأرجل

البيت الأول يقصد به صنعة اللفظ وهو في المعنى متفاوت لأن المضرب قد لا يكون مقتلًا، وقد يطلق الشعراء ذلك ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبي وأنه بضده:

يقتل السيف في جسم القتيل به وللسيوف كما للناس آجال

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها في قصد الرمح طعنًا وتقطيع السيف ضربًا وفي قوله: وإذا أصيب فما له من مقتل تعسف لأنه يريد بذلك أنه لا ينكسر فالتعبير بما عبر به عن المعنى الذي ذكرنا يتضمن التكلف وضربًا من المحال وليس بالنادر، والذي عليه الجملة ما حكينا عن غيره ونحوه قال بعض أهل الزمان:

يقصف في الفارس السمهري وصدر الحسام فريقًا فريقا

والبيت الثاني أيضًا هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء وإنما تصنيعه بسود النمال وحمرها فليس بشيء، ولعله أراد بالحمر الذر والتفضيل بارد

والأغراب به منكر وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال: كان كذا حين كانت الثريا بحذاء رأسي على سواء أو منحرفة قدر شبر أو نصف شبر أو أصبع أو ما يقارب ذلك فقيل له: هذا من الورع الذي يبغضه الله ويمقته الناس، ورب زيادة كانت نقصانًا وصفة النمل بالسواد والحمرة في هذا من ذلك الجنس وعليه خرج بقية البيت في قوله: دبت بأيد في قراه وأرجل، وكان يكفي ذكر الأرجل عن ذكر الأيدي ووصف الفرند بدب النمل شيء لا يشذ عن أحد منهم قلت: بل كان يكفي ذكر دبيب النمل دون الأيدي والأرجل كما قال أبو العلاء:

ودبت فوقه خمر المنايا ... ولكن بعد ما سنحت نمالا

وأما قوله:

وكأن شاهره إذا استضوى به الـ ... ـزحفان يعصي بالسماك الأعزل

حملت حمائله القديمة بقلة ... من عهد عاد غضة لم تذبل

البيت الأول منهما فيه ضرب من التكلف وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم كما قيل:

قمر يشد على الرجال بكوكب

فجعل ذلك الكوكب السماك واحتاج إلى أن يجعله أعزل للقافية ولو لم يحتج إلى ذلك كان خيرًا له لأن الصفة في هذا الموضع تغض منه وموضع التكلف الذي ادعيناه الحشو الذي ذكره من قوله: إذا استضوى به الزحفان وكان يكفي أن يقول: كان صاحبه يعصى بالسماك وهذا وإن كان قد تعمل فيه اللفظ فهو لغو على ما بينا، وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله: حمائله القديمة ولا فضيلة له في ذلك تشبيه السيف بالبقلة من

تشبيهات العامة والكلام الرذل النذل لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن، ثم انظر إلى هذا المقطع الذي هو بالعي أشبه منه بالفصاحة وإلى اللكنة أقرب منه إلى البراعة، وقد بينا أن مراعاة الفواتح والخواتم والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بد منه وأن الإخلال بذلك يخل بالنظم ويذهب رونقه ويحيل بهجته ويأخذ ماءه وبهاءه، وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ما سطرت لأن هذا القبيل موضوع متعمل مصنوع وأصل الباب في الشعر على أن ينظر إلى جملة القصة ثم يتعمل الألفاظ ولا ينظر بعد ذلك إلى مواقعها ولا يتأمل مطارحها وقد يقصد تارة إلى تحقيق الأغراض وتصوير المعاني التي في النفوس ولكنه يلحق بأصل بابه ومميل بك إلى موضعه وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل، وإن أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا في ذلك بما يقع إليك إن كنت من أهل الصنعة مما يطول علي نقله، وكذلك في السيف وذكر بعض أهل الأدب أن أحسن قطعة في السيف قول أبي الهول الحميري:

حاز صمصامة الزبيدي من بيـ ـن جميع الأنام موسى الأمين

سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيرًا ما أطبقت عليه الجفون

أخضر اللون بين برديه حد من ذعاف تميس فيه المنون

أوقدت فوقه الصواعق نارًا ثم شابت له الذعاف القيون

فغذا ما شهرته بهر الشمـ ـس ضياء فلم تكد تستبين

يستطير الأبصار كالقبس المشعـ ـل لا تستقيم فيه العيون

وكأنه الفرند والرونق الجا ري في صفحته ماء معين

نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيـ ـجاء يعصى به ونعم القرين

مـــا يبـــالي إذا انتـــضاه لـــضرب أشـــمال ســـطت بـــه أم يمـــين

وإنما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته ومن أهل عصره ومن هو في مضماره في منزلته ومعرفة أجناس الكلام والوقوع على أسراره والوقوف على مقداره شيء، وإن كان عزيزًا وأمر وإن كان بعيدًا فهو سهل على أهله مستجيب لأصحابه مطيع لأربابه ينقدون الحروف ويعرفون الصروف، وإنما تبقى الشبهة في ترتيب الحال من البحتري وأبي تمام وابن الرومي وغيره، ونحن وإن كنا نفضل البحتري بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقد قوله فالشعر قبيل ملتمس مستدرك وأمر ممكن مطيع، وهذه القصيدة التي تكلم بانتقاد بعضها هذا الشيخ رضي الله عنه، ونقل عن البحتري أنها أجود شعره قد امتدح بها أحد أعيان زمانه من الكتبة محمد بن علي عيسى القمي ورأيت إثباتها هنا وتعقيبها بالقصيدة التي استجادها الأستاذ أبو الفضل بن العميد أحد مشايخ الكتاب وشيخ الصاحب إسماعيل بن عباد في دولة بني بويه تعجيلًا للفائدة هذه القصيدة الأولى:

أهـــلًا بـــذلك الخيـــال المقبـــل فعـــل الـــذي نهـــواه أو لـــم يفعـــل

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بـــسناه أعنـــاق الركـــاب الـــضلل

الأعناق هنا جمع عنق، وهو الجماعة من الناس أو العضو المخصوص فيكون مجازًا بعلاقة الجزئية إذ العنق موضع استبانة الهداية، فإنه أول ما يميل ويعتدل عند سلوك السبل فكأنه قال: فاهتدت بسناه إبل الركاب أو جمل الركاب:

مـــن غـــادة منعـــت وتمنـــع نيلهـــا فلـــو أنهـــا بـــذلت لنـــا لـــم تبـــذل

كالبـدر غيـر مخيـل والغـصن غيـ ـــر مميـل والـدعص غيـر مهيـل
ما الحسن عندك يا سعاد بمحسن فيمـا أتـاه ولا الجمـال بمجمـل
عذل المشوق وأن من سيما الهوى فـي حيـث تجهلـه لجـاج العـذل
مـاذا عليـك مـن انتظـار متيم بـل مـا يـضرك وقفـة فـي منـزل
إن سيل عي عن الجوب ولم يطق رجعـا فكيـف يكـون إن لـم يـسئل
لا تكلفـن لـي الـدموع فـإن لـي دمعًـا يـتم عليـه إن لـم يفـضل
ولقد سكنت إلى الصدود من النوى والـشرى أرى عنـد أكـل الحنظـل
وكـذاك طرفـه حين أوجـس ضـربة في الرأس هان عليه قطع الأكحل
وأغـر فـي الـزمن البهـيم محجـل قـد رحـت منـه علـى أغـر محجـل
كالهيكـــل المبنـــي إلا أنـــه في الحسن جاء كصورة في هيكل
وافـي الـضلوع يـشد عقـد حزامـه يــوم اللقــاء علــى معـم مخـول
أخوالـــه للرســـتمين بفـــارس وجـــدوده للتبعـــين بموكـــل
يهوى كما تهوى العقاب وقدرات صـيدًا وينتـصب انتـصاب الأجـدل
تتــوهم الجــوزاء فــي إرســاغه والبـــدر فـــوق جبينـــه المتهلـــل
مـــستوجس بـــرقيقتين كأنمـــا تريـــان مـــن ورق عليـــه موصـــل
ذنـب كمـا سـحب الـرداء يـذب عـن عــرف وعــرف كالقنــاع المــسبل
جـذلان يـنفض عـذرة فـي غـرة يقـق يـسيل حجولهـا فـي جنـدل

العذرة الشعر النازل من ناحية الرأس، ويقق شديد البياض والإضافة في حجولها أي: الغرة لأدنى ملابسة لجريان العادة بجمع الغرة والتحجيل في الذكر:

كـــالرائح النـــشوان أكثـــر مـــشيه عرضًـا علـى الـسنن البعيـد الأطـول

ذهب الأعالي حيث تذهب مقلة فيه بناظرها حديد الأسفل

أي: أعاليه ذهبية اللون وأسفله حديدي القوة:

صافي الأديم كأنما عنيت به لصفاء نقبته مداوس صيقل

النقبة: بضم فسكون اللون والمدوس آلة الصقال:

وكأنما نفضت عليه صبغها صهباء للبردان أو قطربل

البرد أن بفتحتين قريبة بناحية بغداد:

لبس القنوء مزعفرًا ومعصفرًا يدمى فراح كأنه في خيعل

وكأنما كسى الخدود نواعمًا مهما تواصلها بلحظ تخجل

الخيعل قميص ليس له كمان.

وتراه يسطع في الغبار لهيبه لونًا وشدًا كالحريق المشعل

وتظن ريعان الشباب يروعه من جنة أو نشوة أو أفكل

هزج الصهيل كأن في نغماته نبرات معبد في الثقيل الأول

ملك العيون فإن بدا أعطينه نظر المحب إلى الحبيب المقبل

ما أن يعاف قذى ولو أوردته يومًا خلائق حمدويه الأحول

لمحمد بن علي الشرف الذي لا يلحظ الجوزاء إلا من عل

وسماحة لولا تتابع مزنها فينا لراح المزن غير مبخل

والجود يعذله عليه حاتم سرفًا ولا جود لمن لم يعذل

فضل وأفضال وما أخذ المدى بعد المدى كالفاضل المتفضل

سار إذا ادلج العفاة إلى الندى لا يصنع المعروف غير معجل

عال على نظر العيون كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل

أو ما رأيت المجد ألقى رحله ... في آل طلحة ثم لم يتحول
ضيف لهم يقرى الضيوف ونازل ... متكفل فيهم بنزل النزل
نفسي فداؤك يا محمد من فتى ... يوفى على ظلم الخطوب فتنجلي
إني أريد أبا سعيد والعدا ... بيني وبين سحابه المتهلل
مضر الجزيرة كلها وربيعة الـ ... ـخابور توعدني وأزد الموصل
قد جدت بالطرف الجواد فثنه ... لأخيك من أدد أبيك بمنصل
يتناول الروح البعيد مناله ... عفوًا ويفتح في القضاء المقفل
بإنارة في كل حتف مظلم ... وهداية في كل نفس مجهل
ماض وإن لم تمضه يد فارس ... بطل ومصقول وإن لم يصقل
يغشى الوغا فالترس ليس بجنة ... من حده والدرع ليس بمعقل
مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى ... لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل
متألق يفري بأول ضربة ... ما أدركت ولو أنها في يذبل
وإذا أصاب فكل شيء مقتل ... وإذا أصيب فما له من مقتل
وكأنما سود النمال وحمرها ... دبت بأيد في قراه وأرجل
وكأن شاهره إذا استضوى به الز ... حفان يعصى بالسماك الأعزل
حملت حمائله القديمة بقلة ... من عهد عاد غضة لم تذبل

السماك الأعزل أحد السماكين والآخر السماك الرامح، فالأعزل ما لا رمح معه والرامح ما معه رمح ولأبي العلاء المعري وفيه ذكر السماكين:

لا تطلبن بغير حظ آلة ... قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السما كأن السماء كلاهما ... هذا له رمح وهذا أعزل

وهذه القصيدة الثانية مدح بها أحد أمراء زمانه علي الأرمني:

في الشيب زجر له لو كان ينزجر ... وبالغ منه لولا أنه حجر
أبيض ما اسود من فوديه وارتجعت ... جلية الصبح ما قد أغفل السحر
وللفتى مهلة في الحب واسعة ... ما لم يمت في نواحي رأسه الشعر
قالت مشيت وعشق أنت بينهما ... وذاك في ذاك ذنب ليس يغتفر
وعيرتني سجال العدم جاهلة ... والنبع عريان ما في فرعه ثمر

النبع شجر تعمل منه القسى فإن نبت في أعلى الجبل كان صلبًا لاستيفاء حظه من الشمس وجفاف الهواء وخص باسم النبع وإن نبت في وسط الجبل كان متوسطًا وسمى بالشوحط بفتح أوله وإن نبت في أسفل الجبل كان رخوًا وسمي غربًا بفتحتين وفي الرد على البحتري على سبيل المغالطة الأدبية حيث قال: إنه لا ثمر للنبع وقد صدق يقول أبو العلاء المعري:

وقال الوليد النبع ليس بمثمر ... وأخطأ سرب الوحش من ثمر النبع

يعني أنه تتخذ منه القسي فيصاد بها الوحش فذلك من فوائده وثمراته، والسجال النوب كما يقال: الحرب سجال أي: مرة لهؤلاء ومرة لأولئك:

عزى عن الحظ إن العجز يدركه ... وهوّن العسر علمي فيمن اليسر
وما الفقير الذي عيرت آونة ... بل الزمان إلى الأحرار مفتقر
لم يبق من جل هذا الناس باقية ... ينالها الفهم إلا هذه الصور
جهل وبخل وحسب المرء واحدة ... من تين حتى يعفى خلفه الأثر
إذا محاسني اللاتي أدل بها ... كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر
أهز بالشعر أقوامًا ذوى وسن في ... الجهل لو ضربوا بالسيف ما شعروا
علي نحت القوافي من مقاطعها ... وما عليَّ لهم أن تفهم البقر

لأرحلـن وأمـالي مطرحـة بسر من راء مستبطًا لها القدر

سر من راء: بلد بناها المعتصم، فلما نزلها قالوا استحسانًا لها: سر من رأى أي: حصل السرور لمن رأى تلك البلد فصار لها اسمًا ويقال: سر من راء بالقلب المكاني كما هو في الشعر وسرّ سرّا بحذف الهمزة:

أبعد عشرين شهرًا لأجدى فيرى به انصراف ولا وعد فينتظر
لولا علي بن مر لاستمر بنا خلف من العيش فيه الصاب
عذنا بأروع أقصى نيله كثب على العفاة وأدنى سعيه سفر
ألح جودًا ولم تضرر سحائبه وربما ضر في إلحاحه المطر
لا يتعب النائل المبذول همته وكيف يتعب عين الناظر النظر
بدت على البدو نعمى منه سابغة وفراء يحضر أخرى مثلها الحضر
مواهب ما تجشمنا السؤال لها إن الغمام قليب ليس يحتفر
يهاب فينا وما في لحظه شزر وسط الندى ولا في خده صعر
برد الحشا وهجير الروع محتفل ومسعر وشهاب الحرب مستعر
إذا ارتقى في أعالي الرأي لاح له ما في الغيوب التي تخفى فتستتر
توسط الدهر أحوالًا فلا صغر عن الخطوب التي تعرو ولا كبر
كالرمح أذرعه عشر وواحدة فليس يزري به طول ولا قصر
مجرب طالما أشجت عزائمه ذوي الحجا وهو عن بيتهم غمر
آراؤها اليوم أسياف مهندة وكان كالسيف إذا راؤه زبر
ومصعد في هضاب المجد يطلعها كأنه لسكون الجأش منحدر
ما زال يسبق حتى قال حاسده له طريق إلى العلياء مختصر
حلو حميت متى تجنى الرضا خلقًا منه ومر إذا أحفظته مقر

حميت شديد الحلاوة ومقر شديد المرارة.

نهيت حساده عنه وقلت لهم السيل بالليل لا يبقى ولا يذر
كفوا إلا كففتم مضمري أسف إذا تنمر في أقدامه النمر
ألوي إذا شابك الأعداء كدهم حتى يروح وفي أظفاره الظفر
واللؤم أن تدخلوا في حد سخطته علمًا بأن سوف يعفو حين يقتدر
جافي المضاجع ما ينفك في لجب يكاد يقمر من لألائه القمر
إذا خطامة سارت فيه آخذة خطام نبهان وهي الشوك والشجر
رأيت مجدًا عيانًا في بني أدد إذ مجد كل قبيل دونهم خبر

خطامة بضم أوله اسم قبيلة الممدوح من بني أسد وسارت فيه أي: في ذلك اللجب الذي يكاد يقمر القمر من ضوء سلاحه وأخذ خطام نبهان وهو مقود الجمل استعارة أي: إذا تقدمتهم وكانت في أوائلهم لرياستها عليهم:

أحسن أبا حسن بالشعر إذ جعلت عليك أنجمه بالمدح تنتثر
فقد أتتك القوافي غب فائدة كما تفتح غب الوابل الزهر
فيها العقائق والعقبان إن لبست يوم التباهي وفيها الوشي والحبر
ومن يكن فاخرًا بالشعر يمدح في أضعافه فيك الأشعار تفتخر

وقد استبان لك مما سلف وخصوصًا من كلام هذا الشيخ المنتقد أن الشعر وسائر الكلام بحسب براعة العبارات واشتمالها على الفوائد ينقسم أربعة أقسام: قسم حسن لفظه وكثرت فوائده، وقسم حسن لفظه وقلت فوائده، وقسم كثرت فوائده ولم يحسن لفظه، وقسم فقد الأمرين وهو الذي قيل فيه:

وشعر كبعر التيس فرق بينه لسان دعى في القريض دخيل

وعلى هذا التقسيم قول بعضهم:

الشعراء فاعلمن أربعة فشاعر يجرى ولا يجرى معه
وشاعر مستوجب أن نرفعه وشاعر من حقه أن نسمعه
وشاعر مستأهل أن نصفعه ....

ولا نزاع في شرف القسم الأول وانحطاط الأخير؛ وإنما هي في المفاضلة بين شعر حسن لفظه وقلت فوائده وما يقابله، وعندي أن الأول لسلامته من إيذاء المستمع أفضل وأجمل وصاحبه أحق بالتقديم والإجلال، والمثل في ذلك أن الصوت الجميل المضطرب بموافقة النفوس يملأها التذاذ أو إن كان خاليًا من صناعة الغناء بقدر ما ينفرها ويوحشها الصوت القبيح مع استيفاء الصنعة فيه ومن غلب عليه رعاية الصناعة والالتذاذ بملاحظتها وإدراك دقائقها يفضل القسم الثاني فالرأي مختلف واستبان لك أيضًا أن جودة الكلام تعتمد صحة المعنى وشرفه وتحير الألفاظ في أنفسها ومن جهة تجاورها وموافقتها للمقام وإجادة التركيب على ما شرح في علم المعاني وغيره بحيث تكون الألفاظ سلسة في المنطق خالية من التنافر وشدة الغرابة يألف بعضها بعضًا حتى تكون الكلمات المتوالية بمنزلة كلمة واحدة وتكون الألفاظ التي توردها في مقام الحماسة ليست كالألفاظ التي توردها في مقام الغزل والتشبب، فلكل فن من تلك الفنون ألفاظ توافقه من جهة شدتها ولينها، ولذلك تسمعهم يقولون الجزل والرقيق وإجادة التركيب بسلامته مما يبعد فهم المعنى منه وليس كل تركيب صدر عن شعراء العرب وغيرهم من المشاهير جيدًا، فربما تعسف الواحد منهم اغترارًا بفهم نفسه وغفلة عن

رعاية غيره ومساعرة بإيراد ما ظهر له من المعنى، فعليك إذا أن تجيد الفكرة باستصحاب ما سلف من القوانين والوصايا في تمييز جيد التراكيب من رديئها ويزيدك استحضارًا لها وتمكنًا من اعتبارها ما سأنقله لك عن ابن خلدون رحمه الله تعالى قال في مقدمة تاريخه حيث انتهى من القول في العلوم إلى التكلم على صناعة الشعر وكيفية تعلمها.

فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات؛ إلا أنا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب فإن أمكن أن تجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه، وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى؛ إذ هو كلام مفصل قطعًا قطعًا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخيرة من كل قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتًا، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويًا وقافية، ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بإفادته في تركيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده، وإذا أفرد كان تامًا في باب في مدح أو تشبيب أو رثاء فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ثم يستأنف في البيت الأخير كلامًا آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن يناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التنافر، كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف، ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التأثر وأمثال ذلك، ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذرًا من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس، ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن اتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور وقد

حصروها في خمسة عشر بحرًا أو ستة عشر بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظمًا. قلت: وما ذكر من انفراد كل بيت بمعناه عن سابقه ولاحقه إنما هو في صفة جيد الشعر كأنه لم يعد غيره شعرًا على أنه ربما أوجبت جودة الشعر اغتفار افتقار كل من البيتين لصاحبه ألا ترى أن ذلك لم ينقص من حسن قول عمر بن أبي ربيعة:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد
زعموها سألت جاراتها	وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتنني تبصرنني	عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها	حسن في كل عين من تود
حسدًا حملنه من أجلها	وقديمًا كان في الناس الحسد

لا أراك تشك في أن هذا الشعر بالغ من الحسن غاية ما يمكن ولم يؤثر فيه افتقار البيت لصاحبه؛ إذ كان المعنى مستدعيًا ذلك ثم قال ابن خلدون: واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفًا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشواهد صوابهم وخطاهم وأصلًا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن ينفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من

شعر العرب ويبرزه مستقلًا بنفسه، ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم ببيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالات بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكًا للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه، ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها ولنذكر هنا ما يريده أهل الصناعة بالأساليب، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب والقالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقلب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصًا كما يفعله البناء في القالب والنساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله:

يا دار مية بالعلياء فالسند

ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله:

قفا نسأل الدار التي خف أهلها

أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله:

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله:

حي الديار بجانب الحجر

أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله:

أسقى طلولهم أجش هزيم ... وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا له من البرق كقوله:

يا برق طالع منزلًا بالأبرق ... واحد السحاب لها حداء الأينق

أو مثل التفجع بالجزع باستدعاء البكاء كقوله:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله:

أرأيت من حملوا على الأعواد

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العشب لأحام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية:

أيا شجر الخابور ما لك مورقًا كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله:

ألقى الرماح ربيعة بن نزار أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وينتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية اسمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها، فإن مؤلف الكلام هو كالبناء والنساج والصورة الذهنية المنطبعة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه، فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كأن فاسدًا ولا تقولن: إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لأنا نقول: القوانين إنما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيآتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب بجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق، وأن القوانين

العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية، فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان ناظرًا في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس، ولهذا قلنا: إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور، فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفصلًا في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبًا وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال، فلهذا كان من يؤلف الكلام منفردًا عن نظر النحوي والبياني والعروضي نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب ولا يفيده إلا حفظ كلام العرب نظمًا ونثرًا وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو فلنذكر بعده حدًّا أو رسمًا للشعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض، فإنا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأينا وقول العروضيين في حده أنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له وصناعتهم، إنما تنظر في الشعر

باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به فقولنا: الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل عما يخلو من هذه فإنه في الغالب ليس بشعر وقولنا: المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل وقولنا: مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شيء وقوله الجاري على الأساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجز منه على أساليب العرب المعروفة، فإنه حينئذ لا يكون شعرًا إنما هو كلام منظوم لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور، وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر فما كان من الكلام منظومًا وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعرًا وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء؛ لأنهما لم يجريا على أساليب العرب من الأمم عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب وغيرهم، ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك ويقول مكانه الجاري على الأساليب المخصوصة وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله فنقول: اعلم أن لعمل الشعر وأحكام صناعته شروطًا أولها الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ

المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس، وأكثره شعر كتاب الأغاني لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليًا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ ثم يعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال: إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة أذهى صادة عن استعمالها بعينها فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ المرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه قالوا وخير الأوقات لذلك أوقات الذكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجمام وربما قالوا: إن من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه يضعها ويبني الكلام عليها إلى آخره؛ لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقة، وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي

عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به، فإن كل بيت مستقل بنفسه ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو بنات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة، إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب أيضًا المعقد من التراكيب جهده وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد، فإن فيه نوع تعقيد على الفهم وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقًا على معانيه أو أوفى فإن كانت المعاني كثيرة منع ذلك الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلًا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن، ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر، فكان شعرهما كلامًا منظومًا نازلًا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضًا الحوشي من الألفاظ والمقصر، وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضًا فيصير مبتذلًا ويقرب من عدم الإفادة كقولهم: النار حارة والسماء فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة؛ إذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فإن القريحة مثل

الضرع يدر بالامتراء ويجف بالترك والإهمال. وقال ابن خلدون أيضًا في تفسير كلمة الذوق الدائرة على ألسنة المتكلمين في هذا الشأن: اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان، وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب وأن سمع تركيبًا غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفادة من حصول هذه الملكة، فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعية وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابًا وبلاغة أمر طبيعي ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفته القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علمًا بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم، ولو رام صاحب هذه الملكة حيدًا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة

لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده وإذا عرض عليه الكلام حائدًا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ومثاله: لو فرضنا صبيًا من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين أجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه وأيضًا فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له: ذوق وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها لأن قصارهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب ويضطرون إليه من ذلك، وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار

وبعدوا عنها كما تقدم، وإنما لهم في ذلك ملكة أخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء إنما حصل أحكامها كما عرفت، وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجامًا مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجمًا في نسبهم فقط وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها، فهم وإن كانوا عجمًا في النسب فليسوا بأعجمام في اللغة والكلام لأنهم أدركوا الملة في عنفوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته. قلت: وحاصل هذا الكلام واختصار الطريق إلى معرفة الغرض منه هو أن من يريد أن يتصدى لإنشاء الكلام نثرًا كان أو نظمًا يجب أن يكون فيه استعداد طبيعي لأمور اختيارية وذلك بأن يكون ذا حافظة قوية وفهم ثاقب وذاكرة مطيعة فإن الناس في ذلك ليسوا سواء قال الحكماء عن خبرة تامة وتجربة كافية ومعرفة صحيحة أن الإنسان ذو طبائع أربع: الدم والصفراء والسوداء والبلغم، وإذا غلب على مزاجه إحدى تلك الطبائع نسب إليها فقيل: دموي وصفراوي وسوداوي وبلغمي، ولكل أمارات ظاهرة والدموي يكون ممتلئ الأعضاء مكتنزًا للحم صافي اللون نيره صحيح الجمال، والصفراوي يكون نحيفًا يابسًا في لونه صفرة، والسوداوي يكون يابسًا في لونه كمدة شديد الشبق، والبلغمي يكون رخوًا

مائيًا في لونه نوع زرقه ومن خواص الدموي سرعة الحفظ وبطء النسيان، ومن خواص الصفراوي سرعة الحفظ وسرعة النسيان، ومن خواص السوداوي بطء الحفظ وبطء النسيان، والبلغمي بطيء الحفظ سريع النسيان فإذا كان الإنسان ذا حافظة قوية واستعملها في حفظ ما اتفق أسلافه ومعلموه على استجادته مهتديا بفهمه إلى معاني محفوظاته ومقاصدها وتمييز كل فريق منها بما له من المحاسن وما لغيره من المساوي حسب ما سلف إرشادك له ثم استخدم ذاكرته في إحضار ما أراد من ذلك متى شاء فهو حينئذ متهيئ لتحصيل تلك الصناعة وبالغ منها بتوفيق الله غاية منيته ومنتهى مقصوده، فمن لم يجد من نفسه ذلك الاستعداد فعليه أن لا يورط نفسه ويستعملها فيما يكدها من غير عاقبة حميدة؛ بل عليه أن ينظر فيما يسهل عليه ويمكنه الانتفاع به كما قيل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وإذ كان الإنسان في أول أمره هو والبهائم سواء لا يهتدي لمعرفة ما هو الأصلح من الأحوال حتى يتعودها ويربي فيها ملكته فعلى من يتولى تربيته أن يختبره ويترصد رغباته ويتأمل ميله وما يمكن أني يقوي فيه حسب طبيعته ووفق جبلته ويأخذه بمزاولة ذلك حتى يتم، فإذا جرى العمل على ذلك حسن أمر الأمة وانتظمت مسالكهم وقويت منفاعهم وبلغوا الدرجة التي هي للأمة كمال ولجميع طوائفها وأشخاصها أتم جمال. وأما قوله في تفسير الذوق فما بين منه ما ساء لقبه عليك وذلك أن بين الأشياء تناسبًا بحيث متى استوفت عند اجتماعها حظها منه قامت منها صورة يتفاوت الناس في إدراك حسنها طبعًا وتعلمًا، فمنهم من لا يدرك ذلك ولا يلتفت إليه وليس مدركوه سواء فيه فمنهم من يقنع بإدراك ظواهر الأشياء ومنهم من ينتهي إدراكه إلى اعتبار دقائقها وخوافيها،

وتعتبر ذلك بما تشاهده من شدة سرور بعض الناس عند رؤيته للأشياء المناسبة التي يلائم بعضها بعضًا وشدة نفرته وانقباضه عند رؤية خلافها لا يختص ذلك بشيء دون شيء فتراه يتأمل الأبنية وأوضاعها وما اشتملت عليه من مكملات الانتفاع بها، فإذا أدرك فيها التناسب اللائق بها رأيته قد انشرح صدره وتجدد سروره وأخذ في نعتها والثناء على صناعها، وذلك مثل تعتبر به غيره وتتأمل تفاوت الناس في ذلك الإدراك فالإدراك الذي يتعلق بتناسب الأشياء ويوجب الاستحسان والاستقباح هو المسمى بالذوق وهو طبيعي ينمو ويتربى بالنظر في الأشياء والأعمال من جهة موافقتها للغاية المقصودة منها. وأما قوله في الأساليب العربية واختصاصها حتى أنه أخرج نظم المتنبي وأبي العلاء المعري عن أن يكون شعرًا، فذلك حجر واسع وحظر مباح فإن أنفس الشعراء من العرب لم يتفقوا على سلوك طريق بعينها وإنما هي مذاهب مختلفة وطرق متشاغبة كما قال الله تعالى في صفتهم: {ألم تر أنهم في كل واد يهيمون} فليس هناك طريق معينة يلتزمها السالك وإنما المدار على أن توافق التراكيب التي يستعملها المستعمل تراكيب العرب حسب ما بينته القوانين العلمية؛ على أنه لا يصح تقليد العرب في جميع ما نطقوا به فقد عرفت مما سلف أن بعض كلامهم يجب اجتناب مثله وأنهم لا يتابعون إلا فيما كان أوفق للغرض من الكلام وهو التفاهم وفي خصوص الشعر والإنشاء من التأثير في الطباع وتحويلها إلى الميل الذي يريده الشاعر والكاتب، ففي الحماس مثلًا يكون الكلام مهيجًا للقوى مثيرًا للغضب باعثًا على الحمية، وفي الغزل يكون سارًّا للنفوس مريحًا للخواطر وفي العتاب هاديًا للموافقة ومولدًا للرضا إلى غير ذلك مما تضطرك إلى معرفته مطالعة الأحوال من جهة الإيصال إلى المرغوب والحماية من المرهوب،

فتقرر بجميع ما سلف أنه لا طريق لتعلم صناعة الإنشاء إلا حفظ كلام الغير وفهمه وتمييز مقاصده، وهأنا مستشهد على ذلك بما هو حاضر معنا في هذا العصر المخالف بالكلية للعصور التي كان أمر الشعر والكتابة الصناعية قائمة ورغبات الملوك وأعيان الأمراء فيهما متوفرة؛ إذ كانت الدولة عربية وأمراؤها من العرب أو من غيرهم وهم مضطرون لإتقان معرفة لسانهم حسب ما كانت تبعث الحاجة إليه ويتوقف تحصيل الأغراض عليه وبتغير الدولة تتغير الأحوال، فإن الكتابة الصناعية بلسان الدولة القائمة بالغة درجتها باللسان العربي أو أعلى كما تسمعه من العارفين بطرائق اللسانين ومحاسن اللغتين وليس يقوى أمر كما هو بديهي إلا بحسب قوة الحاجة إليه هذا الأمير الجليل ذو الشرف الأصيل والطبع البالغ نقاؤه والذهن المتناهي ذكاؤه محمود سامي باشا البارودي لم يقرأ كتابًا في فن من فنون العربية؛ غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلًا إلى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيأت التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن، وسمعته مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين فقلت له في ذلك فقال: هو كذا في قول فلان وأنشد شعرًا لبعض العرب فقلت: تلك ضرورة وقال علماء العربية: إنها غير شاذة ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدًا شريفها من خسيسها واقفًا على صوابها وخطاها مدركًا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء ولشعر الأمراء كأبي فراس والشريف الرضي

والطغرائي تميز عن شعر الشعراء كما ستراه، ومصداق ذلك ما سألقيه عليك من قصائد أنشأها في وزن قصائد لبعض مشاهير المتقدمين ورويها، قال أبو نواس يمدح الخصيب بن عبد الحميد العجمي أمير مصر من طرف الرشيد وقصده من بغداد:

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير
فإن كنت لا خلمًا ولا أنت زوجة ... فلا برحت دوني عليك ستور
وجاورت قومًا لا تزاور بينهم ... ولا وصل إلا أن يكون نشور
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب ... ولا كل سلطان علئ قدير
وإني لطرف العين بالعين زاجر ... فقد كدت لا يخفى علئ ضمير
كما نظرت والريح ساكنة لها ... عقنباة أرساغ اليدين نزور
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة ... أزيغب لم ينبت عليه شكير
فأوفت على علياء حتى بدا لها ... من الشمس قرن والضريب يمور
تقلب طرفًا في حجاجي مفارة ... من الرأس لم يدخل عليه ذرور

هذان فصلان أولهما في شكوى الزمان وقساوة الحرمان فهو يقول خطابًا لامرأة وجد هواها ولم يقدر على الوصول إلى مراده منها لفقره وعدم تمكنه من الطريق إلى ذلك: أيتها الجارة إني غير قادر على الوصول إليك وأنا مقيم بأرضك على ما أنا فيه من الأحوال لا على وجه الخلة ولا على وجه التزوج، فقد عزمت على التغرب لتحصيل أسباب الوصول إليك، فإما أبلغ ما تمنيت وإما أموت معذور أو هذا المعنى نطق به الشعراء كقول بعضهم:

دعيني أطوف في البلاد لعلني ... أصادف حرًا أو أموت فأعذرا

وقول آخر:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

إلى غير ذلك أخرجه هو مخرج القسم بالدعاء على تصميمه وعزمه على فراق أرضه وتغربه في طلب حسن الحال، ثم قوله: خلما وزوجة م كان ينبغي أن يصدر منه وقوله: فما أنا بالمشغوف مخالف لمذهب العشاق والفصل الثاني في الافتخار بحدة الذهن وشدة الفطنة وكثرة التجربة مشبه نفسه بالعقاب التي وصفها وبين الفصلين انقطاع يسمى مثله طغرة الشعر وقوله: عقنباة هو من صفة العقاب قال في القاموس: عقاب عقنباة ذات مخالب حداد فإضافتها في كلامه إلى الأرساغ غير ظاهرة ثم شرع في صفة حاله وما دار بينه وبين أهل بيته عند عزمه على السفر فقال:

تقول التي من بيتها خف مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب ... بلى إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في جريهن عبير

ذريني أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأي فتى بعد الخصيب تزور

فتى يشتري حسن الثناء بما له ... ويعلم أن الدائرات تدور

بعثه على هذا الكلام المزعج إدلاله بمكانه:

فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يصير الجود حيث يصير

هذا البيت من الشعر الذي كثر لفظه وقل معناه؛ إذ معناه أنه لا يفارقه الجود عليه فيه مؤاخذة فإنه أخذه من قول الشنفرى:

ظاعن بالحزم حتى إذا ما ... مل حل الحزم حيث يحل

ونقل العبارة من الحزم نقلًا غير صحيح إلى الجود وذلك أن الحزم يتعلق بالسير والحلول بحيث يقال من حزمه وحسن رأيه يظعن في الأوقات التي تقتضي الأحوال أن يظعن فيها فلا يؤخر واجبًا ولا يفعل ما ليس لازمًا ويحل بالأمكنة التي تصلح للحلول لأمنها واشتمالها على ما يلزم للإقامة، وأما الجود فإنه لا يصح ربطه بالسير والإقامة وإنما يربط بالأحوال فيقال: إنه جواد على كل حال من عسر ويسر:

فلم تر عيني سوددًا مثل سودد ... يحل أبو نصر به ويسير

وإطراق حيات البلاد لحية ... خصيبية التصميم حين تسور

ستموت لأهل الحوف في دار ... فأضحوا وكل في الوثاق أسير

إذا قام غنته أعلى الساق حلية ... لها خطوة عند القيام قصير

فمن يك أمسى جاهلًا بمقالتي ... فإن أمير المؤمنين خبير

وما زلت توليه النصيحة يافعًا ... إلى أن بدا في العارضين قتير

إذا غاله أمر فإما كفيته ... وإما عليه بالكفى تشير

الحوف ناحية بمصر ظهر من أهلها عصيان فورد له الأمر بحربهم وتأديبهم فظفر بهم:

إليك رمت بالقوم هوج كأنما ... جماجمها تحت الرحال قبور

رحلن بنا من عفرقوف وقد بدا ... من الصبح مفتوق الأديم شهير

أخذ يذكر الأماكن التي مر بها في سفره من بغداد إلى مصر:

فما أنجدت بالماء حتى رأيتها ... مع الشمس في عيني أباغ تغور

وغمرت من ماء النقيب بشرية ... وقد خان من ديك الصباح زمير

التغمير الشرب دون الري.

وواف‍‍ين إش‍‍راقًا كن‍‍ائس ت‍‍دمر وه‍‍ن إل‍‍ى رع‍‍ن الم‍‍دجن ص‍‍ور
ي‍‍ؤمن أه‍‍ل الغ‍‍وطتين كأنم‍‍ا لهـ‍‍ا عن‍‍د أه‍‍ل الغ‍‍وطتين ث‍‍ؤر
وأص‍‍بحن ب‍‍الجولان يرض‍‍خن ول‍‍م يب‍‍ق م‍‍ن إج‍‍رامهن ش‍‍طور
وقاسين ليلًا دون يبسان لم يكد س‍‍نا ص‍‍بحه للن‍‍اظرين ين‍‍ير
وأصبحن قد فوزن من أهل قرطس وه‍‍و ع‍‍ن البي‍‍ت المق‍‍دس زور
طوال‍‍ب بالركب‍‍ان غ‍‍زة هاش‍‍م وف‍‍ي الفرم‍‍ا م‍‍ن ح‍‍اجهن ش‍‍قور

الشقور المهمات من الحاجات، والفرما من بلاد مصر التي كانت مشهورة بالصنائع كنيس وقد زالت ولم يبق لها أثر.

ولما أتت فسطاط مصر أجارها عل‍‍ى ركبه‍‍ا ألا ت‍‍ذال مجي‍‍ر

هذا المعنى الذي قال فيه وكرره في عبارات:

وإذا المط‍‍ي بن‍‍ا بلغ‍‍ن محم‍‍دًا فظه‍‍ورهن عل‍‍ى الرح‍‍ال ح‍‍رام

وقد سلف هو وأصله وأذال المصون أهانه.

مم‍‍ن الق‍‍وم ب‍‍سام ك‍‍أن جبين‍‍ه س‍‍نا الفج‍‍ر ي‍‍سري ض‍‍وءه وين‍‍ير
زهي بالخصيب السيف والرمح في وف‍‍ي ال‍‍سلم يزه‍‍و من‍‍ير وس‍‍رير
جواد إذا الأيدي كففن عن الندى وم‍‍ن دون ع‍‍ورات الن‍‍ساء غي‍‍ور

عبارة باردة.

ل‍‍ه س‍‍لف ف‍‍ي الأعجم‍‍ين ك‍‍أنهم إذا اس‍‍تؤذنوا ي‍‍وم ال‍‍سلام ب‍‍دور
ف‍‍إني ج‍‍دير إذ بلغت‍‍ك ب‍‍الغنى وأن‍‍ت بم‍‍ا أمل‍‍ت من‍‍ك ج‍‍دير
ف‍‍إن ت‍‍ولني من‍‍ك الجمي‍‍ل فأهل‍‍ه وإلا ف‍‍إني ع‍‍اذر وش‍‍كور

يحكى أن الرشيد عزل الخصيب عن عمل مصر فخرج منها مجردًا واتفق أن لقي أبا نواس ليلًا في بعض الطريق إلى بغداد وهو على فرس عجفاء، وأبو نواس في ركب حافل فسمعه يتغني فدنا منه وسلم عليه فلم يعرفه أبو نواس لرثاثة حاله فعرفه بنفسه فقال له: ما الذي أصارك يا سيدي لهذا الحال؟ فقال: قولك: الدائرات تدور فأراد أبو نواس أن يواسيه فقال: ما كنت لآخذ ممن أعطيت، وافترقا ولما وصل الخصيب بغداد أقام بها فقيرًا في هيئة سائل يجلس إلى جوانب الجدران فعلم به شاعر وأنه الخصيب فلقيه بأبيات يمتدحه بها، فأخرج له من تحت رقعة من رقاع ثيابه لؤلؤة فريدة وأجازه بها وسأله العذر لضيق الحال فأخذها ونزل بها السوق فعجب منها التجار وأوصلوها إلى الخليفة، فسأل عنها من أين جاءت؟ فوقف على الخبر وعلى طربه بهمة الخصيب إعادة لحسن الحال ورضى عنه، وهذه قصيدة الأمير التي في وزن قصيدة أبي نواس ورويها:

تلاهيت إلا ما يجن ضمير ... وداريت إلا ما ينم زفير
وهل يستطيع المرء كتمان أمره ... وفي الصدر منه بارح وسعير
فيا قاتل الله الهوى ما أشده ... على المرء إذ يخلو به فيغير
تلين إليه النفس وهي أبية ... ويجزع منه القلب وهو صبور
نبذت له رمحى وأغمدت صارمي ... ونهنهت مهري والمراد غزير
وأصبحت مغلول المخالب بعدما ... سطوت ولي في الخافقين زئير
فيا لسراة القوم دعوة عائذ ... أما من سميع فيكم فيجير
لطال عليَّ الليل حتى مللته ... وعهدي به فيما علمت قصير
ألا فرعا الله الصبي ما أبره ... وحيا شبابًا مر وهو نضير
إذا العيش أفواف ترف ظلاله ... علينا وسلسال الوفاء نمير

وإذ نحن فيما بين أخوات لذة ... على شيم ما أنا بهن نكير

تدور علينا الكأس بين ملاعب ... بها اللهو خدن والشباب سمير

فألحاظنا بين النفوس رسائل ... وريحاننا بين الكئوس سفير

عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا ... وطرنا مع اللذات حيث تطير

وقلنا لساقينا أدرها فإنما ... بقاء الفتى بعد الشباب يسير

فطاف بها شمسية لهبية ... لها عند ألباب الرجال ثؤر

إذا ما شربناها أقمنا مكاننا ... وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها ... إلى أن بدا للصبح فيه قتير

شغلت بها قلبي ومتعت ناظري ... ونعمت سمعي والبنان طهور

صنعت بها صنع الكريم بأهله ... وجيرته والغدرون كثير

فما راعنا إلا حفيف رجائم ... لها بين أطراف الغصون هدير

تجاوب أترابًا لها في خمائل ... لهن بها بعد الحنين صفير

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ... ولا دائرات الدهر كيف تدور

توسد هامات لهن وسائدًا ... من الريش فيه طائل وشكير

كأن على أعطافها من حبيكها ... تمائم لم تعقد لهن سيور

خوارج من أيك دواخل غيره ... زهاهن ظل سابغ وغدير

إذا غازلتها الشمس رفت كأنما ... على صفحتيها سندس وحرير

فلما رأيت الصبح قد رف جيده ... ولم يبق من نسج الظلام ستور

خرجت أجر الذيل تيهًا وإنما ... يتيه الفتى أن عف وهو قدير

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة ... ترد لها أم الجيش وهو يمور

إذا سرت فالأرض التي نحن فوقها ... مراد لمهري والمعاقل دور

فلا عجب إن لم يصرني منزل فليس لعقبان الهواء وكور
همامة نفس ليس ينفي ركابها رواح على طول المدى وبكور
معودة أن لا تكف عنانها عن الجد إلا أن تتم أمور
لها من وراء الغيب أذن سميعة وعين ترى ما لا يراه بصير
وفيت بما ظن الكرام فراسة بأمري ومثلي بالوفاء جدير
وأصبحت محسود الجلال كأنني على كل نفس في الزمان أمير
إذا صلت كف الدهر من غلوائه وإن قلت غصت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمة لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي لباء بفضلي جرول وجرير
ولو كنت أدركت النواسي لم يقل أجارة بيتينا أبوك غيور
وما ضرني أني تأخرت عنهم وفضلي بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أول وبذا لجياد السابقات أخير

لم أكن لأدع أن أقول أنظر هداك الله لأبيات هذه القصيدة فأفردها بيتًا بيتًا تجد ظروف جواهر أفردت كل جوهرة لنفاستها بظرف ثم أجمعها وأنظر جمال السياق وحسن النسق، فإنك لا تجد بيتًا يصح أن يقدم أو يؤخر ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث وأكلك إلى سلامة ذوقك وعلو همتك إن كنت من أهل الرغبة في الاستكمال لتتبع هذه الطريقة المثلى ثم قول ابن هانئ: فتى يشتري سبقه إلى النطق به الراعي النميري حيث قال:

فتى يشتري حسن الثناء بماله إذا ما اشترى المخزاة بالمجد بيهس

ونطق به قبله الأبيرد أيضًا:

فتى يشتري حسن الثناء بماله ... إذا ألسنة الشهباء أعوزها القطر

ومثل هذا لا يعيبه أهل الأدب كما نقله عنهم بعض شراح لامية العجم عند ذكره توافق الطغرائي وصاحب المقامات الحريري في قولهما:

وذي شطاط كصدر الرمح معتقل ... بمثله غير هياب ولا وكل

وذي شطاط كصدر الرمح قامته ... صادفته بمنى يشكو من الحرب

قالوا: إذا لم يكن الكلام ذا معنى غريب ولم يشتمل على نكتة بديعة تسامح الشعراء في تناوله والتوافق فيه، فالمعيب إذا مثل قوله في هذه القصيدة فما جازه جود فإنه كما سبق التنبيه عليه منقول من الحزم إلى الجود، وقد سبقه أيضًا بعض بني يربوع بالعبارة في الجود حيث قال:

ما قصر الجود عنكم يا بني مطر ... ولا تجاوزكم يا آل مسعود

يحل حيث حللتم لا يفارقكم ... ما عاقب الدهر بين البيض والسود

وقوله:

زها بالخصيب السيف والرمح ... .

بعد قول ابن مياده:

ويزهى به في الردع عضب مهند ... وفي السلم يزهو منبر وسرير

وقوله:

فإن تولني منك الجميل ... .

وقد قال بعض بني منقر:

فإن جدت كان الجود منك سجية ... وإلا فإني عاذر لك شاكر

وقال أبو نواس أيضًا يمدح الأمير محمد بن الرشيد:

يا دار ما فعلت بك الأيام لم تبق منك بشاشة تستام

تستام تطلب وقيل: تكلف يقال: سامه يسومه سومًا وسيمة، وكذلك في البيع وقيل: سمته وأسمته إذا سألته وكلفته وقيل: تشتام من الشيم وهو النظر، وروى بعضهم:

يا دار ما فعلت بك الأيام ضامتك والأيام ليس تضام

عرم الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين وللزمان عرام

يقال: عرم يعرم عرامة وعرامًا بضم أوله، وقد نطق بالفعل من باب نصر وضرب وكرم وعلم وهو التخابث والإفساد.

أيام لا أغشى لأهلك منزلًا إلا مراقبة عليَّ ظلام

عليَّ ظلام أي: مستخفيًا بالليل ليختلس بغيته اختلاسًا، وهذا التركيب ورد في حديث هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مسافرًا مرة صائمًا فلما غربت الشمس قال لصاحب طعامه: «انزل فأجدح لنا» -أي: هيئ- السويق فقال: يا رسول الله، إن عليك نهارًا فقال: «انزل فأجدح لنا». وقال بشار:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي عليَّ سواد

فهي من الكلمات المستملحة التي يغير عليها الشعراء.

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

وتجشمت بي هول كل تنوفة هوجاء فيها جرأة أقدام

تـذر المطـي وراءهـا فكأنهـا صـف تقـدمهن وهـي أمـام
وإذا المطـي بنـا بلغـن محمـدًا فظهـورهن علـى الرحـال حـرام
قربننا مـن خير مـن وطيء الحصا فلهـا علينـا حرمـة وذمـام
رفـع الحجـاب لنـا فـلاح لنـاظر قمـر تقطـع دونـه الأوهـام
ملـك إذا علقـت يـداك بحبلـه لا يعتفيـك البـؤس والإعـدام
ملـك توحـد بالمكـارم والعـلا فـرد فقيـد النـد فيـه همـام
ملـك أغـر إذا شـربت بوجهـه لـم يعـذك التبجيـل والإعظـام
فـالبهو مـشتمل ببـدر خلافـة لـبس الـشباب بنـوره الإسـلام
سـبط البنـان إذا احتبـى بنجـاده فـرع الجمـاجم والـسماط قيـام

فـرع الجمـاجم أجـود مـن غمـر الجمـام، وهـي روايـة لأن غمـر إنمـا يستعمل في معنى الكثرة يقال: قد غمر جود هذا وغمر الماء الحصى:

إن الـذي يرضـى الإلـه بهديـه ملـك تـردى الملـك وهـو غـلام

ويروى يرضى السماء أي: من في السماء يعني الله عزَّ وجلَّ:

ملـك إذا اعتبـر الأمـور مـضى بـه رأى يفـل الـسيف وهـو حـسام
داوى بـه الله القلـوب مـن العمـى حتـى أفقـن ومـا بهـن سـقام
أصبحت يـابن زبيـدة ابنـة جعفـر أمـلًا لعقـد حبالـه اسـتحكام
فـسلمت للأمـر الـذي ترجـى لـه وتقاعـست عـن يومـك الأيـام

فقال المسمى في الوزن والروى:

ذهـب الـصبا وتولـت الأيـام فعلـى الـصبا وعلـى الزمـان سـلام
تـالله أنـسى مـا حييـت عهـوده ولكـل عهـد فـي الكـرام ذمـام

إذ نحن في عيش ترف ظلاله ... ولنا بمعترك الهوى آثام
تجرى علينا الكاس بين مجالس ... فيها السلام تعانق ولزام
في فتية فاض النعيم عليهم ... ونماهم التبجيل والإعظام
ذهبت بهم شيم الملوك فليس في ... تلعا بهم هذر ولا إبرام
لا ينطقون بغير آداب الهوى ... سمح النفوس على البلاء كرام
من كل أبلج يستضاء بنوره ... كالبدر حلى صفحتيه غمام
سهل الخليقة لا يسوء جليسه ... بين المقامة واضح بسام
متواضع للقوم تحسب أنه ... مولى لهم في الدار وهم همام
ترنوا العيون إليه في أفعاله ... وتسير تحت لوائه الأقوام
فإذا تكلم فالرءوس خواضع ... وإذا تناهض فالصفوف قيام
نلهو ونلعب بين خضر حدائق ... ليست بغير خيولنا تستام
حتى انتبهنا بعد أن ذهب الصبى ... إن اللذاذة والصبا أحلام
لا تحسبن العيش دام لمترف ... هيهات ليس على الزمان دوام
تأتي الهشور وتنتهي ساعاتها ... لمع السراب وتنقضي الأعوام
والناس فيما بين ذلك وارد ... أو صادر تجري به الأيام
لا طائر ينجو ولا ذو مخلب ... يبقى وعاقبة الحياة حمام
فادرأ هموم النفس عنك إذا اعترت ... بالكأس فهي على الهموم حسام
فالعيش ليس يدوم في ألوانه ... إلا إذا دارت عليه الجام
من خمرة تذر الكبير إذا انتشى ... بعد اشتعال الشيب وهو غلام
لعب الزمان بها فغادر جسمها ... شجا تهافت دونه الأوهام
حمراء دار بها الحباب فصورت ... فلكًا تحف سماءه الأجرام

لا تستقيم العين في لمعانها وتزل عند لقائها الأقدام

تعشو الركاب فإن تبلج كأسها ساروا وإن زال الضياء أقاموا

حبست بأكلف لم يصل لفنائه نور ولم يسرح عليه ظلام

يعني: ليست مكشوفة فيتعاقب عليها الليل والنهار؛ وإنما هي في مخبأة فهي دائمًا في حال واحدة.

حتى إذا اصطفقت وطار قدامها وثبت فلم تثبت لها الأجسام

وقدت حميتها فلولا مزجها بالماء بعد الماء شب ضرام

تسم العيون بنورها لكنها برد على شرابها وسلام

فاصقل بها صدأ الهموم ولا تكن غرًّا طيش بلبه الآلام

واعلم بأن المرء ليس بخالد والدهر فيه صحة وسقام

يهوى الفتى طول الحياة وإنها داء له لو يستبين عقام

فاطمح بطرفك هل ترى من أمة خلدت وهل لابن السبيل مقام

هذي المدائن قد خلت من أهلها بعد النظام وهذه الأهرام

لا شيء يخلد غير أن خديعة في الدهر تنكل دونها الأحلام

ولقد تبينت الأمور بغيرها وأتى على النقض والإبرام

فإذا السكون تحرك وإذا الخمود تلهب وإذا السكوت كلام

وإذا الحياة ولا حياة منية تحيا بها الأجساد وهي رمام

هذا يحل وذاك يرحل كارهًا عنه فصلح تارة وخصام

فالنور لو بينت أمرك ظلمة والبدء لو فكرت فيه ختام

فهذه ضعف تلك أكرر أمرك بدقة النظر فيها وتأمل تواليها تجد الإجادة فيها واضحة والسلامة من أدنى متعلق ظاهرة بحيث لا تجد فيها

موضعًا للواو ليت ولتكن عنايتك برعاية تخير الألفاظ بأن تبدلها بما تتخيل أنه يقوم مقامها ويفيد إفادتها ثم تعرف سبب العدول عنه يكن ذلك أبلغ نافع لك وقال الشريف محمد الرضي يفتخر ويمدح أسلافه من أهل البيت صلوات الله وسلامه على من شرفه:

لغير العلا مني القلا والتجنب ... ولولا العلا ما كنت في الحب
إذا الله لم يعذرك فيما ترومه ... فما الناس إلا عاذل أو مؤنب
ملكت بحلمي فرصة ما استرقها ... من الدهر مفتول الذراعين أغلب
فإن يك سني ما تطاول باعها ... فلي من وراء المجد قلب مدرب
بحسبي أني في الأعادي مبغض ... وأني إلى غر المعالي محبب
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ... ولكن أيامي إلى الحلم أقرب
يصول علئ الجاهلون واعتلى ... ويعجم في القائلون وأعرب
يرون احتمالي غصة ويزيدهم ... لواعج ضغن أنني لست أغضب
وأعرض عن كأس النديم كأنها ... وميض غمام غائر المزن تحلب
وقور فلا الألحان تأسر عزمتي ... ولا تمكر الصهباء حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ... ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن كر القوارص شيمتي ... كأن معيد الذم بالمدح مطنب
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى ... إذا نال مني العاضه المتأوب
ولست براض أن تمس عزائمي ... فضالات ما يعطي الزمان ويسلب
غرائب آداب حباني يحفظها ... زماني وصرف الدهر نعم المؤدب
تر يشنا الأيام ثم تهيضنا ... ألا نعم البادي وبئس المعقب
نهيتك عن طبع اللئام فإنني ... أري البخل يؤبى والمكارم تطلب
تعلم فإن الجود في الناس فطنة ... تناقلها الأحرار والطبع أغلب

تـضافرني فيـك الـصوارم والقنـا ويـصحبني منـك العـذيق المرجـب
نـصحت وبعـض النـصيح للقـوم وبعـض التنـاجي بالعتـاب تعتـب
فإن أنـت لـم تعط النصيحة حقها فـرب جمـوح كـل عنـه المـؤدب
سقا الله أرضًا جاوز القطر روضها إذ المـزن يـسقى والأبـاطح تـشرب
ذكـرت بهـا عهـد الـشباب فحـسرة أفدت وقد فات الذي كنت أطلب
ويعجبنـي منهـا النـسيم إذا هفـا ألا كل ما سرى عن القلب معجب
سـكنتك والأيـام بـيض كأنهـا مـن الطيـب فـي أثوابهـا تتقلـب
وبـرق رفيـق الطـرتين لحظتـه إذ الجـو خـوار المـصابيح أكهـب
نظـرت وألحـاظ النجـوم كليلـة وهيهـات دون البـرق شـأو مغـرب
فمـا الليـل إلا فحمـة مستـشقة ومـا البـرق إلا جمـرة تتلهـب
أمـن بعـد أن جللتهـا ورق الـدجى سـراعًا وأغـصان الأزمـة تجـذب
وعـدنا بهـا محوطـة بنـسوعها كما صافح الأرض الغراء المعقب
كـأن تراجيـع الحـداة وراءهـا صـفير تعاطـاه اليـراع المثقـب
تهـز ظنـوني فـي المـآرب أربـة ويجنب عزمي في المطالب مطلب
وردنـا بهـا مـاء الظـلام سـواغبًا ولليـل جـو بالـدراري معـشب
تنفـر ذود الطيـر عـن وكراتهـا وكـل إذا لاقيتـه متغـرب
ونلتـذ رشـف المـاء رنقًـا كأنـه مـع العـز ثغـر بـارد الظلـم أشـنب
أذعنـا لهـا سـر الكـرى مـن عيوننـا ومـر العلـى بـين الجـوانح يحجـب
حـرام علـى المجـدا بنسامى لقربـه ومـا هزنـي فيـه العنـاء المقطـب
ودهمـاء مـن الليـل التمـام قطعتهـا أغنـى حـداء والمراسـيل تطـرب
ولـو شـئت غنتنـي حمـام عـشية ولكنني مـن مـاء عينـي أشـرب

أقول إذا خاض السمير أن في ... أحاديث تبدو طالعات وتغرب

ألا غنياني بالحديث فإنني ... رأيت ألذ القول ما كان يطرب

غناء إذا خاض المسامع لم يكن ... أمينًا على جلبابه المتجلبب

ونشوان من حمر النعاس ذعرته ... وطيف الكرى في العين يطفو

له مقلة يستنزل النوم جفنها ... إليه كما استرخى على النجم هيدب

سريت فجاج الأرض غفلًا ومعلمًا ... تجديها أيدي المطايا وتلعب

وما شهوتي لوم الرفيق وإنما ... كما يلتقي في السير ظلف ومخلب

عجبت لغيري كيف ساير نجمها ... وسيري فيها يا ابنة القوم أعجب

أسير وسرجي بالنجاد مقلد ... وأثوى وبيتي بالعوالي مطنب

ومصقولة الأعطاف في جنباتها ... مراح لأطراف الرماح وملعب

تجر على متن الطريق عجاجة ... يطاردها قرن من الشمس أعضب

نهار بلألاء السيوف مفضض ... وجو بحمراء الأنابيب مذهب

ترى اليوم محمر الحواشي كأنما ... على الجو غرب من دم يتصبب

صدمنا بها الأعداء والليل ضارب ... بأرواقه جون الملاطين أخطب

أخذنا عليهم بالصوارم والقنا ... وراعي نجوم الليل حيران مغرب

يراعون أسفار الصباح وإنما ... وراء لثام الليل يوم عصبصب

وكل ثقيل الصدر من حلب القنا ... خفيف الشوا والموت عجلان

يجم إذ ما استرعف الكر جهده ... كما جمت الغدران والماء ينضب

وما الخيل إلا كالقداح يجيلها ... لغنم فإما فائز أو مخيب

دعوا شرف الأحساد يا آل ظالم ... فلا الماء مورود ولا الترب طيب

لئن كنتم في آل فهر كواكبًا ... إذا غاض منها كوكب غاض كوكب

فنعتني كنعت البدر ينسب بينكم جهارًا وما كل الكواكب تنسب

صحبتم خضاب الزاعبيات ناصلًا ومن علق الأفران ما لا يخضب

أهذب في مدح اللئام خواطري فأصدق في حسن المعاني وأكذب

وما المدح إلا في النبي وآله يرام وبعض القول ما يتجنب

وأولى بمدحي من أعز بفخره ولا يشكر النعماء إلا المهذب

أرى الشعر فيهم باقيًا وكأنما تحلق بالأشعار عنقاء مغرب

وقالوا عجيب عجب مثلي بنفسه وأين على الأيام مثل أبي أب

لعمرك ما أعجبت إلا بمدحهم ويحسب أني بالقصائد معجب

أعد لفخري في المقام محمدًا وادعو عليًا للعلى حين أركب

فقال: وترجم لها بقوله وقال بروض القول على روى قصيدة الشريف:

سواي بتحنان الأغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويعجب

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ويملك سمعيه اليراع المثقب

ولكن أخوهم إذا ما ترجحت به سورة نحو العلا راح يدأب

نفي النوم عن عينيه نفس أبية لها بين أطراف الأسنة مطلب

بعيد مناط الهم فالغرب مشرق إذا ما رمى عينيه والشرق مغرب

له غدوات يتبع الوحش ظلها وتغدوا على آثارها الطين تنعب

همامة نفس أصغرت كل مأرب فكلفت الأيام ما ليس يوهب

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

إذا أنا لم أعط المكارم حقها فلا عزني خال ولا ضمني أب

ولا حملت درعي كميت طمرة ولا دار في كفي سنان مذرب

خلقت عيوفًا لا أرى لابن حرة لدى يدًا أغضى لها حين يغضب

فلست لأمر لم يكن متوقعًا ولست على شيء مضى أتعتب

أسير على نهج يرى الناس غيره لكل امرئ فيما يحاول مذهب

وإني إذا ما الشك أظلم ليله وأمست به الأحلام حيرى تشعب

صدعت حفا في طرتيه بكوكب من الرأي لا يخفى عليه المغيب

وبحر من الهيجاء خضت عجاجه ولا عاصم إلا الصفيح المشطب

تظل به حمر المنايا وضودها حواسر في ألوانها تتقلب

توسطته والخيل بالخيل تلتقي وبيض الظبي في الهام تبدو وتغرب

فمازلت حتى بين الكرِّ موقفي لدى ساعة فيها العقول تغيب

لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى على غيهب من ساطع النقع غيهب

كذلك دأبي في المراس وإنني لأمرح في غي التصابي وألعب

وفتيان لهو قد دعوة وللكرى خباء بأهداب الجفون مطنب

إلى مربع يجري النسيم خلاله بنشر الخزامى والندى يتصبب

فلم يمض أن جاءوا ملبين دعوتي سراعًا كما وافى على الماء ربرب

بخيل كآرم الصريم وراءها ضواري سلوق عاطل وملبب

من اللاء لا يأكلن زادا سوى الذي يضرسنه والصيد أشهى وأعذب

ترى كل محمر الحماليق فاغر إلى الوحش لا يألوا ولا يتنصب

يكاد يفوق البرق شدا إذا انبرت له بنت ماء أو تعرض ثعلب

فملنا إلى واد كأن تلاعه من العصب موشى الحبائك مذهب

تراح به الآمال بعد كلالها ويصبو إليه ذو الحجى وهو أشيب

فبينا نرود الأرض بالعين إذ رأى ربيئتنا سربا فقال ألا اركبوا

فقمنا إلى خيل كأن متونها ... من الضمر خوط الضميران

فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت ... بزاة وجالت في المقاود أكلب

فما كان إلا لفتة الجيد إن علت ... قدور وفار اللحم وانفعن مآرب

وقلنا لساقينا أدرها فإنما ... قصارى بني الأيام أن يتشعبوا

فقام إلى راقود خمر كأنه ... إذا استقبلته العين أسود مغضب

يمج سلافًا في إناء كأنه ... إذا ما استقلته الأنامل كوكب

فلم نأل أن دارت بنا الأرض دورة ... وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب

إلى أن تولى اليوم إلا أقله ... وقد كادت الشمس المنيرة تغرب

فرحنا نجر الذيل تيهًا لمنزل ... به لأخي اللذات واللهو ملعب

مسارح سكير ومريض فاتك ... ومخدع أكواب به الخمر تسكب

فلما رآنا صاحب الدار أشرقت ... أساريره زهوًا وجاء يرحب

وقال انزلوا يا بارك الله فيكم ... فعندي لكم ما تشتهون وأطيب

وراح إلى دنّ تكامل سنه ... وشيب فوديه من الدهر أحقب

فما زال حتى استل منه سبيكة ... من الخمر تطفو في الإناء وترسب

يحوم عليها الطير من كل جانب ... ويسري عليها الطارق المتأوب

فيا حسن ذاك اليوم لو كان باقيًا ... ويا طيب هذا الليل لو دام طيب

يود الفتى ما لا يكون طماعة ... ولم يدر أن الدهر بالناس قلب

ولو علم الإنسان ما فيه نفعه ... لأبصر ما يأتي وما يتجنب

ولكنها الأقدار تجرى بحكمها ... علينا وأمر الغيب سر محجب

نظن بأنا قادرون وأننا ... نقاد كما قيد الجنيب ونصحب

فرحمة رب العالمين على امرئ ... أصاب هواه أو درى كيف يذهب

يقول الشريف في مطلع قصيدته والذي يليه: طلب الإنسان ما أحب من أعلا الرتب وأرفع الأحوال طلب حق أو فضيلة وذلك مرضي لله مندوب إليه ليس للناس فيه موضع عذل أو تأنيب بخلاف غيره من الطلب، فإنه يوجب سخط الله فلا يعذر صاحبه وإذا يجد الناس موضعًا للعذل والتأنيب وهو التعنيف أو معنى البيت الثاني إذا لم تكتف بالله عاذر فلا تأمله في الناس، فإنما هم بين عاذل أو مؤنب ويكون شكاية من قلة الأنصاف وفي قوله وقد شرع في ذكر فضائله: ملكت بحلمي بديع التجريد واستعمال حرفين من أحرفه الباء ومن فالحلم هو الفرصة والدهر هو مفتول الذراعين الأغلب وتلك صفة الأسد أي: مندمج الذراعين غليظ العنق، وهو تصوير الموهوم بالمحسوس، وحاصل المعنى أن شدائد الدهر لا تذهب بحلمه ثم قال فيما بعد أنه على صغر سنه كبير الهمة واسترسل في ذكر مناقب نفسه حتى أتم الفصل، ثم خاطب صاحبه ثم طلب السقيا الأرض أعطشت وسقى غيرها وتأسف عليها واتبع ذلك بذكر برق لحظه، ثم ذكر طلبًا وإخفاقًا في قوله: أمن بعد أن جللتها ثم وصف ليلة سارها في قوله: ودرهما من ليل التمام، والتمام فيه بكسر التاء وهو التمام بفتحها ولكن اللغة استعملته في هذا الموضع بالكسر أي: من أطول الليالي ثم وصف خيلًا قصد بها الأعداء في قوله: ومصقولة الأعطاف ثم هجا ومدح في قوله: دعوا شرف الأحساب إلى آخره وقوله: ممعوطة بنسوعها أي: أزالت النسوع وهي السيور المجدولة عريضة شعرها لطول حكها فهو يصفها بالتأثر وما أدركها من نصب السفر والمعط فيه بالعين، وأما المغط بالغين فهو أن تمد الشيء تستطيله وهو المذكور في قول المتنبي:

أنساعها ممغوطة وخفافها منكوحة وطريقها عذراء

يصف المتنبي إبله بالهزل وأن نسوعها فضلت عنها والتعقيب تكرار الغزو في سنة واحدة والتردد في طلب المجد والأخطب من الخطبة وهو لون كدر مشرب حمرة في صفرة أو غبرة ترهقها خضرة والزاعبيات بالعين الرماح نسبت إلى بلد، فانظر هداك الله بنور البصيرة إلى هاتين القصيدتين تجدهما قد ابتدرتا في البلاغة وحسن السياق غاية بلغتاها معًا وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومطلع الثانية وإن كان مولدًا من مطلع الأول فهو أنور كما قيل: وإن في الخمر معنى ليس في العنب وقوله بعده: وما أنا ممن تأسر الخمر يريد أن الهزل لا يشغله عن الجد ولا يمنعه الترف والنعيم عن مباشرة الشدائد في طلب المجد وقال أبو فراس الحرث بن سعيد عم سيف الدولة علي بن حمدان وكان يتولى له رياسة الجيوش فاتفق أن أسرته الروم في بعض غزواته وبقي هنالك مدة وكان يكتب لابن عمه قصائد يعتذر فيها من الأسر ويشتكي شدة الحال ويطلب الفداء، وسميت تلك القصائد لذلك بالروميات وهذه القصيدة إحداها:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ... ولكن مثلي لا يذاع له سر

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى ... وأذللت دمعًا من خلائقه الكبر

تكاد تضيء النار بين جوانحي ... إذا هي أذكتها الصبابة والفكر

معللتي بالوعد والموت دونه ... إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر

بدوت وأهلي حاضرون لأنني ... أرى أن دار الست من أهلها قفر

وحاربت قومي في هواك وإنهم ... وإياي لولا حبك الماء والخمر

وإن كان ما قال الوشاة ولم يكن ... فقد يهدم الإيمان ما شيد الكفر

وفيت وفي بعض الوفاء مذلة ... لإنسانة في الحي شيمتها الغدر

وقور وريعان الصبا يستفزها ... فتأرن أحيانًا كما أرن المهر
تسائلني من أنت وهي عليمة ... وهل بفتى مثلي على حالة نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى ... قتيلك قالت أيهم فهم كثر
فقلت لها لو شئت لم تتعنتى ... ولم تسألي عني وعندك بي خبر
ولا كان للأحزان لولاك مسلك ... إلى القلب لكن الهوى للبلا جسر
فأيقنت أن لا عز بعدي لعاشق ... وأن يدي مما علقت به صفر
فقالت لقد أزري بك الدهر بعدنا ... فقلت معاذ الله بل أنت والدهر
وقلبت أمري لا أرى لي راحة ... إذا البين إنساني ألح بي الهجر
فعدت إلى حكم الزمان وحكمها ... لها الذنب لا تجزى به ولي العذر
تجفل حينًا ثم تدنو وإنما ... تراعى طلا بالواد أعجزه الحضر
وإني لنزال بكل مخوفة ... كثير إلى نزالها النظر الشذر
وإني لجرار لكل كتيبة ... معودة أن لا يخل بها النصر
فأصدى إلي أن ترتوي الأرض ... وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ولا أصبح الحي الغيور لغادة ... ولا الجيش ما لم تأته قبلي النذر
ويا رب دار لم تخفني منيعة ... طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الأذيال نحوي لقيتها ... أنه يوجهاها في اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله ... ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر
ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ... ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبغي وفوره ... إذا لم أفر عرضي فلا وفر الوفر
أسرت وما صحبي بعزل لدي الوغا ... ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرئ ... فليس له بر يقيه ولا بحر

وقال أصيحا بي الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مرّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يومًا بسوءته عمرو
يمنون أن خلوا ثيابي وإنما عليَّ ثياب من دمائهم حمر
وقائم سيف فيهم دق نصله وأعقاب رمح فيهم حطم الصدر
سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
ولو سد غيري ما سددت اكتفوا به وما كان يغني التبر لو نفق الصفر
ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر
أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

فقال في الوزن والروي:

طربت وعادتني المخيلة والسكر وأصبحت لا يلوي بشيمتي الزجر
كأني مخمور سرت بلسانه معتقة مما يضن بها التجر
صريع هوى يلوي بي الشوق كلما تلألأ برق أو سرت ديمة غزر
إذا مال ميزان النهار رأيتني على حسرات لا يقاومها صبر
يقول أناس إنه السحر ضلة وما هي إلا نظرن دونها السحر
فكيف يعيب الناس أمري وليس لي ولا لامرئ في الحب نهي ولا أمر
ولو كان مما يستطاع دفاعه لألوت به البيض المباتير والسمر
ولكنه الحب الذي لو تعلقت شرارته بالجمر لاحترق الجمر
على أنني كاتمت صدري حرقة من الوجد لا يقوى على مسها صدر
وكفكفت دمعًا لو أسلت شئونه على الأرض ما شك امرؤ أنه

حياء وكبرًا أن يقال ترجحت ... به صبوة أو فل من غربه الهجر

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها في حواشي كل داجية فجر

إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

لهم عمد مرفوعة ومعاقل ... وألوية حمر وأفنية خضر

ونار لها في كل شرق ومغرب ... لمدّرع الظلماء ألسنة حمر

تمدّ يدًا نحو السماء خضيبة ... تصافحها الشعري ويلثمها الغفر

وخيل يرج الخافقين صهيلها ... نزائع معقود بأعرافها النصر

معودة قطع الفيافي كأنها ... خدارية فتخاء ليس لها وكر

أقاموا زمانًا ثم بدد شملهم ... أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

فلم يبق منهم غير آثار نعمة ... تضوع برياها الأحاديث والذكر

وقد تنطق الآثار وهي صوامت ... ويثنى برياء على الوابل الزهر

لعمرك ماحى وإن طال سيره ... يعد طليقًا والمنون له أسر

وما هذه الأيام إلا منازل ... يحل بها سفر ويتركها سفر

فلا تحسبن المرء فيها بخالد ... ولكنه يسعى وغايته العمر

أقول: من أتاه الله فهمًا وتأمل مثل هذا الشعر الذي هو من البلاغة في أرفع رتبها عرف كيف تتفاضل العقول وأن الله يختص من شاء بما شاء، هذا مطلع قصيدة أبي فراس هل تجد أصدق شاهد منه في باب براعتي المطلع والاستهلال، فإنه أخبر فيه على أنه سلك به مسلك الغزل أنه في حالة تقتضي البكاء والجزع، وأي حالة أشد اقتضاء لهما من كونه أسيرًا في يد أعداء دينه ودنياه ممنوعًا من الوصول إلى هواه في أرض عزه ودار

سلطانه، وبعد أن تتأمل المطلع بذلك النظر تتمشى في تأمل ما اختار من عبارات الغزل فتجدها بعينها هي عبارات الشكوى من بقائه في الأسر وتأخر ابن عمه عن المسارعة إلى فدائه بعد وعده بذلك واستحقاقه بعد ما ظهر من بلائه وبذل مهجته في خدمته وطاعة أمره أن لا تلتفت العناية إلا لتخليصه وإبلاغه أخرى مناه، ومع تأمل تلك المعالي تحسن اعتبار براعة تلك العبارات وما اشتملت عليه من الكنايات والاستعارات والإشارات، فإذا فرغت من تأملها على ذلك الحد مشيت بنور فكرك في القصيدة الثانية تعتبرها بيتًا بيتًا وما أسكنت من المعاني وبذلك تحصل على الغاية التي تسعى إليها، وقال النابغة الذبياني واسمه زياد يصف المتجردة زوج النعمان بأمره ويقال: إن النعمان مع ذلك لما سمع القصيدة غضب على النابغة وجفاه وظن به حتى اختفى منه ثم ظهرت براءته له وعاد إلى موضعه من منادمته:

أمن آل مية رائح أو مغتد ... عجلان ذا زاد وغير مزود
أفد الترحل غير أن ركابنا ... لما نزل برحالنا وكأن قد
زعم الهمام بأن رحلتنا غدًا ... وبذاك خبرنا الغداف الأسود

سبق أنه غيره وبذاك تنعاب الغراب الأسود هربًا من ذلك العيب ولكن الرواة أثبتوه على أصله:

لا مرحبًا بغد ولا أهلًا به ... إن كان تفريق الأحبة في غد
حان الرحيل ولم تودع مهددًا ... والصبح والإمساء منها موعدي
في أثر غانية رمتك بسهمها ... فأصاب قلبك غير أن لم تقصد
غنيت بذلك إذ هم لك جيرة ... منها بعطف رسالة وتودد
ولقد أصاب فؤاده من حبها ... عن ظهر مرنان بسهم مصرد

نظـرت بمقلـة شـادن متربـب أحـوى أحـسم المقلتـين مقلـد
والـنظم فـي سـلك يـزين نحزهـا ذهـب توقـد كالـشهاب الموقـد
صـفراء كالـسيراء أكمـل خلقهـا كالغـصن فـي غلوائـه المتـأود
والـبطن ذو عكـن لطيـف طيـه والأتـب تنفجـه بثـدي مقعـد

الأتب: ثوب رقيق، وتنفجه من نفج ترفعه وتبعده.

مخطوطـة المتنـين غيـره مفاضـة ريـا الـروادف بـضة المتجـرد
قامـت ترائـى بـين سـجفي كلـة كالـشمس يـوم طلوعهـا بالأسـعد

الأسعد: برج الحمل.

أو درة صـدفية غواصـها بهـج متـى يرهـا يهـل ويـسجد
أو دميـة مـن مرمـر مرفوعـة بنيـت بـآجر يـشاد وقرمـد
سـقط النـصيف ولـم تـرد إسـقاطه فتناولتـه واتقتنـا باليـد
بمخـضب رخـص كـأن بنانـه عـم يكـاد مـن اللطافـة يعقـد
نظـرت إليـك بحاجـة لـم تقـضها نظـر الـسقيم إلـى وجـوه العـود
تجلـو بقـادمتي حمامـة أيكـة بـردا أسـف لثاثـة بالأثمـد
كـالأقحوان غـداة غـب سـمائه جفـت أعاليـه وأسـفله نـد
زعـم الهمـام بـأن فاهـا بـارد عـذب مقبلـه شـهي المـورد
زعـم الهمـام ولـم أذقـه أنـه عـذب إذا ماذقتـه قلـت ازدد
زعـم الهمـام ولـم أذقـه أنـه يشفي بريـا ريقهـا العطـش الـصدى
أخـذ العـذارى عقـده فنظمنـه مـن لؤلـؤ متتـابع متمـرد
لـو أنهـا عرضـت لأشـمط راهـب عبـد الإلـه صـرورة متعبـد

صرورة بالصاد قيل في تفسيره من لم يذنب قط أو لم يبرح من مكانه وقيل: هو في الجاهلية من لم يتزوج، وفي الإسلام من لم يحج، ولدفع التكرار في البيت يحمل على غير هذا المعنى.

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ... ولخاله رشدًا وإن لم يرشد
بتكلم لو تستطيع كلامه ... لدنت له أروى الهضاب الصخد

الصخد: جمع صاخد وهي الملساء.

وبفاحم رجل أثيث نبته ... كالكرم مال على الدعام المسند
وإذا لمست لمست أجثم جاثمًا ... متحيزًا بمكانه ملء اليد
وإذا طعنت طعنت في مستهدف ... رابي المجسة بالعبير مقرمد
وإذا نزعت نزعت عن مستحصف ... نزع الحزور بالرشاء المحصد
وإذا يعض يشد من أعضائه ... عض الكبير من الرجال الأدرد
ويكاد ينزع جلد من أصلى به ... بلوافح مثل السعير الموقد
لا وارد منها يحور لمصدر ... عنها ولا صدر يحور لمورد

فمشى على أثره وترجم لها بقوله وقال على روي قصيدة النابغة الذبياني التي أولها: أمن آل مية. وقد سلك فيها مسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب وارتياد المنابت وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء:

ظن الظنون فبات غير موسد ... حيران يكلا مستنير الفرقد
تلوى به الذكرات حتى أنه ... ليظل ملقى بين أيدي العود
طورًا يهم بأن يزل بنفسه ... سرفًا وتارات يميل على اليد
فكأنما افترست بطائر حلمه ... مشمولة أو ساغ سم الأسود

قالوا غدًا يوم الرحيل ومن لهم … خوف التفرق أن أعيش إلى غد
هي مهجة ذهب الهوى بشغافها … معمودة إن لم تمت فكأن قد
يا أهل ذا البيت الرفيع مناره … أدعوكم يا قوم دعوة مقصد
إني فقدت العام بين بيوتكم … عقلي فردوه علي لأهتدي
أو فاستقيدوني ببعض قيانكم … حتى ترد إلى نفسي أو تدي
بل يا أخا السيف الطويل نجاده … إن أنت لم تحم النزيل فأغمد
هذي لحاظ الغيد بين شعابكم … فتكت بنا خلسًا بغير مهند
من كل ناعمة الصبا بدوية … ريا الشباب سليمة المتجرد
هيفاء إن خطرت سبت وإذا رنت … سلبت فؤاد العابد المتشدد
يخفض من أبصارهن تختلا … للنفس فعل القانتات العبد
فإذا أصبن أخا الشباب سلبنه … ورمين مهجته بطرف أصيد
وإذا لمحن أخا المشيب قلينه … وسترن ضاحية المحاسن باليد
فلئن غدوت دريئة لعيونها … فلقد أفل زعارة المتمرد
ولقد شهدت الحرب في إبانها … ولبئس راعي الحي إن لم أشهد
تتقصف المران في حجراتها … ويعود فيها السيف مثل الأدرد
عصفت بها ريح الردى فتدفقت … بدم الفوارس كالأتي المزبد
مازلت أطعن بينها حتى انثنت … عن مثل حاشية الرداء المجسد
ولقد هبطت الغيث يلمع نوره … في كل وضاح الأسرة أغيد
تجري به الآرام بين مناهل … طابت مشاربها وظل أبرد
بمضمر أرن كأن سراته … بعد الحميم سبيكة من عسجد
خلصت له اليمنى وعم ثلاثة … منه البياض إلى وظيف أجرد

فكأنما انتزع الأصيل رداءه سلبًا وخاض من الضحى في مورد
زجل يردد في اللهات صهيله دفعًا كزمزمة الحبي المرعد
متلفتا عن جانبيه يهزه مرح الصبا كالشارب المتغرد
فإذا اثنيت له العنان وجدته يمطو كسيد الردهة المتورد
وإذا أطعت له العنان رأيته يطوي المهامة فدفدًا في فدفد
بكفيك منه إذا استحسن بنبأة شذا كألهوب الأباء الموقد
صاب السنابك لا يمر بجلد في الشد الأرض فيه بجلمد
نعم العتاد إذا الشفاه تقلصت يوم الكريهة في العجاج الأربد
ولقد شربت الخمر بين غطارف شم المعاطس كالغصون الميد
يتلاعبون على الكئوس إذا جرت لعبًا يروح الجدّ فيه ويغتدي
لا ينطقون بغير ما أمر الهوى فكلامهم كالروض مصقول ندى
من كل وضاح الجبين كأنه قمر توسط جنح ليل أسود
بل رب غانية طرقت خباءها والنجم يطرف عن لواحظ أرمد
قالت وقد نظرت إليَّ فضحتني فارجع لشانك فالرجال بمرصد
فخلبتها بالقول حتى رضتها وطويتها طي الحبيرة باليد
ما زلت أمنعها المنام غواية حتى لقد بتنا بليل الأنقد
روعاء تفزع من عصافير الضحى ترفًا وتجزع من صياح الهدهد
حتى إذا نم الصبا وتتابعت زيم الكواكب كالمها المتبدد
قالت دخلت وما أخالك بارحًا إلا وقد أبقيت عار المسند
فمسحتها حتى اطمأن فؤادها ونفيت روعتها برأي محصد
وخرجت أخترق الصفوف من العدا متلثمًا والسيف يلمع في يدي

فلنعم ذالك العيش لو لم ينقضي ولنعم هذا العيش إن لم ينفد
يرجو الفتى في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلد

وقد باشر هذا الأمير الحرب مرتين بصدق شهامة وعلو همة حتى أن الناس كانوا يتعجبون كما أخبرني من حضره في تلك المواطن من خشونة بأسه على ترف نشأته ولطف حسه المرة الأولى حرب سكان جزيرة أقريطش المعروفة الآن بجزيرة جريد حين خرجوا عن الطاعة سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف، فقال يصف الحال ويتشوق إلى مصر:

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربى بجران
لا تستبين العين في ظلمائه إلا اشتعال أسنة المران
نسري به ما بين لجة فتنة تسمو غوار بها على الطوفان
في كل مربأة وكل ثنية تهدار سامرة وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أجرد وتصيح أحراس ويهتف عان
قوم أبي الشيطان إلا خسرهم فتسللوا من طاعة السلطان
ملئوا الفضاء فما يبين لناظر غير التماع البيض الخرصان

الخرصان: جمع خرص بضم أو كسر فسكون السنان.

فالبدر أكدر والسماء مريضة والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسانها لطراد يوم كريهة رهان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بألسن النيران
حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت عيناي بين رابي وبين محان
فإذا الجبال أسنة وإذا ألوهـا داعنة والماء أحمر قان

فتوجست فرط الركاب ولم تكن لتهاب فامتنعت على الأرسان
فزعت فرجعت الحنين وإنما تحنانها شجن من الأشجان
ذكرت مواردها بمصر وأين من ماء بمصر منازل الرومان
والنفس لاهية وإن هي صادفت خلفا بأول صاحب ومكان
فسقى السماك محلة ومقامة في مصر كل روية مرنان
حتى تعود الأرض بعد ذبولها شتى النماء كثيرة الألوان
بلد خلعت بها عذار شبيبتي وطرحت في يمنى الغرام عناني
فصعيدها أحوى النبات وسرحها ألمى الظلال وزهرها متداني
فارقتها طلبًا لما هو كائن والمرء طوع تقلب الأزمان
حمل الزمان علي ما لم أجنه إن الأماثل عرضة الحدثان
نقموا علي وقد فتكت شجاعتي إن الشجاعة حلية الفتيان
فليهنأ الدهر الغيور برحلتي عن مصر ولتهدأ صروف زماني
فلئن رجعت وسوف أرجع واثقًا بالله أعلمت الزمان مكاني
صادقت بعض القوم حتى خانني وحفظت منه مغيبه فرماني
زعم النصيحة بعد أن بلغت به غشًا وجازى الحق بالبهتان
فليجر بعد كما أراد بنفسه إن الشقي مطية الشيطان
وكذا اللئيم إذا أصاب كرامة عادى الصديق ومال بالإخوان
كل امرئ يجرى على أعراقه والطبع ليس يحول في الإنسان
فعلي م يلتمس العدو مساءتي من بعدما عرف الخلائق شاني
أنا لا أذل وإنما يزع الفتى فقد الرجاء وقلة الأعوان
فليعلمن أخو الجهالة قصره عني وإن سبقت به قدمان

فلربما رجح الخسيس من الحصى ... يـا لـدرّ عنـد تـراجح الميـزان
شرف خصصت به وأخطأ حاسد ... مـسعاته فهـذى بـه وقلانـي

والثانية حرب الروس حين قصدوا الدولة سنة أربع وتسعين ومائتين وألف، وكان حرسه الله كتب لأبناء وده كتبًا ولم تصل إليهم وظن وصولها وتقصيرهم عن المبادرة بالإجابة وقد وصل إلى أحد كتابين كتبهما لي يوم قدومه إلى مصر بعد مدة طويلة من كتابته وهذه أبياته:

يـا نـاعس الطـرف إلـى كـم تنام ... أسـهرتني فيـك ونـام الأنـام
أوشـك هـذا الليـل أن ينقـضي ... والعـين لا تعـرف طيـب المنام
الله فـي عـين جفاهـا الكـرى ... فـيكم وقلـب قـد بـراه الغـرام
قـد رحـم العـاذل حـالي فمـا ... يرضـى لـذلي فـي الهـوى بـالملام
ويـلاه مـن ظبـي الحمـى أنـه ... جـر عنـي بالـصد مـر الحمـام
بغـضب مـن قـولي آه وهـل ... قـولي آه يـا ابـن ودي حـرام
لا كتبـه تتـرى ولا رسـله ... تـأتي ولا الطيـف يـوافي لمـام
طال النوى من بعدكم وانقضت ... بـشاشة العـيش وسـاء المقـام
أرتـاح إن مـر نـسيم الـصبا ... والبـرء لـي فيـه معًـا والـسقام
يـا ليتني فـي الـسلك حـرف سرى ... أو ريـشة بـين خـوافي الحمـام
حتـى أوافـي مـصرفي لحظـة ... أقـضي بهـا فـي الله حـق الـذمام
مـولاي قـد طـال مريـر النـوى ... فكـل يـوم مـر بـي ألـف عـام
انظـر حـولي لا أرى صـاحبًا ... إلا جمـاهير وخـيلًا صـيام
وديـد بأنـا صـار خـافي الـدجى ... ارجـع وراء أنـه لا أمـام
يقتبـل الـصبح ويمـضي الـدجى ... وينقـضي النـور ويـأتي الظـلام

ولا كتـاب مـن حبيـب أتـى ... ولا أخـو صـدق يـرد السـلام
فـي هـضبة مـن أرض دبريجـة ... لـيس بهـا غيـر بغـاث وهـام
مـن خلفنـا البحـر وتلقاءنـا ... سـواد جـيش مكفهـر لهـام
فتلـك حـالي لا رمتـك النـوى ... فكيـف أنـتم بعـدنا يـا همـام

فقال في نعت الحال وضمن ذلك بعض فصولها:

هـو البـين حتـى لا سـلام ولا رد ... ولا نظـرة يقـضي بهـا حقـه الوجـد
لقـد نعـب الوابـور بـالبين بيـنهم ... فسارو ولازمـوا جمـالًا ولا شـدوا
سـرى بيـنهم سـير الغمـام كأنمـا ... لـه فـي تنـائي كـل ذي خلـة قـصد
فـلا عـين إلا وهـي عـين مـن البكـا ... ولا خـد إلا للـدموع بـه خـد
فيـا سـعد حـدثني بأخبـار مـن مضى ... فأنـت خبيـر بالأحاديـث يـا سـعد
لعـل حـديث الـشوق يطفـئ لوعـة ... من الوجد أو يقضي بصاحبه الفقد
هـو النـار فـي الأحـشاء لكـن لوقعها ... علـى كبـدي ممـا ألـذ بـه بـرد
لعمـر المغـاني وهـي عنـدي عزيـزة ... بـساكنها مـا شـاقني بعـدها عهـد
لكانـت وفيهـا مـا تـرى عـين نـاظر ... وأضحت وما فيها لغير الأسى وفد
خـلاء مـن الآلاف إلا عـصابة ... حـداهم إلـى عرفانهـا أمـل فـرد
دعـتهم إليهـا نفحـة عنبريـة ... وبالنفحة الحسناء قد يعرف الورد
وقفنـا فـسلمنا فـردت بألـسن ... صـوامت إلا أنهـا ألـسن لـدّ
فمـن مقلـة عبـرى ومـن لفـح زفـرة ... لهـا شـرر بـين الحـشا مـا لـه زنـد
فيـا قلـب صبـرًا إن أضـربك النـوى ... فكـل فـراق أو تـلاق لـه حـد
فقـد يـشعب الإلفـان أدناهمـا الهـوى ... ويلتـئم الـضد إن أقـصاهما الحقـد
علـى هـذه تجـري الليـالي بحكمهـا ... فآونـة قـرب وآونـة بعـد

وما كنت لولا الحب أخضع للتي تسيء ولكن الفتى للهوى عبد
فعودي صليب لا يلين لغامز وقلبي سيف لا يفل له حد
آباء كما شاء الفخار وصبوة يدل لها في خيسه الأسد الورد
وأنا أناس ليس فينا معابة سوى أن وادينا بحكم الهوى نجد
نلين وإن كنا أشداء للهوى ونغضب في شروى نقير فنشتد
وحسبك منا شيمة حرية هي الخمر ما لم يأت من دونها
وبي ظمأ لم يبلغ الماء ريه وفي النفس أمر ليس يدركه الجهد
أود وما ود امرئ نافعًا له وإن كان ذا عقل إذا لم يكن جد
وما بي من فقر لدنيا وإنما طلاب العلا مجد وإن كان لي مجد
وكم من يد لله عندي ونعمة يعض عليها كفه الحاسد الوغد
أنا المرء لا يطغيه عز لثروة أصاب ولا يلوى بأخلاقه الكد
أصد عن الموفور يدركه الخنا وأقنع بالميسور يعقبه الحمد
ومن كان ذا نفس كنفسي تصدعت لعزته الدنيا وذلت له الأسد
ومن شيمي حب الوفاء ولم يكن ليخلص ود لم يحطه الوفا بعد
ولكن إخوانا بمصر ورفقة نسوا عهدنا حتى كأن لم يكن عهد
أحن لهم شوقا على أن دوننا مهامه تعيا دون أقربها الربد
فيا ساكني الفسطاط ما بال كتبنا ثوت عندكم شهرًا وليس لها رد
أفي الحق أنا ذاكرون لعهدكم وأنتم علينا ليس يعطفكم ود
فلا ضير أن الله يعقب عودة يهون لها بعد المواصلة الصد
جزى الله خيرًا من جزاني بمثله على شقة غزر الحياة بها ثمد
أبيت لذكراكم بها متململًا كأني سليم أو منشت نحوه الورد

فلا تحسبوني غافلًا عن ودادكم ... رويدًا فما في مهجتي حجر صلد

هو الحب لا يثنيه نأي وربما ... تأرج من مس الضرام له الند

نأت بي عنكم غربة وتجهمت ... بوجهي أيام خلائقها نكد

أدور بعيني لا أرى غير أمة ... من الروس بالبلقان يخطئها العد

جواث على هام الجبال لغارة ... يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو

إذا نحن سرنا صرح الشر باسمه ... وصاح القنا بالموت واستقتل الجند

فأنت ترى بين الفريقين كبة ... يحدث فيها نفسه البطل الجعد

على الأرض منها بالدماء جداول ... وفوق سراة النجم من نقعها لبد

إذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف ... بحورًا توالى بينها الجزر والمد

نشلهم شل العطاش ونت بها ... مراغمة السقيا وماطلها الورد

فهم بين مقتول طريح وهارب ... طليح ومأسور يجاذبه القد

نروح إلى الشورى إذا أقبل الدجى ... ونغدو عليهم بالسيوف إذا نغدو

ونقع كلج البحر خضت غماره ... ولا معقل إلا المناصل والجرد

صبرت به والموت يحمر تارة ... وينغل طورًا في العجاج فيسود

فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى ... وما كنت إلا السيف فارقه الغمد

صئول وللأبطال همس من الونى ... ضروب وقلب القرن في صدره

فما مهجة إلا ورمحي ضميرها ... ولا لبة إلا وسيفي لها عقد

وما كل ساع بالغ سؤل نفسه ... ولا كل طلاب يصاحبه الرشد

إذا القلب لم ينصرك في كل موطن ... فما السيف إلا آلة حملها أد

إذا كان عقبي كل شيء وإن زكا ... فناء فمكروه الفناء هو الخلد

ففيم يخاف المرء سورة يومه ... وفي غده ما ليس من وقعه بد

ليضن بي الحساد غيظًا فإنني لأنافهم رغم وأكبادهم وقد
أنا القائل المحسود من غير سبة ومن شيمة الفضل العداوة والضد
فقد يحسد المرء ابنه وهو نفسه ورب سوار ضاق عن حمله العضد
فلا زلت محسودًا على المجد فليس بمحسود فتى وله ند

وقد شرفت عناية وده اسمي بهذه القصيدة:

مضي اللهو إلا أن يخبر سائل وولى الصبا إلا بواق قلائل
بواق تمار بها أفانين لوعة يؤزنها فكر على النأى شاغل
فللشوق مني عبرة مهراقة وخبل إذا نام الخليون خابل
ألفت الضنى ألف السهاد فلو سرى بي البرء غالتني لذاك الغوائل
فلله هذا الشوق أي جراحة أسال بنا حتي كأنا نقاتل
رضينا بحكم الحب فينا وإنا للد إذا التفت علينا الجحافل
وإنا رجال تعلم الحرب أننا بنوها ويدري المجد ماذا نحاول
إذا ما ابتنى الناس الحصون فما لنا سوى البيض والسمر اللدان معاقل
فما للهوى يقوى عليّ بحكمه ألم يدر أني الشمري الحلاحل
وأني لثبت الجأش مستحصد القوى إذا أخذت أيدي الكماة الأ فاكل
إذا ما اعتقلت الرمح والرمح على الشر قال القرن إني هازل
لطاعنت حتى لم أجد من مطاعن ونازلت حتى لم أجد من ينازل
وشاغبت هذا الدهر مني بعزمة أرتني سبيل الرشد والغى حائل
إذا أنت أعطتك المقادير حكمها فأضيع شيء ما تقول العوازل
وما المرء إلا أن يعيش محسدًا تنازع فيه الناجذين الأنامل
لعمر ما الأخلاق إلا مواهب مقسمة بين الورى وفواضل

وما الناس إلا كادحان فعالم يسير على قصد وآخر جاهل
فذوا العلم مأخوذ بأسباب علمه وذو الجهل مقطوع القرينة جافل
فلا تطلبن في الناس مثقال ذرة من الود أم الود في الناس هابل
من العار أن يرضى الفتى غير طبعه وأن يصحب الإنسان من لا يشاكل
بلوت ضروب الناس طرًا أفلم يكن سوى المرصفي الحبر في الناس
همام أراني الدهر في طي برده وفقهني حتى اتقاني الأماثل
أخ حين لا يبقى أخ ومجامل إذا قل عند النائبات المجامل
بعيد مجال الفكر لو خال خيلة أراك بظهر الغيب ما الدهر فاعل
طرحت بني الأيام لما عرفته وما الناس عند البحث إلا مخايل
فلو سامني ما يرود النفس حتفها لا وردتها والحب للنفس قاتل
فلا برحت مني إليه تحية يناقلها عني الضحى وإلا صائل
ولا زال غض العمر ممتنع الذرا مريع الفنا تطوى إليه المراحل

وعلى أن ليس من طبعي أن أقول الشعر إما لفوت أوان تحصيل وسائله ولم تكن إذ ذاك دواع ترشد إليه، وإما لأن الاستعداد الذي سلف التنبيه على أن لا بد منه لم يكن في خليقتي أنطقني حبه بأبيات أجملت فيها صفته وهي هذه:

زكا أميري طبعًا واعتلا شرفًا فدار حيث تدور الشمس والقمر
ونال ما نال عن كد الرجال فلا منّ عليه لشخص حين يفتخر
بفضله كل أهل الأرض معترف كما تصادق فيه الخبر والخير
لا يجهل الرتبة العلياء بعمرها ولا يتيه بها ما أعظم الخطر
صحبته وهو سر في مخايله حتى تخير من إعلانه الكبر

فما أخذت عليه شبه بادرة ... ولا تخيلت أمرًا منه يعتذر
أدامه الله نقني من فضائله ... ومن فواضله ما أنبت الشجر

وإلى هنا ما أظن إلا أنك تحققت بمعرفة تميز شعر الأمراء بما يظهر عليه من آثار عزة لنفس ويشمل نواحيه من البراعة والمتانة ويلوح فيه من تخير الألفاظ برعاية ما هو أوفق بالأدب أو الأليق بالمدح أو الأوقع في الزجر أو الأجلب للعطف والرضى أو الأدخل في النصيحة أو الأنسب بالغزل أو الأهيج في الحماس إلى غير ذلك من المقامات وبانحصار أغراضه فيما أمر بقصره عليه أبو نواس حيث يقول:

الشعر ديوان العرب ... أبدًا وعنوان الأدب
لم أعد فيه مفاخري ... ومديح آبائي النجب
ومقطعات ربما ... حليت منهن الكتب
لا في المديح ولا الهجا ... ولا المجون ولا اللعب

وتبعه المترجم في هذا المعنى وزاد عليه في الإحسان حيث يقول:

الشعر زين المرء ما لم يكن ... وسيلة للمدح والذام
قد طال ما عز به معشر ... وربما أزرى بأقوام
فاجعله فيما شئت من حكمة ... أو عظمة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه ... فالسهم منسوب إلى الرامي

ونبه بقوله: واهتف به من قبل تسريحه على أنه لا ينبغي أن يكتفي الشاعر بالنظرة الأولى فللنفس خداع، وربما تنبهت بعد أن غفلت واستقبحت ما استحسنت ولذلك بقول الأول:

لا تعرضن على الرواة قصيدة ... ما لم تبالغ قبل في تهذيبها

فإذا عرضت الشعر غير مهذب   عدوه منك وساوسًا تهذي بها

ويروى أن زهيرًا أحد مشاهير شعراء الجاهلية كان يقول القصيدة في ستة أشهر ثم يرددها في نفسه ويكرر النظر فيها ستة أشهر، ولذلك تسمى قصائده بالحوليات، ولمكان صعوبة الشعر والنثر أشد منه في ذلك من جهة تخير الألفاظ وتلاؤمها وتناسب المعنى لتبين جودة السياق يقول الحطيئة:

الشعر صعب وطويل سلمه   إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
هوت به إلى الحضيض يأتي قدمه   والشعر لا يستطيعه من يظلمه
ولم يزل من حيث يأتي يحرمه   يريد أن يعربه فيعجمه
من يسم الأعداء يبق ميسمه   ....

من يظلمه أي: يتكلفه ولا يأتي به في إبانه ويريد أن يعربه أي: يأتي به عربيًا بوضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها وسلامة التركيب مما يبعد فهم المعنى منه. وقوله: من يسم الأعداء إشارة إلى أن وضع الشيء في موضعه كما يعترف به ذوو الإدراك إذا وقفوا عليه موجب لبقائه وارتباطات العنايات به وإذ قد عرفت أن لا سبيل لمعرفة الصناعة إلا بكثرة الحفظ ورعاية ما نبهناك على رعايته فقد آن أن نورد لك ما يكون مثالًا لما ينبغي أن تحصله للحفظ وترديد النظر فيه من قصائد لمشاهير الشعراء، وينبغي بحسب نشأة الشعر وما عرض له من التغير أن نجعل الشعراء في ثلاث طبقات: الطبقة الأولى للعرب جاهليين وإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن برد، والثانية للمحدثين الذين كانوا يحرصون على موافقة العرب ويجتهدون في سلوك طرائقهم من أبي نواس إلى من قبل عبد الرحيم المعروف بالقاضي الفاضل، والثالثة بالشعراء الذين غلب

عليهم استعمال النكات والإفراط في مراعاة البديع وهم من القاضي الفاضل إلى هذا الوقت الطبقة الأولى قيل: إن عديًا لملقب بالمهلهل هو أول من أطال الشعر ورققه ولذلك لقب المهلهل من قولهم: ثوب هلهل إذا لم يكن مدامج الخيوط بحيث يشف عما وراءه، وإنما كانت الشعراء قبله تقول قطعًا تذكر فيها الوقائع وتفخر ولكن اتفقت كلمة العلماء على أن أول من جود الشعر وأطال القصائد وجعلها مشتملة على أصناف من المعاني هو امرؤ القيس، ومن هنا ورد فيه هو حامل لواء الشعراء إلى النار، وقال الصاحب بن عباد: بدئ الشعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس إذ كان ابن ملك من ملوك العرب وطلب الملك بعد أبيه وكان يلقب بالملك الضليل، وأبا فراس الحمداني، فامرؤ القيس ومن يذكر معه من أصحاب المعلقات وغيرهم هم أئمة الشعر الذين يقتدى بهم ويصنع على ما مثلوه إذ كانوا هم المخترعين وكانت عباراتهم حكاية عن الواقع وصنعة للمشاهد لم تكن الصنعة غالبة عليهم كما هو شأن المتأخرين عنهم، وإن كان الشعر كيفما كان من الأمور المصنوعة التي يتفاوت الناس في إتقانها ورعاية جهات حسنها لكن من حيث كان ذلك ابتداء لم يحتذ فيه مثال قيل لشعرهم: إنه مطبوع ولشعر المتأخرين إنه مصنوع لكونهم احتذوا فيه الأمثلة التي اخترعها هؤلاء، فمن شعر امرئ القيس قصيدته التي وافقه في وزنها ورويها علقمة الفحل وتحاكما في المفاضلة بينهما وتقديم أحدهما إلى أم جندب -وهي امرأة من ذوات العقل والمعرفة كان تزوجها امرؤ القيس- فحكمت لعلقمة عليه بالبيتين الذين توافيا فيهما على معنى واحد في صفة جرى الفرس، فكان ذلك سببًا لأن طلقها امرؤ القيس وخلفه عليها علقمة وهي هذه:

خليلي مرا بي على أم جندب لتقضي لبانات الفؤاد المعذب

فإنكمـــا أن تنظرانـــي ســاعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب
ألـم تريـاني كلمـا جئـت طارقًـا وجـدت بهـا طيبًـا وإن لـم تطيـب
عقيلـة أتـراب لهـا لا دميمـة ولا ذات خلـق إن تأملـت جانـب
ألا ليت شعري كيف حادث وصلها وكيـف تراعـى وصـلة المتغيـب
أقامـت علـي مـا بيننـا مـن مـودة أميمـة أم صـارت لقـول المخيـب
فـإن تنـأ عنهـا حقبـة لا تلاقهـا فإنـك ممـا أحـدثت بـالمجرب
وقالت متى يبخل عليك ويعتلل يسوءك وإن يكشف غرامك تدرب
تبصر خليلي هل ترى من ظعائن سوالك نقبا بين حزمي شعبعب
علـون بأنطاكيـة فـوق عقمـة كجرمـة نخـل أو كجنـة يثـرب
ولله عينـا مـن رآى مـن تفـرق أشت وأنأى من فراق المحصب
فريقـان منهم جـازع بطـن نخلـة وآخـر منهم قـاطع نجـد كبكـب
فعينـاك غربًـا جـدول فـي مفاضـة كمر الخليج في صفيح المصوب
وإنـك لـم يفخـر عليـك كعـاجز ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب
وإنـك لـم تقطـع لبانـة عاشـق بمثـل غـدو أو رواح مـؤوب
بإدمـاء حرجـوج كـان قتودهـا علي أبلق الكشحين ليس بمغرب
يغـرد بالأسـحار فـي كـل سدفة تغـرد ميـاح النـدامى المطـرب
أقـب ربـاع مـن حميـر عمايـة يمج لعاع البقل في كل مشرب
بمجنيـة قـد أزر الـضال نبتهـا ممـر جيـوش غـانمين وخيـب
وقـد اغتـدى والطيـر فـي وكراتهـا وماء الندى يجري على كل مذنب
بمنجـرد قيـد الأوابـد لاحـه طراد الهوادى كل شأو مغرب
علـى الايـن جيـاش كـأن سـراته على الضمر والنعداء سرحة مرقب

يباري الخنوف المستقل زماعه ... ترى شخصه كأنه عود مشجب
له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وصهوة عير قائم فوق مرقب
ويخطو على صم صلاب كأنها ... حجارة غيل وارسات بطلحب
له كفل كالدعص لبده الندى ... إلى حارك مثل الغبيط المذأب
وعين كمرآة الصناع تديرها ... بمحجرها من النصيف المنقب
له أذنان تعرف العتق فيهما ... كسامعتي مذعورة وسط ربرب
ومستفلك الذفري كان عنانه ... ومثناته في رأس جذع مشذب
وأسحم ريان العسيب كأنه ... عثا كيل قنو من سميحة مرطب
إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه ... تقول هزير الريح مرت بأثأب
يدبر قطاة كالمحالة أشرفت ... إلى سند مثل الغبيط المذأب
فيوما على سرب نقي جلوده ... ويوما على بيدانة أم تولب
فبينا نعاج يرتعين خميلة ... كمشي العذارى في الملاء المهدب
فكان تنادينا وعقد عذاره ... وقال صحابي قد شأونك فاطلب
فلا يا بلأى ما حملنا غلامنا ... على ظهر محبوك السراة مجنب
وولى كشؤبوب العشي بوابل ... ويخرجن من جعد تراه منصب
فللساق ألهوب وللسوط درة ... وللزجر منه وقع أهوج منعب
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه ... يمر كخذروف الوليد المثقب
ترى الفار في مستيفع القاع لاحبا ... على جدد الصحراء من شد ملهب
خفاهن من إنفاقهن كأنما ... خفاهن ودق من عشى محلب
فعادى عداء بين ثور ونعجة ... وبين شبوب كالقضيمة قرهب
وظل لثيران الصريم غماغم ... يدا عسها بالسمهري المعلب

فكـان علـى حـر الجبـين ومتـق بمدريـة كأنهـا ذلـق مـشعب
وقلـت لفتيـان كـرام ألا انزلـوا فقـالوا علينـا فـضل ثـوب مطنـب
وأوتـاده مازيـة وعمـاده ردينيـة فيهـا أسـنة قعـضب
وأطنابـه أشـطان خـوص نجائـب وصـهوته مـن اتحمـى مـشرعب
فلمـا دخلنـاه أضـفنا ظهورنـا إلـى كـل حـاري جديـد مـشطب
كـأن عيـون الـوحش حـول خبائنـا وأرحلنـا الجـزع الـذي لـم يثقـب
نمـش بـأعراف الجيـاد أكفنـا إذا نحـن قمنـا عـن شـواء مـضهب
ورحنـا كأنـا مـن جـواثي عـشية تعـالى النعـاج بـين عـدل ومحقـب
وراح كتـيس الربـل يـنفض رأسـه أذاة بـه مـن صـائك متحلـب
كـأن دمـاء الهاديـات بنحـره عـصاة حنـاء بـشيب مخـضب
وأنـت إذا اسـتدبرته سـد فرجـه بضاف فويق الأرض ليس بأصـهب

وهذا الشعر محتاج إلى الشرح والضبط لتحصل الفائدة بحفظه فنقول قوله: خليلي البيت. اللبانات جمع لبانة بضم اللام ما يتشهاه الإنسن بعد الحوائج الأصلية، وقوله: ألم ترياني بتعلق به حكاية تعرف منها المفاضلة بين الشاعرين يحكى أن كثير عزة لما قال:

فمـا روضـة بـالحزن غـب سـمائها يمـج النـدى جثجاثهـا وعرارهـا
بأطيـب مـن أردان عـزة موهنًـا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

جاءته عجوز ومعها روثة عليها نار فيها عود همدي وقالت له: لم تزد في صفة عزة على هذه ألا قلت كما قال امرؤ القيس:

ألـم تريـاني كلمـا جئـت طارقًـا وجـدت بهـا طيبًـا وإن لـم تطيـب

وصفها بأن طيبها من ذاتها وكثير جعل طيبها من غيرها، وكل شيء يطيب بالطيب تطيب رائحته، والفضل للطيب لا للشيء. وقوله: عقيلة أتراب ... البيت، العقيلة الكريمة عقلها أهلها ومنعوها من التبذل لجمالها، والأتراب جمع ترب هو المأوى في العمر مأخوذ من التراب؛ لأنهما جاء من تراب واحد واللدة مثله لأنهما ولدا معا والجانب المتجنب المحقور أو الغليظ القصير. وقوله: أقامت تفصيل لقوله: وكيف تراعى وصلة المتغيب يقول: هل بقيت على ما نعهد أو تغيرت بتغيير المفسد وهو المخبب من التخبيب وهو إفساد عبد الرجل عليه أو امرأته. وقوله: فإن تنأ.... البيت رجوع منه إلى معروفه من أخلاقها بعد استفهام التجاهل فهو يقول: فإن تغب عنها مدة فإنه لا يخفى عليك أمرها ولا ما تصير إليه فأنت منه بموضع التجريب، فالمجرب اسم مكان في زنة اسم المفعول كما هو شأنه من غير الثلاثي وبين تجنيها وتخشين القول له المنبئ عن التغير في قوله وقالت متى يبخل عليك البيت وتدرب من الدربة وهي العادة درب في الأمر اعتاده ومرن عليه فهي تقول له: إنك طموع لا تقف عند حد وقوله: تبصر خليلي ... البيت الظعينة الجمل عليه المسافرة وهي ظعينة أيضًا، والنقب الطريق في الجبل والحزم بالميم أغلظ من الحزن بالنون وكلاهما بفتح فسكون الأمكنة الوعرة وشعبعب بالعين وبالغين: مكان من أرض بني تميم وقوله: علون بأنطاكية يصف هيئة الرحال على الإبل ويذكر أنها من نفائس الثياب تنويهًا بعظم أهلها وأنهم من أهل الثروة وأنطاكية من بلاد الشام تنسب إليها ثياب تصنع بها والعقمة بكسر فسكون الوشي وشبه الإبل بما عليها من الملونات بمزرعة نخل وهي الجربة بكسر فسكون واضرب عن التشبيه بمكان غير معين إلى مكان ميعن لظهوره واستقراره في خيال السامع، ويثرب مدينة الرسول

صلى الله عليه وسلم بلد نخل وهناك بدل نخل أيضًا يقال لها يترب بفتح الياء والراء بينهما تاء، وهي المذكورة في قوله: مواعيد عرقوب أخاه يتربا. وقوله: ولله عبنا ... البيت وما بعده يصف بهما اجتماع الحاج وملتقى الأحبة وافتراقهم ويبدي أسفه في ذلك، والمحصب من أمكنة تلك الناحية وجزع الأرض وقطعها معناهما واحد وبطن نخلة ونجد كبكب مكانان إلى جهتين مختلفتين وقوله: فعيناك صفة لبكائه على أثر الظاعنين والغرب الدلو العظيمة والمفاضة موضع إفاضة الماء وإسالته أي: تنهمل دموعه كمر الخليج والصفيح الحجارة والمصوب الممال وهنالك تكون سرعة جري الماء وقوله: وإنك لم يفخر لما افتخرت عليه بأنها تكشف غرامه وقرعته بالطمع وترك الوقوف عند حد وهو لا يقدر على الإجابة لمكان الحب الموجب لتسليم كل ما يقوله المحبوب تذكر أنه ربما يفتخر على الإنسان مهين عاجز ضعيف ولا يجد الشريف أن يجيبه ويرد عليه حتى يخيل أنه مغلوب فتشتد حرارة صدره ولسانه لا ينطلق، فرمي بكلام هو أكبر من الغزل ولذلك يتمثل به للتروح عند حصول مثل ذلك. وقوله: وإنك لم تقطع لبانة ... البيت انتقال منه لذكر الحيلة في السلو وكسر سورة العشق فادعى أن السفر والذهاب في البلاد يكون سببًا لذلك وشرط في السفر الإبعاد، ولذلك أوجب أن تكون راحلته على ما وصف من الشدة والصلابة حتى تساعده على ما أراد، والغدو الذهاب أول النهار والرواح الذهاب في آخره والتأويب السير نهارًا، والإدلاج السير ليلًا والحرجوج كعصفور الصلبة والقتد بفتحتين عدة الراحلة والأبلق ذو اللونين والمغرب على زنة اسم المفعول الأبيض كله والأقب الضامر ورباع منقوص إذا نصبته أظهرت الياء فقلت: ركبت رباعيا وهو الذي أسقط رباعيته وزنة الكلمة ثمان وثمانية من حمير عماية جبل بناحية نجد

تعرف حميره بالشندة واللعاع كغراب نبت ناعم في أول ما يبدو والمحنبة ما انعطف من الوادي وهو أخصبه، ولذلك قال: إن بنته علا وكان كالشجر المسمى بالضال ووصفه بكونه موفر ألم ينزله الناس حتى يرعوا نباته فهو على جانب بحيث يمر عليه الناس مرورًا وبين ذلك في قوله: ممر جيوش غانمين وخيب أي: جيوش خيب فالغانم فرح بالقفول إلى أهله فهو لا يعرج على مكان والخائب ساع ليغنم وإذا كان حال الموضع ذلك وجدت الحمير مرعى رغد أفنمت جسامها وتزايدت قواها. وقوله: قد اغتدى ... البيت هو وقت الخروج إلى الصيد وله كانت شباب العرب المترفون يستعملون الخيل ويذكرون ذلك في عداد ملاذهم والمذنب كمنبر مسيل الماء إلى الأرض كالمزرعة والبستان. وقوله: بمنجرد المنجرد قصير الشعر وذلك محمود في الخيل، وقيد الأوابد وهي الوحش جمع آبدة استعارة معدودة من حسنات امرئ القيس ولاحه غيره من السمن إلى الضمور والطراد الاتباع والهوادي السوابق جمع هادية كأنها دليلة ما وراءها وفي قوله: طراد الهوادي إبانة لحسن طلبه وأنه فات الوحش وأتاه من قبل وجهه فمنعها السلوك إلى وجهتها والشأو الطلق يجريه الفرس إلى غاية ما قربت أو بعدت، ولذلك قيد بالمغرب وهو البعيد، وقوله: على الابن ... البيت الأين التعب والجيشان غليان القدر وفي الفرس هيجانه نشاطًا ووفور قوة وسراة كل شيء أعلاه حتى في الناس قال قيس:

وعمـــرة مـــن ســـروات النـــسا ء تـــنفج بالمـــسك أردانهـــا

والسرحة واحدة السرح الشجر لا شوك فيه، ويقابله العضه للشجر الشائك والمرقب الموضع يرقب منه، وكانوا يرقبون في الشجر العالي الكثير الفروع ولهذه الصفة قيد السرحة ليظهر الفرس في صورة عظمة التي يحاول نعتها وقوله: يباري المباراة المسابقة وأصله أن من يبري

القوس يغالب آخر في عجلة العمل والخنوف اللين القوائم بحيث يرمي بها في العدو رميًا يريد ثورًا وحشيًا وهو معروف بشدة العدو والزماع جمع زمعة بفتحتين شعر يكون في أسفل الأرجل واستقلاله ارتفاعه، فإنه إذا طال عطل عن شدة الجري وعود المشجب خشب ينصبه القصار ينشر عليه الثياب والمشجب بزنة منبر. وقوله: له أيطلا ظبي .... البيت ألايطل الجانب والصهوة موضع الراكب من الفرس وقصر في هذا البيت عن بيت المعلقة حيث أتى في ذلك بأربعة تشبيهات وبيت المعلقة:

لـه أيطـلا ظبـي وسـاقا نعامـة وأرخـاء سـرحان وتقريـب تتفـل

وتتفل بزنة تنصر، وأتى هنا بثلاثة تشبيهات كلها في الجسم، وقوله: ويخطو البيت الحافر الأصم الذي لا خلو فيه ومنه الصخرة الصماء والغيل بفتح فسكون الماء يجري على وجه الأرض والوارسات جمع وارسة أي: ذات ورس وهو بفتح فسكون نبت أصفر يصبغ به كالزعفران والحجارة إذا تلونت بهذا اللون كانت قدمت وبلغت الغاية في الصلابة. وقوله: له كفل البيت الدعص بكسر فسكون أكمة صغيرة من الرمل تشبه بها الأكفال واستعملت في غزل العرب وقلدهم غيرهم والحارك طرف الورك المشرف من أعلاه والغبيط قتب الهودج والمذأب الذي له أطراف بارزة مشرفة وقوله: وعين البيت الصناع للأنثى وللذكر صنع بفتحتين من الصنعة للحاذق والحاذقة فيها ومرآة الصناع مشوفة مجلوة ليس عليها صدأ ولا غبار، كما تكون مرآة الخرقاء والمحجر بفتح الميم وكسر الجيم في لغة، وفي أخرى بزنة منبر، في تفسيره خلاف أهو ما بان من أسفل العين أو البياض المحيط بالسواد والنصيف الخمار. وقوله: له أذنان البيت العتق كرم الأصل والنجابة وآذان أصلاء الخيل صغار منتصبات تشبه بالألة أي: الحربة وبورق الآس وبرية القلم والربرب جماعة الظباء

والمذعورة تنصب أذنيها وترفع رأسها، والعتق بكسر فسكون. وقوله: ومستفلك الذفرى ... البيت أي: ذفراه وهو العظم خلف الأذن مستديرة كفلكة المغزل والمثناة عذار الفرس، والمشذب المجرد عن الأشياء الناتئة عليه وقوله: وأسحم البيت السحمة السواد يصف ذنبه والعسيب منبت شعره، والعثاكيل جمع عثكول شماريخ البلح، والقنو مجموعها وسمجة ناحية بها نخل ولعله له خصوصية حتى قيد به وقيد بالمرطب لسواد الذنب فيتم التشبيه. وقوله: إذا ما جرى البيت أثأب شجر للريح فيه حفيف وهو بفتح الهمزتين. وقوله: يدير قطاة البيت القطاة مقعد الرديف والمحالة بكرة البئر والسند هنا أراد به الحارك أعاد وصفه وقوله: فيوما على سرب البيت السرب بكسر فسكون القطيع من البقر والجماعة من الطير والبيدانة أم إالتولب الأتان أم الجحش، والتولب بسكون بين فتحتين. وقوله: فلا يا بلأى اللأى البطء والمجنب من التجنيب وهو أحد يداب في وظيفي الفرس وصلبها أو المحتب من التحنيب وهو بعد ما بين الرجلين بلا فحج. وقوله: وولى كشؤبوب العشى البيت شؤبوب العشى الدفعة من المطر ويقال: وبل أي انهمل ووصف البقر بشدة العدو حتى أنها تثير التراب الندى المتلبد ولا يثير ذلك إلا قوة الركض بالأظلاف، والمنصب المرتفع كالخباء. وقوله: فللساق البيت قسم العدو بأقسامه والأهوج المنعب الطائر الذي اعتاد النعيب أي: التصويت وهو بزنة منبر ويروي أخرج مذهب وهو من صفة النعام. وقوله: ترى الفأر البيت وما بعده يقول: إنه يخرج الفيران إلى اليفاع فتكون ظاهرة وهو معنى لاحب وخفاهن أظهرهن والإنفاق جمع نفق شقوقها والودق المطر، والمجلب اسم فاعل أي: ذو جلبات وأصوات وحاصله أن الفيران تظنه عند مره مطرًا فتخرج من مطمئن الأرض إلى مرتفعها تطلب السلامة منه. وقوله:

فعادى البيت عادى بين الشيئين وإلى بينهما، والشبوب الفتى والقضيمة الصحيفة البيضاء وثيران الوحش بيض والقرهب هنا بسكون بين فتحتين البدين. قوله: وظل لثيران المداعة موالاة الطعن والسمهري من ألقاب الرمح، والمعلب اسمْ مفعول من علب الرمح إذا لف عليه سيرًا متخذًا من علباء البعير وهو عصب عنقه تقويةً له أن لا ينشق. وقوله: فكاب على حر الجبين ... البيت كبا سقط لوجهه والمدرية أراد بها هنا الفرن، والزلق الطرف، والمشعب ما يشعب به الجلد المشقوق. وقوله: وقلت لفتيان البيت فعالوا أي: فنزلوا فنصبوا لنا خباء وقوله: وأوتاده وما بعده يذكر أن ذلك الخباء قام من ثيابهم وسلاحهم وكذلك يفعلون إذا كانوا في الصيد والماذية الدرع البيضاء أو اللينة، وردينية من ألقاب الرماح وقعضب اسم رجل كان يركب أسنة الرماح، والأشطان جمع شطن الحبال والخوص جمع خوصاء غائرة العين وصهوة الخباء أعلاه وإلا تحمى المشرعب نوع من الثياب الفاخرة فيه تماثيل الشرعب بسكون بين فتحتين لنبات ويقال: ثوب مطير ومخيل ومرحل إذا رسم فيه تماثيل تلك الأشياء. وقوله: فلما دخلناه البيت أضاف ظهره أي أسنده والحاري المنسوب إلى الحيرة ويقال: حيرى على القياس وأراد به الرحل المصنوع بها والمشطب الذي فيه الشطب جمع شطبة بضم أو كسر فسكون للخطوط والطرائق وتذكر في صفة السيف؛ لما فيه من الخطوط. وقوله: كأن عيون الوحش البيت الجزع نوع من خرز اليمن فيه خطوط قيل: إن عيون البقر وهي حية ترى سوداء لا يظهر فيها البياض، فإذا ماتت ظهر وقوله: نمش بأعراف الجياد البيت مش الكف مسحها من أثر الطعام والمشوش بفتح الميم ما يمسح به كالمنديل، والمضهب الذي أعجل أن ينضج؛ يحكى أن عبد الملك سأل جلساءه يومًا عن أفضل مناديل العرب، فكل ذكر مناديل ناحية من

نواحي الأرض ونعتها، فلما فرغوا قال عبد الملك: لم تصيبوا، ألم تسمعوا لقول الشاعر وفي الأبيات بيان المعنى الذي قصده امرؤ القيس:

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية ... وفار باللحم للقوم المراجيل

وردوا شقر ما يونيه طابخه ... ما غير الغلى منه فهو مأكول

ثمت قمنا إلى جرد مسومة ... أعرافهن لأيدينا مناديل

وقوله: ورحنا البيت جوائي كحبارى قرية يحمل منها التمر وتعالى نرفع رفع الحمل وجعل الحمل بين عدل وهو الموضوع على ظهر الحاملة وجانبيها، والمحقب الموضوع على مؤخرها. وقوله: وراح كتيس الربل ... البيت الربل: نبت يظهر في آخر الصيف ينبت على برد الليل لا يحتاج للماء وهو بفتح فسكون، والتيس إذا رعاء بعد ما رعى نبات الصيف يكون في أو فرقوته وأذاة به أي: من أذية فيه ينفضه وإنما يتأذى من العرق المتغير وهو الصائك المتحلب المتصبب، وهذه قصيدة علقمة:

ذهبت من الهجران في غير مذهب ... ولم يك حقًّا كل هذا التجنب

ليالي لا تبلى نصيحة بيننا ... ليالي حلوا بالستار فغرب

أي: اذكري ليالي لا تمتحن نصيحة بيننا لخلوصها يعني: ليالي التصافي يحثها على بقاء الوفاء.

مبتلة كان إنضاء حليها ... على شادن من صاحة متربب

محال كأجواز الجراد ولؤلؤ ... من القلقي واللبيس الملوب

المبتلة التي انفردت بالحسن فهي تذكر وحدها في النعت والصفة وشبهها بالغزال المترعرع من غزلان ذلك المكان المتربب أي: المربي

المعتني به، وإنضاء الحلي منظومه وفصله بقوله: محال بفتح الميم لنوع من الحلي، وكذا القلقى والملوب الملوي كالسوار.

إذا ألحم الواشون للشر بيننا تبلغ رمس الحب غير المكذب

هو تفسير وبيان لقوله: لا تبلى نصيحة بيننا أي إذا اجتهد الوشاة أن يبلغوا مآربهم تأكد الحب المرموس أي: المكتوم فهو من إضافة الصفة.

وما أنت أم ما ذكرها ربيعة تحل بإير أو بأكناف شربب

عاتب نفسه فقال: ما شأنك وما شأن ذكرها ربيعة من ربيعة وإير بكسر الهمز وشربب موضعان.

اطلعت الوشاة والمشاة بصرمها فقد انهجت حبالها للتقضب

وقد وعدتك موعدًا لو وفت به كموعود عرقوب أخاه بيترب

وقالت متى بيخلل عليك ويعتلل يسؤك وإن يكشف غرامك تدرب

فقلت لها فيئي فما تستفزني ذوات العيون والبنان المخضب

ففاءت كما فاءت من الأدم مغزل ببيشة ترعى في أراك وحلب

تخاشن في هذه الأبيات وذكر أنه جازاها بعملها فاعرض كما أعرضت وأجابها على مثل ما ابتدأت:

فعشنا بها من الشباب ملاوة فأنجح آيات الرسول المخبب

التفت للإخبار عما كان بينه وبينها مدة الشباب والملاوة المدة:

فإنك لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوب

بمجفرة الجنبين حرف شملة كهمك مرقال على الأين ذعلب

كهمك: أي وفق غرضك، والذعلب بكسر فسكون الصلبة.

إذا ما ضربت الدف أوصلت صولة ترقب مني غير أدنى ترقب

الدف: الجانب وترقب أي تلاحظ خوفًا ورعيًا ترقبا شديدًا ليس بالضعيف وهو قوله: غير أدنى وجمل ذي الرمة أحسن من ناقته هذه وأفره فإنه لم يضربه ولم يصل عليه حيث يقول وأحسن ما شاء.

يكاد من التصدير ينسل كلما ترنم أو مس العمامة راكبه
بعين كمرآة الصناع تديرها لمحجرها من النصف المنقب
كأن بحاذيها إذا ما تشذرت عثاكيل قنو من سميحة مرطب
تذب به طورًا وطورًا تمره كذب البشير بالرداء المهذب

يصف الذنب والحاذان مواقعه من أدبار الفخذين.

وقد اغتدى والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب
بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوادي كل شأو مغرب
كميت كلون الأرجوان نشرته لبيع الرداء في الصوان المكعب
ممر كعقد إلا ندري بزينة مع العتق خلق مفعم غير جانب
له حرتان تعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ربرب
وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلقاء ذحلوق ملعب

الخلقاء الملساء.

قطاة كركدوس المحالة أشرفت إلى سند مثل الغبيط المذأب
وسمر يفلقن الظراب كأنها حجارة غيل وأرسات بطحلب
إذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنة ولكن ننادي من بعيد ألا أركب
أخائفة لا يلعن الحي شخصه صبورًا على العلات غير مسبب

إذا أنفدوا زادًا فإن عنانه ... وأكرعه مستعملًا خير مكسب

يصف ثقته بالفرس وأنهم لا يختالون الصيد أي: لا يختالون عليه لعلمهم أنه يدركه بشده وجعله أخا ثقة يستبشر به الناس ولا يسبونه ليمنه وبركته وأنه في جميع الأحوال صابر وأوضح ذلك بذكر أنه خير مكسب أي: كاسب بزنة منبر إذا استعملوه وصرفوه بعنانه فعملت أرجله عملها ونسب الكسب إلى العنان والقوائم التي عبر عنها بالأكرع:

رأينا شياها يرتعين خميلة ... كمشي العذارى في الملاء المهدب

فبينا تمارينا وعقد عذاره ... خرجن علينا كالجمان المثقب

أراد أن يقول المنظم لكونها متتابعة متواصلة تشبه العقد ولم يتمكن فعبر بالمثقب اللازم لا مكان النظم، وهذا الذي يسميه أهل البديع الطاعة والعصيان.

فاتبع آثار الشياه بصادق ... حثيث كغيث الرائج المتحلب

فأدرك منها ثانيًا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

ترى الفأر في مستيفع القاع لائحًا ... على جدد الصحراء من شد ملهب

خفاهن من إنفاقهن كأنما ... تخلله شؤبوب غيث منقب

فظل لثيران الصريم غماغم ... يداعهن بالنضى المطب

فهما وعلى حر الجبين ومتق ... بمدرية كأنها ذلق مشعب

وعادى عداء بين ثور ونعجة ... وبين شبوب كالقضيمة قرهب

فقلن ألا قد كان صيد لقانص ... فحبوا علينا فضل برد مطنب

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

ورحنا كأنا من جواثي عشية ... نعالي النعاج بين عدل ومحقب

وراح كشاة الرمل ينفض رأسه إذا قبه من صائك متحلب
وراح يباري في الخباب قلوصنا عزيزًا علينا كالحباب المسيب

فانظر كيف تناول هذان الشاعران تلك المعاني متناولًا واحدًا لا تفاوت بينهما إلا في اليسير كما يدرك بتدقيق النظر والتلبث في المقارنة متى شعر بهما، وتبين ذلك بما تواردا عليه من الأبيات الكاملة، وتأمل ذلك نافع إن شاء الله تعالى ومن جيد شعر هذه الطبقة مرثية محمد بن كعب الغنوي التي يرثي بها أخاه وهي:

تقول ابنة العبسي قد شبت بعدنا وكل امرئ بعد الشباب يشيب
وما الشيب إلا غائبًا كان جائيًا وما القول إلا مخطئ ومصيب
تقول سليمي ما لجسمك شاحبًا كأنك يحميك الشراب طبيب
فقلت ولم أعي الجواب ولم أنح وللدهر في الصم الصلاب نصيب
تتابع أحداث تخر من إخوتي فشيبن رأسي والخطوب تشيب
لعمري لئن كانت أصابت منية أخي والمنايا للرجال شعوب
لقد كان أما حلمه فمروح عليه وأما جهله فعزيب
أخي ما أخي لا فاحش عند ريبة ولا ورع عند اللقاء هيوب
أخي كان يكفيني وكان يعينني على نائبات الدهر حين تنوب
حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت حبا الشيب للنفس اللجوج غلوب
هل العسل الماذي حلمًا ونائلًا وليث إذا يلقى العداة غضوب
هوت أمه ما يبعث الصبح غاديًا وماذا يؤدي الليل حين يؤوب
هوت أمه ماذا تضمن قبره من المجد والمعروف حين ينوب
أخو شتوات يعلم الصيف أنه سيكثر ما في قدره ويطيب

حبيب إلى الزوار غشيان بيته ... جميل المحيا شب وهو أديب

وكأن بيوت الحي ما لم يكن بها ... بسابس قفر ما بهن عريب

كعالية الرمح الرديني لم يكن ... إذا ابتدر الخير الرجال يخيب

إذا قصرت أيدي الرجال عن العلا ... تناول أقصى المكرمات شبيب

جموع خلال الخير من كل جانب ... إذا حل مكروه بهن ذهوب

مفيد ملقى الفائدات معاود ... لفعل الندى والمكرمات كسوب

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجب عند النداء مجيب

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت ... لعل أبي المغوار منك قريب

يجبك بما قد كان يفعل أنه ... بأمثالها رحب الذراع أريب

أتاك سريعًا واستجاب إلى الندى ... كذلك قبل اليوم كان يجيب

كأن لم يكن يدعو السوابح مرة ... بذي لجب تحت الرماح مهيب

فتى أريحي كان يهتز للندى ... كما اهتز من ماء الجديد قضيب

فتى ما يبالي أن يكون بجسمه ... إذا نال خلات الكرام شجوب

إذا ما تراه الرجال تحفظوا ... فلم تنطق العوراء وهو قريب

على خير ما كان الرجال رزئته ... وما الخير إلا طعمة ونصيب

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ... سريعًا ويدعوه الندى فيجيب

غياث لعان لم يجد من يعينه ... ومختبط يغشى الدخان غريب

عظيم رماد النار رحب فناؤه ... إلى سند لم يجتنحه عيوب

يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه ... إذا لم يكن في المنقيات حلوب

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب

معنى إذا عادى الرجال عداوة ... بعيد إذا عادى الرجال قريب

غنينا بخير حقبة ثم جلحت علينا التي كل الأنام تصيب
فأبقت قليلًا ذاهبًا وتجهزت لآخر والراجي الحياة كذوب
وأعلم أن النأى في الحي منهم إلى أجل أقصى مداه قريب
لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى على نومه علق عليَّ حبيب
فإن تكن الأيام أحسن مرة إليَّ فقد عادت لهن ذنوب
جمعن النوى حتى إذا اجتمع الهوى صد عن العصا حتى القناة شعوب
أتى دون حلو العيش حتى أمره نكوب على آثارهن نكوب
كان أبا المغوار لم يوف مرقبًا إذا ربأ القوم الغزاة رقيب
ولم يدع فتيانًا كرامًا لميسر إذا اشتد من ريح الصباء هبوب
فإن غاب منهم غائب أو تخاذلوا كفى ذاك منهم والجناب خصيب
كأن أبا المغوار ذا المجد لم تجب به البيد عنس بالفلاة خبوب
علاة ترى فيها إذا حط رحلها ندوبًا على آثارهن ندوب
وإني لباكيه وإني لصادق عليه وبعض القائلين كذوب
فتى الحرب إن حاربت كان سمامها وفي السفر مفضال اليدين وهوب
وحدثتماني إنما الموت في القرى فكيف وهذي روضة وقليب
وماء سماء كان غير مخمة بدوية تجري عليه جنوب
ومنزله في دار صدق وغبطة وما اقتال من حكم عليه طبيب
فلو كانت الدنيا تباع اشتريته بما لم تكن عنه النفوس تطيب
بعيني أو يمنى يدي وقيل لي هو الغانم الجذلان يوم يؤوب
لعمركما إن البعيد لما مضى وإن الذي يأتي غدًا لقريب
وإني وتأميلي لقاء مؤمل وقد شعبته عن لقاي شعوب

كـداعي هـديل لا يـزال مكلفًـا ... ولات لـه حتـى الممـات مجيـب
سقى كـل ذكـر جاءنـا مـن مؤمـل ... على النأى رجاف السحاب سكوب

إن كنت معتبرًا من كلام صحة معنى وتخير لفظ وجودة تركيب ومتانسة سياق وحسن استعارة ولطف إشارة وغرابة نادرة، فلتكن هذه القصيدة مثالك الذي تحتذيه فما كان من شعر مدانيًا لها فذلك ما تحكم عليه بنهاية الجودة وإلا فهو نازل بقدر بعده عن مرتبتها من البلاغة ومن الجيد شعر عمير بن شييم التغلبي المشهور بالقطامي من شعراء بني أمية أيام عبد الملك وما بعده وأسلم عن نصرانية تغلب، وهو أول من لقب صريع الغواني بقوله:

صـريع غـوان زافهـن ورفنـه ... لدن شب حتى شاب سود الذوائب

وبهذا اللقب لقب مسلم بن الوليد بعد كما سياتي روي عن الإمام عامر الشعبي أنه قال: قال عبد الملك: وأنا حاضر للأخطل يا أبا مالك أتحب أن لك بشعرك شعر شاعر من العرب؟ قال: اللهم لا إلا شاعر أمنا مغذف القناع خامل الذكر حديث السن إن يكن في أحد خير فسيكون فيه ولوددت أني سبقته إلى قوله:

يقتلننـا بحـديث لـيس يعلمـه ... مـن يتقينـا ولا مكنونـه بـادي
فهـن ينبـذن مـن قـول يـصبن بـه ... مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

ومن مختار شعره هذه القصيدة:

إنـا محيـوك فأسـلم أيهـا الطلـل ... وإن بليـت وإن طالـت بـك الطيـل
إنـي اهتـديت لتـسليم علـى دمـن ... بـالغمر غيـرهن الأعـصر الأول
صـافت تمعـج أعنـاق الـسيول بهـا ... مـن بـاكر سـبط أو رائـح يبـل

فيهن كالخلل الموشى ظاهرها — أو كالكتاب الذي قدمه البلل
كانت منازل منا قد نحل بها — حتى تغير دهر خائن خبل
ليس الجديد به تبقى بشاشته — إلا قليلًا ولا ذو خلة يصل
والعيش لا عيش إلا ما تقربه — عين ولا حالة إلا ستنتقل
والناس من يلق خيرًا قائلون له — ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل
قد يدرك المتأني بعض حاجته — وقد يكون مع المستعجل الزلل

سمع أعرابي منشدًا ينشد هذا البيت فقال: قد ثبط هذا الناس هلا قال على أثره:

وربما ضر بعض الناس بطؤهم — وكان خيرًا لهم لو أنهم عجلوا

وأصل هذا المعنى في الحديث الشريف من تأنى أصاب أو كاد ومن استعجل أخطأ أو كاد رجع.

أضحت عليه يهتاج الفؤاد لها — وللرواسم فيما دونها عمل
بكل مخترق يجرى السراب به — يمسي وراكبه من خوفه وجل
ينضي الهجان التي كانت تكون بها — عرضية وهباب حين ترنحل
حتى ترى الحرة الوجناء لاغبة — والأرجى الذي في خطوه خطل
خوصًا تدير عيونًا ماؤها سرب — على الخدود إذا ما اغرورق المقل
لو أغب الطرف منقوبًا محاجرها — كأنها قلب عادية مكل

قليب مكول غاض ماؤه.

ترمي الفجاج لها الركبان معترضًا — أعناق بزلها مرخى لها الجدل
يمشين رهوًا فلا الأعجاز خاذلة — ولا الصدور على الأعجاز تتكل

فهن معترضات والحصى رمض والريح ساكنة والظل معتدل
يتبعن سامية العينين تحسبها مجنونة أو ترى ما لا ترى الإبل
لما وردن نبيًّا واستتب بنا مصحنفر كخطوط السيح منسحل
على مكان غشاش لا ينيخ به إلا مغيرنا والمستقى العجل

غشاش بكسر أوله عجلة أي: على مكان مخوف يطلب النجاة منه وكانوا في السفر يغيرون أحمال الإبل يرون في ذلك بعض راحة لها.

ثم استمر بها الجادي وجنبها بطن التي نبتها الحوزان والنفل
حتى وردن ركيات الغوير وقد كاد الملاء من الكتان يشتعل
وقد تعرجت لما أركت أركا ذات الشمال وعن أيماننا الرجل

أركت أكلت الأراك بوزن سحاب وجمعه أرك كسحب، والرجل بزنة عنب جمع رجلة بكسر فسكون مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

على مناد دعانا دعوة كشفت عنا النعاس وفي أعناقنا ميل
سمعتها ورعان الطود معرضة من دونها وكثيب الغيبة السهل

أراد بالمنادى الشوق خيله داعيًا يسمعه والغيبة بفتح فسكون واحد الغيب للمطمئن من الأرض:

فقلت للركب لما أن علا بهم من عن يمين المحيا نظرة قبل
ألمحة من سنا برق رآى بصري أم وجه عالية اختالت به الكلل
تهدي لنا كل ما كانت علاوتنا ريح الخزامى جرى فيها الندى

علاوتنا أي: في علاوتنا وهي المكان المرتفع.

وقد أبيت إذا ما شئت بات معي على الفراش الضجيع الأغيد الرتل

وقد تباركني الصهباء ترفعها إلى لينة أطرافها ثمل
أقول للحرف لما أن شكت أصلًا مت السفار فأفنى نيها الرحل

المت المذو الني الشحم.

أن ترجعي من أبي عثمان منجحة فقد يهون على المستنجح العمل
أهل المدينة لا يحزنك شأنهم إذا تخطأ عبد الواحد الأجل
أما قريش فلن تلقاهم أبدًا إلا وهم خير من يحفى وينتعل
إلا وهم جبل الله الذي قصرت عنه الجبال فما ساوى به جبل
قوم هم ثبتوا الإسلام وامتنعوا قوم الرسول الذي ما بعده رسل
من صالحوه رأى في عيشه سعة ولا ترى من أرادوا ضره يئل
كم نالني منهم فضل على عدم إ لا أكاد من الاقتار أحتمل
وكم من الدهر ما قد ثبتوا قدمي إذ لا أزال مع العداء أنتضل
فلا هم صالحوا من يبتغي عنتي ولا هم كدروا الخير الذي فعلوا
هم الملوك وأبناء الملوك لهم والآخذون به والساسة الأول

هذه القصيدة والتي قبلها من تسع وأربعين قصيدة كل سبع منها مسماة باسم انتخبتها العرب وسمتها به وجميعها في كتاب الجمهرة وهو موجود بدار الكتب الكبيرة المصونة، فمن أرادها فليطلبها هنالك، ومن الجيد أيضًا شعر جرير وإليه وإلى الفرزدق والأخطل انتهت الشهرة في أيام بني أمية حتى كثر اختلاف العلماء في المفاضلة بينهم واحتجاجهم لذلك، فمن شعر جرير قوله وهو نهاية في الرقة والسلاسة وكان الفرزدق يقول إذا سمع لجرير مثل هذا: ما أحوجه إلى خشونة شعري على عفته

وأحوجني إلى رقة شعره على فجوري، فإن المغازلة لم تكن من شأن جرير كما كان الفرزدق هذه القصيدة:

ما للمنازل لا يجبن حزينا ... اضممن أم قدم المدى فبلينا

قفرا تقادم عهدهن على البلا ... فلبثن في عدد الشهور سنينا

وترى العوازل يبتدرن ملامتي ... وإذا أردن سوى هواي عصينا

بكر العوازل بالملامة بعدما ... قطع الخليط بساجر ليبينا

أمسين إذ بان الشباب صوادفًا ... ليت الليالي قبل ذاك فنينا

إن الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلًا بعينك ما يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ولقد تسقطني الوشاة فصادفوا ... حصرًا بسرك يا أميم ضنينا

كلفت حاجة ما أكلف ضمرا ... مثل القسى من السراء برينا

راحوا العشية روحة منكورة ... إن حرن حرنًا أو هدين هدينا

ورموا بهن سواهما عرض الفلا ... إن متن متنًا أو حيين حيينا

عيس تكلف كل أغبر نازح ... تطوى تنائف بالملا وحزونا

حتى يلين من الوجيف وردها ... بعد المفاوز كالقسى حنينا

ولد الأخيطل نسوة من تغلب ... هن الخبائث بالخبيث غذينا

إن الذي حرم المكارم تغلبا ... جعل النبوة والخلافة فينا

هل تملكون من المشاعر مشعرًا ... أو تشهدون مع الأذان أذينا

مضر أبي وأب الملوك فهل لكم ... يا خزر تغلب من أب كأبينا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إليَّ قطينا

ومن شعر الفرزدق وقد قالت العلماء: إن الفرزدق ينحت من صخر وجريرًا يغترف من بحر:

سلوت عن الدهر الذي كان معجبًا ... ومثل الذي قد كان من دهرنا يسلي

وأيقنت أني لا محالة ميت ... فمتبع آثار من قد خلا قبلي

وأني الذي لا بد أن سيصيبه ... حمام المنايا من وفاة ومن قتل

فما أنا بالباقي ولا الدهر فاعلم ... براض بما قد كان أذهب من عقلي

ولا منصفي يومًا فأدرك عنده ... مظالمه عندي ولا تاركًا أكلي

وأين أخلائي الذين عهدتهم ... وكلهم قد كان في غبطة مثلي

دعتهم مقادير فأصبحت بعدهم ... بقية دهر ليس يسبق بالذحل

بلوت من الدهر الذي فيه واعظ ... وجازيت يا لنعمي وطالبت بالتبل

وجربت عند المضلعات فلم أكن ... صريح زمان لا أمر ولا أحلى

وبيداء تغتال المطي قطعتها ... بركاب هول ليس بالعاجز الوغل

إذا الأرض سدتها الهواجر وارتدت ... ملاء سموم لم يسدين بالغزل

وكان الذي يبدو لنا من سرابها ... فضول سيول البحر من مائها

ويدع القطا فيها القطا فيجيبه ... توائم أطفال من السبسب المحل

دوارج أخلقن الشكير كأنما ... جرى في مآقيها مراود من كحل

يسقين بالموماة زغبًا نواهضا ... بقايا نطاف في حواصلها تغلي

تمج أداوي في أداوي بها استقت ... كما استفرغ الساقي من السجل

وقد أقطع الخرق البعيد نياطه ... بمائرة الضبعين وجناء كالقهل

تزيد في فضل الزمام كأنها ... تحاذر وقعًا من زنابير أو نحل

كأن يديها في مراتب سلم ... إذا غاولت أوب الذراعين بالرجل

تأوه من طول الكلام وتشتكي ... تأوه مفجوع بشكل علي ثكل
إليك أمير المؤمنين أنختها ... إلى خير من حلت له عقد الرحل
إلى خيرهم فيهم قديمًا وحادثًا ... مع الحلم والإيمان والنائل الجزل
ورثت أباك الملك تجري بسمته ... كذلك خوط النبع ينبت في الأصل
كداود إذ ولى سليمان بعده ... خلافته نحلًا من الله ذو الفضل
يسوس من الحلم الذي كان راجحًا ... بأجبال سلمى من وفاء ومن عدل
هو القمر البدر الذي يهتدي به ... إذ ما ذووا الأضغان جاروا عن
أغر ترى نورا البهجة ملكه ... عفوًا طلوبا في أناة وفي رسل
يفيض السجال الناقعات من الندى ... كما فاض ذو موج يقمص بالجفل
وكم من أناس قد أصبت بنعمة ... ومن مثقل خففت عنه من الثقل
ومن أمر حزم قد وليت نجيه ... براي جميع مستمر قوى الحبل
قضيت قضاء في الخلافة ثابتًا ... مبينًا فقد أسمعت من كان ذا عقل
فمن ذا الذي يرجو الخلافة منهم ... وقد قمت فيهم بالبيان وبالفصل
وبينت أن لا حق فيها لخاذل ... تربص في شك وأشفق من مثل
ولا لامرئ أتى المضلين بيعة ... رأى الحرب أبدت عن نواجذها
ومد يدًا منه لبيعة خاسر ... وما المكسد المغبون كالرابح
وعاند لما أن رأى الحرب شمرت ... عناد الخصى الجون صد عن
فما بال أقوام بدا الغش منهم ... وهو كشف عند الشدائد والنزل
يداوون من قرح أدانيه قد عتا ... على الداء لم تدرك أقاسيه بالقتل
وقد كان فيما قد تلوا من حديثهم ... شفاء وكان الحلم يشفي من الجهل
وإلا فإن المشرفية حدها ... دواء لهم غير الدبيب ولا الختل

أو النفي حتى عرض أرض وطولها — عليهم كبيت القين أغلق بالقفل
وقد خزلوا مروان في الحرب وابنه — أباك وأدلوا فيهما مع من يدلي
وكانا إذا ما كان يوم عظيمة — حمولين للأثقال في الأمر ذي البزل
فصلى على قبريهما الله إنما — خلائفه منه على سنة الرسل
ففزت بما فازا به من خلافة — وزدت على من كان قبلك بالخصل
بعافية كانت من الله جللت — مشارقها أمنا إلى مغرب الأمل

الأمل جمع أميل وهو الحبل من الرمل يريد إلى منقطع التراب.

وكنت المصفى من قريش ولم يكن — لوطئك فيهم زيغ كعب ولا نعل
أشاروا بها في الأمر غيرك منهم — وولاكها ذو العرش نحلًا من النحل
حباك بها الله الذي هو ساقها — إليك فقد أبلاك أفضل ما يبلى
وسبقت إلى من كان في الحرب — إلى واضح باد معالمه سهل
وما أصلتوا فيها بسيف علمته — ولا بسلاح من رماح ولا نبل
فنصحي لكم قاد الهوى من بلاده — إلى منبت الزيتون من منبت النخل

الطبقة الثانية مشاهيرها مسلم بن الوليد الأنصاري والحسن بن هانئ الحكمي المشهور بأبي نواس وبعدهما أبو تمام حبيب بن أوس الطائي وأبو عبادة الوليد البحتري وأحمد بن الحسين المتنبي، وبعدهم أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي والشريف محمد الرضي وتلميذ مهيار الديلمي، ويذكر مع هؤلاء علي بن الرومي ولهم دواوين كبار كان الحسن بن هانئ ومسلم بن الوليد الأنصاري قريني عصر واحد، واختلف الناس في المفاضلة بينهما، وكان بنو برمك يبالغون في تفضيل مسلم ولكل مزية وكلاهما شاعر فريد غير أن أبا نواس بقي الكثير من شعره لاعتناء الرواة

به وكثرة تصرفاته فيه وانتهائه في سائر فنون المعاني إلى غاية لم يدركها سواه، ومن هذه الجهة كان تفضيله على مسلم؛ فإن مسلمًا لم يشارك أبا نواس في كثير من تلك الفنون كالمجون والغزل والخمريات ولمسلم صلابة الشعر وتجويده وجمعه فيه بين البداوة والحضارة؛ يحكى أن رجلًا دخل على أبي تمام وبين يديه كتابان يقرأ في هذا مرة وفي هذا مرة فسأله عنهما فقال: هما ديوانا مسلم والحسن وهما اللات والعزى وأنا أعبدهما غير أن شعر مسلم لم يبق منه إلا ما علقته الرواة، فإنه تنسك آخر عمره وهجر الشعر فغرق مجموع شعره فمن شعر أبي نواس وهو أول إمام يقتدى به في الأدب ورعاية مقامات الخطاب خلا أن له أشياء إما أن تكون مناسبة لذلك الوقت، وإما أن يكون سهى بها ينبغي العدول عنها حسبما تقتضيه التعريفات الأدبية قوله يمدح الرشيد:

حي الديار إذا الزمان زمان ... وإن الشباك لنا حري ومعان

الشباك ماء بناحية واقصة على طريق الكوفة فيما أخبرني به معافر من أهل الكوفة وزعم المبرد أن الشباك على طريق البصرة بقرب سفوان وإياها أراد.

يا حبذا سفوان من متربع ... ولربما جمع الهوى سفوان

وإذا مررت على الديار مسلمًا ... فلغير دار أميمة الهجران

إنا نسينا والمناسب ظنة ... حتى رميت بنا وأنت حصان

لما نزعت عن الغواية والصبا ... وخدت بي الشدنية المذعان

ويروى: لما نزعت عن الغواية وادعا أي: كافا والشدنية منسوبة إلى فحل من فحول مهرة يقال له: شدن.

سبط مشافرها دقيق خطمها ... وكأن سائر خلقها بنيان

واحتازها لون جرى في جلدها يقف كرطاس الوليد هجان

حكى سليمان بن نيبخت قال: سألت أبا نواس عن معنى هذا البيت فقال: صيحفة الطفل الذي لم يكتب عليه كاتباه فيها شيئًا فقرطاسه أبيض.

وإلى أبي الأمناء هارون الذي يحيا بصوب سمائه الحيوان

الأمناء الأمين والمأمون والمؤتمن، فالأمين محمد والمأمون عبد الله، والمؤتمن القاسم بنو هارون الرشيد.

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنما لم يخل منه مكان

ما تنطوي عنه القلوب بفجرة إلا يكلمه بها اللحظان

فيظل لاستثباته وكأنه عين على ما غيب الكتمان

هارون الغنى ائتلاف مودة ماتت لها الأحقاد والأضغان

في كل عام غزوة ووفادة تنبت بين نواهما الأقران

كان الرشيد عندما أوطن الرقة يحج سنة ويغزو أخرى، والأقران الحبال أي: تنقطع في بعد ما بين الحج والغزو.

حج وغزو مات بينهما الكرى باليعملات شعارها الوخدان

يرمى بهن بساط كل تنوفة في الله رحال بها ظعان

حتى إذا واجهن إقبال الصفا حن الحطيم وأطت الأركان

إقبال الصفا ما قابلك منه، وهي جمع قبل، والحطيم حيث يزدحم الناس بمكة فيحطم بعضهم بعضًا وقيل: حيث يحطمون بالإيمان لأنهم كانوا يحلفون ثم:

لأغر ينفرج الدجى عن وجهه عدل السياسة حبه إيمان

يصل الهجير بغرة مهذبة لو شاه صان أديمها الأكنان
لكنه في الله مبتذل لها إن التقي مسدد ومعان
ألفت منادمة الدماء سيوفه فلقلما تحتازها الأجفان

يقول: ألفت سيوفه الدماء فكأنها تنادمها لا تفارقها من كثرة ما تقتل بها أعداؤه، ويروى ثلث مقارعة الدماء سيوفه.

حتى الذي في الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

قال المبرد: ما لم يكن صورة كيف يكون له فؤاد.

حذر امرئ نصرت يداه على العدا كالدهر فيه شراسة ولبان
متبرج المعروف عريض الندى حصر بلا منه فم ولسان

أي: يتعرض نداه للناس.

للجود من كلتا يديه محرك لا يستطيع بلوغه الإسكان

تحدث بنو نيبخت عن سليمان بن أبي سهل قال: لما قدم أبو نواس أشرنا عليه أن يمدح الرشيد فمدحه بهذه القصيدة، فأمر له بعشرين ألف درهم وهي أكثر صلة وصل بها أبو نواس المعان المنزل المألوف. وقوله: جمع الهوى من العبارات الفريدة التي بوجازتها وكثرة معناها يسميها أهل البديع الإشارة، وذلك أن معناها ربما اشتمل هذا المكان على ما تهواه النفوس من سعة العيش ونضرة الناحية ومساعدة الزمان بمودات الحسان وكثرة الحاضر حتى يمكن استغفال الرقباء ويخف عذل العذال، وقد نطق بهذه الكلمة قبله الغنوى في القصيدة السابقة حيث يقول: جمعن النوى حتى إذا اجتمع الهوى وقوله: ألفت منادمة الدماء الإضافة فيه لأدنى ملابسة أي: المنادمة على الدماء فإن الدماء بمنزلة المشروب والنديم هو

المؤانس على الشراب ومن غلب عليه شيء جرى على لسانه ألفاظه، وأبو نواس كان مدمنًا ولذلك وقعت منه الاستعارة في هذا الموضع وليست هنالك من الحسن، وقوله يمدحه أيضًا:

لقد طال في رسم الديار بكائي ... وقد طال ترددي بها وعنائي
كأني مريغ في الديار طريدة ... أراها أمامي مرة وورائي
فلما بدا لي اليأس عديت ناقتي ... عن الدار واستولى علي عزائي
إلى بيت حان ما تهر كلابه ... علي ولا ينكرن طول ثوائي

كان ينبغي أن يقال: حاني ويروى إلى بيت علج.

فما رمته حتى أتى دون ما حوت ... يميني حتى ريطتي وحذائي
وكأس كمصباح السماء شربتها ... على قبلة أو موعد بلقاء
أتت دونها الأيام حتى كأنها ... تساقط نور من فتوق سماء
ترى ظهرها من ظاهر الكأس ساطعًا ... عليك ولو غطبتها بغطاء
تبارك من ساس الأمور بعلمه ... وفضل هارونا على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إمام يخاف الله حتى كأنه ... يؤمل رؤياه صباح مساء
أشم طويل الساعدين كأنما ... يناط نجاد أسيفه بسلواء

أي: طويل كأن حمائل سيفه على رمح قال المبرد: ما علمت قائلا مدح خليفة فنسب بمثل هذا النسيب على أنه قد جد في المدح وبلغ المراد، ولقد كان الرشيد ممن يتحامى الإقرار بحضرته أو حيث يبلغه بذكر قبلة أو شرب كأس وما أشبه ذلك؛ لجلالته ونبل ملكه وبعده من احتمال السخف وما دنى منه، إلا أن أبا نواس كان ينسب في المدح

الجليل بالخمر الذي هو شأنه وفيه تصرفه وجل مذهبه، وتحدث عيسى بن عبد العزيز بن سهل الحارثي قال: كان الرشيد لا يسمع من الشعر ما فيه رفث ولا هزل وكان لا يذكر في تشبيبه مدحه قبلة ولا غمزة، فلما قدم أبو نواس من مصر امتدحه فأوصله البرامكة إليه فأنشده لقد طال في رسم الديار بكائي فلما بلغ وصفه للخمر تغير وجه الرشيد فلما قال: وكأس كمصباح السماء شربتها أراد أن يأمر به، فلما أنشده تبارك من ساس الأمور بعلمه أخذته هزة فأمر له بعشرين ألف درهم. وقوله: من الخمريات وذلك فنه الذي تميز به وفتح للشعراء بابه.

أثن على الخمر بآلائها ... وسمها أحسن أسمائها
لا تجعل الماء لها قاهرًا ... ولا تسلطها على مائها
كرخية قد عتقت حقبة ... حتى مضى أكثر أجزائها
فلم يكد يدرك خمارها ... منها سوى آخر حوبائها
دارت فأحيت غير مذمومة ... نفوس حراها وأنضائها
والخمر قد يشربها معشر ... ليسوا إذا عدوا بأكفائها

وقوله:

ساع بكأس إلى ناس على طرب ... كلاهما عجب في منظر عجب
قامت تريني وأمر الليل مجتمع ... صبحا تولد بين الماء والعنب
كأن صغري وكبري من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب
كأن تركا صفوفًا في جوانيها ... تواتر الرمي بالنشاب من كثب
من كف ساقيه ناهيك ساقية ... في حسن قد وفي ظرف وفي أدب
كانت لرب قيان ذي مغالبة ... بالكشخ محترف بالكشخ مكتسب
فقد رأت وودعت عنهن واختلفت ... ما بينهن ومن يهوين بالكتب

حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها | وأفعمت في تمام الجسم والقصب
وجمشت بخفي اللحظ فانجمشت | وجرت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم يـر إنسان لها شبهًا | فيمن يرى الله من عجم ومن عرب
تلك التي لو خلت من عيب قيمتها | لم أقض منها ولا من حبها أربي

يقول: لو قدرت عليها لم أشبع منها أبدًا ويروى: قضيت منها ومن وجد بها أربى تحدث محمد بن المظفر كاتب إسماعيل بن صبيح عن أسماعيل قال: قال لي الرشيد: أبغني وصيفة مليحة فطنة حركة مقدودة تسقيني، فإن الشراب يطب من يد مثلها فقلت: يا سيدي على الجهد فقال: اجعل قول هذا العيار أمامك واسترح قلت: قول من قال قول من يقول: من كف ساقية ناهيك ساقية إلى قوله بين الصدق والكذب وقوله:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي | ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر
ولا تسقين منها المرائين قطرة | لأن رياء الناس عندي هو الهجر
فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة | فإن طال هذا عنده قصر الدهر
وما الغبن إلا أن تراني صاحيًا | وما الغنم إلا أن يتعتعني السكر
فبح باسم من أهوى ودعني من | فلا خير في اللذات من دونها ستر
ولا خير في فتك بغير مجانة | ولا في مجون ليس يتبعه كفر
بكل أخي قصف كأن جبينه | هلال وقد حفت به الأنجم الزهر
وخمارة نبهتها بعد هجعة | وقد غابت الجوزاء وانحدر النسر
فقالت من الطراق؟ قلنا عصابة | خفاف الأداوى يبتغي لهم خمر
ولا بد أن يزنوا فقالت أو الفدا | بأبلج كالدينار في طرفه فتر
فقلنا لها هاتيه ما إن لمثلنا | فديناك بالإباء عن مثله صبر

فجاءت به كالغصن مهتز ردفه ... تخال به سحرًا وليس به سحر
له سنة كالبدر ليلة تمه ... مهفهف أعلى الكشح في ثغره أشر
فقمنا إليه واحدًا بعد واحد ... تجرر أذيال الفسوق ولا فخر

قال المبرد: سمعت سليمان بن أبي داود يقول: لما ملك الأمين قال أبو نواس: فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر، وكان الفضل بن الربيع سيئ الرأي فيه فأخبر الأمين يخبره وما شاع في العامة من تهتكه فأمر أن يحبس فمدح الفضل بن الربيع وقال فيه تلك الأشعار كلها بهذا السبب وتحدث أحمد بن الحارث عن المدائني قال: قال معاوية يومًا: ما اللذة؟ فأكثروا الوصف فقال عمرو بن العاص: نح الأحداث حتى أخبرك بها من فصها فنحوا فقال: هتك المروءة والمجاهرة بالخطيئة وأن لا تبالي قبيحًا من حسن، فقال أحمد بن الحارث: فقاتل الله أبا نواس حيث يقول: فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى وحيث يقول أيضًا: جريت مع الصبا طلق الجموح وقوله:

كيف النزوع عن الصبا والكاس ... قسن ذا لنا يا عاذلي بقياس
وإذا عددت سني كم هي لم أجد ... للشيب عذرًا في النزول براسي
قالوا شمطت فقلت ما شمطت يدي ... عن أن تحث إلى فمي بالكاس
صفراء زان رواءها مخبورها ... فلها المهذب من ثناء الحاسي
وكأن شرابها لفرط شعاعها ... بالليل يكرع في سنا مقباس
وألذ من أنغام خلة عاشق ... نالته بعد تعصب وشماس
فالراح طيبة وليس تمامها ... إلا بطيب خلائق الجلاس
فإذا نزعت عن الغواية فليكن ... لله ذاك النزع لا للناس

وقوله:

يـا شـقيق الـنفس مـن حكـم ... نمـت عـن ليلـى ولـم أنـم

فاسـقني البكـر التـي اختمـرت ... بخمـار الـشيب فـي الـرحم

ثمـت أنـصات الـشباب لهـا ... بعـدما جـازت مـدى الهـرم

فهـي لليـوم الـذي نزلـت ... وهـي تـرب الـدهر فـي القـدم

عتقـت حتـى لـو اتـصلت ... بلـسان نـاطق وفـم

لا احتبـت فـي القـوم ماثلـة ... ثـم قـصت قـصة الأمـم

قرعتهـا بـالمزاج يـد ... خلقـت للـسيف والقلـم

فـي نـدامى سـادة زهـر ... أخـذوا اللـذات مـن أمـم

فتمـشت فـي مفاصـلهم ... كتمـشي البـرء فـي الـسقم

فعلـت فـي البيـت إذ مزجـت ... مثـل فعـل الـصبح فـي الظلـم

فاهتـدى سـاري الظـلام بهـا ... كاهتـداء الـسفر بـالعلم

قوله: اختمرت بخمار الشيب قيل: أراد صفتها وهي في دنها حيث يعلوها شيء كالعنكبوت وقيل: أراد صفتها في ابتداء أمرها حيث كانت في العنب فإنه أول ما يظهر يكون عليه غطاء أبيض وهذا كلام من يرفع أبا نواس عن تناول المعاني القريبة. وقوله: إنصات أي أجاب من الصوت فهو مثل دعاء فاندعى. وقوله: ولو اتصلت بلسان أي: لو كانت شخصًا يتكلم لمثلت محتبية في القوم تحدثهم بإخبار القرون الأولى وقوله: فتمشت في مفاصلهم أخذ هذا المعنى من قول عربي يصف صائدًا:

فتمـشي لا يحـس بـه ... كتمـشي النـار فـي الـضرم

قال أبو نواس: كنت قلت: كتمشي النار في الفحم فقال لي رحمة بن نجاح: لو قلت كتمشي البرء في السقم فعدلت إليه وانتقاد من التقده بأنه أحال حيث جعل عرضًا يتمشى في عرض من التدقيقات الباردة التي لا تحتملها الصناعة الشعرية قال الجاحظ لما سمع أبو شعيب القلال: هذا البيت قال: ما أصفى هذا البيت ولو نقر لطن فتكلم من جهة صناعته، وهذا الباب من شعر أبي نواس يشتمل على ثلاثمائة قصيدة ومقطوعة وجميع شعره الذي استقصى جمعه حمزة بن الحسن الأصبهاني يبلغ ألفًا وخمسمائة قصيدة ومقطوعة تشتمل على ثلاثة عشر ألف بيت، ومن شعر مسلم بن الوليد وسأنقله مشروحًا كما وجدته لتمام الفائدة يحكى أن مسلمًا أرسل هذه القصيدة للممدوح فلما وافى الرسول ادعى أنها من شعره وكان الممدوح حين ابتدأ الرسول ينشد مضطجعًا فاعتدل إجلالًا لما سمع وعرف من فحوى الكلام أنه شعر مسلم فقال للرسول المدعي: أجلتك سنة لتعمل مثل هذه القصيدة، فاعترف أنها شعر مسلم فقال الممدوح: إنك حين أنشدت مطلعها رأيت كأن مسلمًا هو القائم ينشدني وكذلك متى كان الإنسان ذا دربة وتمام خبرة بشعر شاعر عرف ما لم يسمعه من شعره بما عرفه منه؛ لأن لكل شاعر في الكلام مذهبًا يخصه وطريقة لا يتعداها ومدح بها داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب:

لا تدع بي الشوق أني غير معمود   نهى النهي عن هوى الهيف الرعاديد

قوله: لا تدع بي الشوق أي: لا تدعني مشتاقًا ولا تقل أن بي شوقًا إلى أحد غير معمود أي: غير عاشق والمعمود المقروح القلب وأصله أن يصيب البعير داء في سنامه فيهيج عليه حتى ربما أخرجت منه العظام فاستعير ذلك للقلب والهيف الضامرات البطون والرعاديد المرتجات الأكفال والرعديد في غير هذا هو الجبان.

لو شئت لا شئت راجعت الصبا ... في العيون وفاتتني بمجلود

يقول: لو شئت لا جعلني الله أشاء ذلك راجعت الصبا ومشت فيَّ العيون أي: عيون النساء لعشقهن وفاتتني بمجلود أي: ذهبت بجلدي يريد أنه كان يصبو إليهن أيضًا:

سل ليلة الخيف هل أمضيت آخرها ... بالراح تحت نسيم الخرد الغيد

يقول: إنه شرب من أول الليلة إلى آخرها مع الغيد وهي الجواري الطوال الأعناق الناعمات يشتم رائحتهن والخيف أسفل الجبل مما يلي الوادي وأمضيت الشيء إذا أتيت عليه بالتنفيد:

شججتها بلعاب المزن فاغتزلت ... نسجين من بين محلول ومعقود

يقول: شججتها يعني الخمر أي: مزجتها فاغتزلت أي: اختلطت نسجين أحدهما محلول والآخر معقود يريد أن ما ولي الماء من الخمر في الكأس أسرع فيه الماء فحله وما ولى منها القاع بقي على حاله لم يحله الماء بعد. قال أبو نواس يصف خمر أمزجت في كأس:

حمراء صفراء الترائب رأسها ... فيه لما نسج المزاج قتير

يريد أن لونها حمراء وصفراء الترائب يريد قد اصفر أعلاها الذي سبق، والقتير الحباب وأصله الشيب.

كلا الجديدين قد أطعمت حبرته ... لو آل حي إلى عمر وتخليد

الجديدين: الليل والنهار والحبرة النعيم، وقوله: لو آل حي أي: لو صار حي باقيًا.

أهلًا بوافدة للشيب واحدة ... وإن تراءت بشخص غير مودود

أهلًا بوافدة أي: قادمة للشيب واحدة تراءت أي: اعترضت غير مودود أي: غير محبوب.

لا أجمع الحلم والصهباء قد سكنت نفسي إلى الماء عن ماء العناقيد

يقول: لا أجمع التكهل وشرب الخمر قد سكنت نفسي إلى الماء واستغنيت به عن الخمر أي: لا أشربها.

لم ينهني فتدعنها ولا كبر لكن صحوت وغصني غير مخضود

الفند: اللوم وغصني أي: شبابي والمخضود الواهب.

أوفى بي الحلم واقتاد النهى طلقًا شأوى وعفت الصبا من غير تفنيد

يقول: أوفى بي الحلم أي: وافقني واقتاد العقل طلقًا شأوى وعفت الصبا أي: تركت الصبا من غير تفنيد أي من غير تعذيل ولا لوم؛ وأصل وافقني لا يمنى وطلقا معدى إليه الفعل.

إذا تجافت بي الهمات من بلد نازعت أرضًا ولم أحفل بتمهيد

يقول: إذا تجافت بي الهمات عن بلدنا زعت بلدًا غيره ولم أبال بتمهيد أي: بإقامة ونازعت أي: قصدت.

لا تطبيني المنا عن جهد مطلب ولا أحول لشيء غير موجود

يقول: لا تطبيني المنا أي: لا تدعوني إلى أنفسها من جهد مطلب وقوله: لا أحول لشيء غير موجود أي: لا أطلب من الأمور غير الممكن الوجود.

ومجهل كاطراد السيف محتجز عن الإدلاء مسجور الصياخيد

يقول: ورب مجهل كاطراد السيف أي كتتابع السيف في الحدة محتجز عن الإدلاء مسجور الصياخيد من الحرور والمجهل القفر الذي لا يهتدى به.

تمشي الرياح به حسرى مولهة   حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

يقول: أي تمشي الرياح فيه حسرى أي كالة مولهة أي حزينة تلوذ بأكناف الجلاميد يريد أن ليس فيه شجر وإنما تجري الرياح على الحجارة فلا تجد غيرها، والأكناف النواحي واحدها كنف.

مفوف المتن لا يمضي السبيل به   إلا التخلل ريثا بعد تجهيد

يقول: إن ذلك المجهل مفوف المتن أي مخطط أخذًا من التفويف في القوائم وهو التخطيط؛ وذلك أن الأرض الرديئة فيها ضروب من الألوان. وقوله: لا تمضي السبيل به أي لا تقطع السبيل بها إلا التخلل وهو الاندخال في الأشياء المتضايقة ريثا بعد تجهيد أي: إبطاء بعد جهد والجهد التعب.

قرينه الوخد من خطارة سرح   تفري الفلاة بأرقال وتوخيد

يقال: قريته الوخد أي: هذا الضرب من السير أي من ناقة محركة لذنبها سرح خفيفة، والأرقال والتوخيد ضربان من السير.

إليك باردت إسفار الصباح بها   من جنح ليل رحيب الباع ممدود

يقول: إليك باردت أي: سابقت أسفار الصباح أي ابتلاج الصباح من جنح أي من ظلام ليل رحيب الباع أي: واسع الباع ممدود أي: مطول أي: أتيتك قبل الصبح.

وبلدة ذات غول لا سبيل بها   إلا الظنون وإلا مسرح السيد

يقول: ورب بلدة بعيدة لا طريق بها إلا الظنون أي: تظن طريقًا وإلا مسرح السيد أي: وإلا حيث بسرح الذئب.

كــأن أعلامهـــا والآل يركبهـــا بـدن تـوافي بهـا نـذر إلـى عيـد

الأعلام الجبال يقول: كأن جبال تلك الفلاة والآل يركبها نوق بدن توافى بها نذر إلى عيد أي: جلبها نذر إلى النحر بمكة يوم العيد كان رجلا نذر أن ينحر نوقًا بمكة فقدمها لذلك وقد ألقى عليها الملاحف فشبه صريح الجبال وقد التحفت في الآل الأبيض بها.

كلفـــت أهوالهـــا عينًـــا مؤرقـــة إليـك لـولاك لـم تكحـل بتسهيد

يقول: كلفت تلك الفلاة عيني فسهرت ولولاك أنت لم تسهر الأرق السهر.

حتـى أتتـك بـي الآمـال مطلعًـا لليسر عنـدك فـي سربال محسود

يقول: حتى بلغتني إليك الأمال مطلعًا لليسر في سربال محسود أي: لما قصدتك حسدني الناس لعلمهم بأنك تغنيني.

من بعد ما ألقت الأيام لي عرضًا ملقى رهين لحد السيف مصفود

لي عرضًا أي: جانبًا ملقى رهين أي أسير قد حبس للقتل مقدم لحد السيف مصفود أي: موثق بالحديد وإنما يصف نفسه أنه بقى من أضرار الدهر به في مثل حال الأسير المقدم للسيف.

وساورتني بنـات الـدهر فامتحنـت ربحــي بممحلـة شـهباء جـارود

يقول: ساورتني بنات الدهر أي واثبتني فامتحنت ربعي أي: منزلي بسنة ممحلة: أي ذات محل وانجراد من النبات.

إلــى بنــي حــاتم أدى ركائبنــا خوض الدجى وسرى المهرية القود

يقول: إلى بني حاتم بلغ ركائبنا خوض الدجى أي: قطع الليل وسرى المهرية القود السري وخوض الدجى واحد ولكنه كرر اللفظ لاختلافه والمهرية منسوبة إلى مهرة وهو حي من همدان والقود جمع قوداء:

تطـوى النهـار فـإن ليـل تخمطهـا باتــت تخمــط هامــات القراديــد

يقول: تطوى النهار بالسير أي: تقطع فإن ليل صال عليها صالت على هامات القراديد وهي جمع قردد وهو المرتفع من الجبال، وأصل التخمط تعرم البعير الفحل وتصعب يريد: إذا اشتد عليها سير الليل لم تبال به مع ما قد مضى عليها من طول السفر.

مثــل الـسمام بعيــدات المقــال إذا ألقى الهجير يدًا في كـل صيخود

يقول: إن النوق مثل السمام في السرعة إذا اشتد عليها الهجير وهيج كـل صيخود، والصيخود شدة الحر والسمام طائر يشبه القطا بعيدات المقيل أي: لا تقيل هذه النوق.

حلــت بــداود فامتاحــت وأعجلهــا حــذو النعــال علــى أيــن وتحريــد

يقـول: حلـت هـذه النوق بـداود أي: نزلـت بـه فامتاحـت عطايـاه أي أخذت والامتياح استقاء الماء من البئر بالأحفان فشبه أخذ أحفان المال من داود بأخذ المانح الماء بأحفانه وأعجلها حذو النعال أي: لما أخذوا المال منه استعدوا إبلهم للرجوع وهي لم تسترح من الكلل وصفه بسرعة العطاء عند حلولهم به من غير مطل والأين الفترة والتحريد من الحرد؛ وهو داء يصيب الإبل في قوائمها.

أعطـى فـأفنى المنـى أدنـى عطيتـه وأرهـق الوعـد نجمًـا غيـر منكـود

يقول: أعطى داود فأفنى المنى منى الذين قصدوه أدنى عطيته أي: أقل عطاياه كان أعظم من كل ما انتهى إليه أملهم وأرهق الوعد أي: اتبع الوعد بالفعل من ساعته من غير ضيق، والنجح انقضاء المطلب أو إدراكه.

والله أطفأ نار الحرب إذ سعرت شرقًا بموقدها في الغرب داود

يقول: الله أطفأ نار الحرب في الشرق بداود الذي أوقدها في الغرب على أهل العصيان، يريد: لما رأى أهل الشرق ما فعل داود بأهل الغرب من النكاية استقاموا على الطاعة.

لم يأت أمرا ولم يظهر على حدث إلا أعين بتوفيق وتسديد

يقول: لم يأت أمرًا من الأمور ولا حدثًا يحدثه إلا أعانه الله عزَّ وجلَّ عليه والتوفيق التقويم للخبر والتسديد أن يدل به إلى الصواب.

موحد الرأي تنشق الظنون له عن كل ملتبس منها ومعقود

موحد الرأي أي: رأيه واحد لا يختلف عليه كما قال الحسن:

ولم تك نفسه نفسين فيه فيفصل بين رأييه مشير

يريد أنه إذا دبر أمرًا انكشف له عن القين الملتبس المتشابه.

تمنى الأمور له من نحو أوجهها وإن سلكن سبيلًا غير مورود

تمنى الأمور له أي تيسر من طريق صوابها واستقامتها وإن سلكن سبيلًا غير معمور، والسبيل الطريق يريد أنه مبخوت فكيفما تولى الأمور هيأها الله عزَّ وجلَّ له.

إذا أباحت حمى قوم عقوبته غادى له العفو قومًا بالمراصيد

يقول: إذا أوقع بقوم عقوبته فأباح حماهم للغارة غادي له العفو قومًا بالمراصيد يريد: كان العفو كان لهم مرتصدا فأسقط ذنبهم يقول: إذا قتل قومًا استحتموا القتل عفى عن آخرين استحقوا القتل بعد أن قد قدر عليهم أي: بقدر على العفو والعقوبة وأنه يأخذهما على ما أراده بهم.

كالليث بل مثله الليث الهصور إذا غنى الحديد غناء غير تغريد

يقول: هو كالليث في النجدة والليث مثله إذا اشتدت الحرب وطننت السيوف للمضاربة والهصور البتور.

يلقى المنية في أمثال عدتها كالسيل يقذف جلمود بجلمود

يقول: يلقى الحرب في مثل عدتها فيدفع المنايا بالمنايا كما يدفع السيل جلمود بجلمود آخر ينطحه فيزيله به.

إن قصر الرمح لم يمش الخطا عددًا أو عرد السيف لم يهمم بتعريد

يقول: إن قصر الرمح عن إدراك من أراد يطعنه به لم يمش الخطا تباطيًا كمثل من يعد خطاه بل يسرع هو عند ذلك ولم يهمم بتعريد أي: إن نبا السيف عن الذي ضربه به يريد أنه ماض متقدم إلى صاحبه وأن قصر رمحه مده بباعه عرد السيف إذا لم يقطع.

إذا دعى بلداد اني متأهله وأن بنين على شحط وتبعيد

يقول: إذا أحرز بلدًا أمنه فتقاربت مناهله وهي منازل الرفاق على الماء يريد أن الرفاق تنزل حيث شاءت في القفار لا تخاف شيئًا وفي الخوف لا تنزل وإن كانت المناهل بنين على شحط وهو البعد.

جرى فأدرك لمْ يعنف بمهاته واستودع البهر أنفاس المجاويد

يقول: جرى هذا الرجل في المجد ولم يعنف بمهلته أي: ولم يسرف على نفسه بالتعب في الجري، وقد تقدم غيره وهذا مثل ضربه يريد أنه تقدم الرجال في المجد بغير جهد وهم قد اجتهدوا جهدهم فكيف إذا اجتهد هو جهده كله والبهر الكلل. وقوله: استودع البهر أي: أنزله بهم والأنفاس الإطلاق من الجري واحدها نفس، والمجاويد الصراع من الخيل واحدها مجواد.

آل المهلب قوم لا يزال لهم رق الصريح وأسلاب المذاويد

رق الصريح استعباد الحر بإسداء النعم وتقديم الأيادي الحسان إليهم وأسلاب المذاويد الحرب يعني الأنجاد وأحدهم مذود.

مظفرون تصيب الحرب أنفسهم إذا الفرار تمطي بالمحاييد

يقول: أولئك القوم منصورون ومع ذلك تصيب الحرب أنفسهم إذا الفرار تمطي بالمحاييد والمحاييد الجبناء واحدهم محباد يريد أنهم يقفون حتى يقتلوا إذا هرب غيرهم.

نجل مناجيب لم يعدم تلادهم فتى يرجى إلى نقض وتوكيد

يقول: هم نجل مناجيب أي: ذرية مناجيب يريد أن بيتهم بيت نجابة لم يخل قط من أشراف ينقضون من الأمور ما أحبوا أو يعقدون منها ما أحبوا والنجل الذرية قال زهير: وكل فحل له نجل أي: كل فحل يشبهه نسله أي: يخرج الولد عتيقًا كأبيه وتلادهم أصلهم القديم.

قوم إذا هدأت شامت سيوفهم فإنها عقل على الكوم المقاحيد

الهدأة الفترة يقول: أولئك قوم إذا كانت صلح وهدنة شامت سيوفهم أي: أغمدتها فإنهم يعرقبون بها الإبل لأضيافهم بريد أنهم يقاتلون بها في

الحرب، وإذا كان في الصلح كان شغلهم إطعام الأضياف يقال: شمت السيف إذا أغمدته وشمته إذا سللته هو من الأضداد والعقل جمع عقال وهو حبل يعقل به البعيرة فشبه السيوف بها والكوم الغلاظ الأسمنة والمقاحيد كذلك وإحدها مقحاد.

نفسي فداؤك يا داود إذ علقت أيدي الردى بنواصي الضمر القود

الضمر جمع ضامر والقود جمع أقواد يريد الخيل يقول: نفسي فداؤك في الحرب إذا اشتد القتل في الناس أي: نفسي فداؤك في ذلك الوقت أي ما أشجعك حينئذ.

داويت من دائها كرمان وانتصفت بك المنون لا قوام مجاهيد

يقول: داويت من دائها كرمان وهي بلد نافق أهلها على أمير المؤمنين فقتلهم حتى رجع من بقي منهم إلى الطاعة. وقوله: انتصفت بك المنون أي: انتصفت بك المنية من الأشرار لهؤلاء الضعفاء الذين قد بلغهم الجهد لتضييق الأشرار عليهم والمجهود الذي بلغه الجهد والجهد سوء الحال.

ملأتها فزعًا أخلى معاقلها من كل أبلخ سامى الطرف صنديد

يقول: كرمان ملأتها خوفًا من فعلك بهم أخلى ذلك الخوف معاقلها وهي الجبال من كل أبلخ وهو المتكبر سامي الطرف أي: مرتفع الطرف من العز صنديد سيد.

لما نزلت على أدنى بلادهم ألقى إليك الأقاصي بالمقاليد

لمستهم بيد للعفو متصل بها الردى بين تليين وتشديد

المقاليد المفاتيح وإنما ضربه به مثلًا يقول: لما نزلت بأول بلدهم تبرأ إليك أقصاهم بما بيده من الملك. وقوله: لمستهم بيد أي: عفوت عنهم وقد اتصل بهم الردي.

أتيتهم من وراء إلا من مطلعا بالخيل تردى بأبطال مناجيد

يقول: جئتهم من وراء إلا من أي: دخلت عليهم في بلد لم يظنوا أن يدخله أحد من المسلمين لقتالهم مطلعًا ظاهرًا والخيل تردى أي: تجرى بأبطال مناجيد أي أعزاء.

وطار في إثر من طار الفرار به خوف يعارضه في كل أخدود

في كل أخدود يريد في كل طريق والأخدود الخدش في الأرض كالخندق صغر أم كبر يقول: وطار في إثر من طار أي: أسرع في إثر من أسرع في الهرب يريد: أن الخوف لا يفارقه.

فأتوا الردى وظبأة الموت تنشدهم وأنت تصب المنايا غير منشود

يقول: أفلتوا من الموت وظبأة الموت تنشدهم أي: تطلبهم وأنت منصوب للمنايا لا تستتر عنها غير منشود غير مطلوب.

ولو تلبث ديان لها رويت منه ولكن شاءها عدو مزؤود

يقول: لو تلبث هذا الرجل رويت تلك الظباة من دمه ولكن شاءها أي: سبقها بالهروب فنجي منها وهو مزؤود أي: مرعوب.

احرزه أجل ما كاد يحرزه فمر يطوي على أحشاء مفؤود

يقول: احرز ديان أجله ولم يكد يحرزه من الموت فهرب وهو يستر أحشاء مفؤود، والمفؤود الذي أصيب فؤاده يقال: فأدت الرجل إذا أصبت فؤاده فهو مفؤود.

ورأس مهران قد ركبت قلته لدنا كفاه مكان الليت والجيد

يقول: وقد جعلت رأس هذا الرجل في قناة قامت له مقام العنق والقلة على الرأس والليت صفح العنق والجمع أليات.

قد كان في معزل حتى بعثت له أمّ المنية في أبنائها الصيد

يقول: قد كان هذا الرجل في معزل عن الهلاك حتى بعثت له المنية في الفرسان الصيد وهم الأشراف وقال: أما على الاستعارة وإنما أخذ من الصيد وهو داء يأخذ الإبل في أعناقها فترفع رءوسها.

أجن أم أسلمته الفاضحات إلى حد من السيف من يعلق به يود

يقول: أجن ديان أي: هل أصابه الجنون أم أسلمته الفاضحات وهي الأماني التي غرته ففضحته حين خرج إليك فتركته إلى حد السيف ومن يعلق به يود أي: يهلك.

ألحقته صاحبيه فاستمر بهم ضرب يفرق ضبات القماحيد

يقول: فعلت بديان ما فعلت بصاحبيه قبله فاستمر بهم ضرب من السيف يفرق الضبات يعني أوصال الراس والقمحدودة العظم الناتئ في مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس.

أعذر من فر من حرب صيرت لها يوم الحصين شعار غير مجحود

يقول: من فر من ذلك اليوم الذي صبرت أنت فيه جاء به يعذر عليه، والحصين رجل برز هذا الممدوح إليه فأهزمه والشعار العلامة في الكلام الذي يتعارف الناس به في القتال.

يوم استضبت سجستان طوائفها عليك من طالب وترا ومحقود

يقول: يوم استضبت سجستان طوائفها أي: أغرت طوائفها وهي الجماعات أخذه من الضب وهي العداوة كأنهم قالوا: احموا بلدكم واذكروا من قتل منكم واحتموا لأنفسكم وقوله: من طالب وترا ومحقود أي: بعضهم يطلب وترًا وبعضهم يطلب حقدًا، والوتر الطلب بالدم والحقد العداوة.

ناهضتهم ذائد الإسلام تقرعهم عنه ثلاث ومثنى بالمواحيد

ناهضتهم يعني أهل سجستان تذود عن الإسلام فتلقى منهم ثلاثة رجال ورجلين وتقرعهم تضربهم والمواحيد جمع موحدة.

تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

يقول: تجود بنفسك في الحرب إذ أنت الضنين بها في السلم والجود بالنفس أكثر من الجود بالمال.

تلك الأزارق أنضل الدليل بها لم يخطها القصد من أسياف داود

يقول: تلك الأزارق أنضل الدليل بهم الذي قادهم إلى الكفر لم يخطها أسياف داود إذ قصدت إليهم.

كان الحصين يرجى أن يفوز بها حتى أخذت عليه بالأخاديد

يقول: كان هذا الخارجي يطمع أن يفوز بها حتى أخذت عليه بأفواه الطرق فلم تدعه يقوى.

مـا زال يعنـف بـالنعمى ويغمطهـا حتـى استقل بـه عـود علـى عـود

يغمطها أي: يكفرها ويعنف أي يسرف ويجاوز الحق حتى صلبته.

وضـعته حيـث ترتـاب الريـاح بـه وتحـسد الطيـر فيـه أضـبع البيـد

يقول: جعلته في مكان تبلغ الطير ولا تبلغه الضبع فتحسد الطير.

تغـدو الـضواري فترميـه بأعينهـا تستنـشق الجـو أنفاسًـا بتـصعيد

يقول: تنظر إليه في الخشبة السباع الضارية بأكل اللحم فترفع رءوسها إليه فتستنشق رائحته.

يتـبعن أفيـاءه طـورًا وموقعـه يلغـن فـي علـق منـه وتجـسيد

يقول: تأتي هذه الضارية فتمشي حيث يمشي ظله ويلعقن ما سقط من صديده ودمه والجسد الدم.

فكـان فـارط قـوم حـان مكـرعهم بـأرض زاد أن شـتى فـي المواريـد

الفارط المتقدم القوم إلى الماء ليطلع أكثير هوام قليل فضربه مثلًا للحصين وأصحابه الذين اتبعوه إلى مكان هلكوا معه ومكرعهم شربهم الموت.

يـوم جراشـة إذ شـيبان موجفـة ينجـون منـك بـشلو منـه مقـدود

يقول: يوم جراشة إذ شيبان موجفة أي: سريعة تهرب وشيبان قبيلة وجراشة رجل يقول: يهربون بشلو أي: جسد بلا رأس قد قدد أي: قطع بالسيف.

زاحفته بابن سفيان فكان له ثناء يوم بظهر الغيب مشهود

ابن سفيان رجل من أصحاب الممدوح يقول: ناهضته بهذا الرجل فكان له ثناء عرفه من غاب كأنه شهده.

نجا قليلًا ووافى زجر عائفه بيومه طير منحوس ومسعود

يقول: نجا قليلًا أي: مهزوما في يوم كان منحوسًا على جراشة ومسعودًا على داود، والعائف الذي يزجر الطير أي: يفهمها في خطورها وطيرانها.

ولى وقد جرعت منه القنا جرعًا حي المخافة ميتًا غير موؤد

يقول: هرب هذا الرجل وقد شربت الرماح في دمه حين طعن بها غير موؤد أي: غير مدفون.

زالت حشاشته عن صدر معتدل داني الكعوب بعيد الصدر أملود

يقول: نجت بقية نفسه عن صدر رمح معتدل أصابه أملود أملس.

إذا السيوف أصابته تقطع في سرادق بحوامي الخيل ممدود

يقول: إذا السيوف أصابته تقطع بدنه منها، ويعني بالسرادق الغبار الذي أثارته حوافر الخيل.

يفدى بما نحلته من خلافته حشاشة الركض من جرداء قيدود

يفدي بقية قوة فرسه في الجري بخلافته يعني أنه يقول لفرسه: انج فدتك خلافتي، والجرداء القصير الشعر.

حل اللواء وخال الخدر عائذه فعاذ بالخدر ترب الكاعب الرود

يقول: لما قهر الرئيس من الأمراء حل اللواء وهو العقدة التي في الفتاة فظن الخدر عائده أي: منجيه أي: إذا كان بين النساء لم يطلب بعد يعد نفسه من النساء.

وإن يكن شبها حزبا وقد خمدت فنائيا حيث لا هيد ولا هيد

يقول: فإن يكن شب الحزب حربًا وقد خمدت قبل ذلك فقد بعد بحيث لا يرى عمرانًا ولا يسجع فيه هيدًا ولا هيد، وهي كلمتان يزجر بهما الإبل.

كل مثلت به في مثل خطته قتلًا وأضجعته في غير ملحود

يقول: كل مثلت أي جزيته بمثل فعله قتلًا وأضجعته في غير ملحود أي: تركته في الضحى قتيلًا.

عافوا رضاك فعاقتهم بعقوتهم عن الحياة مناياهم لموعود

يقول: عافوا رضاك أي: كرهوا رضاك وعاقتهم مناياهم أي: منعتهم الحياة بعقوتهم أي بفنائهم لموعود أي: لأجل.

وأنت بالسند إذ هاج الصريخ بها واستنفدت حربها كيدًا لمكاييد

الصريخ المستغيث والمستنصر واستنفدت حرب السند كيدًا لمكاييد أي: فرغت تلك الحرب بكيد كل مكايد حتى عجزوا عنها وانقطع كيدهم فيها.

واستغزر القوم كأسًا من دمائهم وأحدق الموت بالكرار والحيد

يقول: استغزر القوم أي شرب بعضهم دماء بعض يريد قتل بعضهم بعضًا وأحدق الموت بالكرار والحيد الكرار في الحرب الذين يكرون فيها

والحيد المنهزمون يقول: لم ينفع عنك المنهزم انهزامه لإحاطة الحرب به، والحيد جمع أحيد.

رددت أهمالها القصوى مخيسة وشمت بالبيض عورات المراصيد

أهمالها أي: صعبها والأهمال جمع همل وهو الشيء المسيب وأصله في البهائم التي ليس لها راع فهي صعبة يقول: رضت صعبها يعني: الحرب مخيسة أي مذللة. وقوله: شمت بالبيض يقول: قتلت الأنجاد فشمت عورتاتهم أي تركت عوراتهم بادية في الضح من غير ستر.

كنت المهلب حتى شك عالمهم ثم انفردت ولم تسبق بتسويد

يعني المهلب بن أبي صفرة وكان جد الممدوح يقول: قمت في تلك الحرب مقام المهلب حتى ظن عالمهم أنك المهلب ثم انفردت بخصالك في هذه الحرب حتى تبينت للناس وعرف أنك داود.

لم تقبل السلم إلا بعد مقدرة ولا تالفت إلا بعد تبديد

يقول: لم تقبل السلم من أهل السند إلا بعد ما قدرت عليهم ولا جمعتهم إلا بعد تبديد أي: بعد ما بددتهم بالحرب والإيقاع بهم والقتل.

حتى أجابوك من مستأمن حذر راج ومنتظر حتفًا ومثمود

يقول: حتى أجابوك بعضهم يطلب منك الأمان ويحذر سطوتك وبعضهم مثمود أي: لم يبق من أجله إلا قليل يعني الجرحى.

أهدي إليك على الشحناء ألفتهم موت تفرق في شتى عباديد

العباديد المتفرقون يقول: أهدي الموت إليك ألفتهم مع العداوة التي بينك وبينهم.

وفـي يـديك بقايـا مـن سـراتهم هـم لـديك علـى وعـد وتوعيـد

يقول: وفي يديك بقايا من سراتهم أي: إشرافهم يرجونك ويخافونك لأنك أخذتهم على غير عهد.

إن تعف عنهم فأهل العفو أنت وإن تمـض العقـاب فـأمر غيـر مـردود

يقول: إن تعف عنهم فأنت أهل للعفو وإن قتلتهم فأمرك نافذ.

اسـمع فإنـك قـد هيجـت ملحمـة وفـدت منهـا بـأرواح الـصناديد

يقول: اسمع مدحي لك فقد هيجت ملحمة رجعت منها بأرواح أهل السند.

اقـذف أبـا مالـك فيهـا يكنـك بهـا ويـسع فيهـا بجـد منـك مجـدود

أبا مالك ولده يقول له: ألق ولدك في الحرب يقم مقامك فيها بجد أي: يبخت مجدود أي مبخوت.

يمضي بعزمك أو يجرى بشأوك أو يفـرى بحـدك كـل غيـر محـدود

الشأؤ الطلق يفري يقطع والحد هاهنا النجدة.

لا يعد منك حمى الإسلام من ملك أقمـت قلتـه مـن بعـد تأويـد

يقول: لأفقدك حمى الدين فإنك قد حميته وأقمت قلته بعد تأويد وهو الميل أي: كان مال فقومته.

كفيت في الملك حتى لم يقف أحد علـى ضـياع ولـم يحـزن لمفقـود

يقول: كفيت بالملك حتى لم يقل أحد: يا حسرتاه على فلان ما كان أحماه ولم يقف أحد على ضياع أي: حمدوك.

أعطيتهم منك نصحًا لا كفاء له وأيدوك بركن غير مهدود

يقول: أعطيت بني العباس نصحًا منك لإقبال له وأيدوك هم بركن غير مهدود أي: غير منهدم.

لم يبعث الدهر يومًا بعد ليلته إلا انبعثت له بالباس والجود

أجرى لك الله أيام الحياة على فعل حميد وجد غير منكود

يريد: جعل الله لك أيام حياتك مباركة لا تفقد فيها فعلًا محمودًا وبختًا صاعدًا.

لا يفقد الدين خيلًا أنت قائدها يعهدن في كل ثغر غير معهود

غير معهود يريد أنه يغزو إلى العدو بمواضع لم يدخلها أحد.

محملات إذا آبت غنائمها ومقدمات على نصر وتأييد

يريد هذه الخيل إذا رجعت محقبات وإذا مضت هي منصورة ومؤيدة من الله عزَّ وجلَّ.

هناك أنك مغدى كل ملتمس جود أو أنك مأوى كل مطرود

يقول: من طلب جود أفعندك يجده ومن طرده أهله فأنت تأويه وتجيره عمن يطلبه.

تستأنف الحمد في دهر أوائله موسومة بفعال منك محمود

تستأنف الحمد أي: تبتدئه في دهر أوائله موسومة بفعالك الجميلة المحمود التي تحمد عليها.

إذا عزمت على أمر بطشت به وإن أنلت فنيلًا غير تصريد

يقول: وإن أنلت أي: أعطيت عطاء غير قليل.

عودت نفسك عاداتٍ خلقت لها صدق الحديث وإنجاز المواعيد

الإنجاز تنفيذ الوعد بالوفاء والمواعيد جمع موعود.

داود هذا الذي امتدحه مسلم بهذه القصيدة الفريدة كان أحد قواد الرشيد، ولفظ القائد في ذلك العصر كان لقبًا لأمراء العسكر وأهل بيت هذا الممدوح إلى المهلب كانوا في تلك الوظيفة لملوك أعصرهم، فكان المهلب رضي الله عنه أحد التابعين وأبوه أبو صفرة أحد الصحابة رضي الله عنه متوليًا رياسة العسكر العراقي لعبد الملك بن مروان في إمارة الحجاج، وإذا عرفت أن الممدوح كان أمير عسكر فعليك أن تتأمل الشعر لتعرف كيف يمدح مثله دون ما إذا كان الممدوح ملكًا أو كاتبًا أو جابي خراج مثلًا، فلكل كلام يخصه ومعان تناسبه كما تراه فيما تطلع عليه من القصائد في الأغراض المختلفة، وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي يمدح أمير المؤمنين المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد، وكان أشجع أولاد الرشيد غريب الفصاحة والفهم على أميته، فإنه لم يقرأ كما قرأ إخوته، وسبب هذه القصيدة أن أحد أصحاب الأخبار للمعتصم ورد عليه يومًا وهو في مجلس شرابه فأخبره أن بقرية من قرى عمورية أسيرة هاشمية أضرَّ بها من هي في يده فنادت: وامعتصماه، فقال لها: سيأتيك المعتصم على فرس أبلق يهزأ بها فقال المعتصم عند سماع ذلك: لبيك لبيك، وأمر ساقيه أن يختم على الكأس الذي كان معه لمناولته إياه وحلف أنه لا يشربه إلا بعد إنقاذ الأسيرة وأمر أن يجهز الجيش بخيل بلق ولما صمم على الخروج من فوره قال له المنجمون: إن هذه الساعة لا تصلح للخروج وأبدوا حجتهم في ذلك فلم يصغ لهم وكان الفتح

والسعادة على خلاف حكم المنجمين، فذلك ما يشير له أبو تمام في أول القصيدة وكان أصحاب عمورية يقولون بحكم تنجيمهم أنه إذا جاء المعتصم بجيشه في هذه الأيام ولم ينتصر قبل نضج التين والعنب فإنه لا ينتصر بعد ولا تفتح البلد أبدًا، وكانوا لذلك يحاولون تأخير الحرب حتى تمضي تلك المدة فعاجلهم وفتح البلد قبله، ولذلك الإشارة بقوله: تسعون ألفًا كآساد الشرى البيت وبعض من لم يطلع على هذا عاب أبا تمام بهذا البيت في هذه القصيدة قائلًا: إن لفظه من الألفاظ المبتذلة الساقطة ولما أنشد هذه القصيدة طلب المعتصم طر بابها إعادة إنشادها فأعاده وأنشدها ثالثة من نفسه فقال: إلى متى تجلو هذه العروس وأمر بعد أبياتها وأجازه لكل بيت بألف رحمهم الله تعالى.

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف ... متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصًا وأحاديثًا ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

النبع والغرب والشوحط ثلاثة أنواع لجنس واحد من الشجر فما نبت منه في أعلى الجبل يسمى نبعًا وهو أصلبها لجفاف الهواء هناك وتعرضه للشمس والغرب ما في وسط الجبل والشوحط ما في أدناه وهو أضعفها لمكان زيادة الرطوبة هناك ومن النبع تعمل القسيّ:

عجائبًا زعموا الأيام مجفلة ... عنهنَّ في صفر الأصفار أو رجب

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وصيروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلبًا أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب

لو بينت قط أمرًا قبل موقعه ... لم يخف ما حل بالأوثان والصلب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الحرب في صبب

أم لهم لو رجوا أن تفتدي جعلوا ... فداءها كل أم برة وأب

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها ... كسرى وصدت صدودًا عن أبي

من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد ... شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

بكر فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقت إليها همة النوب

حتى إذا مخض الله السنين لها ... مخض الحليبة كانت زبدة الحقب

أتتهم الكربة السوداء سادرة ... منها وكان اسمها فراجة الكرب

جرى لها الفال نحسًا يوم أنقرة ... إذ غودرت وحشة الساحات

لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب

كم بين حيطانها من فارس بطل ... قاني الذوائب من آني دم سرب

بسنة السيف والخطي من دمه ... لا سنة الدين والإسلام مختضب

لقد زكت أمير المؤمنين بها ... للنار يومًا ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ضوء مسن النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبة من ذا ولم تجب

تصرح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهر جنب
لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك علي ... بان بأهل ولم تغرب على عزب
ما ربع مية معمورًا يطيف به ... غيلان أبهى ربى من ربعها الخرب
ولا الخدود وإن أدمين من خجل ... أشهى إلى ناظري من خدها الترب
سماجة غنيت منا العيون بها ... عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه ... جاءت بشاشته عن سوء منقلب
لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت ... له المنية بين السمر والقضب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتهب
ومطعم النصل لم تكهم أسنته ... يومًا ولا حجبت عن روح محتجب
لم يغز قومًا ولم ينهض إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلًا يوم الوغا لغدا ... من نفسه وحدها في جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب
من بعدما أشبوها واثقين بها ... والله مفتاح باب المعقل الأشب
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدد ... للسارحين وليس الورد من كثب
أمانيا سلبتهم نجع هاجسها ... ظبى السيوف وأطراف القنا السلب
إن الحمامين من بيض ومن سمر ... دلو الحياتين من ماء ومن عشب
لبيت صوتا بطر يا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
عداك حر الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلنًا بالسيف منصلتًا ... ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منقعرًا ... ولم تعرج على الأوتاد والطنب
لما رأى الحرب رأى العين توفلس ... والحرب مشتقة المعنى من الحرب

غــدًا يــصرف بــالأموال خزيتهــا ... فعــزه البحــر ذو التيــار والعيــب

هيهات زعزعت الأرض الوقور به ... عن غزو محتسب لا غزو مكتسب

لـم ينفـق الـذهب المربـي بكثرتـه ... على الحصى وبه فقر إلى الذهب

إن الأسـود أسـود الغـاب همتهـا ... يـوم الكريهـة فـي المـسلوب لا

ولـي وقـد الجـم الخطـى منطقـه ... بسكتة تحتها الأحشاء في صخب

أحسى فرا بينه صرف الردى ومضى ... يحتـث أنجـى مطايـاه مـن الهـرب

مـــوكلًا بيفـــاع الأرض يـــشرفه ... من خفة الخوف لا من خفة الطرب

أن يعد من حرها عدو الظليم فقد ... أوسعت حاجها من كثرة الحطب

تسعون ألفًا كآساد الشرى نضجت ... جلـوده قبـل نـضج التـين والعنـب

يـا رب حوبـاء لمـا اجتـث دابـرهم ... طابـت ولـو ضـمخت بالمسك لـم

ومغضب رجعت بيض السيوف به ... حي الرضا عن رداهم ميت الغضب

والحـرب قائمـة فـي مـأزق لجـب ... تجثوا الرجال به صغرًا على الركب

كـم نيل تحت سناها من سنا قمر ... وتحت عارضها من عارض شنب

كم كان في قطع أسباب الرقاب بها ... إلـى المخـدرة العـذراء مـن سـبب

كـم أحرزت قضب الهندي مصلتة ... تهتـز مـن قـضب تهتـز فـي كثـب

بــيض إذا انتــضيت مــن حجبهــا ... أحـق بـالبيض أيـدانا مـن الحجـب

خليفـة الله جـازى الله سـعيك عـن ... جرثومة الـدين والإسلام والحسب

بـصرت بالراحـة الكبـرى فلـم ترهـا ... تنـال إلا علـى جـسر مـن التعـب

إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصـولة أو ذمـام غيـر منقـضب

فبـين أيامـك اللائـي نـصرت بهـا ... وبـين أيـام بـدر أقـرب النـسب

أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

وقال عبد العزيز بن نباتة السعدي وهو أحد أشياخ الشريف الرضي يمدح عضد الدولة وتاج الملة ابن بويه في النيروز وكان قد احتفل في جلوسه سنة سبع وستين وثلاثمائة، وكانوا يتخذون هذا اليوم وهو يوم حلول الشمس في الميزان موسمًا عيديًا على السنن القديم في العجم وكذلك كانوا يتخذون يوم حلول الشمس في الحمل ويسمى المهرجان:

ستعلم أي الفايتين أريد ... فإن الهويا للرجال قيود
أحب من الفتيان كل غشمشم ... له شيع من نفسه وعديد
ينهنهه الأعداء وهو مصمم ... هجوم على ما يكرهون ورود
يخاطر في حب الثناء بنفسه ... وهل لغلام في الزمان خلود
ومولى أداري طيشه وهو نافر ... أزب كأنبوب اليراع شرود
أكابد منه غصة ما يسيغها ... من القوم الأحازم وجليد
يعين عليَّ الخصم لا يستعينه ... وأدفع عن حوبائه وأذود
إذا ما رأيت الرمح يعسل نحوه ... تعرض نحر دونه ووريد
وقلت تعلم أن كل فضيلة ... لها كاشح من أهلها وحسود
وأن نواميس الرجال قديمة ... توارث عاد مكرها وثمود
ولكن تاج الملة اليوم حلها ... على الدهر حتى ليس فيه عقود
فتى هجر اللذات والعيش مونق ... رقيق حواشي الطرتين برود
وقاسى بديعات الأمور بنفسه ... إلى أن علاه الشيب وهو وليد
له كل يوم فكرة عضدية ... يصرف وعد بينها ووعيد
ترحل فيها للفعال عزائم ... وتنزل فيها للهموم وفود
وفضله حزم وعزم ونائل ... وهمّ له في المكرمات بعيد
وصبرا إذا نابت خطوب ملمة ... يقوم لها والفاعلون قعود

تلوح وراء النقع غرة وجهه كما لاح من ضوء الصباح عمود
فما ولدت بيض الحواصن مثله ولا نوب الأيام وهي ولود
أطب بداء ما يصاب دواؤه وأعلم بالأنواء أين تجود
وأطعن منه في نياط كتيبة بها السيف أعمى والسنان بليد
تسير أمام الجيش قبل مسيره كتائب من آرائه وجنود
ثلاثين شهرًا من مشارق فارس إلى الروم نقع ساطع ووثيد
ومرد علي حد المتون رماحهم وجرد على أكتافهن لبود
ثناهن عن أرض الحمى متنكب يريد بهن الله حيث يريد
فإن لم تذق فيها الرقاد فطالما سهرت وأيقاظ الخطوب رقود
شفيت من الغل الكمين عصابة تكيد مع الشيطان حيث تكيد
إذا تركت يومًا تقول فإنها تصول وكل الضاريات أسود
فيا غنما نامت بمصر رعاؤها بك الذئب من بين البهام عميد
دعى مرتع الآرام من بطن جاسم إلى الرمل ينمى حمضه ويزيد
ولا تردى بالغوطتين وقيعة يغازلها لمع الغزالة سيد
فإني أظن الريح سوف تدله عليك وبين المنهلين بريد
وخادعها عن جدها ومزاحها ذو آلة مثل السمهري يميد
تطامن لها وانصب حبالك حجرة فإن نوار الوحش سوف ترود
وإن شردت والعقد حل نظامه فأكبر ظني أنها ستعود
وسرك بالفسطاط جمع أظنه يعزك لو عض الحديد حديد
أئن عطلت كأس النديم ورشحت لغايتها قب الأباطل قود
وأسرع غب المحض في غلوائها فلم يبق فيها للصنيع مزيد

تمنيت في لهو الحديث لقاءها ... وإنك ما لم تلقها لسعيد
وإن عليها جنة فارسية ... مناقلها يوم الطراد طريد
وكل رقيق الشفرتين كأنه ... وقد أخلقته الحادثات جديد
عقائق إما لمعها فبوارق ... عليك وإما وقعها فرعود
يعودها ضرب الجماجم قاهر ... على الناس معبود الجلال مجيد

افتخر في مطلع القصيدة بكونه ذا بأس وعزيمة وقفاه بأثر ذلك ثم افتخر بالمحافظة على نسبة الصحبة أو القرابة كيفما كان الصاحب أو القريب في قوله: ومولى وبالغ في ذلك وأحسن فيه تقرير مذهبه ثم عاد إلى خطاب نفسه يسليها بما يكون عذرًا يبني عليه احتمال عيوب الصاحب أو القريب في قوله: وقلت تعلم وعطف عليه معلومًا آخر وهو أن نواميس الرجال أي: حيلهم وأشراك مكايدهم مازالت في الناس قديمًا واستدرك على ذلك متخلصًا للمدح بأن ممدوحه أزال تلك الحيل وكشف الأمور وضمن معنى حل في قولها: حلها على الدهر معنى ضيع مثل قولهم ضيعت على فلان تعبه في كذا ثم استرسل في المدح اللائق بالملوك ذوي الهمم العالية والعزائم الماضية مشيرًا إلى وقائع الممدوح وحروبه وسعة مملكته مائلًا إلى ذكر بعض الجهات كمصر برداءة السياسة وكونها تحت خطر أن يلتفت إليها ويومي إلى عسكرها بالتحذير والنصيحة بترك التعرض إلى معارضتها، وشعر ابن نباتة هذا رحمه الله تعالى يطلب بشدة دقته وبعد إشارته من يطلع عليه أن يتلبث في تعقله وتفهم أغراضه بيتًا بيتًا وفصلًا فصلًا، ومن شعر الشريف محمد الرضي وشعره كما سبق التنبيه عليه كثير جدًّا وديوانه موجود بدار الكتب الكبير فلنكتف من شعره بإيراد ما يكون أنموذجًا يستدل به على باقيه فإن أردت

استيفاء قراءته فقد علمت مكانه قوله في النسيب وطريقته فيه تسمى بالطريقة الغرامية.

يا ظبية البان ترعى في خمائلها ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمع الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برياك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذي سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك
حكت لحاظك ما في الريم من ملح يوم اللقاء وكان الفضل للحاكي
كان طرفك يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنك من أسماء قتلاكي
أنت النعيم لقلبي والغرام له فما أمرك في قلبي وأحلاكي
عندي رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
وعد لعينك عندي ما وفيت به يا قرب ما كذبت عيني عيناك
سقى مني وليالي الخيف ما شربت من الغمام وحياها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله منا ويجتمع المشكو والشاكي
لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا ما كان فيهم غريم القلب إلاك
هامت بك العين لم تتبع سواك من أعلم العين أن القلب يهواك
يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا ونطفة غمست فيها ثناياك
وحبذا وقفة والركب معتقل على ثرى وخدت فيه مطاياك
لو كانت اللمة السوداء من عددي يوم الغميم لما أفلت أشراكي

وقوله:

يا ليلة السفح ألا عدن ثانية سقى زمانك هطال من الديم

ماض من العيش لو يفدى بذات له كرائم المال من خيل ومن نعم
لم أقض منك لبانات ظفرت بها فهل لي اليوم إلا زفرة الندم
فليت عهدك إذ لم يبق لي أبدًا لم يبق عندي عقابيلًا من السقم
تعجبوا من تمنى القلب مؤلمه وما دروا أنه خلو من الألم
ردوا علي ليالي التي سلفت لم أنسهن ولا بالعهد من قدم
أقول للائم المهدي سلامته ذق الهوى فإن اسطعت الملام لم
وظبية من ظباء الإنس عاطلة تستوقف العين بين الخمص
لو أنها بفناء البيت سانحة لصدتها وابتدعت الصيد في الحرم
قدرت منها بلا رقبي ولا حذر على الذي نام عن ليلى ولم أنم
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
وأمست الريح كالغيري تجاذبنا على الكثيب فضول الريط واللمم
يشي بنا الطيب أحيانًا وآونة يضيئنا البرق مجتازًا على أضم
وبات بارق ذاك الثغر يوضح لي مواقع اللثم في داج من الظلم
وبيننا عفة بايعتها بيدي على الوفاء بها والرعي للذمم
يولع الطل بردينا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم
وأكتم الصبح عنها وهي غافلة حتى تكلم عصفور على علم
فقمت أنفض ثوبًا ما تعلقه غير العفاف وراء الغيب والكرم
والمستنى وقد جد الوداع بنا كفًّا يشير بقضبان من العتم
والتمني ثفر أما عدلت به أرى الجنابينات الوابل الرذم
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا وفي بواطننا بعد من التهم
يا حبذا لمة بالرمل ثانية ووقفة ببيوت الحي من أمم

وحبذا نهلة من فيك باردة ... بعدي علي حر قلبي بردها بفمي
دين عليك فإن تقضيه أحي به ... وإن أبيت تقاضينا إلى حكم
عجبت من باخل عني بريقته ... وقد بذلت له دون الأنام دمي
ما سعفتني الليالي بعد بينهم ... إلا بكيت ليالينا بذي سلم
ولا استجد فؤادي في الزمان هوى ... إلا ذكرت هوى أيامنا القدم
لا تطلبن لي الإبدال بعدهم ... فإن قلبي لا يرضى بغيرهم

ومن شعر مهيار وقد سلك طريقة يدعو الأدب إلى سلوكها لرفعة رتبتها من البلاغة؛ وهي أنه يجعل غزل القصيدة متضمنًا المعنى الذي قصد إنشاءها لأجله هذه القصيدة وسببها أنه سعى به ساع عند ملك ناحيته وافترى عليه أنه عثر بكنز فحبسه ذلك الملك ليلة ليخلصه منه كما جرت به العادة في غالب الزمان من أخذ الملوك ما يجد الناس من الكنوز ثم تحقق عند الملك كذب السعاية فأطلقه وعاد لبره فأنشأها وضمنها تهنئة بعيد الفطر:

أما وهواها عذرة وتنصلا ... لقد نقل الواشي إليها فأمحلا
سعى جهده لكن تجاوز حده ... وكثر فارتابت ولو شاء قللا
وقال فلم تقبل ولكن تلومت ... على أنه ما قال إلا لتقبلا
فطارحها إني سلوت فهل رأى ... له الدم مثلي عن هوى أنه سلا
أأنفض طوعًا حبها عن جوانحي ... وإن كان حبًّا للجوانح مثقلا
أبى الله والقلب الوفي بعهده ... وألف إذا عد الهوى كان أولا
يا صاحبي نجواي يوم سوبقة ... أنساة وإن لم تسعدا فتجملا
سلا ظبية الوادي وما الظبى مثلها ... وإن كان مصقول الترائب أكحلا

ألنت أمرت البدر أن يصدع الدجى وعلمت غصن البان أن يتميلا
ورحمت يوم البين وقفة ساعة على عاشق ظن الوداع محللا
جمعت عليه حرقة الدمع والجوى وما اجتمع الداآن إلا ليقتلا
هبي لي عيني واحملي كلفة الأسى على القلب إن القلب أصبر للبلا
أراك بوجه الشمس والبعد بيننا فأقنع تشبيهًا بها وتمثلا
وأذكر عذبًا من رضابك مسكرًا فما أشرب الصهباء إلا تعللا
هنيئًا لحب المالكية إنه رخيص له ما عز مني وما غلا
تعلقتها غرًا وليدًا وشبيت وشبت وناشى حبها ما تكهلا
ووحدها في الحسن قلبي فما له وإن وجد الإبدال أن يتبدلا
رعى الله قلبي ما أبر بمن جفا وأصبره في النائبات وأجملا
وأكرم عهدي للصديق فإنه قليل على الحالات أن يتحولا
ولين أيامي علي فإنني أزاحم ثهلانا بهن ويذبلا
وأهل زمان لا هوادة بينهم إذا استؤمنوا كانوا أخب واختلا
صديق نفاق أو عدو فضيلة متى طب كان الداء أدهى وأعضلا
ولوج على الشر الذي يرصدونه متى وجدوا يومًا إلى الشر مدخلا
إذا ما رأوا عند امرئ زاد يومه مشوا حسدًا أوبات جوعان مرملا
وفي الأرض عنهم مذهب وتفسح فمن لي أن أستطيع أن أترحلا
أهم ولكن من وراءي جواذب أخاف على إعطانها أن تسلا
وتعلقني الآمال من قلل العلا فأجعلها منهم ملاذًا ومعقلا
نعم عند ركن الدين وابن قوامه غنى ومراد أن أضام وأسملا
وفي يده البيضاء يقطر ماؤها ربيع يرد الجدب أخضر مبقلا

وبالقصر من دار السلاح متوج ... بإشراقه أخزى البدور وأخجلا

ترى خرزات الملك فوق جبينه ... كواكب نور ضوءها يملأ الفلا

يميت النفوس قاطبًا متنمرًا ... ويحسي أوانًا باسمًا مستهللا

إذا كفر النعماء شام سيوفه ... وإن سئل الإغضاء شام التفضلا

قريب على المولى بعبد بعزه ... على مغمز الأعداء أن يتسهلا

إذا من أعطى حكمه متثبتًا ... وإن هم أمضى أمره متعجلا

حوى حوزة الدنيا فدبر أمرها ... مليًّا بتقويم الأمور معدلا

أطاعته أعناق البلاد وأقبلت ... إليه القلوب رغبة لا تعملا

ودانت له الأقدار حتى تصرفت ... على أمره الماضي صعودًا ونزلا

إذا طلب الأعداء أنفذ جحفلا ... لها ما من الإقبال يتبع جحفلا

كفاه مكان السـ[illegible] ... [illegible]

وكم عادة لله في النصر عنده ... تضمن باستمرارها وتكفلا

ومن آية قامت بتثبيت ملكه ... وقد كادت الأقدام أن تتزلزلا

ظهرت جلال الدولتين بفضلها ... ومعجزها حتى ظنناك مرسلا

رأى الله أن الأرض أصلح سيرة ... عليك وأن الناس أجمل محصلا

وأنك تأوى في أمورك كلها ... إليه منيبًا نحوه متبتلا

فأولاك في ضيك الشدائد فرجة ... وأعطاك منجًا في الخطوب وموئلا

وكم آبق من رق مالك غامط ... لنعماك لم ينهض بما قد تحملا

عفوت مرارًا عن تمادي ذنوبه ... فأنظرته بالعفو حتى توغلا

وبالأمس لجوا في الشقاق وأجلبوا ... عليك وظنوها وحاشاك فيصلا

فلم يجن ضعف الرأي إلا عليهم ... ولا ازددت إلا قوة وتأثلا

فسائل بهم إما طريدًا مشردًا ... يلوذ بصفصح أو قتيلًا مجدلا

فلا زال من عاداك أبعد شقة ... وأخبث أيامًا وأخشن منزلا

ولا زالت الرايات واسمك حليها ... خوافق تحوي الأرض سهلًا وأجبلا

إلى أن ترى بيض الملوك وسودها ... قيامًا على أخرى بساطك مثلا

وبلغت من نجميك يا بدر كلما ... تؤمل في نجم على أفق علا

قديمهما والطالع الآن قابسًا ... ضياءك حتى يستتم ويكملا

وكانا على الأعداء سيف تناصر ... شبيهك فيما أحدثا وتقبلا

وشداك والضرغام أمنع جانبًا ... وأنهض إقدامًا إذا كان مشبلا

وكثرت بالأولاد ترهف منصلًا ... طريرًا إلى الدنيا وتطبع منصلا

أصولهم منصورة بفروعهم ... إذا قام منهم آخر كان أولا

لكم في رقاب الناس أمراس ذمة ... بعيد على استحصافها أن تجللا

مفاتيح هذا الرزق بين أكفكم ... ونصرة دين الله بيضًا وذيلا

فما تشهدون الحرب إلا إذا غلت ... ولا تشترون الحمد إلا إذا غلا

أتعرف يا مولى الملوك كقصة ... بليت بها بالأمس والحر يبتلا

أبعد قنوعي بالثمار تعففًا ... وهجري أبواب الملوك تعذلا

وظلمي فضلًا واهتضامي توحدي ... مخافة أن أوذى وأن أتبذلا

يسيء رعاع الناس عندك سمعتي ... وتشعر أني خرت ما لا مؤثلا

ويغرى بأفقاري وأنت الذي ترى ... لمثلي أن يغني وأن يتمولا

ولكنها ما غيرت لك شيمة ... كرمت بها إلا قليلًا كلا ولا

ولما سعى الساعي فجاءك كاذبًا ... عليَّ بجور كنت أعلى وأعدلا

أتاك بزور فاتحًا فمه به ... فألقمته بالرد تربًا وجندلا

تسرع فيها جالبالك إثمها ... ولكن أراك الحق أن تتمهلا
فلم تألني كشفًا لصدق براءتي ... ولا نظرًا في قصتي وتأملا
وزنت بذكر المال مجدك في العلا ... فكان وزان المجد عندك أثقلا
وحكمت رايا طاهريا وهمة ... بويهية ما طبقت كان مفصلا
فأرضاك مني الصدق لما علمته ... ببينة لم أستعرها تقولا
فإن فاجأتني هجمة من طروقها ... تروع منها جانبي وتوجلا
حبست ولكن كان حبسًا مشرفًا ... أناف بذكري واعتقالا مجملا
لئن عد قوم نكبة حبس ليلة ... لقد كنت منكوبًا من الناس معزلا
وسبب لي هذا المقام ترفعي ... وقد كنت عنه ساهيًا ومغفلا
مكان تمناه الكواكب عزة ... فتبغي إليه مهبطًا وتنزلا
ومن لجبير الشمس لو خر ساجدًا ... لأرضك أو وافى ثراك مقبلا
لبست به ثوبًا ضفا لي فخره ... بمدحك مجرورًا عليَّ مذيلا
سيعلم من جر السعاية أنه ... بكرهي إلى ما جر نفعي توصلا
لقد غرس التعريض بي في ودية ... متى استثمرت أجنته صابًا وحنظلا
إذا وسمت عرض اللئيم بميسم ... من الذم باق ود لو كان أغفلا
فكان شقيًا خاب عندك سعيه ... وفزت وكنت المنعم المتفضلا
أقم فيَّ من عادات سيبك سنة ... هي الغيث أو كانت أعم وأجزلا
فكم من نوال مشرف قد حقرته ... وقللت من جماعة فستقللا
وعارفة لو يسئل البحر بعضها ... تعذر في إخراجها وتبخلا
وكن مرغمًا خصمي بأمر مشرف ... توفر لي منه الجمال المعجلا
وتجبر من جاهي الكسير وخلتي ... فأجدر من أسمنت من كنت مهزلا

وثـق بجـزاء شـعر عبـدك ضـامن لما طاب منه في الشفاه وما حلا
مـن الباقيـات الـصالحات أروضـها بنفـسي إذا طابـت وقلبـي إذا خـلا
سـوائر يقطعـن الـبلاد حـواملًا دعـاء مجابًـا أو ثنـاء مـبجلا
إذا مـا كـسوت العبـد منهن لبسة ترفـل فيهـا تائهًـا وتخـيلا
ومديـد الراجـي نوالـك مـدليًا بحرمتهـا مستـشفعًا متوسـلا
يبـشر عنهـا أنـه عائـد بهـا عليـك مـدى الأيـام عمـرًا وأطـولا
هـو اليـوم أعطـاه الإلـه فـضيلة كما كنت ممن يحمل الأمر مفضلا
فقابـل بـه وجـه الخلـود مبلغًـا شـروط ألمني مـا كـرّ عيـد وأقبلا
تزخـرف جنات العـلا لـك مفطـرًا وصـائم فـرض كنـت أو متـنفلا
وكن مفطرًا بالبر والبس على التقى ثوابـك وانـزع صـومك المتقـبلا
إلـى أن تـرى صـم الجبـال فلائقًـا مـسيرة والجـو مـاء مسلـسلا
إذا مـا انجلـى صبح ولـست مملكًـا علينـا فـلا شـق الظـلام ولا انجـلا

ويلتحق بمن سبق ذكرهم من مشاهير شعراء هذه الطبقة في جلالة المحل وعلو المكانة وتمام الإجادة الأمير أبو فراس الحارث بن سعيد الحمداني، وقد مضى مثال شعره والوزير مؤيد الدين الطغرائي صاحب لامية العجب المشهورة وأبو الحسن علي بن محمد التهامي فلا بد من تمثيل شعرهما لإتمام الفائدة، فمن شعر الوزير المذكور قوله يمدح أبا الفتح مسعود بن محمد السلجوقي الملقب بقسيم أمير المؤمنين وكان الملوك من العجم أيام قوة الدولة العباسية يدعى الواحد منهم مولى أمير المؤمنين، فلما قوي أمر سلطنة العجم وضعفت الدولة كان يلقب الواحد منهم قسيم أمير المؤمنين وكان الطغرائي بعض وزرائهم.

نظـري إلـى لمـع الـوميض حنـين وتنفـسي لـصبا الأصـيل أنـين

مـا كنت أعلـم قبـل نازلـة الحمـى ... إن الحبائــل والــسهام عيــون

ركـروا بـأبواب القبـاب رمـاحهم ... ووراءهـــن أهلـــة وغـــصون

آســاد ملحمـــة وأدم صـــريمة ... تحــت الأكلــة فالكنــاس عــرين

ومضوا يشيمون الـوميض وقد هفا ... بخفوقــه خــضل الربــاب هتــون

ألا يكــن نعــب الغــراب بيــنهم ... أصـلًا فقـد نعبـت سـحائب جـون

بـاتوا ونجـوى البـين بـين رحـالهم ... فوضـى ومـسترق الحـديث شجون

وتحملوا سحرًا وحشو حد وجهم ... صـــور الجـــآزر والظبـــاء العـــين

ووراء أصـــداف الحـــدوج يمرهـــا ... هـــوج الركائـــب لؤلـــؤ مكنـــون

إن الألـــى أقـــوت ربـــوعهم لهـــم ... بـــين الأضـــالع منـــزل مـــسكون

نـــشرت ربـــوعهم بعـــود قطينهـــا ... فنـــشور ربـــع أن يعـــود قطـــين

ومليحـــة بكـــرت علـــيَّ مليحـــة ... سـحرًا وقـد صـبغ الخـدود جفـون

قالــت عهــدتك لا تــراع لحــادث ... وحــصاة قلبــك لا تكــاد تلــين

فــاليوم مــا لــك مــستكينًا يمتــرى ... مخــزون دمعــك قلبــك المخــزون

تبغـي سـلوى وهـو أعـوز مطلـب ... وطــلاب مــا لا يــستطاع جنــون

فأجبتهــا كفــي المــلام وأقــصري ... كــل بمــا كــسبت يــداه رهــين

لـم يبـق عنـدي للتجلـد موضـعًا ... بـــين بتفريـــق الجميـــع قمـــين

ولقـد أثـرت العـبس مـا لظوهرهـا ... ممـــا أضـــر بهـــا الـــسفار بطـــون

مـشق الـسهوب لحـومهن وعرقـت ... أشـــلاءهن فكـــل حـــرف نـــون

يرسـفن فـي قيـد الكـلال كأنمـا ... حركـــاتهن وقـــد جهـــدن ســـكون

ولقـــد تـــرى والـــريح راســـفة إذا ... قيـــست إليهـــا والـــوميض حـــرون

وكأنهـــا والليـــل وحـــف فـــاحم ... عـــوج المـــداري والظـــلام قـــرون

يرمي بهن نياط كل تنوفة همم وهمّ في الضلوع كمين

همم تعاورها الهموم وعزمة عذراء شيبها الخطوب العون

وإذا طغى بحر الزماع فما له إلا القلاص اليعملات سفين

وإذا نبا الوطن العسوف بأهله فظهورهن لمن حملن حصون

يخبطن أحشاء الدياجي أو يرى للصبح خد واضح وجبين

ولقد سلبت مراحهن إلى حمى ملك له رب السماء معين

مسعود الميمون طائره الذي جدّ المنيخ ببابه ميمون

ملك الملوك ابن السلاطين الألى ملكوا رقاب العالمين ودينوا

ركزوا ببرقة والصعيد رماحهم والهند مربط خيلهم والصين

ملكوا الأعنة والأسنة والظبا تحت العجاج بوارق ودجون

مجد توورث كابرًا عن كاير والدهر مقتبل وآدم طين

فالعز أقعس والجناب ممنع والمجد أتلع والفناء حصين

شغفت بدعوته المنابر يافعًا وصبا إليه الملك وهو جنين

شرق البنان بجوده غدق الندى كلتا يديه للعفاة يمين

للملك مأوى في ظلال يمينه يأوى إليه النصر والتمكين

طرب الشمائل حين تنآد القنا ثملًا ويشرق بالدماء وتين

ينجاب عنه النقع وهو كأنه قمر له سعد السعود قرين

والمشرفية في العجاج لوامع والأعوجية في الصفوف صفون

وعليه نشؤ مظلة مكفوفة بالدر والياقوت وهو ثمين

سوداء سمراء الحفاف كأنها زهر الشقائق في الرياض تبين

رفعت ترد الشمس عن شمس لها نور إذا اعتكر الظلام مبين

شمسان يكتنفانها من فوقها ... شمس وآخر تحتها مدجون
فبنور تلك أضاءت الدنيا وإذا ... ضاءت به الدنيا وعز الدين
فلك يدور على ذؤابة تاجه ... ويكون أني دار حيث يكون
تمشي الملوك الصيد تحت ركابه ... ويظله بجناحه جبرين
والجرد مثقلة الرقاب يؤودها ... حمل النضار يكدها ويزين
سبقت حوافرها النواظر فاستوى ... سبق إلى غاياتها وشفون
لولا ترامى الغايتين لأقسم الراؤن ... إن حراكها تسكين
قد كان يشبهها البروق لو أنها ... لم يعتلقها أعين وظنون
من كل جياش العنان إذا جرى ... يوم الرهان فسبقه مضمون
إن يفرع الطود الأشم فأجدل ... أو يركب البحر الخضم فنون
بأخيه شد الله أزر جلاله ... فوزيره من أهله هارون
قد حان قد نبت الحوادث عنهما ... فالعود صلب والغرار سنين
جمعا على رغم العدا وتساندا ... فكلاهما صدق القناة متين
سبق المجلى والمصلى دونه ... ووراءه كل البرية دون
يا أيها الملك الذي بجلاله ... قضى القضاء وكوّن التكوين
مرضاته تحيي ويردى سخطه ... فهما حياة للورى ومنون
عاشت ذؤالة في القطيع وماله ... راع وأضحى اللص وهو أمين
وتنازع الملك الشعاع عصابة ... لم يدر أيهم به المفتون
وتناهبوا ما لم يكن من قبل ذو الـ ... ـقرنين يملكه ولا قارون
فبكل أرض راية وعصابة ... جمعت وحرب لا تطاق زبون
جرّد عزيمتك المتينة أنها ... فتن ركدن سهولهن خرون

فبغاثهـــا مستنـــسر وشـــرارها نـــار تـــشب ودودهـــا تنـــين
وكأنمـا الـدنيا وقـد شـحنت بهـا بحـــر تكفـــأ فلكـــه المـــشحون
وارم الــصفوف بمـثلهن وشـنها شـــعواء ينـــسى عنـــدها صـــفين
واشـدد يـديك بحبـل عمـك إنـه مـــولاك وهـــو بمـــا تحـــب ضـــمين
واطلـع عليـه برايـة منـصورة إقبالـــــه بطلوعهـــــا مقـــــرون
أبنـي الملـوك الـصيد إن وراءكـم خطبـــا إذا دبرتمـــوه يهـــون
مـن قبـل ذا خـان الأمـين شـقيقه فأديـــل منـــه لبغيـــه المـــأمون
غلـب العبيـد علـى مقـر سـريركم والعبـــد خـــوار القنـــاة مهـــين
هـي جولـة الـضحاك عـم بلاؤهـا كـــل الأنـــام فـــأين أفريـــدون
فـانهض لهـا بـالعزم يكنفـه الظبـى والـــسابرية نـــسجها موضـــون
واعصف عليهم بالقواضب عصفة تـذر الرقـاب الغلـب وهـي دريـن
كـايلهم بالـصاع صـاعًا واجـزهم بتـــراتهم إن التـــرات ديـــون
إن الهـوى والـرأي مـالا نحـوكم بركـــائبي وهـــوى الرجـــال فنـــون
أبغـي نهايـات العـلا وسـجيتي تـــأبى التوســـط فالتوســـط هـــون
فأسـلم لأدرك فيـك مـا أملتـه ظنًـــا وظـــن الألمعـــي يقـــين

هذا الشعر يستعيدك النظر فيه ويستدعيك التأمل في مطالعه ومقاطعه لتعرف من أين كان علو رتبته من البلاغة، فإنك لا تجد الشاعر قصد فيه إلى النكات زخرفته بالمحسنات كما هو حال المتأخرين وإنما قصد أن يكون الشعر متخير اللفظ محكم التركيب منحدر السلاسة لا يتوقف اللسان في إنشاده مع صحة معانيه وتمكن حدود فصوله، ومما يكاد أن يكون من اختراع الوزير المذكور جمعه بين مدح الفتيان من حي الأحباب

وغزل الفتيات منهم، وقد تابعه في ذلك وتوسع شهاب الدين معتوق الموسوي من متأخري أهل الإجادة فأكثر غزله من أوله إلى آخره لا يخلو من ذلك، ومن شعر أبي الحسن التهامي قصيدته الفريدة البالغة بابها غاية لم يبلغها سواها التي يرثي في أولها صغيرًا له أجاب داعي ربه ويفتخر في آخرها بفضله ويشكو زمانه وحاسد به وهي هذه:

حكم المنية في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبرًا ... حتى يرى خبرًا من الأخبار
طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال سار
فاقضوا مآربكم عجالًا إنما ... أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا ... أن تسترد فإنهن عوار
فالدهر يخدع بالمنى ويغص إن ... هنى ويهدم ما بنا ببوار
ليس الزمان وإن حرصت مسالمًا ... خلق الزمان عداوة الأحرار
إني وترت بصارم ذي رونق ... أعددته لطلابة الأوتار
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت ... منقادة بأزمة المقدار
أثني عليه بأثره ولو أنه ... لم يعتبط أثنيت بالآثار
يا كوكبًا ما كان أقصر عمره ... وكذاك عمر كواكب الأمصار
وهلال أيام مضى لم يستدر ... بدرًا ولم يمهل لوقت سرار
عجل الخسوف عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مظنة الأبدار
واستل من أترابه ولداته ... كالمقلة استلت من الأشفار

فكـأن قلبـي قبـره وكأنـه ... فـي طيـه سـر مـن الأسـرار
إن يعتبط صـغرًا فـرب معجـم ... يبـدو ضـئيل الـشخص للنظـار
إن الكواكـب فـي علـو محلهـا ... لتـرى صـغارًا وهـي غيـر صـغار
ولـد المعـزى بعـضه فـإذا مـضى ... بعـض الفتـى فالكـل فـي الآثـار
أبكيـه ثـم أقـول معتـذرًا لـه ... وفقـت حـين تركـت ألأم دار
جـاورت أعـدائي وجـاور ربـه ... شـتان بـين جـواره وجـواري
أشـكو بعـادك لـي وأنـت بموضـع ... لـولا الـردى لـسمعت فيـه مـزاري
والـشرق نحـو الغـرب أقـرب شـقة ... مـن بعـد تلـك الخمـسة الأشـبار
هيهـات قـد علقنـك أسـباب الـردى ... واغتـال عمـرك قـاطع الأعمـار
ولقـد جريـت كمـا جريـت لغايـة ... فبلغتهـا وأبـوك فـي المـضمار
فـإذا نطقـت فأنـت أول منطقـي ... وإذا سـكت فأنـت فـي أضـماري
أخفـى مـن البرحـاء نـارًا مثـل مـا ... يخفـى مـن النـار الزنـاد الـوارى
وأخفـض الزفـرات وهـي صـواعد ... واكفكـف العبـرات وهـي جـوار
وشـهاب نـار الحـزن إن طاوعتـه ... أورى وإن عاصـيته متـواري
وأكـف نيـران الأسـى ولربمـا ... غلـب التـصبر فارتمـت بـشرار
ثـوب الريـاء يـشف عمـا تحتـه ... وإذا التحفـت بـه فإنـك عـار
قـصرت جفـوني أم تباعـد بينهـا ... أم صـوّرت عينـي بـلا أشـفار
جفـت الكـرى حتـى كـان غـراره ... عنـد اغتمـاض العـين وخـز غـرار
ولـو اسـتزارت رقـدة لطحابهـا ... مـا بـين أجفـاني مـن التيـار
أحيـي الليـالي الـتم وهـي تميتنـي ... ويميـتهن تـبلج الأسـحار
حتـى رأيـت الـصبح تهتـك كفـه ... بالـضوء رفـرف خيمـة كالقـار

والصبح قد غمر النجوم كأنه | سيل طغا فطفا على النوار
لو كنت تمنع خاض دونك فتية | منا بحار عوامل وشفار
ودحوا فويق الأرض أرضًا من دم | ثم انثنوا فبنوا سماء غبار
قوم إذا لبسوا الدروع حسبتها | خلجًا تمد بها أكف بحار
لو أشرعوا إيمانهم في طولها | طعنوا بها عوض القنا الخطار
جنبوا الجياد إلى المطى وراوحوا | بين السروج هناك والأكوار
وكأنما ملئوا عياب دروعهم | وغمود أنصلهم سراب قفار
وكأنما صنع السوابغ عزه | ماء الحديد فصاغ ماء قرار
زردًا فاحكم كل موصل حلقة | بحبابه في موضع المسمار
فتسربلوا بمتون ماء جامد | وتقنعوا بحباب ماء جار
أسد ولكن يؤثرون بزادهم | والأسد ليس تدين بالإيثار
يتزين النادي بحسن وجوههم | كتزين الهالات بالأقمار
يتعطفون على المجاور فيهم | بالمنفسات تعطف الأظآر
من كل من جعل الظبي أنصاره | وكرمن واستغنى عن الأنصار
وإذا هو اعتقل القناة حسبتها | صلا تأبطه هزبر ضار
والليث إن ثاورته لم يعتمد | إلا على الأنياب والأظفار
ذرد الدلاص من الطعان بريحه | في الجحفل المتضايق الجرار
ما بين ثوب بالدماء مضمخ | زلق ونقع بالطراد مثار
والهون في ظل الهوينا كامن | وجلالة الأخطار في الأخطار
تندى أسرة وجهه ويمينه | في حالة الإعسار والأيسار
ويمد نحو المكرمات أناملًا | للرزق في أثنائهن مجار

يحوي المعالي كاسبًا أو غالبًا ... أبدًا يدادي دونها ويداري
قد لاح في ليل الشباب كواكب ... إن أمهلت آلت إلى الأسفار
وتلهب الأحشاء شيب مفرقي ... هذا الضياء شواظ تلك النار
شاب القذال وكل غصن صائر ... فينانه الأحوى إلى الأزهار
والشبه منجذب فلم بيض الدمى ... عن بيض مفرقه ذوات نفار
وتود لو جعلت سواد قلوبها ... وسواد أعينها خضاب عذار
لا تنفر الظبيات عنه فقد رأت ... كيف اختلاف النبت في الأطوار
شيآن ينقشعان أول وهلة ... ظل الشباب وخلة الأشرار
لا حبذا الشيب الوفي وحبذا ... طل الشباب الخائن الغدار
وطرى من الدنيا الشباب وروقه ... فإذا انقضى فقد انقضت أوطاري
قصرت مسافته وما حسناته ... عندي ولا آلاؤه بقصار
نزدادهما كلما ازدادنا غنى ... والفقر كل الفقر في الإكثار
ما زاد فوق الزاد خلف ضائعًا ... في حادث أو وارث أو عار
إني لأرحم حاسدي لحرما ... ضمنت صدورهم من الأوغار
نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنة وقلوبهم في نار
لا ذنب لي قد رمت كتم فضائلي ... فكأنما برقعت وجه نار
وسترنها بتواضعي فتطلعت ... أعناقها تعلو على الأستار
ومن الرجال معالم ومجاهل ... ومن النجوم غوامض ودراري
والناس مشتبهون في إيرادهم ... وتفاضل الأقوام في الأصدار
عمري لقد أوطأتهم طرق العلا ... فعموا فلم يقفوا على آثاري
لو أبصروا بقلوبهم لاستبصروا ... وعمى البصائر من عمي الأبصار

هلا سعوا سعي الكرام فأدركوا — أو سلموا المواقع الأقدار
وفشت خيانات الثقات وغيرهم — حتى اتهمنا رؤية الأبصار
ولربما اعتضد الحليم بجاهل — لا خير في يمنى بغير يسار

وقوله يمدح الأمير نصير الدولة أبا نصر بن مروان بميا فارقين:

عبسن من شعر في الرأس مبتسم — ما نفر البيض مثل البيض في اللمم
ظننت شبيبته تبقى وما علمت — أن الشبيبة مرقاة إلى الهرم
ما شاب عزمي ولا حزمي ولا — ولا وقائي ولا ديني ولا كرمي
وإنما اعتاض رأسي غير صبغته — والشيب في الرأس دون الشيب في
بالنفس قائلة في يوم رحلتنا — هواك عندي فسر إن شئت أو أقم
فبحت وجدًا فلامتني فقلن لها — لا تعذليه فلم يلؤم ولم يلم
لما صفا قلبه شفت سرائره — والشيء في كل صاف غير مكتتم
بعض التفرق أدنى للقاء وكم — لأمت شملًا بشمل غير ملتئم
كيف المقام بأرض لا يخاف بها — ولا يرجى شبا رمحي ولا قلمي
فقبلتني توديعًا فقلت لها — كفى فليس ارتشاف الخمر من
لو لم يكن ريقها خمرًا لما انتطقت — بلؤلؤ من حباب الثغر منتظم
ولو تيقنت غير الراح في فمها — ما كنت ممن يصيد اللثم باللثم
وزاد ريقتها في ثغرها شيمًا — على حصى برد من ثغرها شيم
إني لأطرف طرفي عن محاسنها — تكرمًا وأكف الكف عن أمم
ولا أهمّ ولي نفس تنازعني — أستغفر الله إلا ساعة الحلم
لا أكفر الطيف نعمي أنشرت رمما — منا كما تفعل الأرواح بالرمم
حيا فأحيا فأغنتنا زيارته — عن اعتساف الفلا بالأينق الرسم

وصل الخيال ووصل الخود إن ... سيان ما أشبه الوجدان بالعدم
والدهر كالطيف بؤساء وأنعمه ... عن غير فضل فلا تمدح ولا تلم
لا تحمد الدهر في بأساء يكشفها ... فلو أردت دوام البؤس لم يدم
خالف هواك فلولا أن أصونه ... سحر لما اقتنص العقبان بالرخم
ترجو الشفاء بجفنيها وسقمهما ... وهل رأيت شفاء جاء من سقم
وتدعى بصبا نجد فإن خطرت ... كانت جوى لك دون الناس كلهم
وكيف يطفي صبا نجد صبابته ... والريح زائدة في كل مضطرم
أصبوا وأصحو ولم يكلم ببائقة ... عرضي كما تكلم الأعراض بالكلم
ولا أحب ثناء لا يصدقه ... فعلي ولا أرتضي في المجد بالتهم
لا تحسبي حسب الآباء مكرمة ... لمن يقصر عن غايات مجدهم
حسن الرجال بحسناهم وفحرهم ... بطولهم في المعالي لا بطولهم
ما اغتابني حاسد إلا شرفت به ... فحاسدي منعم في زي منتقم
فالله يكلأ حسادي بأنعمهم ... عندي وإن وقعت عن غير قصدهم
ينبهون على فضلي إذا كتبت ... صحيفتي في المعالي عنونت بهم
يا طالب المجد في الآفاق مجتهدًا ... والمجد أقرب من ساق إلى قدم
قل نصر دولة دين الله لي أمل ... قولي وقد نلت أقصى غاية الهمم
كم حدت عنه فنادتني فضائله ... يا حاتم الأدب أمدح حاتم الكرم
وقادني نحوه التوفيق ثم دعا ... هذا الطريق إلى العلياء فاستقم
وقصره عرفات العرف فاغن به ... وكفه كعبة العلياء فاستلم
ترى الملوك على أبوابه عصبًا ... وفدا فدع غيرهم من سائر الأمم
يحفه كل محفوف مواكبه ... عزا ويخدمه ذو الجند والخدم

تظل مزدحمات في مواكبه ... تيجان كل مهيب الباس والنقم
تفيؤا ظل ملك منه محتشم ... ورب ملك مذال غير محتشم
والملك كالغاب منه خدر ذي لبد ... ومنه مرتبع للشاء والنعم
هم أعظم الناس أقدارًا ومقدرة ... لكن أتى فضله من دون فضلهم
إذا بدا طبق التقبيل ساحته ... فما على الأرض شبر غير ملتثم
فساحة الثغر ثغر أشنب رتل ... مفلج فهو مرشوف بكل فم
كأن أرضك مغناطيس كل فم ... فالطبع يجذبها بالطوع والرغم
لما علوت غمرت العالمين ندى ... والمزن تعلو فتروى الأرض بالديم
ترفًا وما رقأت نعماك عن أحد ... بوركت بوركت من عال ومنسجم
مقسم في العلا لليمن يمنته ... واليسر يسرته والكل للكرم
إن قال لا فهي آلاء مضاعفة ... وإن يقل نعمًا أفضت إلى نعم
تبدو صرامته في ماء غرته ... والماء بعض صفات الصارم الحذم
هو الجريء على مال يجود به ... والكر في الجود مثل الكر في البهم
مفرق الجود مقسوم مواهبه ... في علية الناس والأوساط والحشم
والغيث إن جاد بالمعروف وزعه ... بين الثنا خيب والغيطان والأكم
به إلى كل شرب للعلا ظمأ ... برح ومهما ارتوى من مائهن ظمى
ويعتريه إلى بذل اللهى نهم ... والظرف أجمعه في ذلك النهم
إليك نظمت أجواز الفلاة على ... وجناء تهوى انقضاض الجارح
كأنما البيد من دامي مناسمها ... مصاحف كتبت أعشارها بدم
أخفافها شاكلات كل مشكلة ... بحمرة معجمات كل منعجم
وأدهم واضح الأوضاح مشترك ... بين النهار وبين الليل منقسم

للضوء أرساغه إلا حوافره ... فإنهن مع الجلباب للظلم
محلولك علق التحجيل أكرعه ... كما تعلق بدؤ النار بالفحم
جرى فجلى محيا الصبح غرّته ... لثمًا ومسح بالأرساغ والحذم
أضحى لعدلك ثغر الثغر مبتسمًا ... وكان قبل عبوسًا غير مبتسم
ما ينقم الثغر إلا أن محوت به ... ليلًا من الظلم كانوا منه في ظلم
عففت عنهم فزادوا عفةً وتقى ... فهم من الأمن والإيمان في حرم
قد عظم الله أملاكًا ملكت بها ... بني عقيل وما يحوون من نعم
لو لم تجزها أبا نصر لما وجدت ... كفؤًا يشاكل في أصل ولا كرم
لو تطلب الشمس غير البدر ما ... بمثله في سناء القدر والعظم
زادت إلى عزها عزا بها مضر ... وربما صيدت العلياء بالحرم
خمسون ألفًا يغطي البر جمعهم ... يموج بحر من الماذي ملتطم
من كل من يتلقى وجه زائره ... بكوكب كهلال الفطر ملتثم
يحزبون على مخبورة غنيت ... عن الأعنة واستغنوا عن الحزم
لصاهل الخيل من تحت الرماح بهم ... كما تراء وغلب الأسد في الأجم
قوم برون احتضار العمر مكرمة ... فليس تفضي بهم سن إلى هرم
ونغمة السيف أحلى نغمة خلقت ... إذا ترنم بعد البيض في اللمم
والعيش في لف أفراس مكلمة ... بمثلهن وفرسان بمثلهم
إذ الأسنة في الهيجاء ألسنة ... يعربن عن كل مقدام ومنهزم
محمرة من دم الأبطال أنصلهم ... كأنما نصلوا الأرماح بالعنم
قد كنت أنكر شعري حين حاوله ... مني وحاشاك أملاك بلا همم
لا يألمون لنقص البخل وهوبهم ... مبرح كيف للأموات بالألم

خير المناقب ما كان البيان له سلكًا وفصل بالأمثال والحكم
رنّ كل من بخلت كفاه من ملك فأكثر الناس خزان لغيرهم
ذو الجود يورث في محياه أنعمه والنكس يورث بعد الموت والعدم
وقيمة المرء ما جادت به يده وقدرك الأنفس الأعلى من القيم
والفضل أشياء شتى أنت جملتها وصيغة أنت معناها فدم يدم

بين القصيدتين بون بعيد والشاعر واحد فما كل حيز يجود الطبع بما تهوى النفوس، وما أردأ تشبيهه وهو عنه في غنية في قوله: كأنما البيد من دامي مناسمها البيت فإنه جمع إلى سوء الأدب كونه صورة اختراعية ليس لها في الخارج واقع؛ إذ ليس من المعهود أن تكتب أعشار المصاحف بالدم وبعد فليس في القصيدة غير أبيات وإنما أوردتها لتعرف ما أشرنا إليه من تفاوت القول حتى على الشاعر الواحد فلا تغتر بشهرة المشهور ولكن تحكم معرفتك وعرض ما تجده على ما تقرر من القوانين التي بموافقتها ومخالفتها بردأ القول ويجود هذا وليس يقصر عن درجة هؤلاء خاتمة هذه الطبقة القاضي ناصح الدين أحمد الأرجاني وكان مكثرًا حتى قيل: إنه كان فرض على نفسه أن يقول كل يوم ولو أربعة أبيات لكن المدون من شعره قليل، وهذا مثاله قال يمدح الإمام المسترشد بالله:

كأنك بالأحباب قد جددوا العهدا وانجرت الأيام من وصلهم وعدا
وعادوا إلى ما عودونا فأصبحوا وقد أتممت نعم وقد أسعدت سعدا
أماني لا تدني نوى غير أنها تعلل منا أنفسًا ملئت وجدا
وجمرة شوق كلما لام لائم وردد من أنفاسه زادها وقدا
أحن إلى ليلى على قرب دارها حنين الذي يشكو لألافه بعدا
ولي سلك جسم ملؤه در أدمع فلولا العدى أمسيت في جيدها

أكتم جهدي حبها وهو قاتلي ... وكامن نار الزند لا يحرق الزندا
هلالية قومًا وبعد منازل ... فهل من سنا منها إلى مقلة يهدى
غزالية للناظرين إذا بدت ... إن انتقبت عينًا وإن سفرت خدا
إذا زرتها جر الرماح فوارس ... لتقصيدها فيمن يروم لها قصدا
وحالوا بأطراف القنا دون ثغرها ... كما نار يحمي النحل بالإبرا شهدا
وآخر عهدي يوم جرعاء مالك ... بمنعرج الوادي وإظعانهم تحدا
ولما دنت والستر مرخي ودونها ... غيارى غدت تغلي صدورهم حقدا
تقدمت أبغي أن أبيع بنظرة ... إلى سجفها روحي لقد رخصت
أسفت على ماضي عهود أحبتي ... وهل يملك المحزون للفائت الردا
أبوا أن يبيت الصب إلا معذبًا ... إذا بعد واشوقا وإن قربوا صدا
متى وردوا بي منهلًا من وصالهم ... وقضى هجرهم أن يسبق الصدر
فكم حاد بي إن لم أنل منهم متي ... وكم عاد بي إن لم أجد منهم بدا
وما قاتلي إلا لواحظ شادن ... من الراعيات القلب لا البان والرندا
عجبت لليلى وهي جد فروقة ... وقد صرعت يوم اللقا فارسا نجدا
أظلته أيام الإمام بعدله ... فلم يخش ريم أحور أسد أو ردا
يجنى إليه الله ألقى أمورنا ... ولله أوفى ناقد للورى نقدا
فقد زين الدنيا بآثار كفه ... سماحًا وخلالها لأبنائها زهدا
يؤرقه خوف عليهم ليأمنوا ... إذا الدهر أنحى نحوهم حادثًا إدًا
قلوب العدا منه حذارًا كقلبه ... علينا ومحيناه كأعينهم سهدا
إذا ما الهموم المسهرات طرقنه ... ضيوفًا قراها جمعه الجد والجدا
وكالصبح مبيضًا له الرأي ينتضى ... إذا ما أظل الخطب كالليل مسودا

بمسترشد بالله مستخلف له ... مليك يريك الله طاعته رشدا
يحول حجاب العز دون لقائه ... وإن كان لا يعيا على طالب رقدا
وتنهى العيون الشمس عنها إذا ... بهورا وإن كانت بأنوارها تهدا
قدم للعلا يا خير من مطر الورى ... نوالًا فلم نعرف له في الندى ندا
وأنت الذي قد ضمه البرد من تقي ... ومن كرم من قبل أن يرث البردا
ووليت من ملك القضيب شبيه ما ... تولاه من كان المشير به جدا
وما هو إلا أمر أمته الذي ... إليك انتهى إذ كنت من بينها فردا
سرائر لله انطوت في أمائر ... أولوا العلم قد كانت إلى فهمها
إذا لمحتها فطنة عربية ... غدت ألسنا عند الحجاج لكم لدا
ألم تر أن ابني نزار تملكا ... له القبة الحمراء والفرس النهدا
وكان لهذا بالسيادة حجة ... وهذا يقود الخيل نحو الوغى جردا
دليلان كل منهما بوضوحه ... لك الله رب العرش أهدى الذي
نحبك لا حب اعتياد وإنما ... بذاك علينا الله قد أخذ العهدا
وما أن نرى أجرًا على الله واجبًا ... لمسعى رسول الله إلا لك الودا
بكم آل عباس يعاذ ومنكم ... يعاد لنا جزل العطاء كما يبدا
وأنتم شفعتم للحيا عند حبه ... فأطلقتموه حائزين له حمدا
فهل غيركم من آل بيت مكارم ... إذا افتخروا كان الغمام لهم عبدا
لكم سن في الأرض الخلافة آدم ... ومن أجلكم لم يأس إذ فارق
وفي مظهر إبراهيم كانت خبيثة ... أكفكم حتى غدت ناره بردا
ولولا الذي أصبحت خلفاءه ... لما كان من كون معاد ولا مبدا
ولم تخلفوا حتى غدا غاية التي ... تناهت فما عنها الذي نهيه مغدا

تركت بني الإلحاد في كل موطن ... وقد هد سيف الله بنيانهم هدًا
هم خلطوا الإسلام بالكفر خلطة ... فصيرت حد السيف بينهم الحدا
إذا الكف أبدت باغتصاب إشارة ... إلى حقك الموروث لم تصحب
إذا رأس طاغ مال عنك جهالة ... أبى حينه إلا القناة له قدا
وما ارتد متحاز فردّ بذلة ... إلى الدين إلا سرعة النفس ارتدا
بقيت لدهر لم تدع أوله سدى ... ودين جعلت السيف من دونه سدا
إليك أمير المؤمنين سرت بنا ... كائب أدنت من موافقك الوفدا
لطمن بأيديهن خدًا من الفلا ... على عجل حتى تركن به خدا
وقد وفد العبد القديم ولاؤه ... يتبع طرفًا من مدائحكم تلدا
وما الشعر قاض واجبًا من حقوقكم ... لديّ ولكن من مقلّ غدًا جهدا
ولو لامنا هي دين جود شرعته ... عممت بنات الفكر من أنف وأدا
فدالك نفسي في العبيد من الردى ... فمثلي من يفدى ومثلك من يفدى
بقاءك أرجو الله ربي وظله ... على الخلق طرًا أن يمدهما مدًا
تصوم على يمن وتفطر دائمًا ... وتطلع في أفق العلا أبدًا سعدا
وتبقى إلى أن تبلى الدهر خالدًا ... ولا سرف للسيف أن يبلى الغمدا

الطبقة الثالثة أشهر أهلها محمد بن نباتة المصري وعصريه عبد العزيز بن سرايا الحلى فلنقتصر في التمثيل على ما نورده لهما قال ابن نباتة يمدح النبي صلى الله عليه وسلم:

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ... ولمعة برق بالفضا تتسعر
وذكر جبين المالكية إن بدا ... هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر
سقا الله أكناف الغضا سبل الحيا ... وإن كنت أسقي أدمعًا تتحدر

وعيشاً نضاعنه الزمان بياضه وخلفه في الرأس يزهى ويزهر
تغير ذاك اللون مع من أحبه ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
وكان الصبا ليلًا وكنت كحالم فيا أسفي والشيب كالصبح يسفر
يعللني تحت العمامة كتمه فيعتاد قلبي حسرة حين أحسر
ألا في سبيل الله صوم عن الصبا وقلب على عهد الحسان مفطر
تذكرت أوطان الوصال فأشهب من الدمع في ميدان خدي وأحمر
إذا لم تفض عيني العقيق فاذرأت منازله بالوصل تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتي فلا عادها عيش مغناه أخضر
ليالي تجني الحسن في أوجه الدمى وتجني على أجسامنا حين تنظر
يؤثر في خد المليحة لحظها وإن كان في ميثاقها لا يؤثر
إذا حل مبيض المشيب بعارض فما هو إلا للمدامع ممطر
كأني لم اتبع صبا وصبابة خليع عذار حيث ما همت أعذر
ولم أطرق الحي الخصيب زمانه يقابلني زهر لديه ومزهر
وغيداء أما جفنها فمؤنث كليل وأما لحظها فمذكر
يروقك جمع الحسن في لحظاتها على أنه بالطرف جمع مكسر
من الغيد تخفيها الظبي بحجابها ولكنها كالبدر في الماء يظهر
يشف وراء المشرفية خدها كما شف من دون الزجاجة مسكر
ولا عيب فيها غير سحر جفونها وأحبب بها سحارة حين تسحر
إذا جردت من بردها فهي عبلة وإن جردت ألحاظها فهي عنتر
إذ أخطرت في الروض طاب فلم تدر من أزهى وأشهى وأعطر
خليلي كم روض نزلت فناءه وفيه ربيع للنزيل وجعفر

وفارقتـه والطيـر صـافرة بـه ... وكـم مثلهـا فارقتهـا وهـي تـصفر
إلـى أعـين بالمـاء نـضاخة الـصفا ... إذا سـد منهـا منخـر جـاش منخـر
نـداماي مـن خـود وراح وقينـة ... ثـلاث شـخوص كاعبـات ومعـصر
قـضيت لبانـات الـشبيبة والهـوى ... وطولـت حتـى آن أنـي مقـصر
ورب طمـوح العـزم أدمـاه جمـرة ... يظـل بهـا عزمـي علـى البيـد يجمـر
طـوت بـذرعي وخـدها شـقة الفـلا ... وكـف الثريـا فـي دجـى الليـل تـشير
يـصم الحـصا ترمـى الحـداة كأنمـا ... تغـاد علـى محبوبهـا حـين يـذكر
إذا مـا حـروف العـيس خطـت بقفـرة ... غدت موضع العنوان والعيس أسطر
فللـه حـرف لا تـرام كأنهـا ... بوشـك الـسرى حـرف لـدى البيـد
حطـت بنـا أرض الـشآم إلـى حمـى ... بـه روضـة ريـا الجنـاب ومنبـر
إلـى حـرم إلا مـن المنيـع جـواره ... إذا ظلـت الأصـوات بـالروع تجـار
إلـى مـن هـو النبـر الخـلاص لناقـد ... غـداة الثنـا والـصفوة المتخيـر
نبـي أتـم الله صـورة فخـره ... وآدم فـي فخـارة يتـصور
نظـيم العـلا والأفـق مـا مـد طرسـه ... ولا فقـر الزهـر الكواكـب تنثـر
ولا لعـصا الجـوزاء فـي الـشهب آيـة ... وبحـر الـدجى مـن تحتهـا يتفجـر
نبـي لـه مجـد قـديم وسـودد ... همـيم وأخبـار تجـل وتخبـر
تحـزم جبريـل لخدمـة وحيـه ... وأقبـل عيـسى بالبـشارة يجهـر
فمـن ذا يـضاهيه وجبريـل خـادم ... لمقدمـه العـالي وعيـسى مبـشر
تهـاوت لمأتـاه النجـوم كأنهـا ... تـشافه بالخـد النثـري وتعفـر
وينـضب هـام مـن بحيـرة سـاوة ... ولـم لا وقـد فاقـت بكفيـه أبحـر
نبـي لـه الحوضـان هـذي أصـابع ... تفـيض وهـذا فـي القيامـة كـوثر

وعن جاهه النار أن هذي بفارس ... تبوخ وهذي في غد حين نحشر
إذا ما تشفعنا به كف غيظها ... وقالت عبارات الصراط لنا اعبروا
تنقل نورًا بين أصلاب سادة ... فلله منه في سماء الفضل نير
ومن أجله جيء الذبيجان بالفدا ... وصين دم بين الدماء مطهر
ولما أراد الله إظهار دينه ... بدا قمرًا والشرك كالليل يكفر
فجلى الدجى واستوثق الدين ... واقام بنصر الله داع مظفر
عزائم من لا يختشي يوم غزوه ... ردًا وعطا من ليس للفقر يحذر
علا عن محاكاة الغمام لفضله ... وكيف يحاكيه الخديم المسخر
يظلله وقت المسير وتارة ... يشير إليها بالبنان فتمطر
الم تر أن الفطر في الغيم فارس ... إذا برزت آلاؤه يتعطر
هو البحر فياض الموارد للورى ... ولكنه العذب الذي لا يتكدر
فمن لي بلفظ جوهر قصائدًا ... ينظم حتى يمدح البحر جوهر
وهيهات أن نخص بتقرير مادح ... مناقب في الذكر الحكيم تقرر
إذا شعراء الذكر قامت بمدحه ... فما قدر ما تنشى الأنام وتشعر
نبي زكا أصلًا وفرعًا وأقبلت ... إليه أصول في الثرى تتجرر
وخاطبه وحش المهامة آنسا ... إليه وما عن ذلك الحسن ينفر
له راحة فيها على البأس والندا ... دلائل حتى في الجماد تؤثر
فبينا العصا فيها وريق قضيبها ... إذا هو مشحوذ الغرار بن أبتر
كذا فالتكن في شكرها وصفاتها ... يد بين أوصاف النبيين تشكر
صخت ومحت شكوى قتادة ... بها العين تجري أو بها العين تبصر
لعمري لقد سارت صفات محمد ... كذاك النجوم الزاهرات تسير

أرى معجز الرسل انطوى بانطوائهم ومعجــزة حتــى القيامــة ينـشر
كبير فخار الذكر في الخلق كلما تــلا قــارئ أو قــال الله أكبــر
هو المرتقي السبع الطباق إلى مدى لجبريــل عنــه موقــف متــأخر
هو الثابت العليا على كل مرسل بحيث له في حضرة القدس محضر
هو المصطفى والمقتفى لا مناره تحـــط ولا أنـــواره تتكـــدر
إليك رسول الله مدّت مطالبي على أنها أضحت على الفوز تقصر
خلقت شفيعًا للأنام مشفعًا فرجواك في الدارين أجدى وأجدر
ولي حالتا دنيا وأخرى أراهما يمــران بــي فــي عيــشه تقــرر
حياة ولكن بين ذل وغربة فلا العز يستحلى ولا البين يفتر
وعزم إلى الأخرى يهم نهوضه ولكنــه بالــذنب كــالظهر مــوقر
تصبرت في هذا وذاك كأنني من العجز والبوسى قتيل مصبر
وهأنا قد أبلغت عذرى قاصدًا وأيقنـــت أن النجـــع لا يتعـــذر
عليك صلاة الله في كل منزل يعبر عن غرس الجنان ويعبر
وآلك والصحب الذين عليهم تحل حبا مدح وتعقد خنصر
بجاهك عند الله أقبلت لائذًا وتكبر حاجاتي وجاهك أكبر
ونظمت شعري فيك يزهى قصيده على كل بيت لي من الشعر يعمر
معظمة المعنى يكرر لفظها فيحلو لنا منها الكلام المكرر
دنت من صفات الفضل منك فإنها لتفضل ما أبداه طي ويحتر
وما ضرها إذ كان نشر نسميها رخاء إذا ما لم يكن فيه صرصر

ينبغي لك أيها الطالب الراغب في معرفة جودة الصناعة الشعرية أن تكرر النظر في هذا الشعر وتتأمله بيتًا بيتًا حتى تقف على ما أسكن كلًّا

منها من أنواع البديع وحسبك شاهدًا على براعة الاستهلال، وما ينبغي أن يصدر به المديح النبوي من النسيب فإنه بدأ الكلام بقوله: صحا القلب وهي عبارة عربية ابتدأ بها زهير قصائد وغيره فهي تصرف خيالك إلى العرب وتشعر أنه يريد القول في تلك الناحية، ثم خرج عن هذه الإشارة الخفية إلى ما هو أوضح منها فذكر النسمة ولمعة البرق والغضا ثم مضى في ذكر الأماكن الحجازية على طريقة الغرام حتى تخلص إلى المدح، ومن بديع شعره قصيدته التي جمع فيها بين تهنئة ملك وتعزيته بأبيه وإن كان قد سبق به كما عرفت؛ ولكنه قد أجاد الاتباع وأحسن ما شاء وهي هذه:

هناء محي ذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع ... شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
تدر مجاري الدمع والبشر واضح ... كوابل غيث في ضحى الشمس قدهما
سقى الغيث عنا تربة الملك الذي ... تدانت له الدنيا وعزبه الحما
مليكان هذا قد هوى لضريحه ... برغمي وهذا صانه الله قد سما
ودوحة فضل شادوى تكافأت ... فغصن ذوي منها وآخر قد نما
فقدنا لأعناق البرية مالكًا ... وشمنا لأنواع الجميل متمما
إذا الأفضل الملك اعتبرت مقامه ... وجدت زمان الملك قد عاد مثل ما
أعاد معالي البيت حتى حسبته ... بوزن الثنا والحمد بيتًا منظما
وناداه ملك قد تقادم إرثه ... فقام كما ترضى العلا وتقدما
تقابل منه مقلة الدهر سوددا ... صميما وينضو الرأي عضبا مصمما
ويقسم فينا كل سهم من الندا ... ويبعث للأعداء في الروع أنهما
كأن ديار الملك غاب إذا انقضى ... به ضيغم أنشى له الدهر ضيغما

كأنَّ عماد البيت غير مقوض ... وقد قمت يا أزكى الأنام وأخرما
نهضت فما قلنا سيادة معشر ... تداعت ولا بنيان قوم تهدما
أما والذي أعطاك ما أنت أهله ... لقد شاد في علياك ركنًا معظما
وقد أنشر الأسلاف بالخلف الذي ... تمكن في عليائه وتحكما
وإن تك أوقات المؤيد قد خلت ... فقد جددت علياك وقتا وسوسها
عليه سلام الله ما ذرّ شارق ... ورحمته ما شاء أن يترحما
هو الغيث ولى بالثناء مشيعًا ... وأبقاك بحرًا بالمواهب مفعما
لك الله ما أبهى وأبهر طلعة ... وأشرف أخلاقًا وأفضل منتما
بك انبسطت فينا التهاني وأنشأت ... ربيع الهنا حتى نسينا المحرما
وباسمك في الدنيا استقرت محاسن ... يقرّ سناها الناظر المتوسما
نوال كما يسري السحاب مطبقًا ... وبأس كما يمضي القضاء محتما
وفضل به اللفاظ للعجز أخرست ... وعزبه قلب الحسود تكلما
أعدت حياة المقترين وقد عفت ... فأنت ابن أيوب وإلا ابن مريما
إذا الغيث صلى خلف جدواك ... ثنت عزمه للاعتراف فسلما
يراعك يوم السلم ينهلّ ديمة ... وسيفك يوم الحرب ينهل في الدما
وذكر ندا كفيك بدني من الغنا ... ولثم ثرى نعليك بروي من الظما
لك الملك إرثًا واكتسابًا فقد غدا ... كلا طرفيه في السيادة معلما
ومثلك إما للسرير منعمًا ... يثوب وإما للجواد مطهما
ولما عقدنا باسم علياك خنصرًا ... رأينا من التحقيق أن تتختما
أيا ملكًا قد أنجد الناس عزمه ... فأنجد مدح الناس فيه واتهما
سبقت لك المداح قد ما وبادرت ... يدا كلمى فاستلزمت منك ملزما

ليـالي أنـشى فـي أبيـك مـدائحًا وفيـك وأروى مـسند الفـضل عنكمـا
وأغـدو بـأنواع الجميـل مطوقًـا فأسـجع فـي أوصـافه مترنمـا
واستوضـح العليـا فيـك فراسـة بملكـك لا أعطـي عليهـا منجمـا
فعـش للـورى واسـلم سـعيدًا مهنأ فحـظ الـورى فـي أن تعـيش وتـسلما
وسـر فـي أمـان الله وأقـدم بفـضله أسـر الـورى مـسرى وأيمـن مقـدما
أعـدت زمـان البشر والجـود والثنا إلـى أن مـلأت العين والكـف والفمـا

في قوله: فقدنا لأعناق البيت تليح بمالك ومتمم ابني نويرة السابق ذكرهما، وقوله: ولا بنيان قوم تهدما أي: كما قال الأول ومنه ضمن.

عليـك سـلام الله قـيس ابـن عاصـم ورحمتـه مـا شـاء أن يترحمـا
ومـا كـان قـيس هلكـه هلـك واحـد ولكنـه بنيـان قـوم تهـدما

ومن جيد شعر الصفي وديوانه كبير قسمه اثنى عشر بابًا في أجناس المعاني وكله مفيد وميله للمعنى أكثر من ميله للفظ على أنه شديد الملاحظة للبديع قصيدته التي يمدح بها الناصر محمد ابن قلاوون أحد ملوك الديار المصرية، وعارض بها قصيدة لأبي الطيب وقد اقترح عليه أهل الديوان ذلك ومطلع قصيدة أبي الطيب المعارضة:

بـأبي الـشموس الجانحـات غواربًـا اللابـسات مـن الحريـر جلابيـا

وقد ضمن الصفي صدر المطلع دلالة على المعارضة وهذه قصيدة الصفي:

أسـبلن مـن فـوق النهـود ذوائبًـا فتـركن حبـات القلـوب ذوائبـا
وجلـون فـي صـبح الوجـوه أشـعة غـادرن فـود الليـل منهـا شـائبا
بـيض دعـاهن الغبـي كواعبًـا ولـو استبان الرشـد قـال كواكبـا

وربائب فإذا رأيت نفارها ... من بسط أنسك خلتهن رباربا
سفهن رأى المانوية عندما ... أسبلن من ظلم الشعور غياهبا
وسفرن لي فرأين شخصًا حاضرًا ... شدهت بصيرته وقلبًا غائبا
أشرقن في حلل كأن أديمها ... شفق تدرعه الشموس جلابيا
ومعربد اللحظات يثني عطفه ... فيخال من مرح الشبيبة شاربا
حلو التعتب والدلال يروقه ... عتبي ولست أراه إلا عاتبا
عاتبته فتضرجت وجناته ... وأزور ألحاظًا وقطب حاجبا
فإذا بنى الخد الكليم وطرفه ... ذو النون إذ ذهب الغداة مغاضبا
ذو منظر تغدوا القلوب لحسنه ... نهبًا وإن منح العيون مواهبا
لأبدع إن وهب النواظر حظوة ... من نوره ودعاه قلبي ناهيا
فمواهب السلطان قد كست الورى ... نعمًا وتدعوه القساور سالبا
الناصر الملك الذي خضعت له ... صيد الملوك مشارقًا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات الفراغ متاعبا
بمكارم تذر السباسب أبحرًا ... وعزائم تدع البحار سباسبا
لم تخل أرض من ثناه ولو خلت ... من ذكره ملئت قنا وقواضبا
ترجى مواهبه ويرهب بطشه ... مثل الزمان مسالمًا ومحاربا
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ الأكف موهبا
كالغيث يبعث من عطاء وابلًا ... سبطًا ويرسل من سطاه حاصبا
كالليث يحمي غابه بزئيره ... طورًا وينشب في القنيص مخالبا
كالسيف يبدي للنواظر منظرًا ... طلقًا ويمضي في الهياج مضاربا
كالسيل يحمد منه علب واصل ... ويعده قوم عذابًا واصبا

كـالبحر يهـدي للنفـوس نفائـسًا منـه ويبـدي للعيـون عجائبـا
فـإذا نظـرت نـدى يديـه ورأيـه لـم تلـق إلا صـيبًا أو صـائبا
ابقـى قـلاوون الفخـار لولـده إرثًـا وفـازوا بالثنـاء مكاسـبا
قـوم إذا سـئموا الصوافن صيروا للمجـد أخطـار الأمـور مراكبـا
عـشقوا الحـروب بتيمًـا بلقـا العـدا فكـأنهم حـسبوا العـداة حبائبـا
وكأنمـا ظنـوا الـسيوف سـوالفًا واللـدن قـدا والقـسى حواجبـا
يـا أيهـا الملـك العزيـز ومـن لـه شـرف يجـر علـى النجـوم ذوائبـا
أصـلحت بـين المـسلمين بهمـة تـذر الأجانـب بـالوداد أقاربـا
ووهبـتهم زمـن الأمـان فمـن رآى ملكًـا يكـون لـه الزمـان مواهبـا
قـرأوا خطابًـا كـان خطبًـا فادحًـا لهـم وكتبًـا كـنّ قبـل كتائبـا
وحرسـت ملكـك مـن رجيـم مـارد بـصوارم إن صـلت كـنّ كواكبـا
حتـى إذا خطـف المكـافح خطفـة ابتعتـه منهـا شـهابًا نافيـا
لا ينفـع التجريـب خـصمك بعـدما أفنيـت مـن أفنـى الزمـان تجاربـا
صـرمت ثمـل المـارقين بمـارق تبديـه مـسلوبًا فيرجـع سـالبا
صـافي الفرنـد حكـى صباحًـا جامدًا أبـدى النجيـع بـه شـعاعًا ذائبـا
وكتيبـة تـذر الـنصهيل رواعـدًا والبـيض برقًـا والعجـاج مـصائبا
حتـى إذا ريـح الجـلاد حـدت لهـا مطـرت فكـان الوبـل تـبلا صـائبا
بـذوابل ملـس يخلـن أراقمًـا وشـوازب جـرد يخلـن عقاربـا
تطـأ الـصدور مـن الـصدور كأنمـا تعتـاض مـن وطء التـراب ترائبـا
فأقمـت تقـسم للوحـوش وظائفًـا فيهـا وتـصنع للنـسور مآدبـا
وجعلـت هامـات الكمـاة منـابرًا وأقمـت حـد الـسيف فيهـا خاطبـا

يا راكب الخطر الجليل وقوله فخر بمجدك لأعدمت الراكبا
صيرت أسحار السماع بواكرا وجعلت أيام الكفاح غياهبا
وبذلت للمداح صفو خلائق لو أنها للبحر طاب مشاربا
فرأوك في جنب النضار مفرطًا وعلى صلاتك والصلات مواظبا
أن يحرس الناس النضار بحاجب كان السماح لعين مالك حاجبا
لم يملئوا فيك البيوت غرائبًا إلا وقد ملئوا البيت رغائبا
أوليتني قبل المديح عناية وملأت عيني هيبة ومواهبا
ورفعت قدري في الأنام وقد رأوا مثلي لمثلك خاطبًا ومخاطبا
في مجلس ساوى الخلائق في الندا وترتبت فيه الملوك مراتبا
وافيته في الفلك أسعى جالسًا فخرا علي من جاء يمشي راكبا
فأقمت أنفذ في الزمان أوامرًا مني وأنشب في الخطوب مخالبا
وسقتني الدنيا غداة وردته صفوًا وما مطرت علي مصائبا

أي: كما مطرت المعارض حيث يقول: أظمتني الدنيا وكان ذلك بسبب تعرفه إذا قرأت شرح قصيدة أبي الطيب:

فطفقت أملأ من ثناك ونشره حقبًا وأملأ من نداك حقائبا
أثنى فتثنيني صفاتك مظهرًا عيا وكم أعيت صفاتك خاطبا
لو أن أعضائي جميعًا ألسن تثني عليك لما قضيت الواجبا

وله في باب الآداب والحكم حسان مقاطيع يحسن بالطالب حفظها منها قوله:

صاحب إذا ما صحبت ذا أدب مهذبًا زان خلقه الخلق
ولا تصاحب من في طبائعه شر فإن الطباع تسترق

أي: كما يقول الناس الطبع لص، وفى الشعر القديم:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي الحديث الشريفت: «**كل امرئ يحشر على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» ومنها قوله:

أقلل المزح في الكلام احترازًا ... فبإفراطه الندماء تراق

قلة السم لا تضر وقد يقتـ ... ـل من فرط أكله الدرياق

الدرياق مركب يعطي من أصابه سم ليبر أو قد قيل: قليل الضار خير من كثير النافع، والإفراط كما عرفت في أكثر الأشياء ذميم وقوله:

عود لسانك قول الخير تنج به ... من زلة اللفظ بل من زلة القدم

احرس كلامك من خل تنادمه ... إن النديم لمشتق من الندم

وقوله:

اسمع مخاطبة الجليس ولا تكن ... عجلًا ينطقك قبل ما تتفهم

لم نعط من أذنيك نطقًا واحدًا ... إلا لتسمع ضعف ما تتكلم

وقوله:

إن الغنى لشهاب كلما اعتكرت ... دجى الخطوب جلا منها حنادسها

لا تنفع الخمسة إلا سماء محدقة ... لديك إلا إذا ما كان سادسها

أي: الغنى فلا ينفعك أب شريف وأخ عظيم وأحماء كرام ومنطق كما يكون وكل ما يتعلق بك من الأشياء إلا إذا كان الغنى لها قرينًا رزقنا الله الغنى وجعلنا من الشاكرين وقوله:

تأمل إذا ما كتبت الكتاب ... سطورك من بعد إحكامها

وهـذب عبـارة طـرز الكـلا م واسـتوف سـائر أقـسامها
فقـد قيـل إن عقـول الرجـا ل تحـت أسـنة أقلامهـا

الجهة الثانية في أمور كلية

يتعين على مريد الصناعة التمكن من عرفتها واعتبارها ليأتي بها على وجهها وأوردها أبو العباس أحمد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، وسماها أصولًا يعتمدها الكاتب في المكاتبات وهي عشرة:

(الأصل الأول): حسن الافتتاح المطلوب في سائر أنواع الكلام من نثر ونظم مما يوجب التحسين ليكون داعية لاستماع ما بعده ويرجع حسن الافتتاح في المكاتبة إلى معنيين: المعنى الأول أن يكون الحسن فيه راجعًا إلى المبتدأ به، أما الافتتاح بالحمد لله كما في بعض المكاتبات؛ لأن النفوس تتشوق إلى الثناء على الله تعالى أو بالسلام الذي جعله الشارع مفتتح الخطاب أو نحو ذلك، وإما بالافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب إليه من تقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك، فإن أمر المكاتبات مبني على التملق واستجلاب الخواطر وتألف القلوب إلى غير ذلك مما يجري هذا المجرى على ما يقتضيه اصطلاح كل زمن في الابتداءات، المعنى الثاني أن يكون الحسن فيه راجعًا إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ وصحة السبك ووضوح المعنى وتجنب الحشو وغير ذلك كما كتب الأستاذ أبو الفضل بن العميد عن ركن الدولة بن بويه إلى من عصى عليه مفتتحًا كتابه بقوله: كتابي إليك وأنا متردد بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك وإعراض عنك فإنك تدل بسابق خدمة أيسرها يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية ثم تشفعها بحادث غلول وخيانة

وتتبعها بخلاف ومعصية أدنى ذلك يحبط أعمالك ويسقط كل ما يرعى لك، وكما كتب أبو جعفر بن برد الأندلسي عن ملكه إلى من عصى ثم عاد إلى الطاعة (أما بعد) فإن الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك دون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك؛ ولكنا لما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرياسة والحفظ لشرائع السياسة تأملنا من ساس جهتك قبلنا فوجدنا يد سياسته خرقاء وعين خرامته عوراء وقدم مداراته شلاء لأنه مال عن ترغيبك فلم ترجه وعن ترهيبك فلم تخشه فادتك جانحتك إلى طلاب المطاعم الدنية وقلة مهابتك إلى التهالك على المعاصي الوبية.

(الأصل الثاني): براعة الاستهلال المطلوبة في كل فن من فنون الكلام بأن يأتي في صدر المكاتبة بما يدل على عجزها فإن كان الكتاب بفتح أتى في أوله بما يدل على التهنئة أو بتعزية أتى في أوله بما يدل على التعزية أو فى غير ذلك من المعاني أتى في أوله بما يدل عليه ليعلم من مبدء الكلام ما المراد كما يحكى أن عمرو بن مسعدة كاتب المأمون أمر كاتبه أن يكتب إلى الخليفة كتابًا يعرفه فيه أن بقرة ولدت عجلًا وجهه وجه إنسان فكتب: أما بعد حمد الله خالق الأنام في بطون الأنعام وفضلاء الكتاب وأئمتهم يعتنون بذلك كل الاعتناء ويرون تركه إخلالًا بالصنعة ونقصًا في الكتابة حتى أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر قد عاب أبا إسحاق الصابي على جلالة قدره في الكتابة واعترافه له بالتقدم في الصناعة بكتاب كتبه بفتح بغداد وهزيمة الترك فقال في أوله: الحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين الوحيد الفريد العلي المجيد الذي لا يوصف إلا بسلب الصفات ولا ينعت إلا برفع النعوت، الأزلي بلا ابتداء الأبدي بلا انتهاء، القديم لا إلى أمد محدود الدائم إلا إلى أجل معدود،

الفاعل لا من مادة امتدها الصانع لا بآلة استعملها الذي لا تدركه الأعين بألحاظها ولا تحده الألسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهدمه الدهور بكرورها ولا تجاريه أقدام النظراء والأشكال ولا تزاحمه مناكب القرناء والأمثال؛ بل هو الصمد الذي لا كفؤ له والفرد الذي لا قؤوم معه والحي الذي لا تخترمه المنون والقيوم الذي لا تشغله الشؤون والقدير الذي لا تؤده المعضلات والخبير الذي لا تعييه المشكلات فقال: إن هذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذي افتتحه بها وإنما تصلح أن توضع في صدر مصنف من مصنفات أصول الدين ككتاب الشامل للجويني وكتاب الاقتصاد للغزالي وما جرى مجراهما، فإما أن توضع في أول كتاب فتح فلا ثم من المكاتبات ما يسعر معه الإتيان ببراعة الاستهلال فيأتي بها فيما يلي ذلك من الكلام في مقدمة المكاتبة قبل الخوض في المقصود ولا يهملها جملة؛ على أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد ذكر في كتابه حسن التوسل إنه إن عسر عليه براعة الاستهلال أتى بما يقارب المعنى وبكل حال فإذا أتى ببراعة استهلال في أول مكاتبة استصحبها إلى الفراغ من الخطبة إن كان الكتاب مفتتحًا بخطبة وإلا استصحبها إلى الفراغ من مقدمة الكتاب الآتي بيانها.

(الأصل الثالث): المقدمة التي يلزم أن ياتي بها في صدر الكتب المشتملة على المقاصد الجليلة تأسيسًا لما يأتي به في مكاتبة مثل أن يأتي في صدر كتب الحث على الجهاد بذكر افتراضه على الأمة وما وعد الله تعالى به من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز الموحدين وقمع الملحدين، وفي صدور كتب الفتح بإنجاز وعد الله الذي وعده أهل الطاعة من النصر والظفر وإظهار دينه على الدين كله وفي صدور كتب جباية الخراج يصدر بحاجة قيام الملك إلى الاستعانة بما يستخرج من

حقوق السلطان في عمارة الثغور تحصين الأعمال وتقوية الرجال، ونحو ذلك مما يجري على هذا النمط فقد قيل: إنه لا يحسن بالكاتب أن يخلي كلامه وإن كان وجيزًا من مقدمة يفتتحه بها وإن وقعت في حرفين أو ثلاثة ليوفى التأليف حقه قال في مواد البيان: وعلى هذا السبيل جرت سنة الكتاب في جميع الكتب من أي نوع من المعاني كالفتوح والتهاني والتعازي والتهادي والاستخبار والاستبطاء والأحماد والإذمام وغيرها؛ ليكون ذلك بساطًا لما يريد القول فيه وحجة يستظهر بها السلطان؛ لأن كل كلام لا بدَّ له من فرش يفرش قبلها ليكون منه بمنزلة الأساس من البنيان قال: ويرجع في هذه المقدمات إلى معرفة الكاتب ما يستحقه كل نوع من أنواع الكلام من المقدمات التي تشاكلها ثم قال: والطريق في إصابة المرمى في هذه المقدمات أن تجعل مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض وأن يوضع للأمر الخاص مقدمة خاصة وللأمر العام مقدمة عامة ولا يطول في موضع الاقتصار ولا يقصر في موضع الإيجاز ولا يجعل أغراضها بعيدة المأخذ معتاصة على المتصفح؛ وذلك أن الكاتب ربما قصد إظهار القدرة على الكلام والتصرف في وجوه النطق فخرج إلى الإملال والإضجار الذي تتبرم منه النفوس وذوو الأخطار الجليلة، أما الكتب التي لا تشتمل على المقاصد الجليلة كرقاع التحف والهدايا ونحوها فقد ذكر في مواد البيان أنه لا تجعل لها مقدمة فإن ذلك غير جائز ولا واقع موقعه ألا ترى أنهم استحسنوا قول بعضهم في صدر رقعة مقترنة بتحفة في يوم مهرجان هذا يوم جرت فيه العادة بأن تهدي العبيد فيه إلى السادة واستظرفوا الكاتب لإيجازه وتقريب المأخذ.

(الأصل الرابع): مواقع الألفاظ الدائرة في الكتب والوادي واحد فيلزم أن يميز موقع كل ليضعه مكانه قال في ذخيرة الكتاب: يجب على الكاتب

الرئيس أن يعرف مرتبة الألفاظ ومواقعها ليرتبها ويفرق بينها فرقًا يقفه على الواجب وينتهي به إلى الصوب فيخاطب كلًّا في مكاتبته بما يستحقه من الخطاب فإنه قبيح به أن يكون خطابه أولا خطاب الرئيس للمرءوس ويتبع ذلك بخطاب المرءوس للرئيس أو يبدأ بخطاب المرءوس للرئيس ثم يتبعه بخطاب الرئيس للمرءوس قال: ومتى استمر الكاتب على هذه المخالفة من الألفاظ والمناقضة نقصت المعاني ورذلت الألفاظ وسقطت المقاصد، وكان الكاتب قد أخل من الصناعة بمعظمها وترك من البلاغة غاية محكمها بل يجب إن بدأ بخطاب رئيس أو نظير أو مرءوس أن يكون ما يتخلل مكاتبته من الألفاظ على اتساق إلى آخرها واطراد من غير مخالفة بينها ولا مضادة ولا مناقضة، نعم يحسن ذلك في معاتبات الإخوان والمداعبات الجارية بين الخلان، وفي هذا الأصل يندرج الفرق بين نحو أصدرنا هذه المكاتبة أو أصدرناها وبين أصدرت وبين صدرت؛ فأصدرناها أعلى بالنسبة للمكتوب إليه للتصريح فيها بالضمير العائد على الرئيس الذي صدزت المكاتبة عنه إذا الشيء يشرف بشرف متعلقه ويلى ذلك في الرتبة أصدرت لاقتضائها إصدارًا في الجملة والإصدار لا بد له من مصدر وذلك المصدر هو الرئيس الصادرة عنه في الحقيقة، وإنما كانت دون الأولى للتصريح بالضمير هناك دون هنا ودون ذلك في الرتبة صدرت لاقتضاء الحال صدورها بنفسها دون دلالة على المصدر أصلًا والفرق بين ونبدي لعلمه وبين نوضح لعلمه فنبدي لعلمه أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه؛ لأن الإبداء يرجع في المعنى إلى إظهار شيء خفي والإيضاح يرجع إلى بيان مشكل وحصول الإشكال المحتاج إلى الإيضاح ربما دل على بعد فهم المخاطب عن المقصود بخلاف إظهار الخفي فإنه لا ينتهي إلى هذا الحد والفرق بين علمه الكريم وعلمه المبارك؛ فالكريم

أعلى من المبارك لأن في الكريم عراقة أصل وشرف قد توجد في المبارك وقد تتخلف عنه والفرق بين ومرسومنا الفلان بكذا وبين والمرسوم له بكذا؛ فمرسومنا أعلى بالنسبة إلى المكتوب عنه لاشتماله على نوع الجمع المقتضية للتعظيم ولذلك اختصت بالملوك دون غيرهم بخلاف والمرسوم له فإنه عار عن ذلك والفرق بين والمسئول وبين والمستمد فإن المسئول أعلى بالنسبة إلى المكتوب عنه فإن المسئول يتضمن نوع ذلة بخلاف الاستمداد فإنه لا يستلزم ذلك، والفرق بين بلغنا وبين أنهى إلى علمنا وبين اتصل بنا فاتصل بنا أعلى من أنهى إلى علمنا لما في معنى الاتصال من التلاصق بخلاف الإنهاء وأنهى إلى علمنا أعلى من بلغنا؛ لأن البلوغ قد يكون على لسان الآحاد والفرق بين أنهى فلان كذا وبين عرفنا كذا فعرفنا أعلى بالنسبة إلى رافع الخبر لأن في التعريف مزية قرب من الرئيس؛ بخلاف الإنهاء فإنه لا يقتضي ذلك والفرق بين وردت مكاتبته وبين وردت علينا مكاتبته فوردت علينا أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبة الواردة لتخصيصها بالورود على الرئيس بخلاف الورود المطلق، والفرق بين عرض علينا مكاتبتك بين وقفنا على مكاتبتك فوقفنا أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبة؛ لأن الوقوف عليها يكون بنفسه والعرض يكون من غيره والفرق بين وشكرت الله تعالى على سلامته وبين وتوالى شكري لله تعالى؛ فتوالي شكري أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه لما فيه من معنى التكرار ومزيدا لشكر المعروف بالاحتفال والفرق بين ورغبت إلى الله تعالى وبين وضرعت إلى الله تعالى فضرعت أعلى من رغبت لما في الضراعة من مزيد الابتهال في الطلب؛ بخلاف الرغبة فإنها لا تبلغ هذا المبلغ والفرق بين وقابلت أمره بالطاعة وبين امتثلت أمره بالطاعة فامتثلت أمره أعلى من قابلت أمره لما في الامتثال من معنى الإذعان والانقياد

بخلاف المقابلة والفرق بين وشفعت له وبين وسالت فيه فالسؤال أعلى في حق المسئول من الشفاعة لما في الشفاعة من رفعة المقام المؤدي إلى قبول الشفاعة والفرق بين وخاطبت فلانًا فى أمه وبين تحدث في أمره؛ فتحدثت أشد في تواضع المتكلم من خاطبت لأن الخطاب من الألفاظ الخاصة التي لا يتعاطاها كل أحد بخلاف التحدث، والفرق بين تشريفي بكذا وبين إسعافي بكذا فالإسعاف أعلى رتبة من التشريف لما فيه من دعوى الحاجة والفاقة إلى المطلوب بخلاف التشريف وإتحافي دون تشريفي لأن الإتحاف قد لا يقتضي تشريفًا، والفرق بين قوله: نزل عنده وبين قوله: نزل بساحته؛ فالساحة أعلى لما فيه من معنى الفسحة والاتساع. قلت: وربما وجب اجتناب هذه الكلمة لملاحظة وقوعها في قوله: عز ذكره: {فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين} كما ورد عن بعض الصحابة أنه سمع إنسانًا يقول: انصرفوا بنا فقال: ألم تسمع: {ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم} فقل: انقلبوا بنا لتكون موافقًا قوله تعالى: {فانقلبوا بنعمة من الله وفضل}. والفرق بين فيحيط علمه بذلك وبين فيعلم ذلك فيحيط علمه أعلى من يعلم ذلك؛ لأن في قوله: فيحيط علمه بذلك نسبة إلى سعة العلم لما فيه من معنى الإحاطة بخلاف فيعلم ذلك.

(الأصل الخامس): الأدعية التي جرت عادة السلف وتبعهم الخلف باستعمالها في المكاتبات والنظر فيها من ستة أوجه:

الأول: أن يعرف مراتب الدعاء ليوقعها في مواقعها ويوردها في مواردها ويأتي ذلك في عدة أدعية منها الدعاء بإطالة البقاء والدعاء بإطالة العمر، فالدعاء بإطالة البقاء أرفع من الدعاء بإطالة العمر وذلك أن البقاء لا يدل على مدة تنقضي؛ لأنه ضد الفناء والعمر يدل على مدة تنقضي

ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر قال في مواد البيان: ومن هنا جعل الدعاء بإطالة البقاء أول مراتب الدعاء وخص بالخلفاء وجعل ما يليه لمن دونهم ويتلوه الدعاء بالمد في العمر فيكون دون الدعاء بالإطالة؛ لأن الوصف بطول الزمان أبلغ من الوصف بالمد فيه من حيث إن المد قابل للمدة الطويلة والمدة القصيرة، ولذلك صارت مرتبة الطول أقرب إلى مرتبة البقاء من مرتبة المد، ومنها الدعاء بدوام النعمة والدعاء بمضاعفتها فالدعاء بالمضاعفة أعلى لأن الدوام غايته استصحاب ما هو عليه والمضاعفة مقتضية للزيادة على ذلك ومنها الدعاء بعز الأنصار وبعز النصر وبعز النصرة، وقد اصطلح كتاب الزمان على أن جعلوا أعلاها الدعاء بعز الأنصار لأن عز أنصاره عزله بالضرورة مع ما فيه من تعظيم القدر ورفعة الشأن إذ الأنصار لا تكون إلا لملك عظيم أو أمير كبير والدعاء بعز النصر أعلى من الدعاء بعز النصرة؛ لما في الأول من معنى التذكير وهو أرفع رتبة من التأنيث على أنه لو جعل الدعاء بعز النصر أعلى من الدعاء بعز الأنصار لكان له وجه لما في عز النصر من الغناء عن عن الأنصار، ومنها الدعاء بعز الأحكام والدعاء بتأييد الأحكام فالدعاء بعز الأحكام أعلى لأن المراد بالتأييد التقوية فقد توجد القوة ولا عز معها، وينبغي للكاتب أن يحترز في تنزيل كل أحد من المكتوب إليهم منزلته في الدعاء فلا ينقص أحدًا عن حقه ولا يزيده فوق حقه فقد قال في مواد البيان: إن الملوك تسمح ببدرات المال ولا تسمح بالدعوة الواحدة.

الثاني: أن يعرف ما يناسب كل واحد من أرباب المناصب الجليلة من الدعاء فيخصه به فيأتي بالدعاء المكاتبة للملوك بإطالة البقاء ودوام السلطان وخلود الملك وما أشبه ذلك ويأتي في المكاتبة إلى الأمراء بالدعاء بعز الأنصار وعز النصر ومضاعفة النعمة ومداومتها وما شاكل

ذلك، على أن ابن شيث قد ذكر في معالم الكتابة أن الدعاء بعز النصر ومضاعفة الاقتدار كان في الدولة الأيوبية مما يختص بالسلطان دون غيره ويأتي في المكاتبات للوزراء من أرباب الأقلام ومن في معناهم بالدعاء بسبوغ النعماء وتخليد السعادة ودوام المجد وما يضاهي ذلك، ويأتي في المكاتبات للقضاة والحكام بالدعاء بعز الأحكام وتأييد الأحكام وما يطابق ذلك، ويأتي في المكاتبة إلى التجاز بالدعاء بمزيد الإقبال وخلود السعادة وشبه ذلك، ويأتي في الإخوانيات ومكاتبة النظراء من الدعاء بما يقتضيه الحال بينهم من الود والإدلال بحسب ما يراه الكاتب ويؤدي إليه اجتهاده قال في مواد البيان: وقد كانوا يختارون في الدعاء للأدباء إبقاء الله وأكرمك الله وفي الدعء للابن والحرمة أبقاك الله وأمتع بك، أما أهل الكفر فقد اصطلحوا على الدعاء لهم بطول البقاء وما في معناه، أما جواز أصل الدعاء لهم فلما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم استسقى فسقا يهودي فقال له: «**جملك الله**» فما رؤي الشيب في وجهه حتى مات فدل على جواز الدعاء للكافر بما لا ضرر فيه على المسلمين ما لم ينضم إليه قوة ونحو ذلك، بل ربما كان في طول بقائه حمل جزية أو غنيمة أو ثواب جهاد ونحو ذلك، والثالث أن يعرف ما يناسب كل حالة من حالات المكاتبات فيأتي لكل حالة بما يناسبها من الدعاء قال في مواد البيان: ينبغي أن تكون الأدعية دالة على مقاصد الكتاب فإن كان في الهناء أتى بما يناسبه، وكذلك الحال في كل معنى من المعاني التي يكتب فيها من التعزية وشكر النعمة إلى غير ذلك، فإنه متى خرج الدعاء عن المناسبة وباين المقصود خرج عن جادة الصناعة وتوجه اللوم على الكاتب، لا سيما إذا أتى بما يضاد المراد كما حكي أبو هلال العسكري في الصناعتين

أن بعضهم كتب إلى محبوبته: عصمنا الله وإياك مما يكره، فكتبت إليه: يا غليظ الطبع إن استجيب لك لم نلتق أبدًا.

ويختلف الحال في ذلك باختلاف حال المكاتبات فتارة يكون باعتبار الشيء المكتوب بسببه كما يكتب في معنى البشارة بجلوس الملك على تخت الملك لازال أمره وأمتعه من البشائر بما يتوضح على جبين الصباح بشره وما يترجح على ميزان الكواكب قدره وما ينفسح من أوقات أمن لا يختلف فيها زيده وعمره وكما يكتب في البشرى بفتح ولا زالت آيات النصر تتلى عليه من صحف البشائر ونفائس الظفر تجلى على سره في أسعد طائر وفواتح الفتح تزهى به الأسرة وتزهو بنوره المنابر، وكما يكتب في التهنئة بعافية ولا برح في برد الصحة رافلًا بعزمه وحزمه كافلًا والإقبال لجنابه العالي بالهناء بعافية وأصلا وتارة يكون باعتبار حال المكتوب إليه التي هو بصددها كما يكتب لمن خرج إلى الغزو وحفه بلطفه، فلا يخيب وهيأ له النصر والفتح القريب وجعل على يديه دمار الكفار حتى لا يبقى لهم بشد بأسه من السلامة نصيب، وكما يكتب إلى من خرج إلى الصيد وأمتعه بصيوده وجعل الأقدار من جنوده وأراء من مصارع أعدائه لسيوفه ورماحه ما يراه من مصارع سيده ببزاته وفهوده، وكما يكتب لمن خرج في سفر وقضى بقرب رجعته وجعله كالهلال في مسيره سبب رفعته وسكن بقدومه أشواق أوليائه وأهل محبته وكما يكتب لمن خرج لتخضير البلاد وألبس البلاد بقدومه أخضر الأثواب وأحله أشرف محل وأخضر جناب وتارة يكون باعتبار وظيفة المكتوب إليه التي هو قائم بها كما يكتب إلى كافل المملكة ولا زالت كفاية كفالته تزيد على الآمال ويتقرب إلى الله تعالى بصالح الأعمال ويكفل ما بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال، وكما يكتب إلى قاض ويفصل بين الخصوم

بأحكامه المسددة وأقضيته التي بها قواعد الإسلام ممهدة وأبنية الشرع المطهرة وأركانه مشيدة، وكما يكتب إلى متصوف وأعاد من بركات تهجداته وأنار الليالي بصالح دعواته وتارة يكون باعتبار بلد المكتوب إليه وناحيته كما يكتب إلى نائب الشام ولازال النصر حلية أيامه وشامة شامه وغمامة ما يخلف على بلده المخصب من غمامه، وكما يكتب إلى نائب حلب في زمن الحروب ولازال يعد ليوم تشيب فيه الولدان ويعد دونه كل محارب بين الشهباء والميدان ويعم حلب من حلى أيامه ما لا يفقد معه إلا اسم ابن حمدان ونحو ذلك مما ينخرط في هذا السلك وتارة يكون باعتبار اسم المكتوب إليه ولقبه كما يكتب إلى من لقبه سيف الدين ولا زال سيفه في رقاب أعدائه مغمدًا وحده يذر كل ملحد ملحدًا، وكما يكتب إلى من لقبه عز الدين ولازال عزه دائمًا والزمان في خدمته قائمًا وطرف الدهر عن مراقبة سعادته نائمًا، وكما يكتب إلى من لقبه شمس الدين ولازالت شمس سعادته مشرقة وأغصان فضله بالعوارف مورقة وعيون طوراق الغير عنه في كل زمن مطرقة، وكما يكتب إلى من لقبه ناصر الدين ونصر عزائمه وشكر مكارمه ووفر من الحسنات مغانمه إلى غير ذلك من الأمور التي ستقف على الكثير منها في الكلام على مقاصد الكتاب إن شاء الله تعالى.

الرابع: أن يعرف مواضع الدعاء على المكتوب إليه ومن الذي يصرح بذلك في المكاتبة إليه، وقد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أن العاء في صدور الكتب كان من عوائد مكاتبة الأدنى إلى الأعلى مثل وقصم وأذل وقهر وحصد وكذلك المماثل والمقارب فأما من الأعلى إلى الأدنى فلم يكن ذلك معروفًا عند المتقدمين؛ لا سيما إذا كان الكتاب عن السلطان ثم قال: ولكن قد أفلت الحبل في ذلك الآن قال: ولا يقال للأدنى غير كبت

عدوه أو ضده أو حاسده خاصة ومنها أن يعرف ما كرهه الكتاب من الدعاء فيتجنبه وهو على ضربين: (الضرب الأول) ما كرهوه في المكاتبة إلى كل أحد قال في مواد البيان: كانت عادتهم جارية أن يتجنبوا من الأدعية ما لا محصول له كقولهم: جعلني الله فداك وقدمني إلى السوء دونك لما في ذلك من التصنع والملق الذي لا يرضاه السلطان لأن نفس الداعي لا تسمع باستجابته ويؤيد ما ذكره ما كتب به ابن عبد ربه إلى بعض أصدقائه جعلت فداك على الصحة والحقيقة لأعلى مجرى المكاتبة ومذهب العادة قال في مواد البيان: وإنما يحسن ذلك من الخواص الذين يتحققون أن بقاءهم معذوق ببقاء رؤسائهم وثبات نعمهم مقرون بثبات أيام سلاطينهم؛ لأنه يصدر عنعقائد مستحكمة من بذل الأنفس دونهم وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل في صناعة الكتاب مثله عن مالك بن أنس، واحتج له بما روي عن الزبير رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم: جعلت فداك فقال له: «**ما تركت أعرابيتك بعد**». على أن بعضهم قد أجاز ذلك احتجاجًا بقوله صلى الله عليه وسلم لبعض من كان يرمي دونه يوم أحد: «**ارم فداك أبي وأمي**». وبما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «**ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟**». قال: نعم جعلني الله فداك. ولم ينكر عليه، فلعل إنكاره عليه كان لحالة قارنت الدعاء بذلك، وفي معنى ذلك كلما يجري هذا المجرى ونحوه. (الضرب الثاني) ما يختص كراهته بالعبض دون البعض وهو نوعان (النوع الأول) ما يختص بالرجال، فمن ذلك ما ذكره في مواد البيان أنهم كانوا لا يستحسنون الدعاء بالإمتاع نحو: أمتع الله بك، وأمتعني الله بك في حق الإخوان، ومما يحكى في ذلك أن محمد

بن عبد الملك الزيات كتب إلى عبد الله بن طاهر في كتاب وأمتع بك، فكتب إليه عبد الله بن طاهر:

أحلت عما عهدت من أدبك ... أم نلت ملكًا فتهت في كتبك
أتعبت كفيك من مكاتبتي ... حسبك مما يزيد في تعبك
إن جفاء كتاب ذي مقة ... يكون في صدره وأمتع بك

فأجابه محمد بن عبد الملك الزيات معتذرًا بقوله:

كيف أخون الإخاء يا أملي ... وكل شيء أنال من سببك
إن يك جهل أتاك من قبلي ... فعد بفضل عليّ في أدبك

(النوع الثاني) ما يختص بالنساء فقد ذكر أبو جعفر النحاس أنه لا يقال في مكاتبتهن: وأدام كرامتك ولا وأتم نعمته عليك؛ ولكن لديك إما منع الدعاء لهن بالكرامة، فلما حكى محمد بن عمر المدائني أن بعض عمال زبيدة كتب إليها كتابًا بسبب ضياع لها فوقعت له على ظهر كتابه أردت أن تدعو لنا فدعوت علينا فأصلح خطأك في كتابك وإلا صرفناك عن جميع أعمالك فأدركه القلق وجعل يتصفح الكتاب ويعرضه على الكتاب فلا يجد فيه شيئًا إلى أن عرضه على بعض أهل المعرفة فقال: إنما كرهت دعاءك في صدر كتابك بقولك: وآدام كرامتك لأن كرامة النساء دفنهن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دفن البنات من المكرمات**» فغير ذلك الحرف من كتابه وأعاده إليها فوقعت له على ظهره أحسنت ولا تعد.

(الخامس) أن يتجنب الخلاف في الدعاء في فصول الكتاب ولا يوالي بين دعوتين منه، فأما الخلاف في الدعاء فقال أبو جعفر النحاس هو مثل أن يقول: أطال الله بقاء سيدي بلفظ الغيبة ثم يقول بعد ذلك: وبلغك

أملك بلفظ الخطاب، وأما الموالاة بين دعوتين ولا يأتي بهما متفقتين كأن يقال: حرس الله الأمير أعزه الله.

(السادس): أن يتجنب وقوع اللبس في الدعاء فإذا ذكر الرئيس مع عدوه مثلًا لم يدع للرئيس حينئذ، فإنه لو ذهب يقول: وقد كان من عدو سيدي أبقاه الله كذا لاحتمل عود الدعاء إلى الرئيس وإلى عدوه.

(الأصل السادس): أن يعرف ما يناسب المكتوب إليه من الألقاب فيعطيه حقه منها ويتعلق الغرض من ذلك بثلاثة أمور: (أحدها): أن يعرف ما يناسب كل لقب من الألقاب الأصول كالمقام والمقر والجناب والمجلس في زماننا، فيعطي كل أحد من المكتوب إليهم ما يليق به من ذلك فيجعل المقام لأكابر الملوك والمقر لمن دونهم من الملوك وللرتبة العليا من أهل المملكة والجناب للرتبة الثالثة من الملوك والرتبة الثانية من أهل الدولة والمجلس للرتبة الرابعة من الملوك والرتبة الثالثة من أهل الدولة ومجلس الأمير لمن دون ذلك من أهل الدولة على المصطلح المستقر عليه الحال. (الثاني): أن يعرف ما يناسب كل لقب من الألقاب الأصول من الألقاب والنعوت التابعة لذلك فيتبع كل واحد من الأصول بما يناسبه من الفروع. (الثالث): أن يعرف مقدار المكتوب إليه فيوفيه قسطه من الألقاب في الكثرة والقلة بحسب ما يجري عليه الاصطلاح فقد ذكر في معالم الكتابة أن السلطان لا يكثر في المكاتبة إليه من نعوته؛ بل يقتصر على الأشياء التي تكون فيه مثل العالم العادل، أما غير ذلك فيقع باللقبين المشهورين وهما نعته المفرد ونعته المضاف إلى الدين وأنه في الكتابة عن السلطان كلما زيد في النعوت كان أميز لأنها على سبيل

التشريف من السلطان ويجعل المضاف إلى الدين متوسطًا بين الألقاب لا في أولها.

(الأصل السابع):.أن يراعي مقاصد المكاتبات فيأتي لكل مقصد بما يناسبه ومدار ذلك على أمرين (الأمر الأول): أن يأتي مع كل كلمة بما يليق بها ويتخير لكل لفظة ما يشاكلها. قال ابن عبد ربه: وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى مثل: نسأل الله رفع المحذور وصرف المكروه وأشباه ذلك، وفي موضع ذكر المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي موضع ذكر النعمة: الحمد لله خالصًا والشكر لله واجبًا وما شاكل ذلك قال في مواد البيان: وإذا ذكر البلوى شفعها بالاستعانة بالله تعالى والرجوع إليه فيها ورد الأمر إلى حوله وقوته قال ابن عبد ربه: فإن هذه المواضع مما يتعين على الكاتب أن يتفقدها ويتحفظ فيها فإن الكاتب إنما يصير كاتبًا بأن يضع كل معنى في موضعه ويعلق كل لفظ على طبقه في المعنى ومما يلتحق بذلك أيضًا أنه إذا ذكر الرئيس في أثناء المكاتبة دعى له مثل أن يقول عند ذكر السلطان: خلد الله ملكه وعند ذكر الأمير الكبير: عز نصره أو أعز الله تعالى أنصاره وعند ذكر الحاكم: أيد الله تعالى أحكامه وما أشبه ذلك مما يجرى هذا المجرى.

(الأمر الثاني): أن يتخطى التصريح إلى التلويح والإشارة إذا ألجأته الحال إلى المكاتبة بما لا يجور كشفه وإظهاره على صرافته مما في ذكره على نصه هتك سترًا وفي حكايته اطراح مهابة السلطان وإسماعه ما يلزم منه إخلال الأدب في حقه كما لو أطلق عدوه لسانه فيه بلفظ قبيح بسوءه سماعه قال في مواد البيان: فيحتاج المنشئ إلى استعمال التورية في هذه المواضع والتلطف في العبارة عن هذه المعاني وإبرازها في صورة تقتضي

توفية حق السلطان في التوقير والإجلال والإعظام والتنزيه عن المخاطبة بما لا يجوز إمراره على سمعه وإيصال المعنى إليه من غير خيانة في طي ما لا غنى به عن علمه قال: وهذا مما لا يستقل به إلا المبرز في الصناعة المتصرف في تأليف الكلام، وهاك مثالًا يرشدك إلى معرفة ما ينبغي أن تكتب به إذا مر بك شيء من هذا الباب فالقليل عند من يستعمل فكره يهدي إلى الكثير: اتفق أن أخر أمير المؤمنين المأمون عن الجند إطلاق مرتباتهم مدة طويلة حتى دعاهم ذلك إلى الشكوى والتزيد في الكلام والقدح في السياسة كما يقتضيه وصول الإنسان إلى سوء المعيشة مع تكليفه شاق العمل، فكتب أحد رؤساء كتابه عمرو بن مسعدة يعرفه الحال ويستعطفه على العسكر بصرف مرتباته وهذه صورة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم، فإنه لم يذكر في هذا الكتاب انحراف رأي المأمون عن جادة الصواب في قلة الاهتمام بالنظر في أمر العسكر الذي هو أول مهم من مهمات الملك، ولم يذكر ما صدر عن العسكر من سوء المقال وتواتر الشكوى وتزيد الكلام وتصريحهم بأن هذه الحال ربما اضطرت إلى العصيان والخروج عن ربقة الخدمة الجندية للتردد في الآفاق طلبًا للمعاش بغير تلك الجهة؛ وإنما لمح بذلك تلميحًا وذكره الأشياء بذكر أضدادها فالطاعة تذكر المعصية وسلم الكاتب من الجهتين فلم يكن للأمير أن ينتقد عليه شيئًا ولا للعسكر أن يقولوا: إنك بلغت حالتا التي اضطرتنا إليها مضايقة المعيشة في كلمات قليلة وفت بالمقصود حق الوفاء. ويحكى عن أحمد بن يوسف قال: دخلت على المأمون وفي يده كتاب لعمرو بن مسعدة وهو في صحن داره يقرؤه المرة بعد المرة ثم

التفت إليَّ فقال: أحسبك مفكرًا فيما رأيت، قلت: نعم وقى الله أمير المؤمنين المكاره قال: ليس بمكروه ولكن قرأت كلامًا وافق صفة البلاغة للرشيد سمعته يقول: البلاغة التقرب من المعنى البعيد والتباعد من حشو الكلام ودلالة القليلْ على الكثير فما كنت أتوهم كلا ما يرد على هذه الصفة حتى قرأت هذا الكتاب وسأقضي حقه وكان ذلك سببًا لأن أمر بصرف مرتب ثمانية أشهر.

(الأصل الثامن): أن يعرف مقدار فهم كل طبقة من المخاطبين في المكاتبات من اللسان فيخاطب كل أحد بما يناسبه من اللفظ وما يصل إليه فهمه من الخطاب قال أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين: أول ما ينبغي أن تستعمل في كتابك مكاتبة كل فريق على مقدار طبقتهم في الكلام وقوتهم في المنطق وستعرف ذلك فيما سننقله من كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى العجم والعرب قال في مواد البيان: يجب على الكاتب أن ينتقل في استعمال الألفاظ على حسب ما تقتضيه رتب الخطاب والمخاطبين وأوجه الأحوال المتغايرة والأوقات المختلفة ليكون كلامه مشاكلًا لكل منها، فإن أحكام الكلام تتغير بحكم الأزمنة والأمكنة ومنازل المخاطبين والمكاتبين، ومن هنا ترى أن كتاب بني أمية استعملوا من ألفاظ العربية الفحلة والمتينة الجزلة ما لم يستعمل مثله كتاب الدولة العباسية؛ لأن كتاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها حتى عدت في جملة الفضائل التي يثابر على اقتنائها والأمكنة التي نزلها ملوكهم من بلاد العرب والرجال الذين كانت الكتب تصدر إليهم وأهل الفصاحة واللسن والخطابة والشعر، إما زمان بني العبس فإن الهمم تقاصرت عما كانت مقبلة على تطلبه فيما تصرم من العلوم المقدم ذكرها وشغلت بغيرها

كعلوم الدين ونزل ملوكهم ديار العراق وما يجاورها من بلاد فارس وليس استفاضة لغة العرب فيها باستفاضتها في أرض الحجاز والشام، ومن المعلوم أن القوم الذين كانوا يكاتبون عنهم لا يجارون تلك الطبقة في الفصاحة والمعرفة بدلالة الكلام فانتقل كتابها عن اللفظ المتين الجزل إلى اللفظ الرقيق السهل، وكذلك انتقل متأخرو الكتاب عن ألفاظ المتقدمين إلى ما هو أعذب منها وأخف للمعنى المتقدم ذكره قال: وحينئذ ينبغي للكاتب أن يراعى هذه الأحوال ويوقع المشاكلة بين ما يكتبه وبينها، فإذا احتاج إلى إصدار كتاب إلى ناحية من النواحي فلينظر في أحوال قاطنيها فإن كانوا من الأدباء البلغاء العارفين بنظم الكلام وتأليفه فليودع كتابه الألفاظ الجزلة التي إذا حليت بها المعاني زادتها فخامة في القلوب وجلالة في الصدور، وإن كانوا ممن لا يفرق بين خاص الكلام وعامه فليضمن كتابه الألفاظ التي يتساوى سامعوها في إدراك معانيها فإنه متى عدل عن ذلك ضاع كلامه ولم يصل معنى ما كتب فيه إلى من كاتبه؛ لأن الكلام البليغ إنما هو موضوع بإزاء أفهام البلغاء والفصحاء فأما العوام والحشوة فإنما يصل إلى أفهامهم الكلام العاطل من حلي النظم العاري من كسوة التأليف فيجب على الكاتب أن يستعمل في مخاطبة من هذه صورته أدنى رتب البلاغة وأقربها من أفهام العامة والأمم الأعجمية إذا كتب ثم قال: إن الكتب السلطانية منها كتب الفتوحات والسلامات ونحوها وهي محتملة للألفاظ الفصيحة الجزلة والإطالة القاضية بإشباع المعنى ووصوله إلى أفهام كافة سامعيه من الخاص والعام، ومنها كتب الخراج وجبايته وأمور المعاملات والحساب وهي لا تحتمل اللفظ الفصيح ولا الكلام الوجيز لأنها مبنية على تمثيل ما يعمل به وإفهام من لا يصل المعنى إلى فهمه إلا بالبيان الشامي في العبارة ومنها

مخاطبة السلطان عن نفسه فيجب فيها مخاطبته على قدر مكانه في الخدمة فيستعمل من الألفاظ المتوسطة، ولا يجوز أن يستعمل فيها الفصيحة التي لا تحتمل من تابع في حق متبوع لما فيه من تعاطي التفاصح على سلطانه وهو غير جائز في أدب الملوك، وكذلك لا يجوز فيه تعاطي الألفاظ المبتذلة الدائرة بين السوقة لما في ذلك من الوضع من السلطان بمقابلته إياه بما لا يشبه رتبته، وأما الكتب الإخوانيات النافذة في التهاني والتعازي فإنها تحتمل الألفاظ الغريبة القوية الأخذ بمجامع القلوب الواقعة أحسن المواقع من النفوس لأنها مبنية على تحسين اللفظ وتزيين النظم وإظهار البلاغة فيها مستحسن واقع موقعه قلت: والذي تراعى الفصاحة والبلاغة فيه من المكاتبات عن الأبواب السلطانية في زماننا مكاتبات ملوك المغرب كصاحب تونس وصاحب تلمسان وصاحب فاس وصاحب غرناطة من الأندلس، وكذلك القانات العظام من ملوك المشرق ومن يجري هذا المجرى ممن تشتمل بلاده على العلماء بالبلاغة وصناعة الكتابة ويظهر ذلك بالاستخبار عن بلادهم وبالاطلاع على كتبهم الصادرة عن ملوكهم إلى الأبواب السلطانية؛ بخلاف من لا عناية له بذاك كحكام أصاغر البلدان وأصحاب اللغات العجمية من الروم والفرنج والسودان ومن في معناهم، فإنه يجب خطابهم بالألفاظ الواضحة إلا أن يكون في بعض بلادهم من يتعاطى البلاغة من الكتاب ووردت كتبهم على نهجها، فإنه ينبغي مكاتبتهم على سنن البلغاء.

(تنبيه) لم يرد الشيخ في هذا الكلام السالف باللفظ الفصيح وغيره ما يدلك عليه حدّ الفصاحة المصدر به فن المعاني فإن الفصيح لا يجوز العدول عنه في خطاب من كان، وإنما يريد بالفصيح ما لا يدور إلا بين خاصة الناس وأهل المعرفة منهم مثلًا من أسماء الأسد الغضنفر

والضرغام والرأبال وحيدرة وأسامة وهي لا يستعملها إلا خاصة الناس والعامة وإنما يستعملون من أسمائه لفظ السبع فهو يريد ذلك بالفصيح وغير الفصيح.

(الأصل التاسع): أن يراعي رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه في الخطاب فيعبر عن كل واحد منهما بما يليق به ويخاطبه المكتوب إليه بما يليق بمقامه، فأما المكتوب عنه فيختلف الحال فيه باختلاف منصبه ورتبته فيعبر في الكتب الصادرة عن أبواب الخلافة بأمير المؤمنين مثل أن يقال: فجزى أمر أمير المؤمنين في كذا على كذا وكذا وأوعز أمير المؤمنين إلى فلان بكذا، واقتضى رأي أمير المؤمنين كذا، وخرج أمر أمير المؤمنين بكذا ونفذ أمر أمير المؤمنين إلى فلان بكذا، وما شاكل ذلك وربما عبر عنه بالسلطان مثل أن يقال في حق المخالفين وحاربوا عساكر السلطان أو وضعوا خراج السلطان وما أشبه ذلك. وقال ابن شيث: ويخاطب بالمواقف المقدسة الشريفة والعتبات العالية ومقر الرحمة ومحل الشرف وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف نحوه فقال: ويخاطب بالديوان العزيز والمقام الأشرف والجانب الأعلى أو الشريف وبأمير المؤمنين مجردة عن سيدنا ومولانا، ومرة غير مجردة مع مراعاة المناسبة والتسديد والمقاربة قال: وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخضعان عن مخاطبة الخليفة نفسه وتنزيل الخطاب منزلة من يخاطب نفس الديوان والمعنيّ به ديوان الإنشاء إذ الكتب وأنواع المخاطبات إليه واردة وعنه صادرة وإن كان المكتوب عنه ملكًا فقد جرت العادة أن يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال: فعلنا كذا وأمرنا بكذا واقتضت آراؤنا الشريفة كذا وبرزت مراسمنا بكذا ومرسومنا إلى فلان أن يتقدم بكذا أو يتقدم أمره بكذا وما أشبه ذلك؛ وذلك أن ملوك الغرب كانوا يجرون على ذلك في

مخاطباتهم فجرت الملوك على سننهم في ذلك، وفي معنى الملوك في ذلك سائر الرؤساء من الأمراء والوزراء والعلماء والكتاب ونحوهم من ذوي الأقدار العلية والأخطار الجليلة والمراتب السنية في الدين والدنيا ممن يصلح أن يكون آمرًا وناهيًا إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأموريهم إذا كانت هذه النون مما يختص بذوي التعظيم دون غيرهم، وشاهد ذلك من القرآن العظيم قوله تعالى: {حتى إذا حضر أحدهم الموت قال رب ارجعون} فدعاه دعاء المفرد لعدم المشاركة له في ذلك الاسم وسأله سؤال الجمع لمكان العظمة إلى غير ذلك من الآيات الواردة مورد الاختصاص له كما في قوله تعالى: {إنا نحن نرث الأرض ومن عليها} وقوله: {إنا نحن نحيي الموتى} وقوله: {نحن الوراثون} وغير ذلك من الآيات قال في معالم الكتابة: وقد أخذ كتاب المغرب هذا مع ولاة أمورهم في الجمع بالميم فخاطبوا الواحد مخاطبة الجمع مثل أنتم وفعلتم وأمرتم وما أشبه ذلك. قلت: والأمر في ذلك عندهم مستمر إلى الآن وإن كان المكتوب عنه مرءوسًا بالنسبة إلى المكتوب إليه كالتابع ومن في معناه فقال في مواد البيان: ينبغي أن يتحفظ في الكتب النافذة عنه عن الإتيان بنون العظمة وغيرها من الألفاظ التي فيها تعظيم شأن المكتوب عنه مثل أن يقول: أمرت بكذا أو نهيت عن كذا وأوعزت بكذا أو تقدم أمري إلى فلان بكذا أو أنهي إليَّ كذا أو خرج أمري بكذا أو ما في معنى ذلك مما لا يخاطب به الاتباع رؤساءهم بل يعدل عن مثل هذه الألفاظ إلى ما يؤذي إلى معناها مما لا عظمة فيه مثل أن يقول: وجدت صواب الرأي كذا ففعلته ورايت السياسة تقتضي كذا فأمضيته وما أشبه ذلك إن كان عرف الكتاب على الخطاب بالتاء وإلا قال: وجد المملوك صواب الرأي كذا ورأي السياسة تقتضي كذا فأمضاه وما يجري هذا

المجرى، وأما المكتوب إليه فقال أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين: ينبغي أن يعرف قدر المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والعلماء والوكلاء ليفرق بين من يكتب إليه: أنا أفعل كذا ومن يكتب إليه: نحن نفعل كذا فأنا من كلام الأشباه والإخوان، ونحن من كلام الملوك ويفرق بين من يكتب إليه: فإن رأيت وبين من يكتب إليه: فرأيك قال في مواد البيان: وذلك أن قولهم: فإن رأيت أن تفعل كذا لفظ النظراء والمساوين؛ بخلاف فرأيك فإنه لا يكتبه إلى جليل معظم لتضمنه معنى الأمر والتقدير فره رأيك؛ على أن الأخفش قد أنكر هذا على الكتاب لأن أقل الناس يقول للسلطان: انظر في أموري ولفظه لفظ الأمر ومعناه السؤال وذكر مثله في صناعة الكتاب عن النحويين قال في مواد البيان: وحجة الكتاب أن المشافهة تحتمل ما لا تحتمله المكاتبة لأن المشافهة تكون بما يحضر الإنسان ولا يتمكن من تقييده وترتيبه بخلاف المكاتبة فلا عذر لصاحبها في الإخلال بالأدب قال في مواد البيان: لا ينبغي أن يكون خطابك لجميع طبقات الناس على صورة واحدة وذلك أن المعاني التي يكتب فيها وإن كان كل جنسًا بعينة كالتهنئة والتعزية والاعتذار والعتاب والاستظهار ونحو ذلك، فإنه لا يجوز أن يخرج المعنى لكل مخاطب على صيغة واحدة من اللفظ بل ينبغي أن يخرج في الصيغة المشاكلة للمخاطب اللائقة بقدره ورتبته ألا ترى أنك لو خاطبت سلطانًا أو وزيرًا بالتعزية عن مصيبة من مصائب الدنيا لما جاز أن تبني الكلام على وعظه وتبصيره وإرشاده وتذكيره وحضه على الأخذ بحظ من الصبر ومجانبة الجزع وتلقي الحادثات بالتسليم والرضي، وإنما الصواب أن تبني الخطاب على أنه أعلى شأنًا وأرفع مكانًا وأصح جزمًا وأرجح حلمًا من أن يعزى بخلاف المتأخر في الرتبة، فإنه إنما يعزي تنبيهًا وتذكيرًا

وتصبيرًا وتعريفًا للواجب في تلقي السراء بالشكر والضراء بالصبر ونحو ذلك، وكذلك إذا كاتبت رئيسًا في معنى الاستزادة والشكوى لا يجوز أن تأتي بمعناهما في ألفاظهما الخاصة بل يجب أن تعدل عن الشكوى إلى ألفاظ الشكر وعن ألفاظ الاستزادة إلى ألفاظ الاستعطاف والسؤال في النظر لتكون قد رتبت كلامك في رتبته وأخرجت معناك مخرج من يستدعي الزيادة لا من يشكو التقصير، وكذلك لو وقع واقع للسلطان فنصحته لم يجز أن تورد ذلك مورد التنبيه على ما أغفله والإيقاظ لما أهمله والتعريف من الصواب لما جهله؛ لأن ذلك مما لا تحتمله الرؤساء من الأتباع ولكن تبني الخطاب على أن السلطان أعلى وأجل رأيًا وأصح فكرًا وأكثر إحاطة بصدور الأمور وأعجازها وأن آراء خدمه جزء من رأيه وأنهم إنما يتفرسون مخايل الإصابة بما وقفوا عليه من سلوك مذهبه والتأدب بأدبه والارتياض بسياسته والتنقل في خدمته وإنه مما يفرضونه في حكم الإشفاق والاهتمام وما يسبغ عليهم من الإنعام المطالعة بما يجرى في أوهامهم ويحدث في أفكارهم من الأمور التي يتخيلون في العمل بها مصلحة للدولة وعمارة المملكة يتصفحه بإصابة رأيه التي هي أوفر وأثبت، فإن استصوبه أمضاه وإن رأى خلافه ألغاه وكان الأعلى ما يراه إلى غير ذلك مما يجري هذا المجرى.

(الأصل العاشر): أن يراعي مواقع آيات القرآن والسجع في الكتب وذكر أبيات الشعر في المكاتبات، أما آيات القرآن الكريم فقد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أنها في صدر الكتب قد يذكرها الأدنى للأعلى في معنى ما يكتب به مثل قوله تعالى: {فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا} وقوله تعالى: {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور} إلى غير ذلك من الآيات المناسبة للوقائع وإن كانت

في أثناء الكتب فقد استشهد بها جماعة من الكتاب في خلال كتبهم، وأما السجع فقد ذكر ابن شيث أنه لا يفرق فيه بين كتاب الأعلى للأدنى وبالعكس وأنه بما يكتب عن السلطان أليق؛ لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابة بالسجع انقص في حق المكتوب إليه وقضيته أنه لا يكتب به إلا من أعلى لأدنى إلا أن الذي جرى عليه مصطلح كتاب الزمان تخصيصه ببعض الكتب دون بعض من الجانبين، وأما الشعر فيورده حيث يحسن إيراده ويمنعه حيث يحسن منعه فليس كل مكاتبة يحسن فيها إيراد الشعر بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب إليه، فأما المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة إليهم فقد ذكر في مواد البيان: أنه لا يتمثل فيها بشيء من الشعر إجلالًا لهم من شوب العبارة عن عزائمهم وأوامرهم ونواهيهم والأخبار المرفوعة إليهم بما يخالف نمطها ووضعها ولأن الشعر صناعة مغايرة لصناعة الترسل وإدخال بعض صنائع الكلام في بعض غير مستحسن. قلت: الذي ذكره عبد الرحيم بن شيث في كتابه معالم الكتابة ومواضع الإصابة أنه يتجنب الشعر في المكاتبات الصادرة عن الملوك دون غيرهم وهو معارض لما ذكره في مواد البيان وكأنه في مواد البيان يريد الكتب النافذة عن الملوك إلى من دونهم أو من دونهم إليهم، أما الملوك والخلفاء إذا كتبوا إلى من ضاهاهم في أبهة الملك وقاربهم في علو الرتبة فإنه لا يمتنع التمثل بأبيات الشعر فيها تطريزًا للنثر بالنظم وجمعًا بين جنسي الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده وما زالت الخلفاء والملوك السالفة يخللون كتبهم الصادرة عنهم إلى نظرائهم في علو الرتبة بالأبيات الرقيقة الألفاظ البديعة المعاني للاستشهاد على الوقائع المكتوب بسببها كما كتب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه حين تمالأ عليه القوم واجتمعوا على قتله إلى علي بن أبي

طالب كرم الله وجهه: أما بعد فقد بلغ السيل الزبا وجاوز الحزام الطبيين وطمع فيَّ من تعجزه المدافعة عن نفسه فأقبل إليَّ صديقًا كنت أو عدوًا:

فإن كنت مأكولًا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

وكما كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى معاوية بن أبي سفيان في جواب كتاب له حين جرى بينهما التنازع في الخلافة فقال في أثناء كتابه وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر إليك: وتلك شكاة ظاهر عنك عارها. وعلى ذلك جرى كثير من خلفاء الدولتين الأموية والعباسية كما حكى العسكري في الأوائل أن أهل حمص وثبوا بعاملها فأخرجوه ثم وثبوا بعده بعامل آخر فأمر المتوكل إبراهيم بن عباس أن يكتب إليهم كتابًا يحذرهم فيه ويختصر فكتب: أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله تعالى عليه فيما يقوم به من زيغ ويلم به من شعث ثلاثًا يقدم بعضهن أمام بعض، فأولاهن ما يستظهر به من عظة وحجة ثم ما يشفع به من تحذير وتنبيه ثم التي لا يقع حسم الداء بغيرها:

أناة فإن لم تغن عقب بعدها وعيدًا فإن لم يجد أجدت عزائمه

وممن كان كثير التمثل بالشعر في المكاتبات من خلفاء بني العباس ويصدر إليه المكاتبات كذلك الناصر لدين الله يحكى أن الملك الأفضل على ابن السلطان صلاح الدين يوسف صاحب دمشق حين تعصب عليه أخوه الملك العزيز عثمان وعمه الملك العادل أبو بكر كتب إلى الناصر لدين الله يستجيشه عليهما كتابًا يشير فيه إلى ما يعتقده الشيعة في أن الحق في الخلافة كان لعليٍ وأن أبا بكر وعثمان رضي الله عنهما تقدما عليه إذ كان الناصر يميل إلى التشيع وكتب فيه:

مـولاي إن أبـا بكـر وصـاحبه ... عثمان قد غصبا بالسيف حق علي

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي ... مـن الأواخـر فـي مـن الأول

فكتب إليه الناصر الجواب عن ذلك وكتب فيه:

وافى كتابك يا ابن يوسف ناطقًا ... بـالحق يخبـر أن أصـلك طـاهر

غـصبوا عليًّا حقـه إذ لـم يكـن ... بعـد النبـي لـه بيثـرب ناصـر

فاصـبر فـإن علـى الإلـه حسابهم ... وأبـشر فناصـرك الإمـام الناصـر

وعلى ذلك جرى الملوك القائمون على خلفاء بني العباس في مكاتباتهم أيضًا كما كتب أبو إسحاق الصابئ عن معز الدولة بن بويه إلى عدة الدولة أبي تغلب كتابًا يذكر له فيه خلاف قريبين له لم يمكنه مساعدة أحدهما على الآخر واستشهد فيه بقول المتلمس:

ومـا كنـت الأمثـل قـاطع كفـه ... بكـف لـه أخـرى فأصـبح أجـذما

فلما استقاد الكف بالكف لم يجد ... لـه دركًـا فـي أن يبينـا فأحجمـا

وعلى هذا النهج جرى الحال في الدولة الأيوبية بالديار المصرية كما كتب القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ديوان الخلافة ببغداد عند قتل ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة كتابًا ليسلي الخليفة عنه وكان ممن أساء السيرة وأكثر القتل متمثلًا بالبيتين المقولين في أبي حفص الخلال وزير أبي العباس السفاح وكان يعرف بوزير آل محمد:

إنَّ المكـاره قـد تـسر وربمـا ... كـان الـسرور بمـا كرهـت جـديرا

إن الـوزير وزيـر آل محمـد ... أودى فمـن يـشناك كـان وزيـرا

وكما كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر عن المنصور وقلاوون إلى صاحب اليمن في جواب تعزية أرسلها إليه في ولده الملك الصالح مع تعريضه في أمر له بأن الحروب ما تشغل عنها المصائب في الأولاد مستشهدًا فيه بقوله:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما تمرّ به الوحول

وكما كتب صاحبنا الشيخ علاء الدين البيري رحمه الله عن الظاهر برقوق صاحب الديار المصرية جوابًا لصاحب تونس من بلاد المغرب واستشهد فيه لبلاغة الكتاب الوارد عنه بقوله:

كلام كدمع صب غريب رق حتى الهواء يكثف عنده
راق لفظًا ورق معنى فأضحى كل سحر من البلاغة عبده

وعلى ذلك جرت ملوك المغرب من بني مرين وغيرهم، كما كتب بعض كتاب السلطان أبو الحسن المريني عنه إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية كتابًا يخبره في خلاله أن صاحب بجاية خرج عن طاعته فغزاه وأوقع به وبجيوشه حتى قمعه مستشهدًا فيه بقول القائل:

إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضره

إلى غير ذلك من المكاتبات الملوكية التي لا تحصى كثرة؛ بل ربما وقع التمثل بالشعر في المكاتبات عن الخلفاء والملوك إلى من دونهم وبالعكس كما حكم العسكري في الأوائل أن رافعًا رفع كتابًا إلى الرشيد وكتب في أسفله:

إذا جئت عارًا أو رضيت بذلة فنفسي على نفسي من الكلب أهون

فكتب إليه الرشيد كتابًا وكتب في أسفله:

ورفعك نفسًا طالبًا فوق قدرها يسوق لك الحتف المعجل والذلا

وبالجملة فمذاهب الناس في التمثل بالشعر في المكاتبات الملوكية مختلفة ومقاصدهم متباينة بحسب الأغراض، ولذلك أورد الشيخ جمال الدين بن نباتة هذه المسألة في جملة سؤالاته التي سأل عنها كتاب الإنشاء بدمشق مخاطبًا بها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء بها فقال: ومن كره الاستشهاد في مكاتبة الملوك بالأشعار وكيف تركها على ما فيها من الآثار، أما المكاتبات الإخوانيات بالتهاني والتعازي والتزاور والتهادي والمداعبات وسائر أنواع الرقاع في فنون المكاتبات فقد قال في مواد البيان: إنه يجوز أن تودع أبيات الشعر على سبيل التمثل وعلى سبيل الاختراع محتجًا بأن الصدر الأول كانوا يستعملون ذلك في هذه المواضع، وهذا الذي ذكره لا خفاء فيه وكتب الرسائل المدونة من كلام المتقدمين والمتأخرين من كتاب المشرق والمغرب شاهدة بذلك ناطقة باستعمال الشعر في صدور المكاتبات وأثنائها ونهاياتها ما بين البيت والبيتين فأكثر حتى القصائد الطوال وأكثر ما يقع من ذلك البيت المفرد والبيتان فما حول ذلك كما استشهد القاضي الفاضل في بعض مكاتباته في الشوق بقوله:

ومن عجبي أني أحن إليهم وأسأل عنهم من أرى وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وكما كتب أيضًا لبعض إخوانه في جواب الكتاب:

وكم قلت ليتني كنت عنده وما قلت إجلالًا له ليته عندي

وكما كتب في وصف كتاب ورد عليه مستشهدًا بقوله:

وحسبته والطرف معقود به وجه الحبيب بدا لوجه محبه

إلى غير ذلك من المكاتبات التي لا يأخذها حصر ولا تدخل تحت حدّ. انتهى ما أردت نقله من كتاب صبح الأعشى في هذا الموضع؛ وإنما أوردته بصورته مع قابليته للاختصار لأكون قد أحضرت ذهنك كلا ما لمؤلف جليل في التعريف بصناعة الإنشاء يكون له مجال بعد فهمه واعتبار ما يرشد إليه أن يحاول تهذيب عبارة تفيد معناه وتبين مغزاه، ثم إنه ليس الغرض من إيقافه عليه أنك تتبع كل ما يأمرك به وينبهك عليه دون أن يستعمل ذوقك في الاستحسان وأنت مستند إليه مسترشد به حتى تخرج منه إلى ما يناسب وقتك ويستصوبه أهل عصرك الذين أحوالك مربوطة بأحوالهم ومنافعك معقودة برضاهم فلكل مقام ولكل زمان رجال، هذا وإذا أردت استيفاء معرفة اختلاف اصطلاح الكتاب في كل عصر من العصور الخالية في فواتح الكتب وخواتمها وما يختص بكل نوع من أنواع المكاتبات فالموجود من كتاب صبح الأعشا بدار الكتب الكبيرة يكفيك لهذا الغرض.

(الجهة الثالثة) في أمثلة تستعين بتفهمها وتأمل سياقاتها من فواتحها إلى خواتمها على تربية ذهنك في هذه الصناعة واختيار ما يرشدك الله لاختياره من مذهب تذهبه في تأليف الكلام وتنويعه على حسب طبقات من تكاتبهم وكفى هذه الصناعة شرفًا أن كان ابتداء تمثيلها بما صدر عن حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ومنه تعرف حق المعرفة كيف يختلف حال الكتابة باختلاف حال المكتوب إليه فمن كتبه للعجم وبعضها يشبه بعضًا كتابه الصادر ليقصر الروم يدعوه إلى الإسلام وهذه

صورته: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و{يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}». ومنها كتابه الصادر إلى كسرى ملك الفرس في ذلك الغرض وهذه صورته: «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع وآمن بالله ورسوله وأدعوك بدعاية الله عزَّ وجلَّ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، وأسلم تسلم فإن توليت فإن إثم المجوس عليك». فكان الافتتاح بمن فلان إلى فلان سنة سواء كانت الكتابة من رئيس أو مرؤس حتى كتب النجاشي ملك الحبشة إلى محمد رسول الله من النجاشي. وكتب خالد بن الوليد في بعض كتبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد بعثه في ناحية لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد فكانت سنة ثانية التزمها الناس بعد في خطاب المرءوس للرئيس لما تجدد من العظمة الملكية والجلالة السلطانية، ومن كتبه للعرب كتابه الصادر لأكيدر صاحب دومة الجندل وهذه صورته: «من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها أن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور لا تعزل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها عليكم بذلك عهد الله والميثاق». تفسير ألفاظه وبيان مقصوده الأنداد جمع ند

وبكسر النون وهو ضد الشيء الذي يخالفه في أموره ويناده أي: يخالفه مأخوذ من ندّ البعير إذا أشردوا المراد ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله والأصنام جمع صنم وهو ما اتخذ إلهًا من دون الله وقيل: ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم ولا صورة فهو وثن والأكناف بالنون جمع كنف بالتحريك وهو الجانب والناحية والضاحية بالضاد المعجمة والحاء المهملة الناحية البارزة التي لا حائل دونها، والمراد هنا أطراف الأرض والضحل بفتح الضاد المعجمة وسكون الحاء المهملة القليل من الماء وقيل: الماء القريب من المكان وبالتحريك مكان الضحل والبور الأرض التي لم تزرع وهو بالفتح مصدر وصف به والمعامي المجهولة من الأرض التي ليس فيها أثر عمارة واحدها معمى وأغفال الأرض بالغين المعجمة والفاء الأرض التي ليس فيها أثر يعرف كأنها مغفول عنها والحلقة بسكون اللام السلاح عامًا وقيل: الدروع خاصًا أو السلاح ما أعد للحرب من آلة الحديد مما يقاتل به والسيف وحده يسمى سلاحًا والضامنة من النخل بالضاد المعجمة والنون ما كان داخلًا في العمارة من النخيل وتضمنته أمصارهم وقراهم وقيل: سميت مضامنة لأن أربابها ضمنوا عمارتها وحفظها فهي ذات ضمان كعيشة راضية بمعنى ذات رضى، والمعين من المعمور الماء الذي ينبع من العين في العامر من الأرض وقوله: لا تعزل سارحتكم بالزاي المعجمة أي: لا تصرف ماشيتكم وتمال عن الرعي ولا تمنع وقوله: ولا تعد فاردتكم أي: لا تضم إلى غيرها وتحشر إلى الصدقة حتى تعد مع غيرها وتحسب والفاردة الزائدة على الفريضة ولا يحظر عليكم النبات بالظاء المعجمة أي: لا تمتعون من الزرع والمرعى حيث شئتم والحظر المنع ومقصوده تمييز ما يكون للسلطان فيه إطلاق التصرف وليس داخلًا في حوزة أحد من غيره

وإعلامهم بذلك، ومعنى كون الحلقة والحافر والحصن للسلطان أنه متى أمر باستعمالها في الجهاد وجب عليهم الامتثال حسبما يؤمرون به وإن كانت لهم ملكًا اختصاصيًا بخلاف الأشياء المتقدمة ومنها كتابة الصادر لوائل بن حجر أحد عظماء حضرموت وأمثاله منهم، وهذه صورته: «**من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب في التبعة شاة لا مقورة الألياط ولأضناك وانطوا الثبجة وفي السيوف الخمس ومن زنى من أمبكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عامًا، ومن زنى من أمثيب فضرجوه بالأضاميم ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله تعالى وكل مسكر حرام ووائل ابن حجر يترفل على الأقيال**» تفسير الفاظه الأقيال جمع قيل بفتح فسكون الملك أو من ينوب عنه إذا غاب والمراد في الحديث الأول والعباهلة في القاموس العباهلة المقرون على ملكهم فلم يزالوا عنه والأرواع جمع رائع من راع أي: أفزع من رآه لجماله أو جلاله والمشابيب جمع مشبوب وهو الجميل الزاهر اللون من شب النار ألهبها والتيعة بكسر فسكون أربعون شانا وتطلق على أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان والمقورة الألياط المسترخية الجلود من أقور والليط بكسر فسكون والضناك بزنة كتاب الموثقة الخلق السمينة أي: شاة الصدقة لا تكون من المهازيل ولا من الكرائم بل تكون وسطًا وهو المراد بقوله: وانطو الثبجة أي: أعطوا بالنون مكان العين وهي لغتهم والثبجة بفتحتين الوسط ومنه ثبج البحر السيوب جمع سيب وهو العطية وأريد به في الحديث الركاز وهو دفين الجاهلية وفي قوله من: امبكر ومن أمثيب جرى على لغتهم من إبدال لام التعريف معًا والصقع الضرب والاستيفاض التغريب والأضاميم الحجارة الصغار والتوصيم الفترة والتواني وترفل عليهم ترأس، وقد روى هذا الكتاب بصورة أخرى وهي هذه من محمد

رسول الله إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاء على التيعة الشاة والتيمة لصاحبها وفي السيوب الخمس لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ومن أجبى فقد أربى وكل مسكر حرام التيمة بكسر فسكون وبالهمز بدل الياء لغة ما زاد على الفريضة حتى تبلغ الفريضة الأخرى أو هي غير السائمة، والخلاط أن يخلط الرجل ماله بمال غيره لتسقط عنه الزكاة والوراط أن يخفيه ورطة من الأرض حتى لا يراه الساعي، والشناق المشاركة في الشنق بفتحتين وهو العفو بين الفريضتين والشغار نكاح في الجاهلية وهو أن يزوج الرجل ابنته أو أخته من رجل ويتزوج ابنة ذلك الرجل أو أخته على أن يكون بضع كل منهما صداق الأخرى. وقوله: ومن أجبى فقد أربى قيل في تفسيره: إن الإجباء هو بيع الزرع قبل بدو صلاحه أو أن يبيع الرجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم يشتريها بأقل من ذلك الثمن وأربى وقع في الربا ومن هذه الكتب تقف على أصل وهو أن من يستحق المدح يمدح بإيراد صفاته الكمالية في صدر الكتاب إليه كما جرى عليه العمل بعد ومن كتبه صلى الله عليه وسلم لأهل الإسلام كتابه الصادر لخالد بن الوليد جوابًا عن كتابه له صلى الله عليه وسلم بإسلام بني الحارث وقد أرسل إليهم وهذه صورته: «**من محمد رسول الله إلى خالد بن سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسولك يخبرني أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته**». وكتابه الصادر إلى المنذر بن ساوى وكان عاملًا للفرس على البحرين وهذه صورته من محمد رسول الله إلى المنذر بن

ساوى: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد: فإني أذكرك الله عزَّ وجلَّ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصحهم فقد نصح لي وأن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل لهم وإنك مهما تصلح لن نعزلك، ومن أقام على مجوسيته فعليه الجزية». وقوله: أحمد إليك على تقدير: متوجهًا إليك. وعلى صور كتبه صلى الله عليه وسلم جرى عمل الخلفاء الراشدين ولم يكن يذكر في صدور الكتب بعد الحمد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حتى زادها الرشيد وعدت من مناقبه فكان يكتب: أحمد إليك الله وأسأله أن يصلي. ومن كتب الخلفاء ككتاب الصديق رضي الله عنه لأهل الردة حين ولي الخلافة ورجع كثير من العرب عن الإسلام وهذه صورته: من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. وأقر بما جاءه به: أما بعد فإن الله أرسل محمدًا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين يهدي الله للحق من أجاب إليه وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعًا وكرهًا، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزله فقال: {إنك ميت وإنهم ميتون} وقال: {وما جعلنا

لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون} وقال للمؤمنين: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين}، فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا يأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه بحزبه، وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم وأن تهتدوا بهديه وأن تعتصموا بدين الله، فإن من لم يهد الله ضل وكل من لم يعافه مبتلى وكل من لم ينصره مخذول، فمن هداه الله كان مهديًا ومن أضله كان ضالًا من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقرّبه ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارًا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان وقال الله جل ثناؤه: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا}، وقال جل ذكره: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} وإني نفذت إليكم خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أن يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن آمن فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم

والداعيـة الأذان فـإن أذن المـسلمون فـأذنوا كفـوا عـنهم وإن لـم يؤذنـوا سألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم. ومن هـذا الكتاب تستدل على جواز تحلية الكلام ببعض ألفاظ القرآن وتعرف الفرق بين الاقتباس واستشهاد وتنظر كيف تستعمل الشدة في موضعها. (صورة كتاب صدر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) وهو أول من وضع هـذا اللقب للخليفة وكان قبل يكتب من خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستطال ذلك على من يجيء بعده، فإنه يلزم أن يكرر بقدر عدد سلفه إلى عمرو بن العاص وهو عامل على مصر من طرفه من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام عليك أما بعد فقد بلغني أنه فشت لك فاشية من خيل وابل وبقر وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك ولا مال لك، فاكتب إلي من أين أصل هذا المال.

(جواب عمرو عن هـذا الكتاب): لعبد الله عمر أمير المؤمنين سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشالي وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي، وإني أعلم أمير المؤمنين أني ببلد السعر فيه رخيص وإني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس وفي رزق أمير المؤمنين سعة ووالله لو رأيت خيانتك خلالًا ما خنتك فأقصر أيها الرجل فإن لنا أحسابًا هي خير من العمل لك إن رجعنا إليها عشنا بها، ولعمري إن عندك من لا يذم معيشة ولا تذم له وإن كان ذلك لم يفتح لك قفلًا ولم يشركك في عمل يريد عمرو وأنه من أهل البيوت الشريفة التي جرت عادة من دونهم من طبقات الناس أن لا يستنكفوا من خدمتهم فيمكن أن يحصل له الغنى بذلك الطريق دون أن يكون حاكمًا، وفي آخر الكلام استشهد بمن حصل له الغنى بتلك الطريق من أهله كعثمان رضي الله عنه.

(صورة كتاب صدر من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى عليّ كرم الله وجهه) وكان خرج إلى الينبع وقد أحاط الناس بعثمان وهي هذه: أما بعد فقد بلغ السيل الزبا وجاوز الحزام الطبيين وطمع فيَّ كل من كان يضعف عن نفسه ولم يغلبك مثل مغلب فأقبل إليَّ صديقًا كنت أو عدوًّا:

فإن كنت مألولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

الزبية بضم فسكون حفرة تعمل في رأس جبل على طريق السبع وتغطي بغطاء خفيف ليسقط السبع في الحفرة إذا مر عليه وهي من طرق صيده وهي مثل لبلوغ الشر غاية بعيدة، وكذلك مجاوزة الحزام الطبيين وهو مثنى طبي بكسر أو ضم فسكون حلمة الضرع من ذوات الخف والحافر والظلف، وقوله: لم يغلبك مثل مغلب قطعة من قول امرئ القيس:

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وكفاك هذا القدر مثالًا لما كان عليه كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه رضي الله عنهم قبل أمير المؤمنين على كرم الله وجهه، وأما هو فكلامه البحر الذي لا ساحل له، وإذا اطلعت عليه عرفت كيف تصرف أمراء الكلام في البلاغة وقد جمع الشريف الرضي من كلامه مجموعًا صالحًا سماه نهج البلاغة وشرحه ابن أبي الحديد شرحًا كبيرًا في مجلدات كثيرة فمن أراد توفير حظه وشحن خاطره من أشرف الكلام بعد القرآن وحديث النبي صلى الله عليه وسلم فليطلب ذلك الكتاب ويقرأه بتأمل لألفاظه وتفهم لأغراضه، ولا بأس أن نورد لك منه ما يكون داعيًا لبذل جهدك في طلبه. (هذه صورة عهد كتبه كرم الله وجهه لمالك

المعروف بالأشتر النخعي) وهو من أجل أصحابه وكان يقول فيه مالك لي كما كنت للنبي صلى الله عليه وسلم حين أرسله واليًا على مصر: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها أمر وبتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقي إلا مع جحودها وإضاعتها وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه، فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه، وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله، ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت دولًا قبلك من عدل أو جور وأن الناس ينظرون في أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك كما كنت تقوله فيهم وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسنة عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك؛ فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم كلهم فإنهم صنفان أما أخ لك في الدين، وأما نظير لك في الخلق تفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، ولا تند منّ على عفو ولا تجنحن بعقوبة ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة ولا تقولن:

إني مؤمر أمر فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك بطأ من إليك من طماحك ويكف عنك من غربك ويضيء إليك مما عزب عنك من عقلك وإياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله ادحض حجته وكان لله حربا حتي ينزع ويتوب وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء وأقل معونة في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكرًا عند الإعطاء وأبطأ عذرًا عند المنع وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة وإنما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم وليكن أبعد رعيتك منك وأشنؤهم عندك أطلبهم لمعايب الناس فإن في الناس عيوبًا الوالي أحق من سترها فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك، أطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وتر وتغاب عن كل ما لا يصح لك ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غاش وإن تشبه

بالناصحين ولا تدخلن في مشورتك بخيلًا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جبانًا يضعفك عن الأمور ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزير ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن لهم مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لا يعاون ظالمًا على ظلمه ولا آثمًا على إثمه، أولئك أخف عليك مؤنة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفًا وأقل لغيرك إلفافًا تخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم لك بمر الحق وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعًا ذلك من هواك حيث وقع وألصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يحجوك بباطل لم تفعله فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة، ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإن في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلًّا منهم ما ألزم نفسه، واعلم أن ليس شيء بادعي إلى حسن ظن وال برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤنات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم فليكن منك في ذلك أمر يجمع لك حسن الظن برعيتك فإن حسن الظن يقطع عنك نصبًا طويلًا وأن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وأن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشيء مما مضى من تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليها بما نقضت منها وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما

استقام به الناس قبلك، واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غني ببعضها عن بعض فمنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الإنصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكل قد سمي الله سهمه ووضع على حده وفريضته في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهد أمنه عندنا محفوظًا فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما أصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها، ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفي الله لكل سعة ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولأمامك وأطهرهم جيبًا وأفضلهم حلمًا ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء ممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف ثم الصق بذوي المروآت والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به ولا

تحقرن لطفًا تتعاهدهم به وإن قل فإنه داعية إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالًا على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعًا ينتفعون به وللجسيم موقعًا لا يستغنون عنه وليكن آثر رءوس جندك عندك من واساهم في معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم حتى يكون همهم همًّا واحدًا في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فافسح في آمالهم وواصل من حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوي البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن فعالهم تهز الشجاع وتحرك الناكل إن شاء الله تعالى، ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرًا ولا ضعة امرئ أن تستصغر من بلائه ما كان عظيمًا واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور فقد قال الله سبحانه لقوم أحب إرشادهم: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول}، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة، ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تحمكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر عن الفيء إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشيف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه

وأفسح له في البذل ما يزيح علته ويقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك لتأمر بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر في ذلك نظرًا بليغًا، فإن هذا الدين قد كان أسيرًا في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا، ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارًا ولا تولهم محاباة وأثرة فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقًا وأصح إعراضًا وأقل في المطامع إشراقًا وأبلغ في عواقب الأمور نظرًا، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدًا فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة وتفقد أمز الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلًا، فإن شكوا ثقلًا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤنة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة

بلدك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمد أفضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما دعوتهم إليه لما سبق من عدلك عليهم ورفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم فإن العمران يحتمل ما حملته وإنما يأتي خراب الأرض من إعواز أهلها وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم للبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر ثم انظر في حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملاو لا تقصر به الفضلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك وفيما يأخذ لك ويعطي منك ولا يضعف عقدًا اعتقد ملك ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامك وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم في العامة أثرًا وأعرفهم بالأمانة وجهًا فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره واجعل لرأس كل من أمورك رأسًا منهم لا يقهره كبيرها ولا يشتت عليه كثيرًا ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرًا المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المتباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤن عليها فإنهم سلم لا تخاف

باثقته وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقًا فاحشًا وشحًا قبيحًا واحتكار للمنافع وتحكمًا في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه، وليكن البيع بيعًا سمحًا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقب من غير إسراف ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمني فإن في هذه الطبقة قانعًا ومعترًا واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسمًا من بيت مالك وقسمًا من غلات صوافي الإسلام في كل بلد فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه ولا يشغلنك عنهم بطر فإنك لا تعذر بتضييع التافه لأحكامك الكبير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم، واجعل لذوي الحاجات منك قسمًا تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسًا عامًا فتواضع فيه للذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف

فيها حقه من القوي غير متعتع» ثم احفل الخرق منهم والغيّ ونح عنق الضيق والأنفة يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيأ وامنع في إجمال وإعذار ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك مما يحرج صدور أعوانك، وأمض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية وليكن في خاصة ما تخلص لله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملًا غير مثلوم ولا منقوص بالغًا من بدنك ما بلغ وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفرًا ولا مضيعًا فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيمًا وأما بعد هذا فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تبديه أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤنة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف في

معاملة ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استكثار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة فاحسم مؤنة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابرًا محتسبًا واقعًا ذلك من قرابتك وخواصك حيث وقع وابتغ عافيته بما يثقل عليكم، فإن مغبة ذلك محمودة وإن ظنت الرعية بك حيفًا فأصحر لهم بعذرك واعدل عنك ظنونهم بإصحارك فإن في ذلك أعذاراً تبلغ فيه حاجتك من تقويمهم على الحق ولا تدفعن صلحًا ادعاك إليه عدوك لله فيه رضًا فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنًا لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعًا مع تفريق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي وقد جعل الله عهده وذمته أمنًا أفضاه بين العباد برحمته وحريما يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره فلا أدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ولا تعقد عقد أتجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة لضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجوا انفراجه وفضل عاقبته خير

من غدر تخاف تبعته وإن تحيط بك فيه من الله طلبة لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها والله سبحانه يتول الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تغوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد؛ لأن فيه قود البدن وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو يدك بعقوبة فإن في الوكزة وما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم، وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسن، وإياك والمنّ على رعيتك والتزيد فيما كان من فعلك وأن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس قال الله سبحانه: {كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}. وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها والتساقط فيها عند أماكنها أو اللجاجة فيها إذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه، وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابي عما تعني به عما قد وضع للعيون أي: الجواسيس فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك المظلوم أملك حمية نفسك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك عملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك، والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من خكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن نبينا صلى الله عليه

وسلم أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما تشاهده عما عملنا به فيها وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك لكيلا يكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها، وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة إنا إلى الله راغبون، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الظاهرين من شاء ينظر إلى جمال البلاغة ظاهرة في صورها استبرجة في زينة ملابسها وأنواع حليها فليطل ترديد نظره في فصول هذا الكتاب الوافي بجميع ما يحسن لكل إنسان أن يتأدب ويأخذ له منه حظًّا في أخلاقه وأعماله لا يخص ذلك أميرًا دون مأمور وإن كان وضعه على نصيحة وال يتولى أمور بعض العباد ورأيت في شرحه كلامًا منقولًا عن بعض عقلاء من تقدم بهم الزمان يشتمل على آداب ينبغي لمن يريد الاستكمال أن يتفهمها ويتأدب بها فوجدت تعقيبه بإثبات ذلك حيث كان أهمّ أغراض هذا الكتاب تعريف طلبة العلم أن ألزم شيء يطلبونه وأكبر أمر ينبغي أن يحالوا تحصيله لتطيب حياتهم وتجمل بهم أوقاتهم وتتحلى بهم أمتهم إنما هي الآداب التي يلتئمون بها مع جميع طبقات الناس ويكون لهم مع كل طبقة منها كلام يغمر قلوبهم ويتصرف في عقولهم حتى يكونوا منهم بتلك المكانة التي صارت غير مأهولة إلا بالقليل فمن ذلك ما نقله ابن أبي الحديد رحمه الله تعالى من آداب ابن المقفع قال: لا يكونن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك وتقديم الأمور على أهوائهم دون هواك، فإن كنت حافظًا إذا ولوك

حذرًا إذا قربوك أمينًا إذا ائتمنوك تعلمهم وكأنك تتعلم منهم وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم وتشكر لهم ولا تكلفهم الشكر ذليلًا أن صرموك راضيًا أن أسخطوك وإلا فالبعد عنهم كل البعد والحذر منهم كل الحذر وإن وجدت عن السلطان وصحبته غنى فاستعن عنه فإنه من يخدم السلطان حق خدمته يخلي بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة ومن يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وزر الآخرة وعرض نفسه للهلكة والفضيحة في الدنيا؛ فإذا صحبت السلطان فعليك بطول الملازمة في غير إملال وإذا نزلت بمنزل الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولا تكثر له من الدعاء ولا تردن عليه كلامًا وإن أخطأ فإذا خلوت به فبصره في رفق ولا يكونن طلبك ما عنده بالمسألة ولا تستبطئه وإن أبطأ ولا تخبرنه أن لك عليه حقًّا وإنك تعتد عليه ببلاء وإن استطعت أن لا ينسى حقك وبلاءك بتجديد النصح والاجتهاد فافعل ولا تعطينه المجهود كله من نفسك في أول صحبتك له وأعد موضعًا للمزيد وإن سأل غيرك شيئًا فلا تكن المجيب، واعلم أن استلابك الكلام خفة فيك واستخفاف منك بالسائل والمسئول، فما أنت قائل إن قال لك السائل: ما إياك سألت أو قال المسئول أجب بمجالسته ومحادثته أيها المعجب بنفسه والمستخف بسلطانه معنى هذه الجملة الأخيرة أن المسئول يقرع المجيب الذي لم يسئل بتفويض الجواب إليه وسكوته هو عنه فلعل المستعجل لم يكن فهم الغرض ولا وصل إلى ما يعلم المسئول فهو يقول له: أجب لا بعلم بل بسبب كون السلطان جعلك جليسًا وأعدك لمحادثته أحيانًا فإن كان ذلك كافيًا في الإجابة دون علم فافعل، وهذه الآداب التي انتهت بهذا الفاضل إليها المشاهدة والتجربة وأبقاها بالعبارة عنها حسنة لمن بعده يستحق من الناس شكرها ويستدعي من الله جزيل أجرها لا شبهة في لزومها لمن يريد صحبة أهل القهر

والاستبداد والعظمة والكبرياء من ذوي الرياسة، فإن لهم حدودًا يحدونها لأنفسهم تجب رعايتها طلبًا للسلامة منهم وإن كان بعضها لا يخص ذلك المقام والاطلاع على الأحوال المختلفة يميز لك اختلاف الآداب حسب الهيئات المتغيرة فإن تلك الأحوال الشديدة لا تلزم لصحبة نبي ومن سار بسيرته أو قارب ذلك ومن ذلك ما نقله من نصيحة عبد الملك بن صالح لرجل كان عنده معلم صبيان فلما وجده ذا أدب ولطف أراد أن يتخذه سميرًا يأتنس به وعبد الملك هذا أحد الأمراء من بني العباس أيام الرشيد وكان شهمًا فصيحًا ذا عزم وحزم، وكان الرشيد يخافه على الملك فكان بذلك بينهما ما جريات يطلعك عليها التاريخ وهذه هي النصيحة قال: يا عبد الله كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام فإنهم قالوا: إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم، واعلم أن أصعب الملوك معاملة الجبار الفطن المتفقد فإن ابتليت بصحبته فاحترس وإن عوفيت فاشكر الله على السلامة، فإن السلامة أصل كل نعمة لا تساعدني على ما يقبح بي ولا تردن على خطأ في مجلس ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى وكلمني بقدر ما أستنطقك واجعل بدل التقريظ لي صواب الاستماع مني، واعلم أن صواب الاستماع أحسن من صواب القول وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتنك منه شيء وأرني فهمك إياه في طرفك ووجهك فما ظنك بالملك وقد أحلك محل المعجب بما يسمعك إياه وأحللته بمحل من لا تسمعه منه وهذا يحبط إحسانك ويسقط حق حرمتك ولا تستدع الزيادة من كلامي بما تظهر من استحسان ما يكون مني فمن أسوء حالًا ممن يستلذ الملوك بالباطل، وذلك يدل على تهاونه بقدر ما أوجب الله تعالى من حقهم، واعلم أني جعلتك مؤدبًا بعد أن كنت

معلمًا وجعلت جليسًا مقربًا بعد أن كنت مع الصبيان مباعدًا فمتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رجحان ما دخلت فيه وقد قالوا: من لم يعرف سوء ما أولى لم يعرف حسن ما أبلى في قوله: فمن أسوء حالًا إيجاز، والمعنى فإن استدعاء الزيادة طلب للاستلذاذ بحديث الملك وهو قبيح سواء كان بحق أو باطل تمويهًا على الملك لكن إذا كان بالباطل كانت الإساءة فيه فاحشة وهو ما فرّعه بقوله: فمن أسوء حالًا إلى آخره، ومن ذلك ما نقله من وصية أبر ويزاحد الأكاسرة لكاتبه وهي هذه قال له: اكتم السر واصدق الحديث واجتهد في النصيحة وعليك بالحذر فإن لك علي أن لا أعجل عليك حتى أستأنى لك ولا أقبل فيك قولًا حتى أستيقن ولا أطمع فيك أحدًا فتغتال، واعلم أنك بمنجاة رفعة فلا تحطها وفي ظل مملكة فلا نستزيلنه قارب الناس مجاملة من نفسك وباعدهم مسامحة من عدوك واقصد إلى الجميل ازدراعا لغدك وتنزه صونًا لمروأتك وتحبب عندي بما قدرت عليه، احذر لا تسرعن الألسنة عليك ولا تقبحن الأحدوثة عنك وصن نفسك صون الدرة الصافية وأخلصها إخلاص الفضة البيضاء وعاتبها معاتبة الحذر المشفق وحصنها تحصين المدينة المنيعة لا تدعن أن ترفع إليّ الصغير، فإنه بدل عن الكبير ولا تكتمن عني الكبير فإنه ليس بشاغل عن الصغير هذب أمورك ثم الغنى بها، واحكم أمرك ثم راجعني فيه ولا تجترئن عليَّ فأمتعض ولا تنقبضن عني فاتهم ولا تمرضن ما تلقاني به ولا تخدجنه وإذا أفكرت فلا تعجل وإذا كتبت فلا تعذر ولا تستعن بالفضول فإنها علاوة على الكفاية ولا تقصرن عن التحقيق، فإنها هجنة بالمقالة ولا تلبس كلامًا بكلام ولا تبعدن معنى عن معنى وأكرم لي كتابك عن ثلاث خضوع يستخفه وانتشار يهجنه ومعان تعقد به واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول وليكن

بسطة كلامك على كلام السوقة كبسطة الملك الذي تحدثه على الملوك لا يكن مائلته عظيمًا وما تتكلم به صغيرًا، فإنما كلام الكاتب على مقدار الملك فاجعله عاليًا كعلوه وفائقًا كفوقه فإنما جماع الكلام كله خصال أربع: سؤالك الشيء وسؤالك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عن الشيء، فهذه الخصال دعائم المقالات إن التمس إليها خامس لم يوجد وإن نقص منها واحد لم تتم، فإذا أمرت فاحكم وإذا سألت فأوضح وإذا طلبت فأسمح وإذا أخبرت فحقق فإنك إذا فعلت ذلك أخذت بجرائيم القول كله فلم تشتبه عليك واردة ولم تعجزك صادرة، أثبت في دواوينك ما أخذت وأحصن فيها ما أخرجت وتيقظ لما تعطى وتجرد لما تأخذ ولا يغلبنك النسيان عن الإحصاء ولا الأناة عن التقدم ولا تخرجن وزن قيراط في غير حق ولا تعظمن إخراج الألوف الكثيرة في الحق، وليكن ذلك كله عن مؤامرتي ومن ذلك ما نقله من وصية أكثم بن صيفي أحد حكماء العرب في الجاهلية لقومه من تميم وهي هذه قال: يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي أن بين حيزومي وصدري لكلامًا لا أجد له مواقع إلا أسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والروية مفيدة ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ولن يعدم المشاور مرشدًا أو المستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ومن سمع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد ومن سلك الجدد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤرث غيظه ولا تجاوز مضرته نفسه يا بني تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جنا ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون مالة استهدف

للذم وكان اللسان أنكى من كلم السنان والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم فإذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجور ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب، ومن ذلك ما نقله من كتاب أول ملوك الأكاسرة بعد ملوك الطوائف ينصح به من يجيء بعده من الملوك وفيه من الفوائد السياسية ما لا يخص الملوك دون عامة الناس وهو هذا قال رشاد الوالي: خير للرعية من خصب الزمان الملك والدين توأمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه فالدين أس الملك وعماده ثم صار الملك حارس الدين فلا بد للملك من أسه ولا بد للدين من حارسه فأما ما لا حارس له فضائع وأما ما لا أس له فمهدوم إن رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم إلى دراسة الدين وتأويله والتفقه فيه فتحملكم الثقة بقوة الملك على التهاون بهم فتحدث في الدين رياسات منتشرات سرًّا بمن قد وترتم وجفوتم وحرمتم وأخفتم وصغرتم من سفلة الناس والرعية وحشو العامة ثم لا تنشب تلك الرياسات أن تحدث خرقًا في الملك ووهنًا في الدولة، واعلموا أن سلطانكم على أجساد الرعية لا على قلوبها وإن غلبتم الناس على ما في أيديهم فلن تغلبوهم على ما في عقولهم وآرائهم ومكايدهم واعلموا أن العاقل المحروم سال عليكم لسانه وهو أقطع سيفيه وأن أشد ما يضربكم من لسانه ما صرف الحيلة فيه إلى الدين فكان للدين يحتج وللدين فيما يظهر يتعصب، فيكون للدين بكاء وإليه دعاء ثم هو أوجد للتابعين والمصدقين والمناصحين والموازرين؛ لأن تعصب الناس موكل بالملوك ورحمتهم ومحبتهم موكلة بالضعفاء المغلوبين فاحذروا هذا المعنى كل الحذر واعلموا أنه ليس ينبغي للملك أن يعرف للعباد والنساك بأن يكونوا أولى منه بالدين ولا أحدب عليه ولا أغضب له وأن يخلي النساك والعباد من الأمر والنهي في

نسكهم ودينهم، فإن خروج النساك وغيرهم من الأمر والنهي عيب على الملوك وعلى المملكة وثلمة بينة الضرر على الملك وعلى من بعده، واعلموا أنه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوك كان الملك منهم يتعهد الحماية بالتفتيش والجماعة بالتفصيل والفراغ بالأشغال كتعهد جسده بقص فضول الشعر والظفر وغسل الدرن والغمص ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن، وقد كان من أولئك الملوك من صحة ملكه أحب إليه من صحة جسده فتتابعت تلك الأملاك بذلك كأنهم ملك واحد وكأن أرواحهم روح واحدة يمكن أولهم لآخرهم ويصدق آخرهم أولهم تجتمع أنباء أسلافهم ومواريث آرائهم وثمرات عقولهم عند الباقي منهم بعدهم وكأنهم جلوس معه يحدثونه ويشاورنه حتى كأن على رأس دار ابن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرومي على ما غلب عليه من ملكه وكان إفساده أمرنا وتفرقته جماعتنا وتخريبه عمران مملكتنا أبلغ له فيما أراد من سفك دمائنا، فلما أذن الله عزَّ وجلَّ في جمع مملكتنا وإعادة أمرنا كان من بعثه إيانا ما كان وبالاعتبار يتقي العثار والتجارب الماضية دستور يرجع إليه في الحوادث الآتية، واعلموا أن طباع الملوك على غير طباع الرعية والسوقة فإن الملوك يطيف به العز والأمن والسرور والقدرة على ما يريد والأنفة والجراءة والطيش والبطر، وكلما ازداد في العمر تنفسًا وفي الملك سلامة ازداد من هذه الطبائع والأخلاق حتى يسلمه ذلك إلى سكر السلطان الذي هو أشد من سكر الشراب فينسى النكبات والعثرات والغير والدوائر وفحش تسلط الأيام ولؤم غلبة الدهر فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول وعند حسن الظن بالأيام تحدث الغير وتزول النعم وقد كان من أسلافنا وقدماء ملوكنا من يفكره عزه الذل وأمنه الخوف وسروره الكآبة وقدرته المعجزة وذلك هو الرجل الكامل قد جمع بهجة الملوك وفكرة

السوقة ولا كمال إلا في جمعهما، واعلموا أنكم ستبلون على الملك بالأزواج والأولاد والقرباء والوزراء والأخدان والأنصار والأعوان والمتقربين والندماء والمضحكين وكل هؤلاء إلا قليلًا أن يأخذ لنفسه أحب إليه من أن يعطي منها وإنما عمله سوق ليومه وذخيرة لغده فنصيحته للملوك فضل نصيحته لنفسه وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه وغاية الفساد عنده فسادها يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع إذا استوحش الملك من ثقاته أطبقت عليه ظلم الجهالة أخوف ما يكون العامة أخوف ما يكون الوزراء واعلموا أن كثيرًا من وزراء الملوك من يحاول استبقاء دولته وأيامه بإيقاع الأطراب والخبط في أطراف مملكة الملك ليحتاج الملك إلى راية وتدبيره، فإذا عرفتم ذلك من وزير من وزرائكم فاعزلوه فإنه يدخل الوهن والنقص على الملك والرعية لصلاح حال نفسه ولا تقوم نفسه بهذه النفوس كلها واعلموا أن ذهاب الدولة ينشأ من قبل إهمال الرعية بغير أشغال معروفة ولا أعمال معلومة فإذا أنشأ الفراغ تولد منه النظر في الأمور والفكر في الفروع والأصول، فإذا نظروا في ذلك نظروا فيه بطباع مختلفة فتختلف بهم المذاهب ويتولد من اختلاف مذاهبهم تعاديهم وتضاغنهم وهم مع اختلافهم هذا متفقون ومجتمعون على بغض الملوك فكل صنف منهم إنما يجري إلى فجيعة الملك بملكه ولكنهم لا يجدون سلمًا إلى ذلك أوثق من الدين والناموس ثم يتولد من تعاديهم أن الملاك لا يستطيع جمعهم على أهواء واحدة فإذا انفرد باختصاص بعضهم صار عدو بقيتهم وفي طباع العامة استثقال الولاة وملالهم والنفاسة عليهم والحسد لهم وفي الرعية المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود ويتولد من كثرتهم مع عداوتهم أن يجبن الملك عن الإقدام عليهم فإن في إقدام الملك على

الرعية كلها كافة تغريرًا بملكه ويتولد من جبن الملوك عن الرعية استعجالهم عليه وهم أقوى عدو له وأخلفه بالظفر؛ لأنه حاضر مع الملك في دار ملكه فمن أفضى إليه الملك بعدي فلا يكونن بإصلاح جسده أشد اهتمامًا منه بهذه الحال ولا يكونن لشيء من الأشياء أكره وأنكر منه لرأس صار ذنبًا وذنب صار رأسًا ويد مشغولة صارت فارغة أو غني صار فقيرًا أو عامل مصروف أو أمير معزول واعلموا أن سياسة الملك وحراسته أن لا يكون ابن الكاتب إلا كاتبًا وابن الجندي إلا جنديًا وابن التاجر إلا تاجرًا، وهكذا في جميع الطبقات فإنه يتولد من تنقل الناس عن حالاتهم أنْ يلتمس كل امرئ منهم فوق مرتبته، فإذا انتقل أوشك أن يرى شيئًا أرفع مما انتقل إليه فيحسده وينافسه وفي ذلك من الضرر المتولد ما لا خفاء به فإن عجز ملك منكم عن إصلاح رعيته كما أوصيناه فلا يكن للقميص القمل أسرع خلعًا منه لما لبس من قميص ذلك الملك واعلموا أنه ليس ملك إلا وهو كثير الذكر لمن يلي الأمر بعده ومن إفساد أمر الملك ذكره ولاة العهود فإن في ذلك ضروبًا من الضرر وإن ذلك دخول عداوة بين الملك وولي عهده لأنه تطمح عيناه إلى الملك ويصير له أحباب وأخدان يمنونه ذلك ويستبطئون موت الملك ثم إن الملك يتوحش منه وتنساق الأمور إلى هلاك أحد هملوا لكن لينظر الوالي منكم لله تعالى ثم لنفسه ثم للرعية وينتخب وليًا للعهد من بعده ولا يعلمه ذلك ولا أحدًا من الخلق قريبًا كان أو بعيدًا ثم يكتب اسمه في أربع صحائف ويختمها بخاتمة ويضعها عند أربعة نفر من أعيان أهل المملكة ثم لا يكون منه في سره وعلانيته أمر يستدل به على ولي عهده من هو لا في أدناه وتقريب يعرف به ولا في أقصاه وإعراض يستراب له وليتق ذلك في اللحظة والكلمة فإذا هلك الملك جمعت تلك الصحائف إلى النسخة التي تكون

في خزانة الملك فنفض جميعًا ثم ينوه حينئذ باسم ذلك الرجل فيلقى الملك إذا لقيه بحداثة عهد بحال السوقة ويلبسه إذا لبسه ببصر السوقة وسمعها، فإن في معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سكرًا تحدثه عنده ولاية العهد ثم يلقاه الملك فيزيده سكرًا إلى سكره فيعمى ويصم هذا مع ما لا بد أن يلقاه أيام ولاية العهد من حيل العتاة وبغي الكذابين وترقية النمامين وإيغار صدره وإفساد قلبه على كثير من رعيته وخواص دولته وليس ذلك بمحمود ولا صالح، واعلموا أنه ليس للملك أن يحلف لأنه لا يقدر أحد على استكراهه وليس له أن يغضب لأنه قادر والغضب لقاح الشر والندامة وليس له أن يعبث ويلعب لأن اللعب والعبث من عمل الفراغ وليس له أن يفرغ؛ لأن الفراغ من أمر السوقة وليس له أن يحسد أحدًا إلا على حسن التدبير وليس له أن يخاف لأنه لا يد فوق يده، واعلموا أنكم لن تقدروا على أن تختموا أفواه الناس من الطعن والإزراء عليكم ولا قدرة لكم على أن تجعلوا القبيح من أفعالكم حسنًا فاجتهدوا في أن تحسن أفعالكم كلها وأن لا تجعلوا للعامة إلى الطعن عليكم سبيلًا واعلموا أن لباس الملك ومطعمه مقارب للباس السوقة ومطعمهم وليس فضل الملك على السوقة إلا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم، فإن الملك إذا شاء أحسن وليس كذلك السوقة، واعلموا أن لكل ملك بطانة ولكل رجل من بطانته بطانة ثم لكل امرئ ممن بطانة البطانة بطانة حتى يجتمع في ذلك أهل المملكة فإذا اقام الملك بطانته على حال الصواب أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية احذروا بابًا واحدًا طالما أمنته فضرني وحذرته فنفعني احذروا إفشاء السر بحضرة الصفار من أهليكم وخدمكم فإنه ليس يصغر واحد منهم عن حمل ذلك السر كاملًا لا يترك منه شيئًا حتى يضعه

حيث تكرهون إما سقطًا أو غشًا واعلموا أن في الرعية صنفًا أتوا الملوك من قبل النصائح لهم والتمسوا إصلاح منازلهم بإفساد منازل الناس وهم أعداء الملوك ومن عادى الملوك والناس كلهم فقد عادى نفسه واعلموا أن الدهر حاملكم على طبقات فمنها حال السخاء حتى يدنو أحدكم من السرف ومنها حال التقدير حتى يدنو من البخل ومنها حال الأناة حتى يدنو من البلادة ومنها حال انتهاز الفرصة حتى يدنو من الخفة ومنها حال الطلاقة في اللسان حتى يدنو من الهذر ومنها حال الأخذ بحكمة الصمت حتى يدنو من العي فالملك منكم جدير أن يبلغ من كل طبقة في محاسنها حدها فإذا وقف عليه ألجم نفسه عما وراءه، واعلموا أن ابن الملك وإخاء وابن عمه يقول: كدت أكون ملكًا وبالحري أن لا أموت حتى أكون ملكًا، فإذا قال ذلك قال ما لا يسر الملك وإن كتمه فالداء في كل مكتوم وإذا تمنى ذلك جعل الفساد سلمًا إلى الصلاح ولم يكن الفساد سلمًا إلى صلاح قط وقد رسمت لكم مثالًا اجعلوا انملك لا ينبغي إلا لأبناء الملوك من بنات عمومتهم ولا يصلح من أولاد بنات العم إلا كامل غير سخيف العقل ولا عازب الرأي ولا ناقص الجوارح ولا مطعون عليه في الدين، فإنكم إذا فعلتم ذلك قل طلاب الملك وإذا قلّ طلابه استراح كل امرئ إلى ما يليه ونزع إلى حدّ يليه وعرف حاله ورضي معيشته واستطال زمانه وحيث جرى ذكر الإسكندر وتفرقته مملكة فارس بين أبناء الملوك الذين قيل لهم ملوك الطوائف وكان ملكهم فاصلًا بين سلسلتي الملوك من الفرس آخر أولاهما دار ابن دار أو أول الثانية أردشير فلا بأس أن نثبت في هذا الموضع كتاب الإسكندر إلى شيخه الحكيم أرسطو يستشيره فيما يفعل بأبناء الملوك أيقتلهم أم يبقيهم وجواب الحكيم له عن ذلك. (وهذه صورة كتاب الإسكندر) قال: عليك أيها الحكيم منا السلام أما

بعد، فإن الأفلاك الدائرة والعلل السماوية وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبح الناس لنا بها دائنين فإنا جدوا جدين لمس الاضطرار إلى حكمتك غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك والاستنامة إلى مشورتك والاقتدار برأيك والاعتماد لأمرك وفهمك لما بلونا من إجداء ذلك علينا وذقنا من جنا منفعته حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسخه في أذهاننا كالغذاء لنا فما ننفك نعول عليه ونستمد منه استمداد الجداول من البحور وتعويل الفروع على الأصول وقوة الأشكال بالأشكال وقد كان مما سيق إلينا من النصر والفلج وأتيح لنا من الظفر والقهر وبلغنا في العدو من النكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه ويقصر شكر المنعم عن موقع الإنعام به وكان من ذلك أن جاوز أرض سورية الجزيرة إلى بابل وأرض فارس فلما حللنا بعقوة أهلها وساحة بلادهم لم يكن إلا رثيما تلقانا نفر منهم برأس ملكهم هدية إلينا وطلبًا للحظوة عندنا فأمرنا بصلب من جاء به وشهرته لسوء بلائه وقلة ارعوائه ووفائه ثم أمرنا بجمع من كان هناك من أولاد وملوكهم وأحرارهم وذوي الشرف منهم فرأينا رجالًا عظيمة أجسامهم وأحلامهم حاضرة ألبابهم وأذهانهم رائعة مناظرهم ومناطقهم دليلًا على أن ما يظهر من روائهم ومنطقهم أن وراءه من قوة أيديهم وشدة نجدته وبأسهم ما لم يكن ليكون معه لنا سبيل إلى غلبتهم وإعطائهم بأيديهم لولا أن القضاء أدالنا منهم أظفر نابهم وأظهرنا عليهم ولم نر بعيدًا من الرأي في أمرهم أن نستأصل شأفتهم ونجتث أصلهم ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم لتسكن القلوب بذلك إلى الأمن من جرائرهم وبوائقهم فرأينا أن لا نعجل بإسعاف بادئ الرأي في قتلهم دون الاستظهار عليه بمشورتك فيهم فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بعد صحته عندك وتقليبك إياه بجلي نظرك وسلام لأهل السلام فليكن علينا وعليك (وهذه

صورة جواب الحكيم إلى الملك) قال: لملك الملوك وعظيم العظماء الإسكندر المؤيد بالنصر على الأعداء المهدي له الظفر بالملوك من أصغر عبيده وأقل خوله أرسط والنجوع بالسجود والتذلل في السلام والإذعان في الطاعة أما بعد، فإنه لا قوة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه واجتهد في تثقيف معانيه وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقل ما تناله القدرة من بسطة علو الملك وسمو ارتفاعه عن كل قول وإبرازه عن كل وصف وقد كان تقرر عندي من مقدمات أعلام فضل الملك في صهلة سبقه وبروز شأوه وبمن نقيبته مذ أدت إلي حاسة بصري صورة شخصه وأطرب في حسن سمعي صوت لفظه ووقع وهمي على تعقب نجاح رأيه أيام كنت أؤدي إليه من تكلف تعليمي إياه ما أصبحت قاضيًا على نفسي بالحاجة إلى تعلمه منه ومهما يكن مني إليه في ذلك فإنما هو عقل مردود إلى عقله مستنبطة أو إليه وتواليه من علمه وحكمته وقد جلي إلى كتاب الملك ومخاطبته إياي ومسألته عما لا يتخالجني الشك في أن لقاح ذلك وإنتاجه من عنده فعنه صدر وعليه ورد وإنا فيما أشير به على الملك وان اجتهدت فيه واحتشدت له وتجاوزت حد الوسع والطاقة في استنطاقه واستقصائه كالعدم مع الوجود وما لا يتجزأ في جنب معظم الأشياء ولكني غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سال مع علمي ويقيني بعظيم غناه عني وشدة فاقتي إليه وإنا إذا لي الملك ما اكتسبه منه ومشير عليه بما أخذته منه فقائل له أن لكل تربة لا محالة قسمًا من الفضائل وإن لفارس قسمها من الجدة والقوة وإنك أن تقتل أشرافهم تخلف الوضعاء على أعقابهم وتورث سفلتهم منازل عليتهم وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوي أخطارهم ولم يبتل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم وأشد توهينًا لسلطانهم من غلبة السفلة وذل الوجوه فاحذر الحذر كله أن تمكن تلك

الطبقة من الغلبة والحركة فإنهم إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجم دهمهم منه ما لا روية فيه ولا بقية معه فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره واعمد إلى من قبلك من أولئك العظماء والأحرار فوزع بينهم مملكتهم وألزم اسم الملك كل من وليته منهم واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه فإن المسمى بالملك لازم لاسمه والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره فليس ينشب ذلك أن يوقع كل ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابرًا وتقاطعًا وتغالبًا على الملك وتفاخرًا بالمال والجند حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك ويعود حربهم لك حربًا بينهم وحنقهم عليك حنقًا منهم على أنفسهم ثم لا يزدادون في ذلك بصيرة إلا أحد ثوالك بها استقامة أن دنوت منهم دنوا لك وإن نأيت عنهم تعززوا بك حتى يثب من ملك منهم على جاره باسمك ويسترهبه بجندك وفي ذلك شاغل لهم عنك وأمان لأحداثهم بعدك وإن كان لا أمان للدهر ولا ثقة بالأيام قد أديت إلى الملك ما رأيته لي حظًّا وعليَّ حقًّا من إجابتي إياه إلى ما سألني عنه ومحضته النصيحة فيه والملك أعلى عينًا وأنفذ روية وأفضل رأيًا وأبعد همة فيما استعان بي عليه وكلفني تبيينه والمشورة عليه فيه لا زال الملك متعرفًا من عوائد النعم وعواقب الصنع وتوطيد الملك وتنفيس الأجل ودرك الأصل ما تأتي فيه قدرته على غاية أقصى ما تناله قدرة البشر والسلام الذي لا انقضاء له ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء فليكن على الملك ومن كتاب أرسطو هذا يستحكم لك فهم قول ابن المقفع السابق تعلمهم وكأنك تتعلم منهم وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم وتعرف كيف ذلك ومنه تعرف أيضًا إذ كان ترجمة كلام يوناني أن التشبيه والاستعارة لا يخصان اللغة العربية من مثل قوله: صهلة سبقك وبروز شأوك وفي قوله: أو إليه وتواليه تغيير اللفظ لأجل تحصيل الازدواج بين

الكلمتين بقلب لفظ أوائل وقد ثبت جواز ذلك حيث كان التغيير مقاربًا بقوله صلى الله عليه وسلم لنائحات خرجن خلف الرجال: «ارجعن **مأزورات غير مأجورات**» فغير موزورات من الوزر لذلك. (صورة كتاب من عبد الملك بن مروان للحجاج بن يوسف وجوابه منه له) تشتمل عليهما حكاية مناسبة للغرض المعول عليه في نقل هذه الكتب لما احتوت عليه من الكلم العربي والأحوال التي تحب الأنفس الشريفة الاطلاع عليها قال عمرو بن بحر الجاحظ: كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيًا وخرمًا وعابدها قبل أن يستخلف ورعًا وزهدًا فجلس يومًا في خاصته فقبض على لحيته فشمها مليًا ثم اجتر نفسه ونفخ نفخة أطالها ثم نظر في وجوه القوم فقال ما أقول يوم المسألة عن أمر الحجاج وقد أدحض المحتج على العليم بما طوته الحجب أما أن تمليكي له قرن بي لوعة يلهبها التذكار كيف وقد علمت فتعاميت وسمعت فتصامت وحمله الكرام الكاتبون والله لكاني آلف هذا الطعن على نفسي بعد أن نعت الأيام بتصرفها نفسًا حق لها الوعيد بتصرم الزوال وما أبقت الشبهة للباقي متعلقًا وما هو إلا الغل الكامن اللهم أنت لي أوسع غير منتصر ولا متعذر. قلت: هذا الكلام يختبر به ما في نفوس القوم الذين ظهر منهم أمارات الغيظ من الحجاج على ثقة عبد الملك به واختياره على غيره وطرح كل ما يقال فيه علمًا منه بأنه لا يقوم أحد بما قام به الحجاج ثم قال: يا كاتب هات الدواة والقرطاس فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أما بعد فقد أصبحت بأمرك برمًا يقعدني الإشفاق ويقيمني الرجاء عجزت في دار السعادة وتوسط الملك وحين المهل واجتماع الفكر ألتمس العذر في أمرك، فأنا لعمر الله في دار الجزاء

وعدم السلطان واشتغال النفس والركون إلى الذلة من نفسي والتوقع لما طويت عليه الصحف أعجز وقد كنت أشركتك فيما طوقني الله حمله وألات بحقوي من أمانة الله في هذا الخلق المرعى فدللت منه على الحزم والجد في أمانة بدعة وإنعاش سنة فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها حتى صرت حجة العائب وغدر اللاعن والشاهد القائم فلعن الله أبا عقيل وما نجل فألأم والد وأخبث نسل فلعمري ما ظلمكم الزمان ولا قعدت بكم المراتب لقد ألبستكم ملبسكم وأقعدتكم على روابي خططكم وأحلتكم على قدر منعتكم فكنتم بين حافز وناقل ومانح في الفلوات القفرة ما تقدم بكم الإسلام ولقد تأخرتم وما الطائف منا ببعيد يجهل أهله ثم قمت بنفسك وطمحت بهمتك وسرك انتضاه سيفك فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح بن زنباع وشرطته وأنت على معاونته يومئذ محسود فهفا أمير المؤمنين والله يصلح بالتوبة والغفران زلته وكان بك وكان ما لو لم يكن لكان خيرًا مما كان كل ذلك من تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي أمير المؤمنين ففرعت صفاتنا وهتكت حجبنا وبسطت يديك تحفن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة والأرحام الواشجة في أوعية ثقيف فأستغفر الله لذنب ما له عذر فلئن استقال أمير المؤمنين فيك الرأي فلقد حالت البصيرة في ثقيف بصالح النبي صلى الله عليه وسلم إذا ائتمنه على الصدقات وكان عبده فهرب بها عنه وما هو إلا اختبار للثقة والمطلب لمواضع الكفاية فقعد فيه الرجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له فكأن هذا ألبس أمير المؤنين ثوب العزاء ونهض بعذره إلى استنشاق نسيم الروح فاعتزل عمل أمير المؤمنين وأظعن عنه باللعنة اللازمة والعقوبة الناهكة إن شاء الله إذا استحكم لأمير المؤمنين ما يحاول من رأيه والسلام. ودعا عبد الملك مولى له يقال له نباتة له لسان وفضل

رأي فناوله الكتاب ثم قال له: يا نباتة العجل ثم العجل حتى تأتي العراق فضع هذا الكتاب في يد الحجاج وترقب ما يكون منه فإن جبن عند قراءته واستيعاب ما فيه فأقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتي به وهدء الناس حتى يأتيهم أمري بما تصفني به في حين انقلاعك من حبي لهم السلامة وإن هش للجواب ولم تأخذه الحيرة فخذ منه ما يجيب به وأقرره على عمله ثم اعجل عليّ بجوابه. قال نباتة: فخرجت قاصدًا إلى العراق فضمتني الصحارى والفيافي واحتواني القرّ وأخذ مني السفر حتى وصلت فلما وردته أدخلت عليه وعلي شحوب مضني وقد توسط خدمه من نواحيه وتدثر بمطرف خز أدكن ولاث به الناس من بين قائم وقاعد فلما نظر إليّ وكان لي عارفًا قعد ثم تبسم تبسم الوجل ثم قال: أهلًا بك يا نباتة أهلًا بمولى أمير المؤمنين لقد أثر فيك سفرك وأعرف أمير المؤمنين بك ضنينًا، فليت شعري ما دهمك أود همني عنده؟ قال: فسلمت وقعدت فسأل ما حال أمير المؤمنين وخوله؟ فلما هدأ أخرجت له الكتاب فناولته إياه فأخذه مني مسرعًا ويده ترعد ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت إلا وأنا معه ليس معنا ثالث وصار كل من يطيف من خدمه يلقاه خاليًا لا يسمعون منا إلا الصوت فلا يقربون ففك الكتاب فقرأه وجعل يتثاءب ويردد تثاؤبه ويسيل العرق على جبينه وصد غيه على شدة البرد من تحت قلنسوته وعلى رأسه عمامة خز خضراء وجعل يشخص إليّ ببصره ساعة كالمتوهم ثم يعود إلى قراءة الكتاب ويلاحظني النظر كالمتفهم إلا أنه واجم ثم يعاود الكتاب وإني لأقول ما أراه يثبت حروفه من شدة اطراب يده حتى استقصى قراءته، ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش ورجع إليه ذهنه فمسح العرق عن جبينه ثم قال متمثلًا:

وإذا المنيــة أنــشبت أظفارهــا ألفيــت كــل تميمــة لا تنفــع

قبح الله منا الحسن يا نباتة وتواكلتنا عند أمير المؤمنين الألسن وما هذا إلا سانح فكرة نمقها مرصد يكلب بقصتنا مع حسن رأي أمير المؤمنين فينا، يا غلام فتبادر الغلمان الصيحة فلي علينا منهم المجلس حتى دفأتني منهم الأنفاس فقال: الدواة والقرطاس فأتى بدواء وقرطاس فكتب بيده وما رفع القلم إلا مستمدًّا حتى سطر مثل خدّ الفرس، فلما فرغ قال لي: يا نباتة هل علمت ما جئت به فنسمعك ما كتبنا؟ قلت: لا قال: إذا حسبك منا مثله ثم ناولني الجواب وأمر لي بجائزة فاجزل وجرد لي كسا ودعا لي بطعام فأكلت ثم قال: نكلك إلى ما أمرت به من عجلة أو توان وإني لأحب مقارنتك والأنس برؤيتك. فقلت: كان معي قفل مفتاحه عندك ومفتاح قفلك عندي فما جدت لك الوافية بالأمرين فأقفلت المكروه وفتحت العافية وما ساءني ذلك وما أحب أن أزيدك بيانًا قلت: الوافية الوافء وقوله: ما قفلت دعاء أي: جعلني الله سببا لانصراف المكروه وإقبال المحبوب ثم قال: ثم نهضت وقام مودعًا لي فالتزمني وقال: بأبي أنت وأمي رب لفظة مسموعة ومحتقر نافع فكن كما أظنّ فخرجت مستقبلًا وجهي حتى وردت على أمير المؤمنين فوجدته منصرفًا من صلاة العصر، فلما رآني قال: ما اجتواك المضجع يا نباتة؟ فقلت: من خاف من وجه الصباح أدلج فسلمت وانتبذت عنه فتركني حتى سكن جأشي ثم قال: مهيم فدفعت إليه الكتاب فقرأه متبسمًا فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له سن سوداء ثم استقصاه فانصرف إلي فقال: كيف رأيت إشفاقه؟ قال: فقصصت عليه ما رأيت منه فقال: صلوات الله على الصادق الأمين إن من البيان لسحرًا، ثم قذف الكتاب إلي فقال: اقرأ فقرأته فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية المعصوم من خطل القول وزلل الفعل

بكفالة الله الواجبة لذوي أمره من عبد اكتنفته الذلة ومدّ به الصغار إلى وخيم المرتع ووبيل المكرع من جائل قادح ومعتر فادح والسلام عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت وكان بها التقوى إلى أهلها قائدًا فإني أحمد الله إليك راجيًا لعطفك بعطفه الذي لا إله إلا هو أما بعد، كان الله لك بالدعة في دار الزوال والأمن في دار الزلزال فإنه من عنيت به مكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصًا فما هو إلا سعيد يؤثر أو شقي يوتر وقد حجبني عن نواظر السعد لسان مرصد ونافث حقد انتهز به الشيطان حين الفكرة فافتتح به أبواب الوسواس بما تحتويه الصدورة فواغوثاه باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه واعتصامًا بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قسم الإيمان وصادق السنة فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقًا نبا عنه كيده وكثر عليه تحسره بلية فرع بها مكر أمير المؤمنين ملبسًا وكادحًا ومؤرثًا ليفل من غربه الذي نصبني ويصيب ثار ألم زيل به موتورًا وأذكره قديم ما مت به الأوائل حتى لحقت بمثله منهم وبما كنت أبلوه من خسة أقدار ومزاولة أعمال إلى أن وصلت ذلك بالتشرط لروح بن زنباع وقد علم أمير المؤمنين بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي بأن الذي عير به لقوم مصانعهم من أشد ما كان يزاوله أهل القدمة الذين اجتبى الله منهم وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان وارتفعوا بما يكون وما جهل أمير المؤمنين وللبيان موقعه غير محتج ولا معتد أن متابعة روح بن زنباع طريق إلى الوسيلة لمن أراد من فوقه وإن روحًا لم يلبسني العزم الذي به رفعني أمير المؤمنين عن خوله وقد ألصقتني بروح بن زنباع همة لم تزل نواظرها ترمي بي البعيد وتطالع الأعلام وقد أخذت من أمير المؤمنين نصيبًا اقتسمه الإشفاق من سخطه والمواظبة على موافقته فما بقي لنا بعد

الإصابة أمر تجول به النفس وتطرف النواظر ولقد سرت بعين أمير المؤمنين سير المتثبط لمن يتلوه المتطاول لمن يقدمه غير منبت موجف ولا متثاقل مجحف ففت الطالب ولحقت الهارب حتى ثارت السنة وبادت البدعة وخسأ الشيطان وحملت الأديان إلى الجادة العظمى والطريقة المثلى فهأنا ذا يا أمير المؤمنين نصب المسألة لمن رامني وقد عقدت الحبوة وقرنت الوظيفين لقائل محتج أولا ثم ملتج وأمير المؤمنين ولي المظلوم ومعقل الخائف وستظهر له المحبة نبأ أمري ولكل نبأ مستقر وما حفنت يا أمير المؤمنين في أوعية ثقيف حتى روى الظمآن وبطن الغرثان وغصت الأوعية وانقدّت الأوكية في آل مروان فأخذت ثقيف فضلًا صار لها لولاه لفطنت المبادلة ولقد كان مما أنكره أمير المؤمنين من تحاملي وكان مما لو لم يكن لعظم الخطب فوق ما كان وأن أمير المؤمنين لرابع أربعة أحدهم ابنة شعيب النبي صلى الله عليه وسلم إذ رمت بالظن غر من اليقين تفرسًا في النجي المصطفى بالرسالة فحق لها فيه الرجاء وزالت شبهة الشك بالاختبار وقبلها العزيز في يوسف ثم الصديق في الفاروق رحمة الله عليهما، وأمير المؤمنين في الحجاج وما حسد الشيطان بأمير المؤمنين خاملًا ولا شرق بغير شجي فكم غبطة بأمير المؤمنين الرحيم أدبر منها وله عواء وقد قلت حيلته ووهن كيده يوم كيت وكيت ولا أظن أذكر لها من أمير المؤمنين ولقد سمعت لأمير المؤمنين في صالح صلوات الله عليه في ثقيف مقالًا هجم بي الرجاء لعدله عليه بالحجة في رده بمحكم التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فقد أخبر عن الله عزَّ وجلَّ بحكاية غر الملا من قريش عند الاختيار والافتخار وقد نفج الشيطان في مناخرهم قالوا: {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} فوقع

اختيارهم عند المباهات بنفخة الكبر وكبر الجاهلية على الوليد بن المغيرة المخزومي وأبي مسعود الثقفي فصارا في الافتخار بهما صنوين ما أنكر اجتماعهما من الأمة منكر في مدّ صوت القرآن ومبلغ الوحي وإن كان ليقال للوليد في الأمة يومئذ: ريحانة قريش وما رد ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة في القسم السابق فقال عزَّ وجلَّ: {أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا}، وما قدمتني يا أمير المؤمنين ثقيف في الاحتجاج لها وإن لها مقالًا رحبًا ومعاندة قديمة إلا أن هذا من أيسر ما يحتج به العبد المشفق على سيده المغضب والأمر إلى أمير المؤمنين عزل أم أقرّ وكلاهما عدل متبع وصواب معتدل والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله. قال نباتة: فأتيت على الكتاب بمحضر أمير المؤمنين عبد الملك فلما استوعبته سارقته النظر على الهيبة منه فصادف لحظي لحظه فقال: اقطعه ولا تعلمن بما كان أحدًا، فلما مات عبد الملك فشا عني الخبر أنك تنظر أيها الطالب من هذه الحكاية بلاغة عالية وسياسة محكمة تعرف منها قدر ما كان عليه عبد الملك والحجاج وكيف كان علو أمر الدولة ذاك وهذه حكاية ثانية هي أوفق بالغرض من الأولى تشتمل أيضًا على كتاب وجوابه لهما وأمور تستفيد بمعرفتها زيادة مكنة مما تحاول أن تصل إلى معرفته والتحقق بما يستبين من آدابه قال سعيد بن جوبرية: خرجت خارجة على الحجاج بن يوسف فأرسل إلى أنس بن مالك أن يخرج معه فأبى فكتب إليه يشتمه فكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان يشكوه وأدرج كتاب الحجاج في جوف كتابه قال إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر: بعث إليَّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث إليّ في مثلها فدخلت عليه وهو أشد ما كان حنقًا وغيظ فقال: يا إسماعيل ما أشد عليَّ أن تقول الرعية: ضعف أمير

المؤمنين وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يقبل له حسنة ولا يتجاوز له عن سيئة فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: كتب إليّ يذكر أن الحجاج قد أضر به وأساء جواره وقد كتبت في ذلك كتابين كتابًا إلى أنس بن مالك والآخر إلى الحجاج فاقبضهما ثم أخرج على البريد فإذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك فادفع له كتابي وقل له: اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ولن يأتي إليك أمر تكرهه إن شاء الله ثم أئت الحجاج فادفع إليه كتابه وقل له: قد اغتررت بأمير المؤمنين غرة لا أظنه يخطئك نشرها ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه حتى تفهمني إياه إذا قدمت علي إن شاء الله قال إسماعيل: فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العراق فبدأت بأنس بن مالك في منزله فدفعت إليه كتاب أمير المؤمنين وأبلغته رسالته فدعا له وجزاه خيرًا فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له: أبا حمزة إن الحجاج عامل ولو وضع لك في جامعة قدر أن يضرك وينفعك فأنا أريد أن تصالح قال: ذلك إليك لا أخرج عن رأيك ثم أتيت الحجاج فلما رآني رحب وقال: والله لقد كنت أحب أن أراك في بلدي هذا قلت: وأنا والله قد كنت أحب أن أراك وأقدم عليك بغير ما أرسلت به إليك قال: وما ذاك؟ قلت: فأرقت الخليفة وهو أغضب الناس عليك قال: ولم؟ قال: فدفعت إليه الكتاب فجعل يقرأه وجبينه يعرق فمسحه بيمينه ثم قال: اركب بنا إلى أنس ابن مالك قلت له: لا تفعل فإني سأتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك وذلك للذي أشرت عليه من مصالحته قال: ففك كتاب أمير المؤمنين فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أما بعد، فإنك عبد طمت بك الأمور فطغيت وعلوت فيها حتى جزت قدرك وعدوت

طورك وأيم لله يا ابن المستفرمة بعجم زبيب الطائف لأغمزنك كبعض غمزات الليوث للثعالب ولأركضنك ركضة تدخل منها في وجارك اذكر مكاسب آبائك بالطائف إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ويحفرون الآثار في المناهل بأيديهم، فقد نسبت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جراءة منك على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته وأظنك أردت أن تر وزه بها لتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها فإن سوغتها مضيت قدمًا وإن غصصت بها وليت دبرًا، فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين ممسوح الجاعرتين، وأيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرما وانتهكت له عرضًا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين لبعث إليك من يسحبك ظهرًا لبطن حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك فيحكم فيك بما أحب ولم يخف على أمير المؤمنين نبؤك ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. قال إسماعيل: فانطلقت إلى أنس فلم أزل به حتى انطلق معي إلى الحجاج فلما دخلنا عليه قال: يغفر الله لك أبا حمرة عجلت باللائمة وأغضبت علينا أمير المؤمنين ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير فقال أنس: إنك تزعم أنا الأشرار والله سمانا الأنصار وقلت: أنا من أبخل الناس والله يقول فينا: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة}، وزعمت أنا أهل نفاق والله تعالى يقول فينا: {والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا} فكان المخرج والمشتكى في ذلك إلى الله وإلى أمير المؤمنين فتولى من ذلك ما ولاه الله وعرف من حقنا ما جهلت وحفظ منا

ما ضيعت وسيحكم في ذلك رب هو أرضى للمرضى وأسخط للمسخط وأقدر على الغير في يوم لا يشوب الحق فيه الباطل ولا النور الظلمة ولا الهدى الضلالة، والله لو أن اليهود أو النصارى رأت من خدم موسى بن عمران أو عيسى بن مريم يومًا واحدًا لرأت له ما لم تروا لي في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين قال: فاعتذر إليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره وترضى عنه وكتب برضاه وقبوله عذره ولم يزل الحجاج له معظمًا هائبًا حتى هلك رضي الله عنه وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه وسهل حظه وحاطه ولا عد أمناه فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين أعز الله نصره قدم علي بكتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وجعلني من كل مكروه فداءه بذكر شتيمتي وتوبيخي بآبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه وإحسانه إليه ويذكرني أمير المؤمنين جعلني الله فداءه استطالة مني على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جراءة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلي غير محبته ونزل عند سخطته وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم النبيين أحق من أقال عثرتي وعفا عن ذنبي فأمهلني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائعه، وما قلده الله من أمور عباده فرأى أمير المؤمنين أصلحه الله في تسكين روعتي وأفراخ كربتي فقد ملئت رعبًا وفرقًا من سطوته وفجأة نقمته وأمير المؤمنين أقاله الله العثرات وتجاوز له عن السيئات وضاعف له الحسنات وأعلى له الدرجات أحق من صفح وعفا وتغمد وأبقى ولم يشمت في عدوًا مكبًا

ولا حسودًا مصبًا ولم يجرعني غصصًا والذي وصف أمير المؤمنين من صنيعته إليَّ وتنويهه لي بما أسند إلي من عمله وأوطأني من رقاب رعيته فصادق فيه مجزى بالشكر عليه والتوسل مني إليه بالولاية والتقرب بالكفاية وقد عاين إسماعيل ابن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحامل كتابه من نزولي عند مسرة أنس بن مالك وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين وإقلاقه إياي ودخوله بالمصيبة عليَّ ما سيعلمه أمير المؤمنين، فإن رأى أمير المؤمنين طوقني الله بشكره وأعانني على تأدية حقه وبلغني إلى ما فيه موافقة مرضاته ومدّ لي في أجله أن يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمنني به من سفك دمي ويرد ما شرد من نومي ويطمئن به قلبي فقد ورد عليَّ أمر جليل خطبه عظيم أمره شديد عليَّ كربه، أسأل الله أن لا يسخط أمير المؤمنين وأن يثبته في حزمه وعزمه وسياسته وفراسته ومواليه وحشمه وعماله وصنائعه مما يحمد به حسن رأيه وبعد همته أنه ولي أمير المؤمنين والذاب عن سلطانه والصانع له في أمره والسلام، فحدث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب قال: يا كاتب أفرخ روع أبي محمد فكتب إليه بالرضا عنه أنك تعلم أيها الطالب من كتاب عبد الملك هذا وجوابه للحجاج والي العراق من قبله أن القوم كانوا يستجيزون العقوبة بالشتم والإفحاش في السب واللعن عند عظم الجناية، وكيف يقلق الضعيف للقوي ويحتمل ما يرد عليه منه ويتلقاه بالرضا والتسليم وقول عبد الملك يا ابن المستفرمة بعجم زبيب الطائف من الإفحاش في السب فإن الاستفرام هو أن تأخذ المرأة شيئًا من الأمور الحريفة كالشب والعفص وبزر العنب الذي هو العجم فتجعله في خرقة وتضعه في فرجها لينكمش فيضيق، وفي قول عبد الملك صدر كلامه لا يقبل له حسنة ولا يتجاوز له عن سيئة إشارة إلى وصية النبي صلى الله

عليه وسلم بالأنصار لمن يتولى الأمر بعده أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وبهذه الوصية احتج أبو بكر رضي الله عنه على الأنصار في أنه لا حق لهم في الخلافة حيث كانوا موصى بهم قالوا: إلي إذا يكون من غيرهم فقبلوا ذلك منه وانكفوا عن طلب الخلافة بعدما كان من الحباب بن المنذر يوم السقيفة إذ يقول حال المشاورة: أنا جزيلها المحنكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير رضي الله عنه عن الجميع، وهذه حكاية ثالثة تشتمل على كتاب من سليمان بن عبد الملك أيام ولاية أخيه الوليد إلى الحجاج وجوابه من الحجاج إليه قالوا: كان سليمان بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتبًا فلا ينظر له فيها فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف سلام على أهل الطاعة من عباد الله أما بعد؛ فإنك امرؤ مهتوك عند حجاب الحق مولع بما عليك لا لك منصرف عن منافعك تارك لحظك مستخف بحق الله وحق أوليائه لا ما سلف إليك من خير يعطفك ولا ما عليك لا لك تصرفه في مهمة من أمرك معموه معصوص عن الحق عصيصاء لا تسكت عن قبيح ولا ترعوي عن إساءة ولا ترجو لله وقارًا حتى دعيت فاحشًا سبابًا فقس شبرك بفترك، وأيم الله لئن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ولأجعلنك شريدًا في الجبال تلوذ بأطراف الشمال ولأعلقن الرومية الحمراء بثدييها، علم الله ذلك مني فقدما غرتك العافية وانتحيت أعراض الرجال فإنك قدرت فبذخت وظفرت فتعديت فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة أتعلق بها وإن تك الأخرى فأرجو أن تئول إلى مذلة ذليلة وخزية طويلة ويجعل مصيرك في الآخرة شر مصير والسلام.
فكتب إليه الحجاج: بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف إلى

سليمان بن عبد الملك سلام علي من اتبع الهدى أما بعد؛ فإنك كتبت إلي تذكر أني امرؤ مهتوك عني حجاب الحق مولع بما علي لا لي منصرف عن منافعي تارك لحظى مستخف بحق الله وحق ولي الحق وتذكر أنك ذو مصاولة ولعمري إنك لصي حديث السن تعذر بقلة عقلك وحداثة سنك ويرقب فيك غيرك، فأما كتابك إليّ لعمري لقد ضعف فيه عقلك واستخف به حلمك فلله أبوك أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك رجاء الله دون رجائك وأمت غيظك وأنمت عدوك وسترت عنه تدبيرك ولم تنبهه فيلتمس من مكابدتك ما تلتمس من مكايدته؛ ولكنك لم تشف بالأمور علمًا ولم ترزق من أمرك خرما جمعت أمورًا دلاك فيها الشيطان على أسوء أمرك فكان الجفاء من خليقتك والحمق من طبيعتك وأقبل الشيطان بك وأدبر وحدثك أنك لن تكون كاملًا حتى تتعاطى ما يعيبك فتزحلقت صخرتك لقوله: واتسعت جوانبها لكذبه وأما قولك: لو ملكك الله لعلقت زينب ابنة يوسف بثدييها فأرجو أن يكرمها الله بهوانك وأن لا يوفق ذلك لك إن كان ذلك من رأيك مع أني أعرف أنك كتبت إليَّ والشيطان بين كتفيك فشر محل علي شر كاتب راض بالخسف فأحرى بالحمق أن لا يدلك على هدى ولا يردك إلا إلى ردي ومال بك الأمل وتحلب فوك للخلافة فأنت شامخ البصر طامح النظر تظن أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتها، إنها لنعمة الله أسأل الله أن يلهمك فيها الشكر مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأخوك فأكون لك مثلي لهما وإن نفخ الشيطان في منخرك فهو أمر أراد ا لله نزعه عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك ولعمري إنها النصيحة فإن تقبلها فمثلها قبل وإن تردها عليّ اقتطعتها دونك وأنا الحجاج زينب ابنة يوسف أخت الحجاج هي التي أرادها سليمان بقوله: الرومية الحمراء يشتمها

بذلك وقول الحجاج: تحلب فوك للخلافة كقول الناس: سال لعابه لكذا أو جرى ريقه في هذه القصة ظهرت من سليمان جهالات منها ما قاله الحجاج في كتابه من تنبيه عدوه لما أضمر له فأما أن يلتمس له المكايد وإما أن يحترس منه حتى لا يبلغ فيه مرامه ومنها توعده أو أن عجزه يمنتظر قدرة تكون أو لا تكون ومنها تعرضه لتحرك غيرة السلطان القائم وسوء ظنه به وربما كان ذلك سببًا لإيقاعه به وذهابه بنفسه فقد قيل: الملك عقيم يعني: أنه ربما دعا الملك بحادثة من الحوادث إلى أن يقتل ابنه أو أخاه ومنه قرنه نفسه على صغر سنه برجل نكرة داهية فانصرفت به الأحوال ومرت على رأسه حوادث الأيام حتى عرف وجوه المنافع والمضار:

وابن اللبون إذا ما لزفي قرن لم يستطع صولة البزل القنا عبس

هذه صورة ما كانت عليه الكتابة في الطبقة الأولى لا ترى في الكتابة زيادة عن المقصود وعناية صاحبه إنما هي إبقاء تأدية المراد مثل هذه الكتابة هو الذي أراد ابن خلدون بالمرسل من قسمي الكتابة ومدحه وعاب غيره، وهذا هو الفصل الذي أبان فيه ذلك قال: اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية والنثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام، فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء، وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتي به قطعًا ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقًا ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالًا من غير تقييده بقافية ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم، وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين

وليس يسمى مرسلًا مطلقًا ولا مسجعًا بل مفصل بآيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثني من غير التزام حرف يكون سجعًا ولا قافية، وهو معنى قوله تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم}، وقال: {قد فصلنا الآيات} ويسمى أواخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعًا ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضًا قواف، وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني، وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه، واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعملت المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزم التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصًا أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب، وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه

والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسالًا من غير تكلف له، ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة، وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساخ خطوه وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى أنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معهما فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس، فتأمل ذلك بما قدمناه لك نقف على صحة ما ذكرناه، فإذا قرأت هذا الفصل من كلام ابن خلدون علمت أنه قد حصل في الإنشاء تغيرات تقتضي التقسيم إلى طبقات كما كان في الشعر وبالاستقراء وتشابه الكيفية وتقاربها في كل عصر تجد أنها ثلاث طبقات كطبقات الشعراء فأولاها الأمة العربية التي انتهت بانتهاء دولة بني أمية، فإن عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان آخر ملوكهم يعدّ فاتحًا للطبقة الثانية حيث أطال النفس في الكلام وفتح في العبارات وزاد عن المقاصد زيادة تخرج الكلام عن حد الإفادة وتدخله في كونه أداء رسم وإقامة

شعيرة من شعائر الملك، فإنه يحتاج لإجراء ما تضمنه إلى تلخيص وتفتيش عن المقصود بحيث إذا ورد الكتاب على مأمور بأمر ينفذه قال لكاتبه: خذ هذا الكتاب واقرأه وتأمل ما فيه واستخرج لي غرضه وخذ لي مآله فيتعب الكاتب في ذلك حتى يلخص عبارة صغيرة تتضمن المقصود فتكون هي روح الكتاب والمعول عليه فيه، ويكون الباقي بمنزلة اللغو وأننا لم نجد كثرة الكلام وإطالة الكتب إلا عند انتهاء الدولة وإشرافها على الزوال، نجد ذلك في كل عصر بخلاف الحال في أوائل الدول وحين قوتها وكأن كثرة الأشغال بمهمات الأمور إذ ذاك لا تدع موضعًا لكثرة الأقوال يدلك على ذلك ما نقل عن جعفر بن يحيى من قوله لكتابه: إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا والتوقيع هو ما يكتبه الكاتب عن السلطان فمن دونه من أولي الأمر في أواخر الكتب بما يريد المكتوب عنه أجراه وذلك يكون بعبارات صغيرة وافية بالغرض متمكنة في باب البلاغة فقد كان الناس يطلبون توقيعات جعفر بن يحيى ويتنافسون في الحصول عليها حتى قيل: إن الورقة من كتبه ربما اشتريت بدينار وأما عند انتهاء الدولة فإن الأمور تكون قد تمهدت والأحوال قد اطمأنت وأقبل العظماء والرؤساء على استعمال اللذات والمضي مع الشهوات وتسيير الأعمال على الترتيب والتمهيد الذي تعب فيه أوائل تلك الدولة وحينئذ تكون أوقاتهم فارغة يجد المقال له فيها مجالًا فيتسع وتطول الكتب إلى ذلك الحدّ المذموم الذي وقعت الإشارة إليه والتصريح به من ابن خلدون ومن تكلم مثل كلامه فقد قيل: إن عبد الحميد بن يحيى كتب عن سلطانه كتبًا جاءت وقر بعير ولكن لم يبق من كلامه شيء بتناقله الناس لانمحاء دولته وذهاب آثارها وخمود ذكرها إما لمحبة الدولة القائمة أو الخوف منها والتملق لها كما هو الحال في كل

دولة تذهب بقيام غيرها إلا أنه قد بقي من كلام عبد الحميد هذا كتاب أوصى فيه الكتاب بمحاسن الآداب وهو مشتمل على أدب لا يخص الكتاب (وهذه صورته): أما بعد؛ حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فإن الله عزَّ وجلَّ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافًا وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كافر إلا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليمًا في موضع الحلم فيهما في موضع الحكم مقدامًا في موضع الإقدام محجامًا في موضع الإحجام مؤثرًا للعفاف والعدل والإنصاف كتومًا للأسرار وفيًا عند الشدائد عالمًا بما يأتي من النوازل يضع الأمور مواضعها والطوارق في أماكنها، قد نظر في كل فنٍّ من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما

يصدر عنه قبل صدوره فيعدّ لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفهموا في الدين وابدءوا بعلم كتاب الله عزَّ وجلَّ والفرائض ثم العربية؛ فإنها نفاق ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربئوا بأنفسكم عن السعاية والقيمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير أحنة وتحابوا في الله عزَّ وجلَّ في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والسبل من سلفكم وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحدًا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوره وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه فإن عرضت في الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال؛ فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه وبصدق ذلك فعله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه فاستشعروا ذلك، وفقكم الله من أنفسكم في حالة

الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، وإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عزَّ وجلَّ وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقًا وللمظلوم منصفًا فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكمًا وللأشراف مكرمًا وللفيء موفرًا وللبلاد عامرًا وللرعية متألفًا وعن أذاهم متخلفًا وليكن في مجلسه متواضعًا حليمًا وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقًا وإذا صحب أحدكم رجلًا فليختبر خلائقه فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيله وأجمل وسيلة وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرًا بسياستها التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحًا لم يهجها إذا ركبها وإن كانت شبوبًا اتقاها من بين يديها وإن خاف منها شرودًا توقاها من ناحية رأسها وإن كانت حرونًا قمع برفق هواها في طرقها فإن استمرت عطفها يسيرًا فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابًا ولا تعرف صوابًا ولا تفهم خطابًا إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها، ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخات والشفقة إن شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر

حقه، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضبيع والتبذير واستعينوا على أفعالكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متألف السرف وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي في منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل من إكثاره وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضرّ ببدنه وعقله وأدبه فإنه إن ظن منكم ظانّ أو قال قائل: إن الذي برز مني جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عزَّ وجلَّ إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لأعباء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل في طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جلَّ ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر

هذا الكتاب وغره كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عزَّ وجلَّ فلذلك جعلته آخره وتممته به، تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قول عبد الحميد في آفة التدبير هو ما سبقت الإشارة إلى وجوب التحرز منه من زيادة الكلام على المقاصد زيادة تمنع صاحب الكاتب وهو أميره عن إنفاذ علمه وإعمال رويته في تلك المقاصد فيجب الاقتصار على أقوى الحجج بمنفعة ما يراد إجراؤه ولا يذهب كثيرًا من الأوقات بالاشتغال في الأوصاف وعدد المحاسن والمساوئ بالعبارات المختلفة إلا حيث يقتضي الحال ذلك ومشاهير هذه الطبقة التي افتتحها عبد الحميد هذا كثير كالربيعي والفضل ابنه ويعقوب ابن داود وبني برمك ومحمد بن عبد الملك الزيات في أوائل الدولة العباسية وبني الفرات والأستاذ ابن العميد والصاحب إسماعيل بن عباد وأبي إسحاق الصابئ وأبي الفصل أحمد المعروف ببديع الزمان وأبي بكر الخوارزمي في أواسطها، وهذه أمثلة تعرف بها ما كان عليه حال الكتابة في هذه الطبقة التي تعقبها الطبقة الثالثة المفتتحة بعبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل وزير صلاح الدين يوسف بن أيوب أول ملوك الكرد بمصر (صورة كتاب عن المعتصم): إلى نواحي بلاد الإسلام يتضمن شكر الله على الظفر بعدو والبشارة بذلك أما بعد؛ فالحمد لله الذي جعل العافية لدينه والعصمة لأوليائه والعز لمن نصره والفلج لمن أطاعه والحق لمن عرف حقه وجعل دائرة السوء على من عصاه وصدف عنه ورغب عن ربوبيته وابتغى إلهًا غيره لا إله إلا هو وحده لا شريك له يحمده أمير المؤمنين حمد من لا يعبد غيره ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفوض أمره إلا إليه ولا يرجو الخير إلا من عنده والمزيد إلا من سعة فضله، ولا يستعين

في أحواله كلها إلا به، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله وصفوته من عباده الذي ارتضاه لنبوته وابتعثه بوحيه واختصه بكرامته، فأرسله بالحق شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، والحمد لله الذي توحد لأمير المؤمنين بصنعه فيسر له أمره وصدق له ظنه وأنجح له طلبته وبلغ له محبته وأدرك المسلمون بثأرهم على يده وقتل عدوهم وأسكن روعتهم ورحم فاقتهم وآنس وحشتهم فأصبحوا آمنين مطمئنين مقيمين في ديارهم متمكنين في أوطانهم بعد القتل الخوف والتشريد وطول العناء وتتابع البلاء منا من الله عزَّ وجلَّ على أمير المؤمنين بما خصه به وصنعا له فيما وفقه لطلبه وكرامة زادها فيما أجرى على يده، فالحمد لله كثيرًا كما هو أهله وترغبًا إلى الله في تمام نعمه ودوام صنعه وسعة ما عنده بمنه ولطفه ولا يعلم أمير المؤمنين مع كثرة أعداء المسلمين وتكنفهم إياهم من أقطارهم والضغائن التي في قلوبهم على أهله وما يترصدونه من العداوة وينطوون عليه من المكايدة إذ كان هو الظاهر عليهم والآخذ منهم عدوًّا كان أعظم بلية ولا أجل خطبًا ولا أشد كلبًا ولا أبلغ مكايدة ولا أرمى بمكروه من هؤلاء الكفرة الذين يغزونهم المسلمون فيستعلون عليهم ويضعون أيديهم حيث شاءوا منهم ولا يقبلون لهم صلحًا ولا يميلون معهم إلى موادعة، وإن كانت لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض ما لا يزال يكون من فترات ولاة الثغور أدنى دولة من دولات الظفر وخلسة من خلس الحرب كأن بما لهم من خوف العاقبة في ذلك منغص لما تعجلوا من سروره وما يتوقعون من الدوائر بعد مكدر لما وصل إليهم من فرحة، فأما اللعين بابك وكفرته فإنهم كانوا يغزون أكثر مما يغزون وينالون أكثر مما ينال منهم ومنهم المنحرفون عن الموادعة المتوحشون عن المراسلة ومن أديلوا من تتابع

الدول ولم يخافوا عاقبة تدركهم ولا دائرة تدور عليهم، وكان مما وطأ ذلك ومكنه لهم أنهم قوم ابتدءوا أمرهم على حال تشاغل من السلطان وتتابع من الفتن وإطراب من الحيل فاستقبلوا أمرهم بعزة من أنفسهم واستشارة من ذوي آرائهم فأجلوا من حولهم لتخلص البلاد لهم، ثم أخربوا البلاد ليعز مطلبهم وتشتد المؤنة وتعظم الكلفة ويقووا في ذات أيديهم فلم يتواف قوّاد السلطان إلا وقد توافت إليهم القوة من كل جانب فاستفحل أمرهم وعظمت شوكتهم واشتدت ضروراتهم واستجمع لهم كيدهم وكثر عددهم واعتدادهم وتمكنت الهيبة في صدور الناس منهم وتحقق في نفوسهم أن كل ما يعدهم الكافر ويمنيهم أخذًا باليد وكان الذي بقى عندهم منه كالذي مضى وبدون هذا ما يختدع الأريب ويستنزل العاقل ويعتقل الفطن فكيف بمن لا فكرة له ولا روية عنده هذا مع كل ما في قلوبهم من حسد أهل النعم ومنافستهم على ما في أيديهم وتقطعهم حسرات في أثر ما خصوا به وأنهم ألا يكونوا يرون أنفسهم أحق بذلك فإنهم فيه سواء ولم يزل أمير المؤمنين قبل أن تفضي إليه الخلافة ماذا عنقه موجهًا همته إلى أن يوليه الله أمر هؤلاء الكفرة ويملكه حربهم ويجعل القارع لهم عن دينه والمؤخر لهم عن حقه فلم يكن يألو في ذلك حرصًا وطلبًا واحتيالًا، فكان أمير المؤمنين رضي الله عنه يأبى ذلك لضنه به وصيانته له، فلما أفضى الله إلى أمير المؤمنين بخلافته وأطلق الأمر في يده لم يكن شيء أحب إليه ولا آخذ بقلبه من معالجة الكافر وكفرته وأعزه الله وأعانه، فلله الحمد على ذلك وتيسره فأعدّ من أمواله أحضرها ومن قواد جيشه أعلمهم بالحرب وأنهضهم بالمعضلات ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه صلوات الله عليهم أحسنهم طاعة وأشدّهم نكاية وأكثرهم عدة، ثم اتبع الأموال بالأموال والرجال لرجال من خاصة مواليه

وعدد غلمانه وقبل ذلك ما اتكل عليه من صنع الله عزَّ وجلَّ ووجه البعض رعيته فكيف رآى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين أن الله يكذب ظنونهم ويشفي صدور أوليائه منهم يقتلونهم كيف شاءوا في كل موطن ومعترك ما دامت عند أنفسهم مقاومة، فلما ذلوا وقلوا وكرهوا الموت صاروا لا يتراءون إلا في رءوس الجبال ومضايق الطرق وخلف الأودية ومن وراء الأنهار وحيث لا تنالهم الخيل طلبًا للمطاولة وانتظارًا للدوائر فكادهم الله عند ذلك وهو خير الكائدين واستدرجهم حتى جمعهم إلى حصنهم معتصمين فيه عند أنفسهم فجعل اعتصامهم جبنًا لهم وصنعًا لأوليائه وإحاطة منه بهم تبارك وتعالى فجمعهم وحصرهم لكي لا تبقى منهم بقية ولا ترجى لهم عاقبة ولا يكون الدين إلا لله ولا العاقبة إلا لأوليائه ولا التعس والنكس إلا لمن خذله، فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم سلطهم الله عليهم كيد واحدة يختطفونهم بسيوفهم وينتظمونهم برماحهم فلا يجدون ملجأ ولا مهربًا ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحرمهم وصيروا الدار دارهم والمحلة محلتهم والموال قسمًا بينهم والأهل إماء وعبيدًا، وفوق ذلك كله ما أعدّ الله لهؤلاء من الرحمة والثواب وما أعد لأولئك من الخزي والعقاب وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسلم من ذل الغلبة ولا فيمن نجا فعاين في الحياة بعض العوض ولا فيمن أصيب فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه؛ لكنه سبحانه وتعالى أطلقه وسدّد مذاهبه وتركه بين الذل والخوف والغصة والحسرة حتى إذا ذاق طعم ذلك كله وفهمه وعرف موقع المصيبة وظن مع ذلك كله أنه على طريق من النجاة ضرب الله وجهه وأعمى بصره وسد عليه وأخذ بسمعه وبصره وحازه إلى من لا يرق له ولا يرثى لمصرعه فامتثل ما أمر به الأفشين حيدر بن طاووس مولى أمير المؤمنين في أمره فبثَّ له الحبائل

ووضع عليه الأرصاد ونصب له الأشراك حتى أظفره الله به أسيرًا ذليلًا موثقًا في الحديد يراه في تلك الحالة من كان يراه ربًّا ويرى الدائرة عليه من كان يظن أنها ستكون له فالحمد لله الذي أعز دينه وأظهر حجته ونصر أولياء من أهلك أعداه حمدًا يقضي به الحق وتتم به النعمة وتتصل به الزيادة والحمد لله الذي فتح على أمير المؤمنين وحقق ظنه وأنجح سعيه وحاز له أجر هذا الفتح وزخره وشرفه وجعله خالصًا لتمامه وكماله بأكمل الصنع وأحسن الكفاية ولا خلا من سرور يراه وبشارة تتجدد له عنده، فالحمد لله أولًا والحمد لله آخرًا، والحمد لله على عطاياه التي لا تحصى ونعمه التي لا تنسى إن شاء الله تعالى، وهذا الكتاب من البليغ المرسل الوافي إذا تأملته وجدته قد شرح الحال على أحسن وجه وأجمله لم يغادر دقيقة إلا أظهرها وأكمل الحديث عنها من أول فكرة إلى آخر عاقبة (وهذه صورة كتاب من إنشاء أبي إسحاق الصابئ) عن الخليفة الطائع إلى صمصام الدولة ابن عضد الدولة بن بويه بسبب كردويه الخارج عن الطاعة من عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى صمصام الدولة وشمس الملة أبي كيجار بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أما بعد أطال الله بقاءك فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بوأك المنزلة العليا وأنالك من أثرته الغاية القصوى وجعل لك ما كان لأبيك عضد الدولة وتاج الملة رحمة الله عليه من القدر والمحل والموضع الأرفع الأجل، فإنه يوجب لك عند كل أثر يكون لك في الخدمة ومقام حمد تقومه في حماية البيضة إنعامًا يظاهره وإكرامًا يتابعه ويواتره والله يؤيدك من توفيقه وتسديده ويمدك بمعونته وتأييده ويخير لأمير المؤمنين فيما

رأيه مستمر عليه من مزيدك وتمكينك والإنافة بك وتعظيمك وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه بتوكل وإليه ينيب، وقد عرفت أدام الله عزك ما كان من أمر كردويه كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك وجاحد صنيعه وصنيعك في الوثبة التي وثبها والكبيرة التي ارتكبها وتقديره أن ينتهز الفرصة التي لم يمكنه الله منها بل كان من وراء دفعه ورده عنها ومعاجلتك إياه الحرب التي أصلاه الله نارها وقنعه عارها وشنارها حتى انهزم والأوغاد الذين شركوه في إثارة الفتنة على أقبح أحوال الذلة والقلة بعد القتل الذريع والأثخان الوجيع، فالحمد لله على هذه النعمة التي جلّ موقعها وبان على الخاصة والعامة أثرها ولزم أمير المؤمنين خصوصًا والمسلمين عموما نشرها والحديث بها وهو المسئول إقامتها وإدامتها برحمته، وقد رأى أمير المؤمنين أن يجازيك عن هذا الفتح العظيم والمقام المجيد الكريم بخلع تامة ودابتين ومركبين ذهب من مراكبه وسيف وطوق وسوار مرصع فتلق ذلك بشكره عليه والاعتداد بنعمته فيه وألبس خلع أمير المؤمنين وتكرمته وسر من بابه على حملانه وأظهر ما حباك به لأهل حضرته ليعز الله بك وليه ووليك ويذل عدوّه وعدوّك إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. (وهذه صورة كتاب تعزية عن الخليفة المقتفى) إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي عند وفاة ابنه من عبد الله أبي عبد الله محمد المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين إلى شاهنشاه المعظم مولى الأمم مالك رقاب العرب والعجم جلال دين الله ظهير عباد الله حافظ بلاد الله معين خليفة الله غياث الدنيا والدين ناصر الإسلام والمسلمين محيي الدولة القاهرة معز الملة الزاهرة عماد الملة الباهرة أبي الفتح مسعود بن محمد ملكشاه قسيم أمير المؤمنين سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله

إلا هو ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ويسلم تسليمًا أما بعد؛ أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك وسعادتك ونعمتك وأحسن حفظك وكلاءتك ورعايتك وأمتع أمير المؤمنين بك والنعمة الجليلة والموهبة الجزيلة والمنحة النفيسة فيك وعندك ولا أخلاه منك، فإن أولى من ادّرع للحوادث جنة الاصطبار ونظر أحوال الدنيا في تقلبها بعين الاعتبار ورجع إلى الله في قدره وقضائه وسلم لأمره الذي لا راد له في امتحانه وابتلائه وعرف أن له سبحانه في كل ما يجريه على عباده حكمة باطنة ومصلحة كامنة من خير عاجل ييسره وثواب آجل يؤخره لهم إلى يوم الجزاء ويدخره وفائدة هو أدرى بها وأعلم وفعلة فيها أتقن وأحكم من خصه بما خصك الله به من الدين الراجح والخلق الصالح والمعتقد الواضح والنعم التي جادك في كل يوم سحابها واتسعت بين يديك عند مضايق الأمور رحابها وأنست إذا استوحشت من العاجزين عن ارتباطها بالشكر صحابها والمناقب التي فرعت بها صهوات المجد وتملكت رق الثناء والحمد وعلوت فيها عن المساجل والمطاول وبعدما صير لك منها عن أن تناله متناول وتأدى إلى أمير المؤمنين أمتعه الله ببقائك ودافع له عن حوبائك نبأ الحادثة بسليلك الذي اختار الله له كريم جواره فأحب له الانتقال إلى محل الفوز ومداره فوجد لذلك وجومًا موفرًا وهما للسكون منفرًا وتوزعًا تقتضيه المشاركة لك فيما ساء وسر والمساهمة الحاصلة في كل ما حلا من الأمور وأمر عند ورود هذا الخبر بالتصدير للعزاء وإعلان ما يعلن عن مقاسمتك في الضراء دفعها الله عنك والسراء إلى ما أبان عن انصراف الهمم الأمامية إليك فيما خص وعم من حالك واستجلابه لك دواعي المسار في حلك وترحالك وكون الأفكار الشريفة موكلة بكل ما حمى من الروائع قلبك وأعذب شربك وأنت حقيق بمعرفة هذه الحال من

طويته لك ونيته ورأيه فيك وشفقته ورعاية مصلحتك منه بعين كالية ورجوعه من المحافظة في حقك إلى إلفة بالصفاء حالية وتلقى الرزية التي أرادها الله وقضاها وأنفذه مشيئته فيها وأمضاها بالصبر المأمور به والاحتساب والتسليم الموعود عليه بجزيل الثواب، علمًا أن الأقدار لا تغالب وغريمها لا يطالب وأن لا سبيل لأحد من خلقه إلى البقاء ولا طريق للخلود في دار الفناء ولا دافع لحكمه جلت عظمته فيما قدره من الآجال وسبق في علمه من الروائع في الابتلاء والأوجال وما يزال التطلع واقعًا إلى وصول جوابك الدال على السلوة التي هي أليق بك والأدعى إلى حصول بغيتك من رضا الله وأربك لتحط الأنسة منع وصوله في رحالها وتؤذن بصرف الهموم الجارية لأجلك وارتحالها هذه مناجاة أمير المؤمنين لك أدام الله تأييدك وأمتع بك إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله. (وهذه صورة جواب عن المقتفى) إلى غياث الدين مسعود السلجوقي حيث كتب يخبره بعود خارج إلى الطاعة من عبد الله أبي عبد الله محمد الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين إلى غياث الدين، وساق ما تقدم من الألقاب ثم قال: أما بعد؛ أطال الله بقاءك فإن كتابك عرض بحضرة أمير المؤمنين معربًا عن أخبار سعادتك وجري الأمور على إرادتك وبلوغ الأغراض من الوجهة التي توجهت إليها والأطراف التي أشرقت سعادتك عليها بميامن ما تكنه من الطاعة الإمامية وتضمره وتعتقده من الإخلاص وتستشعره وإن ركن الدين محمد أو من انضم إلى جملته وانتظم في سلك موافقته لما ظفروا منك بذمام اطمأنوا إليه وسكنوا وأمان وثقوا به وركنوا أبصروا الرشد فاتبعوه واستجابوا الداعي إذ سمعوه وإذ عنوا بطاعتك مسرعين وانقادوا إلى متابعتك مهطعين على استقرار مسيرهم تحت لوائك إلى باب همدان ليكون تقرير القواعد

الجامعة للمصالح عند وصولهم والتوفر على تحري ما تقرّ به الخواطر مع حلولها ووقف عليه وعرف مضمونه وجدد ذلك لديه من الابتهاج والاغتباط الواضح المنهاج ما تقتضيه الثقة بولائك واعتماده وتعويله علىجميل معتقدك واعتضاده من طاعتك بحل لا تنقض الأيام مبرمه وسكونه من ولائك إلى وزر لا تروع المخاوف حرمه وواصل شكر الله تعالى على ما شهدت به هذه النعمة العميمة والموهبة الجسيمة من إجابة الأدعية التي ما زالت جنودها تستدعي لك النصر وتستنزله وتستكمل الحظ من كل خير وتستجزله وبلغ الأمل منك فيمن هو العدة للملمات والحامي بتقرير الأنس من روائع الشتات ومن بقاؤه يكف عن الامتداد أكف الخطوب ويطلق وجوه المسار من عقل القطوب ويأبى الله العادل في حكمه وحكمته الرءوف بعباده وخليفته إلا إعلاء كلمة الحق بالهمم الأمامية والإجراء على عوائد صنعه الخفية الكافلة بصلاح العباد والرعية، وقد أقيمت أسواق التهنئة بهذه البشرى وأفادت جذلًا تتابع وفوده تترى لا سيما مع الإشارة إلى قرب الأوبة التي تدني كل صلاح وتجلبه وتزيل كل خلل أتعب القلوب وتذهبه وإلى الباري جل اسمه الرغبة في اختصاصك من عنايته بأحسن ما عهدته وأجمله وصلة آخر وقتك في نجح المساعي وأوله وأن لا يخلي الدار العزيزة من إخلاصك في ولائها ورغبتك في تحصيل مراضيها وشريف آرائها، هذه مناجات أمير المؤمنين أدام الله تأييدك وأمتع بك جرى فيها على عادة تكرمته وأعرب بها عن اعتقاده فيك وطويته ومكانك الأثيل في شريف حضرته وابتهاجه بنعمة الله عندك وخيرته فتأملها تأملًا يشاكل طاعتك الصافية من الشوائب والإقذاء وتلقها بصدق الاعتماد عليها وحسن الإصغاء تفز بالإصابة قد أحك ويقرب بالتوفيق مغداك ومراحك إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله

وبركاته. (وهذه صورة جواب عن الحافظ لدين الله) أحد الفاطميين حيث ورد عليه كتاب من أحد أمرائه وكان أرسله إلى الديار الشامية وقد أخبر هذا الأمير في كتابه أنه حس لفخر الملك التوجه إلى مصر وأثنى عليه بحسن اجتهاده في قتال الإفرنج بطرابلس وقتله عظيمهم من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين إلى الأمير فلان أما بعد؛ فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك من يد فتاه ووزيره وصفيه وظهيره العبد الأجل الأفضل الذي بذل نفسه في نصرة الدين يدًا ولسانًا وأوضح الله للدولة الحافظية بوزارته حجة وبرهانًا وأسبغ النعمة على أهلها فإنه جعله فيهم ناظر أولهم سلطانًا ووفقه في حسن التدبير والعمل بما يقضي بمصالح الصغير والكبير ولما أعاد المملكة إلى أفضل ما كانت عليه من النضرة والبهجة ولم يخرج المادحين لها إذا اختلفوا عن التحقيق وصدق اللهجة فقد ساوت سياسته بين البعيد والقريب وأخذ كل منها بأجزل حظ وأوفر نصيب وسارت سيرته الفاضلة في الآفاق سير المثل واستوجب من خالقه أجر من جمع في طاعته بين القول والعمل وشفع عرضه من وصفك وشكرك والثناء عليك وإطابة ذكرك وإنهاء ما أنت عليه من الولاء وشكر الآلاء بما يضاهي ما ذكرته فيه مما علم عند تلاوته وأصغى إليه عند قراءته وقد استقر بحضرة أمير المؤمنين مكانك من المشايعة وموقعك من المخالصة وكونك من ولاء الدولة على قضية أكسبتك شرفًا تفيأت ظلاله وأفاضت عليك ملبسًا جررت أذياله وسمت بك إلى محل لا يباهي من بلغه ولا يطاول من ناله وكنت في ذلك سالكًا للمنهج القويم ومعتقدًا ما عليه أهل بيتك في القديم لا جرم أنه عاد عليك من حسن رأي أمير المؤمنين بما تقتصر عنه كل أمنية ويشهد لك بمخالصة جمعت فيها بين عمل ونية والله يضاعف أجرك على اعتصامك

من طاعة أمير المؤمنين بالحبل المتين ويوزعك شكر ما منحك من الاستضاءة بنور الحق المبين، فأما الأمير فخر الملك رواج وبعثك له على الوصول إلى الباب وحضك إياه على التعلق من الخدمة بمحصد الأسباب فما كان الإذن له في ذلك إلا لأن كتابه وصل يلتمسه وعرض فيه نفسه وبذل المناصحة والخدمة وسأل سؤال من يعرف قدر العارفة بالإجابة إليه وموقع النعمة فأجيب إلى ذلك إسعافًا له بمراده وعملًا برأي الدولة فيمن يرغب إلى التحيز إليها من أقطاره وبلاده وإلا فلا حاجة لها إليه ولا إلى غيره؛ لأن الله تعالى وله الحمد وفر حظها من الأولياء والأشياع والأنصار والأتباع والعساكر والجيوش والأجناد والأنجاد والأعوان الأقوياء الشداد وعبيد الطاعة الذين يتبارون في النصح ويتنافسون في الاجتهاد والحرص على سعة الأموال وعمارة الأعمال وجمع الرجال في العزائم بين الأفعال والأقوال ولو وصل المذكور لكانت المنة للدولة عليه والحاجة له في ذلك لا إليه قال الله عز من قائل: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنون علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين}. وأما توجهه إلى طرابلس وظفره بالعدو فيها فالله تعالى يعز الإسلام وينشر لواءه ويعلي مناره ويخزل أعداءه وينصر عساكره وأجناده ويبلغه في أحزاب الكفر والضلال مراده وهو عزَّ وجلَّ يمنعك بما منحك وينيلك في دينك ودنياك أملك ومقترحك، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى، (وهذه صورة كتاب من إنشاء الصابئ) عن عز الدولة أحد المراء ذلك العصر أنفذه إلى خليفته المطيع لله وقد قصد أبا تغلب الحمداني أحد الأمراء إذ ذاك حيث خرج عن الطاعة فانهزم أبو تغلب وفر هاربًا لعبد الله الفضل المطيع لله أمير المؤمنين من عبده وصنيعته عز الدولة بن معز الدولة مولى أمير المؤمنين سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله، فإني

أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أما بعد؛ أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز والتأييد والتوفيق والتسديد والعلو والقدرة والظهور والنصرة والحمد لله العلي العظيم الأزلي القديم المنفرد بالكبرياء والملكوت المتوحد بالعظمة والجبروت الذي لا تحده الصفات ولا تحوزه الجهات ولا نحصره قرارة مكان ولا بغيره مرور زمان ولا تمثله العيون بنواظرها ولا تخيله القلوب بخواطرها فاطر السماوات وما تظل وخالق الأرض وما تقل الذي دلَّ بلطيف صفته على جليل حكمته وبين يجلى برهانه على خفي وجدانه واستغنى بالقدرة عن الأعوان واستعلى بالعزة عن الأقران البعيدة عن كل معادل ومضارع الممتنع عن كل مطاول ومقارع الدائم الذي لا يزول ولا يحول العادل الذي لا يظلم ولا يجور الكريم الذي لا يضنّ ولا يبخل الحليم الذي لا يعجل ولا يجهل، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين منزل الرحمة على كل ولي توكل عليه وفوض إليه وائتمر لأوامره وازدجر بزواجره ومحل النقمة بكل عدوّ صدّ عن سبيله وسننه وصدف عن فرائضه وسننه وحاده في مكسب يده ومسعاة قدمه وخائنة عينه وخافية صدره وهو راتع رتعة النعم السائمة في إكلاء النعم السابغة وجاهل جهلها بشكر آلائها ذاهل ذهولها عن طرق استيفائها فلا يلبث أن ينزع سرابيلها صاغرًا ويتعرى منها حاسرًا ويجعل الله كيده في تضليل ويورده شر المورد الوبيل أن الله لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين، والحمد لله الذي اصطفى للنبوة أحق عباده بحمل أعبائها وارتداء ردائها محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعظم خطره وكرّم فصدع بالرسالة وبالغ في الدلالة ودعى إلى الهداية ونجى من الغواية ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرجيم إلى طاعة

الرحمن الرحيم وأعلقهم بحبائل خالقهم ورازقهم وعصمة محييهم ومميتهم بعد انتحال الأكاذيب والأباطيل واستشعار المحالات والأضاليل والتهوك في الاعتقادات الزائدة عن النعيم السائقة إلى العذاب الأليم فصلى الله عليه من ناطق بالحق ومنقذ للخلق وناصح للرب ومؤد للفرض صلاة زاكية رائحة غادية تزيد على اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأعوام والأدوار، والحمد لله الذي انتخب أمير المؤمنين من ذلك السنخ الشريف والعنصر المنيف والعترة الثابت أصلها الممتد ظلها الطيب جناها الممنوع حماها، وحاز له مواريث آبائه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين واختصه من بينهم بتطاول أمد الخلافة واستحصاف حبلها في يده ووفقه لإصابة الغرض من كل مرمى يرميه ومقصد ينتحيه وهو جلَّ ثناؤه الحقيق بإتمام ذلك عليه والزيادة فيه لديه وأحمده سبحانه حمدًا ابتدئه ثم أعيده وأكرره واستزيده على أن أهل ركن الدولة أبا علي وعضد الدولة أبا شجاع مولى أمير المؤمنين وأهلني للأثرة التي بذذنا فيها الأكفاء وفقنا فيها القرناء وتقطعت دونها أنفاس المنافسين وتضرمت عليها أحشاء الحاسدين وإذ أولاني في كل مغزى في خدمة أمير المؤمنين أغزوه ومنحًا أنحوه ورأب رأبه وشعث ألمه وعدو أرغمه وزائغ أقومه أفضل ما أولاه عباده السليمة غيوبهم النقية جيوبهم المأمونة ضمائره المشحوذة بصائرهم من تمكين يده وتثبيت قدمه ونصر رأيه وإعلاء كلمة وتقريب بغيته وإنالة أمنيته، وكذلك يكون من إلى أمير المؤمنين اعتزاؤه وبشعاره اعتزازه وعن زناده قدحه وفي طاعته كدحه، والله ولي ما خولنيه من هذه المنقبة وسوغنيه من هذه الموهبة وأن يتوحد أمير المؤمنين في جميع خدمه الذائدين عن حوزته المنتمين إلى دعوته بيمن الطائر وسعادة الطالع ونجاح المطلب وإدراك الأرب وفي أعدائه الغامصين لنعمته الناقضين

مواثيق بيعته بإضراع الخد وإنعاس الجد وإخفاق الأمل وإحباط العمل ولم يزل مولانا أمير المؤمنين ينكر قديمًا من فضل الله بن ناصر الدولة أحوالًا حقيقًا مثلها بالإنكار ومستحقًّا من ارتكبها للأعراض وأنا أذهب في حفظ غيبه وإجمال محضره وتمحل حجنه وتلفيقها وتأليف معاذيره وتنميقها مذهبي الذي أعمّ به كل من جرى في ناشئ دولته ومغتذ بنعمته ومنتسب إلى ولايته ومشتهر بصنعته وأقدر أن أستصلحه لأمير المؤمنين وأصلحه لنفسه بالتوقيف على مسالك الرشاد ومناهج السداد وهو يريني أن قد قبل وارعوي وأبصر واهتدى حتى رغبت إلى أمير المؤمنين فيما شفعني متفضلًا فيه من تقليده أعمال أبيه والقناعة منه في الضمان بميسور بذله وإيثاره به على من هو فوقه من كبراء إخوته وأهله، فلما بلغ هذه المحال ألط بالمال وخاس بالعهد وطرق لفسخ العقد وأجرى إلى أمور كرهتها ونفد الصبر مني عليها وخفت أن أستمر على الإغضاء عنها والمسامحة فيها فيطلع الله مني على إضاعة الاحتياط في أمر قلدني أمير المؤمنين زمامه وضمنني دركه وإرجائي لرجل قبل في الاعتماد عليه رائي وعول في أخذه بما يلزمه على نظري واستيفائي فتناولته بأطراف العذل مسلوحًا ثم بتأنيبه مفصحًا مصرحًا ورسمت لعبد أمير المؤمنين الناصح أبي طاهر أن يحدثه ويدخل عليه من طريق المشورة والرفق إلى أخرى وينتقل معه بين اللين والخشونة طورًا فطورًا، ففعل ذلك على رسمه في التأني لكل فاسد حتى يصلح ولكل أبيّ حتى يسمح ولم يدع التناهي في وعظه والتمادي في نصحه وتعريفه سوء عاقبة اللجاج وشنعة مغبة الإحراج وهو يزيد طمعًا في الأموال وشرها وعمى في الرأي وعمها إلى أن كاد أمرنا معه يخرج عن حدّ الانتظار إلى حد الرضى بالإصرار فاستأنفت ادّراع الحزم وامتطاء العزم ونهضت إلى أعمال الموصل

وعندي أنه يغنيني عن الإتباب ويتلقاني بالأعتاب وينقاد إلى المراد ويتجنب طريق العناد فحين عرف خبر مسيري وجدي فيه وتشميري برز بروز المخالف المكاشف وتجرد تجرد المواقع المواقف؛ وهو مع ذلك إذا ازددت منه قربًا ازداد مني بعدًا وإذا دلفت إليه ذراعًا نكص عني باعًا وتوافت إلى حضرتي وجوه القبائل من عقيل وشيبان وغيرهما في الجمع الكثيف من صعاليكها والعدد الكثير من صناديدها داخلين في الطاعة متصرفين في عوارض الخدمة، فلما شارفت الحديثة انتقضت عزائم صبره وتقوضت دعائم أمره وبطلت أمانيه ووساوسه واضمحلت خواطره وهواجسه واطرب عليه من ثقاته وغلمانه من كان يهم يعتضد وعليهم يعتمد ورأوا خذلانه والأخذ لنفوسهم ومفارقته والطلب لحظوظهم وحصل بحضرتي إلى هذه الغاية زهاء خمسمائة رجل ذوي خيل مختارة وأسلحة شاكة فصادفوا عندي ما أملوا من فائض الإحسان وغامر الامتنان وذكروا عمن وراءهم من نظرائهم الحرص على الاستئمان وأنهم يردون ولا يتأخرون ويبادرون ولا يتوانون، ولما رأى ذلك لم يملك نفسه أن مضى هاربًا على طريق سنجار منكشفًا عن هذه الديار قانعًا من تلك الآمال الخائبة والظنون الكاذبة بسلامة حشاشة هي رهينة غيها وصريعة بغيها وكان انهزامه بعد أن فعل الفعل السخيف وكاد بالكيد الضعيف بأن غرق سفن الموصل وأحرق جسرها واستذمّ إلى أهلها وتزود منهم اللعن المطيف به أين يمم الكائن معه حيث خيم ودخلتها يومي هذا أيد الله أمير المؤمنين دخول الغانم الظافر المستعلن الظاهر فكنت من نفوس سكانها وشرحت صدور قطانها وأعلمتهم ما أمرني به أمير المؤمنين أعلا الله أمره من تأنيس وحشتهم ونظم ألفتهم وضم نشرهم ولمّ شعثهم وإجمال السيرة فيهم في ضروب معاملاتهم وعلقهم وصنوف متصرفاتهم

ومعايشهم وكثر منهم الثناء والدعاء والله سامع ما رفعوا ومجيب ما سألوا وأجلت حال هذا الجاهل أيد الله أمير المؤمنين عن أقبح هزيمة وأذل هضيمة لأنه لم يلق لقاء الباخع بالطاعة المعتذر من سالف التفريط والإضاعة ولإلقاء المصدق لدعواه في الاستقلال بالمقارعة المحقق لزعمه في الثبات للمدافعة، ولا كان في هذين الأمرين بالبر التقي ولا الفاجر القوي؛ بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره وفضيحة جبنه وخوره منتهكًا للصلاح عادلًا عن الصواب قد ذهب عنه الرشاد وضربت بينه وبينه الأسداد وأنزله الله منزلة مثله ممن أساء حفظ الوديعة وجوار الصنيعة واستوجب نزعهما منه وتأملت أيد الله أمير المؤمنين أمره على التجريب وتصفحته بالتقليب فإذا هو الرجل الذي أطاع فيه أبوه هوى أمه وعصى دواعي رأيه وخرمه وقدمه من ولده على من هو آنس رشد أو أكبر سنًا وأثبت جأشًا وأجرى جنانًا وأشجع قلبًا وأوسع صدرًا وأجدر لمخايل النجابة وثمائل اللبابة، فلما اجتمعت له أسباب القدرة والثروة وأمكنته مناهز الغرة والفرصة وثب عليه وثبة السرحان في ثلة الضان وجزاه جزاء أم عامر لمجيرها؛ إذ فرته بأنيابها وأظفارها واجتمع وأخوه من الأم المرتضع معه لبان الإثم المكني بأبي البركات وليس باب لها ولا حر بشيء منها على أن صرعاه وعاقاه وقبضا عليه وأوثقاه وأقراه من قلعتيهما حيث يقر العشاه ويعاقب الجناه ثم اتبعا ذلك باستحلال دمه وإفاضة مهجته غير راعيين فيه حق الأبوة ولا حانيين عليه حنو البنوة ولا متذممين من الإقدام على مثله ممن تقدمت عند سلطانه قدمه وتوكدت أواصره وعصمه ولا راحمين له من ضعف شيخوخته ولا مصغيين إلى وصية الله إياهما به التي نصها في محكم كتابه وكررها في آيه وبيناته؛ إذ يقول: {اشكر لي ولوالديك إلي المصير} وإذ يقول: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا

إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا}، فبأي وجه يلقى الله قاتل والد حدب قد أمر أن لا ينهره، وبأي لسان ينطق يوم يسأل عما استجازه فيه وفعله، وتالله لو أن بمكانه عدوًا لهما قد قارضهما الدخول وقارعهما عن النفوس لقبح بهما أن يلؤما ذلك اللؤم عند الظفر به وأن يركبا تلك الخطة الشنعاء في الأخذ بناصيته ولم يرض فضل الله بما أتاه إليه حتى استوفى حدود قطع الرحم بأن تتبع أكابر إخوته السالكين خلاف سبيله المتبرئين المستبرئين إلى الله من عظيم ما اكتسب ووخيم ما احتقب لما غضبوا لأبيهم وامتعضوا من المستجل فيه وفيهم فقبض على محمد بن ناصر الدولة حيلة وغيلة وغدرًا ومكيدة ونابذ حمدان بن ناصر الدولة منابذة خار الله له فيها بأن أصاره من فناء أمير المؤمنين إلى الجانب العزيز والحرز الحريز وأن أجرى الله على يده الحرب الواقعة بينه وبين المعروف بكنيته أبي البركات التي لقاه الله فيها بخسه وأتلف نفسه وصرعه بعقوقه وبغيه وقنعه بعاره وخزيه وهو مع ذاك لا يتعظ ولا ينزع ولا ينزجر ولا يقلع إصرارًا على الجرائر التي الله عنها حسيبه وبها طليبه والدنيا والآخرة مرصدتان له بالجزاء المحقوق عليه والعقاب المسوق إليه، وأعظم من هذا كله أيد الله أمير المؤمنين خطبًا وأوعر مسلكًا ولحبًا أن من شرائط العهد الذي كان عهد إليه والعقد الذي عقد له والضمان المخفف مبلغه عنه المأخوذ عفوه منه أن يتناهى في ضبط الثغور وجهاد الروم وحفظ الأطراف ورمّ الأكناف فما وفي بشيء من ذلك بل عدم عنه إلى الاستئثار بالأموال واقتطاعها وإحرازها في مكانها وقلاعها والضنّ بها دون الإخراج في وجوهها والوضع لها في حقوقها وأن تراخى في أمر عظيم

الروم مهملًا وأطرح الفكر فيه مغفلًا حتى هجم في الديار وأثر الآثار ونكأ القلوب وأبكى العيون وصدع الأكباد وأحر الصدور فما كان عنده فيه ما يكون عند المسلم القارئ لكتاب الله إذ يقول: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم}؛ بل صدف عن ذكر الله لاهيًا وعدل عن كتابه ساهيًا واستفسخ ذلك البيع والعقد واستنجز الوعيد لا الوعد ولاطف طاغية الروم وهاداه وأماره وأعطاه وصانعه بمال المسلمين الذي يلزمه أن سلم دينه وصح يقينه أن ينفقه في مرابطهم ويذب به عن حريمهم وأبى إلا أن يعكس ويلفته عن وجهته بالنقل إلى عدوهم وإدخال الوهن بذلك عليهم وقاد إليه من الخيل العتاق ما هو الآن عون للكفر على الإيمان ونجدة للطاغية على السلطان وكان فيما أتحفه به الخمر التي حظر الله عليه أن يشربها ويسقيها وأمره بأن يجتنبها ويجتويها وصلبان ذهب صاغها له وتقرب بها إليه تقربًا قد باعده الله فيه عن الإصابة والأصالة وأدناه من الجهالة والضلالة حتى كأنه عامل من عماله وبطريق من بطارقته، فأما فشه عن مكافحته ولهجه بملاطفته فضدّ الذي أمره الله به في قوله تعالى: {يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين}، وأما نقله ما نقل من الخيل عن ديار المسلمين إلى ديار أعدائهم فنقيض قوله عزَّ وجلَّ: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم}، وأما إهداؤه الخمر والصلبان فخلاف قوله تعالى: {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون}، كل ذلك عنادًا لرب العالمين وطمسًا لأعلام

الدين وضنًّا بما حامى عليه من ذلك الحطام المجموع من الحرام المثمر عن الآثام المقتطع من فيء الإسلام وقد فعل الآن بي وبالعساكر التي معي ومن يضم ولاء أمير المؤمنين الذين هم إخوته وصحبه إن كان مؤمنًا وأنصاره وحزبه إن كان موقنًا من توعير المسالك وتغريق السفن وتضييق الأقوات واستهلاك الأزواد ليوصل إلينا الضر ويلحق بنا الجهد فعل العدوّ المبين المخالف في الدين، فهل يؤمل في هذا الناد المعاند والشاذ الشارد وهل يطمع من مثله في حق يقضيه أو فرض يؤديه أو عهد يرعاه أو زمام يحفظه وهو لله عاص ولإمامه مخالف ولوالده قاتل ولرحمه قاطع؟ كلا والله بل هو الحقيق بأن تثنى إليه الأعنة وتشرع نحوه الأسنة وتنصب له الأرصاد وتشحذ له السيوف الحداد ليقطع الله بها دابره ويجب غاربه ويصرعه مصرع الأثيم المليم المستحق للعذاب الأليم أو يفيء إلى الحق إفاءة الداخل فيه بعد خروجه العائد إليه بعد مروقه التائب المنيب النازع المستقيل؛ فيكون حكمه شبيهًا بحكم الراجع عن الردة المحمول على ظاهر الشريعة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فالحمد لله الذي هدانا المراشد ووقف بنا على السبيل المنجية لنا والمقاصد المفضية إلى رضاه المؤمنة من سطاه، والحمد لله الذي أعز أمير المؤمنين بالنصر وأعطاه لواء القهر وجعل أولياءه الغالبين وأعداءه السافلين الهابطين، وهنأه الله هذا الفتح ولا أخلاه من أشكال له تقفوه وتتبعه وأمثال تتلوه وتشفعه وأصلًا فيها إلى ما وصل إليه فيه من حيازته مهنأ لم يسفك فيه دم ولم ينتهك محرم ولم ينل جهد ولم يمس نصب أنهيت إلى أمير المؤمنين ذلك ليضيف صنع الله له فيه إلى السالف من عوارفه عنده وأياديه وليجدد من شكره ما يكون داعيًا إلى الإدامة والمزيد مقتضيًا للفوز والتأبيد إن شاء الله تعالى، (وهذه صورة كتاب من إنشاء الفاضل الذي سلف القول بأنه

أول الطبقة الثالثة) عن ملكه صلاح الدين يوسف من مصر إلى مقر الخلافة بغداد بالبشارة عن فتح بلد من بلاد النوبة وانهزام ملكها وعساكره صلوات الله التي أعدّها لأوليائه وادخرها وتحياته التي قذف بشهبها شياطين أعدائه ودحرها وبركاته التي دعا بها كل موحد فأجاب وانقشع بها غمام الغم وظلام الظلم فانجاب عن أنجاب وزكاته التي هي للمؤمنين سكن وسلامه الذي لا يعتري الموقنين في ترديده حصر ولا لكن على مولانا عاقد ألوية الإيمان وصاحب دور الزمان وساحب ذيل الإحسان وغالب حزب الشيطان الذي زلزلت إمامته قدم الباطل وحلت خلافته ترائب الدهر العاطل واقتضت سيوفه ديون الدين من كل غريم ماطل وأمضت غرب كل عزم للحق مفلول وأطلعت غارب نجم كل هدى آفل وشفعت يقظات استغفاره إلى غافر ذنب كل غافل وعلى آبائه الغاية والمفزع والملاذ في وقت الفزع والقائمين بحقوق الله؛ إذ قعد الناس والحاكمين بعدل الله إذ عدم القسطاس والمستضيئين بأنوار الإلهام الموروثة من الوحي إذ أعجز الاقتباس والصابرين في البأساء والضراء وحين الباس خزان الحكم وحفاظها ومعاني النعم وألفاظها وإعلام العلوم المنشورة إلى يوم القيامة وكالئي الروح المنتشرة بكلاءة يد الإمامة ومن لا ينفذ منهم عمل إلا إذا أشحذ بولايتهم ولا يتألق صبح هداية إلا إذا استصبح الساري بدلالتهم المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله ومرابع المجد ومعاقله ومجلس الجود ومجال السجود ومختلف أنباء الرحمة المنزلة ومرسى أطوار البسيطة المتزلزلة ومفتر مباسم الإمامة وبحر مساحب الكرامة ومكان جنوح أجنحة الملائكة حيث يدخلون من كل باب مسلمين وتتبعهم ملوك الأرض مستسلمين ومشاهد الإسلام كيوم أنزل فيه {اليوم أكملت لكم دينكم} ومعاقد على الولاية، فأما غيره فله

قوله: {قاتلوا الذين يلونكم} ويناجيها بلسان جلي الإخلاص الصادق عقيدته ونشاط الولاء السابق عقيلته وأرهف الإيمان الناصع مضاربه وأفسخ المعتقد الناصح مذاهبه فأعرب عن خاطر لم يخطر فيه لغير الولاء خطره وقلب أعانه على ورود الولاء صفاء المصافات فيه فطره، الله سبحانه يزيل عنه في شرف المثول عوائق القدر وموانعه ويكشف له عن قناع الأنوار التي ليست همته بما دون نظرها قانعه وكان توجه منصورًا بجيش دعائه قبل جيش لوائه وبعسكر إقباله قبل عسكر قتاله وبنصال سلطانه قبل نصال أجفانه، لا جرم أن كتائب الرغب سارت أمام الكتائب وقواضب الحذر غمضت في جفونها عيون القواضب وسار أولياء أمير المؤمنين الذين تجمعوا وأمن كل أمة وتداعوا بلسان النعمة وتصرفوا بيد الخدمة وصالوا بسيف العزمة متواخية نياتهم في الإقدام متألفة طوياتهم في طاعة الإمام كالبنيان المرصوص انتظامًا وكالغاب المشجر أعلامًا وكالنهار الماتع حديدًا وهاجًا وكالليل الشامل عجاجًا عجاجًا وكالنهر المتدافع أصحابًا وكالمشط المطرد اصطحابًا فما أبصرت رياضها المزهرة وغياضها المشجرة إلا دلت على أن السحاب الذي سقاهم كريم والأنعام الذي غمرهم عظيم والدنيا التي وسعتهم من عزمتهم تظعن وتقيم، ولما علم العدوان الخطب المظنون قد صرح خطابه والأمل المخدوع قد صفر وطابه راسل ورآى أنّ سل السيوف يغمده وماكر وماكر لعلمه أن الحتف يعمده واندفع هاربًا هائبًا وخضع كائبًا كاذبًا فمضى المملوك قدمًا وحمله ظلمه وقد خاب من حمل ظلمًا وأجابه بأنه إن وطئ البساط برجله وإلا وطئه برأسه، وإن قدم على المملوك بأمله وإلا أقدمه ببأسه وإن أظهر أثر التوبة وإلا أقدم عليه الحد بسكرة الموت من كأسه فلم يخرج من مراوغة تحتها مغاورة ومكاشرة وراءها مكابرة فاستخار الله في طلبه وانتهز فيه

فرصة شغل قبله بريبة، ولم يغره ما أملى له في البلاد من تقلبه وسار ولم يزل مقتحمًا ويقدم أول العسكر محتدمًا وإذا الدار قد ترحل أهلها منها فبانوا وظعنوا عن ساحتها فكأنهم ما كانوا ولم يبق إلا مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها وأثافي دهم أعجلت المهابة مارد شقيهم عن طعامهم وغربان بين كأنه في الديار ما قطع من رءوس بني حامها وعوافي طير كانت تنظر من أشلائهم فطر صيامها وعادت الرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم وأداء أخبارهم ذاكرة أنهم لبسوا الليل حدادًا على النعمة التي خلعت وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت وأنهم طلعوا الأوعار أوعالًا والعقاب عقبانًا وكانوا لمهابط الأودية سيولًا ولأعالي الشجر قضبانًا، فرأى المملوك أن الكتاب قد بلغ أجله والعزم منهم قد نال أمله والفتك بهم قد أعمل متصله وأن سيوف عساكر أمير المؤمنين منزهة أن تريق الإدماء أكفائها من الإبطال وأن تلقى إلا وجوه أنظارها من الرجال وأصدر هذه الخدمة والبلاد من معرتهم عارية والكلمة بانخفاضهم غالية عالية ويد الله على أعدائه غادية وأنفس المخاذيل في وثاق مهابته عانية، فرأى المملوك أن يرتب بعده الأمير فلانًا ليبذل الأمان لسوقة أهل البلاد ومزارعيها ويفصل المحاكمات بين متابعي السلطنة ومطلوعيها ويفسح مجال الإحسان لمعاودي المواطن ومراجعيها، فإن مقام المملوك ومن معه من عساكر تمنع الشمس من مطلعها وتردّ جرية البحر عن مدفعها مما يضر بالغلال وينسفها ويجحف بالرعايا ويعسفها، فالحمد لله الذي جعل النصر لائذًا بأعطاف اعتزامه وأنامل الرعب السائر إلى الأعداء محركة عذبات أعلامه والعساكر المناضلة بسلاح ولائه تغني بأسمائها عن مرهفاتها والكتائب المقاتلة بشعار علائه تقرأ كتب النصر من حماتها، (وهذه صورة كتاب من إنشاء العماد الأصفهاني) وهو عصري

الفاضل ومن مشاهير هذه الطبقة عن السلطان صلاح الدين يخبر فيه ديوان الخلافة بالانتصار على الإفرنج وإزالتهم عن بعض بلاد الشام حين كان قاصدًا أن يجليهم عن بيت المقدس وتلك النواحي، {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما اشتمل على مثالها كرام الصحائف ولم يجادل عن مثلها في المواقف في الأيام الأمامية الناصرية زادها الله غررًا وأوضاحًا ووالى البشائر فيها بالفتوح غدوًا ورواحًا ومكن سيوفها في كل مازق من كل كافر ومارق ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق وأطال أيدي أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق وأنجزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق وملكها هوادي المغارب ومرامي المشارق ولا زالت إرادتها في الظلمات مصابح وسيوفها للبلاد مفاتح وأطراف أسنتها لدماء الأعداء نوازح، والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيده وأظفر جنده الغالب وأنجده وجلابه جلابيب الظلماء وجعل بعد عسر يسرًا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرًا وهون الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرًا وخوطب الدين بقوله: {ولقد مننا عليك مرة أخرى} فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والأخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة فهو قد أصبح حرًّا والزمان كهيئته استدار والحق ببهجته قد استنار والكفر قد ردّ ما كان عنده من المستعار وغسل ثوب الليل بماء فجر فجر من أنهار النهار وأتى الله بنيان الكفر من القواعد وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ولم تخف عن القلوب الحافظة عزت سيما الإسلام بمسومها وترادف نصره

بمردفها وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم يغنوا فيها، فكم أقدم بها حيزوم وركض فأتبعه سحاب عجاج مركوم وضرب، فإذا ضربه كتاب جراح مرقوم والأفان الحرب إنما عقدت سجالًا وإنما جمعت رجالًا وإنما رعت خفافًا وثقالًا فما سيوف تقابل سيوفًا وزحوف تقاتل زحوفًا فيكون حدّ الحديد بيد مذكر أو بيد مؤنثًا ويكون السيف في اليد الموحدة بغنى بالضربة الموحدة وفي اليد المثلثة لا يغنى بالضرب مثلثًا وذلك انه في فئتين التقتا وعدوتين لغير مودة اعتنقتا وأن هذه النصرة إن زويت عن ملائكة الله جحدت كراماتهم وإن زويت عن البشر فقد عرفت قبلها مقاماتهم فما كان سيف تيقظ من جفنه قبل أن ينبه الصريخ ولا كان ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه المصيخ فكم ضربة كأنها هجرة الموت وبها التاريخ وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ، والحمد لله الذي أعاد الإسلام جديدًا ثوبه بعد أن كان جديدًا حبله مبيضًا نصره مخضرًا نصله متسعًا فضله مجتمعًا شمله والخادم يشرح من نبأ هذا لفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويمنح الحبور لكافة المسلمين ويكرر البشري بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسومًا سخرها الله على الكفار {فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نحل خاوية} ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فتحت طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها وفضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها، وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكًا بالأمان ورفعت بها أعلام الإيمان وهي أمّ البلاد

وأخت إرم ذات العماد وقد أصبحت كأن لم تغن بالكفر وكأن لم تفتقر من الإسلام وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور وقلب ملك الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديدًا مسلمًا يفرق خطوات الكفر عن الإقدام، وأنصار الصليب وكباره وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة وأخذ رهنًا فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ونكصت من عكاملة الكفر على عقبيها وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير وقد غسل عن بلاد الإسلام بدماء الشرك ما كان تخللها فلا ضرر ولا ضير، وقد صارت البيع مساجد بها من آمن بالله واليوم الآخر وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها الوقوف المسلمين فيها وطالما ارتجت لمواقف الكافر وافترّت النصرة عن ثغر عكا بحمد الله الذي يسر فتحها وتسلمتها الملة الإسلامية بالأمان، وعرفت في هذه الصفقة ربحها وأما طبرية فافترتها يد الحرب فانهرت الحرب جرحها فالحمد لله حمدًا لا تضرب عليه الحدود ولا تزكى بأزكى منه العقود وكأنه بالبيت المقدس وقددنا الأقصى من أقصاه وبلغ الله فيه الأصل الذي علم أن يحصيه وأحاط بأجله وقضاه لكل أجل كتاب وأجل العدو هذه الكتائب الجامعة ولكل عمل ثواب وثواب من حظي بطاعته جنات نعيمه الواسعة والله المشكور على ما وهب والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جد الإسلام وهب، (ومن مشاهير هذه الطبقة تقي الدين أبو بكر بن حجة) صاحب خزانة الأدب وإنشاؤه كثير جمع في كتاب ذي مجلدات ملقب بقهوة الإنشاء فمن إنشائه صورة عهد كتبه عن خليفة وقته المستعين لأحد سلاطين الهند، وهي هذه: الحمد لله

الذي وثق عهد النجاح للمستعين به وثبت أوتاده ليفوز من تمسك من غير فاصلة بسببه وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا وأفرغ على أعطاف الأرض حلل الخلافة الشريفة وعلم أن في خلفها الزاهر زهرة الحياة الدنيا فقال عز من قائل: {إني جاعل في الأرض خليفة} واختارها من بيت براعة استهلاله في أول بيت وضع للناس وسبقت إرادته وله الحمد أن تكون هذه النهلة الشريفة من سقاية العباس، فالحمد لله على أن جعل هذه السقاية عينًا يشرب بها المقربون، ومن علم شرفها تميز بقوله تعالى: {قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون}، فالحمد لله الذي استخلف آل النبي في الأرض وفضلهم وإن تحدث أحد في شرف بيت فالله قد جعل البيت والحديث لهم فأكرم به بيتًا من أقر بعبوديته كان له من النار عتقًا وتمتع بنعيم بركته التي لا يتجنبها إلا الأشقى، وكيف لا وهو البيت الذي بعث الله منه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وصفى أهله من الأدناس وأنزل في حقهم: {يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}، وأبرز علمهم الخليفتي على وجنة الدهر شامة وخصهم بالتقديم، فالحمد لله والله أكبر لهذه الإمامة وإذا كان النسيب ممدحًا وهو في النظم واسطة العقود فهذا هو النسب الذي يلوح عليه من شمس الضحى نور ومن فلق الصباح عمود، وهذا هو الركن الذي من استلمه واستند إليه قيل له: فزت بعلو سندك فقد قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ألا أبشرك يا عم؟»** قال: بلى يا رسول الله، قال: **«إن الله قد فتح الأمر بي ويختمه بولدك»** فأحبب بها شجرة نسب زكي غرسها ونما وتسامت بها الأرض وكيف لا وأصلها ثابت وفرعها في السما، فسلام على خلفها الذي منه المستعين بالله والمتوكل عليه والواثق به والرشيد، ورحمة الله وبركاته عليكم أهل

البيت أنه حميد مجيد نحمده حمد من علم أن آل هذا البيت النبوي كسفينة نوح وتعلق بهم فنجا ونشكره شكر من مال إلى الدخول تحت العلم العباسي وتنصل من الخوارج فوجد له من كل ضيق مخرجًا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجو أن تكون مقبولة عند الحاكم وقت الأداء ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي حرضنا على الوفاء بالعهد وأرشدنا إلى طريق الهدى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين وفوا له بالعهود وأقامت مواضى سيوفهم الحدود صلاة يسقى عهاد الرحمة إن شاء الله عهدها وينظم في سلك العبودية عقدها وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد فالحمد لله الذي ألهمنا الرشد وجعل منا الخلفاء الراشدين وبنسبتنا إلى علم الهدى فضلنا بالأئمة المهديين واصطفى من هذا الخلف الشريف خلائف الأرض وسنَّ مواضى العقول التي قطعت أن طاعتنا فرض، فإن لعهدنا العباسي شرفًا لا يرفل في حلله الشريفة إلا من اتخذ مع الله عهدًا وأتى الله بقلب سليم فقد قال الله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم}، ولا يتمسك بطيب هذا العهد الشريف إلا من صحا إلى القيام بواجب الطاعة وترك أهل الجهل في سكرتهم يعمهون وانتظم في سلك من أنزل الله في حقهم: {والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} وهو قبضة من آثار البيعة النبوية وشعار يتشرف به من مشي تحت الراية العباسية وما أرسل هذا العهد النبوي إلى ملك من ملوك الأرض إلا عمه الشرف من جميع جهاته والله أعلم حيث يجعل رسالته، ولا أعلن به على منبر إلا شدت أعواده طربًا وأزهرت رونقًا وأثمرت أدبًا

وقالت وقد رنحتها نسمات القبول من ساكن الروضة وأخضل نبات تلك البقاع وأينع وعم الفرح بها كل غيضة وكأن المقام الأشرف العالي إلى آخر الصفات السلطانية السلطاني الملك المظفري شمس الدين والدين والمستعين في زيادة شرف ملكه بعد الله بالمستعين لا زالت أيامه الزاهرة بشمسه المنيرة مشرقة وتوقيعات الرقاع بنسخ صفاته الشريفة محققة ممن رغب في التمسك بهذا الشريف ليزيل عن ملكه الالتباس واستند إليه ليروى في سنده العالي عن ابن عباس ومشى بعين البصيرة في هذا المنهج القويم وتلا له لسان الحال: {أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم}، وطاول بيد الخلافة الشريفة لإقامة الحد علمًا بأن يد الخلافة لا تطاولها يد وأخلص مودته في التقرب إلى بيتنا الشريف لما شغفه حبًا وتمسك بطيب: {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربي} لأنه الملك الذي ظفره الله بأعداء هذا الدين وسماه مظفرًا ولقبه بالشمس واختار له أن يقارن من الطلعة المستعينية قمرًا أينع زهر العدل بحضرة ذهليه فعطر الآفاق وضاع نشره بالهند فعاد الشم إلى المزكوم بالعراق وصارت دمن سمات عامرة بقيام الدين وأيده الله فيها بعد القتال بالفتح المبين ولم يترك للعدو في بيت ليلة وأبطل ما دهره أهل داهر بحسن اليقظة وقوة الصولة وإباد الكفرة من ديو ولم يقبل لهم دية وفاءوا إلى غير أمر الله فقصمهم بسيفه الهندي ولم تقم لهم فيه وفطر أكباد من ناراه بها فلازموا عن رؤيتها الصوم ونادى منادى عدله بالبلاد الهندية: لا ظلم اليوم ودانت له تلك الممالك برًا وبحرًا وسهلًا ووعرًا ما نظم الأعداء على ذلك البحر المديدية إلا أبان زحافه وأدار عليه دوائره وكم نظم شمل الرعايا بالعدل ونثر رؤوس الكفرة بالسيف فلا عدم الإسلام في الحالين ناظمه وناثره عربي وكم كلم العداء بلسان الهندي

فأحجمهم عند ملتقاه عادل تسلسل حديث فضله فغدا مرسلًا مع الرواه عاطر الأرجاء ولم ينم المسك إلا بطيب تربته سلطان تتطفل الملوك على أواني موائده وتخضع لسلطانتيه سئلت الركبان في البر عن مناقبه الشريفة وعم يتساءلون وقد صار لها عظيم النبأ، وصرح راكب البحر بعد التسمية باسمه {فاتخذ سبيله في البحر عجبا} فظله في البر ظليل وعدله في البحر بسيط وطويل هذا ولم يبق في تلك الممالك الهندية بقعة إلا ولم يصغر الله بسنابك الخيل فيها ممشاه ولا نفس خارجة عن الطاعة الشريفة إلا ماتت في رقعة الأرض بمظفر شاه فلذلك رسم بالأمر الشريف إلى آخر الصفات الأمامية أن يفوض إليه من ولاية العهد وكفالة السلطنة الشريفة بالبلاد الهندية ما هو المعهود ليهطل جود الرحمة على تلك البقاع المباركة إن شاء الله ويجود عهدًا شريفًا إلى آخر الصفات وأن يستخلف فيما فوضه الله إلينا من صلاح الأمة ومصالح الحلق استخلافًا تتحلى بذكره الأفواه وتترنم به في شعاب مكة الحداة ويقطع به ويحفظه رب كل سيف وقلم ويعتمد عليه كل ذي علم وعلم، فلا زعيم جيش إلا وهذا التعويض الشريف يسعه في بلاده ويشمله ولا إقليم من أقاليمه إلا ومن به يقبله ويقبله ويتمثل به ويمتثله ولا منبر إلا وخطيبه يتلو كتاب هذا التفويض ويرتله، وأما الوصايا فعنده إن شاء الله تعالى تهب نسمات قبولها ويعرب عن نصب مفعولها وهو بحمد الله لوصايا هذا العهد الشريف نعم القابل فقد قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله** ...» منهم الإمام العادل، والوصية بالرعايا واجبة وقد حرض النبي صلى الله عليه وسلم على العدل فيهم وحرص عليه وقال يوم من إمام عادل أفضل من مطر أربعين صباحًا أحوج ما تكون الأرض إليه، وقال ابن عمنا علي رضي الله عنه: الملك والدين اخوان لا غنى لأحدهما عن

الآخر؛ فالدين أس والملك حارس فإن لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع فهذه الحكمة بها يعالج ما ضعف من أركان الملك وهذا المشرع يجري على أجمل الشرائع فليأمر بالمعروف وينه عن المنكر؛ علمًا أنه ليس يسأل في غد عن ذلك سوانا وسواه ويرد نفسه الشريفة عن الهوى ولا يحسن لنبات قده أن يميل مع هواه وليترك الثغور بعدله باسمه وقواعد الملك بفضله قائمه وليجاهد في الله حق جهاده ويلطف بالرعايا ويعلم أن الله لطيف بعباده وليشرح لهم بالإحسان صدرًا ليجروا إذا وقف على أحوالهم أحسن مجرى وهو بحمد الله غير محتاج إلى التأكيد؛ لأنه لم يخل له من القيام في مصالح الأمة فكر ولكنه تجديد ذكر على ذكر، والله تعالى يمتع بطول بقائه البلاد والعباد ولا برحت سيوفه الهندية تكلم أعداء هذا الدين بألسنة حداد وثبت ملكه بالعدل وشيد أقواله وختم بالصالحات أعماله إن شاء الله تعالى، (وهذه صورة تسجيل عقد نكاح) ويسمى صداقًا وقد تزوج سلطان وقته الناصر بعض بنات أمرائه: الحمد لله الذي أيد السنة الشريفة بقوة وناصر وأعزها بعزيز مصر؛ لأنه شعر ببركتها فجعلها له من أجمل الشعائر سنّ خلد الله ملكه أسنتها فصار لها به ملكة وسلطان، وشهر سيفها لإقامة الحدود فأقام به قواعد الإيمان، فالشكر لله على أن عرفنا بطيب هذا الأثر الشريف وشرح للتمسك به صدرًا ووضع عنا به وزرًا وأمدّنا بأموال وبنير وجعل بيننا نسبًا وصهرًا وسقي سبحانه وتعالى أرض المصاهرة بماء القرب ففاح نشرها الأريج واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وقرب بين البعيدين فصارا زوجين اثنين وهذا نكرة بغير قدرته لا تتعرف وألف بين أجانب {لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف}، فله المنة على أن جعل بالنساء حرثًا لزرع نباته زهرة الحياة الدنيا وسقيا

لهذا النبات ورعيًا، نحمده حمد من ترقى باتباع السنة الشريفة إلى أعلى الدرج ونشكره شكرًا يأتينا عند كل شدة بفرج ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقبولة إن شاء الله عند أحكم الحاكمين في دار المقامة، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي قال: «**تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة**» صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أيدوا ملته واتبعوا سنته وسلم تسليمًا وبعد؛ فإن النكاح سنة من سنن الأنبياء وحلية من شعار الأولياء تنتظم جواهره في أسلاك عقود الشمل وتمسي عرائس غصونه ببركة هذا الغراس في حمل ما برح نورها في جباه هذه الأمة يتضح ويتبلج وقد حرض النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج**» وكأن المقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري مؤيد السنة الشريفة وناصرها والقامع بسيفه الشريف أهل البدع وقاهرها ركن الإسلام والمسلمين مبيد الطغاة والمتمردين سلطان العرب والعجم والعزيز الذي ذلت لبأسه صيد الملوك وخضعت رقاب الأمم ناظر الحرمين وصاحب وقعة الجيتين ومذيل التاريخ على الناصرين، أبو السعادات فرج ابن مولانا السلطان السعيد الشهيد الدارج إلى رحمة ربه المجيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق خلد الله تعالى ملكه وأعز سلطانه وجعل من الملائكة المقربين أنصاره وأعوانه:

ملك إذا حدثوا عجائبه ... فإنها البحر ما له آخر

وإن تقوى بغيره ملك ... فما له قوة ولا ناصر

سلطان الله أكبر كأن المقادير لأوامره الشريفة طائعة ما قاومته ملوك الأرض إلا ذبحتها عزائمه على الشرق وجاءته رءوسها إلى الغرب خاضعة، ولا كاده عدوّ إلا رد الله كيده في تضليل: {ألم تر كيف فعل

ربك بأصحاب الفيل} تتزاحم تيجان الملوك حول ركابه الشريف، وإن ذكر تزاحمت الأسماع أكثر وكيف لا وهو الملك الذي لم يخل من اسمه الشريف درهم ولا دينار ولا عود منبر أن تلاعبت كماته بعواليها لا تسل عن تلاعب الأشبال في الآجام أو أمالت ألفات رماحها طاعنة عذل نفسه صاحب كل لامة ولام ما قابل خميس حرب إلا ولم يبق من جمعة ذلك الخميس أحد ولا سل بيده الشريفة سيفًا لامعًا إلا فر صاحب القوس وعلم أن الطالع بالشمس والأسد، ولا خفقت أعلامه الصفر في سواد نقع إلا سلقت البيض من زرق لسنته بألسنة حداد وأصاب كل فؤاد مصدقًا أبا الطيب في قوله وقد ضغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في فؤاد:

وهي السعادة في السماك فلو يشأ ... لأصاب منها رامحًا بالأعزل

هذا وسيوف حكمه خلد الله ملكه ما تضرب إلا صفحًا عن كل آثم وما أحقه بقول القائل لو علم الناس محبتي بالعفو لتقربوا إلي بالجرائم، وأما عطاؤه سبحان المانح ما أعطا إلا ودت أغنياء الملوك أن تصير سائلة كأبناء السبيل وكيف يحيا لجعفر خالد ذكر وما جعفر بالنسبة إلى بحر النيل فلو أدركه الفاضل لقال هذه المناقب الناصرية وعبد الرحيم عبد الرحيم وأنشد وقد شاهد ما قاله عيانًا في الناصر القديم:

أهذه سير في المجد أم سور ... وهذه أنجم في السعد أم غرر

وأنمل أم بحار والسيوف بها ... موج وإفرندها في لجها درر

وأنت في الأرض أم فوق السماء ... يمينك البحر أم في وجهك القمر

يقبل البدر تربًا أنت واطئه ... فللتراب عليه ذلك الأثر

نأى بك الملك حتى قيل ذا ملك ... دنا بك الجود حتى قيل ذا بشر

خلائق في سموات العلا زهر ... لنا تنير وفي روض الثنا زهر

ونعود إلى أنه خلد الله ملكه هو المتحلي بشعار هذه السنة والمتقلد لله سبحانه وتعالى هذه المنة؛ لأنه الملك الذي إن نصر السنة فهو ناصر الدنيا والدين أو إبان شرفها فقد تأيدت منه بسلطان مبين أو ترقى إلى أوجها حل منها في أرفع محل أو عقد عليها خناصره الشريفة فإنه صاحب العقد والحل رغب إليها خلد الله ملكه فسرى نسيم القبول وفتح طروس الأوراق في مسراه وجرت حمر الأقلام في ميادين الطروس فكتبت: بسم الله هذا ما أصدق مولانا المقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري لازالت أبكار العقود وأيتامها بسلكه الشريف منظومة وفتح له كل مانع وكثرة الفتوحات في الأيام الناصرية معلومة مرغوبته الجهة المصونة الممنعة المحجبة المكرمة الخوند الخانون درة تاج الفخر وعين إنسان الخواتين ويتيمة العقود ومخدرة الملوك والسلاطين ثالثة القمرين والممدود سترها الرفيع على مفرق الفرقدين ربيبة حجر الملك ورضيعة لبانه وخلاصة الذهب الإبريز وقلادة عقيانه والنهد الذي كبا خلفه كل كميت براكبه وكيف لا ووالدها كانت الشقراء والشهباء من بعض جنائبه ذات الستور الرفيعة والحجب المنيعة ست الملوك بنت المقر الأشرف السيفي المرحومي كشبغا بن عبد الله الحموي الظاهري البكر العاقل الصحيحة الأوصاف الخلية عن الموانع الشرعية، أسبغ الله تعالى ظلال خدورها ومدّ على الآفاق أطناب ستورها أصدقها على بركة الله وعونه وتوفيقه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم صداقًا مبلغه من الذهب المصري ألف دينار نصفها خمسمائة دينار ومن الدراهم الفضة الجيدة المعاملة يومئذ عشرون ألف درهم نصفها عشرة آلاف درهم ولي تزويجها منه على ذلك بإذنها الكريم مولانا وسيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام القدوة العلامة حجة الإسلام والمسلمين حسنة الأيام

ورحلة الطالبين علم المحققين خالصة أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن أبي جرادة الحنفي الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية وسائر الممالك الإسلامية أعز الله تعالى أحكامه ونشر على الخافقين بالعلم الشريف أعلامه قبل منه ذلك لنفسه الشريفة عظم الله تعالى شرفها قبولًا صحيحًا شرعيًا بحضرة من تم العقد الشريف بحضوره شرعًا فأكرم به اتصالًا شريفًا اجتمع طريفه وتالده وأحبب به عقدًا ناصريًا والقاضي الفاضل عاقده وتالله لقد أضحى بنظم هاتين الجوهرتين في عقده رفيع المنال وحظي من تنقل هذين القمرين إلى أفقه بشرف الانتقال وكيف لا وقد حصل لهما بهذا العاقد الكمال ترقت إلى أعلى الدرج بسيف الإسلام فلسان الهنا على منابر الشكر خطيب وحصل لها بالناصر وقرب كاتب سره نصر من الله وفتح قريب، وأمست ست الديار المصرية وراحت بغيضتها ست الشام وأبى الله أن يمتطي صهوة هذا النهد إلا فارس الإسلام جعله الله عقدًا مباركًا ميمونًا تتجمل بسواد سطوره وبياض طروسه الليالي والأيام، وكما أحسن ابتداءه يجعل من مسك القبول له حسن الختام إن شاء الله تعالى، (وهذه صورة تقليد قضاء القضاة بدمشق لصدر الدين علي المعروف بابن الآدمي) سنة عشر وثمانمائة: الحمد لله الذي أقرَّ عين الشام وشرح بعد القبض صدرها وأيدها بافمام علي وأعز بالسيوف العلوية نصرها ورفعها بمن أن تسامى فقد دارت على القطب دوائره أو كاثر بالعلم قلَّ نظيره وما ألهاه تكاثره أحمده حمد من علم أنه المبدئ المعيد وأشكره شكرًا يقمع بأحكامه كل جبار عنيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أرجو أن تكون مقبولة يوم فصل القضا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي سنَّ سيف الشريعة وأوضح أحكامها فقابلتها الأمة بالطاعة والرضا صلى الله عليه وسلم وعلى آله

الذين رضوا بأحكام القضا والقدر صلاة ينشرح لها الصدر كلما ورد فضلها وصدر وسلم تسليمًا وبعد؛ فإن أولى من رفل في حلل إنعامنا الشريفة من وجب حقه علينا وأعدنا إليه بضاعته التي ربحت تجارتها في أيامنا الشريفة فتلا: {هذه بضاعتنا ردت إلينا} وصدرناه فحسنت به التورية وأصبح صدر الشام وحكمناه فكان بحمد الله نافذ القضايا والأحكام فهو الصدر الذي حصل له القبض بعدنا وانشرح بعودنا وابتهج وأصبح بعد ضيقه من سلطاننا على كلا الحالين في فرج أودعناه قديمًا سرنا الشريف فكان له نعم الصدر ونطقت ألسن أقلامه في ثغور الأقاليم بشكرنا فقابلناه بعلو القدر وكان المجلس العالي القلاني الصدري هو الذي نظم في سلك شكره من ثنائنا الشريف هذه القلائد وعادت عليه صلة برنا فهو يرفل من إنعامنا الشريف بين الصلة والعائد وضربت بفضله الأمثلة فلم يوجد له مثال وشهد له ابن العديم وناهيك بمن حصل له هذا الكمال فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري لازالت صدقاته الشريفة تعطي كل مستحق وتمنح ولا برح كل صدر يتلو في هذه الأيام الشريفة ألم نشرح أن يستقر المجلس العالي القضائي الصدري في وظيفة قضاء قضاة الحنفية بدمشق المحروسة على عادته في ذلك وقاعدته لأنه بحر العلم الذي ظهرت عجائبه واجتمعت في سلك الفضل فرائده والخليفة الباقية للفضائل وكيف لا والأمين والده والإمام الذي لو أدركه محمد عين الأصحاب لاعترف بفضله الملي واتخذه صاحبا وقال: ما لمحمد غير علي والفاضل الذي أن ألقى درسًا فهو على الحقيقة صدر المدرسين أو ذكرت الفتاوى والفتوة فما تم بحمد الله أفتى من عليّ في هذا الحين أحرز قصبات السبق على فرسان مذهبه فعلمنا أنه فارس الشقراء والميدان وكم اقتطفنا من رياض علومه زهرة علمنا بها أنه

شقيق النعمان فلو أدركه صاحب الدرر لقلده وانتظم في سلك عقوده وكم طما بحر علمه وجوده، فعلمنا أنه مجمع البحرين من طارفه وتليده هذا وما لابن الساعاتي دقائقه ولا ارتفاع هذا المقام ولو عاصره صاحب المختار ما اختار غيره وقال: علي هو الإمام فليباشر ذلك على ما عهد من جميل أدواته ومحاسنه التي هي كالخيلان على جيد الدهر ونعدّها من حسناته وليقابل هذه النعمة السابغة بما يجب من شكر الله عليه ويحسن كما أحسن الله إليه والوصايا كثيرة وهو بحمد الله غير محتاج إلى وصية؛ لأن الوظائف تتجمل بحسن سيرته العلوية، والله تعالى يسدد سهام أحكامه ويجعل من مسك الثنا حسن ختامه، (وهذه صورة تقليد نظر البيمارستان للشيخ أبي الحسن علي الحنبلي): الحمد لله الذي رفع قدر من برز في العلم وجعله عليًا واصطفى من عباده من أرضعه لبان الفضل صغيرًا وآتاه الحكم صبيًا وخص بالنظر في مصالح هذه الأمة من جعل الحلم شعاره ولم يكن جبارًا عتيًا فهو المبدئ المعيد والقاصم بسيف على كل جبار عنيده أحمده حمدًا يتقوى به الضعيف وأشكره شكرًا وافيًا يكون لنا نعم العلاج عند الحكيم اللطيف وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من نظر بنور الله فكان من أهل النظر والبصيرة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي أمست الأعين بحسن نظره الشريف قريره صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تزيل قذا العين وتنور الناظر وتنتصر ببركتها على كل معاند وفاجر وسلم تسليمًا كثيرًا وبعد؛ فإن للوظائف الدينية فضلًا أبى أن يكون إلا لأهله وحكمة أنف سرها أن يوضع إلا في محله وكان المقر الشريف العالي الشيخي القدوي الإمامي العلامي الأوحدي العاملي العالمي المفيدي القضائي العلائي علي بن المغلي الحنبلي هو الذي لمّ شمل العلم بعد شتاته وخطبته عرائس

الممالك لنفسها فأبي الأجير قلب حماته ركب الشهباء فخضعت له أهل الشقراء والميدان وودت مصر أن تستضيء بنوره بعد سراجها الذي نور الأكوان فلو أدركه إمامه السابق لقال هذا المصلى الذي أزال الإيهام وعليه الخناصر تعقد وقد علم كل أحد أن عليًا أعلم أصحاب أحمد فلذلك رسم بالأمر الكريم العالي الفلاني لا زال علم الشرع الشريف مشهورًا في أيامه ولا برح كل من ذوي الاستحقاق واصلًا في هذه الأيام الزاهرة إلى أقصى مرامه أن يستقر المشار إليه في وظيفة نظر البيمارستان النوري بحماة المحروسة فلقد سعدت بقعته بعد الشقاء وقالت: أهلًا بعيش أخضر يتجدد وإذا نظرت إلى البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد وصفت مشارب الضعفاء بعد الكدر {وسقاهم ربهم شرابا طهورا} وتلى لمن سعى في ذلك وجزى بالخيرات: {إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا}، ودار شراب للعافية على أهل تلك الحضرة بالطاس والكأس وحصل لهم البر من تلك البراني التي يخرج من بطونها {شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس} وتمشت الصحة في مفاصل ضعفائه وقيل لهم: جوزيتم بما صبرتم وامتدت مقاصيرهم وفتحت أبوابها {وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم}، فلقد قام بحسن نظره الكريم في طاعة الله ومشى وأعاد بنور طلعته البهجة النورية فقلنا: {نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء}، فليباشر ذلك من غير وصية؛ لأنه أكبر وأجل قدرًا فلقد تلت جهات الوقف المعسرة فرحة بقدومه {فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا}، وليتناول معلومه الشاهد به ديوان الوقف المبرور، والله تعالى يحفظ الجهات النورية ينظره ويحرسه بسورة النور بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى، (وهذه صورة تقليد بنظر مساجد): الحمد لله الذي زاد القائمين بشعار بيته صلاحًا وجعلهم من أهل النظر وصير جميل ذكرهم

مبتدأ كلما ذكر عن أهل الصلاح خبر، نحمده حمد من عمر مساجد الله بالذكر وحسن في بناء هذا التأسيس نظمه، ونشكره شكر من انتصب لرفع بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة شاهد علم أنه الحاضر الناظر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي محى آثار الشرك عن بيت الله وقام له بأجمل الشعائر صلى الله عليه وعلى آله الذين ما برحوا خدام هذا البيت الشريف والمتقين بظله الوريف صلاة نزداد بها نظرًا وبصيرة وتكون لنا يوم الحساب نعم الذخيرة وسلم تسليمًا وبعد؛ فإن أولى ما بادر إليه أهل البصائر النظر في بيوت الله، فإنه من أعظم القرب ولا يشعر بهذه الشعائر إلا من ظهر صلاحه ولم يفصل بينه وبين الخير فاصلة ولا سبب وبادر إلى عمارتها بالذكر ودخل إليها من أبوابها متمسكًا بقوله تعالى: {ومن أظلم ممن صنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها}، وكان المقر الكريم العالي المولوي القضائي الصلاحي إلى آخر الصفات ممن أدرك فعل الخيرات قبل إدراكه وجبلت عليه جبلته ولا يشك في حسن نظره إلا من عميت بصيرته أن اتسع للفضائل مضمار كان جواد فضله هو السابق الجموح أو فتح للخير أبواب فصلاح الدين بحمد الله أبو الفتوح ظهرت عليه بهجة ذلك النجم الذي إلى غير فعل الخيرات ما هوى وصحب أفعاله الجميلة فتلا لسان الحال: {ما ضل صاحبكم وما غوى}، ما أطلق سهم عزمه إلى غرض خير إلا وكان بحمد الله نفاذًا ولا أظهر فعلًا إلا تلقى الناس بالقبول وما قيل: {يوسف أعرض عن هذا} وهو ذو اليراع الذي إذا خط خطأ أطاعته المقادير وكم جرت خلفه حمر الأقلام حتى حفيت فما لحقت له غبارًا؛ لأنه حوى قصبات السبق ورفل في حلل التحبير أن سطر مربعة جيش ضرب الأخماس في الأسداس أئمة الكتاب أو كتب كتاب إنشاء

عوذنا بألم ذلك الكتاب، فلذلك رسم بالأمر الكريم العالي المولوي الفلاني لازال كل مستحق في أيامه الزاهرة بالغًا أقصى المراد ولا برح يظهر لنا في كل حين صلاحًا يزيل عنا الفساد أن يستقر المشار إليه أدام الله تعالى نظره في وظيفة نظر الجامع الكبير الأعلى بحماة المحروسة على العادة في ذلك والقاعدة لئلا يكون لصالح المسلمين وجه إلا وهو له ناظر ولا ينظم للوظائف الدينية عروض إلا وهو بحره الوافر خاطبه الجامع بلسان الحال ليكون لشمله جامعًا وجبر قلب المحمودية وخر ماؤها ساجدًا ودخل عاصبها إلى الجامع طائعًا وأمسى على ذلك الصحن حلاوة ظاهرة وتيقظت مقل مصابيحه بعد طول الغمض {فإذا هم بالساهرة}، واهتز طربًا من طيب هذا الثنا المنير وكادت أعواده أن تزهر فرحة بهذا الزمن الغض والعيش الأخضر وضعف نظر الرسام وأمست مراسيمه غير مقبولة، هذا ولو أدركه ابن كتائب لقال: ما أنا من فرسان من كتيبة كل جيش بنظرة مشمولة أو لحقه ابن السمين لتحقيق ضعفه وضعف أبيه عن القيام بهذا الشعار أو عاشره ابن رواحة النصاري لكان له من جملة الأنصار وأمسى جامعنا وهو الأعلى على من قبله وبعده وتلا أهل الصلاة وقد حظوا بيوسف في السجدة وزال محل بلاده في هذه الأيام اليوسفية وأمسى في بسط بعد ما طوى بساطه بالكلية وزال فساده ولله الحمد بهذا السلاح وأعلن مؤذنوه في أعلى منارته بحي على الفلاح فليباشر ذلك مباشرة تشمر جزيل الثواب وليظعن أعداؤه من دعاء كل قائم بالمحراب وليحسن إلى حلقة كل علم لينشرح صدرها، فما لرجال الحلقة غير ناظر الجيش إذا أشكل أمرها وليرم من عانده بسهام من الأدعية عن قوس كل راكع وليتوجه في ذلك إلى الله تعالى وأحسن ما كان التوجه في الجامع والوصايا كثيرة وهو بحمد الله تعالى في غنية عن

ذلك والله تعالى يؤيده ويجمل به الوظائف الدينية ويجعله لأزمتها خير مالك ولا برح كفه مبسوطًا للخيرات وتعقد عليه خناصر كقال الممالك إن شاء الله تعالى.

وهذه صورة كتاب ودادي إخواني أنفذه من القاهرة إلى الثغر يخاطب فيه القاضي بدر الدين أبا عبد الله محمد بن الدماميني المخزومي يخبره فيه بقراره من بلاد الشام لحرب كانت هنالك وبما قاساه من الشدائد في البحر: بسم الله الرحمن الرحيم بقبل الأرض التي سقى دوحها بنزول الغيث فأثمر الفواكه البدرية وطلع بدر كمالها من المغرب فسلمنا لمعجزاتها المحمدية وجرى لسان البلاغة في ثغرها فسمي على العقد بنظمه المستجاد وأنشد لا فض الله فاء وقد ابتسم عن محاسنه التي لم يخلق مثلها في البلاد لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك في فم الدهر ابتسام فأكرم به مورد فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام ومدينة علم تشرفت بالجناب المحمدي فعلى ساكنها السلام ومجلس حكم ما ثبت لمدعي الباطل به حجه وعرفان أدب أن وقفت بها وقفة صرت على الحقيقة ابن حجه وافق معال بالغ في سمو بدره فلم يقنع بما دون النجوم وميدان عربية تجول به فرسان الفصاحة من بني مخزوم وتالله ما لفرسان الشقراء والأبلق في هذا الميدان مجال: وإذا اعترفوا بما حصل للفارس المخزومي عندهم من الفج كفى الله المؤمنين القتال وينهى بعد أدعية ما برح المملوك منتصبًا لرفعها وتغريد أثنية ما لسجع المطوق في الأوراق النباتية حلاوة سجعها وأشواق برحت بالمملوك ولكن تمسك في مصر بالآثار وأبرح ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الديار من الديار وصول المملوك إلى مصر محتميًا بكنانتها وهو بسهام البين مصاب مذعورًا لما شاهده من المصارع عند مقاتل الفرسان في منازل الأحباب مكلمًا من ثغر

طرابلس الشام بألسنة الرماح محمولًا على جناح غراب وقد حكم عليه البين أن لا يبرح من سفره على جناح وكان في البين سا كفاني فكيف بالبين والغراب يا مولانا لقد قرعت سنّ هذا الثغر بأصابع السهام وقلع منه ضرس الأمن ولم يبق له بعدما سعر به البين نظام وكشرت الحرب بين ثناياه عن أنياب واقتلعنا منه مع أنهم لم يتركوا لنا فيه ثنية ولا ناب، وأمست شهب الرماح قافية على آثارنا والسابق السابق منا الجواد ولزمت الروي من دمائنا لئلا يظهر لقافيتنا عند نظم الحرب سناد وفسد انسجام تلك الأبيات المنظومة على ذلك البحر المديد وبدّلت جنتها بنار الحرب التي كم نقول لها: هل امتلأت فتقول هل من مزيد، ونفذ حكم القضاء وكم جرح خصم السيف في ذلك اليوم شهودًا، واتصل الحكم بقضاة القضاة فلم يسلم منهم إلا من كان مسعودًا ووقع غالبنا في القبض من عروض حربهم الطويل وتبدلت محاسن طرابلس الشام بالوحشة فلم نفارقها على وجه جميل، وتالله لم يدخلها المملوك في هذه الواقعة إلا مكرهًا لأبطل وكم قتل لسارية العزم لما كشف لي عن ضيق سهلها يا سرية الجبل ورام المملوك أن يتنصل من انتظامه في هذا السلك جملة كافيه فقال له لسان الحال عند نظم هذه الكائنة جرتك القافية ولم يطلق المملوك عروس حماته الأجبر أظهر به كسره والعلوم الكريمة محيطة كيف يكون طلاق المكره يا مولانا:

بوادي حماة الشام عن أيمن الشط ... وحقك تطوى شقة الهم بالبسط

بلاد إذا ما ذقت كوثر مائها ... أهيم كأني قد ثملت بأسفنط

ومن يجتهد في أن بالأرض بقعة ... تشاكلها قل أنت مجتهد مخطي

وصوب حديثي مائها وهوائها ... فإن أحاديث الصحيحين ما تخطى

بمعصمها إن دار ملوى سوارها ... فما الشام بالخلخال أو مصر بالقرط

تـــنظم بالـــشطين در ثمارهـــا ... عقودا لها العاصي رأيناه كالسمط

وترخـى علينـا للغـصون ذوائبًـا ... يـسرحها كـف النـسيم بـلا مـشط

ومـذ مـد ذاك النهـر سـاقًا مـدملجا ... ورح بنقش النبت يمشي على بسط

لوينـا خلاخيـل النـواعير فـالتوت ... وأبـدت لنـا دور أعلـى سـاقه البسط

سقي سفحها إن قل دمعي سحابة ... مطنبـة بالـدمع منهلـة الـنقط

ويا أسطر النبت التي قد تسلسلت ... بـصفحتها لازلـت واضـحة الخـط

ولا زال ذاك الخـط بالطـل معجمًـا ... ومن شكل أنواع الأزاهر في ضبط

لويت عناني في حماها عن الورى ... وهمـت بهـا لا بالمحـصب والـسقط

ولـذ عنـاق الفقـر لـي بفنائهـا ... وفـي غيرهـا لـم أرض بالملـك

منـازل أحبـابي ومنبـت شـعبتي ... وأوطان أوطاري بها ورضى سخطي

نعمـت بهـا دهـر أو لكـن سـلبته ... برغمي وهذا الدهر يسلب ما يعطي

وقد جاء شرط البين أني أغيب عن ... حماهـا لقـد أدمـى فـؤادي بالـشرط

وحـط علـيَّ الـدهر عمـدًا وشـالني ... إلى غيرها صبرًا على الشيل والحط

وسيحة جمع الشمل كانت لنا بها ... منظمـة لكـن قـضى الـدهر بـالفرط

أمثـل شـوقًا شـكلها فـي ضـمائري ... فتتبـع عينـين ذلـك الـشكل بـالنقط

وقد صار يمشي الهم نحوي بسرعة ... فيـا ليتـه لـو كـان فـي مـشيه يبطـي

وأصبح نظمي راجعًا بي إلى ورى ... كـأني فـي الـديوان أكتـب بـالقبطي

فما هذه المحن التي توالت على أهل الأدب بعد زوال فخرها لكن أدام الله تعالى مجدها وأنار شهابها وأقمر ليالي بدرها، يا مولانا وأبشك ما لقيت من أهوال البحر وأحدث عنه ولا حرج فكم وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطع منه القلب لما دخل إلى دوائر تلك اللجج

وشاهدت منه سلطانًا جائرًا يأخذ كل سفينة غصبًا ونظرت إلى الجواري الحسان وقد رمت أزر قلوعها وهي بين يديه لقلة رجالها تسبى فتحققت أن رأى من جاء يسعى في الفلك جالسًا غير صائب واستصوبت هنا رأي من جاء يمشي وهو راكب وزاد الظمأ بالمملوك وقد اتخذ في البحر سبيله وكم قلت من شدة الظمأ يا ترى قبل الحفرة هل أطوى من البحر هذه الشقة الطويلة شعر:

وهــل أبــاكر بحــر النيــل منـشرحًا وأشـرب الحلـو مـن أكـواب مـلاح

بحر تلاطمت علينا أمواجه حين متنا من الخوف وحملنا على نعش المحراب وقامت وأوات دوائره مقام مع فنصبتنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب وقارن العبد فيه سوداء استرقت موالينا وهي جارية وغشيهم في اليم منها ما غشيهم فهل أتاك حديث الغاشية واقعها الحرب فحملت بنا ودخلها الماء فجاءها المخاض وانشق قلبها لفقد رجالها وجرى ما جرى على ذلك القلب ففاض وتوشحت بالسواد في هذا المأتم وسارت على البحر وهي مثل وكم سمع منها للمغاربة على ذلك التوشيح زجل برج مائي ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن النسر والحوت وتتشامخ كالجبال وهي خشب مسندة من تبطنها عدّ من المصبرين في تابوت تأتي بالطباق ولكن بالمقلوب؛ لأن صغيرها كبير وبياضها سواد وتمشي على الماء وتطير مع الهواء وصلاحها عين الفساد أن نقر الموج على دفوقها لعبت أنامل قلوعها بالعود وترقصنا على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود نتشامم وهي كما قيل أنف في السماء واست في الماء، وكم نطيل الشكوى إلى قامة صاريها عند الميل وهي الصعدة الصماء فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين وتتصابى إذا هبت الضبا وهي ابنة مائة وثمانين وتوقف أحوال القوم وهي تجري بهم في

موج كالجبال وتدعي براءة الذمة وكم استغرقت لهم من أموال هذا وكم ضعف نحيل خصرها عن تثاقل أرداف الأموال وكم وجلت القلوب لما صار لأهداب مجاذيفها على مقلة البحر اختلاج، وكم أسبلت على وجنته طرة قلعها فبالغ الريح في تشويشها وكم مرّ على قريتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها تتعاظم فتهزل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تعد ولقد رأيتها بعد ذلك قد تبت وهي حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد، وخلص المملوك من كدر المالح إلى النيل المبارك فوجده من أهل الصفاء وإخوان الوفاء وتنصل من ذلك العدو الأزرق الذي ما برح باطنه وهو كدر وجمع من عذوبة النيل ونضارة شطوطه بين عين الحياة والخضر ووصل بعد عدم القرار من بحيرنه إلى ذات قرار ومعين وقضى الأمر {وقيل بعدا للقوم الظالمين} وتلى لسان الحال على المملوك وأصحابه: {ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين} وبعد فالمملوك يسأل الإقالة من عثرات هذه الرسالة فقد علم الله أنها صدرت عن فكر تركه البين مشتتًا والإغضاء عن كثرة بردها فقد خرجت من البحر عارية في أيام الشتا ولتستر عورتها بستائر الحلم وينظر إليها من الرحمة بعين وليكن ضربها بسيف النقد صفحًا فقد كفى ما جرحت بسيوف البين، وتالله لم يسلك المملوك هذه الجادة إلا ليجد له سبيلًا إلى نهلة من علب تلك الموارد ويعود قلبه الضعيف الذي قطعت صلاته من صفيّ هذا المشرب عائد وبصير العبد مسعودًا إذا أعدّ للأبواب العالية من جملة الخدام ويحصل لكبده الحر من ذلك النسيم الغربي برد وسلام، والله تعالى يمن بقرب المثول بين يديه ليحصل للملوك بعد التخلص من البين حسن الختام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى حكى ابن حجة أن القاضي الفاضل أراد يعارض مقامات الحريري فلما وصل إلى المقامة البغدادية التي لمح فيها بأسماء

الأعضاء أمسك عن المعارضة لاستصعابه ذلك المسلك وهذه عبارة المقامة المشتملة على ذلك التلميح من كلام نسبه إلى عجوز قال: إنها وقفت على جماعة من الأدباء فيهم الحرث بن همام في صورة سائلة قالت: حيا الله المعارف وإن لم يكن معارف اعلموا بآمال الآمل وثمال الأرامل أني من سروات القبائل وسريات العقائل لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر ويسيرون القلب ويمطون الظهر ويولون اليد، فلما أردى الدهر الأعضاد وفجع بالجوارح الأكباد وانقلب ظهرًا لبطن نبا الناظر وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة وصلد الزند ووهنت اليمين وصناع اليسار وبانت المرافق ولم يبق لنا ثنية ولا ناب، فتعجب ابن حجة من استعصاب الفاضل ذلك وأنشأ هذه الرسالة مستوفيًا فيها ذكر الأعضاء إلا ما يستحي من النطق به واعتذر عن ذلك بما سياتي نقله عنه:

يقبل أرضًا بالعلا قد تجسدت ... لأرواح أهل العلم روضة مشتهى
وهبت بأنفاس العلوم قبولها ... فلا زال صدر الدين منشرحًا بها

ولا برح هذا الصدر محروسًا بـ{ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك}.

صدر غدا رأسًا لكل فضيلة ... صور المعاني تلتقيه ببشرها
فإذا أتى نحو الشام مناظر ... في كل علم قابلته بصدرها

هذا وكم لهذا الرأس في العلوم من فرق دق على الأفهام وهو كالغرة في جباه الأيام لازال المجد له حاجبًا مقرونًا بسعده الشامل ولا برج بعلمه عينًا لوجوه المسائل، فلله أهداب معانيه التي هي أسحر من عيون الغزلان وأمضى من السيوف إذا برزت من الأجفان وأصداغ فضائله التي هي عاطفة على وجنات الوجود؛ لأنها كالعوارض الماطرة وكم أنست

عند ذكرها من سالف وكم لها في قلوب الأعداء من خدود وندا جوده الذي إذا جاءه الشارب وجد عنده شفاه وحلاوة نظمه الذي أنسانا ذكر العذيب وثناياه وعنق مكارمه التي ألقت من البديع الالتفات وأوصافه التي غدت على جيد الدهر شامات حتى تبدلت سيئاته بالحسنات كفّ عنا تعب الفقر بكرم راحته المتزايد من غير أن يقال له ساعد، وشهدنا بأن أياديه بحر يفيض بصنائعه فأشار النيل إلى قبول هذه الشهادة بأصابعه فالله ندا يمينه الذي لم يزل المملوك به في بلاد الشمال مكفي وكم فاض منه قلب النيل وجهد أن يوفيه بالباع والذراع فما قدر يوفى جبلت على محبته القلوب فصار حبه ظاهرًا في كل باطن وحنت إليه الجوارح لما سارت مناقبه إلى كل جانب فحركت كل ساكن وينهي بعد أدعيته التي هي إن شاء الله تعالى نعيم للبدن الكريم واعتدال للطيف ذلك المزاج وأثنيته التي هي كالمناطق على خصور الحسان وبها لكل خاطر ابتهاج أشواق من تثاقلت عليه أرداف النوى وأسكنت في وسط قلبه الجوى وقدّه الانقطاع بسيفه الذي زاد في حده؛ ولكنه زاد في قده ولو حصر المملوك ما ساق إليه البعد من الاشتياق إلى تقبيل الأقدام لم تسعه قائمة وهو بعد القلب بالصبر ولكن كما ذكر كعب عن مواعيد عرقوب فنسأل الله حسن الخاتمة قال ابن حجة على أثر ذلك ولم يبق من هذا القدر إلا ما تمجه أفواه الأسماع وينفر منه سليم الطباع، وعلى كل حال فهذه صبابة الحاصل ونسأل الله السلامة من الجاهل المتغافل بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى إذا قرأت متأملًا حق التأمل ما نقلناه لك من إنشاء ذوي العصور المتتالية عرفت كيف اختلاف مذاهب الناس في الإنشاء وإذا يسلك بك التوفيق إلى اختيار طريقة تناسب أحوال بني وقتك وتوافق أفهامهم إذا دعتك داعية للإنشاء المصنوع هذا وأنفع ما أراه ينبغي لك أن تتخذه دليلًا

يرشدك إلى كل وجه جميل من وجوه الفنون التي تحاول فيها أن تكتب الكتابة الصناعية المناسبة لوقتك الذي تأمل أن تعيش في رضا أهله عنك واعترافهم بظهور ما يعود منك عليهم نفعه منشأة الأمير الجليل صاحب الوقت الذي لو تقدم به الزمان لكان له بديعان ولم ينفرد بها اللقب علامة همذان عبد الله فكري بك أطاب الله أيامه وأعلى كما نرجوه منه تعالى حيث كان مقامه فمنها وبه صدّرت ما سأنقله لما اشتمل عليه من نصيحة الإخوان أن يذهبوا بأنفسهم مذاهب الأفاضل ولا يقعدوا بها مقاعد كل وضيع خامل فيكونوا قد رضوا لها بالدون وأنزلوها منازل الهون ما كتب لبعض إخوانه جواب تحية وسؤال قال: كتبت والذهن فاتر من وهن الدفاتر والتبيض والتسويد والتقييد والتسديد والتقييد والتشديد والترجمة وكثرتها والهمة وفترتها والماهية وقلتها والنفس وذلتها وراتبي لا يكفي أجرة البيت ولا يفي ثمن الماء والزيت، وبالأمس وعد الوكيل بالزيادة واعتذر اليوم بالأصيل على العادة على أنه لو حصلت زيادة فلزيد وعمرو إلى آخر الزمر ولله الأمر أحوال متبددة ونفوس متبلدة وأشغال متعددة وإخوان خوان وخلان غيلان ورفاق وما أجمل الفراق وقلت:

إلى م أعاني الصبر والدهر غادر — وحتى متى أشكو وما لي عاذر

ولو أنني أشكو مظانم شدتي — لميت لرقت لي العظام النواخر

وسألت عن فلان وفلان وهيان بن بيان ممن ينتسب للعلم وأهله ويتظاهر بشعار فضله ولو كان العلم بلحية تعظم وتطول وشوارب تحف وتستأصل وعيون على ما بها من غمص ورمص تكحل وعمامة تعظم حتى ترذل وطيلسان يلف ويسدل وكم يوسع ويسبل وأحاديث خرافة تقص وتنقل ومحفظة تفعم وتثقل وسواك يظهر من العماة نصفه وكتاب يخرج من الجيب طرفه ثم بتشدق في الكلام وتبا له في المرام وتعسف

في الأفهام وحرص على الحطام ثم يقول الإنسان: حضرت درس فلان وسمعت من لفظه باللسان وقضيت في العلم كذا سنة من الزمان فهم أعلم من أقلته الغبراء وأفقه من أظلته الخضراء وإن كان للعلم غير هذه الآلات فما لهم سوى هذه الحالات غاية الأمر أنهما قضوا أرذل العمر في كتب معدودة وشروح موجودة وهم يكررونها ولا يدرونها ويقررونها ولا يحررونها ويتداولونها ولا يتعقلونها ولو صرف حماري هذا العمر فيها لأصبح فقيهًا وأضحى نبيهًا والذي يظهر مينهم وشينهم وعلامة ما بيننا وبينهم أن يؤمر أحدهم برقعة تكتب لحاجة معهودة ويمتحن بكتاب غير هذه الكتب المعدودة فيه بعض كلام العرب وأشعارها وشيء من وقائعها وأخبارها فإن كتب فصيحًا وقرأ صحيحًا وفهم مليحًا عرفنا أنه شم عرف العلم وذاق طعم الفهم وسلمنا إليهم ما يدعون وتركنا لهم ما يأتون وما يدعون وإن ارتبك للرقبة ووقف حمار الشيخ في العقبة عرفنا حاله وقلنا له:

أيها المدعي سليمًا سفاها	لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليم كواو	ألحقت في الهجاء ظلمًا بعمرو

وقد مررت بالأمس على أحدهم في الدرس يقرأ الفطر لابن هشام ويلحن لحن العوام ومررت بآخر يدرس الكافي في علمي العروض والقوافي يقرر قوله:

قف على دارهم وابكين	بين أطلالها والدمن

فلا وربك ما أقام له وزنًا ولا عرف له معنى مع سهولة مبناه وظهور معناه فحطمه حطم الهشيم ومزقه تمزيق الأديم فقلت: سبحانك اللهم كأن الشاعر عناني بهذا الكلام وعلم أني أقوم هذا المقام فأمرني بالبكاء

على العلم والدروس وما جرى على معاهدة من دروس يا قوم أهذا النحو وإعرابه والصرف وأبوابه والعروض وأوزانه وأبحره والمعاني وإنشاؤه وخبره والبيان وفرائده والبديع وشواهده، وهذه العلوم الموضوعة والأسفار المحمولة والدروس المأهولة والأصوات المهولة لمجرد معرفة ضرب زيد وعمرو وقتال خالد لبكر وأن قال أصلها قول ثم لا يدري ما حصل والطويل من فعولن مفاعيل ثم لا يعلم كيف ينظم والفصل والوصل ولا أصل ولا فصل والحقيقة والمجاز وليس لهما مجاز والتورية والجناس مما يحفظ ولا يقاس؛ إذًا والله تكون تلك الفنون من أفانين الجنون ويكون الميل إليها والإقبال عليها عملًا حابطًا وشغلًا ساقطًا وهوسًا عاطلًا ووسواسًا باطلًا ويكون واضعوها أساءوا الناس وأخطأوا القياس وبنوا على غير أساس؛ كلا إنما وضعوا هذه القواعد وشرعوا للناس تلك الموارد ليتكلموا بكلام العرب مثل ما تكلمت ويفهموا من ألفاظها كالذي فهمت ويترجموا عن سرائر الضمائر كما ترجمت وينثروا وينظموا كما نثرت ونظمت وقد كانت هذه العرب التي أودع الله الفصاحة لسانها وشرف بسيدنا النسبي والقرآن العربي مكانها تتكلم بهذه اللغة العلية على الفطرة الأصلية والسجية الجبلية من غير هذه القواعد والأصول وتلك الأبواب والفصول وكانت تعتد البلاغة مبلغ علاها وتعتقد الفصاحة من محاسن حلاها ثم بعث الله تعالى نبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم أفصحها لسانًا وأوضحها بيانًا وأنزل عليه قرآنًا في أعلى درجات البلاغة وأرقى طبقات البراعة في حسن الصياغة فاهتدوا بقرآنه واقتدوا ببيانه فازدادوا بسطة في اللسن وتوسعًا في البيان الحسن إلى أن اختلطت أنسابهم وتقطعت أسبابهم وانقرضت دولتهم وانقضت مدتهم واختلت ألسنتهم وخلت أمكنتهم، وخيف أن تذهب

معهم هذه اللغة المنيفة التي هي مدار الشريعة الشريفة وخير لغة العالم وأبرع لسان تكلمت به بنو آدم، فقيض الله لحفظها الأئمة الأعلام هداة الأنام ورعاة الإسلام فرتبوا قواعدها وشدوا سواعدها وصنفوا تلك الفنون العديدة وألفوا هذه الكتب المفيدة لتسهيل الأرب من لغة العرب والتكلم بلسانهم على بعد أزمانهم ومجاراتهم في بيانهم على سعة ميدانهم والتفنن في أساليب الكلام وصوغه على حسب مقتضى المقام واستمر العمل على ذلك بين الأنام وتداولت عليه الأيام والأعوام إلى لن خاف الملوم والخلق المذموم والجيل المشئوم فظنوا تلك الوسائل مقاصد ليس بعدها غاية لقاصد وحسبوا هذه الكتب تقصد لذاتها ويكتفي بالتعبد بكلماتها فوقفوا عندها ولم يتجاوزها لما بعدها واتخذوا الأدب وراءها ظهريًا وجعلوا النظم والنثر شيئًا فريًا، فإذا كتب أحدهم رقبة لحاجة أرادها أو ابتلى بكتاب غير هذه التي اعتادها فلا تسل عن الغلط الواضح واللحن الفاضح والذهن الغائب والفهم العائب فإن وقفته على غلطه وعرفته بعض سقطه قال: ما نحن من أهل ذاك الشأن ولا خيل هذا الرهان إنما نحن لفهم الكراس لا يسبقنا أحد من الناس فيما أنعام الأنام ويا آلام اللئام، أي فائدة إذا المكراس غير وجع الراس وأي معنى لتلك العلوم غير سعة الحلقوم وماذا ينفع الإعراب من لا يعرف عن المرام وماذا يصنع بالصرف من لا يتصرف في أساليب الكلام وماذا يغني العروض عن قوم لا يشعرون والمعاني والبيان من قوم لا ينظمون ولا ينثرون وقد زارني أحدهم في الديوان لبعض شأنه وأعطاني رقعة كتبها لحاجة بخط بنانه فإذا رقعته أنموذج الرقاعة وتمثال الشناعة ومجموع البلاهة وينبوع العيّ والفهاهة وهاهي واصلة طيّ كتابي إليك لتكون على ما قلت حجة وبينة لديك فقد عرفت قدر تظاهر هذا الرجل بالعلم وتفاخره بحدة الذهن

وجودة الفهم وسترى ما بها من زلل وخطأ وخطل ولفظ بارد ومعنى جامد وتركيب فاسد ورسم خامد، وقد كان في يدي معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص فناولته بعض ورقاته وسألته في فهم بعض محلاته لا جهلًا بأمره ولكن إظهارًا لعجزه وبجره ثم جهدت به أن يكتب ما فهمه بعد أن مدحت له ما توهمه وكنت أريد أن أتحفك بغرائب أنظاره ووساوس أفكاره لتعلم أي أطفال في ثياب زجال وأي حمير تركب البغال إلا أنه لم يسمح بكتابة ما قال وفي رقعته كافية فهي في الدلالة على حالة غاية أما فلان وأترابه وفلان وأضرابه فهم أعجوبة الأيام وأحدوثة الأنام أحوال متناقضة وأفعال متعارضة فكبر وفقر وعجز وفخر وأنف في السماء واست في الماء، وحال تحت التراب ونفس فوق السحاب إن صدقتهم كذبوا وإن أرضيتهم غضبوا وإن تباعدت عنهم لاموا وعذلوا وإن تقربت منهم سئموا وملوا، كلاب في جلود أسود وجوه بيض وقلوب سود صغيرة السيئة عندهم كبيرة وكبيرة الحسنة لديهم صغيرة عيون منتقدة وقلوب متقدة وألسنة حداد وأفئدة شداد واجسام صحيحة وقلوب مريضة وجهل طويل ودعاوي عريضة النصح لديهم خيانة والسوء عندهم ديانة وقد بذلت في مرضاتهم جهدي وأجنيتهم مري وشهدي وقابلتهم باللطف والعنف وعاملتهم بالنكر والعرف فلا وأبيك ما زادوا إلا فجورًا وعتوًّا ونفورًا ومكرًا وشرورًا وكبرًا وغرورًا ولو وقفت عليهم ليلتي ويومي وهجرت لديهم راحتي ونومي وفديتهم بعشيرتي وقومي ثم أطعمتهم من جسمي وآثرتهم من العافية بقسمي لما بلغت من نفوسهم رضاهم ولا أديت من حقوقهم على زعمهم مقتضاها بل ولو صاحبهم جبريل وخاطبهم بالتنزيل وأهداهم الجنة في منديل وأنزل الشمس إليهم في قنديل ونظم لهم النجوم عقودًا وشق لهم من المجرة برودًا وصير الإنس

والجن لهم عبيدًا وجعل الملائكة لهم بعد ذلك جنودًا وأطلعهم على غيب السماء والأرض وخبرهم بما كان وما يكون إلى يوم العرض لما أصبح عندهم إلا مذمومًا ولا أمسى لديهم إلا ملومًا ولكان منسوبا للقصور والتقصير والإخلال بالقليل والكثير، قوم هذه طباعهم وتلك أوضاعهم من ذا يرضيهم بحال ولو فعل لهم المحال، أما فلان وما أدراك فهو شرك الأشراك وعار العرب والأتراك وفضيحة الزمان وخزي الكون والمكان، صورة كثيفة وسيرة أنتن من الجيفة.

ووجه لو رميت به لكلب ... على جوع لعاف الكلب أكله

وأخلاق أسمج من السماجة وعقل أضل من الدجاجة وكلام على الرأس أشد من قلع الأضراس إذا تجرعته الآذان تقيأته الأذهان فهو ذنوب الذنوب وعيبة العيوب وقذى النواظر وأذى الخواطر وبلية النفس وآفة الأنس وشر الجن والإنس وهو من قوم تقدموا بأعجازهم لا بإعجازهم وبقيادتهم لا بسادتهم وبالثمول لا بالشمائل وبالفضول لا بالفضائل فلا نعم الله بالهم ولا بلغهم آمالهم فليسوا للنعمة أهلًا وللكرامة محلًّا:

نعم الله لا تعاب ولكن ... ربما استقبحت على أقوام

لا يليق الغنى بوجه فلان ... لا ولا نور بهجة الإسلام

وسنح الثوب والعمامة والبر ... ذون والوجه والقفا والغلام

وقد طال الكلام في هؤلاء الطغام، وإني لمأسوف على زمن قطعته بأنبائهم وقرطاس دنسته بأسمائهم وما كنت لأريد أن أطيل المقول في فصول هذا الفضول؛ ولكن حديث الأفاعي يطول وقد نذرت للرحمن صوما فلن أذكرهم بعد هذا يومًا فهلم أطارحك ذكر الوداد وأبثك شكوى ما في الفؤاد من لاعج البعاد فعندي لك من الود والشوق والوجد ما ملأ

الجوانح وملك الجوارح فلا يبليه البعد ولا ينسيه طول العهد، فالله يديم حسن رعايتك ويسمعني ما يسر من ناحيتك ويتم نعمته عليك بالدوام ويبلغك غايات المرام.

(وكتب إلى إمام مسقط من طرف الحضرة الخديوية)

ما روضة سحبت عليها السحائب ذيول مطارفها وخلعت عليها من خلع الربيع محاسن طرائفها فظلت تثنى عليها أدواحها بما استودعته أرواح النسيم حين سرت بليلة الأذيال عاطرة الشميم بأحسن ولا أبهى ولا ألطف ولا أشهى من تحية بهية تعلمت لطفها نسمات الشمائل وأثنية سنية استفازت من حسن تلك الشمائل وتسليمات زهية يتلألأ في أرجاء المودة سناها ويتفيؤ في أنحاء الأفدئة ظلال معناها تقدم وتبدي ونتحف وتهدي إلى حضرة ذروة المجد الشامخ وتاج هامة السعد والشرف الباذخ حسنة الدنيا وحلية المجد والعلياء بدر المفاخر الذي أضاءت به نواحيها ومنار المآثر الذي اهتدى به ساريها رب الهمم العوالي وسليل الأكارم العالي وبهجة الأيام والليالي وزينة المحامد والمعالي حرس الله بهجته وأدام بهجته وحمى حماه ورعى رعاياه ولا زالت ثغور الآمال بوجوه بواصم ورياح الإقبال بوفوده نواسم.

وبعد فقد وصل إلى كتابكم الكريم وتلقيته بما ينبغي له من التكريم فملا العين قرة والقلب مسرة والنفس ارتياحًا والصدر انشراحًا واجتليت منه روضة بلاغة أزهرت نجومها وسماء فصاحة أسفرت نجومها واغتنمت من براعات عباراته الفائقة مزيد المسرات بما ابتديتموه من حسن الميل إلى وبديع الالتفات وشكرت المولى العظيم على صحة ذلك

المزاج الكريم، وهذا المحب في صحة وعافية ونعمة من الله وافية فنسأله ونبتهل إليه سبحانه أن يديم علينا وعليكم إحسانه آمين.

(وكتب صورة مقالة تقدم من أهل الصعيد لولي النعم)

يا ملك الملكوت ورب العظمة والجبروت نحمدك على سوابق نعمائك وسوابغ آلائك، ونصلي ونسلم على خير أنبيائك وواسطة عقد أصفيائك ونشكرك على ما ألهمته حضرة أمير المؤمنين وخليفة رسولك الأمين وظلك الممدود على مفارق العالمين من تحويل وراثة مصر إلى نبل عزيزها الأفخم وتخويل أهلها بهذه المنة الكبرى جلائل النعم والفضل الأعم وهذا شيء طالما لهجت به ألسننا وامتدت إلى أنظاره أعيننا واشتغلت به خواطرنا واشتملت عليه سرائرنا فدلت عليها ظواهرنا، وما ذاك إلا من فرط حبنا لأوطاننا السعيدة وولي أمرها وعملنا بما يترتب على تلك البغية الحميدة لهذه الديار من اتساع خيرها وامتناع ضيرها وارتفاع قدرها واستكمال أسباب غناها وفخرها وتماديها في التقدم والتمكن وترقيها في درجات حسن التمدن ومعمورية بلدانها ورفاهية سكانها، إلى غير ذلك من ثمرات نافعة ومحاسن بارعة نرى العزيز أدام الله بقاءه وخلد في ملكه أبناءه لا يزال أخذًا في أسبابها متوصلًا إليها من خير بابها، ولعل الله جلت حكمته وعلت كلمته ما اختص هذا الجناب الخديوي بتلك المزية العالية بعدما تداولته على تمنيها الأعصر الخالية وشلت دون تعاطيها الأيدي المتناولة وقصرت عن ترجيها الهمم المتطاولة إلا لما جبل عليه جنابه الكريم وجعل حلية طبعه السليم من حب الخير والنفع للخاصة والعامة وبذل في تقدم هذه الأوطان مزيد الهمم التامة، ونحن لو أردنا بين ما استفدناه من السرور والحظ والحبور

والأنس والحضور لهذا الأمر المبرور لوجدنا كل عبارة قاصرة عن المرام وكل براعة مقصرة عن إيفاء حق هذا المقام فنسألك اللهم لأمير المؤمنين نصرًا على العدا وملكًا يبقى أبدًا سرمدًا ولا ينتهي إلى مدا ونستوهبك لعزيزنا الأكرم وولي نعمتنا المعظم طول عمر يتمتع فيه بدوام إقباله مسرورًا بنجاح أعماله وبلوغ آماله وصحة أنجاله ما تجلى الأفق بحلية هلاله وتجلى البدر في حلة كماله.

(ومما كتبه صورة فرمان بنصب محافظ)

صدر هذا الفرمان المطاع الواجب له القبول والاتباع خطابًا إلى الحكام والعلماء والقضاة والأعيان والوجوه والعمد ومشايخ البلدان وعموم الأهالي المتوطنين في محافظة كذا بجهات السودان ليكن معلومًا لديكم بوصول هذا المنشور إليكم أنه قد اقتضت إرادتنا تنصيب فلان محافظًا عليكم لما توسمناه فيه من الدراية والاستعداد والسلوك في طرق الرشاد وبذل الهمة في أمور المصلحة ومزيد الاجتهاد فامتثلوا أوامره التي تصدر في صالح المصلحة واجتنبوا نواهيه واجتهدوا فيما يعود به عليكم مزيد العمارية لتنالوا حس الرفاهية واعملوا بقوله تعالى: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} لتفوزوا بزيادة التفاتنا إليكم ورضانا عنكم وأنتم أيها المحافظ قد علمت ما لدينا من الشغف باتساع دائرة المدنية وحصول الخير لجميع أهل هذه الديار الوطنية والميل إلى دوام راحة العباد وتأمين السبل وتمدين البلاد فعليك برعاية ما يلزم لذلك، واسلك في إدارة أشغال هذه المحافظة أحسن المسالك ودم على العدل والإنصاف واحذر من الظلم والإجحاف وانظر إلى قوله عليه السلام لأمته: «كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته» ولتكن مهتمًا بتحصيل

حقوق المصلحة في أوقاتها ورؤية جميع الأشغال على أحسن حالاتها ليدوم حسن أنظارنا عليك وتفوز بمزيد التفاتنا إليك، اعلم واعمل به واحذر من مخالفة موجبه.

(ومما كتبه لبعضهم)

سلام يعبر عن الوداد طيب عبيره ويخبر عن إخلاصه الفؤاد لطف تعبيره وثناء على محاسن تلك الشمائل أرق من نسمات الشمائل وتحية بهية تباهي الخمائل بنفحات أورادها وأدعية مرضية جعلتها الألسنة خيرًا ورادها وسؤال عن المزاج الزاهر وصحة الخاطر الباهر لا زلتم محل نعمة يتصل على مدى الأيام بقاؤها ويزيد على مر الشهور والأعوام بهاؤها ولا برحت ثغور الإقبال إليك بواسم ورياح الآمال لديكم نواسم ولا انفكت الأيام والليالي متقلدة بحلاكم أجيادها والمعالي متسابقة إلى ساحة حماكم جيادها آمين.

وبعد فإن بي من الأشواق ما تضعف عن حمله إلى حماكم الأوراق ومن التأسف على ما حرمته من لقياكم والتلهف إلى مطالعة أنوار محياكم ما يقصر عن وصفه لسان البراعة ويقصر دون وصفه بيان البراعة ويضيق عنه نطاق العبارة ولا ينفسح له ميدان الإشارة وأن في ضميركم الأجلى ونور فكركم الأعلى ما يكفي في الدلالة ويغني عن الإطالة في المقالة وإن تفضلتم بالسؤال فإنا بحمد الله قد بلغنا الآمال والجميع في صحة وعافية وحسن حال والكل مشتاقون إليكم ويسلمون عليكم وعبد الله فكري يقبل يديكم وأيضًا الشوق إلى لقياكم واجتلاء نور محياكم تضعف عن نقله حمائم الرسائل ولا يحتاج في إثباته للحجج والدلائل، فالله يطوي شقة البين ويقر بكم العين ويمتعني ببقائكم وطيب لقائكم، وقد ورد

خطكم الكريم فسر أنفسًا تعرفه وتألفه وأقرّ أعينًا لا تزال تترقبه وتتشوفه وقد كان مر بخاطري وخطر لفكري أن أسابق سيدي ومولاي برسالة أشكو فيها لواعج لبعاد وأقضي بها بعض الفروض الواجبة من حقوق الوداد؛ ولكن أبى الله ألا أن يكون سيدي هو السابق لتلك الفضيلة والبادئ بهذه المكرمة الجميلة وأن أكون المقصر في جنب تطوله والمفرط في جانب تفضله على أني لم أكن مقصرًا في دعاء يصحبه الحب ويرافقه الإخلاص وثناء على محاسن تلك الشمائل أوجبه مزيد الاختصاص وسؤال عن ذلك الخاطر الزاهر أستقبل به كل وارد وأشيع كل صادر والأمل اتصال ما يطمئن به الفؤاد من رسائل الوداد حتى ينقضي أمد البعاد ذلك غاية المراد قوله في هذا الكتاب حمائم الرسائل بشير إلى ما كان في سالف الزمان من استعمال الحمام في إيصال الكتب التي يراد سرعة وصولها إلى الأمكنة البعيدة؛ وذلك أن الناس لما عرفوا في الحمام خاصة الألفة لموضعه واهتدائه له إذا أبعد عنه وعرفوا منه نوعًا قويت فيه تلك الخاصة رتبوا أبراجًا بين النواحي المتباعدة كمصر والشام وبغداد واتخذوا الكل برج حمامًا ربوه فيه حتى ألفه وكانوا ينقلون حمام كل برج إلى ما يليه، فإذا أرادوا أن يوصلوا الكتاب علقوه في جناحه وأرسلوه فيتلقاه الموظفون لأخذ الكتب منه عند وصوله إلى برجه ويعلقونه في جناح حمام البرج الآخر وهكذا فكان يصل الكتاب إلى المقصد في زمن لا يمكن للبريد وكان للحمام ديوان له رؤساء وخدم وكان من المصالح المهمة وأغنى عنه وعن غيره في زماننا هذا ذلك السلك الممدود على ذلك الخشب المنضوب الذي صار شبكة على الكرة الأرضية.

(وكتب لسلطان المغرب من الحضرة الخديوية جوابًا عن كتاب)

قرة نواظر الدين والدنيا وغرة مفاخر الملك والعليا وبدر مطالع السعد المشرقة أزمانه بآلائه وذخر مجامع المجد المورقة أفنانه بآلائه القائم بأمر الدين الحنيف وحامي حمى الملك المنيف ماحي ظلم الظلم ومبدد مراسمه ورافع لواء العدل ومجدد معالمه ذروة هامة الشرف الأسمى ومن تتباهى بحلاة النعوت والاسما الملك المعظم السلطان المفخم أمير المؤمنين بالديار المغربية دامت محفوفة بالرعاية الأبدية محفوظة بالوقاية الأحدية ملحوظة بعين العناية الصمدية ولا برحت أعواد المنابر متباهية باسمه الكريم وأجياد المفاخر حالية بمجده القديم ولازالت سدته الكريمة مجل إجلال وتفخيم.

سلام يستتبع مزيد التكريم ويستجمع صنوف التبجيل والتعظيم وأدعية بهية تتمسك بأذيال الإجابة والقبول وأثنية سنية تتمسك بها نفحة الصبا والقبول، يهدي لذلك المقام الأرفع والحمى الأعلى الأعز الأمنع أدامه الله مورد قبول وإقبال ومعهد فضل وأفضال ولازالت أنديته معمورة بالعز والتمكين وألويته منشورة بالنص المبين، وبعد فقد حظيت بورود مشرفكم العالي وقرت بمطالعته عيون آمالي وشكرت لما تفضلتم بإبدائه وسررت بما تطولتم بإهدائه واغتبطت بما تكرمتم بحسن بيانه من تأكيد الود القديم وتشييد بنيانه والتهنئة بما تجدد لديّ من نعم الله تعالى علي فكان نزهة النواظر وبهجة الخواطر وبغية القرائح ومسرة الجوانح، هذا وإني ما زلت أسمع أحاديث علاكم متصلة الإسناد فأطرب على السماع وأنشر من مدائح محامدكم ما تتعطر به الأفواه والأسماع واعتد مودتكم غنيمة النفس ومناها ومصافاتكم غاية الآمال ونهاية مداها فقد شاع من محاسن شمائلكم السامية وغرر مزاياكم الكريمة وجلائل فضائلكم النامية وقيامكم بأمر الشريعة الشريفة واهتمامكم بتأييد هذه الملة المنيفة ونشر أنواع

العدل بين العباد والقيام على أقدام الإقدام في مناهج السداد ما تناقلته السمار في أسمارها وسارت به الركبان في أسفارها وخلدته الأيام في أسفارها وأخجل الشمس الضاحية في أسفارها حتى أصبحت الليالي متباهية بعلاه حالية بحلاه وصار مصداق الحديث الوارد في الطائفة القائمة على أمر الله فأبقاكم الله للإسلام ساعدًا وعضدًا وللدين قوة ومددًا وللأنام ركنًا وسندًا وللحق عمادًا ومعتمدًا، وأدام عليكم وعلينا نعمه باطنة وظاهرة وحفنا وإياكم بعونه وعنايته في الدين والدنيا والآخرة.

(وكتب لسلطان زنجبار)

الملك المعظم والسلطان المفخم سلطان جزيرة زنجبار صانها الله تعالى من الأكدار، سلام يسفر عن إخلاص المودة سناه وثناء يخبر عن صدق المحبة لفظه ومعناه وتحية تتمسك بنفحاتها المحافل وتتمسك بأذيالها نسمات الشمائل إلى حضرة خلاصة الأماجد الأكارم وينبوع الفضائل والمكارم مفخر الملك والعليا وإنسان عين الدين والدنيا من أشرقت صفحات الأيام بنور إقباله واتفقت كلمات الأنام على شكر خلاله وقرت بسعوده النواظر وترنحت بوجوده أعواد المنابر فكأنها الغصون النواضر الأجل الأكرم الأسعد الأمجد الأفخم المشار إليه أعلاه حرس الله علاه ولا زالت ثغور الملك بمعاليه باسمة ورياح السعد في نواديه ناسمة وعيون الخطوب عن سدته نائمة وغيوث السرور في ساحته دائمة أمين.

وبعد فقد وصل إلى مشرفكم الكريم وتلقيته بما ينبغي له من التكريم فحصل لي مزيد المسرة بصحة مزاج تلك الحضرة وأخبرني أيضًا فلان قبودان سفينتنا الإبراهيمية أنه لما وصل إلى جهة مملكتكم المحمية حظى من جنابكم العالي بحسن التشريف وحصل له غاية المساعدة ونهاية

التلطيف وشرح لديّ ما ناله هناك من صنوف الالتفات والإسعاد وأوصل إليَّ أيضًا من طرفكم الشريف فرسين كريمتين من الصافنات الجياد فأحاط بي من السرور والابتهاج بما أبديتموه من معالي هممكم ولا سيما ما تكرمتم به من تشريف تلك السفينة بقدوم قدمكم ما يقصر في وصفه اللسان ويقصر عن تعريفه بنان البيان ويضيق عنه نطاق التعبير ولا ينفسح له مجال التقرير والتحرير، فشكر الله تلك الهمم العوالي وأبقاها ما دامت الأيام والليالي وهذا المحب بحمد الله في صحة وعافية ونعمة من الله تعالى وافية ولا زال مشمول القلب بالمودة إليكم مشغول اللسان بالثناء عليكم محافظًا على صدق الموالاة والوداد مواظبًا على حسن المصافاة ومزيد الاتحاد والمرجو أن يتصل ذلك بين الطرفين على الدوام وكل ما لزم من هذا الجانب فهو رهين الإشارة والسلام.

(ومما كتبه فرمان من الحضرة الخديوية)

قد صار هذا الفرمان اللازم طاعته الواجب امتثاله ومتابعته خطابًا إلى كافة القضاة والحكام والمعاونين ونظار الأقسام وسائر المعاونين والمشايخ والعمد والمستخدمين بمديرية كذا زيد قدرهم ليكن معلومًا لديكم بوصول أمرنا هذا إليكم أننا جعلنا فلانًا مديرًا عليكم لما رأيناه فيه من الأهلية والصداقة وحسن الروية فامتثلوا أوامره على الأصول المرعية وبادروا أباد أشغال المديرية لتفوزوا بزيادة التفاتنا إليكم ورضانا عنكم وقد علمتم قوله تعالى: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}، وأنت أيها المدير المومأ إليه المعول في حسن إدارة هذه المديرية عليه قد علمت رغبتنا في البر والسداد واتباع سبل الرشاد وعمارة البلاد وراحة العباد ونشر لواء الأمن والأمان في جميع القرى والبلدان ومحبتنا للعدل

وأهله وكراهتنا للظلم وفعله، وشغفنا برفاهية الرعية وحسن حال البرية الذين هم وديعة ذي الجلال والإكرام في أيدي الولاة والحكام فاعمل أنت أيضًا على حسب ذلك سالكًا في جميع أحوالك أحسن المسالك واجتهد في حسن الإدارة وتيسير أمور الزراعة والصناعة والتجارة ومزيد التمدن والعمارة وتأمين الطرق والجهات في جميع الحالات والأوقات وصيانة الأجانب المتوطنين في المديرية والمترددين عليها والأهالي المقيمين بها والواردين إليها وحسن نهو القضايا وفصلها وتوصيل الحقوق إلى أهلها وأداء الأشغال المسيرية وإدارة أمور المديرية على حسب الأصول المعتبرة والقواعد المقررة ودم على الاستقامة والصداقة التامة والعدل بين الخاصة والعامة، فإن العدل سبب السلامة والظلم ظلمات يوم القيامة فقم على أقدام الإقدام وشمر عن ساعد الاهتمام في إجراء ما شرحناه على الدوام باذلًا كل جهدك واستطاعتك كما هو المأمول في حسن براعتك لتنال زيادة التفاتنا إليك ودوام إقبالنا عليك وليسلك أيضًا الجميع على هذا المنهج البديع وليسعوا في إجراء ما شرحنا ويساعدوا في إنفاذ ما أوضحنا فبادروا بامتثال هذا الواجب وليبلغ الحاضر منكم الغائب، نسأل الله الإعانة والعناية وحسن الهداية في البداية والنهاية.

(وكتب إلي من بجزيرة كريد من العساكر المصرية)

(من طرف الجناب الخديوي ليقرأ عليهم)

لقد علم لدينا بما ورد إلينا من جرنال الوقعات العسكرية وما أوضحه أيضًا فلان باشا في معروضاته الشفاهية مما رآه بالعيان ورواه بالبيان تفصيل ما وقع من الحروب والغزوات في نواحي أبو قرون وما يليها من

الجهات وأحطنا بما أبديتم من الإقدام والشجاعة، وما أديتم من الاهتمام والبراعة وما كان منكم من ثبات الجأش والقلب في مواقع الضرب ومعامع الحرب وما شاهدته منكم الأعين وشهدت لكم به الألسن من الهجوم على الجبال الوعرة واقتحام المحال العسرة وإظهار الباس والصولة في تأييد الملة والدولة وتبديد من لقيتم من جنود العصاة البغات وتسخير ما كانوا متمكنين به ومتحصنين فيه من المحلات وتبديد ما أحكموا من استحكاماتهم وتنديد من أقدموا من طغاتهم فأحاط بي من السرور وكمال الأنس والحبور ومزيد الحظ الموفور ما ملأ الجوانح انشراحًا والجوارح طربًا وارتياحًا وأظهر حسن اعتقادي في شجاعتكم القلبية وبراعتكم الحربية وغيرتكم الملية وحميتكم الجبلية وشفقتكم بإعلاء شأن الوطن وإبقاء الذكر الجميل والصيت الحسن، وأكد ذلك ما شهدت به الأنام من سوالف الأيام للعساكر المصرية وضباطها الجهادية من قدم الصدق في الحروب وحسن السابقة في الخطوب وثبات القدم والجنان إذا طاش قدم الهلوع وطار قلب الجبان فإنهم خلدوا فى أوراق الليالي علاهم وقلدوا في أعناق المعالي حلاهم بما لهم من الوقائع المشهورة والمواقف المشكورة وقوة الباس على الأعداء وشدة الصولة والبسالة في مواقف الهيجاء وما بنوه من منار الفخر والمجد على أساس الشرف والمظهر وما اجتنبوه من ثمرات النصر من ورق الحديد الأخضر وأنتم أولى بتشييد ما بنته إخوانكم الأول وتأييد ما شاع لهم من الفخر والشهرة عند جميع الدول ثم إنكم إذا أمعنتم الفكر الثاقب وتبينتم النظر الصائب وتفكرتم في أعقاب الأمور ومصائرها وتدبرتم في موارد الأحوال ومصادرها علمتم أنكم إذا أثبتم ذلك الصيت الممدوح واكتسبتم بمشيئة الله تعالى النصر والفتوح كان لكم ذلك افتخارًا بين أقرانكم

وسروًرا لأهلكم وإخوانكم، فإن الأخبار تتناقلها الرواة وتتواصل بالمكاتبات والأفواه ثم ليكن على بال منكم ولا يغب طرفة عين عنكم أن هذه البلاد التي أنتم لديها والجبال والأودية التي أنتم عليها وحواليها كما سبق فيها من غزوة عظيمة ووقعة جسيمة ووقفة كريمة لإخوانكم الأولين من العساكر المصريين أبرزوا فيها شرف الراية العسكرية وأظهروا مآثر النجدة والحمية والغيرة الوطنية حتى سارت بحديث وقائعهم الركبان وأثنى على محاسن بدائعهم كل لسان فما هناك من بقعة إلا وفيها وقعة ولا من موطئ قدم إلا وفيه أريق دم فمضى من استشهد منهم فائزًا بالثواب والأجر وعاد من بقى حائزًا للفخر والنصر وها أنتم من نسلهم وإخوانهم ومن أبناء أوطانهم وأنتم خير خلف لأولئك السلف، كما أن هؤلاء العصاة نسل من كان بها من أهاليها وهذه الجزيرة التي أنتم بها هي بعينها التي كانوا فيها فمهما أقدمتم ونصرتم واقتحمتم وظفرتم كان ذلك لمن بقي هنالك من أرواح الشهداء روحًا وريحانًا وتكرمة وإحسانًا كما أنه يجعل لكم في جميع الآفاق شرفًا وشأنًا ويمكن لكم بين الرفاق عزة ومكانًا ويقيم لكن على الشجاعة والبراعة دليلًا وبرهانًا، ثم إنكم عند عودتكم بعون الله القوي المتين حاملين رايات الفتح المبين رافلين في حلل النصر والتمكين يكون لكم ذلك شرفًا سرمدًا وافتخارًا تتحدثون به على المدى حتى إذا التفت عليكم المحافل واجتمع لديكم المستخبر والناقل كان لكم بذلك لسان ذلق وصوت صهصلق وتجدون حينئذ للبراعة مقالًا وللفخر بالشجاعة مجالًا وترون لأقوالكم من يصدقها ولأخباركم من يحققها وهذه لذة الرجال ومزية الأبطال فهل للرجل فخر أعظم من هذا الحال وهل له فضل على المرأة إلا بإقدامه على الخطوب واقتحامه الأهوال وهل يتميز الشجاع الصنديد من الجبان الرعيد إلا في

مواقف القتال ومواقع الحرب والنزال؟ وهل للعسكري شرف يكتسبه إلا بين البنادق والمدافع؟ وهل له فخر يذكره أو يذكر به إلا بما يبديه في تلك الوقائع؟ وهل لكريم الحر أرب في الحياة إلا لفخر يقتنيه بصعب يرتقيه وذكر جميل يبقيه بأثر جليل يبديه؟ فإذا العسكري لم يكتسب الفخر في مجال الحروب فأي فرصة يترقبها؟ وأي حالة يتطلبها لاستحصال ذلك المرغوب؟ وإني ما اخترتكم لهذا الأمر العظيم إلا لإعلاء شأن الوطن الكريم وإعلان ما لكم من الصيت والفخر القديم لحسن اعتقادي في صغيركم وكبيركم وحسن نظري في مأموركم وأميركم، وقد لاح من مساعيكم تأييد ما أملته فيكم وظهرت بحمد الله بشائر النجاح وسفرت أشائر الظرف والفلاح وإنما الأعمال بخواتيمها وثمرات الأمور في تتميمها ورجائي في منن الله العظيمة وألطافه العميمة ثم أملي في طوياتكم السليمة ومساعيكم القويمة أن تكون العاقبة خيرًا والختام حسنًا وأن تفوزوا بالأجر والثنا وأن تدوموا على منهج السداد والاجتهاد في الجهاد والقيام على إقدم الأقدام وبذل الجد والجهد والاهتمام حتى ينتهي الأمر ويستكمل النصر ويزول أثر الاختلال وتستقر الأحوال وتعودوا إن شاء الله منصورين فرحين مسرورين مستبشرين بعناية الله العلية في ظل السلطنة السنية واعلموا أن جميع أخباركم تنقل في جرنال الوقعات فتعلم لدى أحوالكم في جميع الحركات والسكنات حتى كأني مقيم لديكم وحتى كأني أراكم وأنظر إليكم، فكل من فاق أقرانه في الحروب وأبدى من الإقدام والحمية ما هو المطلوب فله ما يسره من المكافآت وحسن التلطيف ومزيد الالتفات، فاعلموا ذلك واعلموا على حسبه في كل آن ومكان وأدوا من الإقدام والاهتمام غاية الاستطاعة ونهاية الإمكان وقد أصدرت أمري هذا إليكم إعلامًا بما حواه ودستورًا

يعمل بمقتضاه وإعلانًا لمسرتي من حسن صنيعكم وإيذانًا بفرحي وابتهاجي بجميعكم واستفسارًا عن خواطركم وافتخارًا بمفاخركم، أمدّكم الله بعنايته وعونه وجلعكم في حرز رعايته وصونه وأدام توفيقي وإياكم لما يرضاه، والسلام عليكم ورحمة الله.

(وكتب أيضًا من الحضرة الخديوية إلى من باشروا واقعة)

(أرقازي من الضباط الجهادية وأفراد العساكر المصرية)

سلام من الله وتسليم ورضوان كريم يهدي لأولكم وآخركم ويسدي لمأموركم وآمركم لازلتم محفوفين من الله بنصره محفوظين بأمره غالبين على عدوكم بقهره متقلبين في نعمته وبره ولا انفكت عزائمكم في كروب الحروب عزائم وثغوركم في قطوب الخطوب بواسم وأعلامكم للنجح والتمكين علائم وأيامكم للفتح المبين مواسم ورياح القهر والدمار على عدوكم سمائم ونسمات النصر والفخار في رواحكم وغدوكم نواسم.

وقعد فما زلت أتشوق من أخبار شجاعتكم ما يسر الخواطر وأتشوف من آثار براعتكم ما يقر النواظر واثقًا بعزمكم وخرمكم في المضايق مبتهجًا بما أبديتموه من حسن السوابق حتى وردوا بور الشرقية من طرف حضرة الباشا ناظر الجهادية بيوميات لوقائع العسكرية مشتملة على وقعة أرقازي وتفصيلاتها وما كان من رسوخ أقدامكم وثباتها وإقدامكم في جهاتها واقتحامكم مضائق حصونها واستحكاماتها وتسخير مستعصماتها وتدمير أشقياء العصاة وكماتها حتى زلزلت صياصيها، وذللك نواصيها ردني لكم قاصيها ودان عاصيها فكذا تكون رجال الجهاد وأبطال الجدال والجلاد وهكذا تفتح الحصون ويبرز سر النصر المصون وفي ذلك

فليتنافس المتنافسون فقد سفر لكم بحمد الله وجه التهاني وأثمر فيكم بعون الله غرس الأماني وأيدتم ما ثبت للعساكر المصرية من حسن الشهرة في الأمور العسكرية فحصل لي من الأنس والسرور بهذه البشارة ما لم تقدر الإنس أن تصف مقداره ولا يتسع له مجال الإشارة وتأيد فيكم حسن أنظاري وظهرت ثمرات أفكاري وتحققت أنكم بعد الآن بعون الله الكريم لا تزلون عن هذا الطريق القويم ولا تزالون في تأييد ما لكم من المجد القديم، وقد شاع حديث نصركم بين الأهل والديار وسارت الركبان بمحاسن هذه الأخبار كما نقلته صحف الوقائع إلى جميع الأقطار فانشرحت صدور أهلكم وإخوانكم وفرحت بكم جميع أهل بلدانكم وابتسمت ثغور أوطانكم وافتخرت بأحاديث شجعانكم وارتاحت أرواح الشهداء من أقرانكم والمأمول في ألطاف الله العلية وبركات السلطنة السنية ثم في حميتكم الملية وغيرتكم الوطنية أن يزول حال الاختلال عن قرب وينتهي أمر القتال والحرب ويطيع الجميع ويسهل كل صعب منيع، وتعودا لوطننا العزيز ظافرين بالتعزيز وقد قرب حصول الأمل ونجاح العمل ومضى الأكثر وبقي الأقل والحرب للرجل العسكري والبطل الجري سوق عظيم وموسم كريم تشتري فيه غوالي المعالي بأعلى العوالي وتنال فيه منازل الأكارم في ظل السيوف الصوارم ويدرك الفخر الصادق بمرامي المدافع والبنادق وقد علمتم أن الشجاعة وإن كانت تبلغ الآمال لا تقصر الآجال كما أن الجبن وإن كان يورث العار لا يؤخر الأعمار وإنما هي آجال محدودة وأنفاس معدودة لا تقبل التغيير ولا التقديم والتأخير والشجاعة صبر ساعة ثم ينكشف الغبار وتسفر الأخبار ويتناقل حديث الشجعان ويخلد في تواريخ الزمان فداوموا على إبداء الاجتهاد وقوموا بأداء حقوق الجهاد واثبتوا على الشجاعة والإقدام وثبات

القلوب والأقدام وأنجزوا بمعونة الله تعالى هذا المرام وكما جودتم براعة المطلع أحسنوا براعة الختام.

(وكتب في أوائل عهد الجناب الخديوي عن حضرته إلى ملك دارفور)

حمدًا لمن ألف بين قلوب المؤمنين وجعلهم بنعمته إخوانًا في الدين وصلاة وسلامًا على رسول جنابه وسيد أحبابه وعلى آله وأصحابه من كافل الديار المصرية وما والاها من الأقطار السودانية إلى حضرة صفوف السيادة الأماجد الجامع ما تفرق من مكارم المحامد غرة جبين الشرف الأجلي وقرة عين المجد الأعلى مجر الفضل الزاخر وبدر سماء المحاسن والمفاخر وفخر الأوائل والأواخر الملك المعظم السلطان المقتحم محمد بن الحسين المهدي سلطان مملكة دارفور حفظه الله بدوام السرور والسعد الموفور آمين.

بعد سلام ينبئ عن صريح الوداد ويخبر عما في صميم الفؤاد من صحيح المحبة والاتحاد وتحية يحلو على الألسن حسن تكريرها ويعبر عن صدق الولاء طيب عبيرها وشوق يقل عنه البيان ويكل دونه البنان وسؤال عن الخاطر العالي أدام الله معاليه وحف بطوالع السعود أيامه ولياليه، بينما نحن في انتظار ما يرد من الرسائل والثناء على حسن تلك الشمائل ورد لنا خطابكم الكريم فقابلناه بمزيد التعظيم وسررنا بحسن صحتكم وما أبديتموه من لطف مودتكم فالله يرعى تلك الصحة ويلحظها ويديم هذه المحبة ويحفظها وقد أوضحتم أن سلفنا السعيد المنتقل إلى رحمة ربه المجيد ضاعف الله حسناته وأحله أعالي جناته كان قد جعل فلانًا وكيلًا في رؤية أموركم البهية على منهج السداد ونحن أيضًا قررناه

في هذه الوظيفة وأوصيناه بالاهتمام فيما يتعلق بتلك الحضرة الشريفة وسيجد منا في ذلك حسن المساعدة ودوام التسهيل والمعاضدة ثم ما تكرمتم بإرساله كريم خطابكم على يد القاصدين الواردين من عالي جنابكم قوبل بقبوله عند وصوله والمبعوث مع القاصدين المذكورين لناديكم الكريم ما هو موضح في البطاقة المطوية مع هذا الرقيم والمرجو أن تتصل بيننا روابط الود على الدوام كما جمعتنا علاقة الإخوة في الإسلام، وصلى الله عليى سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وأصحابه الأعلام غيوث الأفضال وغايات الكمال.

ومما ينبغي أن لا تقصر العناية به عن العناية بمقابلة هذه المداعبات والمفاكهات الجارية بين الإخوان لما فيها من تأكيد الود وبسط النفوس وإطراح مؤنة التحفظ كما قيل:

فيَّ انقباض وحشمة فإذا ... لاقيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها ... وقلت ما قلت غير محتشم

وتمثيل ذلك ما صدر عن هذا الأمير على لسان بعض أعيان تجار الوقت يخاطب أحد الأمراء وهو هذا.

المعروض على ساحة سيدي الأمير لازالت عيون الإقبال لحماء نواظر ورياض الآمال بنداء نواضر ونسائم البشائر بطيب أخباره خواطر وسحائب المفاخر بحسن آثاره مواطر، أني وإن كنت من قديم الزمان خليع العنان أجري مع أبي مرة شريكي عنان وفرسي رهان لا أرى صهوة خلاعه إلا كنت راكبها ولا ذروة رفاعة إلا تسنمت غاربها ولا موارد لذة إلا استطبت مشاربها ولا داعية شهوة إلا قضيت مآربها ولا سوق فسوق إلا كنت كنقيبها ولا حانة مجانة إلا خرت أوفر نصيبها ولا غاية عماية إلا

كنت لها من السابقين المقدمين ولا راية غواية إلا تلقيتها باليسار وباليمين أي: تفوقًا على عراية الذي يقول مادحه:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

إذا حيعل داعي الفلاح قلت: حي على الراح وإذا أقاموا للصلاة والصلاح قمت للأقداح في أكف الملاح، فما ذكر الفرح إلا ذكرت ولا حضر القدح إلا سكرت ولا ورد الطرب إلا وردت ولا شهد الخير إلا شردت فلولا أن إبليس وهو إمام الخلاعة ورئيس الجماعة في هذه الصناعة وعد بالخلود وأنظر إلى اليوم الموعود لجعلني من بعده وصيًّا كما اتخذني صفيًّا وكان لي وفيًّا وبي حفيًّا؛ بل لو أنصف وخالف هواه وترك الكبر وهو أول بلوه لاتخذني له معلمًا وقام بين يدي متعلمًا:

إذا لعلمته من أصل صنعته ما لم يكن قد يأتيه على بال

هذا من ألطف أنواع الحل وأدقها وكنت عزمت على إيراد أمثلة له؛ ولكن اكتفيت بالإشارة وفيها للبيب غني فإن هذا الكلام مختلس معناه اختلاسًا أدبيًّا صناعيًّا من قول بعض السلف:

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من
فلو مات قبلي كنت أحدث بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ومن أراد استيفاء الاطلاع على أنواع الحل والاستعانة ببسط معاني الآية والحديث والشعر فلابن الأثير في ذلك رسالة أورد فيها تلك الأنواع من إنشائه وهي موجودة بدار الكتب الكبيرة رجع القول ولكنني الآن قد تنسكت فيمن تنسك وتمسكت بطيب إذ بال التقى فيمن تمسك.

وقلـت للقلـب كـف وارجـع   واحـذر مـن النـار أن تمسك

فأنا الآن باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله بين خشوع وخضوع وسجود وركوع وصلاة وصلاح ونجاح وفلاح وأوراد وأذكار وبركات وأسرار، لا أعني أسرار الشيرة فقد تركت هذه العشيرة وإنما هي أسرار الأنفاس وإن كانت هذه أيضًا لا تخلو عن إلباس، والحاصل أني لزمت الخير والتقوى وتمسكت من طاعة الله بالسبب الأقوى فمن رأى الآن صلاح شأني لم يشك أن أبا نواس إنما قال عن لساني:

ارعـوي بـاطلي وأقـصر جهلـي   وتبـدلت عفـة وزهـادة

لـو تراني ذكرت بي الحسن البصـ   ـري في حـال نسكه أو قتـادة

مـن خـشوع قرنتـه بنحـول   واصـفرار مثـل اصـفرار الجـرادة

التـسابيح فـي ذراعـي والمـصـ   ـحف في لبتـي مكـان القـلادة

فـإذا شـئت أن تـرى طرفـة تعـ   ـجب منهـا مليحـة مـستفادة

فـادع بـي لا عـدمت تقـويم مثلـي   وتفطـن لموضـع الـسجادة

تـر أثـرًا مـن الـصلاة بـوجهي   تـوقن الـنفس أنهـا مـن عبـاده

لـو يراهـا بعـض المـرائين يومًـا   لاشـتراها بعـدها للـشهادة

خاطب الحسن بن هانئ أبو نواس بهذه الأبيات الفضل بن الربيع الوزير وكان حبسه يستتيبه رجع فهذه الآن حالي وإن كانت تستغرب على أمثالي ترى علي سيما الأبرار وعلائم المتقين الأخيار السبحة في كلتا يدي والسواك خلف أذني وزبيبة الصلاة بين عيني والدراويش حوالي ووجهي من نور العبادة كأنما دهن بالزيت، وأنا من البيت إلى الجامع ومن الجامع إلى البيت أقوم الليالي إلى الأسحار في ذكر واستغفار

وأطواف بالنهار على مقامات آل البيت الأطهار؛ ليسعف الله رجائي ويقبل صالح دعائي في حسن عودتكم سالمين مع الموكب الشريف رافلين في ظل الإقبال والسعادة والتشريف؛ فهذا غاية المسئول ونهاية المأمول.

وما صدر عن السيد الشيخ الفاضل الجليل على أبي النصر واتفق أنه كان جالسًا مع بعض أصحابه على دكان فورد عليهم كتاب سلام من صاحب لهم غائب وكان عند سفره إلى طندتاه استعار برذعة ولجامًا فكتب الشيخ جواب ذلك الكتاب وهو هذا:

سلام ألذ من أكل البرسيم وتحية ألطف من الربة عند البهيم وأشواق ربيعية ومحبة دائمًا غليظية إلى صاحب الطبيعة الشاخرة الناخرة معدن الأنقاط المتكلم في القماط من يعمل للسماك المفرود والمتنبي أحد إخوانه الشيخ على الحسنى بلغه الله من الريف أمله ورده إلى المحروسة على عجله آمين آمين بجاه درب التراسين موضع فجوز بتلك الناحية كدرب القمر.

أمًا بعد فقد ورد عزيز جوابكم الشريف المشتمل على أنواع التخريف فعلمنا أنكم من حظ الفلاحين في قرار مكين فحمدنا الله على ذلك وسألناه أن يفتح لكم أوسع المسالك ومن عندنا جميع الإخوان يشير إلى غفلتكم بأطراف البنان سيما أخيكم علي رضوان التأثب بعد غيبتكم عن اليونان لقب للحشيشة اصطلحوا عليه وكذا سيدي مصطفى السيوفي فهو يخلع عليكم نصف قياس منوفي وكذا سيدي محمد عربية قد أمر لكم ببوظة الداودية، وكذا سيدي خضر شويش فقد برر لكم في دكاكين الحشيش ومن خصوص البرذعة واللجام فقد رأيناكم لابسيهما في المنام فحصل عندنا وسوسة شيطانية وتعجبنا في طبيعتكم الحمارية، ونسأل الله

القريب المجيب أن يعيدكم إلى المحروسة عن قريب أذكر أيها الطالب قول الطغرائي:

حلو الفكاهة مرّ الجد قد مزجت ... بشدة البأس منه رقة الغزل

وقول البحتري:

الجدّ شيمته وفيه فكاهة ... سمح ولا جدّ لمن لم يلعب

ولنعد لنقل شيء من جدّيات ذلك الأمير فمن ذلك (ما كتبه من بعض الأمراء إلى الشيخ الفروسي شيخ الجامع الأزهر رحمه الله).

أهدى من التحية أسناها ومن الأثنية حسناها إلى حضرة شمس سماء المعارف وظل الفضل الوارف بحر الكمال وينبوعه ومفرد المجد ومجموعه مقتدى الأنام وشيخ مشايخ الإسلام أطال الله بقاء حضرته وسرنا بأخبار صحته آمين.

وبعد لثم راحتكم والتماس بركات دعواتكم أنها لحضرتكم البهية أني لما تشرفت بالمثول لدى الحضرة السنية الخديوية قمت عن جنابكم مقام الاعتذار عن الحضور والتهنئة بما يسره الله من هذا الحبور فقوبل ذلك بما هو المأمول من حسن الإقبال والقبول وظهر من الجناب العالي التأسف على توعك مزاج حضرتكم والدعاء إلى الله تعالى بتعجيل شفائكم وصحتكم وقال: أرجو من الألطاف الإلهية والمكارم الربانية أني عند وصولي لمصر المحمية يكون قد زال عن حضرة الأستاذ ما عرض من المرض وحصل من مزيد العافية والصحة على الغرض فأحظى بلقائه وأسر بشفائه فبادرت بترقيمه إشعارًا بذلك لحضرتكم واستفسارًا عن حال

صحتكم ودمتم في مسرة وحسن حال حلية لأجياد المعالي وتاجًا لهامة الكمال. (وكتب).

مولانا الأعز الأكرم المعظم المفخم حفظه الله:

أهدي بديع سلام تتكفل بشرح تلخيص المحبة مبانيه وتتضمن بيان مطول الوجد والمودة معانيه وأشواقًا يقل البيان عند تبيان أطولها ويكل البنان عن إيضاح مفصلها ومجملها مع دعاء يحلو إطنابه وإيجازه وينتهي بفضل الله إلى حقيقة الإجابة مجازه.

وبعد فإن الداعي قد شرع منذ مدة من الأيام في كتابة شرح الأطول على التلخيص للفاضل العصام غير أن النسخة التي عثرنا عليها ووصلت يد الأفكار إليها رأيناها قد هدم التحريف معمور أبياتها وأطفا التصحيف نور مشكاتها بحيث لا يجد الذهن لباب فهمها مفتاحًا ولا يرى الساري في دياجي غلطاتها مصباحًا يقول رائيها حين يجد معاهدها تغيرت وبدا عليها االدثور هذه دراهم أقفرت أم زبور رمحتها الدهور وقد أخبرنا غير واحد أن عندكم نسخة صحيحة من مخلفات حضرة الأستاذ الوالد فالمأمول من همتكم والمسئول من حضرتكم التكرم بإرسال تغييرة من أول الكتاب المذكور ليكون لكم بذلك جزيل الثواب والأجور على يد أخينا الشيخ فلان حامل هذه التذكرة، أسبغ الله عليكم من الإحسان أتمه وأوفره. (وكتب):

سلام يسفر عن خالص الوداد ويخبر عما في الفؤاد من كمال المحبة والاتحاد إلى فرع الدوحة العلية المحمدية وثمرة الشجرة المباركة النبوية

سلالة الأشراف السادة وصفوة أهل المجد والسيادة حفظ الله حضرته وأدام بهجته ومسرته آمين.

وبعد فإن الإطناب في وصف تشوقي إلى حضرة السيد أدام الله علاه وزان جيد المعالي بحلاه من قبيل تحصيل الحاصل وتوضيح الواضح بغير طائل، فحسبي أن أكتفي في هذا الشأن بشهادة ذاك الضمير المنير فإنه ينظر بنور الله تعالى ما يضيق عنه نطاق التعبير، وبينما هذا المحب مشغول اللسان بالثناء على تلك الحضرة مشعوف الجنان بما يرد من إخبار المسرة وردت مكاتبة سيادتكم فشكرت المولى على صحة سعادتكم وعلمت تفضلكم علينا بالدعوات الخيرية في تلك الأماكن العلية وهذه منة جليلة يجب شكرها ومنحة جزيلة لا يجهل قدرها ولا بدع، فإنكم بضعة النبوة ومعدن الكرم والفتوة بكم تستمطر سحائب البركات وتستفتح أبواب الخيرات وبجدكم يتشفع في يوم المحشر وبأسلافكم الأماجد يستسقى من الكوثر فلا عدمنا تلك الأخلاق العلية ولا حرمنا هذه المكارم الهاشمية ثم إنني نبركة دعواتكم أحمد الله على الصحة والسلامة وأسأله أن يديم علينا وعليكم إنعامه وقد بادرت بتحرير خطابي هذا وأنا أحسده على وصوله لذاك النادي المبارك قبلي وأود لو أني أكون مكانه لأقضي من مشاهدة ذاك المحيا أملي وغاية رجائي أن لا تنسونا مما عودتمونا من الأدعية الصالحة وتلاوة الفاتحة بين يدي حضرة سيد الأنبياء المكرمين والرحمة العامة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وجميع المنتمين إليه، ثم في باقي ما ترددون عليه من الأماكن الطاهرة والمواطن المشرفة الباهرة التي لا يمتد كف الثريا إلا للثم ترابها ولا ينحني ظهر الهلال إلا لتقبيل أعتابها وكل ما يلزم لحضرتكم من هذا الطرف رهين الإشارة والإعلام ومني لناديكم الشريف مزيد التحية

والسلام. (وكتب من الجناب الخديوي أيام نيابته عن عمه المرحوم سعيد باشا صورة فرمان)

صدر هذا الفرمان الواجب طاعته اللازم امتثاله ومتابعته خطابًا إلى كافة القضاة والحكام والعلماء الأعلام والمشايخ والعمد بالأقطار السودانية من الحكومة العلية المصرية ليكن معلومًا لديكم بوصول هذا إليكم أنه قد اقتضت الإرادة السنية الخديوية بنصب فلان حكمدارًا على عموم الأقاليم السودانية لما هو معلوم فيه من الصداقة والأهلية وحسن الروية والإدارة السياسية فينبغي أن تطيعوا أحكامه وتقابلوا بالسمع والطاعة كلامه وتنفذوا لأوامره ونواهيه وتمتثلوا لما يبديه مما يوافق الأوامر العلية والأصول والقوانين المرعية وبادروا بأداء كافة المطاليب المبرية في أوانها وعدم تأخيرها عن أوقاتها لتفوزوا بزيادة الرضا عليكم وحسن النظر والالتفات إليكم، وأنت أيها الحكمدار عليكم باتباع التقوى فإنها لحصول كل خير هي السبب الأقوى وعامل الناس بالعدل والإنصاف واجتنب الجور والاعتساف واستعمل الرشد والسداد وابذل غاية الاجتهاد في معمورية البلاد ورفاهية العباد ونجاز الأشغال الميرية وحسن إدارة الحكمدارية ورؤية جميع المصالح على مقتضى الأوامر والأصول والقوانين واللوائح والاعتناء براحة البرية وحسن سياسة الرعية، فإن الخلق في أيدي الحكام وديعة الله سبحانه فمن أكرمهم أكرمه ومن أهانهم أهانه، فاعلم ذلك واتبع أحسن المسالك لتفوز بحسن حالك ومآلك وبلوغ غاية آمالك، تحريرًا في كذا سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف من هجرة المبعوث بأحسن وصف عليه أكمل الصلاة وأتم السلام ما لاح بدر تمام وفاح مسك ختام.

(وكتب عن بعض الأحبة في جواب كتاب بوصول هدية)

إن أبدع ما رقمه بنان البيان وأبرع ما نظمه لسان الافتنان وأبهر ما سمعته آذان الأذهان وأزهر ما طالعته عيون الاستحسان سلام بفوح طيب الود من نفح عبيره ويلوح نشر الوجد من طي تعبيره وثناء يجاري نسمات الصبا بلطف الشماء ويباري زهرات الربى بظرف الغلائل مع شوق يقصر عن وصفه لسان التقرير ويضيق عن نصفه نطاق التحرير إلى حضرة جمال الدين والدنيا وتاج هامة المجد والعليا الفائز من الشرف الأعلى بالقدح المعلى لا زالت ثغور السرور باسمة إليه وظلال الإقبال دائمة عليه.

وبعد فما روضة رعت النسائم زواهر أغصانها ودوحة وشحت الغمائم بواهر أفنانها فباحت فيها الحمائم بترديد أشجانها وصدحت البلابل بتغريد ألحانها واختالت الأشجار من در زهرها فضة غدرانها بين حلي خلاخلها وتيجانها بأبهى منظرًا ولا أشهى خبرًا ومخبرًا ولا ألطف موقعًا ولا أظرف مسمعًا من كتب استكملت أنواع المسرة بوروده واقتطفت في حدائق المودة أزهار وروده قد جرى به ماء الفصاحة غير آسن وجمع أشتات الملاحة والمحاسن من كل لفظ أحلى من الشهد وألذ من طيب الكرى بعد طول السهد، وقد وصف بعض ما أكابده من آلام الفراق ولواعج الأشواق فكأنما عبر به عن لسان حالي وإن قصر دونه لسان قالي ووصل معه ما تفضلتم بإهدائه وتكرمتم بإسدائه مما هو أثر الوداد وثم محبة الفؤاد فالله تعالى يمتع بقربكم قلبًا يتقلب في حبكم ويسر بدوام بقائكم روحًا ترتاح لطيب لقائكم، ثم الرجا أن لا تنسونا من مراسلات الوداد التي يطمئن بها الفؤاد فذلك غاية المأمول ونهاية المسئول.

(وكتب رسالة ودادية تتضمن التهنئة بالعيد)

وصلنا إلى المحروسة بحمد الله تعالى وبركات توجهات سعادتكم وحسن أنظار سيادتكم ونحن نتلو من محامد إفضالكم وما يخجل الدرر في أسلاكها ونبث من محاسن خلالكم ما يزرى بالدراري في أفلاكها، وقد صدرت هذه المكاتبة عن يد ممتدة إلى الله تعالى في الدعاء بدوام معاليكم وناظر لا ينتظر إلا لما يرد من نحو ناديكم وقلب لا يتقلب إلا في محبة ذاك الجناب العالي وخاطر لا يخطر فيه غير تذكر تلك الهمم العوالي فعسى تنوب عني هذه الرقيمة فيما أحسدها عليه من المثول بذلك النادي والوصول إلى لثم تلك الأيادي الباهرة الأيادي والتهنئة بالعيد السعيد المترقب قرب إقباله، أبقى الله سيدي إلى آلاف أمثاله ممتعًا بدوام قبوله وإقباله رافلًا في حلل فضله وكماله ثم إن لزم لسعادتكم خدمة بهذا الطرف فإن لنا في قضائها غاية الشرف والأمر أمركم.

(وكتب تهنئة بمولود)

سلام على سيدي الأعز سلمه الله وأسعده وأكثر بفضله عدده وحفظ له ما وهب من نعمة وخوله المزيد من فيض كرمه وقد حظيت بكتابه المبشر، والحمد لله بصحة جنابه واستقامة الأحوال لديه وترادف نعم الله سبحانه عليه وما منحه من المولود السعيد القادم عليه إن شاء الله بالرزق الجديد والعمر المزيد فاستوفيت حظي من هذه البشائر موفى موفرًا ووجب عليّ الشكر لله سبحانه وتعالى مضاعفًا مكررًا وابتهلت إليه تبارك خيره ولا إله غيره في أن يدوم على سيدي من نعماه ويزيده من وافر عطاياه ما يديم سروره وسروري لحضرته على حسب حظي من محبته واندراجي في جملته، وأن يبارك على هذا النجل النبيل والنسل الأصيل

ويمنحه العمر الطويل والخير الجزيل ويبقى سيدي أدام الله علاءه وأطال بقاءه حتى يرى الكثير من أولاده والجم الغفير من أحفاده ممتعًا بالسلامة وكمال الكرامة والمرجو من سيدي أدام الله سروره ويسر أموره أن يواصل تعريفي بما يتجدد من سائر أخباره لأشركه فيما يقتضيه وإعلامي بما عساه يسنح من هذا الطرف من أوطاره لأفوز بالانتهاء لغاية استطاعتي فيه موفقًا إن شاء الله تعالى.

(وكتب في تعزية)

. يعز عليَّ أن أكاتب سيدي معزيًا أو ألمّ به في ملمة مسليًا ولكنه أمر الله الذي لا يقابل بغير التسليم وقضاؤه الذي ليس له عدة سوى الصبر الكريم، وقد علم مولاي أجمل الله صبره ولا أراه من بعد إلا ما سره وشرح صدره إن الله جلَّ ثناؤه وتباركت آلاؤه إذا امتحن عبده فصبر آجره وعوضه بكرمه كما أنه إذا أنعم عليه فشكر زاده وضاعف له من نعمه، وقد عرف من حال سيدي في الشكر على السراء ما يستوجب المزيد منها والظن بحزمه وعلمه أن يكون حاله في الصبر على الضراء يستجلب الأجر عليها والتعويض عنها، ثم نحن إذا أمعنا في التفكر ووفينا هذا الأمر حقه من التدبر رأينا أننا ولو تأخرت آجالنا وطالت آمالنا لسنا في دار المقامة وقرار الكرامة حتى نحزن على من فارقها وزايلها ولكنا في سبيل سفر ودار كدر يحق والله أن نغبط من رحل عنها وزايل غوائلها فأجملنا حالًا أسرعنا ارتحالًا وعلى كل حال الجزع لا ينفع وإن أغضب الله سبحانه والصبر لا يضر وإن جلب رضوانه وإحسانه والله يسهل لسيدي سبيل الصبر وتحصيل الأجر ويعصمه من شوارد الوزر ومكائد الدهر

ويتولى الماضي بالرحمة والإنعام والبر والإكرام ويحسن مثواه في دار السلام وينعم له عند نزول الحمام وانتهاء الأيام بحسن الختام.

(جواب عن كتاب عتاب)

ورد كتاب سيدي أرشده الله وأسعده ولا زال مساعده ومسعده يشكو من جفائي وقلة وفائي ما بسط فيه لسانه وأطال به أيده الله بيانه وأدى حقه من البلاغة أداء متفنن متمكن وذهب فيه من سحر الكلام كل مذهب ممكن وغير ممكن حتى أنني لقوة تخييله وتصويره وفرط براعته، أيده الله في حسن تعبيره كدت أتوهم أني فعلت ما لم أفعل من الذنب وأنني استوجبت ما أورده أعزه الله من العتب فلما لفحني حرّ المعاتبة وخشن عليّ ملمس المخاطبة وأخذ مني اللوم مأخذه إيلامًا وبلغ بي مبلغه إنكارًا وإعظامًا أردت ان آخذ لنفسي بالحجة والدلالة على سواء المحجة لولا أني رجعت فذكرت أن مولاي أعزه الله وإن ركب من المغالطة في هذه المكاتبة خلاف رأيه وسلك من المواربة في هذه المعاتبة خلاف مذهبه إلا أنه بجلية الأمر أعرف وأعلم ومن أن يلتبس عليه الحال بالمحال أحزم وأحكم؛ وإنما حمله على هذه الطريقة مع كمال علمه ومعرفته بالحقيقة قصد المبالغة في تبرئة ناحيته ودفع اللوم على أن يلم بعلي ساحته وقدر أنه خلص من هذه القضية كفافًا لا له ولا عليه فقد ربح السلامة بما عساه أن ينجر من الملامة إليه فإن كان هذا مبلغ ما توخاه من ذلك المنحى الذي نحاه فأنا لا أقنع له من النصر بذلك القدر النزر بل أحب أن تكون الغلبة له كاملة غير منتقصة ونصرته حرسه الله مهنأة غير منغصة فأنا أخاصم نفسي من جهته وأعارضها بمحبته وألزمها أن تنزل على حكمه وتنزل إلى سلمه وأعترف له بجميع ما أجمله وفصله اعترافًا يزيل الشقاق

ويرد الوفاق، ثم أسأله أن يعفو ويصفح عارفًا بأنه إذا مالك أمجج وإذا قدر عفا وأصلح فإن فعل ذلك فقد فاز مع لذة الظفر والنصر بما يرجوه على العفو من حسن الثواب والأجر وفزت أنا في الجملة بتحصيل رضاه وعدم الخروج عن موافقة هواه وانفصلنا عن القضية وكلنا فائز بسهمه راض بما حصل في قسمه وإن أبى إلا أن يناقشني الحساب ويتمادى حرسه الله على ذلك العتاب فلن يعدم داعيه في معرض الجدل شبهة إذا لم يجد حجة، وقد جاء في المثل: لا تعدام الخرقاء حيلة، وما أظنه يراني أقل من هذه درجة فليختر لنفسه ما يراه أقرب إلى الصواب وليتفضل على داعيه وحبه وراجيه بالجواب موفقًا إن شاء الله تعالى آمين يا رب العالمين.

(وكتب تقريظًا لصحيفة الوقائع المصرية حين)

(أصلح أمرها بعد سابق اختلال اعتراها)

لا ريب أن كل من عرف التمدن وشم عرف التفنن وأخذ بنصيب من الفهم والتفطن كان أحب شيء إليه وأوجب أمر لديه أن يكون مطلعًا على وقائع مصره عارفًا بما تجدد بين بني عصره من حوادث الزمان وعجائب عالم الإمكان وما هو صائر في الممالك المتمدنة ودائر بين الملوك المتمكنة وما هو جار بين الدول المتفقة والملل المتفرقة من عهود تجدد وشروط تؤكد وآثار تغير وصعاب تيسر وما بينهم من نزاع ومقاتلة وخداع ومخاتلة وسكون وهدنة وحركة وفتنة وما حدث في أحوال التجارة وأمور السياسة والإدارة وما أبدته فحول العقلاء في مجامعها وما استبدأته عقول النبلاء من بدائعها وما ظهر من روائع الصنائع وعوارف المعارف وطرائف اللطائف فتتسع دائرة اطلاعه ويمتد إلى المعالي طويل باعه ويعرف

العوائد مذمومها وممدوحها ويميز الآراء راجحها ومرجوحها فيجتني ثمرات الأفكار ويقتني محاسن الآثار ويمتع وهو مستريح بنتيجة ما تعب فيه غيره الليل والنهار ويكون كأنما طاف مشارق الأرض ومغاربها وجرب جميع الأمور ودرى عواقبها فلا تكاد تنزل بساحتها حادثة إلا وقد أحاط علمه بنظيرها وعرف غاية مصيرها وكيف يفتتح باب النجاح في حسن تدبيرها، إلى غير ذلك من المنافع الجمة وغرر المحاسن المهمة التي يقصر عن حدّها اللسان ويقصر في عدها البيان ولا مرية في أن صحف الأخبار هي الحافلة بهذه المزايا الكافلة باستخراج فرائد الفوائد من خبايا الزوايا فهي جهينة الأخبار وخزينة ذخائر الأفكار وصيقل الأذهان ومرآة حوادث الزمان، وهي الجليس الذي تعجب نوادره والأنيس الذي يطرب حديثه من يسامره والخليل الذي لا يستر منك أمرًا ولا يخبأ عنك خبرًا ولا خيرًا والنديم الذي لا تخاف عربده والصاحب الذي تسرك مودته وهي السائح الذي يطوف البلاد ويأتيك بأخبار العباد ويعرفك أحوال زمانك وأنت لا تبرح من مكانك ثم مؤنته هينة ومعونته بينة تنتفع منه وتستفيد ولا تصرف عليه في العام غير شيء زهيد فالنجباء من الناس لا يفترون عن هذه اللطائف ولا يفترون من مطالعة تلك الصحائف وقد كانت صحف الوقائع المصرية في الممالك الإسلامية من الصحف الأولى الراقية من مراتب الإجادة والإفادة إلى الدرجة الأولى ثم عدت عليها عوادي الزمان فبقيت في حضيض الإهمال تحت ذيل الهجران حتى نسجت عليها عناكب النسيان إلى أن أعادها معيد رسوم المعارف بعد اندراسها وباني بيوت المعالي على محكم أساسها بدر فلك الحكومة المصرية وشمس سمائها الماجي بأنوار همته السنية حنادس ظلمائها المقتدى بوالده الماجد وجده الكريم سمي سيدنا إسماعيل بن

إبراهيم أبقاه الله ذخرًا للفضل وأهله ولا برحت مصر معطرة الأرجاء بأريج عدله إلا أن الصحيفة المذكورة لم تعد في النشأة الآخرة إلى حالها الأولية حتى لقد بقيت مدة من الزمن خالية عن الأخبار الأجنبية وكثير من الحوادث الداخلية وتالله لقد كنا ننظر إليها نظر المتأسف وننتظر إصلاحها انتظار المتلهف ونراها بحال عليل كل من رنا إليه رثي إليه وكلما أبصره أهله تمنوا أن يقضي له الشفاء أو يقضي عليه، ولما كان ما بها من تلك الحالة على ضد المقاصد العلية الداورية ولم تزل العناية السنية منعطفة لتقدم أحوال هذه الديار المصرية وكان ممن يعلم ذلك حق يقينه الأمير الجليل الذي لا يسمح الزمان بقرينه العلم المفرد في العلم والأدب ومعالي الهمم البارع المتقن المتفتن في لغة العرب والترك والعجم وحضرة أحمد بيك خيري مكتوبي الجناب الداوري اهتم بتحسين هذه الصحيفة وإصلاحها، وأشار مأسورها بما يكون فيه حسن نجاحها وساعد على إنفاذ هذه النية السنية صاحب المعارف الباهرة والأفكار الزاهرة والهمم العلية حضرة محمد شريف باشا ناظر الأمور الداخلية والخارجية والمدارس المصرية فعادت كما بدت وأحسن بهمة المشار إليهما وغدت بلسانها الفصيح تثني على الجناب الأكرم الخديوي ثم عليهما وناهيك بإزالة ما كان في وجهها من الخط الثقيل واستبداله بما تراه الآن من الخط الجميل الذي صار في مطلعها براعة استهلال، لما قد انتقلت إليه من لطف الأسلوب وحسن الأحوال فوجب على أهل الوطن العزيز وأصحاب المعارف والتمييز أن يشكر، وأفضل هذه الهمم الخيرية بعد خير الدعاء للحضرة الداورية فإنها الأصل الأصيل في الإصلاح والمرشد الدليل إلى سبيل النجاح ونرجو من محرر هذه الصحيفة ومأمورها والقائمين بإدارة أمورها أن لا تزال راقية في مدارج الكمال رافلة في حلل

الحسن متحلية بحلي الجمال فائزة بسلوك جادة الإجادة حائزة براعة العبارة وكثرة الإفادة بحيث تكون حلاوة مبانيها وطلاوة معانيها ولطف أساليبها وظرف تراكيبها أنموذجًا لمن يتعلم حسن التعبير والتقرير ومثالًا يقتدى به من يروم تحبير التحرير مع استيفاء الأخبار الداخلية وما يلزم من الحوادث الأجنبية وإنباء الإخوان من أبناء الأوطان بما يعود عليهم نفعه ويعظم لديهم وقعه وإرشادهم لما يفيدهم مزيد التقدم في التمدن وتنبيههم على ما يقبح من العوائد وما يحسن؛ وإنما قلت ما قلت وأكثرت في هذا الرجا وطوّلت لأن في مأموري هذه الصحيفة أهلية لما أملت والمأمول من سكان الديار المصرية ولا سيما أهل هذه الحاضرة البهية أن يقبلوا على صحائف الوقائع ويلتفتوا إليها ويرغبوا في مطالعتها ويحرصوا عليها ويتبعوا ما ينبهون عليه من الأمور النافعة والعادات الحسنة ليكونوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أليس هذا أولى من الأمور العبثية كالعكوف على الملاهي وسماع القصص الخرافية مثل ما اشتهر من قصة سيف بن ذي يزن وحكاية عنترة والظاهر وإبراهيم بن حسن وأمثال ذلك من الحكايات التي أكثرها أكاذيب وتمويهات وأسوأ من ذلك حالًا قوم ينتدبون للمشاجرة فيما شجر بين الصحابة ويتجاذبون اختلاف الخلاف فيما ينسبون لبعض هذه العصابة من الخطأ والإصابة على أن بعضهم لا يعرف وجه ما يخوض فيه ولا يدري على الحقيقة كنه ما يخرج من فيه، وإنما هو تقليد بلا دليل وخبط على غير سبيل لا سيما والتواريخ مضطربة الأقوال على حسب اختلاف الأغراض والأحوال ولا ثمرة للخلاف ولم نكن حاضري المصاف فيا ليت شعري أي معنى في هذا العناء الباطل وأي طائل وقد نهانا عن الخوض في ذلك أكابر العلماء الأفاضل وهل ذلك لزعم مثوبة أخروية أم لتوهم فائدة دنيوية إن كانت

الأولى فعندنا ما هو أولى مثل دراسة كتاب الله القديم وكلام نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم وعلى أهل بيته الطيبين الأطهار وصحابته الخيرة الأبرار ومثل تعلم أصول الدين وعقائده والاشتغال بمعرفة آدابه الشريفة وقواعده إلى غير ذلك من الأعمال الفاخرة الجالبة خيري الدنيا والآخرة، وإن كانت العلة الحاملة حصول الثمرة العاجلة فثم مسالك أقرب لذلك كاجتهاد الإنسان في نحو تجارته وزراعته واهتمامه بازدياد براعته في صناعته والتوسل إلى توسيع دائرة المدنية بالجد والجهد في الفنون والمعارف الإنسانية وعقد الشركات في الأمور النافعة والاستعانة باجتماع الأيدي على اجتناء ثمرات الريح اليانعة فإنه يتهيأ للاثنين ما ليس للواحد به استطاعة وحسبك بما ورد: يد الله مع الجماعة، وبالجملة فإن في الشركة من عظيم الخير والبركة ما تشهد به العينان ولا حجة أكبر من العيان ألا ترى إلى هذه الشركة المعنونة بالقومبانية العزيزية المصرية المؤسسة في ظل الحضرة الملكية بحسن الهمم العلية الداورية كيف نجحت أسبابها وانتفعت بفوائدها أربابها وسلكت على أحسن سبيل في البحر الملح وفي نهر النيل وكيف صارت عونًا حسنًا على التجارة والسياحة وتسهيل طريق الحجاج بعناية الله الذي مرج البحرين {هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج}، وإنا لنرجو لها مزيد التقدم بجليل همة الجناب الخديوي وجميل إقدامه ونراها كالطفل بانت علائم نجابته قبل إبان فطامه لا شك أنها من حسنات ولي النعم الخديوي الأكرم الداوري الأفخم الذي تعطرت الأفواه بطيب ذكره سنائه وتحلت الشفاه بمكرر شكر آلائه، فأدام الله دولته السنية غرة في جبهات الأعصار كما جعل حكومته العادلة المرضية قرة لعيون الأمصار هذا والمرجو كل الرجا من حضرات أهل المعارف وأرباب الحجا أن لا يبخلوا على إخوانهم بما هو

في إمكانهم من المقالات المفيدة والآراء السديدة والأفكار الناجحة والأخبار الصالحة لتدرج عنهم في صحف الوقائع وتنشر وتسطر في صفحات الأيام وتذكر فقد تعهد مأمور الوقائع بإعلان كل ما يرد إليه من هذا القبيل، والله تعالى يوفقنا جميعًا للخير والرشاد ويهدينا سواء السبيل وقلت مضمنا الشطر الأخير:

وقائع مصر الآن فاقت بحسنها ... وباهت بما جادت به من بدائع
فدونك من عذب الحديث وحلوه ... جنى النحل ممزوجًا بماء الوقائع

وقلت مضمنًا أيضًا:

يا أهل مصر لكم زها نور المنى ... وبدا بكم نور المعالي ساطعا
فقطفتمو زهر الحوادث ناضرًا ... وجنيتمو ثمر الوقائع يانعا

ذلكم أيها الإخوان المنهل الصافي والمورد العذب النمير الشافي، أسأل الله لمنشئه دوام حسن عنايته وإنارة بصائركم بأنوار هدايته من الاتفاق الغريب أن كان جمل حروف قوله تعالى قال: {إني عبد الله آتاني الكتاب} تاريخ مولد هذا الأمير حرسه الله وبلغ به أقصى مناه والتمس من أذكياء الإخوان وكلهم أذكياء أن يحرصوا على دراسة هذا المجموع بغاية الاعتناء ويتخذونه مبدأ للتعليم ومن أراد التوسع بعد فقد عرف الصراط المستقيم وقد أذنت لمن وثق من نفسه أن يوضح ما يراه موضعًا للإيضاح وأن يصلح ما دعى السهو فيه إلى نوع إصلاح والله سبحانه لي ولكم نعم المعين والوسيلة إليه في ذلك سيد المرسلين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين ورضاه عن أوليائهم وسائر التابعين.

يقول أسير الشهوات وكثير المساوئ والهفوات راجي التجاوز عن زلاته وآثامه حسن ابن الشيخ أبو زيد سلامه غفر الله ذنوبهما بمنه وإكرامه وأثابهما جنته بفضله وإنعامه والمسلمين أجمعين بجاه نبيه الصادق الأمين بعد حمد من جعل لغة العرب وسيلة لمعرفة فنون الأدب والصلاة والسلام على أشرف منتخب وآله وأصحابه الفائزين بأعلى الرتب والتابعين المتمسكين من التقوى بأقوى سبب: قد تم بإسعاف الألطاف الجليلة طبع مجموع لفنون الأدب وسيلة حوى من كل علم أحسنه واشتمل على نفائس درر مستحسنه بنات فكر اخترعتها فكرة سليمة وعرائس خدر أبرزتها محاسن كريمة، فهو وسيلة الأدب ومبلغ لتمام الأرب جمعه العلم الشهير البحر الحبر النحرير صاحب البيان الوفي، من به الفؤاد من سقام الجهالة يشتفى، علامة وقته وفريد عصره الشيخ حسين المرصفي لا زال ملحوظًا من الجليل بكمال العناية محفوظًا برعاية الكريم في البداية والنهاية غوثًا يسبح وينزل وبحرًا يفيض ويسترسل والنصح لمن يصل هذا المجموع إليه أن يعض بنواجذه عليه لينال غاية ما يتمناه يفوز بتحصيل ما قد حواه ويخرج من ربقة أسر الجهل ويفوز بدرجة أهل الفضل وليتلق هذا الجامع بحسن قبول ويرجو من الكريم إلى فهم ما فيه الوصول، وكان تمام طبعه وحسن ترتيبه ووضعه بمطبعة وادي النيل البهية بخط باب الشعرية من مصر المحمية في ظل ولي العهد والتوفيق أفندينا محمد باشا توفيق، جعله الله رحمة على العباد وغيثًا مريعًا لكل حاضر وباد وقوّم بعدله حال الرعية وعمم بفضله سائر البرية مصححًا بمباشرة هذا العبد الفقير الكليل الخاطر الكسير أوائل شهر الله رجب الأصم الأصب سنة ١٢٩٦ ست وتسعين ومائتين بعد الألف من هجرة من كان يرى من أمامه كما يرى من الخلف صلى الله عليه وآله

وصحبه وكل منتم إليه ما انتشر مسك ختام وفاح ونادي المؤذن حي على الفلاح آمين.

فهرس